سلسلة الجوائز العالمية

أنياب التنين

نصر

القصة الحائزة على جائزة بولتزر عام ١٩٤٣



تأليف : ابتون سنكلير
ترجمة : الدكتور نظمي لوقا
مراجعة : الدكتورة سهير القلماوي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

أنيابُ التّنّين

القصة الفائزة على جائزة بولتزر عام ١٩٤٣

تأليف

أبتون سنكلير

ترجمة : الدكتور نظمي لوقا

مراجعة: الدكتورة سهير القلماوى

الدار المصرية للتأليف والترجمة

هذه ترجمة كاملة للقصة

DRAGON'S TEETH
BY
UPTON SINCLAIR

في مثل هذه الأوقات العصيبة لا يملك كاتب
مسن ما يقدمه للناس سوى الكلمات • وهـــذه
المجموعة من الكلمات مهـداة الى أولئك الرجـــال
والنساء الذين يضحون فى انحاء كثيرة من العالم
بارواحهـم دفاعـــا عن قضـــية الحرية والكرامة
الانسانية •

سنة ١٩٤١ المؤلف

الكتاب الاول

الصباح يفتح ابوابه الذهبية

الفصل الاول

البداية القديمة

- ١ -

كان « لانى بد » بمفرده فى حجرة استقبال صغيرة الحجم ، جالسا فى مقعد وثير ، وقد تهيأت له كل اسباب الشعور بالراحة الا ان الراحة لم تكن بادية عليه ، فهو يتململ كثيرا ، ويكثر من التطلع الى ساعته ، ثم يفحص اظافره التى لم تكن بحاجة الى ان يلتفت اليها ثم يبحث عن هنات صغيرة من الغزل فى بنطلونه المصنوع من الصوف المغزول غزلا يلائم المنطقة الحارة ، ولما أزال آخر هنة فيه منذ امد أخذ ينظر من النافذة المطلة على جارة من آنق الجارات فى مدينة « كان » ؛ مع انه كان قد الف ذلك المنظر ، وهو منظر لم يطرأ عليه تغيير · وكانت على ركبته رواية شعبية ولكنه كان بين الحين والحين يجد انه لا يستطيع حمل نفسه على الاهتمام بحديث يدور بين نفر من أهل المجتمع الانيق ·

وقد تخترق الحجرة من آن لآخر ممرضة من الممرضات الكثيرات المكتسيات بالبياض · وكان « لانى » قد وجه اليهن اسئلة كثيرة جدا حتى استشعر الخجل من الحديث اليهن مرة اخرى · وهو يعلم ان سائر الازواج يخرج سلوكهم عن نطاق المعقول فى مثل هذا الاوان ، لانه رأى جماعة منهم فى مسرحية فوجدهم مهتاجى الاعصاب وان كان لا ضرر منهم · فكلهم كانوا متململين يتطلعون الى ساعاتهم ؛ وكلهم كانوا ينهضون ويتجولون بغير داع ، وكلهم كانوا يلقون على الممرضات بالأسئلة العقيمة · ولدى الممرضات اجابات مسجلة محفوظة يرددونها بعينها فى

جميع انحاء العالم ، بغير اختلاف الا من حيث اللغة : « نعم نعم يا سيدى ٠٠ كل شيء على ما يرام ٠٠٠ يجب ان تترك الطبيعة تأخذ مجراها ٠٠٠ يلزم لهذا بعض الوقت ٠٠ انها الطبيعة » ٠

وكان « لانى » قد سمع هذا القول الاخير فى منطقة « الميدى » مرارا كثيرة ، فهى صيغة تصلح لتبرير كثير من الاشياء ٠ وقد سمعها بعد ظهر اليوم أكثر من مرة ، ولكنها فشلت فى اقناعه ، فهو ثائر ضد الطبيعة وأساليبها ٠ ولم يكن قد جرب العذاب كثيرا فى حياته الخاصة ، ولا كانت لديه رغبة فى أن يتعذب سواه من الناس ، ولو استشير فى الأمر لوسعه فيما يرى ان يقترح تحسينات كثيرة في اساليب هذا الكون العجيب الاطوار ٠ يا لهذه السنة التى يجرى عليها الكون فى البلوغ بالخلق تخوم الشيخوخة ثم اخراجهم من مسرح الحياة وامداد هذا المسرح بخلق سواهم وانه يعرف أشخاصا عنوا بتدريب أنفسهم وتكميل ذواتهم ، فما أجمل النظر اليهم وما اعلمهم واحذقهم ، ومع هذا فلا مندوحة لهم عن الموت بعد امد غير مديد — وهم اذ يدركون هذا الامر لا مفر لهم من انجاب ذرية جديدة تحتل مكانهم من بعدهم ٠

ان « لانى بد » ينتمى الى الطبقات الميسورة التى لا حاجة بها الى الارتزاق ، وفى وسعك ان تستدل على ذلك بنظرة واحدة الى وجهه الباسم غير المتغضن وبشرته التىلوحتها الشمس تجرى فيها دماء تنبىء عن جودة التغذية ، وشاربه الصغير المحدد وشعره البنى المشذب المصفف باناقة وحلته المتقنة التفصيل الحديثة الكى ، وقميصه ورباط عنقه ، وحذائه وجوربه ، كلها متناسقة ، الالوان غالية الصنف ٠ وقد انقضت فترة من الزمن لم ير فيها دما يراق او يحس بأى انزعاج ، فحياته مرتبة مكفولة على هذا الاساس ٠ ويصدق هذا القول ايضا على زوجته ٠ ولكن ها هى الآن هذه المسألة المزعجة ، هذا العذاب والتوتر الذى طال عليه الامد — يا الهى ! ما جدوى الاطباء ورجال العلم ان لم يكن فى مقدورهم ان يبتكروا شيئا يغنى عن هذا كله ! ما اشبه هذا الامر بثوران بركان فى مجتمع وادع آمن ، انه لا يخفف من هذا كثيرا ان فى مقدورك تدارك الحدث قبل وقوعه فتذهب مقدما الى مستشفى للولادة فتحجز فيه حجرة لقاء كذا من المال فى الاسبوع وتتفق مع طبيب مولد يقوم بالمهمة نظير كذا من النقود ٠

جراح ! رجل تحت يده قدر من الادوات الفولاذية اللامعة على استعداد لمعاونة الطبيعة فى فتح رحم امرأة واخراج وليد صخاب كثير الحركة من احشائها ! لقد بدا ذلك الامر للانى غير معقول حينما سمع به

اول مرة وهو غلام يلهو مع صغار الصيادين هناك على الساحل المطل على البحر الابيض المتوسط يساعدهم فى اخراج مخلوقات عجيبة من البحر ويصغى لحديثهم عن « حقائق الحياة » • وقد بدا له الأمر فى هذه اللحظة بعيدا عن التصديق ـ على نحو ما تراءى له حينذاك تماما ـ عندما علم ان ذلك سيتم في حجرة غير بعيـدة عن مكانه ، وان الضحية رفيقـة صباه الشابة الجميلة التى احبها حبا عميقا • وشغلت مخيلته المتوقدة بالتفاصيل الدامية ، فجعل يقبض يديه بعصبية عنيفة حتى ابيضت مفاصل اصابعه• وارتفع احتجاجه على الطبيعة الى درجة الصياح بينه وبين نفسه : « ايما وسيلة الا هذه ! لتكن أى شيء يتوفر فيه العقل والكرامة ! » وخاطب امه الاولى يسائلها لماذا لم تلتزم طريقة البيض التى يلوح انها مؤدية للغرض على ما يرام بالنسبة للطيور والثعـابين والسحالى والاسـماك ؟ يا لهذه المخلوقات المسماة « ذوات الدم الحار » اما أكثر دمها الذى تريقه بكل سهولة !

- ٢ -

وكان « لانى » يعلم ان « ايرما » لا تشاركه هذه المشاعر ، فايرما « امرأة عاقلة » لا تقضـها التخيـلات المسرفـة • وكثيرا ما قالت له : « لا تضطرب ، سأكون على ما يرام ، فهذا أمر لا يدوم الى الابد » • وكل انسان كان يرى أن «جونو» (١) الشابة هذهخلقت للأمومة ،امتطتصهوات الخيل ، وسبحت ، ولعبت التنس ، ولها جسد فائر ، ولم يكفهر لونها عندما اجتازت عتبة هذه المستشفى ، بل ولا حينما سمعت صرخات النساء الاخريات فالامور دائما تمضى على ما يرام بالنسبة لايرما بارنز ، وهى قد طلبت من « لانى » ان يعود الى الدار فيعزف على البيانو وينسى امرها ، ولكنه ها هنا جلس وراح يعمل ذهنه فى التفصيلات التى كان قد اطلع عليها فى مقال بدائرة للمعارف عنوانه « علم الولادة » ، فمنذ يفاعته وهو يألف الرجوع فى أمور كثيرة الى هذا المصنف الجدير بالركون اليه • ولكن المقال ـ تبا لكل شيء : ـ خصص حيزا اكبر مما ينبغى «للنزول بالمؤخرة» وغير ذلك من الاوضاع الشاذة ، فكان خيرا للانى والحال هكذا لو انه دخل

---

(١) جونو زوجة كبير الارباب جوبيتر وحامية الزواج عند الرومان • (المترجم)

حجرة الولادة فعلا · وكان يؤثر ان يدخل ، ولكن ذلك كان حريا ان يعتبر مخالفة خارقة جدا للمالوف فى هذا البلد الحريص على العرف المتداول فى صرامة ·

وهكذا جلس فى حجرة الاستقبال الصغيرة ، بين الفينة والفينة يتفصد جبينه عرقا مع أن اليوم كان من أيام الربيع الرطبة على شاطىء الريفيرا · وسره ان تكون الحجرة خالصة له ، وحينما كان يخترقها احد كان لانى يخفض بصره الى كتابه ويتظاهر بالاستغراق فى القراءة · فان كان القادم احدى الممرضات لم يستطع رد نفسه عن استراق نظرة اليها ، على امل ان تكون هى الممرضة المنتظرة فى اللحظة المرتقبة ، وتبتسم المرأة لان العرف يسمح لها بالابتسام لسيد شاب وسيم ، ولكنه لا يسمح لها بالدخول معه فى تفصيلات علم الولادة · وتقول له بالفرنسية : كل شيء يمضي على خير وجه يا سيدى · اطمئن بالا » · ففى مثل هذه الاماكن تدور عجلة الحياة وفق جدول منتظم ، ومن يديرون آلتها يكسبون سلوكا مهنيا، وتغدو عباراتهم مقننة بحيث تخرج انتاجا وفيرا من التهذيب ومن الاطفال على حد سواء ·

- ٣ -

ودعي «لانى بد» الى التليفون وكان المتكلم بيترو كورساتى الامريكى الايطالى المولد الذى يمثل صحيفة نيويوركية فى روما ويقضى عطلته الآن على شاطىء الريفيرا · وهو قد ادى ذات مرة خدمة للانى ، ووعده بخدمة مقابلها الا وهى أن يحظى «بيت»(١) منه بالنبأ بمجرد تمام الوضع ، بيد أن الوضع يأبى ان يتم ، ولعله لا يزمع ان يتم · وقال المراسل فى عطف : « انى أدرك شعورك ، فقد مررت بهذه التجربة من قبل » وصاح الزوج الشاب الثائر : « لقد دامت هذه الحال اربع ساعات » فاجابه الصحفى بالاستهانة المعهودة فيهم : « وقد يدوم اربعا اخرى · او اربعا وعشرين · فلا تنزعج اكثر مما ينبغى · انها مسالة حدثت كثيرا جدا من قبل ·· »

وعاد «لانى» الى مقعده وهو يفكر فى ايطالى أمريكي يتكلم بلهجة أهل بروكلن بشكل واضح استطاع ان يشق طريقه الى منصب فى صحيفة هامة ، ولديه حكايات مضحكة كثيرة يرويها عن النظام الفاشى وزعمائه

---

(١) بيت تدليل بيترو او بيتر (المترجم)

الذين يطلق عليهم ـ يا للعجب ـ الكنية التى تطلق على المهاجرين الطليان الى امريكا الشمالية . من احسن حكاياته ما يرويه عن نفسه » وكيف انه اضحى المرشد والفيلسوف والصديق لفتاة نيويوركية من فتيات الاغراء خطبت لارستقراطى فاتن من ابناء روما ثم اكتشفت انه يعيش مع راقصة باليه من راقصات الاوبرا لايفكر فى التخلى عنها ، فانهارت الفتاة الامريكية وبكت امام « بيت » وسألته ما العمل ، فقال لها : « استقلى طائرة واذهبى بها فورا الى لانى واطلبى منه ان يتزوجك بالرغم من ثرائك المفرط ! » .

وانه لحظ عاثر الا يستطيع صحفى نشر احسن حكاياته . ولم يطلب الى بيت الا ينشر هذه الحكاية ، بيد أنه لم ينشرها . وبذلك أمسى لانى الآن صديقه مدى العمر ، انه على استعداد لتجشم المشاق فى سبيل اتاحة الفرص له كلما استطاع الى ذلك سبيلا. وحديثهما معا دائما حديث خلان ، ولا يبالى لانى ان يقول ما يعرفه قلة قليلة من اصدقائه وهو ان ايرما نفذت بالضبط ما اشار عليها به « بيت »، وانها تزوجت لانى يوم عثرت عليه فى لندن . وشرعا فى « العمل على الفور بهمة » ـ على حد تعبير اهالى بروكلن ـ وها هى النتيجة بعد تسعة أشهر من الزواج : واذا لانى جالس فى حجرة استقبال بمستشفى للولادة ينتظر وصول طائر اللقلق « العتيد . ينتظر الحدث الميمون ، ينتظر اللفافة الصغيرة القادمة من السماء . وهو يعرف هذه العبارات لانه وايرما كانا فى نيويورك حيث طالعا المجلات الصغيرة الصفراء واصغيا للمذيعين وهم يطلقون لغطهم بالتعبيرات الدارجة بسرعة طلقات الرصاص من مدفع « آلى » من انتاج مصانع « بد » .

لقد وعدنى لانى « بيت » بسبق صحفى ، وهو امر غير عسير عليه جدا ، لان رجال الصحافة الفرنسيين لا يبذلون نشاطا بارزا فى تعقب اعمال طائر اللقلق العتيد ، وربما اعيد ارسال النبأ بالبرق (من امريكا) الى باريس لتنشره الصحف الناطقة بالانجليزية فيها وقد خالط لانى المراسلين الصحفيين مخالطة شديدة بحيث وسعه ان يخمن ماذا سيضمنه « بيت » رسالته البرقية وكيف ستظهر هناك بعد أن « يقبلها » مراجع التحرير فى ارض الحرية الحبيبة . ولا مراء فى ان « بيت » قد ارسل بالفعل « الماعة سريعة » وان قراء صحف هذا الصباح عرفوا الآن ان مسز لانى بد ـ التى كانت تدعى من قبل ايرما بارنز ـ فتاة الاغراء فى الموسم الماضى ، نزيلة مستشفى خاصة فى كان انتظارا للحادث السعيد .

---

(١) من أساطير الاطفال ان الوليد الجديد يحمله من السماء طائر اللقلق . (المترجم)

وستذكر الصحف التفصيلات السديدة الملائمة ، من ان ايرما كانت الابنة الوحيدة للمرحوم ج٠ باراماونت بارنز المتوفي اخيرا ، من كبار رجال الاعمال ، وقد ترك لها ميراثا صـــافيا قدره ثلاثة وعشرون مليونا من الدولارات ٠ وان والدتهـا من آل فاندرنجهـام بنيـويورك وان خالهـا «هوارس» فاندرنجهام المضارب في وول ستريت الذى افلس فى انهيار السوق الاخير ، وان ثروة ايرما الخاصة يقال انها هبطت الى النصف بيد انها لم تزل مالكة لضيعة فاخرة فى لونج آيلند ينتظر ان تعود للاقامة فيها قريبا ٠ والمتوقع ان تذكر الصحف ايضا ان زوجها ابن روبرت بد من اصحاب اتحاد مصانع بد للاسلحة في نيوكاسل بولاية كونكتيكت ، وان امه كانت من ذوات الشهرة العالميـة فى الجمـال ، وهى الآن ارملة مارسل ليتاز الرسام الفـرنسى الذى اثارت اعمـاله ضجة فى نيويورك الخريف الماضي ٠ ومثل هذه التفصيلات يطالعها بشغف جمهور يعيش على افعال الاثرياء كما كان الاغريق القدامى يعيشون على العلاقات الغرامية التى يمارسها الخالدون القاطنون فوق القمة الثلجية لجبل الاولمب ٠

- ٤ -

وكان «لانى» يؤثر أن يولد طفله بعيدا عن الاضواء ، لكنه كان يعلم ان ذلك مستحيل ٠ فهذا التيار من الالكترونات او الموجات أو ايما شيء كان لا بد ان يتبع ايرما فى اسفارها ، ما دامت مالكة للنصف الآخر من ثروتها ٠ وهى فى حقيقة الامر لم تفقد شيئا من ثروتها ، لأن كل امرىء رجلا كان أو امرأة قد نصف ثروته فى هذه العملية٠ وبذلك بقيت النسبة محفوظة بين الاثرياء كلهم ولم تزل ايرما بارنز تحتل منزلتها الملكية ، وكذلك ايضا ذلك الشاب المجدود الذى اختارته لمنصب زوج الملكة ٠ وفى ايام « العهد البائد » كان من الحق المقرر الراسخ بطول الاستعمال ان يصاب النبلاء والنبيلات في اوان مخاض ملكة فرنسا ان يتثبتوا بانفسهم ان المولود وريث للعرش حقا وليس وريثا مدسوسا ٠ ولم تكن حكايات اللقلق مقبولة لديهم ، بل كانوا يشهدون باعينهم البروز المادى الى الوجود لولى العهد الوليد ٠ وفى مخدع مارى انطوانيت تجمعت حشود منهم حتى لقد صرخت الملكة انها توشك ان تختنق ، ففتح الملك نافذة من النـوافذ بيديه ٠ وليس الامر بهذا السوء الآن بالنسبة للملكة الجالسة على عرش ثروة بارنز ، ولكن الحق الذى لامرية فيه ان جمهور قراء الصحف المستمعين

الى الاذاعة يرحب بنشرات تصدر ساعة بساعة عما يجرى فى هذه المستشفى المخصصة للولادة .

ولكن . يا للعنة ! حتى « لانى » نفسه لا يدرى ماذا يجرى هناك ! وما جدوى تحضير ما يقال لمندوبى الصحف عن الوارث الظاهر او الوارثة الظاهرة لثروة بارنز في حين انه ـ أو انها ـ يصر على عدم الظهور . ومبلغ ما فى علم زوج الملكة ان الجراح ربما كان مشغولا الآن بكفاح شديد ضد ولادة عسرة او لعله يقطع اوصال الطفل فى هذه اللحظة ، او يقوم بعملية قيصرية لانقاذ حياته ! وغرس لانى اظافره فى راحيته ونهض يذرع الارض . وكلما دار على عقبيه بالقرب من زر الجرس فى حجرة الاستقبال راودته نفسه ان يضغطه . انه يدفع ثمن خدمات لا يتلقاها ، وهو يستجمع الآن قواه ليطالب بها . ولكن فى هذه اللحظة بالضبط مرت بالحجرة ممرضة واغدقت عليه ابتسامة من ابتساماتها التقليدية وقالت له بالفرنسية : « اطمئن يا سيدى . كل شىء على ما يرام » .

- ٥ -

وطلب لانى والدته تليفونيا . وكانت بيونى بد قد مرت بهذه المغامرة مرتين ونصف مرة من قبل ـ كما قالت ـ ولذا فهى تتحدث عنها عن بينة . وليس فى مقدوره ان يصنع شيئا فلماذا لا يعود الى البيت ويتناول شيئا من الطعام بدلا من ازعاج نفسه واعاقة غيره عن عملهم ؟ ان هذا الامر من شأن النساء وحدهن ، وما من نافلة فى الدنيا كالزوج فى هذا المقام . واجابها لانى انه ليس جائعا وانهم لا يسمحون له بعرقلة عمل واحد .

وعاد الى مقعده فى حجرة الجلوس وراح يفكر فى السيدات . فهن ـ بصفة عامة ـ شديدات الفردية ، كل منهن تعمل لحساب نفسها وهى شديدة الفطنة لنقائض الاخريات وفكر فى المجموعة المحيطة بامه ، ممن اتيح لهن التأثير فى حياته شخصيا . وتذكر اللكزات اللفظية الصغيرة الماكرة التى سمعن يتبادلنها ، وما اظهرنه من افتقار الى التعاون . لقد كن مهذبات مع ايرما ، ولكنه كان واثقا بأنهن وراء ظهرها ووراء ظهره كن يجدن عناء شديدا فى الصفح عن محاباة الحظ لها بهذا الثراء العريض. ومع هذا ابدين بمجرد وصول حملها الى ذروته ميلا للالتفاف حولها فى رقة ورعاية ، وكن قمينات ان يأتين للمساعدة فى احضار الاشياء وحملها

والامساك بيديها للتهوين من حدة الالم وتقلصاته لولا ان لهذه المهام نساءها المحترفات المدربات عليها ٠

فكر لانى فى امه ودورها فى هذه المأساة ، مأساة دخول نفس اخرى الى المسرح ، وكيف كانت بيوتى حماة مثالية الى ذلك الحين فقد عملت بجد على اتمام هذا الزواج ، لايمانها بالمال ، فليس فى ذهنها ادنى شك فى سداد رأس المال او حقه فى ان يفرض ارادته ٠ او لم يثبت الذعر الذى احدثه الانهيار فى وول ستريت صواب حكمها هذا ؟ واين تراهم كانوا صائرين جميعا لولا ثروة ايرما الطائلة ؟ ومن ذا من بين اصدقاء ايرما لم يصبح بحاجة الى عون ؟ هيا ازعم انك تزدرى المال ما شئت ، وانغمس ما شئت فى الاحاديث القرمزية ، على نحو ما يصنع لانى ، ولكن عاجلا أو آجلا سيثبت لك ان المال هو الذى يسير دفة الامور ويتكفل بالطعام والمظهر الحسن والصحة والدفء ووسائل الراحة والمسكن ٠

ان بيوتى بد فى طريقها الى ان تصبح جدة ٠ وهى تتظاهر بالاستياء من هذه الفكرة ، فتمط شفتيها وتصرخ بأنها ستقضى قضاء مبرما على حياتها الاجتماعية فالعقبات الأخرى يمكنها أن تتحاشاها بحيلة او بأخرى. ففى وسع المرأة ان تخدع الناس فى سنوات عمرها ، وان تجرى لوجهها جراحة تجميل لازالة التجاعيد وملء الغضون بطبقة صقيلة من الجلد ٠ اما حينما تغدو المرأة جدة فليس فى وسعها حين يعلن احدهم هذه التهمة على الملأ الا ان تصمت ، وفى ذلك نهاية شأنها كله من حيث انها فاتنة ، أو رقيقة رقة الفراشة ، أو حسناء يمهد لها الحسن أن تكسب من عملها !

بيد أن هذا كله كان من قبيل التظاهر الكاذب ، فبيوتى فى حقيقة حالها سعيدة بولادة طفل يرث ثروة بارنز ويتدرب على الاستخدام السليم للجاه والسلطة التى تضفيهما على صاحبها ٠ ومعنى هذا ان يكون المرء وقورا فخما ، موضع اعجاب ، وان يخطب الناس وده ، فهو امير ــ او اميرة ــ فى ذلك الضرب الحديث من الامبراطوريات الذى ابتدعه اقوياء الرجال فى هذه الايام ٠ فبيوتى تموج حناياها بافكار رومانسية مستقاة من الحكايات الخرافية التى قرأتها وهى طفلة ، وقد احضرت هذه التخيلات معها الى باريس ومزجتها بحقائق السيارات الفاخرة والفراء الثمين والمجوهرات والالقاب وامارات التكريم ، ثم بصورة الامير الشاب الساحر ابن صانع الذخائر من بلادها ٠ ان قصة بيوتى بد من قبيل قصة سندريلا وقد بلغت بها مدى أبعد من المدى المعتاد للقصص الخرافية ٠ يا للجدة سندريلا !

لم يعد فى وسع لانى ان يصبر على هذا القلق الذى يعلقه فى الهواء ، ولا على هذا الشعور المنذر بالكوارث ، فدق الجرس وطلب مقابلة رئيسة الممرضات ! اجل ، فحتى الزوج على هوان شأنه فى هذا المقام له بعض الحقوق فى محنة كهذه ! وظهرت الموظفة جادة متصلبة الملامح بتأثير الشباب المنشاة والسلطة المخولة لها ، رادعة النظرة من وراء نظارتها ، واستجابة لطلب لانى رضيت ان تخرج على الصيغة المعتادة المتبعة دواما وفحواها « ان كل شيء يمضى على خير وجه وانه ينبغى ان يطمئن » ، وبدقة مهنية شرحت له كيف ان فى التكوين الانثوى انسجة معينة يجب مطها ، ومرات يجب توسيعها — واستعانت رئيسة الممرضات بيديها — وانه لا سبيل الى ذلك الا عن الطريق التى رسمتها الطبيعة ، وهى جهد المرأة التى اتاها المخاض • وسيقوم الطبيب المولد بزيارتها فى غضون الساعة القادمة او نحو ذلك ، ولعله مستطيع عندئذ ان يريح بال السيد فى هذا الشأن •

وكان باعثا على ضيق لانى وقلقه ان ذلك الشخص لم يكن قائما على رعاية ايرما الآن • فلقد توهم الزوج انه حين وافق على الاتعاب الكبيرة التى طلبها منه فان من حقه ان يجد الرجل جالسا الى جوار فراش ايرما يرقبها ويرعاها ، او على الاقل وحسب ان يكون موجودا فى البناء مستعدا للطوارىء • ولكن هاهو ذا قد انطلق لأداء واجبات أخرى ، أو لعله راح ينشد لذة من ملذاته • انه انجليزى ، وقد يكون الآن مشغولا بلعب الجولف ، يستحم بعده تحت الدش ويحظى بما لا غنى عنه من الشاى والسمر حول موائده ، وبعد ذلك يتهادى الى حيث يلقى نظرة على ايرما • وفى غضون هذه المدة قد يحدث ما يمكن ان يحدث ويصل الأمر الى المدى الذى لا يجدى فيه علاج !

وعاد لانى الى مقعده الوثير ، وحاول أن يقرأ الرواية الشعبية ، وتمنى لو انه احضر شيئا اوفر نصيبا من الثقافة ، فأحاديث هذه الشخصيات الانيقة كان شديد الشبه بما يدور الآن فى دور العرض ونوادى الشاى وحجرات الاستقبال فى هذه البقعة التى تعتبر ارض اللهو فى اوربا ، فالانهيار المالى وراء البحار لم يثب هؤلاء الناس الى رشدهم ، فما زالوا سادرين فى ثرثرتهم ولغطهم ، و « لانى بد » ثائر عليهم ، ولكنه لا يدرى ماذا يصنع لاصلاح هذه الحال • ومن المؤكد ان النساء — فى مواجهة ذلك الشىء الفظيع الذى يجرى فى هذه المستشفى ، وادراكا منهن ان هذا هو

قدرهن المكتوب عليهن على مر العصور ــ ينبغى ان يكون لهن اهتمام جدى بالحياة فيصنعن شيئا لتخفيف عبئهــا على غيرها ينبغى ان يشــعرن نحو بعضهن بشىء من هذا الرثاء الذى يشعر به لانى الآن نحو ايرما •

- ٧ -

وانفتح الباب المفضى الى الشارع ودخل رجل امريكى طويل القامة ينبىء مظهره عن قوة ، فى الخامسة والثلاثين او نحوها ، ذو شعر احمر وابتسامة مرحة • وهو المؤدب السابق للانى لفترة من الزمن وصديقــه الذى يركن اليه جيرى بندلتون من ولاية كنســـاس ، وهو الآن صاحب مكتب للسياحة فى كان • وقد اتصلت به بيوتى تليفونيا ليجىء الى هنا ليخفف عنه قلقه • وجيرى خير من يصلح لهذا ، فقد مر بهذه التجربة شخصيا لان لديه ثلاثة غلمان اصحاء وزوجة فرنسية صغيرة الجسم مرحة ينهضون دليلا على ان الطبيعة ليست مخبولة كل الخبال • وهو يعرف بالضبط كيف يمازج صديقه ويهون عليه ما به ، وجلس جيرى فى المقعد المجاور وهتف به يأمره أن « أبشر فما هى بمعركة الميزارجون » (١) •

اجل ان الملازم السابق جيرى بندلتون الذى تطوع فى الجيش وبدأ الخدمة خبيرا فى المدافع الرشاشة يعرف الكثير عن الدم والعذاب • وهو فى الغالب لا يخوض فى هذا الحديث ، ولكنه فى مرات متباعدة أثناء ركوب طويل فى السيارة او وهو جالس فى الزورق وقد طال انتظار السمكة لتغمز الشص ينطلق متحدثا قاصا طرفا مما مر به • واسوأ ما فى الامر ان الذين تعذبوا وماتوا لم يحققوا بذلك كله شيئا على مايبدو للباقين على قيد الحياة • لقد انقذت فرنســا ولكنها لم تحسن الافادة كثيرا من انتصارها ، وكذلك الحال بالنســبة لغيرها من الامم • اما المعــركة التى تخوضها « ايرما » الآن فى الحجرة المجاورة فمن نوع اجدى ، لانها ستحظى بثمرة لآلامها ، وسيحظى لانى بثمرة لآلامه ايضا ــ هكذا قال جندى المشاة الامريكى السابق باسما •

وقد سعد لانى اكثر من مرة بالاعتماد على هذا الرجل المتين البنيان• ففى ذلك الوقت العصيب الذى قفز فيه مارسل ديتاز من بالون ثابت مشــتعل قام جيرى بقيــادة الســيارة التى حملت لانى وامه إلى المنطقة

---

(١) مكان على نهر ميز بين الدانمرك وفرنساحيث وقعت كثير من المعارك الحربية •
(المترجم)

العسكرية وساعد فى نقل الرجل المحطم الى البيت وتمريضه حتى عاد الى الحياة · ولذا عندما قهقه الآن قائلا : « انك لم تر شيئا بعد » عرف لانى شيئا بعد » عرف لانى فيه على الفور روح جندى المشاة القديم ·

ان الوكيل السياحى يجد الآن بعض المتاعب الخاصة ، وقد اشار الى الهبوط السريع فى الاعمال ، والى ان كثيرا من الامريكيين لم يأتوا الى الريفيرا هذا الموسم· ويلوح ان الاوقات العصيبه بسبيلها الى التفشى فى اوربا · فهل يرى « لانى » هـذا الرأى : ؟ وأجابه لانى ان هـذا رأيه بالتأكيد ، وذكر له كيف ناقش المسألة مع أبيه · وقد يكون صحيحا ان القيم النقدية التى محاها وول ستريت لم تكن سوى قصاصات ورق كما قال اناس كثيرون جدا، ولكنها كانت قصاصات ورق فىوسعك أن تنفقها فى أى وجه شئت ، بما فى ذلك تذاكر السفر على البواخر والشيكات السياحية · اما وانت لا تملكها الآن ، فلا يسعك ان تنفقها · وفى مقدور لانى وزوجته ان يتذكرا أسماء عشرات من الناس تحدوا الثلج والصقيع فى شتاء نيويورك المنصرم وكانوا يعدون أنفسهم سعداء ما داموا يملكون ثمن تذاكر لوجبات الطعام ·

وقال جيرى انه مر بضائقات كثيرة قبل هذه وانه فى وسعه ان يثبت لهذه الضائقة أيضا · وسيتحتم عليه ان يسرح موظفى مكتبه ويقوم مع « سريز » بالعمل كله · ومن حسن طالعهمـا ان لديهمـا تذاكر وجبات لانهما مازالا يعيشان فى بنسيون فلافان الذى تملكه وتديره والدة زوجته وعمتها · وقال المؤدب السابق : « وعليك ان تأخذنى لصـيد السـمك وتدعنى أعود الى البيت حاملا ما أصيده منه · « وأجابه لانى » : سنحدد موعدا لذلك متى علمت ان ايرما بخير » · واذ قال ذلك دق قلبه · أتراه سيعلم حقا ان ايرما بخير ؟ هب قلبها الآن انتابه ضعف والممرضات منهمكات فى انتعاشه ؟

- ٨ -

ووصل الجراح أخيرا ، فاذا به رجل انجليزى فى أوسط العمر حليق الوجه يقظ شديد الدقة خداه ورديان من أثر العمل فى الخلاء تحت أشعة الشمس وما أعقبه من حمام بارد تحت الدش · وكان قد تحدث الى رئيسة الممرضات تليفونيا وعرف ان كل شىء يمضى على خير وجه ، وكان فى وسع لانى أن يفهم كيف ينبغى للجراح أن يأخذ عمله مأخذا هادئا لأنه

لا يستطيع أن يتعذب مع سائر مرضاه ، وعليه سواء أفعل ذلك غيره أم لم يفعل • وقال الجراح انه سيرى مسز بد ثم يبلغه بالنتيجة •

وعاد لانى الى مناقشتهما فى التدهور المالى وأسبابه • وكان رأس لانى حافلا بالنظريات التى استقاها من الصحف الحمراء والقرمزية التى « يتعاطاها » • أما جيرى فكانت قراءته مقصورة فى الغالب على صحيفة « سترادى ايفننج بوست » والطبعة الباريسية بصحيفة « نيويورك تربيون » ولذا انتابته الحيرة ولم يستطع أن يتصور ماذا حدث لكل تلك النقود التى حصل عليها الناس فى أوائل أكتوبر سنة ١٩٢٩ وأين ذهبت كلها فى نهاية ذلك الشهر نفسه • وشرح له لانى هيكل نظام الائتمان وكيف انه دمية بالونية تلمع لمعانا براقا فى ضوء الشمس وتتراقص بمرح مع هبات النسيم الى أن يغرس فيها بعض الناس دبوسا • فقال جيرى : « بحق الجحيم ينبغى أن أدرس هذه الأمور بامعان » •

وظهر الجراح مرة أخرى مرحا كالعهد به بطريقة متحدية لشعور لانى ، فقال ان مسز بد مريضة جديرة بالفخر فسلوكها هو السلوك الواجب على المرأة الشابة ، وان أوجاع المخاض ، كما يسمونها ، قد تستمر فترة أخرى من الوقت ، ولا يمكن عمل شىء فى تلك المدة • وشعر لانى باستياء ولكنه كان يعلم ألا جدوى من اظهار مشاعره بل ينبغى عليه أيضا أن يسلك المسلك المهنى • وقال الجراح : « سأكون قريبا منكم بحيث آتى فى الحال اذا دعيت • وفى وسعك أن تخرج الأمر من ذهنك برهة » فشكره لانى •

وبعد انصراف الجراح قال جيرى : « أين نأكل ؟ » وأراد لانى أن يقول ان الأكل ليس فى مقدوره ، بيد انه كان يعلم أن جيرى جاء خصيصا بقصد التأثير على تفكيره وكانت قد حانت ساعة العشاء فى بنسيون فلافنان، وأخذ جيرى يردد على مسامعه حديثا فحواه انه يعرف نزلا لا يبعد كثيرا عن هذا الموضع يقدمون فيه الهلام والبيض ثلاث مرات فى اليوم ••• « وما أشد صخب أولئك النزلاء عندما يسمعون جرس العشاء » وما الى ذلك القبيل من الكلام • وكانت تلك هى « الطريقة الرياضية الشجاعة » فى معالجة الواقع حينما تكون حماة المرء مديرة بنسيون معتدل الأسعار فى أرقى وآنق مدن الريفييرا • وكان « لانى » يعلم أيضا انه لم يقم بزيارة آل بندلتون منذ زمن ، وانه وقد ربح الجائزة الكبرى فى يانصيب الزواج يجب عليه أن يظهر بتصرفه انه لم يقصد الاستعلاء على أصدقائه

الفقراء ، فقال : « وهو كذلك ولكني سأكون رفيقا عبوسا » فأجابه جيرى: « النزلاء يعرفون كل شيء عن الموضوع » ·

وهذا صحيح فمن حيثما أتى النزلاء وحيثما كانوا ، فهم يعرفون خبر آل بد ويشعرون انهم أعضاء في أسرتهم ، وقد ظل جيرى بندلتون ستة عشر عاما يصيد السمك مع لانى بد والنزلاء يأكلون السمك الذى يصطاد· وفي البداية كان جيرى نزيلا مثلهم بيد انه بعد أن طرد « البوش » (أى الألمان) من فرنسا تزوج البنت التى تعمل فى البنسيون · ثم جاء بعد ذلك الوقت الذى تزوج فيه نزيل آخر من والدة لانى · ومنذ ذلك الحين والنزلاء جميعا يعتبرون أنفسهم من آل بد وان من حقهم الخوض فى كل فتات من اللغط يتصل بتلك الأسرة ·

- ٩ -

وعند العودة بالسيارة الى المستشفي حرص « لانى » على التوقف كي يشترى بضع مجلات فرنسية وانجليزية وامريكية معدا نفسه لوحدة طويلة ، حتى اذا فشل موضوع في الاستحواذ على انتباهه جرب غيره من الموضوعات · وعندما وصل الى حجرة الاستقبال الفى نفسه لم يعد وحده فيها ، ففي احد المقاعد جلس سيد فرنسي تبدو عليه مخايل البدانة واليسر ، واستطاع « لانى » ان يعرف ذلك من اعراض ظاهرة فى المنظر والسلوك ·

وكانت تعاسة ذلك الغريب من النوع الذى يحب الصحبة ، وقد قدم نفسه باعتباره محاميا من مدينة قريبة ، وذكر ان هذا اول وضع لزوجته ، وانه فى حالة تململ فظيعة لايكاد يطيق الجلوس ، ويريد ان يزعج الممرضات بالاسئلة كلما دخلت احداهن الحجرة ، وبدا الرجل فى نظر « لانى » ساذجا بدرجة سخيفة ، فهو لايعرف فعلا شيئا عن « أوجاع المخاض » وانها تخضع لترتيبات الطبيعة ، وان النساء لايمتن بسببها عادة · واخذ لانى – باعتباره محاربا قديما غير خبرته – عشر ساعات تقريبا يشرح له موضوع تمدد الأنسجة وهون الأمر على الغريب قدر استطاعته · ثم عندما رأى نصيحته لا تحدث أثرا استولى عليه السأم ودفن نفسه فى آخر طبعة من صحيفة « نيوستيتسمان » ·

وكان يود كثيرا ان يسأل هل حدث تغير فى حالة زوجته ، بيد ان

الحالة الانفعالية الفظيعة البادية على السيد فوشـــار ذكرته بأن آل بد انجلوسكسونيون صارمون ويجب عليهم ان يبرهنوا على ذلك بسلوكهم ٠ وباصرار ركز اهتمامه في مقال عن تسوية التعويضات النهائية عن الحرب العالمية التي انقضى عليها الآن اكثر من احد عشر عاما ، وعن الآثار المحتملة لهذه التسوية على سائر الامم المرتبطة بها ٠ وهو موضوع مثير لاهتمام شاب ولد في سويسرا من ابوين امريكيين وعاش فترات متقطعة من حياته في فرنسا والمانيا وانجلترا والولايات المتحدة ٠ واصدقاؤه الكثيرون في هذه البلاد كلها ينتمون الى الطبقات الحاكمة ويعتبرون التطورات السياسية والاقتصادية من شئونهم الخاصة ٠

واستغرق الجراح وقتا طويلا قبل عودته ، فبدأ لانى يشعر مرة اخرى انه عميل مغبون ٠ ونسى ان ثمة تليفونات يستطيع بها اى مولد ان يظل على علم باحوال مريضاته وهو يقرأ آخر المجلات الطبية في بيته او يلعب مباراة في البلياردو في ناديه ٠ وعند ما ظهر الانجليزى في النهاية اخبر الزوج القلق ان وقت العمل قد اقترب وان مسز بد ستنقل سريعا الى حجرة الولادة ٠ وبعد ذلك وجد لانى من المستحيل عليه ان يحمل نفسه على الاهتمام بما تذكره مجلة « اليستراسيون » عن التطورات المنتظـرة في صالونات الربيع ، رغم ما في ذلك الموضوع من اهمية لرجل يكتسب من بيع وشراء الاعمال الفنية بالعمولة ٠ ولم تعد هناك جدوى من محاولة اتباع السلوك الانجلوسكسونى ، فمن الخير له ان ينفض يده منه ويعترف بسيادة الطبيعة الأم ٠ ووضع « لانى » المجلة من يده وراح يرقب السيد فوشار ، وهو يذرع ارض حجرة الاستقبال ٠ وعند ما جلس الســـيد فوشار واشعل سيجارة نهض لانى ليقوم بذرع الحجرة ٠ وفي اثناء ذلك كانا يتحادثان ، فأخبره الفرنسي عن زوجته وكيف انها لم تجـاوز التاسعة عشرة والى حد هي ذات فتنة خارقة ٠ ولم يدخر السيد فوشار جهدا في وصف تفصيلات فتنتها ٠ وكان بوده ان يروى قصة خطبتهما كاملة وقد شعر بالشكر القلبى نحو ذلك الغريب لحسن اصغائه ٠

اما لانى فلم يسرد على مسامعه مثل ذلك كله ، ولا كانت به اليه حاجة لان السيد فوشار سمع الجراح يناديه باسمه ففطن الى شخصية ذلك الشاب الامريكي الانيق ٠ وكان قد قرأ عن ايرما بارنز فشرع يتحـدث وكأنه من اصدقاء الاسرة القدامى ، بل وكأنه يوشك ان يتولى نفسه رعاية ايرما في نقاهتها وعنايتها بطفلها ٠ ولما كان لانى قد نشأ في فرنسـا فقد ادرك ان الامر لايستثير الاستياء ، وان الافضل له ان يظهر التعاطف

الانسانى وبذلك ينشئان معا جمعية مؤقتة هى رابطة الازواج الذين جاءهم المخاض ومن الجائز ان ينضم اليهما فى الرابطة ازواج آخرون قبل انقضاء الليل ٠

- ١٠ -

وصلت الطبيبة المولدة التى تتولى أمر السيدة فوشار ٠ وهى امرأة فرنسية اقنعت الزوج بأن وقتا طويلا سيمضى قبل ان تحين لحظة الحادث السعيد ، وعندئذ ودع هذا السيد زميله فى عضوية الرابطة وداعا حارا ٠ واستجاب لانى لحديث تليفونى من أمه وأخبرها الموقف ٠ وبعد ان ذرع الارض مرة اخرى جلس وحاول ان يركز ذهنه فى تذكر زيارة قام بها للاديرة المعلقة فى بلاد اليونان وكان قد شاهدها وهو صبى . اما الآن فلم تكن تعنيه الاديرة ولا سائر من فى الدنيا من الرهبان ٠ ولم يكن فى مقدوره ان يصدق ان ولادة طبيعية يمكن ان تستغرق كل هذا الوقت الطويل ٠ فدق الجرس وحظى بمقابلة رئيسة الممرضات الليليات واكتشف منها انها كانت قد حفظت عن ظهر قلب الصيغ المعهودة كل شىء على ما يرام ياسيدى ٠ اطمئن ٠ »

وفرح لانى حقا عند ما فتح الباب وادخلت سيدة تبدو عليها بوضوح تلك الحال التى تكون عليها السيدات اللواتى يدخلن مثل هذا المكان ٠ وحضر معها سيد فرنسى ذو لحية حريرية الملمس لونها بنى داكن . عرفه لانى لأنه معلم بيانو مشهور فى مدينة كان ٠ وعهد بالسيدة الى عناية الممرضة ، وعلى الفور انضم السيد عضوا فى رابطة لانى ٠ وبما ان لانى نفسه كان عازف بيانو وزوج اخته عازف فيولينا نابغا ، فقد كان من الممكن ان يدور بين الاثنين حديث طويل فى شئون المهنة ، ولكن لا فقد فضل الاثنان ان يحدث كل منهما صاحبه كم من الوقت انقضى على زواجه ، وما عمر زوجته ، وما شعوره وما شعور زوجته ٠ فهذه المواجهة للطبيعة على حالتها الغفل قد هبطت بهما الى الحد الادنى للقاسم المشترك بين البشر ٠ فلم يعد ثمة وجود للفن أو العلم أو الثقافة ٠ وانما الوجود كله للاجساد وللدماء وللاطفال ٠

ويصغى لانى برهة ثم يكف عن سماع مايقوله الفرنسى الملتحى ٠ وكان لانى يذرع ارض حجرة الاستقبال جيئة وذهابا وحبات العرق تفصد بها جبينه ٠ يا الهى ! هذا لايمكن ان يكون صحيحا ٠ لابد ان شيئا فظيعا

يحدث الآن في حجرة الولادة ، شيئا مما تحدثت به دائرة المعارف : كان يكون هبوط فى قلب الأم او انقطاع لماء المشيمة أو وضع من الاوضاع الشاذة التى تحدث بنسب مئوية متفاوتة • وبديهى ان المولد اذا وجد صعوبة لن يخرج مسرعا ليخبر الوالد المنتظر ، بل سيكون مشغولا بعلاج الموقف ، وكذلك الممرضات • وعند ما ينتهى كل شيء يخرج شخص ليفضى اليه بالنبأ الفاجع ، وعندئذ لن يغفر لانى هذا الامر لنفسه •

وياله من نقص خطير فى المعدات العملية لهذه المستشفى التعسة ! كان ينبغى ان يكون هناك نظام معين ، كان يكون هناك تليفون فى حجرة الولادة ، او لوحة انباء ، او طريقة للاشارات وانها لمعضلة تتطلب حلا جماعيا ، كافتتاح مستشفى للابوة يدخله الآباء المنتظرون ولادة زوجاتهم، اطفالا ، ليجدوا فيه العناية اللائقة • يجب ان يكون لدى الممرضات وقت لهم ، وهيئة المستشفى يجب ان تراعى شعورهم وتمدهم بالمعلومات كان يكون ذلك فى صورة محاضرات فى موضوع علم الولادة معدة خصيصا لاذهانهم الحساسة محذوفا منها الاحوال الشاذة • على ان تصحب ذلك موسيقى هادئة ، وربما ايضا افلام سينمائية • ولكن قبل كل شيء يجب ان تكون هناك انباء وفيرة سريعة يعتمد عليها • ومن الجائز ان يعد المكان كما يعد مكتب السمسار فى بورصة الاوراق المالية ، حيث توجد آلة خاصة تظهر ارقام السوق فوق لوحة أولا بأول •

وفى كل مرة يقترب لانى من الجدار الذى به زر الجرس كانت تراوده نفسه على ضغطه وطلب معلومات دقيقة عن حالة زوجته المحبوبة • وكلما وجه اليه الموسيقى الفرنسى سؤالا وجد صعوبة اكبر من المرة السابقة فى اخفاء عدم اصغائه لما يقول • ياله من شيء رهيب وأيان صببت اللوم، على الطبيعة أو على نقص الكفاية البشرية ، فقد بقيت الحقيقة الواقعة وهى ان هذه الزوجة التى يحبها بحنان شديد واشفاق شديد لابد انها تعانى سكرات النزع ، وانها الآن قطعا منهكة القوى كل الانهاك ، فلابد من عمل شيء وهاهى الساعة تقترب من منتصف الليل • ونظر لانى الى ساعة معصمه فوجد ان ثلاث دقائق قد انقضت منذ تطلع اليها آخر مرة فهى تشير الى الحادية عشرة الا اثنتين وعشرين دقيقة — بيد أن هذا فى حد ذاته سيىء سوءا كافيا — اذ انقضت ثلاث عشرة ساعة منذ بدأت اوجاع المخاض ، وكانوا قد أخبروه أن الوقت حان كى يتركها لمصيرها اللعنة !

وفتح باب في الحجرة وظهرت منه ممرضة ، ورمقها « لانى » بنظرة واحدة ادرك منها انها تختلف عن أية ممرضة رآها من قبل ، فهى باسمة، بل مشرقة بالابتسام ، وصاحت الممرضة « أوه ياسيدى ! انها فتاة فتاة جميلة للغاية فاتنة جدا » واشارت بيدها للتعبير عن حجم معجزة انثى ، والفى لانى نفسه فريسة دوار مفاجىء فالتمس مقعدا يستند اليه وهو يصيح : « والسيدة ؟ » فردت عليه مرتدة الى استعمال الصيغة المكررة : « السيدة شجاعة جدا • رائعة • كل شىء على مايرام » وجعل لانى يصب عليها الاسئلة الى ان اقتنع بان ايرما ستعيش بعد هذه المحنة ، فهى منهوكة القوى ولكن هذا كان امرا متوقعا • وثمة تفصيـــيلات لابد من انجازها ، وفى مدى نصف ساعة او نحو ذلك سيكون فى وسع السـيد ان يرى الام والابنة كلتيهما « حالا • اطمئن • »

وقبض معلم البيانو على يد « لانى بد » وراح يهزها بقوة ، وبعد ان عاد الامريكى الى مقعده بوقت غير قصير ظل الرجل الآخر يصب عليه تهنئته ، ولانى يقول بطريقة آلية « شكرا لك ياسيدى » وهو يفكر فى الوقت نفسه : « فتاة ! ستصاب بيوتى بخيبة أمل » اما هو شخصـيا فلم يتذمر ، لأنه منذ طفولته خدن نساء ، ولم يكن يرى أباه الا فى فترات متباعدة ، وأمه والنساء الخادمات هن اللواتى كن يتولين رعايته • وثمة النساء من صواحب امه ، ثم اخته غير الشقيقة وزوجة أبيه فى نيوانجلند، ثم اخت جديدة غير شقيقة فى « بيانفنى » ، ثم سلسلة متتابعة من حبيبات قلبه ، واخيرا وجد زوجته • وقد حظى من كل منهن بشىء ما ، وسيجد فى الابنة متاعا لا حد له • فالامر على مايرام •

ونهض لانى فاستأذن السيد الفرنسى واتجه الى التليفون فطلب امه وابلغها النبأ • وقال لها انه سعيد ، او هكذا سيكون بعد ان تنجلى عنه غاشية الانفعال الشديد • لا • انه لن ينسى شتى الرسائل البرقية : واحدة الى ابيه فى كنكتيكت ، وواحدة الى والدة ايرما فى لونج آيلند ، وواحدة الى اخته غير الشقيقة « بيسى » فى برلين • وســتقوم بيوتى بالاتصال تليفونيا بشتى الاصدقاء من الجيران ـ وثق بانها لن تفوتها هذه الاثارات وسيتولى « لانى » امر صديقه ريك فى انجلترا وصديقه كورت فى المانيا ، فهو قد اعد الرسالتين كاملتين فيما عدا ملء الفراغ المتروك بكلمة « فتاة » •

وبر بوعده لبيترو كورساتي، وكان الوقت لم يزلمبكرا فى نيويورك بحيث يظهر النبأ فى الطبعة (الأولى) من صحف الصباح ، وهى الطبعة التى يطالعها مجتمع المقاهى ، وهو المجتمع الذى كانت ايرما بارنز قرة عينه · وبعد أن تلقى لانى تهانىء بيت عاد ليتلقى تهانىء أخرى من السيد الفرنسى · وما اعجب اسراع السحب السوداء الى الانقشاع فجاة من سماء حياة الزوج الشاب ، فاذا باساليب امنا الطبيعة تبدو له بعيدة عن القتل ايما بعد ، وصار فى المستطاع تجاذب الحديث المرضى مع معلم البيانو حول « التكنيك » الذى يستخدمه ، وأن يحدثه بتجاربه الخاصة فى طريقة « لشتزكى » ثم فى طريقة « برايتهاوب » وان يشرح حركة الزند الرحوية ويبينها عمليا على ذراع كرسيه · وألفى لانى نفسه ينقر باصابعه مطلع قصيدة « ليست » السمفونية المسماة « من المهد الى اللحد» بيد انه توقف عند الجزء الاول ·

- ١٢ -

وجاءت الممرضة البهجة مرة اخرى وقادت الوالد الموفق فى دهليز الى مساحة كبيرة من الزجاج المسطح تطل على حجرة بها عدد من المهود المعدنية الصغيرة البيضاء ، ولم يكن دخول الزوار اليها مسموحا به ، بيد أن ممرضة ذات قناع ابيض على فمها وأنفها جاءت الى الجانب الآخر من الحاجز الزجاجى بلفافة داخل بطانية ، وازاحت الطيات كاشفة لنظر لانى عن شىء احمر طوبى كان من الممكن ان يكون دودة منتفخة كثيرة التجاعيد ، لولا ان لها عيونا وكرة مستديرة واسعة فوق قمة وجه كان حريا ان يكون وجها بشريا لولا مابه من ضآلة الأقزام · وثمة فم ذو شفتين منهمكتين فى مص لاشىء وعينان واسعتان لا تأتيان حراكا ، ولكن الممرضة الواقفة الى جوار لانى أكدت له انهما عرضتا للضوء لفحصهما فاستجابتا له · وقيل له بالقطع ان هذه طفلته ،واثباتا لذلك وجد قلادة صغيرة جدا لهـا طرف معدنى يحمل رقما ، فليطمئن السيد والسيدة الى انهما لن يحملا معهما الى البيت طفل محام او معلم « تكنيك » للعزف على البيانو ·

ولفت الدودة المنتفخة المتغضنة فى البطانية مرة اخرى ، واقتيد لانى الى حجرة ايرما · ووجدها راقدة فى سرير ابيض من اسرة المستشفى · وقد غاص رأسها فى وسادة ، واغمضت عينيها · كم بدت شاحبة اللون وما أشد اختلافها عن الحسناء الغنية السـمراء التى فارقها ذاك الصباح

خشعرها الاسود صار الآن مشعثا ، ويبدو أنهم لم يشاءوا ازعاجها ولو بما يسمح بترتيبه • ودخل لانى الحجرة على اطراف اصابعه ، ففتحت عينيها ببطء ، كأنما يكلفها هذا مجهودا • ولما عرفته منحته ابتسامة واهنة •

« كيف حالك يا ايرما ؟ »

فهمست قائلة : سأكون على مايرام • انا الآن مجهدة • مجهدة الى حد فظيع •

وكانت الممرضة قد طلبت اليه الا يتحدث اليها • ولكنه قال :« انها طفلة بديعة »

فقالت : « انا مسرورة • لاتقلق • ساستريح وتتحسن حالتى •»

واحس لانى غصة تعترض حلقه ، فما اجدر النساء بالرثاء للثمن الفادح الذى يؤدينه للامومة ، ولكنه كان يعلم انه لاينبغى ان يزعجها بعواطفه الفضولية • وجاءت ممرضة بقليل من النبيذ شربته بواسطة انبوب ، وكان فى النبيذ عقار مهدىء سيدفع بها الى النوم • وتناول يدها المبسوطة باسترخاء فوق الاغطية وقبلها برقة وقال : « شكرا لك ياعزيزتى كم احبك » وفى هذا القدر كفاية •

وفى الخارج وجد الجراح فى الدهليز وقد أتم نظافته وتاهب للبروز الى العالم الخارجى ، وكان مسلكه المهنى طبيعة ثانية له • وكل شىء على ما ينبغى ان يكون وما من مريضة افضل من مسز بد ، وما من ولادة تمت بصورة اكمل من ولادتها • وان هى الا بضع ساعات من النوم ، وقليل من التغذية حتى تنتاب الدهشة السيد بد للتغير الذى طرأ على زوجته • ان الطفلة متينة البنية بديعة التكوين ، وزنها اكثر من تسعة ارطال ، وهذا هو السبب فى تأخر الوضع • « وانى آسف لانك تجشمت كل هذا الانتظار الطويل ، ولكن لم تكن لنا فى ذلك حيلة • أتطالع الكتاب المقدس ياسيد بد ؟ ان المرأة حين يأتيها المخاض ينتابها الحزن لان ساعتها قد دنت ، ولكن ما ان تضع مولودها حتى تنسى مخاوفها واوجاعها لان رجلا جاء الى الدنيا • والذى جاءنا هذه المرة امرأة ، ولكننا

لم نعد فى زمن اليهود الاقدمين ، والنساء اليوم لهن الصدارة ويسيرن دفة الامور ، ولهن فى بلادى وبلادك حق الانتخاب ، ويملكن اكثر من نصف الممتلكات العقارية كما قيـــل لى • فالدنيا دنياهن ، وعلينا نحن الرجال ان ننتظر لنعرف ماذا يزعمن ان يصنعن بها • طابت ليلتك ياسيد بد • »

فقال لانى « طابت ليلتك • » وكان مدينا للرجل بثلاثين الف فرنك، وهو مقابل يبدو فادحا ، ولكن الفرنك كانت قد هبطت قيمته ، فلم ينفس عليه لانى المبلغ وقال في نفسه : « كنت قمينا ان اعرض عليك مائة الف منذ ساعة واحدة » •

الفصل الثانى

اصدقاؤك هولاء

- ١ -

كان البيت المقـــام فى ضيعة تيانفينيو حيث تعيش ايرما ولانى يطلق عليه اسم الكوخ وان كان يضارع فى اتساعه تقريبا حجم الفيــلا وأسلوب عمارته موحد ، فهو مبنى حول ساحة وسطى والجدران مطلية بالمصيص الوردى . أما ضلف النوافذ فلونها أزرق فاتح ، ويعلو طبقة البيت الوحيدة سقف من القرميد الاحمر • ويطل على خليج جوان المتقلب دائما ومن ورائه يمتـــد المنظر الى الجبـال التى تغـرب خلفها الشمس • ولم يتجاوز عمر ذلك البيت ثلاث سنين ، بيد أن أشجار الموز فىالساحة الوسطى ارتفعت الى طنفه العلوى ونبات الجهنمية اخذت دواليه تتسلق قرميد السقف . ان أوائل شهر أبريل أحب أوقات العام الى النفس ، ففيه تكون الباحة الوسطى جنة صغيرة بما يزدهر فيه من افانين متباينة الألوان تزهو برادئها فى فيض من شعاع الشمس وقد تضطجع الأم الشابة فوق مقعد طويل فى الشمس أو فى الظل وتطالع صحيفة نيويوركية تتحدث عن مناخ شهر مارس بعواصفه الثلجية التى تجتاح الأكواخ المقامة على الساحل وتكدس ركام صغار السفن على الشواطىء •

وفى ابدع عربة من عربات الاطفال المبطنة بالحرير ترقد اثمن انثى بين الأطفال يعلوها خمار يحميها من اسراف الحشرات فى الفضول • وعن كثب منها جلست ممرضة مدربة ، وهى امرأة ناضجة يقظة الضمير من اتباع كنيســة انجلترا تحت امرتها خادمتان مربيتان وامرتها قائمة على أساس احدث مكتشفات علم وظائف الاعضاء وعلم نفس الطفل ، فلا مجال للتدليل أو التقبيل أو هز الطفلة الملكية حتى تنام ؛ ولا محل للتخمين أو التخبط فى العناية بها ؛ غير مسموح للجراثيم العادية ان

تتسلل من خلال التحصينات المقامة حولها ، إنما انسان ظهرت عليه أهون أعراض البرد أو آثاره ينفى من أراضى المسكن وحدوده • وعلى جميع الضيوف ــ بل وعلى جميع الاقارب أيضا ــ ان يطيعوا أوامر الآنسة سيفيرن العليمة بكل شىء ، فهى مسلحة بسلطة تمكنها من تحدى الجدتين نفسيهما •وأما ايرما فقد وافقت على أن تبذل التضحية العظمى ، فمرة كل أربع ساعات تحمل اليها اللفافة الثمينة لارضاعها ، ويجب عليها ان تكون فى متناول اليد أيا كانت مغريات « الموضة » وأحكامها . فهى اذن العودة الى تعاليم روسو .

وقد عقدت اجتماعات لمجالس الأسرة وجرت مباحثات دولية بخصوص الاسم الذى يطلق على هذه الوارثة لتلك الملايين العديدة ، وقدمت طلبات كثيرة بالتسمية لو انها اجيبت جميعا لا ثقلت الصغيرة بالأسماء على غرار بنات الأسر المالكة فى أوربا • ومن الجلى أنه لم يكن من المناسب اطلاق اسم بيوتى (أ ى جميلة) فهذه صفة عليها ان تكتسبها بنفسها • ثم لنفرض انها لم تشب محققة لهذا المعنى ؟ والجدة بيوتى اسمها الحقيقى ما بل ، ولم تكن تحبه ولذا فقد استبعد . وتنازلت ايرما عن مطالبها رعاية لأمها التى يعنيها ذلك الامر كثيرا . ايرما ستعيش فى أوربا معظم أوقات حياتها • لأن هذه رغبة لانى • فلماذا لا يتيحان لأرملة مسنة يضنيها الشوق فى قصر بلونج أيلند العزاء الذى يمكن ان يتيحه لها اطلاق اسمها على حفيدتها ؟ ثم ان آل بارنز من حقهم ان يظفروا باعتبار خاص لانهم أصحاب المال . واسم «فرانسس بارنزبد» ليس اسما صعبا على اللسان • ولكن لا ولن يكون اسمها « فانى » فالمملكة الأم المقيمة فى شور أكرز يعييها أن تفهم كيف يمكن أن يتقلب اسمها الجميل فيساء استعماله ويبتذل فى هذه الأيام ؟

- ٢ -

وكانت ايرما مسترخية فى الباحة مستمتعة بالصغيرة العارية بين ذراعيها وهى تمتص اشعة شمس جنوب فرنسا لمدة محدودة بثلاث دقائق ، عندما دخل لانى قائلا « خالى جسى موجود فى الفيلا فهل ترغبين فى مقابلته ؟ » فسألته « أتعتقد أننى ينبغى أن اقابله ؟ » فاجابها ؟ انك بالتاكيد غير مطالبة بهذا ان لم تشعرى بالرغبة فيه » فسألته « ألن

يجرح امتناعي شعوره ؟ » فقال لاني وهو يفتر عن ضحكة فاترة « لقد تعود هذا» .

ولم تكن ايرما قد سمعت القليل عن هذا « العضو الاحمر » فى اسرة حماتها . ولم تظهر فى بداية الأمر اهتماما ولم يثر فضولها لأنها لم تكن تعير المسائل السياسية التفاتا جديا . ومع أنها لم تشك لحظة فى ان الشيوعيين اناس فظعاء ، الا انه من حق جى بلاكسى ان كانت هذه عقيدته أن يجاهر بها . فتهديد النظام الاجتماعى لم يكن فى نظر ايرما خطرا حقيقيا، على الأقل حتى فترة الذعر(١) ففى غضون تلك الرجة العنيفة سمعت افكار غريبة كثيرة تناقش ، وبدات تتساءل عنها. وهاهى الآن تقول « ان كنت انت وامك تقابلانه فينبغى ان اقابله أنا أيضا » واجابها الزوج باسما بفتور مرة أخرى « لا تدعيه يفسدك » فقد كان يجد لذة في مناقشة خاله الاحمر وكان يستخدمه لاغاظة غيره من الناس.

وتوجه لانى الى الفيلا وعاد برجل طويل غريب المنظر يكاد راسه يكون أصلع كله وقد انضجته حرارة الشمس بصورة واضحة ، لأنه يمشى معظم الوقت بغير قبعة . وثيابه مهملة كما ينبغى لرسام ، ففى قدميه صندل وبنطلونه الأبيض من كتان خشن وقميصه مفتوح عند العنق . ووجهه تكثر فيه التجاعيد التى تزيد عددا عندما يبتسم بطريقته الملتوية الخاصة به . وهو ميال لذلك النوع من الفكاهة القائم على التفوه بكلام يختلف عما يعنيه بالفعل اعتمادا على حسن فهم الناس ، وهم لا يملكون تلك الفطنة على الدوام وجى بلاكس ساخط على العالم الذى يعيش فيه لذلك هو يجد لذة فى تسخيفه .

وقال الرجل وهو ينظر من عل الى ايرما « هذه اذن هى ايرما » وكانت قد غطت صدرها بمئزر برتقالى اللون من الحرير الصينى كانت ترتديه . ولونها المائل للسمرة فى حيوية كان قد عاد الى وجنتيها اليها بسرعة ، وكان ينبغى ان يروق رساما ، لولا ان الخال جى لا يرسم الا غلمان الازقة والمتسولين الفقراء والعمال الذين تظهر عليهم آثار الجهد الشاق .

وقال وهو يلقى بنظرة على المهد المظلل بعناية « وهذه هى الطفلة » ولم يقل شيئا يعتبر من المحرمات ، الا آنه قال « أحسنا حراستها ...

---

(١) فترة الذعر هى فترة الانهيار فى بورصة نيويورك سنة ١٩٢٩ .
(المترجم)

فهى تساوى مبلغا طائلا فى نظر الخاطفين ، وهى فكرة فيها من البشاعة ما يكفى .

وجلس الزائر فى مقعد من القماش ومد ساقيه الطويلتين وجال بنظراته من الزوجة الشابة الى الزوج الشاب ثم ارتد اليها مرة أخرى وقال « لقد وفقت فى الاختيار يا ايرما ولقد حاول كثيرون افساده فلم يفلحوا » .

وكانت هذه أول مرة يعهد فيها لانى خاله الاحمر يزجى الثناء الى أى انسان فقدر ذلك منه حق قدره . وشكرت ايرما المتحدث وقالت انها تعتقد فيه سداد الحكم . فقال الرسام « هذا أمر أعرفه جيدا لانى حاولت شخصيا افساده » فسألته « وهل قطعت الرجاء فى ذلك ؟ » فأجابها « لا جدوى الآن من المحاولة بعد ان تزوج . فأنا من المؤمنين بالحتمية الاقتصادية » .

وتولى لانى شرح هذه العبارة قائلا « خالى جى يخيل اليه انه يؤمن بان سلوك كل انسان تحدده حالة كيس نقوده . بيد أنه تفنيد حى لنظريته هذه ، فلو أنه اتبع مقتضيات كيس نقوده لا شتغل برسم الصور للاغنياء الكسالى على هذا الساحل . فى حين انه يترك ذلك وربما ليلتقى بجماعة من المتآمرين الثوريين فى مكان ما من الاحياء الحقيرة فى كان . فقال الخال جى « أنا فلتة شاذة . والطبيعة لا تنتج من هذا الطراز الا نفرا قليلا . وأى تقرير عن القضايا الاجتماعية يجب أن يقوم على أساس سلوك الجماهير » .

وهكذا شرع الاثنان فى الجدل . وايرما تصغى الا ان معظم افكارها كانت مشغولة بشخصية الرجل . اتراه حقا ذلك الانسان الخشن الذى يطفح مرارة كما يبدو أم هذا المظهر قناع يخفى وراءه مشاعره ؟ وما الذى آذاه وآلمه فجعله شديد الضيق بأشباهه من الناس ؟

- ٣ -

ودامت المناقشة فترة غير وجيزة . كان يبدو على كليهما الاستمتاع بها ، ان كان كل واحد منهما يتفوه بتهكمات لاذعة على صاحبه . والفرنسيون يستخدمون للاهانة والسباب والاساءة لفظا واحدا . ولكن

حامن عبارة قاسية بدا أنها آذت ايا منهما ولعلهما سمعا ذلك كله من قبل . والكلمة الاثيرة عند لانى ان خاله حاك (جرامافون) متى وضعت عليه قرصا مسجلا (اسطوانة) صدرت عنه النغمة المعهودة بلا تحريف . وثمة نغمة اسمها « المادية الجدلية » ونغمة أخرى اسمها « دكتاتورية البروليتاريا » وهى كلمات كبيرة لا تعنى لدى ايرما شيئا . وكانت تقول فى نفسها » هذا الرجل يريد ان يأخذ أموالى ويقسمها بين الفقراء . فالى أى حد تكفى ؟ وكم من الوقت يحتاجون اليه فى التخلص منها ؟ » وكانت قد سمعت أباها يقول ذلك من قبل ، فبدا لها ذلك الكلام مقنعا .

وتحدثا حديثا طويلا جدا عما يجرى فى روسيا . كانت ايرما طفلة فى التاسعة من عمرها عندما نشبت الثورة هناك . بيد أنها سمعت عنها كثيرا بعد ذلك . قد التقت هنا على شاطىء الريفييرا بجماعة من الروس فروا من البلاشفة غير حاملين فى بعض الاحيان معهم الا ما يستر أجسادهم من الثياب . وقد يقال لك ان كبير السقاة الوسيم ذا المظهر الراقى فى احدى المقاهى كان بارونا روسيا سابقا . أو ان راقصة فى منتدى ليلى ابنة أحد كبار الملاك السابقين . فهل يريد الخال جى ان تقع مثل هذه الأمور فى فرنسا والولايات المتحدة ؟ لقد حاولت ايرما ان تقول لنفسها انه لا يعنى ذلك حقا . ولكن لا أنه رجل شديد لتحسبنه يريد ان يطلق الرصاص على من يعترضون سبيله . وكانت ايرما تعلم ان شرطة باريس احتجزته مرتين ، وانه تحداهم . ويبدو انه مستعد لأن يدفع الثمن أى ثمن تتطلبه ثورته .

واعرب عن اتخاذه الخطوات للتجنس بالجنسية الفرنسية. وكان قد عاش فى هذه البلاد خمسا وثلاثين سنة من غير ان يبالى بذلك . ولكن يبدو الآن أن « الحزب » يريد منه التقدم لعضوية مجلس النواب . وكان قد احرز شهرة فى الخطابة . فقال لانى « انهم يريدون منه ان يسمع اسطواناته المحفوظة فرنسا باسرها » . وكانت ايرما شديدة الحساسية المالية فخطر لها على الفور « انه جاء ليحملنا على اعانته فى حملته الانتخابية » . ولم تكن لدى لانى أموال تذكر منذ اصيب ابوه فى انهيار السوق . وقررت ايرما «لن اساعده فانا لا اوافق على ذلك» . وكانت قد اكتشفت قوة مالها اثناء ازمة وول استريت واخذت تتعلم كيف تستمتع بهذه القوة المالية . ثم خطرت لها وجهة نظر اخرى بعدئذ . فلعله مما يزيد فى وجاهتها ان يكون لها قريب فى مجلس النواب، وان كان هذا القريب شيوعيا ! ولم تكن واثقة بذلك وتمنت لوعرفت

المزيد عن الشئون السياسية . وكان هذا الاحساس يراودها بين الحين والحين بصدد فروع من المعرفة عديدة ، فتصمم على اكتشاف ما تريد من الحقائق ، ثم لا تلبث ان تنسى الامر كله لما يكتنفه من العناء ، وهم فى الآونة الراهنة يطلبون منها ألا تثير انفعالاتها لاى سبب ، لأن الاثاره من شأنها ان تفسد لبنها ، وما اسخف ان تتحول الى بقرة ولكن ذلك امر مستحب هنا فى الشمس وهى تتسلى بالافكار الجديدة .

ويبدو ان لانى كان متفقا فى الرأى مع خاله من حيث أن ما يقوم به الروس الآن امر هام جدا فى نظرهما . وكان الخلاف بينهما يدور حول : هل يقع ذلك بحذافيره فى فرنسا وانجلترا وامريكا . ويرى لانى ان هذه البلاد ديموقراطيات يسعها ان تجرى التغييرات الضرورية بصورة سليمة . وكان هذا أسلوبه ، فهو لايريد أن يؤذى أحدا ، بل يجب ان يناقش الأفكار بادب ويدع افضلها يفوز فى النهاية . الا أن خاله جسى ظل على الحاحه بأن لانى واصدقاءه الاشتراكيين يقدمون العون للرأسماليين بخداعهم للعمال وتضليلهم بالامانى الكذاب وابقائهم قانعين لنظام سياسى اشتراه الرأسماليون ودفعوا ثمنه . فرد عليه لانى بأن الحمر هم الذين يخونون العمال ويفزعون الطبقات الوسطى بتهديداتهم العنيفة بحيث يسوقونهم الى الانضواء تحت لواء الرجعيين .

واستمر الجدل على هذا المنوال ، والزوجة الشابة تصغى من غير ان تستشار ، فالزواج مغامرة غريبة تورطك فى أمور كثيرة لم تكن تتوقعها . وآل بد وآل بلاكسى اسرتان على جانب كبير من غرابة الاطوار ان اسرة ايرما من العاملين فى وول ستريت (حى المال والاعمال بنيويورك) . فهم يبيعون ويشترون الاوراق المالية ويجنون الثروات أو يفقدونها عن هذا الطريق ، وهو أسلوب يطابق العرف ويحظى بالاعتبار بين أساليب الحياة . أما الآن فقد دخلت فى زمرة أقوام يكثر بينهم الحمر والورديون من جميع الظلال ، وفيهم المشتغلون بالروحانيات (الوسطاء الروحيون) ومن يؤمنون بالشفاء عن طريق الدين ويمارسونه وفيهم أصحاب مصانع ذخيرة ومستغلون من اليهود ، وفيهم موسيقيون ورسامون وتجار فن . فلست تدرى مطلقا عندما تفتح عينيك فى الصباح اى طراز جديد من المخلوقات العجيبة ستلتقى به قبل حلول الليل . وحتى لانى العزيز العذب الذى دخلت معه ايرما فى أوثق الصلات الحميمة يغدو فجاة شخصا غريبا عنها عندما تستثار حماسته ويشرع فى صب مشروعاته عن تحويل نظام العالم . وهى مشروعات تتضمن بداهة تنازله

عن أملاكه الخاصة وتنازل ايرما عن املاكها ، ومحو حقوق الوراثة التى تتمتع بها فرانسس بارنزبد التى طال انتظار ولادتها وتبذل الجهود الشاقة لرعايتها وحراستها .

- ٤ -

وبقى الخال جسى لتناول الغذاء ثم انصرف لحال سبيله . وبعد غفوة القيلولة التى نصح بها الطبيب الام المرضع ، نعمت ايرما بصحبة زوج حماتها ، ان كان ثمة اسم لهذه القرابة الغريبة . ومستر برسيفال دنجل زوج بيوتى الجديد كان قد حضر من الفيلا للسؤال عن الطفلة . وايرما تعرفه جيدة لانهما كانا قد قضيا الصيف الماضى على ظهر يخت وهو متصوف دينى ولا شك فى ان صحبته مريحة بعد مقابلة الحمر والورديين ، انه لا يجادل مطلقا ، والقاعدة عنده الا يتكلم الا اذا بدات انت الحديث . فهو مهتم بأمور تجرى داخل روحه ، ويسره ان يخبرك بها ان سألته عنها . ويجلس الرجل الى جوار المهد يحدق فى الطفلة وتظهر الغبطة والسعادة على وجهه الملائكى المستدير حتى يخيل اليك انك امام طفلين . وان روحيهما منسجمان تماما . ويغمض رجل الرب عينيه ويصمت برهة فلا تقاطعه ايرما لعلمها انه منهمك فى منح فرانسس الصغيرة « جلسة علاجية » ، وهى نوع من الصلاة يملأ بها عقله ويثق بانه يؤثر فى عقل الطفلة الصغيرة عن هذا الطريق . ولم تكن ايرما واثقة بذلك الا انها لا ترى فيه ضررا ، لانه لا وجود الا للخير فى عقل هذا الشافى الوديع . وقد يبدو خائبا بعض الشىء وهو جالس مع السيدة سيزنسكى الوسيطةالبولندية حين تستغرق فى احدى شطحاتها وتجاذب اطراف الحديث بكل بساطة مع روح مزعوم من ارواح الهنود الحمر يدعو نفسه « تيكومسه » ، وهو هوائى صعب المراس يقول شيئا أو يرفض الكلام اطلاقا على حسب احترامك أو عدم احترامك له ، وعلى حسب اشراق الشمس أو عدم اشراقها فى عالم الأرواح . وتدريجيا ألفت ايرما هذه الأمور كلها ، لأن الأرواح لا تؤذى ، ومن المقطوع به أن السيد دنجل لا يؤذى ، بل انه على العكس من ذلك يشفيك ان شعرت بالمرض . وقد شفى بالفعل عدة أشخاص فى بيانفينى وقد تكون لذلك فائدته القصوى فى حالة الطوارىء .

تلك كانت خواطر ايرما اثناء زياراته ، فتوجه اليه اسئلة وتدع له الحديث عنها ، فما أشبه ذلك بالذهاب الى الكنيسة . لأن ايرما تجد

لذة فى الكلام عن محبة الناس وتعتقد أن ذلك قد يعـــود على بعضهم بالخير ، لانهم فى احـــاديثهم يعبرون عن حـــاجتهم الى هذه المحبـــة بالخير ، بما يكشفون عنه من عناصر الحسد والكراهية والخبث وعدم الرحمة ان مستر دنجل يريد أن يغير العالم كما يريد أن يغيره البلاشفة بيد أنه بدأ بنفسه ، وهى فكرة تبدو لايرما بديعة لأنها لا تهدد ثروة آل بارنز ولا مستقبل وريثتها . ويطالع هذا « الشاق » كتبه التصوفية ومجلات ما يسميه « الفكر الجديد » ثم يتجول فى انحاء الحديقة ناظرا الى الازهار والاطيار ، ولعله يمنحهم جلسة علاجية ، لأن فيهم ايضا حياة ولانهم ثمرة انتجها الحب . ويبدو أن بيانفينى تضم كل ما يحتاج اليه مستر دنجل وقلما كان يغادر الضيعة اللهم الا اذا دعاه أحد .

واغرب نزوة من نزوات القـــدر ان بيوتى بد الدنيوية اختارت بالذات رجل الرب هذا ليصحبها فى رحلة الهبوط من قمة الحياة الى السفح ، وكانت جميع صواحبها يضحكن من ذلك . ويتضجرن حتى الموت من جهودها لاستخدام لغة « الروحانيات » . ولكن هذا بالتأكيد لم يمنعها من العمل كالشيطان للايقاع بأعظم قنيصة فى الموسم لحساب ابنها ولا هو منعها من التباهى بانتصارها ذاك فى صفاقة . فحديث « بيوتى » الدينى شأنه شأن حديث لانى عن الاشتراكية لا يحملها على اتخاذ أى خطوات لتبديد جانب كبير من ثروة ايرما . بل همـــا على العكس توقفا عن اقامة الحفلات الكبيرة فى بيانفين ، وهو قــــرار عز على كل انســان فى « كاب دنتيب » ، من تجار وخدم وموسيقيين وخياطين وجميع المتعاملين مع الاثرياء . وعز ذلك أيضا على رجال المجتمــع ونسائه الذين أفزعهم الحديث عن الايام العصيبة المقبلة . فقد كان لابد لأحد أن يضرب المثل فى الشجاعة والاقدام . ومن أولى بذلك من الفتاة المتأنقة نجمة الاغراء التى تملك قبو بنك كاملا مكتظا بالاوراق المالية الثمينة المضمونة القيمة من الاسهم والسندات ؟ وماذا يكون من أمر المجتمع الانيق ان شرع اقطابه الكبار فى تحويل ضياعهم الى معامل للألبان وتحويل اشخاصهم الى ماشية منتقاة فى الحظائر ؟

وردت برقية من برلين تقول : « ينتظر وصول اليخت الى كان . سنسافر الليلة بالقطار . احجزوا أماكن في الفندق : بيسى » وبطبيعة الحال لم ينفذ لانى التعليمات الاخيرة ، فعندما يأخذك أصدقاء لك الى رحلة بحرية متحملين كافة نفقاتك عدة شهور لا يسعك ان تدعهم ينزلون في فندق ولو يومين ، فثمة « اللودج » وهو بيت ثالث في الضيعة ، وقد ظل خاليا طول الشتاء ، والآن يجب ان تفتح أبوابه وتتم تهويته وتنظيفه. وقد كلفت الآنسة فيذرستون بمهام كبيرة الخدم واخذت على عاتقها هذه العمليات . وسوف يتناول الضيوف المرتقبون الوجبات مع ايرما ولانى ، وستقوم الآنسة « فيذرس » بالتشاور مع الطاهى وترتب الحصول على المؤن اللازمة ، وبذلك تجرى الأمور بغاية من اليسر مثلما ينحدر الماء في مجرى الطاحون المائى ، وتواصل ايرما استلقاءها في الشمس ومطالعة المجلات والاستماع الى لانى وهو يعزف البيانو ، وترضع الطفلة فرانسس عندما تحملها اليها احدى الخادمتين .

واتصل لانى تليفونيا بصديقته اميلى شترزورت التى كانت تولى رعايتها لجميع وجوه النشاط الثقاف في هذا الجزء من الريفيرا ، فحجرة استقبالها ارحم بكثير من أى حجرة استقبال في بيانفيني وكان الناس معتادين على التوجه الى هناك كلما حضرت شخصية مشهورة . وهانسى روبن كان دائما يعزف لها ، وعندئذ يدعى الوجهاء المهتمون بالموسيقى واهل الموسيقى انفسهم المقبولون في المجتمع للقدوم الى مأدبة في « السبع بلوطات » وترسل اميلى شيكا الى هانسى يقوم بتظهيره لحساب مشروع العمال التعليمى ، وهذا المشروع هواية لانى الخاصة .

وقبل غروب الشمس مباشرة في ذلك اليوم جلس لانى وايرما في رواقهما المفتوح بينهما وهذا الرواق يطل على خليج جوان ، وراحا يرقبان اليخت « بسى بد » الابيض الانيق في انسيابه داخل مرفا كان . وقد عرفاه على مسافة بعيدة جدا لانه كان بينهما طوال الصيف الماضى، والآن لانى كان قد قام برحلتين بحريتين اخريين على ظهره .. ومن خلال منظارى ميدان مقربين استطاعا ان يعرفا الربان « مولر » الذى عرضت له يوما فرصة تزويجهما فنكل عنها ، وكادا يتخيلان انهما يسمعان صوته البروسى العريض عندما حان الوقت للابطاء توطئة للمرور من حاجز الامواج .

وفي صباح اليوم بعد التالي توجه لاني بالسيارة الى المدينة ومعه أخته الصغيرة غير الشقيقة مارسلين الى جانبه ، وسائق ايرما يتبعهما في سيارة أخرى . ودخل المحطة قطار الاكسبريس الازرق الطويل ونزل منه خمسة من أقرب الأصدقاء ، فضلا عن سكرتير وخادمة مربية ترتدي كساء وقلنسوة ذات شرائط زرقاء تحمل بين ذراعيها طفلا. وبسبب هذا الطفل تمت الرحلة البحرية في هذا الوقت المبكر من السنة ، فالأمان مرضعتان تريدان ضم مزرعتيهما للألبان وشحنهما على ظهر سفينة ونقلهما الى المواضع الجميلة من هذا البحر الداخلي العظيم المشهور في التاريخ .

وكان « لاني بد » قبل الحرب العالمية (الاولى) مباشرة — وهو يومئذ فتى صغير — قد التقى أثناء رحلة بالقطار برجل يهودي يبيع أجهزة كهربائية وانعقدت بينهما مودة ، وقدم الغريب الى لاني بطاقته . وظل ذلك الشيء الصغير مطروحا في درج من ادراج مكتبه ، ولولا أن لاني ينبش مصادفة بين محتويات ذلك الدرج في فترة تالية لاختلف طريق حياته اختلافا بينا جدا لأنه عندئذ ما كان ليكتب الى يوهانس روبن ، ولما حضر يوهانس لزيارته في باريس حيث التقى بوالد لاني .

وعن طريق أموال الوالد استطاع يوهان أن يغدو من أغنى الناس في المانيا . بل ولما قدر لأخت لاني غير الشقيقة ان تقابل هانسي روبن ثم تصدم اسرتها باقدامها على الزواج من موسيقي يهودي . وايضا لما أطلق على اليخت اسم بسي بد ، ولما اقل لاني واسرته في ثلاث رحلات بحرية ، ولما كان وسيلة لاني وايرما للزواج على عجل . بل ولما تزوجا على الاطلاق ولما كانت ثمة رحلة شهر العسل الى نيويورك ، ولما وجدت الطفلة فرانسس ، ولا اى مزرعة البان عائمة وباختصار لو كانت هذه البطاقة التجارية المكتوب فيها « يوهانس روبن وكيل وموزع أجهزة كهربائية بروتردام » ظلت متخفية تحت أربطة عنق لاني بد ومناديله لتغير الجانب الأكبر من حياة لاني .

- ٦ -

وعلى رصيف المحطة وقف انسانان سعيدان من أفراد الطبقة المزدهرة يرحبان بخمسة من أصدقائهم الحميمين . وكان كل انسان هناك يعرف من هم آل بد ، ويعرف انهم حين يحتضنون ويقبلون قوما وهم يضاحكونهم ويثرثرون معهم بمرح فلا بد أن يكون هؤلاء القوم من الأغنياء والمشاهير مثلهم . وانه لشيء مستحب أن يكون للمرء أصدقاء يستطيع

أن يحبهم ويقدرهم ويحبونه ويقدرونه ، وانه لأمر مستحب أيضا أن يمتلك المرء الفيلات والسيارات واليخوت ، بيد ان أناسا كثيرين لا يملكون هذه الاشياء ، وليس لهم أصدقاء كثيرون أعزاء ، فهم يعرفون انهم باهتون غير مرموقين وهم يستشعرون الوحدة ، فيقفون ويرقبون بحسد أسيف سلوك الطبقات المحظوظة في تلك المناسبات القليلة التي يتنازل فيها افرادها فيظهرون شعورهم على الملأ .

وكان يوهانس روبن صورة مجسمة للرجل الذي عرف كيف يستغل الفرص التي أتيحت له في هذه الدنيا . فمعطفه الاسود من أرقى الأقمشة مبطن بالحرير ، وقبعته الهمبورج السوداء ، وشاربه الاسود الصغير المشذب بأناقة ولحيته الامبراطورية المدببة ، وحقائب سفره المصنوعة من افخر الجلد وعليها بطاقات فنادق كثيرة في مدن شتى ؛ وأسلوبه في تمالك نفسه بهدوء ، وصوته الذي يبدو وكأنه يداعبك ان كل شيء فيه عموما على ما ينبغي بالضبط فقد سعى ليصل الى أحسن مظاهر الجسد والذهن ثم عرف كيف يعرضها على سائر من في الدنيا . فلا يمكن أن تسمعه يقول « انظر الى ما حققته انا يوهانس روبن » بل هو حري ان يقول « يالها من حضارة خارقة تلك التي استطاع فيها طفل جالس على ارض من الطين في كوخ بحي اليهود يتلو عن ظهر قلب نصوصا عبرية وهو يهرش المواضع التي قرصته فيها الحشرات ، أن يصبح في مدى أربعين سنة صاحب كل هذه الأموال الطائلة » وقد يضيف الى ذلك قوله ، ولست واثقا انني أحسن استخدام هذا المال الطائل على خير وجه . فما رأيك أنت ؟ وبذلك يتملقك بطريقة خفية .

أما ماما روبن فليس في وسعك ان تغير من أمرها كثيرا من حيث الأناقة . فانك قد تستخدم امهر الخياطين وتمنحه تفويضا كاملا فيما يختص بالثمن . ولكن « ليئة » زوجة « ياشا » ربنوفتش ستظل دائما اما من يهود وسط اوروبا وقد صارت الآن جدة تزداد كل سنة «كعبرة» ، ولا يمكن أن يطرأ على لهجة كلامها أى تحسن ، سواء تكلمت الهولندية أو الألمانية أو الانجليزية . فان لم يعجبك هذا واردت شيئا غيره فعليك أن تنتقل الى جزء آخر من الحجرة .

وكانت السنة العصرية الجارية على سهولة الطلاق ثم الزواج مرة أخرى قد خلقت تعقيدات لعلماء الانساب حتى ان لانى سئم كثرة الشرح كلما قام بتعريف أختيه غير الشقيقتين فصار يقول انهما شقيقتاه ويترك الناس يحلون اللغز بأنفسهم . واسم مرسلين ديتاز ينطق بانها بنت

الرسام الذى لقى مصرعه فى الشهور الاخيرة من الحرب ٠ وكان من الممكن أيضـــا ان يخمن المرء أن « بسى بد روبن » ابنـــة والد لانى المقيم فى نيوانجلندا وكان أسلافها قد شقوا طريقهم فى حياة شاقة شريفة على ذلك الساحل المتجهم المحفوف بالصخور ، ولذا جاءت بسى طويلة القامة نحيلة القسمات ، يرتسم على محياها الوعى والجد ، فشعرها البنى المستقيم معقود فى مؤخرة راسها ، وثيـــابها ابسط ثياب يمـــكن أن يســمح صناع الازياء بعرضها فى متاجرهم ٠ وهى فى الثانية والعشرين متزوجة منذ أربع سنوات ، بيد انها ارجأت انجاب الاطفال لتصميمها على العزف بمصاحبة هانس وعلى المستوى الذى يريده بالضبط ٠

وانه لمما يؤثر فى النفس جدا أن ترى كيف ترقب كل خطوة يخطوها ، وكيف تدير اموره كلها بالضبط كما كانت أمهـــا تدير دفة البيت فى مسقط راسها ٠ فهى تحمل عنه صـــندوق كمانه ولا تسمح له بحمل حقيبته لأن هذه الاصابع الدقيقة رغم قوتها يجب أن تخصص لتوقيف اوتار الكمان أو حمل وتحريك قوسها ٠ وهانس جهاز مخصص لانتاج الانغام فحينما يمضيان فى جولة للعزف تقوم بلفه بعناية وتسليمه الى منصة العرض ، ثم تلفه بعناية مرة أخرى وتحمله الى فندق وتضعه فى فراشه ٠ ووجه هانس اشبه بوجه قديس شاب وفى عينيه السوداوين روحانية ٠ واحلام هانس عن الجمال والمحبة تتجسم فى صوت يخرج السيدات عن طورهن فيصفقن مضمومات الاكف ويندفعن الى منصة العزف ويحاولن القاء أنفسهن على قدميه ، ان لم نقل على راسه لولا وجود هـــذه الفتاة اليقظة المنتصبة الســـاهرة على حراســـته ســـليلة المتطهرين من المسيحيين وعلى فمها الصيغة التى ترددها كلما اقتضى الامر ذلك « انى اصنع لزوجى كل ما يحتاج اليه ، كل شىء بلا استثناء » ٠

والعضوان الآخران فى المجموعة هما زوجة فريدى روبن وابنهـــا الطفل الذى يكبر الصغيرة فرانسس بشهر واحد ٠ وفريدى طالب بجامعة برلين يأمل أن يحصل منها على درجة علمية فى الاقتصاد ٠ واسم الزوجة راحيل وهى فتاة جادة دمثة تسهم فى جوقة المنشدين على اليخت بصوت متزوسوبرانو ، وتتولى القيادة فى الكورس الغنائى ٠ ففى وسعهم اذن بعازفين على البيان وعازف على الكمان وعازف على الكلارينيت بالاضافة الى آرمونيكا مستر دنجل ان يمخروا عباب البحر الأبيض المتوسط فى أمان لأن فى استطاعتهم ان يفرقوا بأنغامهم اصوات ، الحوريات اللواتى ما يزلن جالسات فوق شطآنه الصخرية ٠

ان كانت الموسيقى غــذاء الحب فاعزف ! لقد كانوا متجمعين فى استديو لانى فى بيانفينى الذى كان قد شيد لمارسيل وأتم فيه افضل اعماله فى الرسم • وثمة عدد كبير من أعماله على الجدران ، ومائة منها او أكثر مخزونة فى حجرة خلفية • أما البيان فهو الجهاز الكبير الذى كان لانى قد اشتراه لكيرت مايسنر فاستخدمه سبع سنين قبل أن يرحل عائدا الى المانيا • والاستديو مبطن برفوف الكتب التى تضم مكتبة خال «لانى» الاعلى • وها هنا تقوم شتى صنوف ذكريات الموتى وآمال الاحياء ، مع خزانات للنوتات الموسيقية تتجسد فيهـا الكنوز البشرية من هـذين الصـنفين وتبقى محفـوظة • وكان هـانسى وبس يعزفان كونشرتو تشايكوفسكى الكبير الذى يعنى الكثير لديهما ، فقد أداه هانسى عندمـا عزف لأول مرة فى قاعة كارنيجى ، وكانت بس ووالداها بين الجمهور ، مما جعل المناسبة دقيقة جدا وحرجة بالنسبة للعاشقين الشابين المتلهفين•

وفى المساء التالى توجهوا الى ضيعة « السبع بلوطات » حيث قابلوا جماعة مرموقة معظم أفرادها من أهل الوجاهة الذين لم يغادروا بعـد الشاطىء الأزرق وقد توجهت الاسرة بأكملها بما فيها ايرما وراحيل ، فحيث ان المسافة لا تزيد على خمس عشرة دقيقة بالسيارة من بيانفينى ففى وسع الامين الشابتين المرضعتين ان تحظيا بثلاث ساعات ونصف من الموسيقى والحياة الاجتماعية • ولكن ينبغى عليهما الا تتعرضا للاثارة • وكانت كل منهما تشد عزم الأخرى وتجعل حياتها « البقـرية » أهون احتمالا على نفسها • والعمل الباهر الذى تقومان به كان يعتبر تطرفا جميلا لا ضرر منه تلغط السيدات فى شأنه ، فتتذكره المسنات لأزواجهن أما الشابات فيلزمن الصـمت حتى لا يدخلن فى أذهـانهن فكرة غير مرغوب فيها • فلا مكان فى أسرتنا لروسو • اننا لا نحتاج اليه •

وعرف هانسى وبس السيمفونية الاسـبانية للالو ، وهى معروفة يرحب بها السامعون وينبغى أن تكون من محفوظات كل موسيقى نابه • ففيها اسى ونغمات (أنغام بطيئة نوعا ولكنها متدفقة) مؤثرة تستخرج من السيدات التأوهات • وفيها أيضا أنغام تشيرتزاندو (مرحة هازلة) يستطيع أصحاب القلوب الشابة أن يرقصوا عليها فوق مروج يتناثر فيها الزهر • ولم تكن المناسبة بمثابة عطلة أو ازجاء فراغ لدى بس والتى لم تكن واثقة من صلاحها للظهور فى هذه الجماعة شديدة التأنق والتزمت ، بيد أنها مضت فى العزف بنجاح وتلقت نصيبها من الثناء والتهانى أمـا

لانى الذى كان يعرف الموسيقى تمام المعرفة فسمح لعينيه بالتجوال بين الحاضرين وهو يتساءل ماذا عساهم يفقهون منها وراء الاقنعة السميكة التى يصنعونها على سحنهم • ماذا تعنى لديهم سبحات العبقرية هذه وهذا النداء المتصل الى الروح الانسانية والاثارات التى لا تفتر للنشوة ؟ واقدام من هذه التى تستطيع التنقل بسرعة كافية فوق تلك المروج ؟ وثبات من هذه التى تستطيع القفز الى ارتفاع كاف فوق قمم هذه الجبال ؟ ومن ذا الذى يبكى على هذه العوالم الميتة ؟ ومن ذا الذى يسير فى هذه المواكب الظافرة احتفالا بمولد عهود جديدة ؟

لقد استطاع لانى بد وقد بلغ الثلاثين من عمره أن يصل الى فهم عالمه ، وزايله كل وهم خادع فيما يتصل بالسيدات والسادة الذين يحضرون سهرة موسيقية • فالعقائل الضخمات الثريات كن يلعبن طيلة ما بعد الظهر البريدج وقضين ساعات طويلة جدا فى اختيار الأقمشة والخفاف المزينة بالجواهر وأوشحة العنق ودبابيس الصدر والاكاليل التى تتألف منها زينتهن الباهرة • فأى خطوات يخطونها ولو فى الخيال ؟ وأى دموع عساهن ذرفنها على آمال البشرية الضائعة ؟ ان بينهن صديقة بيوتى مدام دى ساكريه ومعها ابنتاها فى سن الزواج وابنها الوحيد المعبود الذى بعثر ثروتهن فى القمار • وشك لانى فى أن يكون أحد من الاسرة كلها يفكر فى الموسيقى •

وهؤلاء السادة بستراتهم السوداء وواجهات قمصانهم البيضاء كالثلج التى ساعدهم مستخدموهم على الاكتساء بها ، اى جيشان من الحبور والجذل يثير الليلة أرواحهم ؟ لقد تناولوا جميعا عشاء طيبا ، وأكثر من واحد من بينهم يبدو عليه النعاس • وثمة آخرون ثبتوا عيونهم على ظهور السيدات العارية من أمامهم • وعن كثب من الموسيقيين جلس جراف هوهنشتاوفن وهو مالى المانى على عينه مونوكل ، وقد وضع على شفتيه ابتسامة سرور طوال الجزء الأخير الجياش من المعزوفة • وكان لانى قد سمعه يخبر يوهانس روبن انه حضر لتوه من مكتب سمسار حيث علم بأسعار الاقفال فى نيويورك • وفى شهر ابريل ذلك من سنة ١٩٣٠ كان ثمة ظاهرة بازغة يطلقون عليها اسم (سوق الصعود الصغير) فالأحوال اخذت تنتعش مرة أخرى والمضاربون بدءوا يفيضون حماسة • ترى هل كان هذا المكبر للصوت يحول فى ذهنه حركات هانس المحمومة على الكمان الى تقلبات أسعار للأسهم والسندات ؟ •

ومع ذلك قد يوجد بين الحاضرين من يفهم ، ومن يكون له قلب

شريد يخفي أحزانه ويعيش في سعادة داخلية خفية ويجلس صامتا هائما بعد انتهاء العزف يمنعه خجلا فلا يقترب من العازفين ليشكرهما ، ثم قد يخرج من هنا بآمال جديدة في عالم استطاع مثل هذا الجمال أن يتجسد فيه صوتا مسموعا • ومهما يكن من شيء فقد قام هانسي وبسي بواجبهما ازاء مضيفتهما ، وهي سيدة عظيمة ذات شعر أبيض تبدو لها رائعة على الدوام لأنهما في قصرها القريب من باريس التقيا واكتشف كل منهما صاحبه •

- ٨ -

عد ذلك الحفل نصرا اجتماعيا ولكنه لم يكن كافيا في نظر الشبان ذوي المعتقدات الحمراء على اختلاف درجاتها ما بين الوردي والقرمزي ففي مدينة « كان » القديمة بالقرب من المرفأ يقيم أعضاء الطبقات المسحوقة ، وكان « لاني » قد صاحبهم عدة سنين حيث كان يعلم آراءه في مدرسة من مدارس الأحد عجيبة لا دينية ، وحيث يساعد بماله في تاسيس مركز لما يسمى « تعليم العمال » • وصار له أصدقاء كثيرون هنا ، وصنع كل ما في وسعه لتحطيم الحواجز الاجتماعية • وكانت النتيجة ان الساقي في احدى المقاهي الراقية ربما قال له « مساء الخير أيها الرفيق «لاني» وعندما يخرج من سيارته ليدخل الكازينو او النادي البحري او أي مكان انيق آخر ربما استوقفه بعض غلمان الشوارع الصغار ليشدوا على يده ، بل وليحيطوه احيانا باذرعهم • فماذا عسى هؤلاء الناس ان يحسوا ان هم علموا ان عازف الكمان الشهير زوج اخت لاني قد حضر الى المدينة واقام حفلة عزف فيها للاغنياء واهمل الفقراء ؟ من غير المعقول ان يبحر فوق يخت فاخر للملذات من غير ان يحيي العمال ذوي الحساسية الطبقية الشديدة وكان « راءول بالما » الذي يدير المدرسة قد أخطر بالزيارة المرتقبة فاستأجر قاعة مناسبة وطبع كتيبات يقوم بتوزيعها غلمان الشوارع الصغار • وعندما يعزف هانسي روبن في القاعات الموسيقية يدفع الأغنياء مبالغ تصل الى مائة فرنك كي يسمعوه اما العمال ففي وسعهم ان يسمعوه بخمسين سنتيما ، وهو مبلغ يقل عن سنت ونصف سنت بالعملة الامريكية • وهذا امر فظيع من وجهة نظر مدير اعمال هانسي ، بيد ان هانسي ابن رجل غني ولابد ان يسمح له بتنفيذ نزواته • واينما ذهب يسري الخبر وياتي زعماء الطبقة العاملة اليه طالبين العون ، وهو شاب قوي ويحب مزاولة تمرينات العزف على كل حال فلماذا لا يفعل ذلك فوق منصة أمام اشد صفوف الجمهور تقديرا له ؟

وقد يكون السبب فى ذلك علمهم أنه « رفيق » وانهم يستشفون فى موسيقاه أشياء لا وجود لها · ومهما يكن من شىء فهم يجعلون من المناسبة مظاهرة عامة ، ويدخلونه سويداء قلوبهم ويطيرون معه فوق أجنحة الأنغام الى تلك الأرض السعيدة ، أرض المستقبل التى سيكون فيها جميع البشر اخوة ، وحيث تكون الفاقة والحرب من ذكريات الماضى الشرير · ولم يكن هـــانسى يعزف لهم المؤلفات المستفيضة ولا يقوم بمحاولات فنية جريئة بل انه كان يعزف موسيقى بسيطة تدفىء الروح ، يعزف « اراجيو » من احدى سوناتات « باخ » المنفردة ،وتتلوها «بريلود» من «سكريابين» فيها وقار دمث مع وقفات مزدوجة بديعة للغاية ويضيف الى ذلك أشياء مرحة براقة مثل توزيع بيرسى جرانجر المعزوفة « مولى على الشاطىء » وعندما يتوسلون اليه أن يعـــزف المزيد يقودهم الى عربدة صاخبة بعزف « رقصة الجن » لبازينى · وفى هذه المعزوفة يعلو صرير الجن وصهيلهم وتمتمتهم وثرثرتهم بحيث لم يكن يخطر بأحلام الناس أن مثل هذه الأصوات السحرية الغريبة يمكن ان يخرجها كمان أو اى أداة أخرى ، ويكاد يعجزهم كبح ضحكاتهم وتصفيقهم الى مابعد فرار الجن الى كهوفهم أو الى حينما يذهبون عندما ينهكون قواهم بالرقص ·

ولما يتقدم الوقت وتحين ساعة الانصراف ترسل « بسى » النغمـــات الافتتاحية للنشيد العالمى ، وهو من عمل رجل فرنسى · وسواء كان الحاضر ورديا او قرمزيا او من أى لون فيما بين هذين فهو يعرف فيما يبدو كلماته، وكأنما سرت فى المقاعد التى يجلسون فوقها شحنة كهربائية فاذا هم يقفزون واقفين على اقدامهم منفجرين بالغناء ، فلا تستطيع بعدئذ ان تسمع الكمان « انهضوا ياسجناء الجوع انهضوا يابؤساء الارض » ويتكاثر العمال حول المنصة · ولو تركهم هانسى لهواهم لحملوه وحملوا لانى وبسى ايضا الى سياراتهم · بلانهم حريون أيضا ان يجروا السيارة على طول الطريق الى كاب دنتيب ·

- ٩ -

انساب اليخت بسى بد الابيض الانيق ببطء الى ماوراء حاجز الامواج فى « كان » واخترق خليج جوان مارا بتلك المجموعة من المبانى المسقوفة بالقرميد الاحمر التى كانت موطن لانى بد منذ اوائل ماوعت ذاكرته · اما الآن والشهور كثيرة فسيكون اليخت موطنه · ويقل ذلك اليخت خمسة

افراد وكسرا صغيرا من اسرة روبن — ان كانت هذه هي الطريقة السليمة في احصاء الاطفال — واربعة افراد وكسرين من اسرة بد ، وهم لاني وزوجته وطفلتهما وبيوتي وزوجها وابنتها وهذه اول رحلة باليخت لمرسلين ابنة الثانية عشرة ، وقد جاءت معها مربيتها الانجليزية المخلصة الآنسة ادنجتون ، كما جاءت ايضا الآنسة سيفيرن للعناية بالطفلة فرانسس تساعدها في ذلك احدى الخادمات المربيات ٠ وكانت هناك اخيرا السيدة سيزنكي ، ومن المأمول ايضا ان يكون قد جاء معها تيكومسة مع فرقة ارواحه ، فهم لايحتاجون الى مساحة في قمرات اليخت ٠

وكان الصباح خاليا من الرياح ، والبحر ساكنا تماما ، والشاطيء لم يزل قريبا ، والاتجاه صوب الشرق ، والريفيرا تنساب مارة بهم كأنها منظر شامل غامر لانهاية له ٠ وهذا المنظر مألوف للاني كأنه حديقته الخاصة ، ولذا وقف بجوار السياج وراح يشير لاصدقائه الى المعالم البارزة ٠ ويالها من طريقة مستحبة جدا لدراسة الجغرافيا والتاريخ معا ومن المبهج حقا ان يتناول المنظار المقرب وينتقي المواضع التي لعب فيها التنس او رقص او تعشى ٠ وسرعان ما بدت « مونت كارلو » وهي مدينة صغيرة تحتشد ابنيتها فوق صخرة ٠ واشار لاني الى منزل زاهاروف ملك الذخائر والاسلحة قائلا « هذا هو وقت جلوسه في الشمس فوق هذه المقاعد » وراحوا ينقبون ولكنهم لم يروا سيدا مسنا ذا لحية مدببة بيضاء وسرعان ماظهرت منتون ، وقال لاني « هاهي فيلا بلاسكوايبانيز» وكان قد مات اخيرا منفيا من الطغيان في اسبانيا ٠ اجل انه التاريخ على مدى بضعة الوف من السنين يرتسم على طول هذا الشاطيء ٠

ثم لاحت ايطاليا ٠ لاحت مدينة الحدود حيث ابعد عن البلاد اشتراكي شاب لانه حاول الاحتجاج على مقتل متيوني ٠ ثم سان ريمو حيث حضر لاني اول مؤتمر دولي بعد صلح فرساي ٠ وكان لاني وهو في الرابعة عشرة قبل ذلك بزمن طويل قد ارتحل بالسيارة المسافة كلها حتى نابلي في صحبة صاحب مصنع للصابون من روبنس بولاية انديانا ٠ ولاني يشعر على الدوام انه يعرف ولايات الغرب الوسطى الامريكية عن طريق حكايات عزرا هكبيوري الذي كان يحمل اقراصا صغيرة نماذج من صابون « الطائر الأزرق » اينما ارتحل في انحاء أوربا ليعطيها للاطفال المتسولين الذين كانوا يحبون رائحتها ولكنهم يكرهون طعمها ٠ «وكرارا» برخامها ذكرت « عزرا » بمكتب البريد في بلدته ، ولما رأى برج بيزا المائل قال ان في وسعه اقامة برج من الصلب اشد ميلا من هذا البرج ، ولكن ما جدوى ذلك ؟

ووقعت مصادفة غريبة ففى حين كان لانى جالسا فوق ظهر اليخت يروى أقاصيصه على مسامع آل روبن ،اتجهت والدة لانى وزوجها قمرة السيدة ســـيزنكى ليتبينا حل بر الهندى الأحمـــر بوعده وتبعها الى اليخت • وغرقت المرأة البولندية فى سبحات سباتها وعلى الفور خرج الصوت القوى المفروض انه من قبيلة ايروكوى الهندية الحمـــراء ، وان كانت لهجته بولندية • وقال تيكومسة ان ثمة رجلا يقف الى جواره يقول ان اسمه عزرا ، واسمه الآخر يبدأ بحرف الهاء بيد ان صوته ضعيف بحيث لايستطيع تيكومسة أن يسمع الاسم بأكمله وان كان يوحى اليه بالتفكير فى قصاب ولكن لا أن الرجل يقول انه ينظف الناس لا الحيوانات وأنه يعرف لانى ويعرف ايطاليا •وطلب سؤال لانى هل يتذكر ؟ ـ ماذا ! شيئا عن الروائح فى خليج نابولى وعن رجل كان يربى دودا لطعم السنانير ، وكان مستر دنجل هو الذى يقوم بالاستجواب فاستفسر منه عن معنى ذلك ولكن تيكومسة أعلن أن الروح تلاشى •

وهذا حادث من تلك الحـــوادث التى تدفع الباحثين النفســـيين الى تدبيج تقارير طويلة وفكرت بيوتى فى عزرا هكبيورى على الفور ، بيد انها لم تكن تدرى ان « لانى » يحدث آل روبن عنه فوق ظهر اليخت • ولاهى كانت تدرى كيف استشهد صانع صابون الطـــائر الازرق بالروائح فى ميناء نابولى للتدليل على ان لانى كان يذكر ذلك جيدا ، ويذكر أيضا أن السيد القادم من ولاية انديانا حدثه عن مهنة غريبة تقوم على تربية دود الصيد وغرسه فى التربة للابقاء على تفتح مسام الأرض • فماذا عسى أن يرى المرء فى مثل ذلك الحادث ؟ أكان السيد هكبيورى موجودا هناك حقا ؟ وهل مات ؟ ان لانى لم يسمع خبرا عنه منذ ســـنين • ولذا جلس وخط رسالة تودع فى جنوا لم يذكر فيها شيئا عن الارواح بل قال انه فى طريقه الى نابولى وفى نيته أن يسير فى السبيل الذى سلكته الرحلة على اليخت « الطائر الازرق » فهل يذكر صديقه القديم نزهتهما بالسيارة والروائح المنبعثة من الخليج ؟ وكيف أحوال الرجل الذى يربى دود صيد السمك ؟ واضاف لانى أيضا « دعنى اعرف اخبارك ، لاننى وأمى نتحدث فى أوقات كثيرة عن تلطفك الجم معنا » وكان يأمل فى حالة وفاة عزرا هيكبيورى أن ينبرى احد أفراد أسرته للرد •

ونزلوا الى الشاطىء فى جنوا لتفقد تلك المدينة الموغلة فى القدم • فوجدوا فى لانى دليلا لأنه كان تجول بين الشوارع هناك مدى اسابيع كثيرة أثناء مؤتمر جنوا • وزاد من استمتاعه أنه ماكان ليسمح له بدخول البلاد لو تحققوا من شخصيته ، الا أن الموظفين المحليين ماكانوا ليعرفوا شيئا عن تلك المغامرة القديمة أو ليفكروا فى استجواب أناس وجهاء هبطوا الشاطىء من يخت خاص ، أو ليراجعوا اسم كل سائح على سجلات القيادة الفاشستية فى روما وهكذا لم يوجه اليه سؤالا • فايطاليا بلد فقير والزائرون يحملون اليها النقد الأجنبى الذى تحتاج اليه كثيرا • وكلما كانوا اغنياء زاد الترحيب بهم ، وهى قاعدة سارية المفعول فى معظم انحاء العالم •

واستأجروا ثلاث سيارات طافوا بها المدينة التى تحتشد ابنيتها بين الجبال والبحر ولما كانت عاجزة عن الصفو فوق البحر فقد اضطرت الى تسلق الجبال • وابنيتها العالية القديمة متلاصقة ،ولكنائسها واجهات ذات خطوط من المرمر الأبيض والآسود وفى داخلها رسوم رتيبة متشابهة لنساء ايطاليات حزينات يحملن بين اذرعهن أطفالا • وأمام مزارات الاضرحة تماثيل لاجزاء من أجساد تم شفاؤها بالمعجزات ، وهى أمور لا تشاهد عادة خارج المستشفيات وكان من الممكن أن يهتم السيد دنجل بهذه الشئون لولا تحامله العميق على النظام الكاثوليكى الذى كان يصفه بالوثنية • وكذلك كان أيضا فيما مضى رأى مستر هكبيورى •

وأراهم لانى قصر سان جورجو القديم حيث عقد المؤتمر ، وهو مكان قذر مقبض يحزن القلب يتناسب مع النتائج التى انتهى اليها الاجتماع • ففى ذلك المؤتمر أدلى لويد جورج بأزهر الوعود بالسلام والرخاء أمام ممثلى تسع وعشرين دولة • وبعد ذلك ظل الزعماء وراء الكواليس ستة اسابيع يتنازعون فى امتيازات البترول يمنحها الروس لمن من الدول وكان والد لانى حاضرا يحاول الحصول على نصيب • فكان ذلك أول فشل له وبداية سلسلة من الفشل لجميع الاطراف المعنية • وبدلا من السلام أقدمت الأمم على مزيد من التسليح ومزيد من الديون • وبدلا من الرخاء جاء الانهيار المالى فى « وول ستريت » ، وصار الكل يرتعدون خشية ان يمتد الانهيار الى بقيه انحاء الدنيا •

لم يكن هذا كله أبهج مجال للحديث بالنسبة لقوم يقومون بجوله هدفها الاستمتاع بمشاهدة المناظر الخلابة ، ولذا تحدث لانى عن فريق من الصحفيين والكتاب الذين التقى بهم فى هذا المؤتمر وتحاشى الاشارة الى الحادث المأسوى الذى وضع حدا لاقامته فى جنوا ولكن فيما بعد ، عندما عادت أيرما وراحيل الى اليخت وذهب هو لرياضة على الأقدام مع هانسى وبسى فتحدثوا عن تلك الزعيمة الايطالية النقابية التى دفعتهم الى التفكير فى موضوع العدالة الاجتماعية وكان الزوجان الشابان ينظران الى بربارة بلوليبيزى على انهابطلة وشهيدة من شهداء الطبقة العاملة ويقدسان ذكراها كما يقدس الطليان الأم العذراء التى لا يسامون رسم صورتها ولكن الارهاب الفاشستى محا كل أثر لتنظيم بربارة ، وصار اظهار العطف عليها سببا لتعريض أى أيطالى للنفى والتعذيب فى احدى تلك الجزر القاحلة فى البحر الأبيض المتوسط التى يستخدمها موسيلينى معسكرات للاعتقال ٠

وحينما يتحدث المرء فى أمور من هـــذا القبيل يفقد كل الاهتمـــام بالابنية القديمة وبصور العذراء المتكررة بلا نهاية ويفقد الرغبة فى تناول أى غذاء من هذه المدينة أو انفاق أى نقد أجنبى فيها بل تستولى عليه الرغبة فى نفض ترابها الدنس من قدميه ٠ ولكن الأهل المسنين اتوا الى هنا لامتاع انفسهم بمشاهدة المنظر ولذا فليصعد المرء سائرا على قدميه تلك االشوارع الضيقة حتى يصل الى التلال فيجد أزهار الربيع غزيرة والهواء يهب نقيا من البحر ٠ ولقد كانت هبات الطبيعة هـــذه موجودة قبل ظهـــور النفاج الفاشستى التعس ، وستبقى طويلا بعد أن يغدو جيفة نتنة فى خياشيم التاريخ ٠ فلنحاول الا نبغض ذوى القمصان السود حين يختالون بأحذيتهم اللامعة ومسدساتهم وخناجرهم المدلاة من احزمتهم ولنعتبرهم أطفالا مضللين كتب عليهم أن يدفعوا من دمهم يوما ما ثمن اختيالهم وتعاليهم « أغفر لهم ياأبتاه فهم لايدرون مايصنعون » ٠

وعندما تهبط من الاعالى وتصعد الى ظهر اليخت مرة أخرى تحتفظ بافكارك لمجموعتك الصغيرة ولاتقول شيئا للمسنين الذين شبوا فى عالم مختلف ، فليس فى وســـعك أن تغير عقيدتهم ولن تصـــل الا الى افساد عطلتهم عليهم فاعزف موسيقاك ، وطالع كتبك ، وفكر افكارك ، ولا تنزلق الى مجادلة فليس هذا أسلوبا مقنعا تماما للحياة ولكنه الاسلوب الوحيد الممكن حينما تتغير الدنيا بسرعة بحيث يغدو الفارق بين الآباء والبنين فى الافكار والقيم ألف عام ٠

الفصل الثالث

وحاولوا الاختيار

- ١ -

لقد اضحت السفينة الانيقة «بيسى بد» البيضاء وسط جزر اليونان، حيث احبت سافو المشبوبة العواطف وتغنت ، وحيث صاد لانى وهو فى الرابعة عشرة من عمره السمك وسبح وتسلق التلال ورنا ببصره متطلعا الى اطلال المعابد القديمة • وشق اليخت طريقة وسط خليج كورنتوس وشد شدا وثيقا الى مرسى ميناء بيريه الذى كان قد ناله شىء من التحسين، وركب الضيوف سيارة اقلتهم الى مدينة اثينا وصعدوا تل الاكروبول على ظهور حمير صغيرة الحجم لم ينلها ايما تحسين ، ورنوا الى أشهر اطلال الدنيا ، وحدثهم لانى عن « ايزاد ورادنكان » ورقصها هناك ، وكيف وضحت لرجال الشرطة المستنكرين ان هذا أسلوبها فى الصلاة •

والقت السفينة بيسى بد مراسيها فى بوغاز اتالانته ، وقام لانى بتدلية شص الصيد بخبرته فاخرجت مخلوقات عجيبة الشكل لم يتغير فيها شىء منذ ستة عشر عاما ، ولعلها لم تتغير كذلك منذ ستة عشر مليونا • واستقل الضيوف زوارق ذات مجاذيف الى مدن عدة ، وشربوا قهوة مسرفة الحلاوة من أوان من الفخار ذات مقابض طويلة ، وحملقوا فى منظر غريب تمثل فى رجال طوال القامة يرتدون ثيابا ذات ثنيات طويلة كأنها الاكورديون بيضاء منشاة كتلك التى ترتديها راقصات الباليه • وتسلقوا التلال التى تعلوها المعابد القديمة وحاولوا التخاطب بلغة الاشارة مع رعاة أقاموا هناك أكواخهم المخروطية الصغيرة من أعواد القش والاغصان •

وكان جانب من التاريخ فيما بين زيارتى لانى لهذه المياه قد جرت أحداثه هناك ، ففى هذه المياه كمنت الغواصات الالمانية ، وراحت السفن البريطانية والفرنسية تتصيدها ، ونشبت مبارزة مريرة فى الدسائس

بصـــدد الدور الذى ينبغى أن تؤديه اليونان . وكان الحلفـاء قد أنزلوا جيشا فى سالونيكا وهاهى ذى السفينة بيسى بد تسير الآن متتبعة طريق تنقلاتهم هناك فتجول ضيوفها بالسيارة فى ارجاء مدينة عتيقة ذات شوارع ضيقة ملتوية بها عدد كبير من المساجد تعلوها مآذن شاهقة . وتجول بين التلال ذوو النشـــاط من أعضـاء الجمـاعة حيث سارت من قبل جنود الاسكندر فى طريقها الى غزو بلاد الفرس ، ومن حيث جاء السلافيون فى القرن السابع ، يتلوهم البلغار والعرب والغاليون والبندقيون والترك .

ان من الناس من له حاسة لادراك الماضى ويحرك مشاعره التفكير فيه ومثول مخلفاته بين يديه . وثمة آخـــرون لا نصيب لهم من هذه الحـــاسة الا الاقل ، انهم يفضلون أن يلعبـوا البريدج على أن يتسلقوا لمشاهدة الموضع الذى جرت فيه معركة أو عبدت فيه ربة . وقد اكتشف لانى ان زوجته من هذا الفريق الاخير فهى لا تخلو من الاهتمام بالقصص التى يرويها للجماعة ، ولكن بمقدار ، وفى حين ينهمك هو مع هانسى فى دراسة شظايا عمود ساقط على الارض تنصرف ايرما الى مراقبة الحملان فى توائبها بين أزاهير الربيع ثم تقول : « اوه . ما أبدعها ! » واذ تلاحظ ان حملا من بينها شرع يحك امه بانفه ، تنظر الى ساعة معصمها وتقول : « لا تنسى انه يجب علينا الرجوع الى اليخت فى مدى ســاعة » . فيمتد لانى الى عالم اليوم ، ويستأنف لذة دراسة أطوار الاطفال التى كان قد بدأها منذ أمد طويل بمرسلين .

- ٢ -

وعندما تعيش ليل نهار على ظهر يخت على اتصال وثيق برفاقك من الضيوف فلن يسعهم أن يخفوا عليك شيئا . وكانت هذه رابـع رحلة بحرية للانى مع يهودى من رجال المال ، بيد انه لم يكل من دراسة هذه الشخصية المركبة الغامضة الخفايا . لان يوهانس روبن لم يكن مجرد فرد ، انه فى الوقت نفسه سلالة وثقافة معينتين ، انه دين وتاريخ لجانب من البشر على مدى بضعة ألوف من السنين . ففهمه حق فهمه معضلة لا فى علم النفس وحده ، بل فى شئون الاعمال والمال ، وأيضا فى الادب واللغــة وعلم أصول الســلالات وعلم الآثار القـديمة ، وهى قائمة من الموضوعات التى يشعر نحوها لانى بحب استطلاع .

ان هذا الرجل الكثير الاعمال والمشاغل قد يبدو لك أحيانا وكأنه

طفل فى رقة قلبه ثم اذا به يذكرك صراحة بانه لا يشتغل بالتجارة لوجه الله • ففى وسعه أن يكون صريحا الى درجة تضع ذوقه موضع الشك ، كما ان فى مقدوره أن يكون مراوغا مثل أى دبلوماسى لقد راقب لانى مسلكه فى اثنى عشر مؤتمرا عالميا شهدها ، انه قد يشتد على شخص فى صفقة شدة مفرطة ثم ينتهى فينفق ببذخ فى اكرام وفادة ذلك الشخص بعينه ! وهو جرىء ، بيد ان المخـــاوف تطارده باستمرار • وهو شديد الرغبة فى الحصول على رضا الناس ، الا انه قمين أيضـــا أن يدرسهم وينتهى فى حكمه الى ان رايهم لا يساوى كل هذه القيمة • وأخيرا يوجه قوة ملاحظته الى هذه المتناقضات فى نفسه ، ثم يفضى الى لانى الذى يثق به بهذه الآراء فى أسلوب محير •

وكانا جالسين على ظهر اليخت بعد أن آوى الآخرون الى الفراش • والليل ساكن ، واليخت ينساب فوق الماء فلا يكاد يند عنه صوت • وفجأة قال المضيف : « اتدرى كم تتكلف هذه الرحلة فى كل ساعة ؟ » فقال الضيف مأخوذا : « لم أحاول أن اقوم بهذه الحسبة » فاجابه : « ما كانت لتقوم بها لانك كنت دائما فى وفرة من المال • لقد حسبت الحسبة ليـلة أمس ، فاذا بها نحو مائة دولار فى كل ساعة من ساعات الليل أو النهار• وقد كلفنى هذا الاكتشاف بضع ساعات انتقصت من نومى » •

وساد صمت • فلانى لم يكن يدرى ماذا يقول • وقال اليهودى : « انها نقيصة ، واحسبها نقيصة موروثة فى سلالتنا ، فلا أستطيع التغلب على مخافة انفاق مال يبلغ كل هـذا القدر !» ـ فسأله : « ولمـاذا تنفقه اذن ؟ » فأجابه : « لانى أجبر نفسى على أن أكون معقولا • فأى خير فى المال ان أنت كنزته ؟ ان أولادى لا يريدونه ، وأطفالهم لن يعرفوا كيف يستخدمونه ، ثم قد لا يدوم هذا المـــال على كل حال • واخالنى اتيح لأصدقائى شيئا من المتعة ، ولا اتسبب فى اى ضرر فيما ارى • أترى فى هـذا ضررا ؟ » فأجابه الآخر : « لا » فقـال المضيف : « وما كان ينبغى بطبيعة الحال أن أذكر هذا على لسانى ولكنك تحب أن تفهم الناس » • فأجابه لانى : « ستزيد سعادتنا لو اننا جميعا فهمنا انفسنا • وانا أيضا أشعر بنقائص فى طبعى • ولو كنت فى مكانك لحاولت أن أستقر على رأى فيما اذا كان يجوز لى أن املك يختا » •

- ٣ -

وآوى لانى الى فراشه وهو يفكر فى هـذه السـمة الغريبة لتلك السلالة . فعندما التقى بيوهانس روبن أول مرة كان بائعا يرتحل فى انحاء أوروبا بحقيبتين ثقيلتين مكتظتين بادوات كهربائية لتجعيد الشعر وتقمير الخبز ومشروع لتنشيط التجارة الدولية ونشر الحضارة . وكان قد جمع مالا أثناء الحرب من شراء الادوات المغنطيسية وما الى هذه الاشياء لبيعها فى المانيا ، ثم دخل شريكا مع روبى بد واشترى مخلفات الجيش الامريكى ، وباع الماركات واشترى أنصبة فى المصانع الالمـانية ، والآن يشار اليه أحيانا بانه ملك «كذا» أو «كيت» . ولا ريب فى ان جميع الملوك تحت تيجانهم ومن داخل ارديتهم الملكية بشر فانون مترددون مهمومون ، يتلهفون على المودة ويعذبهم خوف السم والخناجر والعفاريت والارباب ، أو بلغة العصر ــ الحديث خوف الانهيارات المالية والثورات .

ولئن كان ياشاربينوفتش قـد غير اسـمه الا انه لبث مقيما على يهوديته ، مما يدل على شدة احساسه بالسـلالة ، وظل على هـذا النهج بفعل الكراهية والاضطهاد . فتراه طورا يجعجع منتفخا وطورا آخر يتذلل متزلفا ، بيد انه يحـاول اخفـاء الحالين ، فهو يريد أن يكون رجلا مثل سائر الرجال يحكم الناس عليه على ضوء مزاياه . ولكنه كان قد اضطر الى الفرار من فتنة فى روسيا ، وعاش فى المانيا وهو يعلم ان أعدادا غفيرة من الناس يضمرون له الاحتقـار والبغض ، ويعلم أيضـا ان الناس فى أمريكا نفسها ــ التى يعتبرها أكثر البلاد استنارة ــ ممن يعيشون فى الاحياء الفقيرة يطلقون على مثله جهارا اليهودى قاتل المسيح . فى حين يقصيه «افاضلهم» عن منتدياتهم الريفية .

لقد تحدث بهذا كله الى لانى الذى دافع بعنف تأييدا لحق أخته فى الزواج من هانس والناس يتهمون اليهود بحب المال حبا شاذا . ويقول يوهانس فى ذلك : « انما نحن تجار ، وقد كنا تجارا على مدى الفين من السنين لاننا طردنا من أرضنا ، فكان علينا أن نتوارى فى اى جحر نعثر عليه فى موانى البحر الأبيض هـذه ، ونتعيش بشراء اى شيىء بثمن منخفض ثم نبيعه بثمن أعلى . ولما كانت عقوبة الفشل فى هذه الحالة هى الموت فقد ارهقت قريحتنا . وفى الموانى يحدث كثيرا أن نشـترى من شخص لن نراه بعدها ، ونبيع لشخص آخر هذه حاله أيضـا ، وكلاهما

لا يعنيه خيرنا ، ونحن أيضا لا يعنينا خيره • وقد يكون هذا نقصا من اخلاقياتنا ، بيد ان ادراك سببه ميسور » •

واعترف لانى لمضيفه انه يدرك ذلك ، فاستطرد : « لقد كان اسلافى ملوك التجارة على طول الطريق من ازمير الى جبل طارق ، فى الوقت الذى كان فيه اسلافك همجا يعيشون فى الغابات الشمالية المظلمة يقتلون الثور الوحشى بالهراوة والحربة ، فمن الطبيعى أن تكون وجهة نظرنا الى الحياة مختلفة عن وجهة نظركم • ولكن متى احترفت التجارة اختفت هذه الفروق بسرعة وقد سمعت ان ولاية اسلافك كونكتكت لا يتأذى فيها ابن الولايات الشمالية اذا لقبه الناس هناك بصاحب المظهر المصقول ، ولعلك سمعت بدافيد هاروم الذى كان تاجر خيل» فقال لانى باسما : « بل وسمعت أيضا ببوناش وبير لموتر » فقال اليهودى : « هكذا الحال هنا على امتداد شواطىء هذا البحر العتيق الذى كان يوما ما العالم المتحضر ، فاليونانيون يعتبرون تجارا مهرة ، ومثال ذلك زهاروف • والاتراك لا يسهل خداعهم وقد قيل لى ان الارمن يستطيعون خداع أى سلالة فى الدنيا وأنا أعنى بهذا دائما بالطبع من يحترفون التجارة فيعيشون ويموتون عليها • أما الفلاح فله شأن آخر ، لان هذا المنتج الاول مكتوب عليه أن يكون الضحية باستمرار ، سواء كان فى كونكتكت يشترى خشبا على انه جوزة طيب أو فى الاناضول يتلقى نقودا من المعادن الخسيسة لا تتوفر له البراعة اللازمة لتصريفها » •

— ٤ —

وجلس لانى الى مدام سيزنسكى ولكن النتائج التى حصل عليها لم تكن من أحسن النتائج لان « تيكومسة » الهندى الاحمر النبيل كان مرتابا وميالا الى توهم مالا حقيقة فيه ، يتأذى ان لم يقبل أحد كلامه قضية مسلما بها وقد اقترف لانى خطأ التزام الامانة فى الرأى • والطريقة المثلى للحصول على النتائج أن تحذو حذو برسيفال وتجل الذى يرحب بالارواح كانهم أصدقاؤه ، ويثرثر معهم ومع «الرقيب» بلهجة ودية واسلوب بسيط واقعى . ويبدو ان الامر بالنسبة للارواح كما هو بالنسبة للشفاء الروحى تماما : لن تصلوا الى ماتريدون حتى تؤمنوا وتصبحوا كالاطفال الصغار .

وكل ما قبل تيكومسة أن يصنعه هو أن يبعث الى لانى برسائل عن طريق برسيفال فيقول : «اخبر هذا الشاب الانيق ان مارسل كان هنا ،

وانه يرسم صورا روحية أبدع من كل ما رسمه على الارض اطلاقا ولكن صوره هــذه لن تبــاع بالمزاد » · وكان لاني يريد أن يعرف هل يوافق مارسل على بيع اعمــاله ، بيد أن مارسل تجــاهل سؤاله طويلا ، ثم اذا تيكومسة يقول ذات يــوم في شيء من الحنق ان هــذا الموضوع لا يعنى مارسل كثيرا فكل شيء فى عالم لانى يباع ولا جدوى من ابقاء أعمال جميلة فى مخزن · فبدأ كأن عالم الارواح أخذ يصطبغ بالصبغة الوردية » ·

وكانت السيدة تعقد عدة جلسات كل يوم وهذا ما كانت تفعله من قبل لكسب معاشها فى الشارع السادس (بنيويورك) وهى تؤكد ان ذلك لا يؤذيهــا ، وهى تود أن ترضى كل شــخص يهتم بتحضــير الارواح · وسرعان ما انطلقت تنقب فى ماضى آل رابنوفتش وتحــدثهم عن أفرادها الذين « انتقلوا » · ولم يكن هذا مرضيا بعض الشيء لكثرة أفراد هذه الاسرة الذين فقد باشا أثرهم وقال انه لم يــسمع انبــاء عنهم الا عندما يكون احدهم بحاجة الى المال لسبب هام وجميع الاغراض فى هذه الحالة هامة وقال ان الطريقة الوحيدة للتأكد من هوية اى فرد فى أسرته فى عالم الارواح أن يجده يطلب منه نقودا يعطيها لابن أو بنت او ابن أخ أو بنت أخ على ظهر الارض !·

ولكن كان ثمة فعلا عم يقال له ناحوم كان يتاجر فى بعض السلع بين القرى الروسية والبولندية وقد ضربه « المئات السود » بالهراوات الى ان مات· وقد بدت هذه التفصيلات الواقعية لذلك الحادث مقنعة لماما روبن التى كانت قد شهدت حادثا مماثلا وهى طفلة ولم تزل ينتابها كابوس بين الحين والحين نتيجة لذلك ثم جاء دور والد باشا مباشرة من عالم الارواح ليتحدث اليه فذكر له ان لحيته أبيض احد جانبيها أسرع من الجانب الآخر وكيف احتفظ بنقوده مخباة تحت قالب من الطوب منفصل عن القوالب المحيط به فى بناء المدفاة وعندئذ رأى لانى مضيفه يجفل مأخوذا. وقال له بوهايس بعد ذلك انه كان يظن هذا كله خدعة من نوع ما أما الآن فهو لا يدرى ماذا يظن فهو ف الحقيقة شيء غير معقول ·

واستمر الحــال كذلك بالنســبة لكل من على ظهر ســفينة الملذات فتنازل الربان مولر بلحيته الشيباء وذهنه الثقيل الى محاولة هذه التجربة فوجد نفسه يتحدث الى ابنه الاكبر الذى كان ضابطا صغيرا فى غواصه فأخبره كيف كان شعوره بالاختناق فى قاع البحر · وأما الخادمة المربية للطفلة فرانــسيس وهى فتاة ذات لهجة سوقية لندنية حظيت بفتات من التعليم فى مدرسة مجلس المدينــة فتعلمت كيــف تجلس فترات طويلة

تتحدث الى أبيها الذى كان جنديا بريطانيا قتل فى معركة السوم ، وجعل يخبرها بالفترة الباكرة من حياته واسم الحانة الشعبية التى كان يراهن فيها على جياد السباق حيث لم يزل اسمه مكتوبا بالطباشير فوق لوحة الى جانب الموتى من جنود الجيران .

كيف استطاعت السيدة سيزفسكى أن تصل الى هذه الامور ؟ قد تقول انها تتسلل خلسة بين أرجاء اليخت وتتسمع الى أطراف من الاحاديث ، أو لعلها تنبش فى قمرات هؤلاء الناس . ولكن الواقع فعلا انها لم تكن تصنع شيئا من هذا وانما هى عجوز أقرب الى الغباء كانت أول الامر خادما ثم زوجة لكبير الخدم فى بيت تاجر بمدينة وارسو وهى تعانى من تمدد الاوردة ومن الاستسقاء فى مراحله الاولى وتفهم اللغات الاجنبية بصعوبة ولا تبالى أن تسمع ما يقال حولها معظم الوقت ولكنها تفضل أن تجلس فى قمرتها الخاصة تلعب بورق الكوتشينة وحدها لعبات لا تنتهى . وان قرأت شيئا فهو الصور التى تنشر فى المجلات الرخيصة والامور الغريبة التى تأتيها فى سباتها لاتعنيها فى الواقع كثيرا جدا ، فهى تجيب عن أسئلتك على خير ما تستطيع ولكنها لا تكاد توجه اليك سؤالا اطلاقا وكثيرا ما أعلنت مرارا وتكرارا انها تقوم بهذه الامور لانها فقيرة ويجب أن تكسب معاشها ، وتؤكد فضلا عن ذلك انها لم تسمع قط صوت تيكومسة ولا تعرف عنه الا ما حدثها به عملاؤها الكثيرون .

ولكن ذلك الزعيم الهندى الاحمر كان مخلوقا مختلفا أشد الاختلاف عنها ! فهو ليس تيكومسة المعروف فى التاريخ على حد قوله وانما هو ايرقوى يحمل نفس الاسم (والا يرقوى عشيرة من الهنود الحمر قوية الشكيمة شغوف بالقتال كانت تسكن المنطقة الوسطى من نيويورك قبل انشائها الحديث ويضمها تحالف عسكرى مع عشائر الموهوك وغيرها من القبائل ذات البأس الشديد .) وان عشيرته كاد يمحوها الجدرى عن آخرها . وهو الآن يحكم قبيلة من الارواح ويسلى نفسه على حساب أعدائه السابقين البيض . وهو فطن ، فيه شمائل السيادة ، سريع البديهة حصيف . واذا عرض له شىء لا يعرفه طلب منك أن تعود اليه فى الغد فلعله يكون قد حصل لك على الخبر الذى تريد . ولكن ينبغى عليك أن تكون مهذبا وان تعامله معاملة ند اجتماعى ، وخير وسيلة للنجاح معه أن تتخذ موقف الملتمس المتواضع فتقول : « أرجوك يا تيكومسة أن تنظر ان استطعت أداء هذه الخدمة العظيمة لى » .

وما معنى هذا كله ؟ أهذا حقا روح أحد سكان أمريكا الاصليين مات قبل اكثر من مائتين من السنين ؟ لم يكن هذا ظن لانى ، فبعد أن قرأعددا من الكتب وفكر فيما قرأ مليا عدة شهور استقر رأيه على ان تيكومسة عبقرى، فهو شيء على غرار السر الغامض الذى كان يعمل فى وليم شكسبير بحيث أنتج جحفلا من الشخصيات تقبلها العالم على انها أشد حقيقة وواقعا من البشر الاحياء . وفى حالة الشاعر كانت هذه العبقرية ممازجة لعقله الواعى بحيث كان الشاعر يدرى ما تصنعه عبقريته وأمكنه بذلك أن يصوغ شخصياته فى مسرحيات يبيعها لمديرى المسارح . أما العبقرية عند السيدة سيزنسكى فلم تكن ممازجة لشيء من ذهنها الواعى بل ظلت مخبوءة داخل لا وعيها تعمل هناك عملها مستقلة بنفسها . فهى عبقرية من الأوابد - ان جاز هذا القول - من العبقريات السفلية ، حتى لكأنها الفار العجوز بحفر مساربه فى الارض بسرعة هائلة !

وهذه الطاقة هى التى تتلهى بتمثيل الهندى الأحمر ، تجمع أيضا الحقائق والوقائع من أذهان الأشخاص المتباينين وتستخرج منها الحكايات القديمة . فهى قد غاصت فى لا شعور لانى بد وجمعت من هناك ذكرياته وكونت منها روح مارسل دتياز وهو يرسم صوره فى كاب دنتيب او يتطلع الى الاطلال فى بلاد الاغريق القديمة . وغاصت كذلك فى عقل ياشاروبنوفتش وخلقت أرواح ذوى قرباه . وما أشبهها فى هذا بأطفال عثروا على ثياب قديمة فى صندوق متروك فارتدوها وراحوا ينسجون حكايات حول الأشخاص الذين سمعوا بهم أو قرأوا عنهم فى الكتب مابين أحياء وموتى ! وكل طفل يدرى ان عليك أن تتظاهر بان ذلك كله حقيقى والا لن تكون فى اللعبة متعة لان المخيلة لن تعمل فى هذه الحالة . فاذا ارتديت جلد دب فعليك أن تجثو على يديك وركبتيك وتزمجر ، واذا ارتديت لباس الراس الذى يتخذه زعماء الهنود الحمر فعليك أن تروح وتغدو فى أنحاء الحجرة وتأمر الأطفال الآخرين وتنهاهم فى صوت صارم عميق حتى ولو كانت لهجتك بولندية !

وهذا كله يدل فيما يبدو على ان ثمة نوعا من المادة العقلية الكلية كأنها المحيط تغوص فيه وتطفو مع افكار لانى وأفكار السيدة سيزنسكى وعقول غيرهما من البشر . فتخيل نفسك فقاعة طافية على وجه محيط ، والشمس تشرق عليك فاذالك ألوان بديعة جدا وبالقرب منك تطفو فقاعات أخرى ، وتتقاربون فتكونون عنقودا من الفقاقيع ، اعضاؤه ضيوف

اليخت بسى بد مثلا . وتتحطم الفقاعات فقاعة بعد أخرى ، وتعود مادتها الى المحيط لتتكون منها فى الأوان المناسب مادة فقاعات جديدة .

وتجبرك هـذه النظرية على الاعتقاد بأن الوسـيط لديه القدرة على الغوص فى هذه المادة العقلية واستخراج حقائق ما كان الوسيط ليصل اليها بأية وسيلة سوية . فهل هذا الفرض أسهل فى التصديق من القول بأن أرواح الموتى تبعث بالرسائل للأحياء ؟ وقد وجد لانى ذلك أسهل فى التصديق لانه عاش طويلا ليرقب العقل البشرى ينمو مع الجسم ويضمحل معه وكل منهما مرتبط بالآخر فيما يبدو على نحو غريب ولذا فهما يتقاسمان مصيرا واحدا . ولكن لاتخدع نفسك فتظن انك تعرف طبيعة ذلك الاتحاد بينهما وكيف تستطيع الفكـرة أن تحرك عضلة أو كيف يحدث تغيير كيماوى فى الجسم خاطرة مرحة او مكتئبة . فهذه مسائل تحتاج للاجابة عنها الى رجال أحكم من لانى بد ، وهو لم يزل يتمنى أن يكف الناس عن السرقة والقتل ليتفرغوا لاكتشاف حقيقة تكوينهم .

- ٦ -

وواصلت الرحلة البحرية التى تتكلف الساعة فيهـا مائة دولار طريقها صوب الشرق ، وسرعان ما اقتربوا من شبه جزيرة غاليبولى حيث دفع كثيرون جدا من الانجليز حيـاتهم ثمنا لتخبط رؤسـائهم ، فغرقت بوارج جبارة وتكدست على الشواطىء اجساد مشوهة . ومن بين هؤلاء الجرحى الكثيرين والد عشيقة لانى السابقة روزمارى كودو ليجر كونتسه ساند هافنى . وكان الرجل قد « انتقل » منذ امد غير طويل فتساءل لانى الم تزل روحه ترود هذا المكان ؟ وسأل تكومسه عن ذلك فلم يطل به الانتظار ريثما « حضر » الكولونيل كود وليجر . ولكن لسوء الحظ لم يكن لانى قد عرفه معرفة جيدة ولا بدله من الكتابة الى روز مارى فى الارجنتين ليعرفه هل الوقائع التى ادلى بها صحيحة .

واخترقوا الدردنيل ظهر يوم عاصف مطير ، فبدأت الشـواطىء شديدة الشبه بغيرها من الشواطىء المغلقة بالضباب . وتمشى لانى مع بسى قليلا فوق ظهر اليخت ثم دخلا الى الصالون وعزفا مع سوناتا شوبيرت التى يحتاج اداؤها على البيانوا الى أربعة ايد فى وقت واحد . وبعد ذلك خرج لانى الى ظهر اليخت مرة أخرى لاقترابه من جزيرة « برينكيبو » التى احتلت جانبا كبيرا من تفكيرة فى مؤتمر الصلح منذ احدى عشرة سنة

فقد وقع عليها الاختيار لتكون مكان الاجتماع للبلاشفة فى الجهود التى بذلها الرئيس ولسن للوصول الى هدنة معه · ووجد الساسة المسنون صعوبة في التصديق بوجود مكان له مثـــل هـــذا الاسم الذى يصلح للكوميديات الموسيقية ·

وخطر ببال لانى فى مرارة ان الاجتماع ايضا كان حريا ان يكون مظاهرة جديدة للكوميديات الموسيقية فالساسة لم يذهبوا الى برينكيبو ، وعندما قابلوا الروس فيما بعد فى جنوا لم يتفقوا على شىء وعادوا الى اوطانهم ليستعدوا لحرب أخرى ، فقد كان لانى من المتشائمين الواثقين بأن الحرب فى الطريق ، بيد أنه حين كان يقول ذلك للناس كانوا يهزون أكتافهم فماذا فى وسعهم أن يصنعوا لمنعها ؟ بل ماذا فى وسع اى انسان ؟ انها الطبيعة !

لعل المطر هو الذى أثار لديه هذه الأفكار السوداء أو لعل أرواح عشرات الألوف من هؤلاء القتلى من الانجليز والأتراك هى التى أثارتها أو لعلها كلاب القسطنطينية التى جمعت أثناء الحرب وأطلق سراحها فوق هذه الجزيرة الكوميدية الموسيقية الاسم حيث جاعت والتهم بعضها بعضا ·

ان التلال الجنوبية فى بحر مرمرة فقد كانت مسرحا لأحداث سمع لانى أباه يتحدث فى صددها مع زهاروف ـ وكان ملك الأسلحة والذخائر قد مول غزو تركيا على يد مواطنيه الاتراك وانفق نصف ثروته فى ذلك السبيل على حد قوله ، وان كان ليس من المفروض طبعا أن تصدق كل ما يقول ومهما يكن من شىء فقد هزم اليونان والقيت حشود منهم فى البحر وبعد ذلك ظهر الجيش التركى الظافر أمام التحسينات البريطانية ومدافع الأسطول فأدى هذا الموقف الحرج الى سقوط حكومة لويد جورج ، وذهبت أدراج الرياح خطط روبى بد للحصول على امتيازات البترول · وكان روبى أحد أولئك الرجال القلائل الذين يستخدمون الحكومات ـ سواء فى ذلك حكومة بلاده أو الحكومات الأخرى ـ يهدد بالحروب ويشنها أحيانا · فى حين شب لانى شابا محب لهولين الجانب ينتقل مرتحلا على متن يخت تتكلف رحلته مائة دولار فى الساعة ويعزف الموسيقى الجميلة ويطالع كتب التاريخ والأبحاث النفسية ويقض ضميره مضجعه لتفكيره فى الطريق التى يسلكها العالم · وكان يسأل أصحابه بجد شديد ماذا ينبغى أن يصنع فكان بعضهم يحسبون أنهم يعرفون الجواب · الا أن المشكلة فى تباين آرائهم تباينا شديدا جدا ·

نزلت الجماعة الى الشاطىء في المدينة المزدحمة التى كانت يوما ما عاصمة العالم الاسلامي وتعرف الآن باسم استانبول · وركبوا كالعادة عربات طافت بهم ليروا مشاهدها فزاروا كنيسة القديسة صوفيا العظيمة، وتفقدوا الحريم في سراى السلطان الراحل حيث كانت بين الحين والحين تلقى زوجة خائنة مصرعها بحبل يربط حول عنقها وتقيد وتوضع داخل زكيبة يلقى بها في البسفور وجاسوا خلال الأسواق بحيث اجتهد تجار من سلالات متباينة غاية الاجتهاد كي يبيعوهم تذكارات تتراوح بين سجاجيد برجاما وبين « الصور القذرة » · وشقت الشارع المزدحم مضخة حريق تثير ضجة هائلة وهي مضخة حديثة مطلية باللون الأحمر الفاقع ، بيد ان لانى راى بعين الخيـــال الشاب زهاروف راكبا المضخة وذهنه مشـــغول بمشروعات لجمع النقود لقاء خدماته أترى لم يزل اسمه « الطلمبجى ؟ » وهل ما يزالون يطالبونك بنقود لقاء اطفاء حريقك والا تركوه مشتعلا ، وكل امرىء وما اختار ؟

وانطلق اليخت بسي بد الذى لا يستقر في مكان متجها صـــوب الشمال على طول ساحل البحر الاسود البعيد الغور ، وكان الاتحـــاد السوفييتي في منتصف خطته الخمسية الاولى التى يتوقع بكل ثقة أن تأتى بالمعجزات · وكان هدف المسافرين هو مدينة أوديسا التى ينبسط امام أبوابها الخارجية طريق مدرج كانوا قد شاهدوه في عرض سينمائى · ولما كانت جوازات السفر قد حظيت بالتأشيرات وتم تركيب كل شيء سلفا فلم يكن عليهم الا تقديم أنفسهم الى ادارة « السياحة الداخلية » فيحصلون على السيارات والمرشدين والفنادق في حدود ما لديهم من العملة حسب سعر القطع · وكان لنكولن ستيفنس قد قال للانى بد : « لقد رأيت المستقبل فوجدته ناجحا » . وما رآه ستيفنس رآه بعين الايمان وكانت هذه العين أيضا عين هانس ويس وراحيل - فعندما رأوا المبانى بحاجة شديدة الى الترميم ورأوا الناس مرتدين أحذية من القماش ذات نعل من المطاط على الدوام وصدارات مرقعة قالوا : « انتظروا حتى تبدأ المصانع الجديدة العمل » وأخبروا الفتيات المرشدات أنهم « رفاق » فصحبنهم ليشاهدوا آخر الاساليب في دور الحضانة النهارية والمطابخ العامة · ثم أركبوا السيارات الى الريف ليزوروا مزرعة تعاونية وعندما سئل هانس عن حرفته في بلاده اعترف بأنه عازف فيولينا . فأسرع الناس من حوله

لياتوه بآلة يعزف عليها وتوقف كل العمل فى ذلك المكان حين وقف أمام سقيفة الباب وعزف مقطوعتين أو ثلاثا أدفأت القلوب · ولـــكن أتراها تساعد على اتمام تجهيز الجرارات والحصالات لموسم الحصاد الذى بات على الأبواب ؟

- ٨ -

واشتركت ايرما فى بعض هذه الرحلات القصيرة وكانت تصغى فى أدب الى حماسة اصدقائها بيد انها افضت الى ماماروبن سرا بانها وجدت « المستقبل » مثبطا للعزائم جدا · فهزت ماما روبن كتفيها وقالت : « وماذا تتوقعين ؟ انها روسيا » · وكانت قد سمعت عنها وهى طفلة ولم تصدق انها يمكن أن تتغير · فعلى عهد القيصر كان الناس فى شقاء شديد حتى انهم كانوا يسكرون ويحبون متسللين الى جحر ينامون فيه · وقد حاول البلاشفة ايقاف صـناعة الخمـــور ، بيد ان الفلاحين صاروا يصـــنعونها ويهربونها الى داخل المدن كما هى الحال فى أمريكا · وهى تؤثر الا تحيى هذه الذكريات القديمة المؤلمة ·

وكانت مدينة أوديسا قد تعاورها الفريقان المتحاربان مرات أثنـاء الثورة والحرب الأهلية وضربها بقنابله الأسطول الفرنسى فتهدمت بيوت كثيرة فيها · ومن بين مشاهد المدينة ساحة الضحايا حيث دفن الوف من الثوار القتلى فى ضريح واحد تحت هرم كبير من الحجارة · والى هنا توجه الشباب من أفراد المجموعة يتوجهون الى مزار من مزارات القديسين اما المسنون فقد بحثوا عن وسيلة للهو بغير طائل ·

وأصر الشبان بعد ذلك على زيارة بعض المصحات الكثيرة التى أقيمت بالقرب من البحيرات التى كونتها سدود الغرين فى مصبات النهر · وكانت هذه المصحات مزارات مقدسة أيضا لان من بها من المرضى هم العمـال المقعدون · وهكذا ستكون الحال فى المستقبل : من ينتجون الثروة هم الذين يستمتعون بها ! » لن يشيدوا ليسكن سواهم ولن يزرعوا ليأكل غيرهم مازرعوا ! هكذا يقول أحد الأنبياء القدامى ويبدو كلامه هـذا ذا صبغة حمراء حتى ان قسيسا فى كندا حوكم أمام الهيئة الكنسية العليا لاقدامه على الاستشهاد بهذه العبارة ·

أما لانى فكان فى موقفه المألوف فى الوسط بين الطرفين وقد جعل من نفسه فى هذه الزيارة الروسية شيئا أشبه بضابط الاتصال فى أسرة روبن · ولم يكن يوهانس يجرؤ على مناقشة الشيوعية مع أحد من شباب

اسرته لانه وجد ذلك مسيئا لمقامه فكان يتحدث مع « لانى » على أمل أن يستطيع تقليل شيء من غلوائهم ، وفى رأى رجل المال ذاك ان التجربة البلشفية انما تعيش على القليل من الدهن الذى تراكم تحت حكم العهد البائد . وسيظل الناس مقيمين فى بيوت ما بقيت هذه البيوت قائمة . وفى وسعهم أن يرتدوا ثيابهم القديمة عشرات من السنين أن لم يشعروا بالخجل من ذلك .. وانظر حولك تر ! اما صنع أشياء جديدة فموضوع آخر . وفى وسعهم بطبيعة الحال أن يستأجروا الخبراء الأجانب ويشيدوا المصانع ويطلقوا على ذلك اسم الخطة الخمسية ولكن من الذى يقوم بالعمل الحقيقى وهو مستطيع أن يلقيه على عاتق شخص آخر ؟ ثم هل فى الامكان ادارة أعمال مالية وتجارية وصناعية على يد السياسيين ؟ ثم يقول يوهانسى : « أنت لا تعرف السياسيين . أما أنا فكان على أن أعرفهم فى المانيا » وقال لانى معترفا بالواقع «انها تجربة . ومن سوء الحظ جدا أن تبدأ فى بلد متخلف » فقال رجل الأعمال : « كل ما أستطيع أن أقوله اننى آمل الا يتاح لهذه التجربة أن تقوم بمحاولة أخرى فى أى بلد أعيش فيه ! » .

- ٩ -

لقد اخذ هذا الموقف يستفحل فى أسرة روبن منذ سنوات كثيرة منذ قامت بربارا كوليزى وجسى بلاكلس بشرح المثل العليا للثورة البروليتارية لشباب من آل روبن فى بيت لانى ، فاذا هذا التلقيح الفكرى يستشرى بصورة غير متوقعة .وجعل لانى يرقب بفضول واهتمام التطورات الأخيرة للأحداث وهو يعلم الى أى مدى يعبد الأب روبن والأم ولديهما ويعتبرانهما محط جميع آمالهم . فبابا جمع ثروة طائلة كى يحرر هانسى وفريدى من هوان الفقر وعنائه . وبابا وماما يرمقان عزيزيهما فى براعة ويتشاوران فيما بينهما حول كل نزوة . وكانت رغبة هانسى أن يعزف على الربابة . حسن جدا ، ينبغى اذن ان يصير موسيقيا عظيما وان يحظى بأحسن المعلمين وبكل ما يجعل طريقه سهلا ممهدا وفريدى يريد ان يكون عالما بحاثة . حسن جدا . سيؤدى بابا جميع النفقات وسيتخلى عن رغبته الطبيعية فى ان يحظى بمعاونة احد ولديه له فى أعماله .

ولم يكن من المستغرب فيما يبدو أن يتقد الشباب بآمال العدالة للفقراء وانتهاء الاضطهاد والحروب فكل يهودى يعلم أن أبناءه قد بشروا بالمخلص المنتظر * . فان مضى هانسى وفريدى فى حماستهما الى حد التطوف

(*) فى الأصل جملة عن الأنبياء آثرنا حذفها (المترجم)

فذلك شيء ينتظر منهما في سنهما هـــذه ، وحينما يتقدمان في السن سيتعلمان الحذر والتكتم ويدركان حدود الامكان في هذه الأيام · وانتظرت الأم والأب هذه المرحلة ، ولكن انتظارهما راح عبثا ، فها هو ذا هانسي في الخامسة والعشرين ، وها هو ذا أخوه أصغر منه بسنتين ليس الا · وبدلا من أن تهدأ ثورتهما فقد اكتسبت تصميما ناضجا بالاضافة الى مجموعة من النظريات أو المذاهب أو ما شئت سمها بمثابة عمود فقرى لأحلامهما ·

وظن الزوجان اليهوديان الخارجان من حارة اليهود ان زواج هانسي من ابنة روبي بدء انتصار ضخم ،ولكن بمرور الزمن اكتشفها سحابة في أفق آمالهما الفضي ، ذلك أن بس سرت اليها العدوى الحمراء من هانسي واضافت ماالديها من فطرة عملية يعرف يوهانسي أنها من صفات الامريكيين الشماليين وصرامة انحدرت اليها من أسلافها المتطهرين فاذا « بس » أشدهم جميعا حمرة وأقلهم قابلية للتفاهم أو المساومة وهي قادرة على التعبير عن الشفقة الشديدة والحنان ولكن هذا كله موجه لمن وقع عليهم اختيارها ، بصفتهم ضحايا الظلم الاجتماعي · أما هؤلاء الذين يظلمونهم ويغتصبون منهم ثمرات كدحهم فلا تكن لهم الا العداء وحينما تتحدث عن الرأسمالية وجرائمها يتصلب محياها فتعرف فيها على الفور سليلة فرسان كرومويل في الحروب الأهلية ·

وادرك لاني أن يوهانسي يتضاءل في أعماق نفسه أمام زوجة ابنه فيحاول استمالتها بالكلمات الناعمة ورشوتها بطراز السيادة الملائم لها بالضبط وبيانو لهاأعذب النغمات ورحلات باليخت الى أجمل وأرق الاماكن في البحار السبعة وما من أحد على ظهر ذلك اليخت يمكن أن يعارض آراءها · وانما هم أعضاء الأسرتين وخدمهما فحسب وكانما صاحب الملايين يقول لها : « انظرى ! ها هي راحيل ومعها طفل رضيع ، وها هي طفلة أخوك المحبوب البديعة ، وها هي سفينة الأحلام هذه مسخرة لسعادتكم جميعا · فهي على استعداد للتوجه حيث تريدون وستكون الخدمة ممتازة ، وفي استطاعتك أن تحطمي قواعد النظم المتبعة في البحر فتتوجهين أنت ويهانسي الى أعلى مقدمة السفينة لعزف الموسيقى على اسماع البحارة ، أو تدعوانهم للصعود الى الصالون مرة في الأسبوع حيث تعزفان لهما رغم ما يبديه من فزع ينتاب عادة من تربى على التزمت الشديد في البحرية التجارية الألمانية فكل شيء على وجه الأرض مباح لك على شرط أن تكوني لطيفة سمحة فتغفرى لى انى مليونير ولا تكرهيني لانى اعتصرت ثروتي الطائلة من كد العبيد الأجراء وعرقهم !

وظل برنامج التهدئة هذا ساريا أربعة أعوام ، لأن بس كانت قد

صممت على أن تغدو عازفة بيانو فركزت كل تعصبها المتطهر على اكتساب القوة العضلية والتناسق الذى يجمع بين العنفوان والرقة الرهيفة بحيث لا تدمر الأصوات التى تحدثها ظلال الفروق الرقيقة وتنوعات الرنين الدقيقة التى كان زوجها المتفوق فى تدريباته قد وصل اليها . بيد أن يوهانسى كان يعلم فى أعماق نفسه ان هذه المهمة لن تدوم الى الأبد ، وانها هى وهانسى معا سيعتبران نفسيهما موسيقيين يوما ما وهما ينويان أن يصيرا موسيقيين أحمرين وأن يعزفا لجمهور من الحمر وأن يربحا المال لقضية الحمر . وستكون لهما تلك الشهرة المعينة التى حققتها ايزادورا دنكان بالتلويح بأوشحة حمراء فى حفلاتها وأدائها نشيد المارسييز بالرقص . انهما سيغوصان فى جحيم صراع الطبقات ذلك الصراع الذى يراه المرء يزداد ضراوة يوما بعد يوم فى سائر أنحاء أوربا .

- ١٠ -

وكان « لانى بد » هو الشخص الوحيد الذى باح له يوهانسى روبن بقلقه بالاضافة الى ماما روبن ، فلانى بد كان دائما أحكم من سنه فصار موضع سر الرجل وهو فى الرابعة عشرة ومستشارا ومرشدا وهو فى التاسعة عشرة . وهو الذى جمع يوهانسى بأبيه واصغى لمشروعاتهما وكان يعرف الكثير عن مداخل تجاراتهما ومخارجها . . فعرف مثلا أن يوهانسى كان يبيع المدافع الآلية من طراز بد لعملاء النازى كى يستخدموها فى شن الحروب على من يؤيدون الشيوعيين فى شوارع برلين . وطلب يوهانسى من لانى الا تذكر اطلاقا هذا السر لولديه فاستجاب لرغبته ، ماذا عساهما كانا صانعين أن هما عرفا السر ؟ كانا حريصين ان يرفضا الاقامة بعد ذلك فى قصر برلين أو السفر على ظهر يخت تتكلف الساعة فيه مائة دولار . وكانت بس حرية أن ترفض اطلاق اسمها على اليخت . وهكذا الفى باشارابنوفتس نفسه واقفا أمام جدار مبكاه الخاص يولول !

انه فى موقف مألوف جدا لأفراد سلالة على مدى ألفين من السنين قضوها فى التشتت ومن حولهم الأعداء من كل جانب فيضرب فريق منهم بفريق آخر ويترضونهم جميعا بأساليب خفية وقد استطاع يوهانسى أن يصعد الى مكان القوة والسلطان بحصافته فى المضاربة ومعرفته بالناس يرشوهم للحصول على معلومات سرية من الداخل وكيف يميز الصدق من الزيف . وحقق أرباحا ضخمة من انهيار سعر المارك واشترى أعمالا ومصانع كانت على شفا الافلاس ، وكان الابقاء عليها وتشغيلها يعنى فى تلك الأيام التى شهدت التدخل الحكومى فى الأعمال ابرام نوع من التحالف

مع الساسة واعطاءهم نقودا بمعنى قريب من التهديد بالتشهير ثم ازداد ذلك المعنى انطباقا بمرور الوقت وكان ذلك لا يعنى لا مجرد معرفة الناس القابضين على السلطة فحسب بل التخمين الصائب عمن سيتولى السلطة فى الاسبوع التالى كى يسارع بعقد نوع من الاتفاق معه .

وهكذا حدث ان يوهانسى كان يساعد على ابقاء حكومة الجمهورية الائتلافية وفى الوقت نفسه يساعد كثيرين من النازيين الطموحين . فمن ذا الذى يدرى تحت ضغط الافلاس القومى الوشيك ما الذى يمكن ان يحدث؟ ولما كان يعلم ان ولديه على اتصال بالحمر الذين يلحون عليهما دائما فى طلب المال .. ومن ذا الذى يملك المال ولا يجد الحاحا فى المطالبة ـ فهو يعطيهما مبالغ سخية عالما تمام العلم ان هذه المبالغ ستنتقل منهما الى من يستخدمونها لخدمة « القضية » . وهذه صورة اخرى من صور التأمين ! ولكن لا تدع جماعة من هذه الجماعات الثلاث تدرك انك تعطى الجماعتين الأخريين فهم فى حرب ثلاثية كل فريق فيها ضد الفريقين الباقيين .

وهذا كله معناه قضاء الايام فى قلق والليالى فى ارق . وما ما التى لا يخفى عليها شىء تجادله « فيم كل هذا ؟ ما حاجتنا الى كل هذه الاموال؟ » لانه كان من العسير عليها أن تدرك انك ينبغى ان تحصل على المزيد من المال كى تتمكن من حماية ما لديك بالفعل . وكانت تنضم الى الولدين فى جهود مشتركة لانتزاع بابا وابعاده عن هذه الامور كلها ففى صيف كل من الاعوام الثلاثة الماضية استدرجوه الى رحلات باليخت . وفى هذه السنة بدءوا الرحلة فى وقت مبكر بسبب الأمين الشابتين ، وكان فى مامولهم ان يبقوه بعيدا طيلة الصيف ، بيد ان المتاعب اخذت تتراكم فى برلين فيما يبدو فى مجال الاعمال ومجال السياسة .فيوهانسى يتلقى اكداسا من البريد فى الموانىء المختلفة فيغلق على نفسه الباب ومعه سكرتيرة ويملى برقيات مطولة . وكان من شكاواه من الاتحاد السوفييتى ان الخطابات قد تفتح وان البرقيات غير مضمونة ، تدفع اجرها ولا يمكن ان تثق بوصولها فكل شىء فى يد البيروقراطيين الذين يضيعون كل شىء بين اميال من الاجراءات الرسمية المعقدة . كان الله فى عون المساكين الذين كتب عليهم الرزق فى عالم يسير على هذا النحو . وهكذا لم يطق يوهانسى وهو الرجل ذو القرارات السريعة الذى يحرث حقله بيده ويشق طريقه بنفسه أن يبقى فى أوديسا وطلب اليهم التخلى عن مشاهدة مدينة سوتش الجميلة قائلا ان هناك قصورا فى مثل فخامتها قرب استانبول ، والتليفون البعيد المدى هناك يعمل بصورة يعتمد عليها ! »

عاد اليخت « بس بد » ادراجه ، وفى استانبول تلقى صاحبه مزيدا من البرقيات بلبلت خاطره فكان لا بد ان ينتظر اليخت الى ان يرسل الاجابات ويتلقى الرد عليها · وفى النهاية اعلن انه لا يستطيع مواصلة الرحلة ، فثمت متاعب خطيرة تكتنف احد البنوك التى يشرف عليها · ولا بد من قرارات يصدرها ولا يسعه ان يترك ذلك لمرموسيه وقد ارتكب خطأ حين غادر اعماله فى وقت غير مستقر كهذا الوقت فالانهيار الذى حدث فى وول ستريت هز اوربا باسرها ، وشيئا فشيئا أخذت الصدوع تكشف عن نفسها · فكان لا بد ليوهانسى ان يطلب الى ضيوفه الاذن له بمفارقتهم · واستقل طائرة الى فيينا ومنها الى برلين · فقد وصل التطور الى هذه المرحلة التى صارت فيها الطائرات تحلق يوميا بين عواصم اوربا الكبرى ، تستقلها ولا تكاد تشعر انك تحلق فى الهواء وبعد بضع ساعات تغادرها وتواصل أعمالك · وليس فى ذلك ادنى خطر ، بيد أن ماما عليها ان تفكر كثيرا فى وجود باشا معلقا فى الهواء وسط الرعود والبروق وقد ترتطم باشياء كثيرة عندما تهبط الى الارض ، ولذلك لبثوا فى استانبول الى أن وصلت برقية تقول ان المسافر فى امان بقصره الخاص وان فريدى سعيد وبخير ، ويبعث بحبه للجميع ·

وكان الوقت متأخرا جدا بالنسبة لزيارة ساحل افريقيا لان الامطار بدأت ، والجو حار ، والباعوض هناك كثير ، فقنعوا بالبقاء على ظهر اليخت ولم يكلفوا انفسهم النزول الى الشاطىء وازدهرت مزرعتنا الالبان لان الثلاجات الكهربائية الضخمة كانت تمد الأمين الشابتين بالاطعمة الطازجة، وهما بدورهما تمدان الطفلين بالخلاصة . وكانت الجدتان تحومان فوق المسرح فى رفرفة مستثارة تذكرك باجنحة الطيور الطنانة · فكانما لم يكن فى الدنيا اطفال قبل هذين الطفلين ولن يكون ، فالجدتان والامان والطفلان والخادمات تكونت منهن رابطة مقفلة كالجمعية السرية او التنظيم المكون من النساء وبهن ولهن ·

كانت تلك الجمعية آلة تدور بدقة الساعة وعجلة التوازن فيها هى الآنسة سيترن الوقور وكانت قد الحقت بالخدمة لتدبير امور الطفلة فرانسيس.فقط ولكنها بتعليمها العالى واعدادها الكامل ارهبت جميع آل روبن فهى صوت العلم الحديث ينطق بآخر كلمة فيما يختص بظاهرة الطفولة يضارع ذلك فى الاهمية سلوكها الانجليزى فهى من بريطانيا التى تحكم الامواج ومعظم السواحل · وهى السلطة التى تعتمد على التربية

اكثر من اعتمادها على القانون فما يحرم على احدى الجدتين من الجلافة ان تفعله الاخرى ، وما تؤمر به خادم فرانسيس المربية من المستحسن ان تأتمر به ايضا خادم يوهانس الصغير المربية. وهكذا انضوت في النهاية الاسرة اليهودية تحت العلم البريطاني ، وصارت راحيل تقدم للآنسة سيفيرن هدية بين الحين والحين نظير اشرافها على المشروع اللبني كله .

وفي كل صباح كانت تتوجه مرسلين الى قمرة الآنسة ادنجتون لتسميع دروسها ويجلس السيد دنجل في قمرته يدير في رأسه افكاره الجديدة ويتلو صلواته القديمة . وتجلس السيدة سيزنسكي في قمرتها تلعب العاب الصبر بورق الكوتشينة ، او تقوم بجلسة روحية . وفي الصالون ينصرف هانس وبس لاني الى أعمالهم، فينهمك الاولان في تأوين عمل كلاسيكي من معزوفات الكمان ويصغي لاني باذن ناقدة وهما يعزفان فاصلا واحدا مرات كثيرة لتجربة تأثير هذه الطريقة وتلك فما الذى كان يعنيه بتهوفن بالضبط بتكرير هذا النسق الايقاعي ؟ لقد كتب في هذا الموضع كلمة « مشدد » ولكنه كثيرا ما كان يكتب ذلك وهو يعنى كلمة « شدود » ، اي ان النغمة يجب ان تكون معبرة وصوتها عريض . ولكن ينبغى الحذر ، فهى حيلة تغدو عادة سيئة ووسيلة خداعة . ويطول نقاشهما وترددهما بين الآراء جيئة وذهابا ، بيد انهما في النهاية يحتكمان الى هانس فهو الذى يملك الموهبة ، وهو العبقرى الذى يعيش الموسيقى داخل نفسه . وفي بعض الاحيان كانت تستولى عليهم روح واحدة فيصبحون نفسا واحدة لا ثلاث انفس . فتكون الساعة ساعة مجد .

ان هؤلاء الشبان لا يمكن ان يضجروا مهما طالت رحلة اليخت ، فهم يصحبون فنهم معهم ، وفنهم مخزون هائل من الجمال متعدد المهارات وكنز من السرور لايمكن ان ينضب معينه لقد قضى لاني حياته كلها ينقر باصابعه على البيانو ، ولكنه اكتشف الآن ان ذلك كله كان مرورا عابرا على وجه محيط بعيد الغور ، فهو يحلل الآن علميا ما كان يستمتع به انفعاليا من قبل. وهانس روبن كان قد تلقى تدريبا المانيا دقيقا وقرأ كتبا عميقة عن تآلف الاصوات وعلم الصوتيات وتاريخ الموسيقى ودرس شخصيات المؤلفين وصار يحاول تقديمها لجمهوره فلم يحاول ان يقلب موتسارت الى بتهوفن ولا جلوك الى ليست . وهو حرى ان يتدرب على اصعب معزوفات باجانيني او فينيافسكي ولكنه يرفض ان يعزفها للجمهور ما لم يجد فيها روحا . فتمرينات الاصابع الرياضية يجب ان تكون للاستخدام الشخصي فحسب .

- ١٢ -

وبعد ظهر كل يوم ، اذا كان الجو مناسبا ، تتوقف السفينة عن السير ، ويبرز جميع ضيوفها - فيما عدا روبن - الى سطحها فى ثياب الاستحمام ، ويدلى سلم المركب على جانبها فينزلونه ويغوصون فى الماء ، وعن كثب يقف بحار معه طوق نجاة مشدود الى جبل احتياطا للحوادث ، فكلهم سباحون مهرة . بيد ان الربان الكفء مولر لا يترك شيئا للصدفة ولذا يظل يقظ العينين بنفسه يرقبهم ، وبعد ان يدركهم التعب من اللهو يتسلقون السلم ثم يستأنف اليخت سيره ، ويجذب البيان على عجلاته المطاطية الصغيرة من داخل الصالون ويقدم يوهانس وبس كونشرتو فى الهواء الطلق ، وقد تغنى راحيل او تقودهم جميعا فى غناء جماعى . ويخيم الغسق ، « غسق قرون من الاغاريد » .

وكان ثمة منغص واحد فى هذه الرحلة فيما يتعلق بلانى ، الا وهو لعبة البريدج ، ذلك ان بيوتى وايرما لا بد لهما من اللعب ، لا بقصد الكسب المالى ، بل لكسب النقط ، ولكى تشغلا وقتيهما بعمل ما وهاتان السيدتان تعرفان القراءة بمعنى انهما تعرفان معانى الرموز المسجلة على الورق ولكن ما من واحدة منهما تعرف كيف تستغرق فى مطالعة كتاب او كيف تنكب على استيعاب مضمونه ، بل يراودهما النعاس ان هما حاولا شيئا من هذا فهما تريدان من غيرهما من الناس أن يخبروهما بما فى الكتب . وكانت ايرما على الاقل مستعدة على الدوام لاداء مقابل لهذه الخدمة . وها هى ذى قد تزوجت رُجلا فقيرا ومن مفهوم ذلك عندها انه ملتزم بايناسها بصحبته . وهكذا انقلبت أية انشودة الاطفال المعروفة بالنسبة لايرما بد ، وصار لا بد لكل فتاة من فتاها »(١) .

ولم يكن لانى يمانع فى الواقع فى لعب البريدج ، بيد ان ثمة امورا كثيرة أمتع وأولى بالاهتمام من هذه اللعبة فهو يريد مثلا أن يواصل دراسة الطفولة على النموذجين الموجودين على ظهر اليخت . ويريد ان يطالع تاريخ الاماكن التى يزورها ليعرف ما كان بتلك المدن من عقول كبيرة او شهداء ولكن بيونى وايرمان ميالتان الى الانشغال بالبريدج حين يمر اليخت بالموضع الذى وقعت فيه معركة بالاميس . وكلتاهما تراها غلظة من لانى ان يرفض المكان الرابع على مائدة اللعب لانه يريد ان يكتب ملاحظاته على آخر جلسة له مع السيدة سيزنسكى . ولانى يعتقد ان من الاهمية بمكان ان يسجل كل شىء بنظام ودقة ، وان يصنف ملاحظاته ويفهرسها كى تتسمى مقارنة اقوال « تيكومسة » فى مناسبة ما باقواله فى مناسبة

---

(١) الأصل فى الاغنية لابد لكل فتى من فتاته .

اخرى • وكانت لديه كتب اوستي وجيلي وهما من رجال العلوم وقد قاما بالتنقيب بصبر شديد في هذه الظاهرة وحاولا وضع نظرية لتفسيرها • هذا موضع يبدو له اهم بكثير من التباحث في قواعد كولبرستون لحساب نقط البريدج في حالات معينة •

وكانت ايرما قد اقنعت راحيل بأن تعد نفسها للحياة في «المجتمع الراقي » وساعدها « لاني » في تعليمها ، ثم قدم مثل ذلك العون للمرسلين التي ستبلغ الثالثة عشرة بعد امد وجيز ، وهي منذ الآن اكمل سيدة مجتمع صغيرة يمكن ان تتصورها ، فحتى وهي على ظهر يخت تقضي ساعات طويلة امام المرآة كل يوم تدرس فيها مفاتنها وتظهرها دواما في ذروتها • وما من شك في انها ينبغي ان تستعد منذ الآن للدفاع عن نفسها ضد الصقور التي تحذق فن الاشارة والتي ستحاول قريبا جدا سلبها مصروفها الخاص • وبعد الفراغ من تعليمها يسع لاني أن يقول ان لا حاجة باحد اليه الآن ، ثم يعود لدراسة معزوفات ليست التي تحتاج على البيانو الى أربع أيد مع بيس ، مثل «الكونشترو العاطفي» وهو تحفة ذات الوان خلابة تحول جهازي البيانو الى اوركسترا ، ومثل « فانتازيا دون جوان »• وهي من ابدع المسموعات الاستعراضية • وقد دخل هانسي وهما يعزفانها وقال انهما ينبغي فعلا ان يقدماها فوق منصة كونشرتو ، فكانت لحظة لا تنسى لدى هاويين متواضعين .

- ١٣ -

ووصلت السفينة «بيس بد» لتستريح في مرفا كان ، وعادت الجماعة كلها الى ضيعة بيانفيني لقضاء بضعة أيام فيها . وكانت بيوتي راغبة في تجديد مجموعة ثيابها فالمرء يسأم من ارتداء ثياب بعينها لا تتغير • وكان لاني راغبا في تجديد رصيد النوتات الموسيقية ، فسامعو المرء يسأمون من سماع المعزوفات التي لا تتغير بعينها • ثم هناك اكداس من المجلات التي وصلت اثناء غيابهم ، ومن الرسائل التي تتضمن انباء الاصدقاء • وفض لاني خطابا من أبيه ثم هتف : « روبي قادم الى باريس ! من المفروض ان يكون الآن هناك ! » فقالت الزوجة : « ويحي ! » فقد كانت تعلم ما سيأتي بعد ذلك • وقال لاني : « الواقع اني يجب ان اراه يا ايرما • فاني لم اره منذ ثمانية شهور » فاجابته : « وهي بالضبط المدة بعينها التي لم ار فيها امي » • فقال : « ويقينا لو كانت امك في باريس لعرضت عليك ان اخذك الى هناك » فقالت : « ستكون الحياة بغيرك موحشة بصورة فظيعة على اليخت يا لاني ! » فأجابها : « سأستقل طائرة والحق

بكم فى لشبونة بعد ثلاثة ايام او اربعة · فانت تعلمين ان روبى كان يمر بأزمة وينبغى ان اتبين كيف احواله الآن » ·

ورضخت ايرما ، ولكنها لم تخل من تمرد فى داخلها ، فهى تمر بمحنة مضنية وينبغى على النـاس ان يصنعوا كل شىء لتخفيف وطأتها عليها · ويا له من تبدل فى احوالها بعد ان كانت فتاة البريق والاغراء فى برودواى ، ومحط انظار جميع الناظرين ، والمدللة الاثيرة لدى كتاب اعمدة المجتمع فى الصف ، وهدف جميع الانوار الكاشفة ، فاذا بها الآن منفية شبه سجينة مدى هذه الشهور الطوال ! فهل سيقدر احد اطلاقا هذه التضحية ؟ ان ما لاحظته ايرما من شئون الاطفال يحدثها بأن طفلتها قد لا تقدر قدرها ·

وفكرت فى ان تستخدم سيارتين فى نقل النصف الخاص بها من جهاز صناعة الالبـان الى باريس ولكن لا ! ان ذلك قد يفسـد تدبيرات الآنسة سيفيرن البديعة ، لان الطفلة قد تلتقط جرثومة من شوارع مدينة مزدحمة وهى هنا آمن بكثير وسـط البحر حيث الهواء محمل بمادة اسمها الاوزن. وثمة راحيل التى كانت ايرما قد اتفقت معها على ملازمتها حتى نهاية الرحلة لانها كانت تدرك سلفا ان المهمة عسيرة فأرادت ان تشد وثاق نفسها اليها فعقدت ذلك الاتفاق .

وقال لانى : « وثمة شىء آخر ، فسلطان كرتيزى سيكون موجودا حتما فى باريس وقد يسـاعدنى فى بيع صـورة او صورتين » فهتفت الزوجة : « ويحى ! ألم تزل راغبا فى العبث بهذه الامور ؟ » فقال لها : « ان شيئا من النقود سيكون ذا نفع لبيوتى ولى معا ·· » فقالت ايرما : « لست ارى هذا القول مفرطا فى السرقة من جانبك يا لانى · فلا معنى لتجشيم نفسك كسب المال والمال عندى موفور · فان كان لديك اى وقت للبيع ، فارجوك ان تدعنى اشتريه ! » ·

وكانا قد تحدثا فى هذا الشأن مرارا كثيرة · ومنذ عجز روبى عن الاستمرار فى ارسال الالف دولار شهريا الى بيوتى الحت ايرما فى التكفل بذلك فهى تريد للحياة فى بيانغنى ان تستمر كما هى بالضبط ، ولم يكن هذا الثمن شيئا بالنسبة اليها ، وهى تحب ان يكون النـاس من حولها سعداء · ولذا فهى ستقوم بارسال مبلغ من المال الى حساب لانى فى كان ، ثم لا تريد احدا بعد ذلك ان يشير الى هذا الموضوع او يفكر فيه · ولذا كان احتمال سرور زوجها بكسب بضعة الوف من الدولارات من بيع رسوم مارسل او رسوم الاساتذة القدامى امرا صعب التصديق لديها ، ولكن اصعب من ذلك على لانى ان يوضح لها انه بحاجة احيانا الى القيام باعمال اخرى غير منادمة زوجة شابة معبودة وتسليتها !·

الفصل الرابع

انا ادعو الأرواح

- ١ -

كان لانى بد قد أطل من نوافذ فندق كريون على جانب من التاريخ لا يستهان به • شهد من هناك بداية الحرب العالمية وقد عسكر الجنود فى ميدان الكونكورد • ثم شهد الحرب وقد أوغلت فاذا طائرات العدو تحلق فوق الرءوس والمدافع المضادة تطلق عليها نيرانهـا • وبعد الهدنة شهد من هناك حشود المدفعية الالمانية المأسورة • وشهد كذلك غوغاء المحتفلين بيوم أول مايو يهجم عليهم بالسيوف جند متدرعون • ففي ذلك الفندق أقام وعمل مئتان من الامريكيين العاملين للسلام ، وكلهم شديدو الرفق بسكرتير مترجم صغير السن جدا ومستعدون للمعاونة فى تعليمه • وكانت المشكلة الوحيدة انهم اختلفوا فيما بينهم اختلافا شديدا حتى وصل عقل لانى الى حالة من البلبلة لم يبل منها الى الآن •

وها هو ذا الفندق عاد الى نظام الاستغلال الخاص الذى كان روبى يؤمن به ايمانا شديدا ، وهو مستعد لرعايته ايا ماكان الثمن • ونظرا لظروفه المالية المحدودة كان حريا أن يذهب الى مكان اقل فى التكاليف، ولكن ذلك كان سيكون بمثابة اعتراف بالهزيمة والنزول عن مستواه • كلا ! فهو لم يزل الممثل في أوربا لمصانع أسلحة بد ، ولم يزل متطلعا الى الصفقات الكبيرة ، وهو واثق بأن أوربا ستكون بحاجة الى أسلحة اوربية قبل مضى وقت طويل • فارفع رأسك وحول فقدانك خمسة ملايين من الدولارات مزحة ، فكل امرىء يعلم انك كنت حتما شيئا ذا شأن حتى يحدث لك هذا •

وها هو ذا وقد قر موفور الراحة فى جناحه الخاص ، وبه حجرة اضافية للانى ، وأمامه ما طلب من الويسكى والصودا والثلج منذ الصباح المبكر ، وآلته الكاتبة الصغيرة « النقالى » وأوراقه مبعثرة على منضدة أخرى • انه فى أواسط عقده السادس ، بيد انه يبدو هنا أصغر سنا مما كان فى نيويورك تحت ضغط الذعر المالى فاسترد لونه المتورد ومظهره

الذى يتالق على جودة التغذية . وهو ممتلىء الجسم شيئا ما ، الا انه لم يزل ذا بأس وعنفوان وعلى استعداد للتصدى للدنيا . بل انه فعلا فى غمار الاعمال،فثمة لجنة رومانية للشراء فى المدينة، ومندوبان للسوفييت. وابتسم روبى وهو يقول انه صار على صلة ودية « بالرفقاء » ، فهو قد عرف كيف « يتكلم لغتهم » والفضل فى هذا لمعاونة لانى . ولم يكن يعنى بذلك أنه كلمهم باللغة الروسية ، بل انه كلمهم باسلوب « الحمر » .

واخبره لانى بانباء آل دنجل وآل روبن ، وحدثه روبى كذلك بانباء الأسرة فى نيوكاسل وانه لمما يسترعى الدهشة كيف يستطيع شيخ قبيلة بد ان يواصل نشاطه ، فهو يصر فى سن الثالثة والثمانين على ان يعرف أحوال الشركة بالتفصيل، ويجلس فى مكتبه الخاص ويدير الاعمال بالتليفون . واستتر زوجة أبى لانى بخير . وقال زوجها (روبى) « فى اعتقادى انها أسعد حالا منذ الانهيار » ولم يضف الى ذلك قوله : « لانى برت بوعدى وابتعدت عن السوق » . فلانى يعرف أن أباه لا يحنث بوعود .

وتحدثا عن وول ستريت ، وعن « سوق الصعود الصغيرة » التى أثارت لدى جميع الناس مزيجا من الرجا والخوف يعرف عادة باسم « التوتر » . وعندما أقلعت السفينة « بيسي بد » كانت السوق آخذة فى التحسن ، وكرر روبى فى رسالة له عبارته المعهودة : « لاتبع أمريكا بثمن بخس » . وها هى الاسهم عادت للهبوط ، والاعمال بسببها الى التدهور ، والبطالة آخذة فى الانتشار . بيد أن روبى لا بد ان يحتفظ بشجاعته ، وأمريكا باسرها ينبغى أن تشمخ بأنفها على غير أساس. وأشد الاغانى شيوعا فى هذه اللحظة تنادى : « ها هى الأيام السعيدة عادت ».

- ٢ -

وناقشا معا يوهانسى روبن وأحواله المالية التى كان روبى مهتما بها اهتماما عميقا ، وهو ذاهب الى برلين فى هذه الرحلة . وهو تبدل دقيق فى العلاقة بين الشريكين ، لأن يوهانسى هو الذى كان فى سالف الأيام يأتى الى باريس لمقابلة روبى . والتاجر اليهودى فى القمة الآن ، لأنه لم يفقد شيئا من ثروته ولن يفقد منها شيئا لأنه لن يرتكب الخطأ الذى وقع فيه روبى بد بفرط تفاؤله بأحوال هذه الدنيا، لأنه جمع الجانب الأكبر من ثروته من توقع المتاعب . وهو قد بعث الآن برسالة على يد

لانى يقول فيها انه سيساعد روبى على استرداد مركزه المالى • ولكن عن طريق النظرة المتشائمة الحصيفة • وقال روبى على الطريقة الانجليزية : « انه فتى شهم »، وهو عليم طبعا أن ذلك الشريك القديم لا يسعه بسهولة أن يتخلى عنه حتى رغب فى ذلك ، لأن هانــى وبيـس ربطا بينهما برباط القرابة • وفضلا عن هذا فان يوهانــى من أولئك اليهود الذين يرغبون فى مشاركة القوم الوجهاء وهم على استعداد لاداء الثمن عن سعة •

وبعد محادثات طويلة مع رجل المال على ظهر اليخت صار فى وسع لانى ان يعرف ماذا يدور فى ذهنه • ففى حسبانه أن المانيــا وصلت الى نهاية طاقتها، ولم تعد قادرة على أداء شىء من تعويضات الحرب، حتى لو رغبت فى هذا • فالضرائب قد وصــلت الى الحد الاقصى ، ــ والائتمان الاجنبى اخذ يجف معينة ، ولا يسـع يوهانــى أن يرى أدنى فرصة لالمانيا فى تجنب دورة اخرى من التضخم . والحكومة تنقصها الكفاءة للموقف ، ثم ان التعامل معها باهظ التكاليف جدا • وهى طبعا طريقة رجل المال المهذبة فى الايحاء بانها فاسدة مرتشــية وانه يسهم فى بقائهــا بهــذه الصورة • والانتخابات قد تحدد موعدها فى نهاية الصيف ، وستكون المعركة حامية الوطيـس ، ان عاجلا او آجلا ستشـتبك الفئات المتباينة فى قتال ولن يكون ذلك فى صالح الموقف المالى اطلاقا . ولذا شرع يوهانــى يشذب أشرعته استعداد للأحوال الجوية السيئة ، وذلك باخراج جانب من استثمارات فى الصناعات التى تنتج سلعا للتصدير •

وأدلى لانى ببيان موجز عن شباب آل روبن والحالة الراهنة لآفاتهم السياسية فالقدر قد دبر « ملعوبا » غريبا للمشاركة فى الاعمال المعروفة باسم «روبن وروبى» فالنصف الخاص بروبن تمخض عن اسوأ النصــيبين لأنه يضم أحمرين ووردييــن ، فى حين لم يخص روبى الا فرد واحد أحمر وفرد وردى ، وهو لا يرى أيا منهما كثيرا • والنصف الخاص بروبن لبق فلم يشر قط الى أن العــدوى جاءته من النصــف الخاص بروبى ، فروبن يعرف مدى كراهية شريكه ومقته لجيس بلاكس ، وهو الرجل الذى تحدث بحديث الثورة الى لانى ، ثم الى هانــى وفريدى ، فاغرى تلك العقول الحساسة المثالية بالابتعاد عن معتقدات الآباء •

واراد روبى أن يعرف أنباء ايرما وكيف أمورها وامور لانى معا ، وهو امر مهم جدا ، فقد اكتشف الأب فى شهر أكتوبر الماضى أى مزية كبيرة لوجود ثروة بارنز من ورائه ظهيرا وسندا ، وهو يأمل الا يخفق لانى فى العمل على نجاح هذا الزواج . وبين له لانى انه وايرما موفقان

معا كخير ما يكون توفيق معظم الازواج الذين يعرفهم ، بل وأفضل من فريق منهم ، فايرما تريد الكثير ، ومعظم ما يهتم به لا يعنى لديها شيئا ، بيد انهما متحابان ، ويجدان فى الطفلة مصدرا للرضا . وقال له روبى أن المرء لا يمكن ان يحصل من الزواج على كل ما ينبغى ، ولكنك تستطيع أن تتحمل الكثير جدا حينما ينطوى الزواج على ثروة مذهلة • وكان لانى يعلم أن هذه ليست أنبل وجهة نظر الى رباط الزوجية المقدس ، بيد انه لم يقل سوى : « لا تقلق • سنسير أمورنا على خير حال » •

- ٣ -

وكانت مقابلة زهاروف من أهداف روبى ، فالشركة الانجليزية العربية الجديدة للبترول قد استطاعت أن تقاوم الذعر المالى ، بيد أن روبى وشركاءه الموجودين فى الوطن بحاجة الى المال النقدى ولا بد لهم من العثور على مشتر لانصبتهم • ولا شك فى أن العنكبوت العجوز يعرف كل شىء عن مأزقهم ، الا أن روبى سيتظاهر باليسر والقوة • كالعادة سأل ابنه هل يجب ان يمضى فى هذه المهمة ، وكا لعادة ماكان ابنه ليفوته هذا بأى ثمن ،فهو لم يتخل عن الأمل فى انه يمكن ان يعين اباه على نحو ما فى معاملاته مع ملك ذخائر أوربا المتقاعد •

واتصل روبى تليفونيا ببيت الرجل العجوز فعرف انه فى ضيعته الريفية « قصر بالنكور » فى « سين ايه اواز » بالقرب من باريس • وارسل روبى برقية وتلقى ردا يحدد له موعدا بعد ظهر اليوم التالى . وطلب سيارة عن طريق الفندق وذهبا معا الى ذلك المكان الذى كان يوما ما قصرا للملك ليوبولد ملك بلجيكا • أما الان ففى أوربا طراز جديد من الملوك وأحدهم رجل المطافى هذا السابق فى القسطنطينية • وقام حارس البوابة بفتحها على مصراعيها لهما فدرجت السيارة فى ممشى على جانبيه الاشجار ، واستقبلهما عند باب القصر خادم من بلاد الهند الشرقية فى ثيابه الوطنية • وكل الخدم هناك من الهندوس • فالملك المتقدم فى السن بحاجه الى السكون والسرية ، ومن وسائلهما ان تتخذ حشما لا يفهمون سوى بضعة أوامر بسيطة • وكانت احدى بناته المتزوجات تعيش معه ، ولا أحد يحضر الى القصر الا بموعد سابق •

وادخل الزائران الى قاعة جلوس مزخرفة على الطراز الفرنسى الباذخ • فعلى الجدران رسوم كان لانى قد دعى لمشاهدتها فاغتنم الان

هذه الفرصة المتاحة ، بيد أن هذه الفرصة المتاحة ، لم تطل لأن رب القصر لم يلبث أن دخل . وكانت كتفاه الثقيلتان تبدوان نوعا ما اشد انحناء من المرة التى راقبه فيها لانى وهو مرتد قميصه يقوم باحراق أوراقه الخاصة فى قاعة الجلوس ببيته فى باريس حتى لقد اشعل حريقا فى المدفأة أثناء تلك العملية أما الان فهو مرتد سترة تدخين قرمزية مطرزة .

وشاربه الأبيض ولحيته المدببة البيضاء مشذبان باناقة وقد اضحى تام الصلع تقريبا . وقال للانى : ثم ماذا يافتاى ؟ .

ولما كان لانى فى بداية الثلاثينات من عمره فهو يشعر انه ناضج الرجولة بيد أنه يدرك أن ذلك قد لا يبهر رجلا فى بداية الثمانيات من عمره فقال : « كنت أتطلع الى رسومك . وانى أرى لديك لوحة بديعة لا انجرس . فاجابه : « نعم . ولكنى تطلعت اليها سنوات طويلة جدا . » فاجابه : « معظم اصدقائى القدامى قضوا ، والاحدث منهم سنا مشغولون بشئونهم . وقد قيل لى انك أحرزت لنفسك ثروة » .

وهى اشارة خفية الى ايرما وما هى بالاشارة اللبقة . ولكن لانى كان يعلم ان هذا الشيخ شديد الاحساس بالمال . وقد حاولت الدوقة الاسبانية صاحبته ان تداويه بكياسة من هذا النقص ، ولكن بلا جدوى ولم يدهش لانى عندما اردف زهاروف : « لست مضطرا بعد اليوم ان تكون تاجر صور . هه ؟ فابتسم واجابه : « بل انى اجد فى هذا العمل متعة كبيرة » .

ولم تفت ملاحظة الشيخ فطنه روبى الذى كان قد قال وهما فى طريقهما ان زهاروف ان علم ان ثروة بارنز من وراء لانى فقد يتوقع اداء ثمن أعلى لانصبة الشركة الانجليزية العربية للبترول . !

وجلسوا وقدم الشاى . اما روبى فقد طلب ويسكى بالصودا . وناقش الرجلان حالة الاعمال فى أوربا وأمريكا ، وراح لانى يصغى بانتباه كدأبه دائما . فمن وجد لذة فى بيع لوحات الاساتذة القدامى وشرائها يسعه ان يتعلم الكثير من الأسلوب الفنى (التكتيك) الذى يتكشف أمامه هنا . وكان الفارس الحائز لوسام الحمام من طبقة كوماندر من انجلترا ووسام اللجيون دنير من طبقة ضابطى عظيم من فرنسا نموذجا كاملا للمجاملة المهذبة الكياسة العذبة وكان الى هذا اقرب الى الاسترحام فى لهجته كانه يقول : « انى رجل متقدم فى السن جدا » ولن يكون من الانصاف أن تستغل هذا ضدى . » وكان صوته يداعبك وابتسامته تتودد اليك ، ولكن عينيه الزرقاوين فى الوقت نفسه ترقبانك باحتراس .

وهو معروف باسم « رجل أوربا الغامض » ، وما من شك انه كانت ثمة غوامض كثيرة تكتنف ما يقوم به في عالم السياسة وعالم المال . ولكن لانى لم يعد يجد ادنى غموض فى كل ما يتصل بشخصيته ، فهو ثرى مسن شق طريقه في الدنيا عنوة بأعمال كثيرة لم يعد الآن يجد متعة في تأملها ، فقد تآمر وهدد ورشا وداهن وقطع على نفسه عهودا ثم حنث بها ، ولم يكل من التدبير والاقتحام الى ان صارت له السيطرة على تلك المؤسسات الكبيرة التى تحتاج اليها دول أوربا المتباينة كى تشن حروبها فى سبيل القوة والسلطة ، بيد أنه ظل فى اعماق نفسه فلاحا يونانيا يعيش بين غاصبين قساة من الاتراك . وكان يشعر بالخوف من الوف الاشياء : من ذكرياته الخاصة ، ومن الرجال الذين احبط مسعاهم ودمرهم ومن الوشاة ، ومبتزى الاموال بالتهديد ، والقتلة ومن الحمر ـ وفوق هذا كله من صورة أوربا التى وصلت اليها واسهم هو فى هذه النتيجة . انه رجل يريد ان يبيع الذخائر يريد من جميع أمم الارض ان تنفق دخولها على الذخائر ، ولكنه لا يريد للذخائر ان تستخدم ـ على الاقل فى أى مكان على قيد السمع منه ! ولكن وقع الامر على خلاف ما قدر واستمر اطلاق النيران وبدأ كأن أوربا ماضية من سىء الى أسوأ. وتمت محادثة زهاروف على انه لا يثق باحد ممن يتولون السلطة وامله فى أى شىء ضئيل جدا .

انه رجل عجوز حزين ممرور يشعر عن قواه تذوى ، فأخفى نفسه بعيدا عن المخاطر . فهو ماض عن قريب فهل يساوره القلق حول الجهة التى سيرحل اليها ؟ أم قلقه حول ما ستئول اليه ممتلكاته ؟ انه حزين على وفاة دوقته الاسبانية المحبوبة ذات الالقاب الكثيرة فهل تراه يفكر فى امكان ارتباطه بها مرة أخرى ؟ ان لدى لانى شيئا يقوله له فى هذا الصدد ولكنه يجب ان ينتظر الى ان ينتهى التاجران من المبارزة بين ذكاءيهما .

- ٤ -

كان روبى بد هو الذى سعى الى هذا الاجتماع فهو الذى ينبغى أن يقول فيم جاء . وابدى زهاروف فى انتظار هذه المكاشفة ـ اهتماما جادا بما ذكره له روبى عن الحالة فى وول ستريت وعالم المال الكبير فى أمريكا وكان الزائر متفائلا ، واثقا بأن الغيوم عن قريب ستتبدد . وكان لانى

يعلم ان اباه يعتقد هذا حقيقة ، ولكن ترى هل يصدق زهاروف ان أباه يعتقد هذا ؟ كلا ٠٠ بل سيظن اليونانى ان اباه يتصنع التفاؤل لان لديه ما يبيعه ٠ أما زهاروف ـ وهو المشترى المأمول ـ فمتشائم ٠

واخيرا وجد روبى من الملائم ان يفتح موضوع العمل فبين ان أباه صار متقدما جدا فى السن وان مسئوليات مصانع بد قد تلقى قريبا على عاتق روبى ، وهذه المصانع معظم انتاجها بعيد عن الذخائر الآن ، فهى تنتج كل شىء من الابر الى مصاعد البضائع ، وسوف لا يكون روبى مستقبلا فى وضع يسمح له بالقيام باسفار ٠ وانه ـ بايجاز ـ هو واصدقاؤه يبحثون عن شخص يأخذ ما بأيديهم من أنصبة فى شركة البترول الانجليزية العربية الجديدة بثمن معقول ٠

ها هى المسألة اذن ٠ ووصلت ظلال تشاؤم زهاروف الى الدرك الاسفل من جحيم دانته ٠ ان العالم فى حالة من افظع ما يمكن ، فالعرب على وشك ان يعلنوا الجهاد لمحو كل اثر للأوربيين فى شبه جزيرتهم المترامية المقفرة ٠ وزهاروف نفسه رجل عجوز ضعيف واطباؤه وجهوا اليه تحذيرا نهائيا ، فلابد له ان يتجنب كل لون من الوان المسئولية والارهاق ٠ وقصارى القول انه لا يستطيع ان يشترى شيئا ، وليس لديه المال النقدى على كل حال ٠

وهو رفض بات ، بيد أن لانى كان قد سمع تاجرا من اهل المشرق وهو يتكلم ، فادرك ان هدف زهاروف ورغبته الحقيقة لا يمكن ان يماط عنهما اللثام فى اللحظة الاخيرة ، عندما يمسك ضيفاه بقبعتيهما ، أو ربما عندما يصيران خارج الباب الامامى ٠ وفى هذه الاثناء يجب الا يبديا ادراكهما لذلك الأسلوب والا تظهر عليهما خيبة الامل ، بل يجب ان يستمرا فى الثرثرة كأنما الامر لا يعنى شيئا كثيرا حقا بالنسبة لهما وكان روبى بد لم يعبر المحيط الا لكى يلقى نظرة أخرى على عينى زهاروف الزرقاوين ، او ربما على لوحة انجرس البديعة جدا التى يملكها ٠

وكان الوقت قد حان ليثير لانى موضوع الرسوم التى كان قد دعى للنظر اليها ، فسأله هل يسمح له بالتجول فى ارجاء القاعة ، فنهض الفارس الكوماندر الضابط العظيم من مقعده وتجول معه مشيرا الى تفصيلات متباينة ٠ وقال له لانى : « انت تعلم انى مهتم بقيمة الرسوم لان هذا عملى » ٠ ولم تحدث هذه الملاحظة اثرا سيئا ، بل بالعكس شرع الرجل العجوز يذكر الاثمان ، وكان يحفظها عن ظهر قلب : مائة الف

فرنك ثمن هذا الرسم بريشة فراجونار ، ومائة وخمسون الفا لهذا الرسم بريشة دافيد ، واضاف قائلا : « من فرنكات ما قبل الحرب » .

وذهبوا الى المكتبة الكبيرة ، وهى قاعة فخمة ذات شرفة تحيط بها من كل جانب ، ذات سياج من البرونز الثقيل ، وانتقلوا بعدها الى قاعة المائدة ، وبها لوحة مثيرة بريشـــة جويا تمثل سيدا اسبانيا خارقا فى طوله ونحافته يرتدى اثوابا حريرية زاهية الالوان بها كثير من المخرمات والجواهر . وقال الشيخ : « هذا أحد اسلاف زوجتى . ولم تكن تحبها كثيرا ، لانها كانت تجدها ناطقة بالتهكم المستهين أو الكلبية » .

وكانت هذه فاتحة ينتظرها لانى كى يقـــول : « بهذه المناسبة ياسير بازيل ثمة شىء قد يهمك . هل سبق لك اطلاقا ان حاولت تجربة مع الوسطاء ؟ « فساله » اتعنى الوسطاء الروحيين ! ولماذا تسأل ؟ فاجابه « بسبب امر غريب يحدث فى اسرتنا منذ مدة ، فقـــد أغرى زوج أمى والدتى بالاهتمام بهذا الموضوع وفى نيويورك عثرا على امراة بولندية عقدا معها جلسات ، وقدمت لهما نتائج بلغ من شدة اقناعها اننا احضرنا هذه المرأة معنا الى الريفييرا ، وغدت اشبه بعضو فى اسرتنا ». فقال الشيخ : « اتظن انها تاتيكم برسائل من ... » وتوقف كأنه متردد فى أن يقول «الموتى» فقال لانى : « اننا نحصل على رسائل ممن يدعون انهم ارواح ويخبروننا أمورا تدهشنا ، لاننا لا نستطيع ان نفهم كيف تسنى لهذه المرأة البولندية العجوز الضئيلة الحظ من التعليم ان تتوصل الى اكتشافها فقال اليونانى الحذر : « ثمة طريقة مترامية الاطراف للخداع من هذا القبيل . « فاجابه : » اعلم ذلك ياسير بازيل . ولو كانت هذه المرأة ذات عقل يقظ لكنت حريا ان اظن ذلك جائزا . ولكنهاخاملة الذهن هادئة خالية من الاقدام . وكيف تراها كانت مستطيعة مثلا ان تعرف ان الدوقة كانت تحب السوسن ، وتدلى بأسماء الانواع التى ارتنى اياها؟ فهتف رب القصر / ماذا ؟ فاستطرد : لقد ذكرت لى اسم البيلويم والبيزار وتحدثت عن التركستان ، وان لم تدرك أن هذا اسم نوع من السوسن . بل انها ادلت الى بوصف جيد جدا لحديقة مسكنك بالمدينة ، وذكرت رقم ٥٣ ، وحاولت أن تذكر اسم جادة هوش ، ولكنها لم تستطع أن تحصل الا على حرف الهاء » .

ولم يسبق للانى ان راى من قبل ذلك الرجل العجوز الحذر يبدى كل هذا الانفعال . فلابد ان يكون كلامه قد مس لولبا خفيا ، لان الشيخ قال : « اجلسا » فاستقر ثلاثتهم على ثلاثة من مقاعد قاعة الطعام ثم

ساله : « أهذا صحيح حقا يالاني ؟ » فاجابه : صحيح فعلا · ولدىسجلات لمائة جلسة أو أكثر · » فقال ان هذا يهمني الى مدى بعيد لان مشاعر عجيبة أخذت تنتابني في السنوات الاخيرة كان زوجتي في الحجرة تحاول الاتصال بي · وقد قلت لنفسي ان هذا قد يكون محض اثر لحزني ووحدتي ولست بحاجة الى ان أخبرك كيف كان شعوري نحوها · فاجابه : « كلا ياسيربازيل ، فقد كنت ادرك هذا دائما ، وعلى قلة ما رأيتها كان ذلك كافيا لاقناعي بأنها شخصية بديعة » : فقال « لقد مضت ست سنين واساى عليها لم ينقص · خبرني : اين هذه المرأة البولندية ؟ » فلما شرح له لاني مسالة رحلة اليخت اراد ان يعرف : « اتعتقد انه يمكنني أن أحظى بجلسة معها ؟ »فأجابه» : يمكن تدبير ذلك في وقت من الاوقات بلا شك · وستعنينا النتائج الى مدى بعيد · » ·

- ٥ -

وقضى الثرى الشقى العجوز نصف ساعة أو اكثر جالسا يوجه الاسئلة حول السيدة سيزنسكي وطريقتها في العمل ، وشرح لاني الالتزام الغريب بوجوب ادعاء الاعتقاد بوجود زعيم هندى أحمر من الايروكوى يتكلم بلهجة بولندية ، وليس بالامر السهل على شخص مثقف ان يأخذ هذه الأمور مأخذ الجد ، ولكن لاني أخبره حديث سيدة كانت عشيقته سنوات طويلة قبل وفاتها ، وقد بعثت اليه برسائل تتضمن تفصيلات صغيرة من قبيل ما يتذكره العاشقان ولكن لا معنى لها لدى غيرهما ، مثل السترة المخططة بالاحمر والابيض التى كان يرتديها الخادم الذى قام على خدمتها في المنزل الذى قضيا به ليلتهما الاولى ، واشجار الكمثرى والمشمش القائمة عند اسوار حديقة تلك السيدة . وقد تكون أمور كهذه خارجة من عقول لاني اللاواعى ، ولكن حتى على هذا الغرض يعتبر نجاح أحد في استخراجها من مكمنها هناك تجربة غريبة ·

ففال زهاروف : « اود كثيرا جدا ان أحاول هذه التجربة · فمتى تظن تدبير ذلك ممكنا ؟ فأجابه : « يجب ان ارجع الى رأى أمي وزوجها واليخت في طريقه الآن من كان الى بريمن ، وخطتنا الاصلية ان نتوجه من هناك الى أمريكا ونعود في الخريف · فان ذهبت الى مونت كارلو في الشتاء القادم تسنى لنا احضار السيدة لديك · » فقال « هذه فترة انتظار طويلة اليس من الممكن ان أحضرها الى هنا لمحاولة واحدة على

الافل ؟ لعل اليخت يستطيع التوقف في المانش ؟ » فاجابه لاني » : اننا نتوقع ان نقف على الساحل الانجليزي وربما كان ذلك في بور تسماوث اودوفر · » فقال ان كان الامر كذلك فلسوف يسرني ان ابعث الى انجلترا بمن ياتيني بها فاني اتوقع ان ادفع لها أجرها كما تعلم · » فاجابه لاني : « لا حاجة لك بهذا ، فنحن متكفلون بها ، وهي راضية بذلك ، فمن الخير الا تثير هذه المسألة : فقال : ان هذا قد يعني لدى الشيء الكثير يالاني · فان اعتقدت انى متصل بزوجتي ، وان ثمة فرصة لرؤيتهـا مرة أخرى فسوف يسعدني هذا الاعتقاد اكثر من اى شيء يمكن أن يخطر ببالي · وساد الصمت برهة ، كأنما ملك الذخائر المتقاعد بحاجة الى مجهود أو اى حال عنيف كي يتفوه بمثل هذه المشاعر ، ثم استطرد : « فانا لم التق قط بأى انسان يدانيها من اية صفة ولعلك سمعت اني انتظرت اربعا وثلاثين سنة كي اتزوجها ، وعندئذ لم تتركها الى المقادير الا ثمانية عشر شهرا فحسب » ·

وكان لاني يعرف ان زهاروف والدوقة كانا يعيشان معا طيلة هذه السنوات الاربع والثلاثين ولكن هذا ما كان ليقال لأنه ان جاز لشاب ليس له وضع وارتباطات ثابتة ان يشير عرضا الى أنه كانت له عشيقة ، ان اغنى أغنياء اوربا يجب ان يحذر التشهير والسمعة السوء ، ولا سيما اذا كان زوج السيدة المخبول ابنة ملك اسبانيا !

واستطرد لاني قائلا : « اذا كنت تريد اختبارا مقنعا فمن الخير الا تدع السيدة مدام سيزمسكى تعرف من الذى ستقابله · وهي قلما توجه أسئلة سواء قبل الجلسة او بعدها ، فكل ما تقوله للمرء » احصلت على نتائج طيبة ؟ » فان اجبتها : طيبة جدا · ارضاها هذا وكفاها · ولذا انصح ان تقابلها في حجرة بفندق حيث لا يوجد شيء يدلهـا على حقيقة شخصيتك » فقال الشـيخ بلهفة تتجاوز كل ما رآه لاني يبـديه في السنوات الست عشرة التى انقضت على تعارفهما : « اسمع يافتاى · ان يسرت لى مقابلة هذه المرأة في الايام القلائل القادمة فسأتوجه الى أى مكان تحدده لى على الساحل الفرنسي ·· فاجابه لاني : « في هذه الحالة اعتقد ان بوسعى تدبير الامر ، فاني بصدد اللحاق باليخت في لشبونه ، وبمجرد توفيقي في تحديد تاريخ معين سابرق لك · وفي هذه الاثنـاء لا تقل شيئا ، وسأكون انا وابى الاشـخاص الوحيدين المطلعين على السر · فسأقول لامي ان لى صديقا يريد ان يجرى اختبارا خاصا ، اما السيدة فلن اصارحها حتى بهذا القدر · »

واصغى روبى بد الى هذه المحادثة الطويلة فى صمت ، فهو لم يكن ممن يؤمنون بالحياة الأخرى ، ولكنه كان يؤمن بمنـــع ذلك العنكبوت العجوز ، ذلك الذئب الاغبر ، ذلك الشيطان العجوز أى شىء يمكن أن يسليه ويلهيه ويجعله مدينا بالجميل لآل بد ٠ وعندما نهضا للانصراف ، التفت اليه زهاروف وقال : « فيما يختص بالانصبة : اتحب ان ارى هل يعنى احد شركائى القدماء امرها ؟ فاجابه : « بالتـــاكيد ياسيربازيل » فقال ان ارسلت الى المعلومات ــ الضرورية المتعلقة بالشركة ٠٠٠ فأشار روبى الى حقيبة أوراقه قائلا : « ان معى الآن كافة الوثائق ، وتحــت تصرفى خمسة وثلاثون الف سهم ٠ » فساله : « استعد انت ان تحدد لها ثمنا » فقال : « نحن نطلب مائة وعشرين دولارا للسهم فذلك ما تمثله القيمة المستثمرة بالضبط ٠ » فساله : « ولكنكم جنيتم ارباحا جزيلة ، اليس كذلك ؟ فاجابه « ليست جزيلة جدا ، اذا أخذنا فى الاعتبار المدة الزمنية والجهد اللذين انفقتهما فيها ٠ » فقال ان الناس يسعدهم ان يستردوا نصف استثمـــاراتهم فى هذه الايام ياسيد بد ٠ فأجابه : « ليس الامر كذلك بالنسبة للبترول يقينــــا ياسيربازيل ٠ » فقال : ــ حسن ٠ دع الوثائق معى ، وسارى ماذا اســــتطيع ان اصنع واخبرك بالنتيجة فى مدى الايام القليلة القادمة » ٠

وانصرفا ٠ وفى سيارتهما عائدين الى باريس قال روبى « بنى ! لقد كان هذا الهاما ! ــ كيف خطر لك ذلك ؟ فأجابه : هذا ما حدث ، وقد خطر لى انه قد يحب ان يعرف فساله : » وهل موضوع السوسن حدث فعلا ؟ فاجابه : « طبعا فقال : « هذا من انسب ما يكون لمسالتنا ، لأن هذه المرأة ان اقنعته ان الدوقة تبعث اليه برسائل فلن يحجم عن شىء وربما حصلنا على الثمن الذى طلبناه » ٠

وكان لانى يعلم جيدا ان اباه لا يكون شديد الحساسية حينما يكون جادا فى اثر صفقة أعمال ، ولكن هذا ايضــا شأن العنكبوت والذئب والشيطان ٠ فقال : « ارجو ان تحصل عليه ٠ » فاســـتطرد روبى : انه ينوى ان يشترى الا نصبةلنفسه ، وسيستغرق ذلكمساومة ضخمة ، فلا تدعه يرى تلك المرأة كثيرا الى أن يدفع المبلغ ٠ « فرد عليه ابنه : « كلما كثرت رؤيته لها اشتدت رغبته فى المزيد فساله : « ولكن هبه اشتراها وابعدها عنك كلية ؟ فاجابه : احسب ان هذه مخاطرة علينا ان نقدم عليها ٠ « فقال : حدسى انه لن يصدق ان المسألة خالية من الغش ،

فانه ان حصل على نتائج ايقن انك اخبرت المرأة بهـــا سلفا » . فقال الشاب المثالي : « في هذه الحالة سينال جزاء أثامه . ولجوته كلمة يقول فيها ان كل اثم يجزى نفسه بنفســه على الارض » . بيد ان روبى لم يكن مهتمــا بالقيم الروحية أكثر من اهتمـــامه بالروحانيات ، فقال : « ان تمكنت من اعتصار هذه الصفقة فسيكون في مقدوري الوفاء بالصكوك التي أعطيتها لك ولبيوتي ومارسلين فأجابه : « لا حاجة بك الى القلق فيما يتعلق بهذه الصكوك يا أبي ، فلسنا في ضنك » . فقال : « على كل حال ليس من المستملح ان يعرف عني اني أخذت النقود التي حصلت انت عليها من بيع رسوم مارسل . » فقال الفيلسوف الشاب : « لولاك ما كنت انا هنا ، ولتزوجت بيوتي رساما من الدرجة الثالثة في وغارتر ، ولما كانت مارسلين مسافرة الآن على ظهر يخت خاص . وقد ذكرت هذا كله لهم . » فقال روبى : « مهما يكن من شيء فقد حضرت الى هنا لبيع هذه الاسهم ، فلنحاول الحصول من مال هذا الوغد العجوز على أكــبر قدر ممكن . »

وكان لاني قد ابتكر نكتا حول مؤسسة « ر ، ر » . وفي الايام التي كانت فيها أمه بيوتي وبيس تحاولان العثور له على زوجة صـــارت ثمة مؤسسة « ب ، ب » . والآن قال : ستكون لدينا مؤسسة ز ، ز .

- ٧ -

وبعد عودة لاني الى باريس كان حريا ان يجلس في مؤتمر ويحصل على معلومات عن خطط الحكومة الرومانية لاعادة التسلح ، لولا انه كان على موعد مع سلطان كورتيزي لزيارة « الصالون » ومناقشة حالة سوق الصور . وكان الهنغاري الاشقر احد اولئك السعداء الذين لا تبدو عليهم السنون . وهو انما قد وقع على اكتشاف جيد ومثير في عالم الفن ، وهو دائما يريد ان يحدثك عنه بالفاظ سريعة متدفقة ، ويبدو دائمـــا شعره المترد وشاربه الاشقر كأنهما يشاركان في ايمانه . ولم يكن في الصالون شيء من الطراز الاول كما قال ، ولكن كان ثمة عبقري روسي شاب وهو : اسكندر ياكوفليف له لوحاته معروضة في احد المعارض ، وهو مصور عظيم حقا ، ولا بد للاني من المضي كي يلقي عليها نظرة على الفور . وكذلك عثر زلطان على اكتشــاف عبارة عن مجموعة من الرســوم الألمانية بريشة بليك ، عثر عليها في صندوق قديم في بيت ريفي بمقاطعة

سرى (بانجلترا) وهى رسوم حقيقية ولم تزل الوانها ناضرة · وما من انسان سواه على وجه الارض كان مستطيعا ان يرسم مثل هؤلاء الملائكة والشياطين ولا شك في أن زوجة بليك هي التى قامت بتلوينها ، ولكن هذا يصدق على الكثير من رسوم بليك وينبغى ان تحقق كل قطعة منها الف جنيه على الاقل ·

وعلى الفور شرع لانى يدير فى ذهنه أسماء الاشخاص الذين يمكن ان يهتموا بمثل هذا الكنز المكتشف · ولم يكن ذلك لان زلطان سوف يعطيه نصف العمولة ، بل لان هذه لعبة كان قد تعلم كيف يلعبها · ولا جدوى من اعتراض ايرما ، ولا جدوى فى التفكير فى أن النقود التى تودعها فى حسابها يمكن ان تحدث له الاثارة نفسها التى يحصل عليها من ابرام صفقة ·

وقال الصديق : « لن نستطيع الحصول على ما الفناه من الثمن وسوف تدهش من المدى الذى هبطت اليه الاسعار » ·

لا بأس · فالصور لم تزل محتفظة بجمالها ، فان احتفظت ببساطة أذواقك استطعت أن تعيش وتستمتع بها ، بيد أن التجار الذين اثقلوا كواهلهم بأكداس منها سيجدون عناء في اداء ايجاراتهم المرتفعة ، أما المساكين الذين يعملون في الرسم فسوف يهيمون على وجوههم ولوحاتهم تحت أذرعهم ليتطلعوا اليها فى تمعن واشتهاء ، آملين أن يدفع سلوكهم هذا نظر أحد من السابلة للوقوف أمامها والاهتمام بأمرها ·

وكانت باريس في الربيع بديعة كالعهد بها ، فراح الصديقان يضربان في شوارعها ،ممتعين انظارهما باشجار القسطل المزهرة ، وممتعين حاسة الشم بالشذى الفواح من أحواض الزهر · وكان زلطان يناهز الخمسين ، تملأ ذهنه مشروعات للارتحال الى هنا وهناك ، كى يرى هذا الشيء وذاك ، وهو دائما يلتقى بشخص جديد تطرب له النفس ، أو يكتشف كنزا جديدا من كنز الفن · وسعيد حقا ذلك الانسان الذى تمتزج لديه حرفته ومتعته على هذا المنوال ! وكانت الف لوحة للاساتذة القدامى قد جعلت حياته ميسرة حين يذكر أعمالا يستطيع أن يزهو بها وينتشى وهو يمكن لعميل من عملائه أن يفوز بواحدة منها ·

وكان ثمة أشخاص أثرياء يسعون لتصيد الاعمال الفنية الشهيرة، ويحذر زلطان صديقه « الوردى » من اظهار الازدراء أكثر مما ينبغى فى سلوكه نحو أمثال هؤلاء · فبعضهم جهلة وادعياء ، ولكن فريقا منهم

محبون حقيقيون للفن يمكن تشجيعهم وتقديم العون لهم · وليس هذا فى مصلحة العمل فحسب ، بل هو خدمة عامة أيضا ، لان الكثير من هذه المجموعات قمينة أن تؤول الى المتاحف فى نهاية المطاف · ولم يكن زلطان يدرى شيئا كثيرا عن الاقتصاديات ، ولم يتعب ذهنه بالاحاديث الثورية التى تجرى على لسان لانى ، بل كان يقول ان الرسوم ستعيش مهما حدث ، وان الناس سيكونون راغبين فى مشاهدتها ، وسيكون ثمة عمل للانسان الذى يثقف ذوقه بحيث يميز النادر والثمين من المبتذل والشائع·

- ٨ -

استاجر لانى سيارة واقل فيها زلطان لتناول الغذاء مع اميلى شاتروزوبرث فى ضيعتها « ليه فوريه » التى تقضى بها الجانب الاكبر من كل سنة · وهى مكان فخم جدا لدى لانى ذكريات عنه منذ الطفولة · فعلى هذا المسطح العشبى تحت شجر الزان الضخم اصغى لاناتول فرانس وهو يسرد فضائح ملوك وملكات فرنسا الغابرين · وفى قاعة الجلوس هذه عزف البيانو لا يزاد وراونكان ، ودعى للهرب معها · وهنا أيضا عزف مصاحبا لهانسى فى ذلك اليوم الذى التقى فيه هانسى وبيس فتحابا حبا ابديا مكينا ·

وكانت ربة القصر ذات الشعر الابيض تريد أن تعرف أنباء جميع الاسرات ، واثارت اهتمامها قصة زهاروف والدوقة الاسبانية التى كانت تعرفها · وكانت اميلى قد عقدت جلسة مع السيد سيزنسكى بيد أنها لم تحصل على نتائج ذات بال ، ولا بد أن ذلك راجع الى أنها كانت منطوية على عداء للفكرة فافزعت الارواح ! وآثرت أن تسال زلطان رايه عن الصالون وكانت قد زارته · ولما كان لديها رسمان لم يعد ذوقها يسيغهما فقد اطلعت عليهما الخبير واصغت ليقدر ما يمكن أن تحصل عليه ثمنا لهما · وطلبت منه الا يتعجل ، فهى ان خسرت مالا طائلا شأنها شأن كل انسان ، الا أن الخسارة فيما يبدو تمت على الورق فقط ، لأن الأسهم لم تزل تغل عليها حصصا · ولكن « لانى » نصحها ألا تعول على ذلك ·

وما كان «وردى» شاب ليقدم الى باريس من غير أن يزور مكتب صحيفة « البوبيلير » ويتبادل الآراء مع جان لونجيه وليون بلوم · وكان لانى يعرف أفكارهما لانه يقرأ صحيفتهما ، أما هما فكانا يريدان أن يعرفا

كيف كانت تسير حركة تعليم العمال في « الميدى » ، وماذا رأى ابن رجل الصناعة الامريكي في الاتحاد السوفييتي • وبعد عداء بسيط مع لوبجيه مضى لاني على قدميه ليتفقد معارض الصور ، ثم صعد اكمة مونمارتر الى المسكن الحالي من سـمات التظاهر حيث الفي جيس بلاكلس في معمعان تدبيج بيان ينشر في صحيفة «الاومانتيه» (الانسانية) يندد فيه بلوجنيه وصحيفته وينعتهما بانهما اداتان عميلتان للرجعية الرأسمالية . وعندما علم جيسى أن ابن اخته كان في أوديسا شرع يلح عليه بالاسئلة ، متلهفا على كل فتات من الطمأنينة الى تقدم خطة السنوات الخمس •

وجيس يقيم هنا مع رفيقته الموظفة في صحيفة شيوعية ، وحياتهما حافلة بالعمل الشاق مع قليــل من المتعة • وقال جيس أن لا وقت لديه للرسم • فالرجعيون بسبيلهم الى الاسـتعداد للانقضـاض على العمـال المنظمين واخراجهم من اعمـالهم • والانتخابات القـادمة في فرنسا ربما كانت آخر انتخابات تجرى في عهد الجمهورية • فخال لاني الاحمر يعيش تحت تأثير وشك اندلاع حرب الطبقات ، وحياته وقف على كراهية النظام الراسمالي وتعليم سواه من الناس كيف يشاركونه هذا الشعور • وهو مزمع ان يخوض هذه المعركة ليصارع الراسماليين والاشتراكيين كليهما• وكان لاني يعتقد أنهـا لمأساة الاتستطيع الجماعات العمـالية أن تتضامن لمواجهة أعداء اقوى منهم بكثير ، بيد أنه من المستحيل أن يقوم تعاون بين من يعتقدون أن التغيير يمـكن التوصل اليـه بالعمـل البرلماني وبين من يعتقدون أنه لا مفر من احداثه عنوة • وعنـدما تذكر هذه العبارة الاخيرة على مسامع جيسىبلاكلس يصر على أن الراسماليينهم الذين سيستخدمون القوة ، وأن مسلك العمال دفاعي محض ، وانهم سيتعرضون للمهاجمة ، وتشتت تنظيماتهم ، وقد تكشفت الامور في إيطاليا عن مصداق ذلك •

ويجيبه لاني : « هــذه مغالطة • فالشيوعيون يتخذون مسلـكا يجعل استخدام القوة لا محيص عنه . لانك ان شرعت في تصويب مـسدس الى انسان أدرك أن حياته تتوقف على سبقه الى التصويب اليه » •

ايمكن أن تتغير الراسـمالية تدريجا ؟ أفي المستطاع تحقيق ذلك باقتراع يخرج فريقا من الساسة من مقاعد الحكم ويحل فريقا آخر محلهم؟ لقد عثر لاني على نص من كارل ماركس يعترف فيه بأن التغيير التدريجي يمكن التوصل اليه في البلاد الانجلو سكسونية التي تأصلت لديها النظم البرلمانية منذ عهد بعيد • ومعظم الحمر لا يعلمون أن أستاذهم قال ذلك ولا يصدقونه عنـدما تخبرهم به ، لان ذلك يبـدو وكانه يخـذل قضـية

البلشفية باسرها · وقال جيسى أن الاستشهاد بماركس شأنه شأن الاستشهاد بالكتاب المقدس : فانك مستطيع أن تجد فيه أى نص تروم ·

وواصلا الجدل ، فقالا القليل مما لم يقولاه من قبل · وبعد قليل دخلت فرانسواز مكفا عن الجدل، لأنها لم تكن تتذوق روح الفكاهة الامريكية الحلية البال ومن الجائزان تضيق بلانى ذرعا · واخبرها بالجوانب الحمسة مما شاهده فى الاتحاد السوفيتى · وسرعان ما جاءت سيزيت أختها الصغرى المتزوجة أحد سائقى سيارات الاجرة فى باريس الذين لا يتورعون عن القتل · وقال الخال جيسى ان ذلك «الفتى» لديه الحل الصائب للمشكلة الاجتماعية ، الا وهو أن يدهم بسيارته جميع البورجوازيين ، وفى الوقت نفسه يستخدم سيزيت فى زيادة عدد السكان الحمر · فقد رزقا طفلهما الثانى · ·

وانصرفت المرأتان الى أعداد العشاء ، واستأذن لانى فى الانصراف وسار عائدا الى فندق كريون كى يقابل اباه · ولما سأله روبى : « ماذا كنت تصنع ؟ » أجابه « كنت استعرض الصور » · وكان ذلك الحق ، ولا شيء غير الحق · بيد أنه لم يكن كل الحق ! ·

- ٩ -

وواجب آخر : زيارة يقوم بها الى قصر بروين · فلانى كان قد وعد مارى وهى على فراش الموت بأنه لن ينسى ولديها · ولم يكن فى وسعه أن يصنع لهما الكثير ، بيد أنهما كانا لطيفين ودودين وكان يبهجهما ان يحدثاه عما يقومان به ، وتحدث تليفونيا الى والدهما الذى حضر واقله فى السيارة .وكان دنيس دى بروين قوىالبنية مع انه جاوز السبعين ،وقد ابيض شعر راسه واضفت عليه عيناه السوداوان الحزينتان وملامحه الارستقراطية الشاحبة سمة الامتياز فى شخصيته · وقد ابهجه أن يرى لانى لما بينهما من ذكريات مشتركة ·

وفى الطريق تحدثا فى السياسة ، وانه لمما يثير العجب ان يلاحظ المرء كيف يمكن أن يبدو عالم واحد فى صورتين جد مختلفتين لانسانين مختلفين · فهذا دنيس دى بروين رأس مالى على مستوى متواضع وصاحب اسطول فى سيارات الاجرة وهذا مخدوم زوج سوزيت ـ وان كان يجهل ذلك ـ يتفق مع جسى بلاكلس فى أن الشيوعيين أقوياء فى باريس فى مراكز صناعية أخرى وانهم يعتزمون استخدام القوة أن توفر لهم ما يكفى

منها. وكان تصور دنيس لتدبير امور الدولةهو ان يصوب المسدس أولا. انه وطني ومستعد لتقديم الاموال للحيلولة بين جسى واضرابه وبين الوصول الى السلطة. وكان لانى يصغى الى كلامه، وهذا طبعا أمر مستحب لدى صاحب مشروعات واثق جدا من وضعه .

وكان دنيس دى بروين قلقا على حالة بلاده التى كانت تعانى ماليا لانها اعتمدت علىالتعويضات الالمانية ثم حرمت بالغش والخديعة من الجانب الاكبر من آمالها. والوطنى الفرنسى يلوم رجال المال والساسة الانجليز، لأن بريطانيا فى نظره ليست حليفا مخلصا لفرنسا وانما هى منافس . ولذا تستخدم بريطانيا المانيا لمنع فرنسا من تنمية قوتها . ولماذا يعاضد رجال الاعمال الامريكيين هذه السياسة بمساعدتهم المانيا على النهوض على قدميها ، مما يجعلها خطرا على فرنسا ؟ ان المستثمرين الاجانب اقرضوا المانيا ما يقرب من خمسة بلايين دولار منذ نهاية الحرب . فلماذا أقدموا على هذه المجازفة ؟ واجابة لانى « وهبهم لم يقدموا على ذلك فكيف كان يمكن ألمانيا أن تؤدى الىفرنسا أى مبلغ من التعويضات على الاطلاق؟» فاجابه دنيس « كانت حرية أن تؤديها لو انها أجبرت على هذا » ولم يقل كيف . وكان لانى احجى من أن يفحمه ويحرجه . والرجال الذين كانوا يحكمون فرنسا لم يتعلموا الكثير من غزوهم للرور وفشل ذلك الغزو ، وما زالوا يعتقدون انهم يستطيعون انتاج السلع عنوة ، والحصول على المال بأسنة الحراب . ولم تكن ثمة جدوى من مجادلتهم فخوفهم من المانيا فكرة مسيطرة على عقولهم . وقد يكونون على صواب ، فمن أين للانى ان يعلم على وجه اليقين ؟ ولا ريب أن فى المانيا رجالا كثيرين يؤمنون بالقوة ويعتزمون استخدامها متى توفر لهم ما يكفى منها . وكان لانى قد التقى بهم أيضا .

وأراد دنيس ان يعرف ما الذى ينتظر من الاثر على أحوال فرنسا لانهيار وول ستريت. وكان الموسم فى بدايته. وكثيرون من أهلالوجاهة لم يعودوا بعد الى باريس . فهل سيتخلف السائحون عن القدوم اليها هذا الصيف ؟ وهو سؤال ذو أهمية ملحة بالنسبة لصاحب اسطول من سيارات الاجرة ! وقال لانى انه يخشى أن تضطر باريس للاقدام على ما فعلته نيويورك من قبل ، ألا وهو شد الاحزمة على البطون . وعندما ساله دنيس ما رأى روبى فى بوادر الاحوال ذكر له لانى تفاؤل والده فسر دنيس لذلك ، لان ما يكنه من احترام لرأى روبى أكبر من احترامه لرأى لانى .

وقصر بروينى ليس مكانا عظيما خليقا بأن يجذب الانظار مثل

« بالنكوز » « وليه فوريه » ، وانما هو بيت ريفي بسيط من الصخر الاحمر • وانما سمي بالقصر اكراما لسنه ، واعرابا عن احترام الجيرة الريفية لاسرة عريقه ؛ وكان هذا البيت أحد بيوت لانى بين الحين والحين على مدى ست سنين • وكان الخدم يعرفونه ، والكلب العجوز يعرفه ، بل وشعر ان أشجار الفاكهة نفسها تعرفه • وكان دنيس الابن قد تزوج بزوجة من الطراز اللائق ، وهى هنا تتعلم واجبات ربة القصر ولهما طفل ذكر ، وهكذا اخذ الولدان الشابان يتبادلان النكات حول امكان قيام مصاهرة بين الاسرتين . أما الاخ الاصغر شارلو فيدرس الهندسة، ومعنى ذلك أنه من المحتمل أن يرحل الى اصقاع بعيدة من الدنيا • هو بالصدفة مهتم بالسياسة وينتمى الى احدى الجماعات العدوانية التى يكونها الوطنيون الفرنسيون • ولم يقل لانى شيئا كثيرا عن آرائه الخاصة • ولم يسبق له أن صرح بشيء من ذلك قبل ، فلئن واتاه الحظ فكان عشيق زوجة دنيس، فما كان له أن يجعل من نفسه مفسدا لولديه• وكل ما صبا اليه هو أن يخفف من غلوائهما بالحديث عن التسامح وتفتح الافق العقلى •

وكان الشابان ـ واحدهما فى الرابعة والعشرين والآخر أصغر منه سنة ـ يتطلعان الى لانى تطلعهما الى شخص اوتى من الحكمة والتفوق والشهرة نصيبا خارقا • وكانا يعلمان بأمر زواجه ، ويريانه نوعا من التتويج • وكانت امهما حرية أن تنضم الى هذا الرأى لانها كانت تكن احتراما قاطعا شاملا للملكية شأن جميع الفرنسيات • والفرنسيون بل معظم الاوربيين الآخرين ، مغرمون بأن يقولوا عن الامريكيين انهم يعبدون الدولار • ولسطان كرتيزى تعليق سديد على هذا الرأى : ان الامريكيين يعبدون الدولار والفرنسيين يعبدون (المليم) •

الفصل الخامس

من الاغوار المترامية

- ١ -

لحق لانى باليخت بسى بد فى لشبونة ، ومن هنا اقلعوا ورسوا فى حوض اليخت فى « كاوز » • وكان فى انتظارهم هناك خطاب من يوهانز يخبرهم أنه مضطر للبقاء بسبب بعض الاعمال التى لا تسير على ما يرام ولا فائدة من اسراعهم الى بريمن • وكان ثمة أيضا خطاب من ريك يدعوهم للقدوم الى « ذى‌ريتشمز » لقضاء بضعة أيام لأنه وزوجته لم يرياهم منذ عام كامل • واستشار لانى أمه ثم أرسل برقية الى ريك يدعوه لاحضار زوجته وابنهما الأكبر لقضاء رحلة بحرية قصيرة •

والصداقة شيء مبهج للقلب عندما يتوفر ذلك النظر الثاقب فى اختيار الاصدقاء الملائمين وكان ايريل فيفيان بوميروى نيلسن قد غدا على مر السنين آنس صديق يأنس اليه لانى • ومن المشكوك فيه أن يكون قد توفر لأصغر الرجلين من الشجاعة ما يكفى لثباته على كل هذه الافكار المبتدعة لولا مؤازرة ريك • فابن البارونيت يرقب كل ما يجرى فى الدنيا ويحلل الاتجاهات المتباينة ، ويسجل فهمه لها فى مقالات صحفية يقصدها لانى ويرسلها الى الاشخاص الذين يدخل معهم فى مجالات • وليس معنى هذا انه هدى الى رأيه أحدا من الناس ، بل قصاراه أن يبقى قضيته حية •

وكان ريك أكبر من لانى بسنة ونصف فقط ، بيد أن لانى كان من عادته أن ينقاد له ، الأمر الذى كان يسر زوجة ريك ولا يسوء ريك على طول الخط • وكلما كتب الانجليزى مسرحية كان لانى على ثقة بأنها لابد أن تحقق النجاح المدوى المنتظر من زمن طويل •

وعندما لا تحقق ذلك كان ثمة دائما سبب : مثل اصرار ريك على تناول المشكلات الاجتماعية من وجهة نظر غير مرغوب فيها لدى من يبتاعون

أفضل المقاعد فى المسارح • وكان الكاتب المسرحى الشاب مجددا لأن له ابوين يؤمنان به ويكفلان له ولاسرته بيتا مريحا كى يكتب الحقيقة كما يراها •

وقد انقضت قرابة ثلاث عشرة سنة منذ سقط الطيار الانجليزى الحديث السن جدا فى المعركة ووجد مشجوج الراس مكسور الركبة وقد اصابها تعفن شديد • وفى غضون هذه السنين تعلم كيف برجل عرجاء ، فصار فى وسعه أن يذهب للاستحمام فى مكان خاص اعده له لانى فى بيانفينى • والآن نجح اليخت « بسى بد » فى تركيب مقبضين فى آخر درجة من سلم اليخت كى يتسنى لرجل ذى ذراعين قويتين ان يرفع نفسه من الماء بدون مساعدة • وسيكون فى وسعه أن يفك دعامة ساقه وينزلق فى الماء ويستمتع وكانما لم تنكب البشرية بحرب عالمية •

وكانت نينا كالعهد بها رقة ولطفا وقربا من النفس • اما الفتى الصغير ــ فكان ينادى بهذا الاسم تمييزا له من جده البارونيت ، وان كان وصف الصغير لا يكاد يلائمه الآن وقد أضحى طويل القامة عالى الساقين جدا بالنسبة لعمره الذى يناهز الثالثة عشرة • وكان اسود الشعر والعينين مثل أبيه ، وهو مبكر النمو العقلى الى أقصى حد كما هو منتظر ، فلديه معلومات عن شتى الحركات السياسية ، والحركات الفنية أيضا ، ويستخدم الرطانة الخاصة بتلك الحركات بطريقة تجعل من العسير عليك الا تبتسم • وهو ذو ملامح نحيلة حساسة جاد العقل ، مما جعله فريسة مهياة سلفا لمرسلين ديتاز ، هذه الغزالة الخليعة الصغيرة • فمرسلين ديتاز لا تعرف شيئا عن السياسة ، ولكنها تعرف شيئا من الفنون ، بما فى ذلك فن الخلاعة • وهى فتاة نصفها فرنسى ونصفها امريكى ، نشأت أيضا بين أناس أسن منها ، ولكنهم من طراز مختلف ، فتعلمت من بارونة توريت السابقة (وهى سيدة المصنوعات الحديدية القادمة من تشنسناتى) القدرة الفذة على القوة بعبارات جريئة جدا ووجهها فى منتهى الهدوء والرزانة ، ثم تنفجر ضاحكة عندما ترى نظرة الذهول فى عينى فتى متزن • ويبدو ان الفتى لن يتعلم هذه الحيلة •

وكانت الاسرتان قد اعدتا مشروع زواج لهذين الفتيين بالبرق بمجرد ظهورهما على مسرح الوجود • وكان الاهل يتبادلون النكات حول هذا الأمر على الطريقة العصرية السهلة المتحررة ، وقد التقط الفتيان منهم

هذه العادة . فكانت مرسلين تقول له « لن اتزوجك ا نلم تتعلم كيف ترقص خيرا من هذا » ويتكدر الفي ويجيبها « لاحاجة لك با لزواج مني ان لم تكن لك رغبة في ذلك » وكان ذهنه خاليا دائما مما يمكن ان تفعله في اللحظة التالية ، ففي بعض الاحيان يجرح شعورها بهذا القول وفي احيان اخرى تشعر ان عبثا ثقيلا ازيح عنها · وسواء كان الامر هذا او ذاك فسرعان ما يتضح انه مجرد مغايظة ويتقلب الفي الى انسان يتعقب طير الصهيد في ليلة مظلمة ·

وكانت مرسلين قد الفت الرقص في بيتها منذ نعومة اظفارها . فثمة ما يسمونه رقص « المجتمع » ، ورقص دالكروز ، ورقص ايزادورا دنكان ، ورقص فلاحي البروفانس ، ورقص الريف الانجليزي والامريكي، وسائر انواع الرقص التي يمكن ان تلتقطها طفلة · وثمة ايضا نوع من انواع الموسيقى يتردد في البيت معظم الوقت ، فلديها جراموفون وراديو كي يتسنى لها ان ترقص على اساس منظم · وعلى ظهر اليخت بمجرد ان تنتهي دروسـهـا تذهب جريا الى حيث يتدرب هانسي وبيسي وتلبث دقيقة واحدة تصغي كي تدرك الايقاع ثم تأخذ قدماها في الحركة وتنطلق راقصة في سائر انحاء البهو · وقد تمد يديهـا الى لاني ويأخذان في ارتجال الرقص · وقد تعلما كيف يقرأ كل منهما اشارات صاحبه · واذا بك ترى بعينيك مرة اخرى الموسيقى وقد اصبحت منظرا مشهودا كما كان الحال ايام دلكروز الغابرة ·

فلا عجب تستطيع مرسلين ان ترقص في دوائر حول غلام لايعرف الا ما يشبه السير في النوم على ايقاع نغمات الجاز ، وهو الرقص السائد في المجتمع الراقي · و يبذل الفي غاية جهده في المحـاولة ، بيد انه يبدو ويحس كانه زرافة صغيرة فاجأها زلزال · وتصـيح به « اترك نفسك · اترك نفسك ! » فيروح يدق الارض بكعبيه واصابع قدميـه بطريقة ابعد ما تكون عن الانجليز وتمنحه الفتاة من التشجيع ما يكفي بالضبط لاستمرار ارتباطه بها ولكنها لاتشجعه اطلاقا الى الحـد الذي يجعله يشك في من منهما ستكون له الكلمة العليا في بيتهما ·

ويراهما لاني جالسين متباعدين عن الباقين اثناء عزف الموسيقى في المساء · ويتماسكان بكفيهما احيانا ، فيخطر له انهما يعملان على حل معضلتهما الخاصة بطريقتهما الخاصة · وتذكر الايام التي زار فيهـا « ذي ريتشز » لاول مرة وجلس على ضفة نهر التيمز يصـغي الى كيرت ما يسنر يعزف الحركة البطيئة في كونشرتو موتسارت من مقام الصغير

الا كم تراءت له الحياة معجزة في ذلك الحين وقد التفت احد ذراعيه حول روز ماري كودويليجر ـ التي تنطق كاليفر ـ وهو يرتجف نشـــوة وحبورا ويحلم بالمستقبل الرائع • ولم يتحقق شيء على نحو ما تصــــوره في خطته • وجعل يفكر في الحياة وكيف انها قلما تمنحنا ما نصبواليه • والشباب يقدمون علينا صائحين صياحا عاليا مطالبين بنصيبيهم ، وليس لديهم الا فكرة يسيرة جدا عن الالم الذى ينتظرهم ، ويتصدع قلب المرء لتفكيره في تلك الآلام ولكنه لايستطيع أن يحدثهم بنبئها ، فلابد لهم من سلوك الطريق التى اختاروها وتكبد مشاقها وعقباها •

- ٣ -

درجت السفينة بيسى بد على ان تمخر في مياه ترتادها السفن من سائر الاحجام ابتداء من عابرات المحيط الضخمة الى السفن الشراعية الصغيرة ، فلا ضير في أن يزيد عددها واحدة ما دمت ترقب الطريق وتطلق صفارتك بين الحين والحين • وصعدوا في بحر ايرلندة ، وكان الجو لطيفا فتتعاقب الايام والسماء زرقاء صافية ، والهواء تتردد فيه اصداء الموسيقى وايقاع الاقدام فوق ظهرها ، وهانسى وبيسى يتدربان بهمة ، وبيوتى وايرما تلعبان البريدج مع نينا و راحيل ، في حـــين جلس لانى وريك على انفراد يناقشان كل ما حدث لهما خلال العام المنقضى •

وكان لانى قد زار مقر مصانع آبائه ، واستقبل الامير زوج الملكة في نادي نيوكاسل الريفي • وفى قصر ايرما المقام على غرار القصـــور الفرنسية في لونج آيلند • وكان ريك في هذه الفترة قد كتب مسرحية عن زوجين شابين منقسمين حول عواقب اســـتخدام العنف في صراع الطبقات • وكان ريك قد كتب عدة مسرحيات عن شباب تعذبهم بعض جوانب هذا الصراع • وهذا العمل الاخير بدأ الكلام فيه على لســـان الشخص الشاب المثالى الذى ابتدعه قريب الشبه جدا من كلام لانى بد ، في حين كانت الزوجة « فوق الحمراء » مالكة ليخت يحمل اسمها • وقد اعتذر ريك عن هذا قائلا ان المؤلف المسرحى عليه ان يستخدم المواد التى في متناول يده • فقال لانى انه مما لاشك فيه ان ثمة اشخاصا كثيرين تافهين مشتتى الاذهان مثله ، ولكن ذوى العزم من المتمردين المكافحين بجلد من امثال بيسى ليسوا كثيرين بين صفوف الطبقة الطفيلية •

وكان ريك قد تحدث الى رؤساء تحرير وصحفيين في لندن ومع

سائر وكتاب واناس من شتى الانواع فى بيت ابيه ، وكان على علم بانبثاق الحركة النازية في ذلك البلد الممزق وقد تسلم منذ وقت غير طويل خطابا من كيرت الذى كان فى مرجوه دائما ان يشرح ظروف بلاده للعالم الخارجى ، فكان يبعث الى الخارج دائما بقصاصات من الصحف وكتيبات والالمان بما لديهم من هوس ناجم عن الاحساس بالاضطهاد لايكلون عن الدعاية ، وهم مستعدون للتبشير لكل من يتسطيعون اقناعه بالاصغاء • ولكنك من النادر ان تسمع احدا منهم يعرض جانبى القضية او يعترف باتفه خطأ من جانب بلاده •

ورسا اليخت على الساحل ، فى مرفأ ايرلندى صغير ، واستقل الشباب عربة للنزهة ، اما السيدات فساومن القرويات السريعات البديهة لشراء كميات من التيل المطرز بالايدى • ورسوا على ساحل ويلز ايضا حيث الجبال لاتبدو ذات رهبة فى نفوس الفت الحياة عن كثب فى جبال الألب وزاروا جزيرة مان (الانسان) وتذكر لانى قصة طويلة كان فى صباه يخالها هائلة بيد انه يحسبها الآن ليست ذات شان كبير • رسوا فى ليفربول حيث كانوا قد اعدوا الترتيبات لتلقى بريدهم هناك• وكان من بينه برقية من رربى الذى كان قد عاد الى باريس « ابرم البيع بسعر ثلاثة وثمانين وهو احسن مما كان منتظرا وهذا بفضلك سابحر غدا • اتمنى حظا سعيدا للازواج • »

وكان لانى قد اجل بناء على طلب ابيه تحديد الموعد الذى وعد به زهاروف ، فقام الآن بارسال مذكرة بالبريد قال فيها ان اليخت من المنتظر وصوله الى الساحل الفرنسى بعد بضعة ايام وعندئذ سيبرق بالموعد • وتهادى اليخت بيسى متجها صوب الجنوب مرة اخرى حيث انزل آل بوميروى نيلسن فى « كاروز » ، ومن هناك ابرق لانى الى قصر بالنكور يقول انه سيحضر « الصديقة » الى فندق فى (دبيب) بعد ظهر اليوم التالى • وكان قد ذكر لماما روبن انه يرغب فى مقابلة صديق له هناك فسرها ان تجيب رغبته • اما امه وزوجها فقيل لهما انه يريد القيام باختبار للسيد : وسوف لايذكر الاسماء الا بعد انتهائه واما المرأة البولندية فكانت متعودة على دفعها للتنقل هنا وهناك للقيام بعرض موهبتها الغريبة •

ودييب مدينة عمرها الف سنة بها كنيسة وقلعة ومشاهد اخرى يؤمها السائحون • وهى ايضا منتزة مشهور على البحر به كازينو ، ولذا لم يحسب لانى انه سبب لاصدقائه ضيقا • وشد اليخت الى رصيف

بالمرفأ ، وفى الوقت الملائم استدعى سيارة اجرة واقل فيها وديعته الى الفندق • وكان قد تلقى برقية غفلا من التوقيع تخبره ان « المسيوجان » سوف يكون فى انتظاره • وفى مكتب الاستقبال سأل عن هذا السيد ، وصحبوه الى الجناح الذى كان زهاروف جالسا فيه بمفرده منتظرا •

وكان قد اعد مقعد مستطيل للوسيطة ومقعد وثير لكل من الرجلين• ولما كان الرجل الكهل على علم كاف بالتعليمات ، فلم تكن ثمة حاجة الى الكلام ، فقام لانى بتقديمه باسمه الوهمى ورد قائلا «طاب يومك» ولم يزد • وقال لانى (اجلسى ياسيدتى) ولم يجر حديث اكثر من ذلك • وكان ملك الذخائر المتقاعد مرتديا زيا خاليا من مظاهر الجاه ، بحيث يخاله من لم يألف صورته الفوتوغرافية متقاعدا من رجال الأعمال ، او استاذا فى كلية او طبيبا •

وبدات المرأة ترتجف وتئن ، ثم سكنت وراحت فى سباتها • وطال الانتظار • وكان لانى ـ الذى ظل على اعتقاده ان هذه الظـــاهرات من قبيل قراءة الافكار عن بعد (تيباثيا) قد ركز ذهنه على شخصية ماريا ديل بيلار انتونيا انجيلا باتروتشينو سيمون دى موجويرو اى بيروته دوقة وماركيزة فيلافراكادى لوسى كابليروس • وكانت شخصية اخفقت فى ان تعيش على مستوى هذه الاسماء ذات الرنين الفخـــم ، فقد كانت اقرب الى صغر الحجم ، سمراء ، شديدة الهدوء ، متحفظة ، بيد انهـــا رقيقة عطوفا ، ملائمة لاحتياجات رجل اعمال شـــديد التدقيق فهى تحرسه ، وترعاه وتحبه وقد انجبت له ـ ان صحت الاقاويل ـ بنتين • ومهما يكن من شىء فقد عبدها واظهر فخره بها على الطريقة المحتجزة التى فرضتها الظروف عليه • ولم يفترقا نيفا وخمسا وثلاثين سنة ، ولابد ان مليون ذكرى من ذكرياتها ترقد دفينة فى عقل الشيخ اللاواعى فهل ترى توفر الوسيطة فى تنبيهها ؟ ان كان الا مر كذلك ، فقد يتكشف عن احراج ، ولعله كان من الكياسة ان يعرض عليه لانى الانسحاب بيد ان زهاروف كان قد اعد له مقعدا • وربما كان فى ذهنه ان معونة الشــــاب قد تكون مطلوبة لتوجيه التجربة •

وفجأة جاء صوت الزعيم الهندى الاحمر كثيفا ناطقا بالانجليزية كالعهد به دائما : « هالولانى • انت اذن تحاول ان تغلبنى على امرى ! » وهى ليست تعبيرا ايروكويا ، ولا يبدو ايضا أنه بولندى وقال لانى بكل جد « ياتكومسه لقد احضرت سيدا عميق الاخلاص فى موقفه منك » • فقال : (ولكنه لايؤمن بى !) فأجابه : (انه على استعداد تام للايمان بك

ان انت قدمت اليه المبرر ، وسيسعده ان يؤمن ٠٠ فقال الصوت باصرار شديد : (انه يخشى ان يؤمن !) فقال الصوت باصرار شديد : (انه يخشى ان يؤمن !) وساد الصمت برهة ثم استطرد : «انك لست فرنسيا» فقال زهاروف : « لقد حاولت ان اكون فرنسيا » ٠ وكان لانى قد اخبره ان يجيب عن كل سؤال بسرعة وبصدق ، ولكن بحيث لايقول اكثر من الضرورى ٠ وقال الصوت « ولكنك لم تولد فى فرنسا ٠ فانا ارى حولك اناسا سمر الوجوه يتحدثون لغة غريبة لا أفهمها ٠ وسوف لايكون من السهل على ان اصنع لك شيئا ٠ ارى ارواحا كثيرة مقبلة ٠ لقد عرفت اناسا كثيرين وهم لايحبونك ، فمن اليسير ان ارى ذلك فى وجوههم ٠ ولست ادرى ما المسألة ، فكثيرون منهم يتكلمون وفى وقت واحد ولا استطيع تمييز الكلمات » ٠

- ٥ -

وكان فى وسع لانى أن يرقب من حيث جلس وجه السيدة ، فرآه مضطربا مقلوب السحنة كما هو الحال دائما حينما يبذل تيكومه جهدا خاصا كى يسمع او يفهم ٠ وبحركة التفات من عينيه استطاع ان يرقب وجه ملك الذخائر الشيخ ، وكان يبدو عليه الانتباه المتوتر ٠ وعلى ذراع مقعد لانى دفتر مذكرات راح يدون فيه اكبر جانب ممكن مما قيل ٠

وفجاة هتف تيكومه : « هاهنا رجل يحاول أن يتكلم ٠ اليك انت لا الى انا ٠ انه شيخ شديد النحول ذو لحية بيضاء ٠ انه يقول بانجليزية رديئة جدا انه لم يكن هكذا على الدوام ، بل كانت لحيته سوداء عندما عرفك ٠ واسمه مثل « هايفنى » وله اسم آخر (تايدى) لا ٠ بل هو اسم واحد : (هايفنى تايديز) ؟ انه اسم يونانى كما يقول : هايفنتيدس ٠ اتعرف هذا الاسم ؟ فقال زهاروف : (لا ٠ (فاجابه : انه يقول انك تكذب لماذا جئت الى هنا ان كنت تكذب؟) فقال : «انا لااتذكره» فاجابه : « انه يقول انك سرقته ٠ ما هذا الذى يتحدث عنه ٠٠ ؟ انه يكرر باستمرار كلمة عفص٠ ان لديك عفصا اكياس كثيرة ملآنة بالعفص٠ اهى نكتة ؟ » فقال زهاروف بهدوء قاطع « لابد ان الامر كذلك » وكان اشد من عرفهم لانى ضبطا للنفس ٠

« انه يقول انها ليست نكتة ٠ وان العفص شىء يباع ٠ مائة وتسعة وستون كيسا من العفص ٠ وصمغ ايضا ٠ صناديق كثيرة من

الصمغ • لقد كنت وكيلا » وشرع تيكومسه يتكلم وكأنه الروح الآخر، وهو امر لايقدم عليه الا اذا صار الإتصال واضحا : « لقد اخذت بضائعي ورهنتها لحسابك اتنكر هذا ؟ فاجاب : « طبعا انكره • (فقال : انك لم تنكره في محكمة لندن بل اعترفت بانك مذنب • وكنت في السجن ـ ما اسمه ؟ أولد شيناما • اولد باسن لقد كان ذلك منذ اكثر من خمسين سنة ، ولم اعد اذكر اسمه • » فجازف لاني قائلا : (أولدبيلي ؟ » فاجاب: « هو هذا • أولد بيلي • وكنت انا في القسطنطينية وكنت واثقا بك • لقد قلت انك لم تكن تظن ذلك خطأ ، ولكنها كانت بضاعتي وحصلت انت على النقود •

وتلاشى الصوت ، وكان قد غدا شكسا متذمرا كصوت رجل مسن يشكو شيئا طال به نسيانه • فلئن لم يكن هذا صحيحا فهو يقينا متقن الاختلاق •

واختلس لاني نظرة الى الشيخ الحي فخيـــل اليه أنه يرى قطرات خفيفة من العرق على جبينه • ومما أخبره به روبي كان مستعدا أن يصدق أن الفارس حامل الوسام من طبقة كوماندر ووســـام الليجون دونير من طبقة ضابط عظيم لـديه ذكريات كثيرة لا يحب لهـــا أن تبرز الى وضح النهار •

وقال تيكومسة بعد فترة صمت : « اني أسمع باســـتمرار اسم موجلا • فما موجلا هذه ؟ فاجابه : « انها القرية التي ولدت بها » فسأله : « أهي في بلاد اليونان ؟ » فأجابه : « بل في تركيا » فقال : « ولكنك لست تركيا » فاجاب : « كان والداى يونانيين » • فقال : « ثمة شخص يثابر على ندائك باسم زاك • ثم اسم لفظ رياس • أاسمك رياس ؟ ؟ » فاجاب : « زاكرياس أحد أسمائي » • فقال : « هنا رجل يقول انه عمك • اسمه أنتوني • لا • ليس ذاك • فأنا لا أعرف هذه الأسماء اليونانية • فاجابه : « كان لي عم اسمه أنطونيادس » • فقال : « انه يسألك : أتحب أن تكلمني ؟ » فأجاب : « لست راغبا في ذلك اشد الرغبة » فقال : « وهو يقهقه ضاحكا ، لأنه أيضا لا يحبك • لقد كنت على صلة به في العمل أيضا ، ولم تكن صلة طيبة جدا • وقد لفقت حكايات رائعة حولها • أتكتب قصصا او شيئا من هذا القبيل ؟ » فاجاب : « لست كاتبا » فقال : « ولكنك تروى قصصا وجميع الأرواح تضحك عندما يقول العم أنطونيادس ذلك • لقد صرت غنيا وهاما ، وأنت تروى الأقاصيص عن الأيام الحالية • وهم يروون عنك قصصا هنا • اتحب أن تسمعها فاجاب : « ليس هذا

ما جئت لأجله » . فقال : « هنا رجل ضخم قوى ذو لحية بيضاء تشبه لحيتك ، بيد انها اغزر منها .ويقول ان اسمه ماكس . وانجليزيته جيدة. لا . بل هو يقول انها ليست جيدة ، فهو بلهجة الامريكيين الشماليين (اليانكى) فهل تعرف اليانكى ماكس ؟ » فأجاب : « لا أتذكره » . فقال : « انه يقول ان اسمه مسكيم . وكنت على صـــلة به فى العمل ايضا » فأجاب : « عرفت شخصا اسمه مكسيم » . فقال : « لقد تفوقت عليه فى السوق . لقد ربح ملايين ، ولكنك ربحت عشرات الملايين ولم يكن هناك سبيل لوقفك عند حـد . ويقول مكسيم انه لم يكن مؤمنا بالحياة المقبلة ، ولكنه يحذرك من هذه الغلطة . وسوف تكون أسعد حالا ان أنت غيرت كل هذه المادية . اتعرف ماذا يعنى ؟ » فأجاب : « هذا الكلام لا يبدو خليقا به » فقال : « لقد أخمدت الرجل المسن . كنت فتى طويلا مفتولا وكان فى مقدورى أن (أدق) أى شخص فى غابات مين . كان فى مقدورى أن (أدق) أى شخص فى كندا وهذا ما صنعته فعلا . لقد (دققتك) ذات مرة أيها الكهل . أترى هذا الكلام الآن شبيها بى ؟ » فأجاب « نعم .. أتذكر هذا » فقال : « وذات مرة كتبت اسم الامبراطور بالرصاص على هدف . وأنت قطعا لم تنس هذا ! » فأجاب : « بل أتذكره . » فقال : « حسن اذن . استيقظ ، وتدبر كيف يكون سلوكك فى عالم افضل . فسوف لا يكون فى مقدورك أن تحل مشكلاتك على النحو الذى الفته ، بوضع أصابعك فى أذنيك . »

وساد الصمت برهة ثم قال تيكومسة : « لقد ابتعد ضاحكا . وهو شخص أرعن ، حين يتناول الحساء تتخلل قطراته لحيته . وكذلك الحال بالنسبة للمثلجات . وانت لا تحب مثل هذه الأساليب فى السلوك ، فانت رجل هادىء يازاكرياس . ومع هذا اسمع أصواتا عالية تنطلق حولك من كل جانب . هذا غريب جدا .. من أنت ؟ » .

- ٧ -

ولم يجب اليونانى الشيخ ، وهبط صـــوت تيكومسة الى درجة الهمس ، كأنه يسأل الأرواح عن هذا اللغز ، ولبث لانى برهة لا يستطيع تمييز كلمة واحدة ، فاستغل الفرصـــة فى ضبط وتكميل مذكراته . ورمق بنظره الذخائر مرة أو مرتين ، فلم يرد عليه نظرته ، بل جلس أمامه وكأنه صنم من الصخر . وانفجر الهندى الأحمر فجأة : « ماهذه

الضجة التي ما أنفك أسمعها ؟ ولماذا تثير هذه الأرواح مثل هذا الصخب؟ قعقعة ودق ، واناس كثيرون يصرخون كالمرتاعين . ما هذا الذى تصنع يازاكرياس ؟ » .

ولم ينطق السير بازيل

« لماذا لا تجيبنى ؟ »

« الا تستطيع الأرواح أن تخبرك ؟ »

« سيكون الأمر ايسر عندما تجيبنى عن أسئلتى . ألا تحب مايقوله هؤلاء الناس ؟ ليس الذنب ذنبي ان كانو يبغضونك . هل غششتهم ؟ أو آذيتهم ؟ »

« بعضهم ظنوا ذلك » .

« ان مالا أزال أسمعه هو المدافع . هو ذاك ! أكنت جنديا ؟ هل خضت مواقع حربية ؟ »

« كنت أصنع الذخائر » .

« آه . هو ذاك اذن . وهكذا مات خلق كثـيرون جدا ، ولذا يصيحون بك . لم ار قط أناسا بمثل هذه الكثرة ، حتى ولا فى الايام التى توليت فيها قيادة الشعوب الستة حين هاجمنا ذوو الوجوه الكالحة . وكانت مدافعهم افضل وأكثر مما لدينا ، ومات قومى . ماتوا وهم يصرخون ويصبون اللعنات على غزاة أرضنا . كذلك أيضا مات الناس وهم يصرخون ويصبون اللعنات على زاكرياس اليونانى . أتجرى وتختبىء منهم ؟ انهم يتكاثرون من ورائك ، كأنما هذه أول مرة استطاعوا فيها أن يصلوا اليك . انهم يمدون أيديهم يحاولون ادراكك . أتحس بهم يلمسونك ؟ » .

فقال زهاروف : « لا » . ولأول مرة خيل الى ان فى صوته أثرا من رجفة . وكشفت له لمحة سريعة عن حبـاب من العرق ظاهرة فوق جبينه .

« ما أشبه هذا بمعركة دائرة الرحى . انها تصيبنى بصداع بكل هذا الدخان والضجيج وارى قنابل تتفجر بعيدا ورجالا يسقطون من السماء . لا . لا . ارجعوا . فهو لا يستطيع أن يسمعكم ، ولا جدوى من الصياح فى وجهى . دعوا أحدا يتكلم نيابة عنكم جميعا . ليكن أى

فرد منكم · تقدم انت أيها الرجل ذو الراية الممزقة · ماذا تريد أن تقول ؟ لا · ليس أنت ! لست أريد أن أكلم رجلا انفجرت قمة راسه · فأى كلام معقول يمكن أن يخرج من نصف رأس ؟ ابعد يديك الملطختين بالدم عنى ـ لا يهمنى من أنت · ما هذا ؟ أوه · فهمت · وهو كذلك · قل ذلك له ··· أنا الجندى المجهول · أنا الرجل الذى دفنوه عند قوس النصر · ويحفظون الشعلة حية لا تنطفىء اكراما لى ، ويأتون ليضعوا باقات الزهر على قبرى · وقد أتيت أنت ذات مرة ووضعت باقة زهر · أليس كذلك ؟ اجبنى ! » ·

فقال ملك الذخائر بصوت لا يكاد يسمع : « أجل » ·

« لقد رأيتك · فأنا أرى جميع من يأتون الى القبر ، وأريد أن أقول لهم ان يذهبوا بعيدا عنى ويوقفوا الحرب القادمة ··· »

وسادت فترة صـــمت ، ثم تكلم تيكومسة قائلا : « انهم جميعـا يضحكون ويطلبون منى ألا أضيق بعدم قولك الصدق ، فأنت رجل هام جدا كما يقولون · ويدفعون الى المقدمة بامرأة ـ صغيرة القامة عجوز · لا استطيع أن أتبين اسمها ، فهو قريب فى السمع من « هاجة » · أهذا اسم امرأة ؟ وهى تقول انها أم ابنك · أهذا ممكن ؟ » ·

« جائز » ·

« وتقول ان اسمك كان « سحر » ، ثم غيرته فى روسيا · والموضع كان اسمه فلكومير ، وذلك من زمن بعيد ، بعيد جدا · وتقول ان ابنك على قيد الحياة ، وانه فقير جدا · وتقول ان لك أحفادا ، ولكن لا رغبة لك فى معرفتهم · فهل يعنى هذا الكلام شيئا بالنسبة اليك ؟ » ·

« ربما » ·

« لقد أبعدها تزاحم الجرحى ولم يتركوها تتكلم · لقـد عادوا الى الصياح : نقودك ملطخة بالدم ! لديك مال كثير جدا ، ولكنه ملعون ! لقد قتلت رجلا وانت شاب ، ولكن هذا ليس شيئا ، لأنك قتلتنا جميعا · نحن فى انتظارك فى عالم الارواح ، فكلنا منتقمون ، نحن الذين لا وجوه لهم ولا أحشاء ! يوما ما ستأتى الينا ··· » ·

وصار صوت تكومسة حاد النبرة ، وفجأة هب اليونانى الشيخ قائما على قدميه ، وفى خطوتين كان الى جـــوار لانى وقال : « أعطنى الدفتر » ، وأخذ الشاب واعطاه دفتر مذكراته فجذبه زهاروف بحدة وأسرع فيما يشبه الجرى نحو الباب ، وخرج منه وصفقه وراءه ·

وكانت هذه نهاية الجلسة ، فلم تقل كلمة بعدها ، الا أن الوسيطة بدات تتاوه بصورة تحتاج للرثاء • وكان دانى متاهبا للمتاعب ، لأن أى عمل مفاجىء من أى نوع له دائما تأثير سىء عليها • وكان قد حذر زهاروف من ذلك ، وهاهى تى الآن وقد استولى عليها نوع من التشنج الخفيف وبدأ الزبد يتساقط فى شفتيها فاسرع لانى واحضر منشفة ومسحه بها • وانتابه الذعر برهة ، بيد ان الأنين خفت تدريجا • وبعد فترة فتحت المراة عينيها وسالته « ما المسالة ؟ » ولما رات المقعد الشاغر قالت « وأين السيد العجوز ؟ » فأجابها « انصرف » فقالت « ماكان ينبغى أن يفعل هذا • فقد نتج عنه ضرر ما • واشعر بحالتى فى غاية السوء » فقال : «أنا آسف ياسيدتى . فقد انتابه الذعر» فسألته . « هل سمع ما ساءه؟ فأجابها : « ما ساءه جدا فى الواقع » فسألته : « هل مات له أحد ؟ ! •

وخطر للانى أن هذا مخرج سهل فقال : « نعم • ولم يكن متهيئا للنبأ ولم يشأ ان يبدى مشاعره لنا » فقالت . « ولكن هذا ضاربى أفدح الضرر • فسوف يغضب تكومسة » فقال : « احسبه سيفهم الموقف ياسيدتى » فقالت : « لقد جعلنى هذا أشعر بضعف شديد ، وفى راسى صداع فاجابها : «أنا آسف • سأطلب لك قليلا من النبيذ ان احببت » فقالت : « أرجوك أن تطلبه • »

فطلب لانى شيئا من النبيذ و « البسكوت » ، بيد انها لم تشأ أن تأكل ورشفت النبيذ ، وبعد برهة أعانها على النزول واركبها سيارة أجرة • ولفت نظره وأثار اهتمامه أن المراة حتى فى هذه الظروف المثيرة لم تلح عليه بالأسئلة • فكل اهتمامها موجه الى مشاعرها الخاصة والى أن الناس ينبغى ألا يعاملوها على هذا النحو ، بل يجب أن يكونوا أكثر رعاية لها •

وساعدها على الصعود الى ظهر اليخت ، وقامت الخادم المرضة الخاصة بالطفل يوهانسى وكانت قد غدت صديقتها ـ بمساعدتها على أن تأوى الى فراشها وكانت بيوتى والأخريات قد خرجن لمشاهدة مناظر دييب ، فتوجه لانى الى قمرته الخاصة ليسجل مذكراته للمرة الثانية قبل أن تبرد ذكرياته •

تجربة مذهلة حقا ! ولم يكن فى وسعه أن يصدر حكما على جميع

التفصيلات • فهناك مثلا تلك الأكيـــاس المائة والتسـعة والستون من العفص ، بيد أن سلوك زهاروف دليل على صدق هذه الكشـوف • وظل المراقب الشاب متشبثا بنظرته في أن هذه التفصيلات خرجت من العقل اللاواعي لزاكرياسي باسليوس زهاروف ، سابقا باسم سحر ، والذى عرف بأسماء عديدة وانتسب الى محال ميلاد وتواريخ ميلاد عديدة ، وفق مايلائمه فى كل مناسبة • ولكن ياله من عقل لاواع يحمله انسان معه اينما توجه ! أهذه هي الأمور التى يفكر فيها عندما يستيقظ فى الساعات الأولى من الصباح ويجافيه النوم ؟ كم من الأموال يمكن أن يعوض انسانا عن مثل هذه الذكريات ومثل هذه المشاعر ؟ •

- ٩ -

ولم يستـطع لانى أن ينسى أن اباه شخصيا كان صـ انعا وبائعا للذخائر والأسلحة ، وانه رشا وغش وحرض على سرقة وثائق كي يصل الى عقد صفقات ناجحة متباينة • فهل لدى روبى عقل لاواع من هذا القبيل ؟ انه يقينا لا يجد من العلائم الدالة على ذلك سوى القليل فوجنتاه متوردتان ، وهو ينام نوما طيبا (هكذا يقول) ويبدو عليه الاستمتاع بالحياة • فهل هذا كله خداع ؟ وهل يتماسك متظاهرا بالباطل على غير أساس ؟ ان لانى يذكر كيف كان روبى ينبرى بسرعة وغضب للدفاع عن صناعة الذخائر والاسلحة كلما سمع هجوما عليها • وليس هذا من علائم الذهن المستريح كل الراحة •

وكان لانى قد حفظ عبـــارات أبيه المتكررة منذ طفولته الباكرة وفحواها أن مصانع بد للأسلحة من أصـــول الأمن القومي لأمريكا ، وما تصنعه انما هو خدمة وطنية جزيلة • والقول بأنها تعمل بقصد الربح انما هو تشنيع وضيع لأنها تستغل هذه الأرباح مرة أخرى في العمل ، وقد كان هذا هو التقليد الذى جرت عليه الأسرة قرابة مائة سنة • أما أن تلام على بيع الذخائر للبلاد الأخرى فى أوقات السلم فهو هراء محض ، لانك لا تستطيع أن تصنع الذخائر والاسلحة بدون عمل دقيق بارع ولا يمكن أن تحصل على مثل هذا النوع من العمل من غير أن تهيىء له ما يعمله وتؤدى اليه الأجور التى يعيش بها • والحكومة لا توصى بصنع كميات كبيرة فى أوقات السلم ، الا أنها تتوقع أن تجد المصانع كاملة المعدات وعاملة بالفعل ومستعدة للخدمة فى وقت الحاجة • فماذا

يوسعك ان تصنع سوى أن تحذو حذو سائر التجار فتبيع سلعك وقتما وحيثما تجد لها العملاء ؟ .

وثمة فارق أساسى بين ذاكرياس باسيليوس زهاروف وروبى بد . فروبى يعتبر نفسه وطنيا حقيقة . وهذا بلا مراء شيء بديع جدا لعقل لاواع . ومن جهة اخرى كان لانى قد سمع اليونانى العجوز يقول انه مواطن فى كل بلد يملك فيه عقارا . فهل يريد أن يتيح لكل وطن من أوطانه أن يحارب أوطانه الأخرى ؟ كلا . فقد سمعه لانى فى أوائل سنة ١٩١٤ يعرف عن بغضه للحرب بلغة أدهشت وحيرت المثالى الحديث السن جدا . وقد ضحك روبى من مسلكه قائلا ان ذلك العنكبوت الكهل ، والذئب الكهل ، والشيطان الكهل انما يريد أن يبيع الذخائر والاسلحة ولكنه لا يريد لها أن تستخدم .

ولكنها استخدمت ! وكتب لزهاروف أن يعيش ويراها تستخدم وبداهة أساء ذلك الى عقله اللاواعى ! وكان زهـــاروف قد اشترك فى احتفالات يوم الهدنة ووضع باقة من الزهر على قبر الجندى المجهول . لقد فكر فى ذلك الجندى ، وها هو لانى قد عرف الان ذلك التفكير ! .

- ١٠ -

وقال لانى فى نفسه « ما الذى سيتصوره الرجل الشيخ ؟ انه لا يستطيع أن يعتقد اننى دبرت له هذا واننى أعرف شـــيئا عن عمه انطونيادس ! كلا . بل سيعرف أن المسألة صحيحة بلازيف . وعندما يهدأ سيدرك انه لم يكن سيدا مهذبا على نحو ما ينبغى . ولعله سيرغب فى طلب الصفح من تيكومسة والقيام بمحاولة أخرى للاتصال بالدوقة ».

وقرر لانى ان ذلك سيكون مثيرا للاهتمام فجلس وكتب مذكرة ترسل بالبريد من دييب .

عزيزى السير بازل :

انا آسف حقا لان الجلسة تمخضت عن ازعاج شديد . واريد أن أؤكد لك أننى لن اخبر احدا بشيء عنهـــا . فقد رأيت امورا كثيرة غير مطابقة للواقع تبدو فى الجلسات وليس من همى ان أنشرها بين الناس . فلك أن تعتمد على فى ذلك — لانى .

وكتبت مذكرة أيضا الى ريك على النحو التالى :

اريد منك أن تبحث ان أمكنك عن شخص يقوم بعمل من أعمال البحث والتحرى لى ، بمعنى أن يراجع سجلات أولد بيلى فى سنة ١٨٧٠ حتى نهاية السبعينات ويتحقق هل من بين النزلاء سجين باسم سحر أو زهر أو زهاروف • وأرسل مع هذا شيكا بعشرة جنيهات دفعة أولى لهذا البحث • واذا أخبرتنى بالنفقات بين وقت وآخر سأرسل المزيد من النقود • وأرجوك ألا تقول شيئا عن هذه المسالة لأحد ، فيما عدا الشخص الموثوق به الذى تستخدمه فى ذلك ـ لانى •

وسوف لا يكون من السهل عليه أن يلزم الصمت حول موضوع الاحداث عصر ذلك اليوم • فقد استثير فضـول بيوتى وفضول ايرما أيضا • ومن حسن حظ لانى أن الوقت انفسخ أمامه للتغلب على توتر اعصابه ، ولكى تتغلب السيدة أيضا على احساساتها السـيئة • واخبر أسرته أنه حاول تجربة مع شخص مهتم بهذه الظاهرة ، بيد أن الاختبارات لم تكن مقنعة فهناك أمور معينة لابد من مراجعتها وعندئذ يمكن القيام باختبار ثان • وسيخبرهم بكل شىء فيما بعد • وكان هذا البيان بعيدا عن ارضائهما ، ولكنه ثبت عليه • وسرعان ما عقدت جلسات أخرى ونبتت موضوعات أخرى للكلام وبين الحين والحين كانت ايرما أو بيوتى تقول « بهذه المناسبة ، ماذا حدث فى مسالة دبيب ؟ » ـ فيجيب لانى قائلا : « انها لم تسو بعد » •

ولم يتلق من زهاروف ردا ••

- ١١ -

اقلعت السفينة بسى بد البيضاء الأنيقة أو على الأصح اندفعت بقوة الزيت الخام الذى يحترق فى آلة من طراز ديزله • وفى « بريمرهافن » كان مالكها وابنه الأصغر فى الانتظار فخورين سعيدين ، ولاسيما الابن لأنه كان أبا ، وأبوته جديده لامعة • وكم كان فريدى يعبد تلك الزوجة العذبة الرقيقة ، وكم ارتجف صبورا وهو ينظر الى الكائن الحى الدقيق الذى أوجداه ! لقد انقضت ثلاثة اشهر تقريبا منذ آخر مرة رآهما ، والطفل الحديث الولادة يطرأ عليه تغير كبير فى هذه الفترة • اما آل روبن الآخرون بما فيهم بيس والخادم المربية ـ فوقفوا جانبا عندما

صعد فريدى الى ظهر اليخت وشاركوه سعادته التى أبدى الكثير من مظاهرها ، فهو ليس انجلو سكسونيا .

وحق لهم جميعا أن يشاركوا فى هذه السعادة لان هذا الطفل الجميل كان فخر مزرعة البانهم التى تجد منهم كل عناية والاب والجد كلاهما كان عليهما ان يقدما شهادة بخلوه من جميع الأمراض قبل الصعود الى ظهر اليخت ، والقبلات الناقلة للعدوى ممنوعة ، ولا تربيت أو تدليل أو دغدغة تسبب الانحلال المعنوى . واغسل يديك قبل أن تسمح للطفل بالتشبث باصبعك لانه كما يمكنك أن تلاحظ يقوم على الفور بنقل ما جمعه من جراثيمك الى فمه .

وكان فريدى قد عمل بجد هائل طول السنة وأحرز لقب دكتور الذى يشتهيه . وهو فتى وسيم لا يبلغ طوله طول شقيقه ، الا أن له عينين واسعتين سوداوين كعينيه وسحنة جادة . وهو يفتقر الى أقدام هانسى ، ولذا لن يكون رجلا مشهورا بل حسبه أن يكون دارسا جادا ومعلما وزوجا مخلصا وأبا . وهو ليس فى مثل حمرة هانسى وبس ، بل هو أقرب الى لون لانى السياسى فلم تزل لديه آمال فى الديموقراطيين الاشتراكيين الألمان على الرغم من الرخاوة وقلة الكفاية اللتين يبدونهما . وكان فريدى قد قال انه يدرس الاقتصاديات البرجوازية ليتسنى له أن يعلم العمال موضع الخطأ فيها . وقام مع اثنين من أصدقائه الشبان بانشاء مدرسة ليلية على أساس الخطوط التى حددها مشروع لانى لتعليم العمال فى «الميدى» . وهى عملية لاحزبية كان الاشتراكيون والشيوعيون كلاهما يكيلان لها الطعنات مما أصاب فريدى بخيبة أمل كبيرة . فالعمال يعبئون لحرب الطبقات ولا محل للمترددين بين خنادق المعسكرين .

وحمل يوهانسى اليهم أنباء سيئة . فظروف الاعمال فى ألمانيا وصلت الى درجة تجعل من المستحيل عليه الاقلاع عبر الاطلنطى ، وطلب اليهم أن يذهبوا الى هناك بدونه . ووافق بقية أفراد آل روبن على ذلك وفاء بالوعود التى قطعوها على أنفسهم . بيد أن آل بد كانوا يعلمون ان الغرض من وجود اليخت انتزاع بابا من عناء الاعمال . وادركوا أن آل روبن سيجدون مشقة فى امتاع أنفسهم بدونه . وتحدثت بيوتى فى الأمر مع لانى وزوجته وقرروا الا يقبلوا تضحية من هذا القبيل . ولئن كانت ايرما ستأسف لفوات فرصة الاجتماع بوالدتها ، فان نقل ملكة والده بدينة واحدة عبر المحيط أسهل بكثير من حمل مؤسسة بأسرها على الوصول الى شاطىء لونج ايلند . وقالت ايرما انها فى الحقيقة لا تستمتع

كثيرا باى نوع من الحياة الاجتماعية وهى مطالبة بمراعاة حدود الساعات الاربع ، وترى الآنسة سيفيرن تتجهم ان هى عادت ساخنة متعبة من اثر أى لون من الوان الرياضة • وتضحك صديقات ايرما الشابات الانيقات منها ويطلقن نكات حول الابقار • فكان من الافضل لها أن تظل على ظهر اليخت حيث لا حاجة بها الى ايضاحات أو اعتذارات وحيث يؤزرها راحيل بقدوتها الحسنة •

- ١٢ -

تقرر أن يقوم اليخت « بسى بد » بالتسكع فى أنحاء بحر الشمال والمياه المتصلة به بحيث يتسنى له العودة بسرعة ليستقله مالكه متى تهيأ له وقت الفراغ وسيقام سباق زوارق أثناء الصيف ، وتقام حفلات موسيقية ومسرحية فى المدن والبلدان القريبة ، وهناك متاحف للفن تزار • أجل ان المرء يستطيع أن يفكر فى طرق لقضاء شهرين أو ثلاثة أسوأ من تمضيتها على ظهر يخت فاخر قاعدته فى « بريمرهافن » • وفى مكتبة السفينة نسخة من ديوان هاينى « صور من بحر الشمال » وبها أيضا معزوفات تصويرية لطائفة من هذه القصائد وتغنى راحيل ، ويزمر فريدى ، ويحدث هانسى صريرا ويقوم لانى وشقيقته بالقرقرة والطرق ، وتقفز مرسلين وتتواثب • وتقتحم ايرما وبيوتى ويوهانسى الاوركسترا طالبين لاعبا رابعا للبريدج •

وأقلعت السفينة بسى بد ـ أو دفعت بالديزل ـ الى كوبنهاجن حيث تفقدت الجماعة القصر الملكى وحضرت حفلة فى المسرح الملكى •

وكانت هذه الحفلة فى موعد يتفق بسهولة مع حدود التوقيت بالنسبة للأمين الشابتين • وقام لانى بدراسة التماثيل وأعمال النحت فى متحف نورفالتسن • وكانت ثمة اعمال كثيرة مثيرة للاهتمام من صنع الانسان تستحق المشاهدة اما اعمال الطبيعة فلم يكن منها الكثير فى هذه الجزر المنبسطة والخلجان الصغيرة التى كانت يوما ما مرتعا لصيادى السمك والقراصنة وبعد أن زودوا أنفسهم بأحمال من الثقافة اعادوا يوهانسى الى « بريمرهافن » ثم انطلقوا صوب جزائر فريزيان وزاروا « نورديرنى » حيث كتب قبل ذلك بمائة سنة شاعر تعس قصائد خالده : « لقد استوليت على لبى أيها البحر الخالد ! » •

ثم عاد اليخت الى الميناء حيث استقله صاحبه مرة أخرى ، وقد احضر معه كومة كبيرة من البريد وقد تضمن فيما تضمن رسالة من ريك الى لانى هذا نصها : « فيما يتعلق بطلبك الخاص بسجن أولدبيلى اتضح أن السجلات لا يمكن الوصول اليها ، ولذا وجهت البحث الى أخبار الجرائم فى صحيفة التايمز · وتحت تاريخ ١٣ من يناير سنة ١٨٧٣ وجدت فقرة رقمها ٦١ كالآتى : زخاريا باسيليوس زخاروف (٢٢ سنة) أدين لأنه بصفته وكيلا مؤتمنا من جانب مانيويل هيفنتيدس التاجر بالقسطنطينية على مهمة بيع بضائع من بينها ٢٥ صندوقا من الصمغ و ١٦٩ كيسا من العفص قيمتها الاجمالية ١٠٠٠ جنيه ، قام بطريق غير مشروع ومن غير تفويض من موكله بايداعها لحسابه الخاص على سبيل الرهن » ·

وتضمن خطاب ريك خلاصة لبقية ما نشر بالصحيفة بما فى ذلك التقرير التالى : « وبعد ذلك سحب السجين بناء على نصيحة مستشاره القانونى دفعه بانه غير مذنب واعترف بأنه مذنب » ·

واضاف ريك الى ذلك قوله : « هــذا أمر مثـــير للاهتمام وانى اتساءل كيف ستستخدمه واحب أن أسألك لماذا لا تقدم اليك أرواحك أمورا من هذا القبيل ؟ فانها ان فعلت سأشرع فى أخذها مأخذ الجد ! » ·

الكتاب الثانى

سحابة كالتنين

ـ الفصل السادس ـ

« استيقظى يا المانيا »

ـ ١ ـ

تشرع عواصف الخريف فى الهبوب فى وقت مبكر على بحر الشمال واستنادا الى نصوص قصائده نحكم بأن الشاعر هاينى لبث هناك الى أن شهد تلك العواصف التى تثور وتسوق بسياطهـــا الامواج وتعلو الأمواج كالابراج مرغية مزبده ، وتموج جبال الماء بالحياة • وتعلو السفينة الصغيرة فوق تلك الجبال فى سرعة وخفة ، وفجأة تغوص فى مهاد الطوفان وقد فغرت أفواهها المظلمة • أيها البحر ! ياربة الجمال انهضى من الزبد ! ياربة الحب ابقى على حبى !

ولكنك حين تدير مزرعة عائمة للألبان لا تستطيع المجازفة بتعريض ماالديك من أبقار لدوار البحر ، بل يجب أن تنزلها الى اليابسة قبل حلول الفصل المعتدل ، وان تتعلم ما يتعلق بالعواصف من صفحات الكتب • وكانت امام هانس دورة موســـيقية ، وفريدى أمامه أن يضع معلوماته الاقتصادية التى اكتسبها موضع التطبيق ، ولانى كان يريد أن يقوم بفحص بعض الصور التى يمكن ان تنزل السوق • وحث لانى وزوجته وأمه وزوجها على اضفاء الرقة والفتنة على قصر هائل الحجم فى برلين ، وقال مالكه محتجا : ولأى شىء غير هذا اشتريته ؟

وقالت زوجة لانى الشابة له على انفراد : « أتظن أنه من اللائق بنا أن نخالط يهودا على طول المدى ؟ » فابتسم الزوج وقال : « فى وسعك أن تقابلى أى شخص ترومين فى ذلك البيت ، وأؤكد لك أنه سيأتى » فسألته : « قد يكون هذا صحيحا ، ولكن ألا يظن الناس أن فينا شيئا

على غير ما يرام ؟ » فاجابها : « أؤكد لك ياعزيزتي انهم جميعا يعرفون قيمتك الحقيقية » • فقالت : « لاني ! هذه نظرة فظيعة الى الناس ! » فاجابها : « في وسعك أن توفري على نفسك قسطا كبيرا من الشقاء ان وثقت برايي في أوربا فقد عشت هنا معظم حياتي » • وكان لاني حريا ان يضيف الى ذلك قوله : « تذكري اتوري ! » لولا انه قلما سمح لنفسه أن يشير الى الدوق الايطالي الساحر الذي خالت نفسها يوما ما عاشقة له •

وقالت له : « ولكننا يالاني لبثنا زهاء خمسة أشـــهر نعيش على حساب آل روبي ! ألن انفق شيئا من مالي الخاص ؟ » فاجابها : « ان كان ضميرك يزعجك اعطي فريدي شيكا طيبا لمدرسته الجديدة وما من شيء سوف يسر يوهانس أكثر من هذا » • فسألته : « ولكنه ان كان يريد شيئا كهذا ، فلماذا لا يصنعه بنفسه ؟ » فاجابها : « ربما كان فيما أحسب يخشى أن يصـــنع هذا ، لأنه قد يثير عليه عداوة كثيرين جدا ، أما ان صنعته أنت فسيكون بمنجاة من اللوم » • فسألته : « أهو حقيقة جبان الى هذا الحد ؟ » فضحك الزوج الشاب ضحكة متهكمة وقال : « مرة أخرى اقول لك خذي عني الرأى في أهل أوربا ! » •

- ٢ -

أمر امير المال الألماني اليهودي بفتح عدد من أجنحة الضـــيافة وتنظيفها وتهويتها وتزويدها بأزهار نضرة • وكان حريا أن يعيد زخرفتها لو كان في الوقت متسع • وكان الجناح المخصص لايرما ولاني به قاعة استقبال فيها بيانو ومخدع للنوم ايضا وحجرة ثياب وحمام لكل منهما • وكل حجرة من حجرتي الملابس بها خزانة ثياب تكاد ان تكون حجرة في حجمها ويمكن أن تتسع لجميع الثياب التي تصـــنع تقليدا لأزياء باريس ويمكن أن يقنع خياطو برلين ايرما بشرائها • ولم تكن ادوات ومقابض الحمام الخاص بايرما من الذهب ، ولا أدوات ومقابض حمام لاني من الفضة• فالمرء ينبغي أن يذهب الى أمريكا ليجد نماذج من هذا القبيل • ولكن على الجدران علقت رسوم بريشة بوشيه وفراجونار ووطو ولانكريه • وكان لاني يعلم أنها لوحات أصيلة ، لأنه هو الذي اشتراها له مع زلطان ، واقتسم معه عمولة العشرة في المائة • ووجدت ايرما ذلك الموضوع محرجا، ولكن لاني قال لها : « لقد كان هذا المبلغ هو الذي أتاح لي أن ارتدي ثيابا ملائمة وأنا اخطب ودك ! »

ولصق جناحهما جناح آخر للطفلة والآنسة سيفيرن الجديرة بأن يعتمد عليها • وكانت « فيدرس » قد دعيت الى الحضور ببرقية ، ووصلت لتتولى شئون ايرما : تكتب لها رسائلها وتقوم بدفع فواتير حساباتها وتنظم لها مواعيدها • وكان يوهانس قد اعد لها خادما تتكلم الانجليزية على استعداد للقيام بخدمتها منذ لحظة وصولها • والحق انه كان قمينا أن يأمر باحضار زرافة وليدة من حديقة حيوان هاجنبك لو كان قد خطر له أن ذلك يمكن أن يزيد من سعادتها •

ولم يكن على « فيدرس » الا أن تتصل تليفونيا بمكتب ناظر القصر في الطابق السفلي فتجد أمام الباب سيارة في مدى دقيقة أو دقيقتين • وكانت ثمة مسارح وأوبرات وحفلات موسيقية وسهرات واستعراضات ليلية توافق جميع الأذواق العالية او المنحطة • والقصر قائم في منطقة راقية ، وموقعه مناسب من جميع الوجوه ، فلم تجد الأمان الشابتان عناء في المحافظة على جدول مواعيدهما للارضاع ويكفي استلقاؤهما على وسائد السيارة الليموزين كي يتاح لهما الوقت الكافي للابلال من أي توفز عصبي وبذلك تتجنبان تكدير كبيرة المربيات • والطفلان لحسن العناية بهما لم يكونا يبكيان في الليل الا نادرا ، وهذا على كل حال من اختصاص المربية الليلية • وفي الصباح الباكر تتسلل هذه المربية الى حجرة نوم ايرما حاملة اليها الطفلة فرانسس لتتناول وجبتها الأولى فترضعها ايرما وهي لم تزل نصف نائمة • أجل ان العلم الحديث يستطيع أن يجعل الحياة مستحبة للمجدودين الذين يملكون الثمن ! والحالمون يتحدثون عن جعل هذا النمط من الحياة متاحا لكل انسان بيد أن ابنة قطب المشروعات العامة حرية أن تعيد على مسامعك السؤال القديم : « ومن الذي يقوم عندئذ بالاعمال القذرة ؟ فهي لم ترتد الى من عسى أن يقوم بها ولكنها كانت تعرف على وجه اليقين من هم الذين لن يقوموا بها ! •

ان كل عضو من أعضاء هذه الجماعة من الضيوف لديه فكرة خاصة به عن السعادة • فالآنسة سيفيرن سألت عن الكنيسة الانجليزية في برلين ، وهناك التقت بأناس قريبين قربا كافيا من وضعها الاجتماعي بحيث وسعها أن تسعد في صحبتهم • والسيد دنجل اكتشف جماعة للتفكير الجديد لديهم محاضر من أمريكا ، وبذلك استطاع أن يزود نفسه بالمجلات التي كان قد افتقدها • ومن حسن حظ نشرات طائفتي « الكرستيان ساينس » والتفكير الجديد انها لا يمكن أن تفقد جدتها بمضي الزمان لأنها تعالج حقائق خالدة • والعيب الوحيد فيها انها معرضة

للتشابه الرتيب لأنها تقول شيئا واحدا · ولم يصد ذلك السيد دنجل فراح يصحب السيده سيزنسكى الى كنيسة روحية · ولم يكونا يعرفان الا بضع كلمات من اللغة الالمانية ، ولكن الارواح عالية ، وثمة دائما أشخاص من الاحياء على استعداد لمعونة شخصين أجنبيين ·

- ٣ -

برلين المدينة العظيمة ، عاصمة الأحلام البروسية المنهارة · أقواس نصر ، وتماثيل هائلة من الرخام لأبطال أسرة « هوهنزولرن » ، وقصور امراء الزمن الغابر وامراء المال المحدثين ، وفنادق باذخة ، وبنوك بمثابة معابد لشيطان المال والجشع · وفى الشوارع يتضور عدد لا يحصى من الجياع يتوارون بالكهوف الحجرية والاقبية أو يعسكرون بخيام فى المواضع الخالية يطاردهم الخوف ، ويسيطر عليهم جنون الكراهية فمن سكان بلغ عددهم أربعة ملايين قد لا تجد نصف مليون من الراضين عن حالهم حقا ، فما من شارع يمكن ان تهرب فيه من منظر السحن الهضيمة المكفهرة ، ولا شارع يخلو من المتسولين رغم قانون تحريم التسول أو يستطيع فيه رجل حسن الهندام ان يتجنب الحاح النساء والأطفال الناقصى النمو ذكورا واناثا ينشدون بيع أجسادهم لقاء ثمن وجبة ·

واغلق عينيك دون هذه المناظر وعقلك دون هذه الخواطر ، فاذا المدينة مختالة فاخرة مضاءة فى الليل كالطريق الأبيض العظيم فى نيويورك ، وواجهات المتاجر حافلة بوسائل الأناقة ، وثمة حشود من الناس تحملق فيها وفريق منهم يشتريها · وقل لنفسك ان قصص البؤس مبالغ فيها ، وان ـ عرض الغلمان والبنات كان معروضا للبيع فى (نتيرى) وفى بغداد ، وانه الآن معروض للبيع فى لندن ونيويورك ، وان كانوا هناك يعمدون الى مزيد من الرياء الانجلوسكسونى · لقد كانت الدعارة لعنة المدن الكبرى منذ قامت المدن الكبرى ، ان أكداسا من الناس يأتون ليحشروا فيها وقد أغراهم الأمل فى الثراء السهل ، أو دفعت بهم من الأرض عوامل اقتصادية لم يتعلم الناس قط كيف يسيطرون عليها ·

وكان ذلك شيئا ينبغى ان يقدر على الكلام فيه فريدى روبن وقد صار الآن « هردكتور » بمؤهل رسمى فى علم الاقتصاد · وهو يقول ان الجامعة العظيمة لم تزل تاركة هذه المسألة لغزا غامضا على الطلاب فالمنهج

الاكاديمى السليم ان تجمع أكداسا من الوقائع ، على ان تكون التفسيرات في الحدود التاريخية وحدها فتدرس ان نمط المراحل الثلاث للاقتصاد البدائى كما نادى به « فريدريش ليست » قد هجره العلماء على أثر الانتقادات التى أدلى بها علماء الانثروبولوجيا ، وان نظرية روشر فى الاقتصاد القومى • باعتبار ان ذلك الاقتصاد أصبح جزءا من التاريخ حل محلها رأى مدرسة شمولر التاريخية الجديده • فلاضير ان تعلم ان الضياع الكبيرة ، أو الابعاديات ، فى عهد روما القديمة كان الأرقاء هم الذين يقومون بالعمل فيها وبذلك دفعوا بالمزارعين الأحرار الى المدينة حيث تكدسوا فى مساكن كبيرة متداعية من خمس طبقات سرعان ما احترقت بهم • ولكنك ان أشرت فى قاعة الدرس الى أن اتجاهات كهذه أخذت تظهر فى برلين ، نظر اليك الأستاذ شذرا ، فمستقبله متوقف على تحاشى المنازعات السياسية •

ومن المفروض يقينا ان الألمان يتمتعون بحرية اكاديمية ، وانك تستطيع أن تصغى لأستاذ كاثوليكى فى قاعة للمحاضرات ولأستاذ اشتراكى فى القاعة المجاورة لها • ولكن متى وصلت المسالة الى الترقيات فلابد لشخص ما ان يقرر من الذى ينال الترقية • ولا ينتظر من السلطات أن تمنح الأفضلية لرجال يغذى تعاليمهم السخط والبروليتارى الذى يهدد البلاد بتمزيق أوصالها • او هكذا على الأقل وصف فريدى روبن الموقف فى جامعة برلين العظيمة •

- ٤ -

وصل آل بد قبل موعد الانتخابات القومية فى سبتمبر سنة ١٩٣٠ باسبوع تقريبا ، فكانت المدينة فى صخب مائج ، بلافتاتها وملصقاتها المنتشرة فى كل مكان ومئات الاجتماعات التى تعقد كل ليلة ، والاستعراضات التى تستخدم فيها الفرق الموسيقية والرايات ، والحشود الصائحة والمتقاتلة فى كثير من الأحيان • وكان التوتر اشد من كل ما شهده لانى قبل ذلك اطلاقا ، فالاحداث فى المانيا متجهة الى التازم تحت ضغط الانهيار الاقتصادى ولذا وجد كل انسان نفسه مضطرا لاتخاذ موقف محدد •

وأراد الشباب من الأسرة ان يروا هذه المشاهد ، وكان لابد لها نسى

وبيس ان يحضرا اجتماعا شيوعيا.ليلة وصولهما بالذات وذهب معهما الباقون على سبيل المجاملة • وكانت القاعة الكبرى فى منطقة (الموبيين)(١) مزدانة ببيارق شريطية حمراء وأعلام حمراء ظهرت فيها المطرقة والمنجل باللون الأسود ، وكانت ثمة أيضا قرنفلات حمراء أو ورود حمراء صناعية مثبته فى صدور الناس • والجمع المحتشد كله من الطبقة العاملة تقريبا : فوجوه النســاء هضـيمة تثير الرثاء ، ووجوه الرجال مكفهرة واجمة ، والثياب حقيرة نظيفة بوجه عام ولكنها مرقعة بدرجة تخفى معالم القماش الأصلى ، فكثير من هؤلاء الرجال لم يحظ ببدلة جديدة منذ الحرب •

وجعل الخطباء يهذون ويصيحون واثاروا الجمع الى درجة الهيــاج الجنونى ، فصار غناؤهم يذكر المرء بجيش يزحف الى أرض المعركة • وقام رباعى بالقاء أناشيد ذات ايقاع كضربات المطارق عبارة عن ترديد متواتر لكلمات بســيطة ، أشــبه بالدروس التى يكررها الأطفال فى المدارس بنغمة متواتره وترجم لانى لزوجته تلك الكلمات : « استعدوا لتولى زمام الامور ! استعدوا لتولى زمام الامور ! »

وكانت ايرما قد وعت الكثير عن هذا الموضــوع أثناء اقامتها فى هاتين الأسرتين الغريبتين ، فقد أصغت للخال جيسى واصغت لهانسى وبيس وهما يجادلان لانى ، وأيضا وهما يجادلان والد هانسى بين الحين والحين • والشيوعيون لا يريدون قتل أحد اللهم الا اذا حاول أحد المقاومة بل كل ما يريدونه هو أن يحققوا فى المانيا ما حققوه فى روسيا فيصادروا ممتلكات الأغنياء وينزلوهم الى مستواهم من الضنك والعيش فى الأكواخ الحقيرة • وقد ابتســم يوهانسى وقال انهم حريون أن يحولواقصره الى متحف ، وأن هذا لا يضيره لأنه سيشترى عندئذ قصرا آخر فى لندن ثم قصرا فى نيويورك ، ثم قصرا فى « تاهيتى » • وفى هذه المدة تكون روسيا نفسها قد ارتدت الى الرأسمالية فيعود الى هذه المنطقة ويكون ثروة جديده له مرة أخرى •

ان رجل المال جعل من المســألة نكتة ولكنها فى هذا الاجتماع لم تكن نكتة ، فلم تصدر عن المجتمعين ضحكة واحدة طيلة المساء ، واقرب شىء الى الضحك كان بضعة أصــوات اســتهزاء لا يكاد يميزها المرء من صيحات الغضب • وهذه ما يسمونها الطبقة العاملة (البروليتاريا) ، سكان الأكواخ والأحياء القذرة ، الذين يهددون بالانفجار وهزيمة الشرطة

---

(١) قوم يعادون اليهود منذ قديم — المترجم

واغارة على بيوت من يسمونهم « المستغلين » وكان الخطباء يسعون للفوز فى انتخابات « الرايشتاج » ، حيث يريدون أن يصبوا ذلك اللون من التنديدات . وتلفتت ايرما حولها بعدم ارتياح وسرها أنها كانت من الفطنة بحيث لم تتزين بشيء من مجوهراتها للقدوم الى هذا المكان . ومع هذا فالوجود هنا غير مأمون الجانب على كل حال ، لأن الاشتراكيين الوطنيين كثيرا ما هاجموا الحشود فى ساعة خروجها من الاجتماعات الحمراء ، وتنشب المعارك ، وتطلق النيران فى بعض الأحيان .

- ٥ -

وكان الديموقراطيون الاشتراكيون يعقدون اجتماعات كبيرة ، فهم الى حد بعيد أضخم حزب في الجمهورية ، بيد انهم لم يحرزوا قط أغلبية قاطعة لا من حيث عدد الاصوات ولا من حيث التمثيل النيابى ، ولذا لم يتح لهم قط أن يفرضوا حكمهم على البلاد . وهل تراهم لو وصلوا الى ذلك كانوا حريين أن يعرفوا ماذا يصنعون ؟ وهل كانوا يجرءون على محاولة ادخال الاشتراكية الى أرض الوطن ؟ كان من رأى هانسى وبيس ان الاشتراكيين الديموقراطيين حزب تشل حركته أفكاره عن الاجراءات الشرعية ، فهو حزب أصحاب المناصب أو البيروقراطيين الذين يحتلون مقاعد المكاتب الدوارة ويفكرون فى كيفية الاحتفاظ بأعمالهم ورواتبهم . ولئن واصلوا اطلاق اسم الاشتراكيين على أنفسهم وترديد شعارات الحزب الا ان هذا كله ليس سوى طعم يقدمونه لأصوات الناخبين . فليست لديهم فكرة عن كيفية ادخال الاشتراكية الى الحكم وتطبيقها ، ولا يظنون من الضرورى أن يبحثوا عن وسيلة ذلك .

ولما كان لانى متعلقا بوسائل الديموقراطية التى تحترم النظام فقد كان يعتبر من واجبه أن يساعد هذا الحزب . وكان فى الايام السالفة قد أحضر خطابات تقديم من لونجية ، فذهب الآن ليجدد تلك المعرفة القديمة ويثبت اخلاصه بالتبرع لصندوق معركة الحزب الانتخابية . وصحب أسرته الى احدى الاجتماعات الجماهيرية . لو كان هناك خمود أو كلل فهما يقينا لم يظهرا فى هذه المناسبة العامة ، فالقاعة كانت مكتظة حتى الابواب ، والرايات، والبيارق الشريطية فى كل مكان . وعندما ظهر خطباء الحزب المفضلون ارتفع الهتاف الى السقف ثم ارتد من السقف الى الارض. ولم يكن هؤلاء الرجال يهذون ، ويهرفون ، ويتوعدون على نحو ما فعل

الشـــيوعيون ذلك ، بل كانوا يناقشون المشـكلات العلمية التى تواجه العمال الالمان ، ونددوا بكلا الفريقين المتطرفين لتضليلهما الشعب بالوعود الكاذبة • كان اجتماعا وقورا شعرت فيه ايرما بمزيد من الراحة • فلم يكن فيه شيء يمكن أن ينشب حوله عراك •

وفى طريق العودة الى البيت ناقش الشباب ما سمعوا • واما بيس ـ التى كانت تستخدم اسطوانات الخال جيسى المحفوظة بعينها ـ فقالت ان هذا الحزب شاخ • انه حزب الاجداد ولذا تتـوفر له وسائل استدراج الجمـــوع • واردفت قائلة « ولكن هؤلاء المستشـارون البلديون الذين يرددون عباراتهم الجامدة يجعلون المرء يفكر فى ببغـاوات بدينه موفورة الغذاء ترتدى ملابس السهرة » فرد عليها لانى بلهجة لا تخلو من الخبث : « والشيوعيون ليست لديهم عبارات جامدة مكررة بطبيعة الحال ! » وكان هذان الاخوان يحب كل منهما الآخر ، الا انهما لا يستطيعان أن يتناقشا فى السياسة دون عراك •

وكانت بيس تشير الى الموظفين الذين تحدثوا عن جهودهم لزيارة امداد المدينة باللبن وتخفيض ثمنه • وكان لانى قد وجد الاشـــتراكيين يناقشون هذا الموضوع بعينه فى نيويورك • وهو موضوع لا يخلو من الاهمية بالنسبة لنساء الفقراء ، ولكنه اعترف انه «موضـوع مضجر وخال من اثارة المشاعر بطبيعة الحال ، على خلاف الدعوة الى القيام بالثورة فى الاسبوع القادم •• » فانفجرت أخته قائلة : « اعرف هذا • ولـكن فى الوقت الذى تناقشون فيه ثمن اللبن ، يحصل النازى على مخازن سرية للسلاح ويضعون خططهم لاعلان الثورة المضادة فى الاسبوع القادم • » وقال هانس : « وأمراء الرجعية يتآمرون معهم وكبار الراسماليين يقدمون لهم المال لشراء الاسلحة ! » وبذلك دخل منطقة خطرة لان أباه كان أحد أولئك الرأسماليين • فالى متى يظل هذا السر مكتوما فى أسرة روبن •• ؟

- ٦ -

وأراد لانى أن يسمع جميع وجهـات النظر • أراد أن يعرف ماذا يصنع النازيون وماذا يقولون ولو ليبعث الى ريك ببيان عنه • ومن بين معارفه فى برلين هاينريش بونج الآرى الازرق العينين المتحمس من أبناء سيليسيا العليا • وكان هاينريش قد قضى ثلاثة أعوام يدرب نفسه كى يخلف أباه فى وظيفة كبـير حراس الصيد والغـــابة فى أملاك « جراف

شتوبندورف » ، الا ان هذا كله نحى جانبا الآن واصبح هاينريش موظفا في حزب العمال الالمان الاشتراكيين الوطنيين ، وشغل منصبا عاليا فيما يســـمونه الشبيبة الهتلرية وظل سبع سنوات أو ثمان يرسل بالبريد منشورات الدعاية الى لانى بد في بيان فينو ، ولم يتخل قط عن الامل فى ان يشعر بانه الآرى نقى الدم بتأثير روابط السلالة عليه .

واتصل به لانى تليفونيا ، فسر هاينريش لذلك ورجاه أن يحضر الى مقر قيادة الحزب . ولم يجد الزائر من الضرورى أن يذكر له واقعة اقامته فى بيت رجل من أسوأ اليهود المستغلين شهرة . ولو ذكر له ذلك لما كانت له أهمية ، لأن مثل هذا التصرف الشاذ من أمريكى ليس له نفس المعنى حين يصدر من ألمانى . وكان أحد الرحالة الالمان قد وصف أمريكا بانهــا « أرض الامكانيات غير المحــدودة » . وكان الاغنياء الناجحون من تلك المنطقة الاسطورية يسيرون على أرض أوربا العادية وكأنهم انصاف آلهة . بل ان الفوهرر نفسه كان يخشاهم منذ بلغه انهم لم يولوا الادبار أمام الجيش الالمانى الجبار . وانه لمجــد عظيم لموظف مسئول شاب فى الحزب أن يتمكن من ادخال مثل هذا المؤمن الجديد الى ديانة الدم وأرض الوطن .

وكان البروسى الشاب الازرق العينين الاشقر الشعر قد نضج نضجا عظيما فى الاعوام الثلاثة أو الاربعة التى انقضت منذ رآه لانى أول مرة وصار له مكتبه الخاص فى مبنى النازى الكبير ، واحاطت به جميع مظاهر السلطة وملحقاتهم ، من ملفات وخرائط ، الى تليفون فوق مكتبه وأجراس طنانة لاستدعاء مرءوسيه . وكان مرتديا زى فرق الهجوم الرسمى ، وهم جنود الحزب الذين صار سيرهم وقرع طبولهم الآن من بين المشاهد المألوفة فى المدن الالمـــانية ، بقمصانهم البنية وبنطلوناتهم البنية ذات الخطوط السوداء وأحذيتهم الســوداء اللامعة ، وشرائط الاذرع الحمراء المنقــوش عليها الصليب المعقوف باللون الاسود . تبــدو عليهم الوسامة والنشاط والحدة ـ وابتعد عن طريقهم فهم جادون فى بلوغ أهــدافهم . « اخلوا الطريق للكتائب البنية » ! .

ولم يتلبث هاينريش فى مجــاملاته الا الوقت الكافى للسؤال عن صحة زوجة لانى والطفلة ، وكان قد سمع بولادة الطفلة من كيرت ، ثم شرع يصب عليه قصة المعجزات التى حققها «آل ن.س.د.أ.ب» ـ وهى الحروف الاولى من اسم الحزب باللغة الالمــانية ـ منذ تلك الايام الخالية التى كشف فيها طالب علم الغابات حقيقة الحزب وهو شتلة صغيرة برزت

براسها منذ قليل من الارض الباردة فى الشتاء • وقال هاينريش « ان البلوطات الطوال تنمو من صغار الجوز ! » وكان قد كتب هذه العبارة فى كراسة للتمرين على الخط الانجليزى فى المدرسة •

وقدم هاينريش سلما الى لانى صعده الى الفروع العليا من شجرة البلوط الدائمة الامتداد • والشبيبة الهتلرية تتكون منهـا الفروع التى تكثر عليها البراعم الجـديدة الكثيرة • ولخدمة هـذا الجزء من الشجرة وجدت سائر أجزائها • فالمانيا المستقبل يجب أن تتعلم كيف تسير وكيف تقاتل وتنشد أناشيد المجد وتترنم بالوطن الجديد الذى سوف تبنيه • ان ألمانيا الغد تحصل على تغذية طيبة وتدريب جيد ، وهى صحيحة البدن والاطراف ويجب أن تعرف العقيدة النازية وتقسم يمين الولاء لما يسمونه مبدأ الزعامة وهو الايمـان بأن الفرد يوجد للدولة وان الدولة يسوسـها قائد واحد ملهم • ولا أهمية لاختلاف أنواع البيوت التى جاء منها هؤلاء الشبان لان النازيين سيجعلون منهم نمطا واحدا متشابها ، هو نمط عضو الحزب الكامل المطيع لان الطاعة متعة له ولان المستقبل للاقوياء الواثقين بأنفسهم المتحدين •

وكان لانى قد شهد هذا المبدأ يعمل فى نفس شاب آرى واحد متين البنية وها هو يكتشف انه قد صار الآن آلة تعمـل على تحويل الالوف من النماذج الاخرى الى نسخ مطابقة له تمام المطابقة • آلة لصنع الآلات ! وعلى الجدار خريطة تبين المكاتب الفرعية لهؤلاء الشبان الآلات ومواقعها ! وهى ليست فى ألمانيا فحسب بل فى كل مدينة على وجه الارض يعيش فيها الالمان • وكانت ثمة خرائط ورسوم بيانية ، لان كل شىء فى هذه البلاد يتم بأسلوب علمى بما فى ذلك دعاية هتلر •

وكانت احدى اللافتـات على جدار هاينريش تقـول : « استيقظى يا ألمانيا ! » والفوهرر مبتـكر عظيم للشعارات ، يعتكف فى مكان سرى ويفكر فى مئات كثيرة من الشعارات ترد على خاطره فيزن كلا منهـا — وحينما يختار شعارا منها يظهر على ملصقات فى الشوارع ويهتف به فى الاجتماعات التى تقام بكل قرية ومحله فى البلاد • «استيقظى يا ألمانيا!» •

— ٧ —

وتاثر لانى بما أظهره له الموظف المسئول الشاب من تفاخر واعتزاز وهو يشرح له التنظيم المعقد الذى عاون فى بنائه ، واقسامه المتبانية وما

تحت تلك الاقسام من فروع ، ولكل منها موظف مسئول يحمل لقبا من تلك الالقاب الضخمة التى يحبها الالمان كثيرا • وعلى رأس هذه الآلة الهائلة بطبيعة الحال الواحد الاوحد ادولف ، زعيم الحزب والقائد الأعلى لفرق الهجوم ورئيس الـ « ن • س • د • أ • ب• » ومن تحته معاونون وسكرتاريون ورئيس أركان ، وزعيم شبيبة الرايخ (وهو رئيس هاينريش) ومدير ادارته ، ومديرون مساعدون لعدد من الادارات المختلفة، ومدير اداري ومالى ، وسكرتير ، ومجلس رياسة ، ومجلس ادارة الرايخ•

وثمة أيضا تنظيم سياسى ، أو على الاصح تنظيمان هما ت•س١ و ت•س٢ • فلديهم اثنان دائما من كل شيء ، فيما عدا الفوهرر ، بحيث تشعر بالدوار لمجرد سماعك بكل هذه الالتزامات والمسئوليات : القسم الاجنبى ، وقسم السياسة الاقتصادية ، وقسم السلالة والثقافة ، وقسم السياسة الداخلية والقسم القضائى ، وقسم الفن الهندسى وقسم العمل، وقائدا دعاية الرايخ رقم ١ ورقم ٢ ، وقائدا تفتيش الرايخ رقم ١ ورقم ٢ ولجنة التحقيق والتوفيق - وياله من لقب ضخم ذلك الذى أطلق بالالمانية على أعضاء هذه اللجنة ولكن لا تسخر منه ، لان هاينريش يونج سيبين لك ان الحزب يستعد للاستيلاء على مقدرات الوطن ، هذا اذا صرفنا النظر عن مقدرات أمم أوربية كثيرة منحلة وغير أوربية وكل هذه الاجهزة الضخمة واكثر منها ستظهر الحاجة اليها • ولذا انشئت لجنة للتربية البدنية والرياضة ، ومكتب قيادى للصحافة ومؤسسة للنشر وادارة للافراد واجهزة كثيرة أخرى •

وهاينريش مسئول عن الامور فى قطاع واحد من الشبيبة الهتلرية، ويتبع هذا القطاع احدى وعشرون منطقة جغرافية فى جميع أنحاء المانيا وهم يريدون مدرسة لقادة النازى المنتظرين وينشرون ثلاث مجلات شهرية ومجلة نصف شهرية• وثمة ادارات تشرف على الصحافة والثقافة والرعاية والرياضة الدفاعية - فهم لا يتعلمون كيف يقاتلون الشباب الشيوعى فحسب ، بل يتعلمون كيف يجعلون من ذلك القتال رياضة أيضا ! وهناك كذلك التنظيمات الصغرى مثل «الشبيبة الالمانية» و «اتحاد الفتاة الالمانية» و «اتحاد الطلاب» و «رابطة النساء» وهلم جرا الى مالا نهاية فيما يبدو • وكان لانى بد المهذب مسرورا فى نفسه لان الوقت وقت انتخابات ، وبذلك كان عدد كبير جدا من المرءوسين فى الانتظار لتلقى الاوامر من هذا المفسر المتدفق حماسة •

- ٨ -

وثمة شيء لن يفوت مسئول الحزب الشاب أن يصنعه لصديقه القديم : الا وهو اصطحابه الى الاجتماع الهائل فى قصر الرياضة ذلك الاجتماع الذى سيكون ذروة المعركة الانتخابية النازية ففيه سيوجه الفوهرر بنفسه نداءه النهائى الى الناخبين الالمان ، ولن يكون لهذا الاجتماع شبيه بين كل ما شهده العالم من قبل . فهذا الرجل الرائع قضى الاشهر الاخيرة متنقلا بسرعة واندفاع بين سائر أنحاء البلاد ملقيا عدة مئات من الخطب . وهو يتنقل بالطائرة ، أو فى سيارته المرسيدس ، مرتديا معطف المطر الاحمر القاتم الذى رآه فيه لانى فى الايام الخالية . وقد لا يكون ذلك المعطف بعينه ، ولكنه قطعا نفس الزعيم البسيط المتفانى الملهم الذى جعل رسالته احياء ألمانيا ، ثم احياء العالم أجمع . واليوم نسمع ألمانيا ، وغدا نسمع العالم أجمع !

وبين له هاينريش انه من الصعب الحصول على مقاعد فسوف يكون صف طويل من الناس منتظرين على أبواب قصر الرياضة منذ الصباح الباكر ليضمنوا الحصول على أماكن طيبة . وستكون هناك بالطبع أماكن محجوزة للشخصيات الهامة ، وقبل لانى منه أربع تذاكر . وكان يعلم ان ما من أحد من أفراد آل روبن يمكن أن يحضر اجتماعا للنازى ، فلن يكون ذلك أمرا مأمون العاقبة . فقد يقدم أحد على البصق فى وجوههم أو ضربهم اذا تخلفوا عن أداء التحية النازية أو الهتاف « هايل هتلر ! » . وبيس تبغض تلك الحركة وعقيدتها ، وهى قد اشبعت فضولها كل الاشباع حين شهدت كتائب الهجوم تقوم بعرضها ، وحين القت النظرات العرضية على صحفهم .

وقبل الثامنة بكثير كان لانى وزوجته وبيوتى وزوجها فى مقاعدهم ، والفرق الموسيقية تصدح وباعة النشرات فى عمل دائب ، والسرايا المسلحة قائمة بالحراسة فى الحلبة المترامية ــ فليبتعد الشيوعيون ! وثمة زينة كبيرة من الاعلام والبيارق الشريطية عليها الشعارات المألوفة : « لتسقط فرساى !» « الحرية والخبز » . « واستيقظى يا ألمانيا !»«انهاء التعويضات!» «الثروة العامة قبل الثروة الخاصة !» «حطموا اغلال عبودية الربا!» وكان هذان الشعاران الاخيران من الشعارات الاساسية التى انحدرت اليهم من الايام السالفة . وقد قال روبى انهما عمليا من قبيل شعارات « أعداء

الثراء » فى الولايات المتحدة ، وهم الشعبيون « وحزب الخضر » ، فهم يتوجهون بدعوتهم الى الدائنين وصغار الزراع وصغار أصحاب الاعمال الذين يشعرون ان الاتحادات الاحتكارية الكبرى تسحقهم وتستنزفهم . فهذه الحركة الهتلرية ثورة تقوم بها الطبقة المتوسطة الصغرى التى أطاح التضخم بكل أثر لمدخراتها ورأوا أنفسهم وقد هبطوا الى مستوى العمال.

وبدا الناس فى عينى ايرما هنا أحسن ممن رأتهم فى الاجتماعين الآخرين : والازياء السوداء والفضية التى كان يرتديها أفراد كتيبة الامن وهم يقومون بالحراسة واجلاس الناس كانت جديدة وانيقة اناقة كافية ، وقد اظهر هؤلاء الشبان يقظة وكفاءة . والغناء الصادر بحرارة عن عشرين او ثلاثين ألف شخص له وقعه فى النفس ، ولم تكن ايرما تدرى ان هذه الاناشيد حافلة بالكراهية للفرنسيين البولنديين ، وان كانت تعلم ان النازيين يبغضون اليهود . ولئن تعلمت كيف تشغف باسرة يهودية واحدة ، الا انها تخشى أن يكون هناك حتما عيب ما فى بقية اليهود فكثيرون جدا من الناس يقولون هذا . ومهما يكن من شىء فمن حق الالمان أن يقرروا ما يريدون من أمور وطنهم .

واستمر الانشاد والقاء الكلمات ساعة أو نحوها ، ثم قرعت الطبول، وانبعثت أصوات الابواق مدوية مجلجلة عند المدخل الرئيسى ، فوثب جميع من فى المكان المترامى من الرجال والنساء واقفين على أقدامهم . فقد حضر الفوهرر ! وأقبلت فرقة من كتائب الهجوم فى مشية مهيبة ، حاملين اعلاما على أطرافها اسنة أو حراب . وعزفت الفرق الموسيقية الجمل الافتتاحية الرائعة التى تسير على نغماتها الآلهة عبر جسر من قوس قزح الى فردوس الملكوت «فالهالا» فى ختام اوبرا «ذهب الراين»(١) ، وعندئذ تقدم قادة الحزب فى سمت عسكرى فخم ، يسيرون على هيئة مربع مجوف لحماية زعيمهم الواحد الأوحد . ولا بد ان شخصا ذا حاسة درامية قد رتب لهم هذا كله ، شخصا تعلم فن فاجنر وكيف يجمع بين الموسيقى والمناظر والحركة فى عمل واحد يرمز الى مطامع النفس البشرية الاساسية ، ولكى يصور للرجل العادى أشواقه الدينية فى صورة واقعية محسوسة .

من هذا العبقرى ؟ كل من فى القاعة ــ ربما فيما عدا أفراد قلائل من

---

(١) من تاليف فاجنر .

(المترجم)

امثال لانى بد ـ كانوا يعتقدون انه الرجل القصير الذى يسير داخل مربع حرس الشرف ، وذلك الرجل البسيط الذى يرتدى معطف المطر الاحمر القاتم العتيق ، ذلك الرجل الذى لم تستطع آيات التشريف أن تفسده ، ذلك الرجل الذى وقف نفسه على خدمة وطنه ، ذلك الذى ولد من عامة الشعب ، فهو ابن موظف مغمور فى الجمرك النمسوى ، وصار أونباشيا فى الحرب العالمية حيث جرح وأصيب بالغازات السامة • انه عامل مغمور ذو أحلام جبارة ، يحلم بالمانيا متحررة تسترد مكانتها بين الامم ، أو ربما فوق الامم •

ولم تكن على راسه قبعة ، وشعره الاسود الطويل المرجل فى اتجاه جانبى واحد يسقط بين الحين والحين فوق جبينه الشاحب فيتحتم عليه رفعها عن الجنبين ، انه رجل لا زينة عنده مثلك ومثلى • رجل فى وسعك أن تهز يده وهو يبتسم بمودة لكل من يحيونه • وترتفع عاصفة من الهتاف ، واذا هتافات «هايل» ـ ومعناها يحيا أو يعيش ـ تصبح كوابل من القطر فى عاصفة من المطر بحيث لا تستطيع أن تميز الهتافات الفردية، فكان الاصوات غدت وحدة واحدة كحزب العمال الالمانى الاشتراكى الوطنى •

ولم يكن لانى قد حضر اجتماعا امريكيا للنهضة او البعث على الطريقة القديمة ، ولكن صديقه جيرى بندلتون من كنساس كان قد حدثه حديث اجتماع من هذا النوع ، وها هو الاجتماع الثانى • فهل ترى جاء أحد من الجنوب الامريكى أو من ولايات الغرب الوسطى فعلمهم هذه الفنون من اثارة نفوس البدائيين بحيث يسهمون فيما يصنع بهم ؟ أم هذا شىء يحدث فى النفوس البدائية فى كل مكان فى الدنيا ؟ ان الخطباء فوق المنبر يوجهون أسئلة فتصيح عشرون الف حنجرة بالجواب • وكل ماهناك انهم لا يصيحون هنا : « المجد لله ! » و « مبارك الرب ! » ، بل صيحاتهم دنيوية من قبيل : «لتسقط فرساى !» و «سحقا لليهود !» و « استيقظى يا ألمانيا !» •

- ٩ -

لقد انقضت سنوات سبع منذ شهد لانى تشارلى تشابلن يظهر على المسرح فى حانة كبيرة للبيرة فى ميونخ • وها هو مرة أخرى بشاربه الاسود الصغير بعينه وسلوكه الخجول المتواضع كأنه يسترحم الناظرين

اليه ٠ بيد انه الآن أشد بدانة لانه يحصل على تغذية أفضل ٠ والآن أيضا توجد اضواء كثيرة مركزة عليه كأنها تقول لكل انسان ان المظاهر خداعة، وان هذا الانسان من نوع خاص ، فالرايات والرموز والشعارات والطقوس والاماني والقرارات كلها صدرت عن روحه ٠ انه المسيح ٠ انه ذلك المختار المرسل لانقاذ أرض الاباء في ساعة امتحانها العظمى ٠

ويشرع في الكلام ، ولاني يعرف جيدا كل نبرة من نبراته ٠ فهو يبدأ هادئا والقاعة المترامية ساكنة سكون الكون قبل أن يخلقه الله ٠ ولكن سرعان ما يبدأ الرجل صاحب الرؤيا في التوقد وهو يتحدث عن رسالته والشعارات التي علمها لجميع الالمان تفعل فعلها فيه مثلما تفعل فعلها في الآخرين وتسيطر على كيانه كله ٠ انها شرارات من شعلة مستعرة ليل نهار في دخيلة نفسه ٠ انها شعلة كراهية « آدى » لحياته الشقية الخائبة ! شعلة كراهيته لابيه ، ذلك البيروقراطي الحقير الغبي الذي أراد أن يجعل ابنه على غراره ولم يسمح له أن يغدو فنانا ، شعلة كراهيته للناقدين وتجار الصور الذين أبوا أن يعرفوا بمحاولاته الحقيرة في الرسم ، شعلة كراهيته للمتلافين والمتبطلين في فنادق النوم الرخيصة الذين أبوا أن يصغوا لهذيانه الملهم ، شعلة كراهيته للروس والفرنسيين والبريطانيين والالمان الذين أبوا أن يدعوا أومباشيا مغمورا يكسب الحرب شعلة كراهيته للماركسيين الذين خانوا المانيا وطعنوها في ظهرها ، شعلة كراهيته لليهود الذين أثروا من بؤس المانيا وشقائها ، شعلة كراهيته لجميع الذين يقفون الآن في طريق مصيره ويعارضون حزب «آدى» الذي سوف ينقذ المانيا من مهانتها ٠ كل هذه الالوان من البغضاء اندلعت ألسنتها من نفس واحدة خائبة فاشعلت النار في صندوق البارود الذي تحولت اليه المانيا ٠ وها هو صندوق البارود يتوهج ويتقد !

ولم تكن لدى الفوهرر ومضة فكاهة واحدة ، ولا أثر من فتنة فهو رجل غير مثقف يتكلم بلهجة ريفية نمساوية ، وعلى غير قواعد النحو في جميع الاحوال وصوته اجش من تاثير الف خطبة القاها ٠ بيد انه يرغمه على الارتفاع بلا رحمة وينطلق هاذيا صارخا ملوحا بذراعية هازا قبضتيه المضمومتين في وجه أعداء المانيا ، والعرق يتصبب من سحنته الدهنية المتكتلة ، وشعره الغزير يسقط على عينيه فيضطر الى تطويحه الى الخلف٠

كان لاني يعرف كل ايماءة وكل كلمة فآدى لم يتعلم شيئا ولم يتغير فيه شيء في هذه السنوات السبع قصارى أمره انه كان يردد كلاما بعينه مليونا من المرات ٠ وكتابه ذو الجزاين الذي كان لاني قد طالعه بمزيج

من الازدراء والضحك غدا انجيل الديانة الجديدة ، وبيعت منه ملايين النسخ ، ان نبذا منه ومقتبسات قد طبعت فى كتيبات ونشرات وصحف لا يعلم الا الله عددها • لابد انه يصل الى بلايين النسخ لان بعض الصحف النازية يصل توزيعها الى مئات الالوف يوميا ، ويزداد العدد على مر السنين • وأخبر هاينريش لانى انهم عقدوا ما يقرب من خمسة وثلاثين الف اجتماع فى فترة هذه المعركة الانتخابية الحاضرة ، وبيعت كميات من المطبوعات فى كل اجتماع منها • وأخذ لانى وهو يصغى ويرقب هذه الحشود المجنونة يتذكر أبياتا من مجموعة الاشعار التى يحفظها وهى أبيات كانت تبدو له موسيقية ومثيرة ، بيد انه لم يكن فهمها حق الفهم عندما قرأها وهو صبى :

رجل حالم واحد ، متى شاء
سيمضى قدما ويحرز تاجا

وثلاثة لديهم نغمة جديدة للنشيد
بوسعهم أن يهدموا صرح امبراطورية!

- ١٠ -

وكانت قد جرت انتخابات للرايشستاج منذ أقل من سنتين ونصف • وفى تلك الانتخابات أحرز الديموقراطيون الاشتراكيون أكثر من تسعة ملايين صوت وأحرز الشيوعيون أكثر من ثلاثة ملايين ، وأحرز النازى أقل من مليون • ومنذ ذلك الحين والحزبان الاخيران يبذلان نشاطا كبيرا ، وصار كل ناخب يرى الظروف مواتية للمتطرفين ، فانهيار سوق المال فى امريكا جعل منتجات المزارع لا تجد سوقا رائجة هناك ، مما تسبب فى رد فعل مباشر فى المانيا ، حيث اضطر المزارعون الى بيع محصول السنة بخسارة كبيرة • أما العمال فقد بلغ عدد المتعطلين منهم أربعة ملايين ، واستولى الخوف على قلوب الباقين • ومن المؤكد ان هذه الجماعات ستصوت فى الانتخاب لصالح التغيير ، ولكن من أى نوع عساه يكون ؟•

ومن المستحيل أن تقضى اسبوعا فى أمة محترمة المشاعر على هذا النحو من غير أن تشارك فى الاثارة السائدة • واصبحت المسألة أقرب الى التكهنات الرياضية ، فتختار الجانب الرابح وتراهن عليه • وعلى سنة البشر ستعتقد فيما تتمنى • ولذا استقر لدى لانى ان الشعب الالمانى

الحذر الفاتر المشاعر حرى أن يؤثر بتأييده البرنامج الرصين الصادر عن روية وتدبير ، وهو برنامج الاشتراكيين ، فيمنحهم أغلبية فعلية تمكنهم من تنفيذ هذا البرنامج اما يوهانسي روبن الذى ينتعش بالتشاؤم فتوقع أسوأ النتائج ، ومعنى ذلك عنده أن ياتي الشيوعيون في المقدمة ، وبذلك تنقلب برلين الحمراء قرمزية أو ما شـــئت من تلك الظلال المسرفة فى توهجها ٠

ثم أذهلتهم النتائج جميعا ــ ربما فيما عدا هاينريش يونج ورفاقه في الحزب ، فقد خسر الديموقراطيون الاشتراكيون أكثر من نصف مليون صوت ، وكسب الشيوعيون أكثر من مليون وربع ، أما النازيون فارتفعت أصواتهم من ثمانمائة الف الى ما يقرب من ستة ملايين ونصـف ٠ وهو كسب يعادل سبعمائة في المائة فى مدى ثمانية وعشرين شهرا ! والاحصاء الاخير بالمليون ، وعلى وجه التقريب الديموقراطيون الاشـتراكيون ثمانية ونصف ، والنازيون ستة ونصف والشيوعيون أربعة ونصف ٠

ونزل هذا النبأ على بقية انحاء الدنيا نزول قنبلة شديده الانفجار، فالساسة فيما كان يسمى يوما ما الدول المتحالفة الذين كانوا شديدى الثقة بانهم كبلوا المانيا فى الاغلال ، ورجال المصارف الدوليون الذين اقرضوها خمسة بلايين من الدولارات ، والمفاوضون الذين حصـلوا فى أوائل هذه السنة ــ سنة ١٩٣٠ ــ على توقيعها بالموافقة على مشروع يانج وبمقتضاه قيدت المانيا نفسها بأن تدفع التعويضـات على مدى ثمانية وخمسين عاما وكل هؤلاء اكتشفوا الآن فجأة انهم دفعـوا بستة ملايين ونصـف من ضـحاياهم الى الجنـون ٠ فأرباح الحرب ستصادر والاتحادات الاحتكارية ستؤمم والمتاجر الكبرى ستصبح ملكية عامة ، والمضاربة فى الاراضى الزراعية ستمنع والمرابون والمســتغلون ستوقع عليهم عقوبة الاعدام ! هذا هو برنامج النازى لداخل المانيا اما فى الخارج فلابد من ابطال معاهدة فرساى ، ومشروع يانج يجب ان يلغى ، وان لزم الامر ستعمد المانيا الى الحرب كى تحرر نفسـها من « حكومات الاثرياء التى يسيطر عليها اليهود » فى فرنسا وبريطانيا وامريكا ! .

ووقعت هذه النتائج موقع الدهشة غير السارة على مضـيف لانى بد انه بعد أن فكر فى الامر قرر الا يبالغ فى القلق ، وقال انه ما من حساء يؤكل اطلاقا وهو فى درجة الحرارة التى طهى بها ، وقال ان هذا الكلام الطائش من جانب النازى لعله الوسيلة الوحيدة لحصولهم على الاصوات فى الوقت الحاضر ولديه مصادره الخاصة للمعلومات ومنهـا

بلغه ان الزعماء المسئولين يشعرون بالضيق لما فى اتباعهم الشبان من اندفاع لا يعرف الهوادة . واذا درست برنامج النازى بعناية وجدته حافلا بصنوف شتى من المواد الغامضة التى تلغى ماسبقها من مواد وبنود ، وما اكثر البنود التهربية المراوغة فيه . فخطباء المعركة الانتخابية فى برلين كانوا يعدون الغوغاء بمصادرات بدون تعويض يصبونها على انضياع الكبرى التى يملكها كبار الاشراف والاقطاعيون ولكنهم فى الوقت نفسه فى بروسيا الشرقية حصلوا على تأييد هؤلاء الاشراف والاقطاعيين عندما نبهوهم الى ما فى نص البرنامج الحرفى من ان الارض المصادرة يشترط فيها ان تكون « لا غنى عنها اجتماعيا » . وما أسهل ان يتقرر ان أراضى الاصدقاء والانصار لا تندرج تحت هذا الباب ! .

ومع هذا كله قرر يوهانس ان ينقل جانبا اخر من ارصدته الى امستردام ولندن ، وان يتشاور مع روبى بد حول استغلال مزيد من الاستثمارات فى أمريكا . واقدم مئات من الراسماليين الالمان الآخرين خطوات مماثلة وبطبيعة الحال اكتشف النازيون ذلك وشرعت صحافتهم تصيح منادية بأن هؤلاء « الخونة من الحكام الاثرياء » ينبغى أن يكون جزاؤهم الاعدام .

- ١١ -

لم يتخل الاغنياء عن ملذاتهم بسبب الانتخابات بل ولا بسبب نتائج الانتخابات . وأقبل صناع الازياء انراقية وصناع قبعات السيدات، وتجار المجوهرات يطالبون بتحديد مواعيد لمقابلة فراو لانى بد الشهيرة ، المولوده ايرما بارنز وجعلوا يعرضون عليها صفوة سلعهم ، وراح مهرة الصناع يسهرون طول الليل ويعملون اصابع تكاد تطير من خفتها لتحقيق ادواتها فلما تم لها تزويد نفسها بكل ما يلزمها امرت بمحتويات جميع حقائبها التى احضرتها « فيزدرس » من جوان فوضعت تحت تصرف فراوبد الكبيرة التى اغترفت منها وغاصت فيها وهى تطلق صيحات الحبور ، لانها لم تكن قد ارتديت على الاطلاق تقريبا ، وتكلفت من المال اكثر من كل ما وسعها ان تدفع قيمته طول حياتها . وان هى الا تعديلات يسيرة فى الثياب بما يناسب السمنة القليلة التى حابتها بها وحلة دسمة اكثر مما ينبغى باليخت ، حتى غدت بيوتى الشقراء المزدهرة على اتم اهبة للوقوف أمام الملوك . سواء أكانوا ملوك الصلب او الفحم أو الكيماويات أو البوتاس أو البطاطس او سندات الدخل .

ولم تشعر بمهانة لقيامهـــا بالدور الثاني في الاسرة ، لانهـا بعد كل شيء جدة ، ولانها ايضا لم تنس درس انهيار وول ستريت. فلتستمر ايرما في اداء فواتير الاسرة وارضاع طفل الاسرة ، ستقوم حماتها بكل ما في وسعها في طاقات متآمرة اجتماعية في أعلى مستوى من البراعة للزيادة من تألق حظها والقاء احسن الاضواء عليها وتدبير التقائها بافضل الناس وتركها احسن الاثر فيهم . بل وتكتب بيوتي الى والدة ايرما تحثها على القدوم الى برلين للمعاونة في هذه المهمة ، فلا ينبغي ان توجد اطلاقا شائبة تنافس أو غيرة بينهما ، بل على العكس يجب ان تكونا شريكتين في تمكين ايرما من الحصـــول على كل شيء تؤهلها له اناقتها ومكانتها الاجتماعية — ولم تذكر بيوتي ثروتها .

وعلى لاني بطبيعة الحال ان ينهض بهذا الدور ايضا فقد استجلبه على نفسه .ولا يسعه الآن ان يتراجع . وعليه ان يسمح للخياطين بالتقدم واخذ مقاييسه لصنع ثياب جديدة له ، وان يقف صابرا الى ان يتقنوا احكامها . وليس بلدى بال ان يضجر ، ولا بلدى بال انه يتمنى لو قام بدلا من ذلك بتجربة طائفة من مؤلفات هندميث الموسيقية الجديده ! فقد كانت امه تؤنبه ، وعلمت زوجته كيف تؤنبه ، وهذا هو المصير المحزن لرقيقى القلب من الرجال . وعندما دعى هو ،وايرما الى حفلة عشاء لدى الامير الزابورج تسو شفارتزادلر ، أو الى حفل راقص في قصر البارون فون فريد يشسبرون ، ما كان ليغتفر له ان يحرم ايرما من مثل هذا التشريف ، وانها لفضيحة ان يدع رجلا اخر يصحبها الى هناك .

ولم يكن في الامر فضيحة بالمعنى الدقيق للكلمة بالنسبة ليوهانس روبن حين صحب فراوبد الكبرى ، كان معروفا ان له زوجة لا تصلح للنشاط الاجتماعي يضاف الى هذا ان بيوتي كانت تعنى بمفاتنها عناية كبيرة بحيث لا تستطيع أن تخمن سنها فهي وردة حمراء بديعة تم الآن تفتحها . وقد أخطأ أعضاء المجتمع الراقي في تكهناتهم بصدد علاقتهـا بمضيفها لان كلا من هذين كان متزوجا بشخص يسعد بمعاشرته وكلتا زوجيهما يحب الاعتكاف في البيت . فما ما روبن تعتكف لتشرف على الطفلين اللذين تحبهما على السواء وبرسيفال دنجل يعتكف ليطالع منشورات التفكير الجديد ويتلو تلك الصلوات التي كان واثقا اتم الثقة بتأثيرها على نفوس جميع من يعرفهم ، فهي تحـررهم من الحسـد

والكراهية والخبث وكل الوان قساوة القلب • وكان برسيفال شخصـــا ضئيل النصيب جدا من هذه النقائص الدنيوية حتى انه كان يجهل ان من المهانة ان يشـار الى زوجته باسم فراوبد الكبرى •

أما اليهودى الذى ولد فى كوخ ارضه من الطين فى ملك القيصر فقد كان فخورا بمصاحبة السيدتين بد فى دوائر الطبقة العليا ببرلين• وكان يقول لهما ذلك بصراحة تخالطها الفكاهة • ومن بين ما قاله انه حين يصحبهما يبدو دمه للناس نقيا وماله غير ملوث . وقال أيضا ان كثيرين من المستغلين محدثى الثراء كانـوا يدفعون ملايين الماركات نظير تقديمهم فى المجتمعات المرموقة ، أما هو فقد استطاع بدهائه ان يحصل على ذلك كله بلا مقابل تقريبا . وكان يقول مثل هذا لا لان بيـى وهانـى جعلا اسرتيهما اسرة واحدة فحسب بل لانه كان يعلم ان روبى بد بحاجة الى يوهانس فى عالم الاعمال تقابل حاجة يوهانس الى سيدتى اسرة روبى فى عالم المجتمع • فهى صفقة عادلة اذن • وجميع الاطراف المعنية تدرك هذا •

وهــكذا اقام من كان معروفا يوما ما باسم ياشا رابينوفيتس من أهالى لودز حفلة استقبال كبرى راقصة تكريما للسـيدتين بد • واعدت مخططات لزخارف ودرست قائمة المدعوين بعناية ، وكدح رؤسـاء الطهاة اسبوعا فى اعداد الاطعمة الباذخة ، وقاعات الاستقبال فى القصر الرخامى التى كانت تبدو كمحطة لسكة الحديد صارت فجاة اشـبه بحلم مخرج سينمائى عن جزيرة بالى او البرازيل . ومهما يكن من شىء فهذا حدث ضخم وكان يوهانس يقول ان الاقطاب الذين سيحضرون لن يكونوا من شركائه فى الاعمال فحسب وان رجال السياسة لن يكونوا ممن حصلوا منه على مساعدات مالية للمعركة الانتخابية ليس غير ، وان أعضاء الطبقة الارستقراطية لن يكونوا مقصورين على المدينيين له بأمــوال . واردف بحصـــافة « ثم هم سـيحضرون معهم زوجاتهم وبناتهم » •

- ١٢ -

وجعل لانى بد يطوف بين أفراد هذه المجموعة الخلابة فى أفضل ملابس السهرة التى يملكها مسهما فى التحية والترحيب ، وفى العمل على راحة الناس ونفى الوحشة عنهم ، مراقصا ايما فتاة بروسية فائرة

النمو يبـدو عليها التألم من اهمال شانها ، موجها مقدمى الطعـام نحو اى سيدة مسـنة لم تجد قدرة معدتها كفاءها من ألوان الطعام.. وهؤلاء السيدات المتقدمات فى السـن ذوات صـدور ضخمة وردية اللون ، وثيابهن بدون حمالات واظهرهن عارية تماما بصورة لا يصدقها العقل. ومقدمو الطعام يرتدون كسوة تجمع بين اللونين الوردى والاخضر بازرار من الذهب وجوارب وقفازات من الحرير الابيض واحذية سهرة ذات نجيمات . وقد درس لانى بدقة قائمة الشخصيات المهمة كى يعـرف من الذين سيرحب بهم فلا يرتكب « جليطة » . وهو قد ساعد فى تثقيف زوجته بحيث يسعها ان ترتفع بحياتها الى مقام ثروتها الجليل . فلا تظن ان النشاط الاجتماعى نوع من الكسل !

وسالته احدى اولئك الجنيات المسنات الضخام : « هل تعرف الجنرال جراف شتوبندورف ؟ » فقال الامريكى « لم يسـبق لى هذا الشرف قط .ولكنى زرت بيت مقامه الرفيع فى مناسبات كثيرة » فقال مقامة الرفيع « حقا ؟ » وهو رجل طويل متخشب كانه كباس بندقية ذو ملامح حادة عميقة الخطوط ، شعره الاشيب لا يزيد طوله على ربع بوصة يرتدى كسوة رسمية جديدة براقة جدا بالاوسمة والنياشين التى حصل عليها اثناء أربع سنوات من حرب لا يمكن أن تنسى .

وفسر له لانى كلامه قائلا : « لقد ظللت معظم أيام حياتى صديقا لكيرت ما يسنر » فأجـابه الجنرال جراف : « حقـا » اننا نعتبـره موسيقيا عظيما .وتفخر به فى ستوبندروف : « فاسـتطرد الامريكى الشاب : « وقضيت عيد الميلاد مرات كثيرة فى بيت ما يسنر . واسعدنى ان استمع لك تخاطب اتباعك كل سنة ، وكذلك سمعت والدك المبجل قبل الحرب . « فقال مقامه الرفيع مرة أخرى : « حقا ؟ » لم أعد استطيع العيش هناك ، يبدو انى اذهب مرتين أو ثلاث مرات فى السنة مدفوعا بالولاء لاتباعى » . وكان المحارب الاشيب يتحدث حينئذ الى عدو سابق ، فقال مستطردا : « لانى لا أطيق أن أعيش فى بيت اجدادى وقد أمسى جزءا من بولنده ، ويحكمه اناس اعتبرهم اقـل من مسـتوى البشر تقريبا . لقد فعلت هذا انت .وجيوشك ، بالتدخل من غير حق شرعى فى شئون المانيا وانتزاع نصرها الذى كدحت فى سبيله من بين براثنها ، ثم ذهبتم وتركتمونا للسلابين الفرنسيين والتجار البريطانيين ينهبوننا » » .

ولم يكن ذلك الموضوع مستحبا فى هذا المقام ، فتفوه لانى ببضع

كلمات مهذبة ليس لها معنى خاص وتجـاوزه منصرفا الى غـيره وهو يقول فى نفسه « ان كان يوهانسي يظن انه بسبيله الى كسب هذا السيد الى جانبه فشد ما يخدع نفسه ! .

- ١٣ -

ولكن لانى كان مخطئا وقد تبين له هذا فى وقت متاخر من المساء ، فقد اقترب منه الارستقراطى المتخشب وكلمه مرة أخرى بلهجة تفيض بمزيد من الود قائلا : «سيد بد. لقد تذكرت اننى رأيتك فى ستوبندورف. وقد سمعت مايسنر يتحدث عنك». فاجابه لانى بتواضع « هر مايسنر عاملنى كما لو كنت ابنا له » فقال مقامه الرفيع : « رجل همام . وقد ادى ابناؤه خدمات جليلة » وانطلق يتحدث عن اسرة وكيل املاكه العام الذى يعتمد على كفاءته ونزاهته مثلما اعتمد عليه ابوه من قبل . وفيما كان لانى يصغى الى هذا الحديث الرسمى خطر له مالابد قد حدث : فالسيدة المسنة التى تشبه الجنية لابد ان تكون قد ذكرت الجنرال جراف بان هذا بعينه هو الشاب التافه المحظوظ الذى تزوج الوارثة الخرافية الثراء وليس - كما تبادر الى ذهن مقامه الرفيع - شابا غرا احمق يحاول اكتساب اهمية لنفسه بادعاء صلة صميمة باحد مستخدمى رجل من النبلاء ! .

لنحن هنا اذن بازاء ارسقراطى عظيم يبدى التواضع والتنازل ، وللنباله احكامها . فاذا به يعرف كل شيء عن السيد بد بطبيعة الحال ! « وقد سمعت ان كيرت مايسنر الف الكثير من موسيقاه فى بيتكم » ولم يردف بقوله « ان كيرت مايسنر كان عشيق أمك سنوات طويلة فيما سمعت » . وتحدث عن مؤلفات كيرت الموسيقية واظهر ان لديه دراية حقيقية بها فهى موسيقى المانية اصيلة يمكن الثناء عليها بدون تحفظ . والشاب الامريكى الفرنسى الذى اقام استديوكى يعمل فيه عبقرى فى الموسيقى يستطيع ان يلتقى على قدم المساواة مع نبيل بروسى جهز بيتا صغيرا للعبقرى كى يريح اسرته فيه .

وسرعان ما اتضح أن لانى عمل سكرتيرا مترجما فى مكتب اللجنة الامريكية لمفاوضات الصلح فقال الضابط « يهمنى ان أتحدث اليك عن تلك الايام فى باريس. فقد يكون فى وسعك أن تفسر جانبا من سلوك الامريكيين الذى ظل دائما لغزا مستغلقا على » . فقال لانى بتهذيب :

« يسرني ان ابذل خير ما فى جهدى . ويجب ان تعلم ان قلعتك الجميلة احدثت أثرا بالغا في نفسي وانا غلام صغير وان والدك وانت شخصيا كنتما تبدوان لى شخصيتين عظيمتين جدا » .

وابتسم مقامه الرفيع بسماحه فلم يكن لديه ادنى شك فى أن والده كان شخصية عظيمة او فى انه شخصيا يعتبره كذلك . وساله : « هل انت عازم على القدوم الى شتوبندورف فى عيد الميلاد القادم ؟ » فكان الجواب : « لقد وجه كيرت الدعوة الينا ولكنى لست متاكدا من امكان تلبيتها » فقال الجنرال جراف : « يسعدنى ان تتفضل انت وزوجتك بزيارة القلعة ضيوفا على . » فقال الشاب : « اشكرك كثيرا جدا . ولكنى يجب أن أطلب من آل ما يسنر ان يتنازلوا عنا لاننا فى ضيافتهم » . فقال محدثه بلهجة جافة : « اعتقد انهم سيتنازلون . » فقال لانى : «سأحيطك علما بعد قليل . اذ يجب ان استشير زوجتى.»

وهذا شذوذ أخر من افانين الامريكيين : ان يستشيروا زوجاتهم بدلا من احاطتهن علما ! ولكن بطبيعة الحال عندما تكون الزوجة فى مثل ثراء هذه المرأة ... ماذا قيل لى انها تدعى ؟ »

- ١٤ -

وجعلوا يرقبون تلك الزوجة القيمة تراقص ملحقا شابا وسيما فى السفارة الامريكية وقد ارتدت اكثر مما كانت ذى قبل أشبه بالربة جونو الشابة المائلة الى السمرة وقد استطاع خياط شاب بارع ان يدرك هذا فصنع لها ثوبا من الحرير الشفاف الابيض به شىء من سمات الزى الاغريقى القديم . اما المجوهرات فلم تتحل منها الا بعقد مزدوج من اللالىء ، فثروة كثروتها أكبر من أن ترمز اليها اى كمية من الاحجار الكريمة ، ومن الافضل أن يترك أمر ثرائها الى الصحف تعلنه . وكانت ترقص برشاقة ووقار وتبتسم بلطف ولا تثرثر اطلاقا. أجل كانت ربة شابة وزينة لاى قاعة رقص فى قصر مستغل .

ولما انتهت الحفلة صحبها لانى الى الطابق العلوى . وكانت قد وعدت الا تتناول اكثر من كاسين من الشمبانيا ، وقد برت بوعدها بيد ان استثارتها لم تكن قليلة لوجود كل هؤلاء الاشخاص المرموقين وكلهم فى ازياء رسمية ولهم أساليب فى السلوك مهذبة وطرق فى الكلام روعى فيها ان تؤثر فى نفس ابنة رجل كان يوما ما ساعيا فى وول

ستريت . وتحدثت مع زوجها عن هذا الشخص وذاك فى حين كانت الخادمة تساعدها فى خلع ثوبها . وبعد ان اخلدت الى الراحة مدة الدقائق الخمس عشرة المطلوبة جىء اليها بالطفلة لترضعها . وقد كبرت الان وقاربت الشهر الثامن من عمرها فهى تكثر من التلوى والفرفرة . ولم تكن قط بحاجة الى دعوة ، فانقضت بلا ابطاء ، وفيما هى ماضية فى عملها اخبر لانى امها بتلك الدعوة الى قلعة شتوبندورف. وكان قد حدثها كثيرا من قبل عن قلعة « بطاقات عيد الميلاد » بسقوفها التى يغطيها الثلج وهى تلمع فى شعاع الصبح الباكر ، بحيث جعلها تبدو رومانتيكية لدى ايرما كما كانت لديه منذ سبع عشرة سنة .

وسألته « هل تذهب ؟ » فاجا بها : « ان كان ذلك يطيب لك » . فهتفت : « احسب ذلك يكون رائعا ! » وبعد تفكير قليل اردفت : « اننا نبدو انا وانت فريقا اجتماعيا جيدا جدا ، السنا كذلك يا لانى ! » .

الفصل السابع

« شهدت الأعاصير »

- ١ -

وضعت نتائج الانتخابات هاينريش يونج في مقعد من مقاعد السلطة، فطلب لانى تليفونيا وصب فى أذنيه آيات حبوره ، فلا حزب سوى حزب العمال الألمان الاشتراكيين الوطنيين وهاينريش بنى الحزب ! فهل يتفضل لانى بالحضور الى بيته ذات مساء ليقابل زوجته وأحد أصدقائه؟ وقال لانى انه يسعده ذلك ، وانه تلقى لتوه خطابا من « ريك » يقول فيه ان الانتخابات الألمانية أحدثت وقعا عظيما فى انجلترا ، وانه اناستطاع لانى أن يبعث اليه بحزمة من المطبوعات وجانب من مذكراته الخاصة عن الحالة الفكرية لتلك البلاد فسوف يكتب مقالا لاحدى المجلات الاسبوعية فى هذا الموضوع. وكان لانى راغبا فى مساعدة صديقه ويعتقد أن الشعب الانجليزى ينبغى أن يفهم ما تعنيه هذه الحركة الجديدة . وكان هذا بطبيعة الحال فى صميم اختصاص هاينريش الذى تطوع بتجميع حمولة كبيرة من المطبوعات ، بل وباعداد المقال مكتوبا كى يوفر المشقة على ريك !

وترك لانى زوجته مستمتعة بلعبة بريدج عائلية مريحة وانطلق بالسيارة الى الضواحى فى اتجاه بوتسدام حيث يعيش ذلك الموظف الشاب المسئول فى كوخ متواضع . وكان هاينريش قد انتقى لنفسه فتاة المانية بمعنى الكلمة ذات عينين فى مثل زرقة عينيه ، وطبقا لمبادىء النازى الشماليين اكبامن فورهما على زيادة عدد السلالة الحاكمة . وارياه بفخر صغيرين اشقرين نائمين فى مهديهما ، وكانت نظرة واحدة الى «الزا يونج» كافية كى يدرك لانى أن صغيرا ثالثا سيضاف الى هذين قريبا . وهناك خاصة فى المذهب النازى لاحظها لانى من قبل بين صفوف الفاشست الطليان . فمن أحد جانبى فمهم يقولون ان الأمة لابد لها من التوسع كى تجد مجالا لتعدادها النامى ، يقولون الى الجانب الآخر من فمهم أن تعدادهم يجب أن يزيد كى تتسنى لهم القدرة على التوسع . وكانوا فى بلاد موسيلينى يسمون هذه الحاجة الى التوسع باسم « الانانية المقدسة »

وحاول لانى عبثا أن يفهم السر فى اعتبار صفة معينة لدى الفرد عدوانا ولدى الجماعة سلوكا مقدسا ٠ وتمنى أن يأتى اليوم الذى تغدو فيه الأمم كالافراد المهذبين ٠

وكان هاينريش قد دعا لمقابلة ضيفه المدير الرياضى لاحدى مجموعات الشبيبة فى برلين ، واسمه هوجوبير ، وهو نموذج آخر للمثل الأعلى الشمالى ، وهى صفة لا يتحلى بها العدد العديد من قادة الحزب فثمة نكتة تدور على الألسنة فى دوائر المثقفين الأذكيا ، فى برلين أن الآرى المثالى ينبغى أن يكون اشقر مثل هتلر ، طويلا مثل جورنج ، ونحيفا مثل جورنج، وهلم جرا ما وسع ذاكرتك الخبيثةان تسعفك أما هوجو فكانت له وجنتان ناعمتان وشعر ذهبى متموج ومما لا شك فيه انه حين يرتدى الزى الرياضى يبدو كانه الاله هرمس فى ريعان الشباب ٠ وكان الى عهد قريب ديموقراطيا اشتراكيا متحمسا ومن العاملين فى حركة الشباب بذلك الحزب ٠ ولم يكن فى مقدوره أن يسرد جميع فضائح ذلك الحزب فحسب بل انه يعرف أيضا كيف يمثل الاشتراكية الوطنية باعتبارها الاشتراكية الحقيقية التى يستطيع العمال الآلمان عن طريقها أن يكسبوا الحرية لأنفسهم، ثم لعمال العالم أجمع فيما بعد ٠

والعقل الانسانى شىء عجيب فهذان الاثنان كلاهما قرأ كفاحى على اعتبار انه كتابه المقدس ولكن انتقى كل منهما ما استهواه ٠ وكانا يعلمان ان لانى أيضا قرأ ذلك الكتاب ، فافترضا انه قد استهواه فيه ما استهواهما ، ولكن لانى كان قد استرعى نظره أكثر من موضع من نوع آخر يذكر فيها الفوهرر بوضوح انه لا ينطوى على ادنى اهتمام بمنح الحرية لعمال الآمم والشعوب الأخرى ، بل هو على العكس مصمم على اجبارهم على العمل لمصلحة السلالة العليا أو الجنس السيد ٠ فكلمة آرى لم تكن سوى ستار لفظى مموه لكنه المانى ، وللاشخاص الآخرين المتعلمين وذوى المكانة الاجتماعية الذين ينضمون الى النازى ويساعدونهم فى الاستيلاء على الحكم ٠

بيد أن لانى لم يحضر الى هذا المكان لتبشير موظفين مسئولين نازيين فسمح لهوجوبير ان يكلمه كلام زميل لزميل وبين الحين والحين كان يسجل مذكرات أو ملاحظات حول الأمور التى قد تثير اهتمام الجمهور القارىء فى بريطانيا ٠ وكان هوجو أحدث عهدا بالحركة من هاينريش وأكثر سذاجة فابتلع البرنامج النازى الأصلى باكمله شحما وثقلا وخيطا ٠ فهذه هى العقيدة النازية ومتى استشهدت بنص من نصوصها انتهى موضوع

البحث . وارد لانى ذلك الدنيوى الكلبى المستهين الذى شاركت فى صنعه عدة ثقافات منحله ان يقول : « كيف يستطيع هتلر أن يحصل على مساعدات مالية من فون بابن والاقطاعيين الآخرين ان كان حقيقة ينوى أن يهدم الضياع الزراعية الضخمة فى بروسيا ؟ وكيف يستطيع وهو يحصل على مساعدات ضخمة من فرميتزتيسن وملوك الصلب الآخرين أن يحقق ما ينويه من تامين الصناعات الكبرى ؟ » ولكن ما جدوى مثل هذا الكلام ؟ ان هوجو يظن ولا ريب ان جميع أموال الحـزب تأتى عن طريق الملاليم التى يدفعها العمال . وان الأعلام وشارات الاذرع والقمصان البنية والاحذية اللامعة والمسدسات الالية وبنادق بد الالية تشترى بارباح بيع المطبوعات ولعل هاينريش أعلم منه بالحقيقة ولكنه لا يمكن أن يعترف بها ، ولانى ليس حرا فى ذكر مصادر معلوماته . فمن الخير أن يصغى ببساطة ويدون ملاحظات دقيقة ويترك ديك يكتب مقالا عنوانه «استيقظى ياانجلترا ! » .

- ٢ -

وبعد الانتخابات مباشرة اقيمت فى برلين محـــاكمة لثلاثة من الضباط متهمين بنشر الدعاية النازية فى الجيش اثارت هــذه المحاكمة اهتماما كبيرا لدى الجمهور وظهر ادولف هتلر للادلاء بشهادته فالقى فيها حملة من حملاته المعهودة بالطعن والتشهير معلنا أن حـزبه حين يتولى الحكم سيقدم ! مجرمى نوفمبر » ـ ويعنى بذلك الرجـــال الذين أقاموا الجمهورية ـ للمحاكمة أمام محكمة الشعب ، وقال : « ان رؤوسا ستتدحرج على الرمال » . وقد صدمت هذه اللغة الشعب الألمانى المتحضر واعتبرها يوهانس روبن دليلا يؤيد ما كان يقوله للانى من ان المسالة لا تتطلب أكثر من ترك الحبل لهذا المخلوق الى أن يشنق نفسه . وارتفعت المطالبات من جهات كثيرة لمحاكمة هتلر بتهمة الخيانة ولكن لعل الحكومة كانت ترى ما يراه يوهانس فلماذا تشنق رجلا لديه كل هذا الاستعداد لشنق نفسه وطرد الضباط الثلاثة من الجيش وواصل ادى دعايته فى الجيش وفى غير الجيش .

ودعا لانى النقيب اميل ما يسنر للغذاء معه ودار بينهما الحديث حول تلك المشكلات وكان شقيق كيرت الأكبر محاربا قديما فى الحرب العالمية وله مثلما لشقيقه الاصغر من عينين زرقاوين شاحبتين وشـــعر قصير جدا بلون القش ، ولكنه لا يتمتع بمثل مزاجه المتقد ، وقد اتفق فى الرأى مع لانى على ان كيرت ضـــل طريقه وان الفوهرر متعصـــب،

فاميل موال للحكومة القائمة ، ويقول ان هذا سيكون دائما موقف الجيش ، لأن هذا هو واجب كل ضابط مهما كان غير موافق على سياسات الساسة الحاكمين وخططهم وساله الأمريكي « هل تطيع أوامر النازى اذا استولوا على الحكم ؟ » فاسبل اميل عينيه لحظة كانه يريد أن يخفى رد الفعل المؤلم الذى سببه له مثل هذا السؤال وقال « لااظن من الضرورى أن نبحث فى هذا الشأن » فاجابه لانى : « ان الانتخابات الحالية حملتنى على التفكير فيه » ولكنه لم يلح عليه فى مناقشة المسألة ٠

واميل يضع ايمانه كله فى رمز الولاء لألمانيا ، وهو الفيلد مارشال الذى صار حاليا الرئيس بول لودفيج هانس انطون فون بنيكندورف فون هند نبورج ٠ فالقائد العجوز كان قد كسب معركة تاننبرج ، وهى النصر الوحيد التام الذى أحرزه الالمان ، وترتب على هذا ان الشعب ألهة طول المدة الباقية من الحرب ففى كل مدينة اقاموا له تماثيل ضخمة من الخشب٠ وكان منتهى الوطنية ان يشترى المرء مسامير يدقها فى هذا التمثال ، وتذهب الاموال المجموعة من شراء هذه المسامير الى هيئة الصليب الاحمر الالماني ٠ وصار اتجاه هندنبورج هو شارة الامان القومى ٠ وقد صارت رئاسة هندنبورج مرادفا آخر لهذا المعنى٠ بيد ان العملاق العجوز الصارم بلغ الآن الثالثة والثمانين من العمر ، وقريحته بدأت تخبو ، ومن العسير عليه ان يركز تفكيره فى أمور معقدة والساسة يتكاثرون حوله ويجذبونه فى هذا الاتجاه وذاك وهو شىء مؤلم له ومحزن لمن يشاهدونه ٠

وكان اميل ما يسنر عضوا فى أركان حرب الفيلد مارشال فى فترة من الحرب ، وعلى علم بمحنته الحالية ، ولكن أميل متحفظ أمام الاجانب ولا سيما مع أجنبى يصاهر اليهود وله أخت وزوج أخت مشهوران بلونهما الاحمر ٠ ومن جهة أخرى لاينطوى ضابط فى جيش الرايخ على حب لادولف هتلر ، وقال ان الرئيس يرفض الاعتراف بهذا المحدث حتى من حيث هو نمسوى ويصر على الاشارة اليه بكلمة « الاومباشى البوهيمى » مستخدما اسم أبيه « شيكالجرووبر » ، وهو اسم سوقى مهين ٠ وقد رفض السيد العجوز على طول الخط مقابلة الاومباشى شيكل جروبر لانه يكثر من الكلام ، وفى الجيش جرت العادة ان ينتظر صف الضابط الى أن يوجه اليه رئيسه الكلام أولا ٠

واعرب أميل عن آرائه فى الاضطرابات السائدة فى مدن الجمهورية التى تتجه الى مستوى الحرب الاهلية بين فريقى المتطرفين ٠ وقد بدأ الحمر ذلك دون شك ، والقمصان البنية هى الرد الذى تلقوه ٠ بيد أن أميل

يقول انه لشيء فظيع أن يسمح لاى شخص بتكوين جيش خاص على نحو ما فعل هتلر • فلا تـكاد تمر ليلـة من غير ان يقع صـدام بين الجماعتين المتنافستين فى الشوارع •

وكان أميل يصبو الى مستشار شجاع يأمر جيش الرايخ بنزع سلاح الجانبين • وكان زعيم النازى يتظاهر باستنكار ما يصنعه أتباعه ، ولكن هذا بطبيعة الحال قول هراء فكل خطبة يلقيها فيها تحريض على مزيد من العنف من قبيل كلامه الجنونى عن الرؤوس التى ستتدحرج على الرمال •

والى هذا المدى كان فى وسع رجلين عصريين مثقفين ان يتفق رأياهما وهما يحسوان القهوة ، بيد أن أميل استطرد فى الكلام فكشف عن انه المانى كالآخرين ، اذ قال ان الموقف فى جوهره راجع برمته الى الحلفاء والى معاهدة فرساى الفظيعـة ، فالمانيـا جردت من كل شيء بواسطة طلبات التعويضات ، وحرمت من سفنها ومستعمراتها وتجارتها • وما من شعب يمكن ان يسعد بتضوره جوعا وكان لانى قد قام بنصيبه فى الاحتجاج على معاهدة فرساى ، وحاول فى جانب مساعدة المانيا على النهوض على قدميها مرة أخرى • ولكنه وجد نفسه على نحو ما كلما أصغى الى الالمان يتحـول الى الجانب الآخر وتسـاوره الرغبـة فى تذكيرهم بانهم خسروا الحرب • وهى على كل حال لم تكن لعبة بنج بونج ، ولابد لاحد ان يتحمل نفقاتها وكان لدى المانيا أيضا برنامجها الخاص فيما تنوى فعله ان كسبت الحرب ، وقد كشفت عن ذلك بوضوح فى الشروط التى أملتها عنوة على روسيا فى برست ـ ليتوفسك • ثم كانت هناك أيضا من قبل حرب فرنسية أخذت المانيا على أثرها الالزاس واللورين • وكان هناك أيضا فريدريك الاكبر وتقسيم بولنده ، وسلسلة كاملة من الغزوات البروسية • ولكن يحسن بك الا تذكر شيئا من هذا على لسانك ان أردت ان يكون لك أصدقاء فى المانيا •

- ٣ -

وكان فريدى وراحيل يتوجهان ثلاث امسيات من كل اسبوع الى المدرسة التى يساعدان فى الانفاق عليها • وكان فريدى يدرس فى احد فصولها تاريخ النظرية الاقتصادية ، وتعلم راحيل فصلا آخر الغناء ، وكلا الموضوعين مهم للعمال الالمان • وذهب معهما لانى أكثر من مرة • ولما اكتشف الطلاب من المسنين والشبان انه يعيش فى فرنسا وكان يساعد

فى ادارة مدرسة هناك أرادوا أن يعرفوا شيئا عن الاحوال فى تلك البلاد وما هى أفكار العمال وافعالهم. وثارت مناقشات فاكتشف لانى ان الشعب العامل المنظم المرتب لا يختلف كثيرا عن تلك الجماعة المستقلة الرأى الصريحة التعبير من أهالى منطقة الميدى فى فرنسا ، فالمشكلات عينها تحيرهم والانقسامات عينها تحول كل مناقشة الى حرب صغيرة .

ايستطيع العمال أن يتسلموا السلطة بالوسائل السلمية ؟ وفى مقدورك أن تعرف الجواب من الالفاظ نفسها التى يصوغ بها المتحدث سؤاله ، فان قال : « بالوسائل البرلمانية » فهو اشتراكى على نحو ما . وان قال عن طريق السياسيين المنتخبين فهو شيوعى على نحو ما . والاول منهما يستند الى هيبة أكبر حزب فى البلاد من ورائه ، ويستشهد بنصوص من ماركس وبيبل وكاوتسكى . وخصمه فى المناقشة يتخذ الاتحاد السوفيتى نموذجا ، ويستشهد بنصوص من ماركس ولينين وستالين . وبين الفريقين المتطرفين يقوم أولئك الذين يتبعون تروتسكى المنفى حديثا، أو الشهيد كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبوج الحمراء . وهناك جماعات منسقة متباينة لم يسمح بها لانى يشبههم باناس فى سفينة مشرفة على الغرق . فيحاول كل منهم ان يلقى بالآخر الى اليم .

وكان الاشتراكيون اغلبية فى المدرسة . واخذ لانى يوضح لهم فكرته فى وجوب اتحاد جميع الطوائف العمالية ضد خطر الاشتراكية الوطنية . ولما كان أجنبيا وصهرا لفريدى فقد تذرعوا بالصبر ووضحوا له انه ما من انسان يمكنه أن يتعاون مع الشيوعيين لانهم لن يسمحوا بذلك . فلا أحد أكثر من الشيوعيين كلاما عن التعاون ولكن متى حاولت ذلك وجدت ان ما يرمون اليه بث الالغام فى منظمتك وتسميم اذهان اتباعك ، وهو الاسلوب المعروف باسم « الحفر من الداخل » واى اشتراكى تتحدث اليه مستعد لتقديم عشرين مثلا توضيحا ، بالاضافة الى نصوص من لينين تثبت ان ذلك ليس من قبيل الصدفة وانما هو سياسة مرسومة .

وقد ذهب اعضاء الحزب الديموقراطى الاشتراكى الى ابعد من هذا فاتهموا الشيوعيين بالتعاون ضد الحكومة الائتلافية التى يشترك فيها الديموقراطيون الاشتراكيون . وهذه ايضا سياسة مرسومة لان البلشفيين يؤمنون باحداث الفوضى ، فهم يأملون فى الافادة منها . فالفوضى منحتهم فرصتهم فى الاستيلاء على الحكم فى روسيا . وعدم تكرر ذلك فى ايطاليا لم يحملهم على مراجعة نظريتهم تلك . ومن اليسير

عليهم التعاون مع النازى لأن كليهما يؤمن بالقوة والدكتاتورية • والخطر الكبير الذى يواجهه انصار التغييرالسلمى هو عقدصفقة مكشوفة أو مستورة بين الحزبين الثاني والثالث من حيث الضخامة فى المانيا • وبدا هـذا الكلام ضربا من الكابوس فى نظر لانى . وليـس الكابوس لأن هذه الفكرة يمكن ان تحدث ، بل لأن الاشتراكيين قد وصل بهم الأمر الى هذا الحد من كراهية الحزب الآخر للطبقة العاملة حتى انهم على استعداد لتصديق امكان عقد مثل هذه الصـفقة ومرة أخرى كان عليـه أن يرتد الى دور المستمع ويـستبقى أفكاره لنفسـه ، ولا يخبر هانـى وبيـس بما يعلمه اصدقاء فريدى وراحيل فى مدرستهم •

- ٤ -

ومرة فى الاسبوع كان المعهد يقيم حفلة استقبال ، فيحضر المثقفون اليساريون ويشربون القهوة ويأكلون كميات كبيرة من شـطائر سجق الكبدة والجبن السويسرى ويناقشون خطط المدرسة واحداث الساعة • وعندئذ تنطلق قوى الفوضى والظلام من عقالها • واستقر رأى لانى على أن كل مثقف في برلين حزب سياسى جديد وكل اثنين من هؤلاء المثقفين مشكلة سياسية وكان بعضـهم يترك شـعره طويلا لأن منظره لطيف ، الا أن منهم من يترك شعره طويلا لأنه لا يملك مقصا • وبعضهم كان يأتى لانه بحاجة الى جمهور مستمع • والبعض الآخر لانها فرصة لتناول وجبه• ولكن ايا كانت اسبابهم الدافعة ، فما من شىء كان يحملهم على الهدوء وما من شىء يمكن ان يجعلهم يتفقون فى الرأى • وكان لانى يعتقد دائما ان الاصوات العالية والاشارات العنيفة من علائم السلالات اللاتينية ، بيد انه قرر الآن انها مسألة لا علاقة لها بالسلالة اطلاقا ، بل بالحتمية الاقتصادية فكلما اقترب بلد من الازمة ازدادت ضجة مثقفية فى قاعات الاستقبال !

وقد ارتكب لانى خطأ حين اصطحب زوجته الى احد هذه الاجتماعات فلم تستسغه ، ذلك اولا لان معظم الجدل بالالمانية ، وهى لغة من النادر جدا أن تكون مستحبة فى السمع مالم يكتبها هاينى ، اذ يخيل للغريب انها تنطوى على قدر كبير من السعال والبصق والقعقعة فى مؤخرة الحلق• وبطبيعة الحال كان ثمة كثيرون يستطيعون التحدث بالانجليزية على نحو ما ، لديهم الرغبة فى تجربة مقدرتهم لدى زوجة لانى ، الا انهم كانوا يريدون الكلام حول شخصيات واحداث غريبة عليها في معظم الاحوال •

وكان سر قوة ايرما في الحياة الاجتماعية ما تتميز به من صفاء وهدوء ولم يكن هذا المكان موضعا صالحا لذلك بأي حال ٠

وقد ابدت تعليقها على ذلك لزوجها الذي قال : « يجب ان تدركي ان معظم هؤلاء الناس ـ يجدون عناء شديدا في البقاء على قيد الحياة ٠ وكثيرون منهم لا يحصلون على ما يكفي من القوت ، وهذا شيء مزعج لراحة البال ٠ » ومضى يشرح ما يسمونه « البروليتاريا الثقافية » وهي كتلة من الاشخاص حصلوا على التعليم بثمن باهظ ذهنيا وجسديا ، بيد انهم لا يجدون الآن سوقا لما يستطيعون تقديمه للعالم ، وحصلوا على ارزاق تافهة جدا من الكتابة بالطلب والتعليم وسائر الاعمال الغريبة التي يمكن ان يعثروا عليها ٠ وطبيعي ان يكونوا ساخطين ويلفوا أنفسهم متعاصفين مع العمال المحرومين ٠ فسألته : « ولماذا لا ينتظمون في اعمال مستقرة يالاني ؟ » فأجابها : « أي نوع من الاعمال ياعزيزتي ؟ » حفر المصارف او وظيفة كتابية في متجر أو الخدمة على الموائد ؟ » فقالت : « اي شيء فيما اعتقد ما دام يتيح لهم رزقا شريفا » فقال : « كثيرون منهم مضطرون لذلك ، ولكنه ليس امرا سهلا كما يبدو ، لان هناك اربعة ملايين من المتعطلين في المانيا في الوقت الحاضر فعلا ، والعمل يظفر به عادة من تدرب عليه في مجاله المتخصص » ٠

وهكذا كان لاني يشرح الامور لها بصبر واناة كانما يشرحها لطفلة٠ والمزعج انه كان يضطر لتكرير الشرح مرات كثيرة ، لان ايرما كانت تبدو تلكوءا في تصديق ما يقول ٠ فيحاول اقناعها ان الاحوال في هذا الوقت مختلطة مضطربة مع انها نشأت على اعتقاد ان كل شيء على احسن ما يمكن في احسن دنيا ممكنة فان لم يحصـــل الناس على اعمال او لم يستطيعوا الاحتفاظ بها فلا بد ان يكون العيب في هؤلاء الناس كان لا يكونوا راغبين حقيقة في العمل وكل مرادهم ان ينتقدوا الآخرين من الناجحين ويسخرون منهم مع انهم عملوا بجد واجتهاد مثلما عمل والد ايرما وقد تركها في وضع راسخ مضمون ٠ فمن ذا يلومها ان أرادت أن تظل هكذا ، واظهرت امتعاضها ممن يتجاذبونها هنا وهناك صـائحين في اذنيها عابثين بسكينة ذهنها بحججهم وجدلهم ؟ ٠

ولم يكن ذلك عن قسوة قلب فيها مطلقا ٠ فقد يتقدم منها متسول حقير في الشارع فاذا الدموع تطفر من عينيها وقد تنتابها الرغبة في اعطائه كل محتويات كيس نقودها المتخم ٠ ولكن هذه صدقة وقد علمت ان جميع اصدقاء لاني يستنكرونها فهم يريدون شيئا اسمه « العدالة »

ويطالبونك بالاتفاق معهم على ان النظام الاجتماعي خطأ في جوهره وان معظم ما تعلمته ايرما من والديها ومعلميها واصدقائها خطأ . انهم يطالبون بقلب العالم رأسا على عقب وان يعهد الى هؤلاء المتمردين باصلاحه . وقررت ايرما انها لا تثق بقدرتهم ولا بدوافعهم . وقد راقبتهم ثم اعلنت قرارها الى زوجها السريع التصديق : « انهم مسودون ويريدون الاستيلاء على ما بايدينا ولو اعطيناهم اياه لما قالوا لنا ولو كلمة شكر واحدة ! » فاجابها زوجها الذى كان يعانى من تبدد غير قليل من آماله واحلامه شخصيا : « قد يكون الامر كذلك ولا جدوى من ان ننتظر من البشر ان يكونوا خيرا مما هم . وبعضهم مثاليون حقيقيون مثل هانسى وفريدى . فقالت : « نعم ولكنهما يعملان ويستطيعان ان ينجحا فى اى عالم . اما هؤلاء السياسيون والمثقفون الذين يريدون أن يكونوا سياسيين فانهم لا يدرون كيف يصبحون » .

فضحك لانى وقد رآها شرعت في استخدام راسها وحذرها قائلا : « ان ما ينبغي عليك ان تضعى فى اعتبارك المبادىء لا لافراد . اننا نريد نظاما يتيح لكل انسان فرصة عمل شريف بناء وبعد ذلك فلا بد من ان نتأكد انه لا يعيش احد بغير عمل » .

- ٥ -

اضطرت ابنة ج . بارامونت بارنزالى الاعتراف بأن شيئا ما يسير على غير ما يرام ، لان حصصها بدأت فى النقصان . وفى الربيع كانت قد بدأت تسمع بسوق الصعود الصغيرة ، فبدا ذلك بديعـا ولكن فى شهور الصيف والخريف حدثت سلسلة من التدهورات المالية ، لايقل عددها عن اربعة الواحد منها تلو الاخر . وما من احد فهم هذه الاحداث وما من احد تنبأ بها . فقد تسمع اناسا يقولون : « لقد وصلت الامور الى القاع الان ولابد ان تتغير الاحوال . » ويراهنون باموالهم على ذلك ، واذا بالاسهم فى اليوم التالى . او فى الاسـبوع التالى ، تتدهور ، ويستولى الذعر على الجميع .

وجاء ايرما خطاب من عمها جوزيف احد الاوصياء الذين يديرون املاكها حذرها فيه مما حدث وشرح لها الامور قدر استطاعته ، فقال ان اوراقها المالية ذات القيمة المضمونة هبطت فى العام المنقضى ثلاثين نقطة اخرى تحت اقل مستوى لفترة الذعر الـكبير الذى حـدث وهى فى

نيويورك . ويبدو أن الامور تدور في حلقة مفرغة : فالتدهور يحـدث خوفا والخوف يحدث تدهورا اخر . وقد كان للانتخابات الالمانية رد فعل سيء في وول ستريت ، فقد تأكد الجميع ان اقساط التعويضـــات لن يدفع منها شيء بعد الان ، واضاف مستر جوزيف بارنز الى ذلك ان التعويضات لم يدفع منها بالفعل شيء منذ وقت طويل ، وقد لايكون شيء منها تم دفعه اطلاقا في أي وقت مضى لان الالمان اقترضوا أولا من وول ستريت كل مبلغ رغبوا في دفعة . ولم تفقه ايرما هذا الـكلام تماما ، الا انها اعطت الخطاب للاني الذي فسره لها ـ طبعا من وجهة نظر حمراء وردية .

وثمة شيء واحد وضحه العم جوزيف ، الا وهو انه ينبغي على ايرما ان تلزم الحذر في انفاق اموالها وكان ردها بديهيا : لقد لبثت تعيش على حساب آل روبن نصف سنة ، ومتى عادت الى بيانفيني سيستانفون هناك تلك الحياة البسيطة الى حد السخافة ، فليس في وسعك ان تنفق مالا كثيرا وانت تعيش في فيللا صغيرة فليس لديك متسع تضع فيـــه شيئا ولا سبيل الى استضافة الناس على نطاق واسع . وكان لاني وامه متعودين على المعيشة بالف وثلاثمائة دولار في الشهر ، في حين كانت ايرما متعودة على انفاق اكثر من هذا المبلغ بخمسين ضعفا ، ولذا لم تجد صعوبة في التأكيد لعمها المدقق الامين بانها ستنفذ نصيحته . وقد قررت والدتها عدم القدوم الى اوربا هذا الشتاء ، لانشغالها بتخفيض النفقات في ضيعة لونج آيلند . وقرأ لاني الخطاب وخامره الشعور المعتاد الذى ينتاب رجلا يعلم ان حماته غير قادمة لزيارته .

- ٦ -

طلب هاينريش يونج لاني تليفونيا وسأله : « اتحب ان تقـــابل الفوهرر ؟» فهتف لاني مأخوذا : «ياالهي! انه لن يجد في ما يثير اهتمامه» فقال : « انه يقول ان لقاءك يهمه : » فسأله : « ماذا قلت له عني ؟ فقال : « قلت له انك صديق قديم ، وراعي كيرت مايسنر . » وفكر لاني لحظة ثم سأله : (أ أخبرته اني لااتفق معه في آرائه ؟ » فقال : « طبعا . اتظنه لايهتم الا بمقابلة الموافقين له في الرأى ؟ » .

وكان لاني قد افترض شيئا كهذا ، ولكنه كان من التهذيب بحيث لايرد على هذا السؤال ردا مباشرا ، فسأله بدلا من ذلك : « هل قلت له

انى قد انقلب مؤمنا به ؟ » فأجاب : « قلت له ان الأمر جدير بعنـــاء المحاولة . » فقال : « ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك ياهاينريش . » فقال : (لك ان تجازف ، ما دام راغبا في ذلك ٠) فضحك لانى وقال : (انه بطبيعة الحال رجل مثير للاهتمام ، وسيروقنى ان القاه ٠) فقال : « وهو كذلك ٠ تعال ٠ » فسأله : (اواثـــق انت ان ذلك لن يؤثر على مركزك ؟ » فاجابه : « مركزى ؟ لقد ذهبت لزيارته ثلاث مرات وهـــو سجين فى قلعة لاندسبرج ٠ وهو رجل لايمكن ان ينسى اصدقاءه ٠ » فقال له : « وهو كذلك اذن ، ومتى نذهب ؟ » فاجاب : « كلما اسرعنـا كان ذلك افضل ، فهو في برلين الآن ، انه يتنقل كثيرا بصورة فجائية ٠» فقال : « حدد انت الوقت ٠ » فسأله : « أانت خال من الارتباطات عصر اليوم ؟ » فاجابه : « فى وسعى ان اخلى نفسى » ٠

وطلبه هاينريش مرة اخرى تليفونيا ليقول له ان الموعد تحدد فى الساعة الرابعة ، وانه سيكون فى انتظار لانى امام القيادة العامة للحزب فى منتصف الرابعة ٠ فلما صعد هاينريش السـيارة وذكر العنوان للسائق ، بدا عليه شيء من التردد وهو يقول : « السلوك الامريكى كما تعلم ليس مطابقا تماما للسلوك الالمانى ٠ والفوهرر مدرك طبعا انك امريكى ٠٠٠ » فقال لانى : « ارجو الا تكون متوقعـــا منى ان اقول له هايل هتلر ! » فاجاب : « ٠ لا ٠ طبعا لا ٠ فانك سوف تصافحه ٠ » فساله : « هل اخاطبه بضمير الغائب ؟ » وكان لانى قد قرأ اعلانا فى المدة الاخيرة باتباع هذا التقليد الذى كان مستعملا فى مخاطبة الشخصـيات الملكية فيما مضى ٠ واجابه صاحبه : « ليس هذا متوقعا من اجنبى ، ولكن من المستحسن الا تعارضه ، فهو كما تعلم رازح تحت اعباء ثقيلة فى الوقت الحاضر ٠٠ » فقال لانى : « فهمت » ٠ وكان قد بلغه عن كثير من المصادر ان « آرى » شخص سريع التهيج، بل ان بعضهم وصفه بانه سيكوباتى. وسارع الآخر الى الاستطراد قائلا : « وليس ما اعنيه انك يجب ان توافقه، بل يكفى جدا ان تصغى ، وهو رقيق جدا فى ميله لتوضيح آرائه للناس » فقال لانى وهو حريص على ابقاء ملامح وجهه جامدة : « يقينا فقد طالعت « كفاحى » ، وسيكون هذا اللقــاء بمثـابة ملحق اضافى له ٠ فقد مرت خمس سنين ، وحدثت امور كثيرة خلالها». فهتف الشـاب الآرى المخلص: « اليس رائعا ان يكون الكثير جدا مما ورد به قد تحقق ! »

ـ ٧ ـ

فوهرر الحزب وقيادة فرق الهجوم ورئيس ال ن٠س٠د٠ا٠ب كان مقيما فى بيت من البيوت الانيقة المقسمة الى اجنحة ولها بواب يرتدى كسوة رسمية ٠ والفوهرر نباتى لا يشرب الخمر ولا يدخن ، بيد انه ليس زاهدا فيما يتعلق بالزخرفة الداخلية ، بل هو على العكس يظن نفسه فنانا ويطيب له ان ينسق ما يحيط به ٠ وبأموال فرانز تيسن وغيره من الوجهاء اشترى قصرا فى ميونخ جعل منه معرضا مقصودا ، وسماه « البيت البنى » ، واشترى لمسكنه فى برلين اثاثا على الطراز العصرى فى منتهى الاناقة ٠ وهو مقيم فى هذا المسكن مع زوجين يقومان على رعايته، وهما من جنوب المانيا ومن اصدقاء ايامه الماضية ، ولهما طفلان كان « آدى » يلعب معهما احدى الالعاب البيتية عندما دخل عليه زائره ، فاستبقى الصغيرين برهة متحدثا اليهما وعنهما جانبا من الوقت ، وكان شغفه بالاطفال افضل ما فيه ٠ ولو ان لانى لم ير منه غير هذا الجانب لسر لذلك وحده ، وكان الفوهرر يرتدى بدلة عادية بسيطة ويبدو على مظهره انه شخص بسيط بعيد عن التكلف ٠ وصافح ضيفه الامريكى الفرنسى ، وربت على ظهر هاينريش وطلب عصير الفاكهة والكعك الصغير المجفف للجميع ٠ وسأل لانى عن طفولته على شاطىء الريفييرا ، والطفلان يصغيان بعينين مفتوحتين لقصص صيد السمك بالشباك من السين ، واصطياد السيبيا وصغار القرش ، وقصة الطفل القطبى الصغير الذى رقص فابهج الناس فى « ارينة انتيب » منذ الفين من السنين ٠ أما طفولة ادى شكلجروبر فكانت شقية ، ولم يتحدث عنها ٠

وسرعان ما سأل اين التقى لانى بكيرت مايسنر ، فحدثه الزائر عن مدرسة « دلكروز » فى هيلليراو ، فاخذ المضيف ذلك الكلام دليلا على ثقافته الالمانية ، وأحجم لانى عن الاشارة الى ان جاك دلكروز كان سويسريا من ارومة فرنسية ، بيد ان المدرسة شيدت بمال هو هبة من راع المانى للفن ٠ وقال هتلر : « ان هذا النمط سيكون مصدر مجد ادارتنا الاشتراكية الوطنية ، اذ ستكون ثمة نهضة ضخمة فى العبقرية الفنية والموسيقية تذهل العالم » ٠ ولاحظ لانى انه فى حديثه كله كان يعتبر من المسلمات قرب تولى حزب العمال الالمان الاشتراكيين الوطنيين حكم المانيا ٠ فلم يقل قط « اذا » بل كان يقول : « عندما » ، وكانت هذه بلا شك من النقاط التى لن يقدم زائره على معارضته فيها ٠

وتحدثوا عن كيرت وموسيقاه الآرية الخالصة فى رأى الفوهرر ، الخالية من البهرج ، ومن التأثيرات الاجنبية الفاسدة ، فالمعيشة سنوات

طويلة جدا فى فرنسا لم تؤثر على الاطلاق فى المؤلف الموسيقى على مايبدو. وقال لانى ان كيرت كان فى عزلة تامة تقريبا ، وقلما كان يخرج الا اذا جره احد جرا . وتحدث عن حياته فى بيانفينى ، ووافقه الفوهرر على انها الحياة المثالية للفنان ثم اضاف قوله : « وهى الحياة التى كنت حريا ان اختارها ، ولكنى للاسف ولدت فى برج سماوى مختلف » . وكان لانى قد سمع انه يؤمن بالطوالع الفلكية ، وتمنى الا يخوض فى هذا الموضوع.

- ٨ -

وكانت خطة زعيم جميع النازيين ان يخرج هذا الاجنبى الشاب الانيق المفرط فى الثراء الى الدنيا وقد اعتنق افكار الاشتراكيين الوطنيين، وسعيا وراء هذه الغاية جشم نفسه عناء اللطف الشديد ، وكانت قدرته على ذلك غير ضئيلة . وقد سأل قبل ذلك عن وجهة نظر لانى لان كل شىء قاله كان موجها بصورة لبقة نحو هذه الغاية . ولانى اشتراكى ، وكذلك هتلر اشتراكى ، ولكنها الاشتراكية الوحيدة الصحيحة العملية . فمن فوضى الرأسمالية المتنافسة يجب ان يقوم نظام جديد ، نظام يبقى لانه سيقام على الفهم الصحيح وبتوجيه من رجال العلم . فهو ليس نظام اشتراكية ماركس المنحلة الشريرة التى تجحد اثمن ما فى البشر ، وليس الاشتراكية المسممة بأوهام الدولية العالمية ، وانما هو نظام اشتراكى قائم على الاعتراف بالخصائص السلالية الكبرى ، تلك الخصائص التى تستطيع وحدها ان تجعل هذه المهمة معقولة ممكنة .

وبأناة ورقة شرح الفوهرر له آراءه عن الجنس مبينا كيف انها ليست المانية بالمعنى الضيق . ان لانى ايضا « كارى » وكذلك الطبقات المثقفة فى امريكا . لان حضارتهم آرية حقيقية ، وكذلك البريطانيون. « ولا اريد شيئا فى الدنيا اكثر مما اريد التفاهم والسلام بين بلادى وبريطانيا . ولا أظن ان الدنيا عرفت مأساة فى العصور الحديثة تضارع الحرب التى نشبت بيننا . فلماذا لا يفهم كل منا الآخر ونمضى فى صداقة نحو انجاز مهمتنا المشتركة ؟ ان العالم كبير بما فيه الكفاية ، ومكتظ بالقبائل المنحطة السلالة والمختلطة ممن لا نجرؤ على السماح لهم بالحصول على السلطة لانهم عاجزون عن استخدامها استخداما ذكيا » .

ولبث هتلر برهة طويلة يتحدث عن هذه القبائل المنحطة المختلطة . وشعر انه فى امان وهو يحدث شابا امريكيا فرنسيا برأيه فى اليابانيين ، وكيف انهم نوع من القردة الصفراء بدون شعر . ثم انتقل للكلام عن

الروس وهم بطبيعتهم كسالى غير اكفاء متعطشون للدماء وقعوا فى ايدى جرذان المجارى والمنحلين . وتحدث عن الفرنسيين فالتزم جانب الحذر فيما قال ، فهو لا يريد عداء بين فرنسا والمانيا . وفى وسعهما ان يعقدا معاهدة للسلام تدوم الف سنة لو ان الفرنسيين تخلوا عن فكرتهم البلهاء فى تطويق المانيا وابقائها محاطة بالاعداء . » ان المحالفة البولندية والاتفاقية الصغرى هما اللتان تبقيان العداوة قائمة بين شعبينا ، فنحن لا ننوى ان نسمح لهؤلاء الناس بالاستمرار فى حكم المانيا ، وتصميمنا صلب كالفولاذ على تصحيح الاخطاء التى ارتكبت فى فرساى . ولا بد انك تعرف شيئا عن ذلك يا سيد بد لانك كنت فى شتوبندورف ولا بد انك رأيت بعينيك ما الذى يعنيه وقوع الالمان تحت حكم البولنديين » . فاجابه لانى : « لقد كنت احد الامريكيين الكثيرين فى مؤتمر الصلح الذين ترافعوا ضد هذا الخطأ » . وعندئذ ازدادت حرارة الفوهرر وهو يقول لزائره » . ان ذوى العقول الضحلة يسمون مسلكى هذا نزعة امبريالية . وهذا سوء استخدام للغة . فليس من الامبريالية ان تعترف بالحقيقة التاريخية الواضحة المجردة ، ان شعوبا معينة لديها القدرة على بناء صرح الثقافة فى حين تفتقر عن غيرها من الشعوب الى هذه القدرة تمام الافتقار . وليست امبريالية ان تقول ان شعبا قوى التكوين عظيم الروح مثل الشعب الالمانى ينبغى الا يحدق به ويحبس فى حظيرة على يد مزاحميه الطماعين الحسودين . وليس من الامبريالية ان تقول هذين الطفلين الصغيرين ينبغى الا يعانيا طوال حياتهما صنوف الحرمان التى شقيا بها حتى الآن » .

وكان المتحدث يمر بيده فوق رأس الصبى الصغير الاشقر القصير الشعر جدا واستطرد قائلا : « لقد ولد هذا الوغد الصغير فى عام العار الاكبر ، عام فرساى الشريرة المملاة علينا وفى وسعك ان ترى نحوله وضموره دون الحجم الطبيعى بسبب حصار التجويع . ولكنى اخبرته ان ابناءه سيكونون اقوياء البنية مثلما كان ابوه ، لانى اعتزم ان اخلص ارض الوطن من كل احتمال لانواع الحصار المختلفة ولن يزعجنى ان ينعتنى اعدائى بالامبريالى . وقد كتبت قولى هذا وهو » ان كل رجل يغدو امبرياليا عندما ينجب اطفالا ، لانه يلتزم امام نفسه بكل ما يتيح لطفلة اسباب الحياة » .

وكان فى وسع لانى ، وهو الاشتراكى الذى لا تخلو اشتراكيته من نزعة دولية عالمية ، ان يفكر فى اجابات كثيرة ، ولكن لم تساوره الرغبة فى افساد هذه المقابلة المسرفة فى وديتها . وما دام النمر ميالا للقرقرة ، فلانى سعيد بالاستمرار فى دراسة النمور . وكان حريا أن يتأثر بكلمات

لطيفة كثيرة قيلت له لولا انه كان قد قرأ « كفاحى » • فكيف يستطيع مؤلف هذا الكتاب ان يخيل الى نفسه انه لا ينطوى مثلا على عداء لفرنسا ؟ ام تراه غير رأيه بعد خمسة اعوام ؟ يبدو ان هذا غير صحيح ، لانه انشأ دارا للنشر تبيع انجيله لجميع المخلصين من اتبـاع حزب العمـال الالمان الاشتراكيين الوطنيين وبسعر اثنى عشر ماركا للنسخة الواحدة ، لا بد ان ثروة كبيرة قد تجمعت عند واحد ما من الناس •

- ٩ -

وقال لانى فى نفسه : « أرانى اقتطع الكثير من وقت رجل مشغول » ولكنه كان يعلم ان المرء حين يزور شخصية ملكية لا ينصرف الا حين يراد له ان ينصرف • ولعل الوضع هكذا ها هنا • وكان الطفلان قد صرفا من الحجرة لان وقت عشائهما حل ، ولكن الفوهرر واصل حديثه • وجلس هاينريش يونج مائلا الى الامام فى مظهر يدل على الانتباه المشدد ، فلم يكن امام لانى الا أن يحذو حذوه • واعاد الفوهرر سر الاساءات التى وجهت الى بلاده ، وكلما امعن فى الحديث ازدادت حماسا وتضخم صوته حتى انقلب خطيبا • وتذكر لانى انه كان قد قرأ فى موضع ما عن شكوى الملكة فيكتوريا من مقابلاتها لجلاد ستون : « انه يعاملنى كما لو كنت اجتماعا عاما » • ووجـد لانى ما يبعث على شىء من الضيق اذ يصيح فى اذنيـه شخص طول الوقت وهو على قيد ستة اقدام منه • وقال فى نفسه « يا الهى الرحيم ! ان فى وسـع هذا الرجل بكل هذه الطاقة ان يخاطب المانيـا كلها ! » ولكن يبدو ان ادولف هتلر كان لديه من الطاقة ما يكفى لكل المانيا ولزائر اجنبى ايضا • فله هو ان يقرر الى اى مدى يمضى فى كلامه ، وعلى الزائر ان يجلس ويحدق فيه وكأنه ارنب مسحور يحدق فى افعوان يفح •

وقد شهد لانى ذلك الأمر بعينه يحدث فى اجتماعات شتى • فكان الفوهرر يشتعل نارا من عباراته شخصيا ، ويندفع الى العمل بتأثير بلاغته الخاصة فالان لحظة قهر أعداء الوطن هؤلاء ، ومعاقبتهم على جرائمهم • فتتدحرج الرءوس فوق الرمال ! ونسى الخطيب كل شىء عن الرقة والتعقل اكراما لعضو فى أمتين من هذه الأمم المعادية • ولعله حسب لانى وقد سمع القصة كاملة عن فرساى والتعويضات وحصار التجويع وغزو الرور والمحالفة البولندية وما الى ذلك كله قد أصبح الآن حتما مؤمنا به تمام الايمان • فبعدا لذلك التظاهر بأن لفوهرر النازيين لا يبغض الفرنسيين

لبخلهم والبريطانيين لعجرفتهم والامريكيين المحدثين لدعاواهم ، والبلشفيين لوحشيتهم وتعطشهم للدماء ، واليهود لانهم زبانية الجحيم ٠ وقصارى القول انه انقلب ذلك الشخص المجنون بخبال الغضب الذى سمعه لانى وريك أول مرة فى حانة البيرة بميونيخ منذ سبعة أعوام ٠ فيومئذ قال لانى : « لابد من الاعتراف له بالاخلاص » فاجابه ريك : « وكذلك معظم المخبولين » ٠

ولا احد يدرى كم من الوقت كان حريا أن يستمر فى الكلام ٠ وفتحت مدبرة البيت الباب وقالت : « عفوا يا زعيمى ٠٠ الهرشتراسة » ومن خلفها تقدم بلا امهال رجل ضخم يرتدى زى فرق الهجوم ٠ وكانت ملامحه ضخمة أقرب الى الخشونة ، وله أنف مكور بعض الشيء ، وفم متجه الى أسفل على جانبيه خطوط عميقة ٠ وطبقا للعادة المتبعة التى الفها لانى كان ينبغى ان يقف القادم عند الباب ويضرب كعبيه ويؤدى التحية النازية قائلا : « هايل هتلر ! » ولكنه بدلا من ذلك كله تقدم وقال بلهجة غير مبالية « يالله يا أدولف » ومعنى هذا انه صديق قديم ، وانه أيضا من بافاريا ٠

واخذ الزائران بشدة من رد الفوهرر عليه الذى وجه بعنف كانه لطمة : « انك لم تسلك فى المدة الأخيرة سلوك صديق ، ولذا لم يكن استدعاؤك بصفتك صديقا ! » ونهض المتكلم على قدميه واستطرد مشيرا الى القادم بأصبع الاتهام : « تعلم للمرة الأخيرة اننى ضقت ذرعا بتمردك ! انك تعرض نفسك للخطر ! » فاجفل الرجل الضخم الى الوراء وفغرفاه ٠

فهل كان فوهرر النازيين حريا أن يهاجم مرءوسه بهذه الطريقة العنيفة الفجائية لولا انه كان قد استشاط بحرارة كلماته فى تلك المقابلة ؟ من المستحيل أن نقطع برأى فى ذلك، ولكن دهشة الهرشتراسر واستياءه كانا واضحين ٠ وقد فتح فمه كانما يريد أن يسأل ما الشأن ، ولكنه أغلقه مرة أخرى لانه لم يجد الفرصة لذلك فقد شرع هتلر فى حملة تنديد واندفع نحو الرجل لا ليلكمه بل ليدفع بأصبع الاتهام الى قيد بوصتين من أنفه الكبير وهو يصرخ : « ان مؤامراتك معلومة لنا ! ووقاحتك مستهجنة ! وتصريحاتك العلنية تحريضات على الخيانة ، فان لم تصلح من سلوكك ووسائلك فانك ستطرد ٠٠ اذهب وانضم الى الجبهة السوداء مع أخيك ، والى الشيوعيين المقنعين الآخرين والأوغاد ! أنا ٠٠ أنا أدولف هتلر ٠٠ زعيم حزب العمال الألمان الاشتراكيين الوطنيين وأنا الذى أقرر السياسات الخاصة به ٠٠ ولن أقبل معارضة ولا جدلا ٠٠ أريد الطاعة فحسب ٠٠ اننا فى معمعان حرب وأنا أطالب بالولاء والنظام ٠٠ النظام ! النظام !

النظام ! » والكلمة من الكلمات الألمانية الكثيرة التى تحتاج الى تفريغ الحلق ، فاجفل شتراسر المسكين أمام رذاذ من الجسيمات الصغيرة الرطبة. وقال بجهد فى حين كان الفوهرر يلتقط انفاسه :

« ولكن يا أدولف من الذى أبلغك هذه الأقاويل عنى ؟! » فأجابه : « ان من شانى أن أعرف ما يجرى داخل حركتى .. أخيل اليك انك تستطيع أن تعرب عن ازدرائك لسياستى من غير أن تبلغنى أنباء ذلك ؟ » فقال : « لابد أن شخصا كذب عليك يا أدولف .. فانا لم أقل سوى ما قلته لك : ان الوقت الحاضر مناسبة للعمل ، وان أعداءنا لا يريدون سوى الامهال ، كى يتمكنوا من اضعافنا بمؤامراتهم ودسائسهم .. » فقال هتلر : « انهم يطعنوننا بسبب الغطرسة واستقلال الارادة بين المسئولين فى حزبى . لان هؤلاء الأدعياء يجسرون على تنصيب أنفسهم مصدرا للسلطة ومفكرين . أنا الذى أفكر للاشتراكيين الوطنيين .. أنا .. وقد أمرتك ان تعقل لسانك .. فاخرس واطع أوامرى ونفذ سياستى لا افكارك الخاصة الغبية .. لقد حول أخوك نفسه الى مجرم خارج على القانون بسبب هذه الغطرسة نفسها ... » فقال الرجل : « دع أوتو بعيدا عن هذا الموضوع يا أدولف .. فانت تعلم اننى قطعت صلتى به فلا اراه ولا اتعامل معه » فصاح أدولف بلهجة المانية عامية تشوبها اللكنة البافارية انه سيسحق أمثاله كالحشرات ، واندفع قائلا : « لقد بقيت انت فى الحزب لتواصل تهيجات أوتو فى تعزيز السياسة المنبوذة وتاييدها .. أنا ربان هذه السفينة وليس من حق النوتية أن يخبرونى بما ينبغى أن اصنع ، بل عليهم أن يصنعوا ما آمرهم به . ومرة أخرى أقول لك انى أريد الوحدة فى مواجهة أعدائنا .. افهمنى .. انى آمرك بذلك ! انا أخاطبك باعتبارى زعيمك ! » .

وخيل الى لانى انه لم ير قط رجلا خرج عن طوره من شدة التوفز كهذا الرجل ، فقد غدا وجه هتلر قرمزيا وراح يتواثب وهو يتكلم ، ويؤكد كل كلمة بالضغط عليها وبهزة من أصبعه كأنه مطرقة . وحسب لانى أن الرجلين سيتشاجران حتما . ولكن خاب ظنه فسرعان ما رأى الرجل الآخر يميل للاذعان . ولعله رأى ذلك الشىء بعينه يحدث من قبل فتعلم كيف يسلك ازاءه ، فكف عن المجادلة وعن محاولة الاحتجاج ووقف فى موضعه ببساطة وترك زعيمه يهرف كى تستنفد العاصفة قوتها ، ان كان مقدرا لها أن تستنفدها .. ولكن أيمكن للمحيط ان يعود سيرته الأولى بعد اعصار كهذا الاعصار ؟

وكان لانى قد تعلم الكثير عن الشئون الداخلية لحزب النازى من احاديث كيرت وهاينريش • وفضلا عن هذا كان يشترى الصحف الألمانية خلال شهور الصيف ، وكانت حافلة بنزاع حزبى محتدم حول مسالة البرنامج القديم الذى أكب هتلر على الانتقاص منه حتى لم يعد باقيا منه الآن شيء تقريبا • ذلك أن كثيرين من النازيين هنا فى شمال المانيا ياخذون الجانب « الاشتراكى » من شعارهم ماخذ الجد ، ويصرون على التحدث عن تأميم المتاجر الكبرى ، ومصادرة الضياع الزراعية وانهاء عبودية الربا ، وتقديم الثروة العامة على الثروة الخاصة وما الى ذلك • وقد أدى ذلك الى حرب أهلية منظمة بين صفوف الحزب فى أوائل السنة • وحارب الشقيقان شتراسر ، وهما جريجور وأوتو ، فى سبيل البرنامج القديم وهزما • وأذعن جريجور ، أما أوتو فترك الحزب ونظم جماعة ثورية خاصة به كان الهتلريون يسمونها « الجبهة السوداء » ، وكانوا يحاربونها بالهراوات والمسدسات على نحو ما يحاربون الشيوعيين • ثم حدث قبل الانتخابات مباشرة محاولة أخرى للثورة الداخلية فاستولى المتمردون على مناصب صحيفة الحزب ببرلين « الهجوم » واحتفظوا بها بقوة السلاح وقاموا بنشر الصحيفة لمدة ثلاثة أيام ، وهى فضيحة هائلة لم يفت أعداء الحركة استغلالها •

هذا اذن جريجور شتراسر ، زعيم تنظيم الرايخ رقم واحد • وكان ملازما فى الحرب العالمية ثم صار صيدليا ، بيد انه تخلى عن عمله ليقاوم الحمر ، ثم ليساعد « ادى » فى الاعداد لثورة حانة البيرة ، ولعله أكفأ منظم فى الحزب وقد حضر الى برلين وانشأ بجهوده فرق الهجوم • ولما كان هتلر لا يثق به ويراه ممعنا فى يساريته ، فقد كون حرسا جديدا هو كتائب الحراسة أو كتائب الأمن ، وبذلك صار هناك جيشان داخل حزب النازى لسائر المانيا ، فلأيهما تكتب الغلبة ؟ •

وتساءل لانى : « هل فقد هتلر زمام اعصابه ، أم هذه مجرد سياسة ؟ أهذه هى وسيلة الألمان لفرض الطاعة ، وهى وسيلة جاويش التدريب ؟ يبدو انها طريقة ناجحة ، فها هو الرجل الضخم يخفت صوته الذى يشبه خوار الثور ، لقد وقف بوداعة وتقبل « العلقة » كأى تلميذ أمروه بانزال بنطلونه كى يجلد • وتساءل لانى أيضا : لماذا سمح الفوهرر لأجنبى أن يشهد مظاهرة من هذا القبيل ؟ هل خالها تؤثر فى نفس أمريكى ؟ أتراه يحب السلطة كل هذا الحب حتى انه يسر باستعراضها

بمحضر من الغرباء ؟ أم هو يشعر بمنتهى الرسوخ فى سيطرته بحيث لا يكترث لما يمكن أن يظنه به الناس ؟ لقد بدا هذا الفرض الأخير متفقا مع طبعه الذى سوغ له حشد برنامجه المتحدى برمته فى كتاب يبيعه لكل انسان فى الدنيا لديه اثنا عشر ماركا ٠

واصغى لانى مرة أخرى لقصة « كفاحى » باكملها ، وادرك ان ادولف هتلر ينوى أن يغلب العالم بالحيلة، ولكن فى الوقت الذى يختاره وبطريقته الخاصـــة ٠ انه ينوى الغـاء برنامجه للأرض الزراعيـة ليرضى الأشراف الاقطاعيين (اليونكر) ، وكذلك برنامجه للصناعة ليرضى ملوك الصلب وبذلك يحصل على أموال منهم لشراء أسلحة لفرق هجومه وفرق أمنه ٠ كان فى نيته أن يعد كل انسان بكل شىء وبذلك يحصل على أصـــواتهم جميعا ، فيما عدا البلاشفة البغضاء واليهود الملاعين ٠ انه عازم على احراز السلطة وتولى الحكم ، ولن يقف فى طريقه الى هدفه أحد ، وان حاول أى غبى شيئا من ذلك سحقه كالقملة ، وصارحه بذلك ٠

ولما غامر شتراسر بالتنبيه الى ان دكتور جوبلز ، داعيه الفوهرر المفضل ، كان قد صرح بانه بدأ يكون « عقدة الوسائل المشروعة » أجاب الفوهرر بانه سيتولى أمر « جوبشن » (تدليل جوبلز) فى الوقت الذى يتراءى له ذلك ، أما الآن فهو بصدد محاسبة جريجور شتراسر والتنبيه عليه الا يتفوه بكلمة نقد واحدة بعد الآن لسياسة زعيمه وأن يوجه كل طاقاته لسحق الحمر وتعليم منظمته النظام الذى تفتقر اليه بصورة مخجلة٠ ان أدولف هتلر سيقوم بمناوراته الخاصة مع الساسة يضرب فريقا منهم بالآخر ، مسترقا الخطى قدما باستمرار صوب مركز المستشار الذى يصبو اليه وفى الوقت المناسب سيوقع بهم جميعـا ، وعندئذ سـوف يخجل أصدقاؤه من عماهم ووقاحتهم حين تشككوا فى قائدهم الملهم ٠

وهكذا شهد لانى تطبيقا عمليا لمفهوم السيطرة على الرجال ٠ ولعل هذا ما رمى اليه الفوهرر لانه بعد أن تلقى خضوع قائد تنظيم الرايخ رقم واحد وصرفه التفت الى ضيفه مرة أخرى قائلا : « ها أنت يا مستر بد قد رأيت ما يقتضيه دفع الرجال الى العمل فى سبيل قضية ٠ أفلا تحب

ان تعاوننى فى ذلك ؟ » فقال لانى : « أخشى الا تكون لدى أدنى كفاءة لهذه المهمة » ان كانت فى لهجته شائبة من جفاف فقد فاتت الفوهرر ، لانه ابتسم بمودة ، وبدا عليه الرضا الشديد عن العمل الذى أنجزه عصر هذا اليوم ٠

وبعد ذلك بمدة طويلة عرف لانى من كيرت مايسنر ماذا كان رأى الفوهرر فى هذه المقابلة ٠ فقد قال ان مستر بد الشاب نموذج كامل للطبقات الممتازة فى أمريكا : انه حسن المنظر ، لين الجانب ، تافه تمام التفاهة ٠ لذلك فهو من البساطة بمكان عظيم أن تدفع مثل تلك الأمة الى الانقسام فتاتا ، ثم تتولى الحركة الاشتراكية الوطنية أمرها ٠

الفصل الثامن

البذل والاقتسام

- ١ -

في شهر ديسمبر أتمت ايرما وراحيل المهمة الهائلة التي نهضتا بها ، ونفذتا الميثاق الذي قطعتاه أمام نفسيهما وامام اسرتيهما ، وصارتا الآن حرتين جسديا ومعنويا ٠ وكانت حالة الطفلين الممتلئين صحة دليلا واضحا على صواب رأى روسو ولاني ، وشيئا فشيئا تعود الرضيعان النهمان أن يتناولا لبن أبقار حقيقية بدلا من لبن بقرتين مزيفتين ، وتكون لديهما ميل الى عصير الفاكهة ولب ثمار البرقوق بعد نزع الجلد عنها بعناية ٠ واخيرا صار في وسع الأمين الشابتين ان تتوجها الى حفلات البريدج من غير أن تضطرا الى مغادرتها في منتصف اللعبة ٠

وكانت مارسلين قد عادت مع مربيتها الى جوان عقب انتهاء رحلة اليخت ، ووعدتها أمها أن تلحق بها لقضاء عيد الميلاد ، فودعت بيوتي آل روبن وركبت القطار هي وزوجها واخذا معهما الطفلة والآنسة سيفيرن والخادمة المربية والسيدة ٠ وتجددت دعوة الجنرال جراف ستوبندورف للاني وايرما ، وقد كتب كيرت يقول أنهما يجب ان يلبياها بأية وسيلة لا لأن اقامة ايرما في القلعة ستكون امتع لها ، بل لأنه من المفيد لآل مايسنر أن يعود صديق قديم لهم ليحل ضيفا على مقامه الرفيع ٠ وقد لاحظ لاني ذلك باهتمام وشرحه لزوجته ، فما يعتبر تظاهرا كاذبا في امريكا يعتبر في سيليسيا ولاء ٠ فجيوش نابليون لم تصل قط الى هذه الارض ولذا ظل النظام الاقطاعي سائدا وظلت المكانة الاجتماعية حقيقة واقعة ٠

ولما كانت شتوبندورف في بولندا ، تعين وقوف القطار وتم فحص جوازات السفر والامتعة ، وكانت القرية نفسها المانية ، ولم يكن فيها من البولنديين سوى أفقر المزارعين ، مما خلق حالة توتر شديد ، وما من الماني رأى الموقف أكثر من هدنة مؤقتة ٠ ولم يكن لاني يدري ما رأى

البولنديين لأنه لم يستطع التحدث اليهم • وكان قد اطلع زوجته فى برلين على صحيفة فكاهية بها صورة هزلية تصور بولندا خنزيرا سمينا هائلا وقد ركب فوق ظهره ضابط بالجيش الفرنسى راح يلوى ذيل الخنزير ليحمله على الجرى وهو يلوح بسيف فى يده الأخرى ليبين السبب فى عجلته • وليست هذه بالضبط روح عيد الميلاد •

وقامت ايرما بارنز باكتشاف النظام الاقطاعى فوجدته ليس شديد الاختلاف عنه فى الساحل الجنوبى من لونج آيلند • وقد استقبلتها فى المحطة سيارة ليموزين ، وهو ماكان يحدث أيضا فى موطنها • ولم تشعر برهبة امام القلعة ذات الطوابق الخمسة ، لأنها كانت مقيمة فى قلعة أكثر منها ارتفاعا وأعرض منها مرتين • والسيدة التى رحبت بهـا لم تكن بالتأكيد أطول ولا أعرض من السيدة فانى بارنز ، ولا يمكن أن تكون اشد منها اعتدادا بنسبها • وأول الفوارق الاساسية أن ابناء هذه الاسرة البروسية وبناتها يعملون ويكدحون أشد مما يكدح اى شباب عرفتهم ايرما حتى الآن • والفرق الثانى وجود ازياء رسمية ومراسم تنطق بالمكانة والمنزلة • وأولت ايرما اهتماما شديدا لهذه الناحية حتى لقد تساءل زوجها هل تعتزم ادخال هذه المظاهر الى الدنيا الجديدة •

وكان لانى عندما زار بيت أبيه فى كنكتيكت قد اكتشف أن زواجه من وارثة عظيمة قد رفع من مكانته الاجتماعية ، وها هو يلاحظ الآن تلك الظاهرة بعينها تتكرر هنا • فاناس كانوا لا يلتفتون اليه التفاتا خاصا على مر السنين انقلبوا فجأة الى قوم يدركون جوانب اخاذة فى شخصيته• بل ان اسرة مايسنر نفسها ، وهم الذين عرفهم وأحبهم منذ كان فتى صغيرا له وكانهم يتهيبونه • وفى حين كان فيما مضى يشارك كيرت فراشا فى حجرته الصغيرة ، صار الآن نزيل جناح باذخ فى القلعة والاتباع والمستأجرون جميعا يخلعون له قبعاتهم ، ولم يعد يسمع الآراء فى السياسة والادارة مروية على لسان الهرمايسنر بل صار يتلقاها من فم صاحبها مباشرة • ومن سوء الطالع أن هذه الآراء لم تعد تؤثر فى نفسه كما كانت الحال فى الأعوام السالفة • فالجنرال الجراف اقطاعى نبيل نموذجى ، وعضو عامل فى الحزب القومى • وخططه السياسية محدودة بمصالح طبقته ، فلم يسمح لنفسه أن تتأثر بالحقيقة الواقعة وهى وجود ضيعته حاليا فى بولندا ، فهذه مسألة مؤقتة سرعان ما تتغير • وهو يؤيد فرض رسوم جمركية على المواد الغذائية لكى يؤدى الشعب الألمانى الثمن الأعلى لملاك الأراضى • وهو راغب فى استخراج الفحم من مناجمه التى

باراضيه ، ولكنه لا يريد أن يؤدى لعمال المناجم اجرا يكفى لشراء الطعام الذى ينتجه لهم • وهو يريد الصلب والكيماويات ومنتجات الصناعة الأخرى التى تحتاج الى حشود من العمال ، ولكنه يلومهم لأنهم يحاولون أن يكون لهم رأى فى أحوال معيشتهم ، أو فى حقهم فى الحياة اطلاقا •

- ٢ -

ولحسن الحظ لم يكن من الضرورى انفاق الكثير من الوقت فى مناقشة الأمور السياسية ، فقد كانت ثمة مجموعات كثيرة من النـاس تفضل الموسيقى والرقص والمآدب ، فان منتجات الريف ان لم يتسن بيعها بربح فمن الممكن أكلها فى موطنها ، ولذا راح كل امرىء يبذل خير ما فى وسعه ، وكان مبلغ نجاحهم فى ذلك مذهلا ، فالآراء العصرية عن التغذية الصحية شأنها شأن نابليون لم تنفذ الى النظـام الاقطاعى فى سيلسيا العليا ، فالنظام الغذائى هناك هو بعينه الذى أذهل لانى وهو غـلام : افطار مبدئى بكعك على طريقة درسـدن ، وهو نوع من الفطير بداخله الزبيب وعلى ظاهره السـكر ، ثم فى منتصف الحادية عشرة « افطار بالشوكة » ، حيث تؤكل انواع مختلفة من اللحوم ، من غير ان يكون لذلك أدنى تدخل فى شهية اى شخص على مائدة الغذاء • وشاى ما بعد الظهر عبارة عن احتساء القهوة فحسب ، ثم بعد ذلك عشاء مكون من ثمانية ألوان وعشرة يقدمه خدم مطهمون فى كسوات من الساتان • واخيرا ، بعد لعب الورق او الموسيقى والرقص لم يكن من المتصور عقلا أن يأوى أحد الى الفراش بمعدة خاوية • وهذا معناه ان الوجبات ثمـان كل يوم ، تنتج شبانا أصحاء أقوياء ، ولكنهم متى وصلوا الى منتصف العمر صارت لهم أعناق كالثيران وخدود كطائر الماء وعيون يكاد يغلقها ما فى أجفانها من شحم •

ووقع لانى على اكتشاف سريع جدا ، ان هذه هى الحياة التى خلقت لها زوجته ، فلا أحد يصيح وهو يكلمها ، ولا أحد يشوش عقلها بافـكار غريبة ، وكل انسان يعاملها باعتبارها شخصية راقية ،وكل انسان يجدها فاتنة ، بل متوقدة الذكاء • انه عالم يعتد فيه بالرصانة والاتزان ، عالم لا لزوم لتغييره ! وقد غدت الجرافين (زوجة الدوق صاحب المنطقة ومالكها) أما ثانية لها ، ودعيت لزيارة أسر راقية كثيرة جدا ، بحيث كان من الممكن ان تقضى مدة الشـتاء بطوله من غير أن تنفق شيئا من ماليتهـا • وبدا

لها أنه من سمات النظام الاقطاعي أن يشعر معظم أفراده الحاكمين بالسأم في ضياعهم ، فيتلهفون على الضيوف ، بشرط أن يكونوا من ذوى المكانة. وجميعهم من أصحاب مخازن الطعام المكتظة ، ولديهم جيوش من الخدم المدربين على وضع الوجبات على الموائد . فتعال واستمتع بنصيبك !

- ٣ -

كانت رغبة لانى الحقيقية ا نيقضى الوقت مع خدين صباه وكان كيرت يعيش الآن مع أسرته الخاصة فى كوخ حجرى على مشارف قرية شتوبندورف التى يملكها كلها مقامه الرفيع . وقابل لانى للمرة الأولى زوجة كيرت الشابة اللطيفة المخلصة ، والثلاثة الآريين الصغار الشقر الذين تم انتاجهم وفق تعليمات شكلجروبر . وتوجهت معه ايرما لتأدية هذه الزيارة الأولى على سبيل المجاملة ، وبدافع من الفضول أيضا ، لأنها كانت قد سمعت كيف كان هذا المؤلف الموسيقى المبدع عشيقا لبيوتى بد مدى ثمانى سنوات تقريبا ، ثم انها كانت قد سمعت أيضا مافيه الكفاية عن مغامرات كيرت فى باريس أثناء انعقاد مؤتمر الصلح ، بما يجعل منه شخصية رومانتيكية..

ولم يكن كيرت قد تغير كثيرا فى السنوات الأربع منذ آخر مرة رآه فيها لانى . لقد جعلته الحرب يشيخ قبل الأوان ، بيد أن مظهره بعد ذلك ظل كما هو رجل جاد اميل للصمت يؤثر أن يتحدث الى العالم من خلال فنه . وكان يؤله المؤلفين الموسيقيين الالمان الكلاسيكيين ، ولا سيما « الباءات الثلاث » (الثلاثة الذين تبدأ أسماؤهم بحرف الباء) ، باخ وبتهوفن وبرامز ، فكل منهم كتب معزوفات قليلة للبيانو تؤديها اربع أيد ، وعلى مر السنين أعدت أعمال لهم أخرى فى هذا القالب الفنى ، بحيث صار عدد المتاح من هذا النوع الآن نحو مائة معزوفة . وقد طلب لانى مجموعة كاملة منها من أحد التجار فى برلين ، فليس من الميسور فى كثير من الاحيان أن يقدم المرء لصديق هدية عيد ميلاد تدخل عليه مثل هذا السرور ! وود الرجلان أن يجلسا عاكفين عليها باستمرار فلا ينهضان حتى لتناول وجبات الطعام . وعجزت ايرما عن تصور كيف تستطيع اصابع بشرية أن تثبت لما يقتضيه كل هذا الدق من التوتر ، أو كيف تستطيع الأذن البشرية أن تستوعب كل هذه النغمات . واضطرت أن تذكرهما بموعد فى القلعة فاذا كيرت يثب واقفا على الفور ، لأن مقامه الرفيع لا ينبغى أن يظل فى انتظار أحد ولو كان باخ وبيتهوفن وبرامز

وفى مقابل معاشه ومسكنه كان من واجب كيرت ان يعزف لراعيه وان يجمع فرقة موسيقية صغيرة ويدربها ويقودها للعزف فى المناسبات الخاصة ، مثل هذه الزيارة فى عيد الميلاد • وكان يقوم بذلك كله فى امانة مدققة على نحو ما كان هايدن يصنع للأمير استرازى فى فينا • ولم يكن ذلك العمل شاقا لأن مقامه الرفيع لم يكن يحضر فى السنوات الأخيرة الا نادرا ، فيلقى على اتباعه المقيمين تحت حكم البولنديين خطبة رسمية حافلة بكثير من المرح المناسب لعيد الميلاد ، ولكنها حافلة أيضا بالايمان الهادىء الذى لا يتزعزع بأن الله سوف يعيدهم بطريقـــة ما الى احضان الوطن • والاخلاص والشرف الالمانيان يكتســـبان معنى خاصـــا عندما يستخدمها من يعيشون فى المنفى •

وكان هذا ما تعنيه الحركة الاشتراكية الوطنية لدى كيرت مايسنر • وقد أصغى هو وزوجته الشابه بانتباه متلهف حينمـــا حدثهما لانى عن مقابلته لادولف هتلر • وبعد ئذ طلب الهر مايسنر سرد القصة على مسامع اسرته ، وبعدها ايضا طلب رب القلعة أن يسمعها اصدقاؤه • وســـالوا الزائر اسئلة دقيقة عن برنامج (آدى) الحالى بالضبط ، وبطبيعة الحال كان لانى يعرف ما فى أذهانهم هل اسقط فوهرر النازيين حقا ذلك القسم الجنوبى الاشتراكى الذى افتتح به حياته السياسية ؟ هل يمكن الاعتماد عليه حصنا حصينا ضد البلشفية ، وهى مصدر ذعر حقيقى لاهالى حدود المانيا الشرقية ؟ هل يدع ملاك الأراضى لشأنهم ويتجه بكليته الى اعادة تسليح البلاد وارغام الحلفاء على السماح بعودة شـــتوبندورف والأقاليم الأخرى المفقودة ، والممر ، والمستعمرات ؟ ان الالمان المنفيين ان استطاعوا اليقين بهذه الأمور ، ربما ايدوه ، أو على الأقل لم يعارضوه معارضـــة قوية •

- ٤ -

وكان كيرت قد وضع سمفونية سماها « ارض الآباء » ، وقام مع زوجته التى تعبده بنسخ اجزائها لفرقة موسيقية من عشرين آلة ، واستقدم كيرت عازفين من المدن القريبة على نفقة « الجراف » طبعا • ودربهم تدريبا دقيقا ، وقام بعزف عمله الجديد أمام مجموعة راقية ليلة عيد الميلاد ، وكانت هذه ذروة زيارة لانى ، بل وذروة الفترة كلها التى قضاها فى المانيا • وكان فى صباه قد اتخذ كيرت نموذجا لكل ما هو نبيل وملهم ، وتنبأ له بمستقبل مشرق ، وأحس أنه كان على حق عندما رأى جميع ذوى

الانساب والأحساب النبيلة من سيدات وسادة اقليم كيرت نفسه يجشمون لتكريمه ٠

وفي المدة التي اقامها في بيانفيني كان عمل هذا المؤلف الموسيقى حافلا بالمرارة والثورة ، أما منذ عاد الى موطنه فقد استطاع أن يجد فيما يبدو الشجاعة والأمل فلم يعد يكتب موسيقى للبرامج ولم يساله لانى عن المعنى المفروض أن عمله الجديد يعبر عنه ٠ والواقع انه فضل الا يخبره بهذا المعنى لأن الطابع العسكرى لجانب كبير من هذا العمل الموسيقى دله على أنه وضعه للنازيين ، فهو يصور قدوم مخلص ، ويصور الشعب الألمانى وقد نهض وزحف الى مصيره العالمى ٠ وعند الذورة لم يستطع الشعب أن يحافظ على خطورة السير فاندفع يرقص ، وحشود كبيرة منهم تهلل للمستقبل ، وهم جماعات لانهاية لها من الرجال والعـــذارى ، من ذلك الطراز البطولى الذى كان هاينريش يونج وهوجوبير يقومان بتدريبه ٠

لم تكن الموسيقى تقول هذا صراحة ، فكل مستمع حر في تصور مغزى خاص به ، وآثر لانى أن ينضم الشبان والعذارى من جميع البلدان الى هذا الموكب الراقص الجبار ٠ وتذكر كيف كان شعورهما فى هيليرا وفى تلك الأيام السعيدة قبل أن تسمم الحرب عقول الناس ٠ ففي ذلك الحين لم تكن العالمية سبة ، وكان من الممكن أن تصغى لسيمفونية شوبيرت من مقام « س » الكبير ، وتتصور موكب نصر يشترك فيه الروس وشـــبان وعذارى وآسيا ، بل افريقية أيضا ٠

وأثر فى نفس ايرما تأثيرا كبيرا ذلك الترحيب الذى قوبلت به الموسيقى ، وقررت أن كيرت لابد أن يكون رجلا عظيما ، وأن بيوتى ينبغى أن تفخر بأنه كان لها مثل هذا العشيق وانها انقذته من فرقة الاعدام الفرنسية ٠ وقررت أيضا أن اقتناء فرقة موسيقية خاصـــــة من سمات الرقي ، وسألت زوجها الا يكون بديعا أن تصير لهمـــــا فرقة كهذه فى بيانفيني فلابد لهما من البحث عن عبقرى شاب يشجعانه ويناصرانه ٠

وأدرك لانى أن زوجته تنقب فى ذهنها عن نوع من الاتجاه فى الحياة تنفق فيه اموالها بحيث تكسب رضاه ورضا أصدقائه ، وكانت قد فاتحته على استحياء فى فكرة اتخاذها صالونا أدبيا وفنيا ، على غرار « اميلى » ٠ وألفى نفسه مضطرا الى مصارحتها بأن ذلك عسير المنال ، لأنه من الخير الا يكون لها صالون اطلاقا عن ان يكون لها صالون من الدرجة الثانية ، وأن الشخصيات البارزة التى تتردد على هذه الاجتماعات تتوقع من المضيفة لا أن تكون قد طالعت كتبها فحسب ، بل ان تكون قد فهمتها أيضا ٠

فلا يكفى أن يعجب المرء بهم اعجاباً مسرفاً ، لأنهم فى الواقـع ينظرون اليك بازدراء ، ان لم تجد شيئا من النقص فى أعمالهم .

والآن كان على لانى ان يصارحها بأن عبقرى الموسيقى قد يكون شخصا شاذ الطباع ، وأنه ادعى للأمان فى كثير من الأحيان أن يعرف المرء هؤلاء العباقرة من خلال أعمالهم . وليس فى وسع الانسان ان يعلن عن طلب عبقرى كما يعلن عن طلب كبير سقاة أو كبير طهاة . وما العمل اذا سكر العبقرى أو انشأ علاقة غرامية مع الخادمة ؟ وقال لانى أن فنانا نذر نفسه لفنه مثل كيرت مايسـنر من العسير العثور عليه . فقالت ايرما : « أعتقد أنهم لا يوجدون الا فى المانيا ، حيث يعمل كل انسان بجد شديد » .

- ٥ -

وكان من بين الضيوف الذين التقيا بهم فى القلعة خال للمضيف هو جراف اولدنبرج أو « دوق » من فينا واخبر آل مايسـنر لانى أن هـذا الأصلع العجوز الشبيه بسيلينوس فى ورطة مالية ، وهو امر لا مناص منه ما دام الساسة فى باريس قد قرروا ذلك بخططهم ، ففتتوا امبراطورية النمسا والمجر قطعا صغيرة وتركوا مدينة تعداد سكانها نحو مليونين من الأنفس وليس حولها من الأراضى التى تمدها وتساندها الا أقل القليل . والجراف سيد مهذب من المدرسة القديمة تعلم كيف يرقص على أنغام فالسات شتراوس الأكبر ، ولم يزل يسمع صداها فى مخيلته . ودعا ايرما ولانى لزيارته ، وأشار بلباقة الى أن لديه عددا من اللوحات البديعة . ولما كان قصره فى طريق عودتهما فقد قال لانى : « هيا بنا نتوقف هنا ونلقى نظرة » .

وكان قصره ضخما مشيدا من الرخـام فى الطريق الدائرى وتم استقبال الزائرين الأمريكيين بأسلوب فخم ، مع ان عدد الخدم كان قد خفض بسبب ذلك القانون الفظيع الذى كان قد صدر أخيرا من ادارة المدينة بفرض ضريبة تصاعدية على عدد خدمك ، والضريبة عن الخدم الرجـال ضعفها عن الاناث ! بيد أن الحكومة الاشتراكية كا نلا بد لها من وسيلة

نصف اله ، وهو الذى ربى باخوس ربالخمر عند الاغريق ويصورونه دائما بدينا مسنا راكبا حمارا ، ثملا وعلى رأسه اكليل منالازهار .

(المترجم)

تسير بها الأمور ، وها هى ذى مدينة ذات قوة صناعية كبيرة ، وليس لديها موضع تصدر اليه بضائعها ، فجميع الدول الصغيرة المحيطة بها وضعت الحواجز الجمركية العالية ، ولم تسفر جميع الجهود لانشاء اتحاد جمركى عام عن شىء • وعقد اتفاقية من هذا القبيل مع المانيا أمر بديهى للغاية ، ولكن كل انسان يعلم ان فرنسا قمينة أن تعتبر ذلك عملا حربيا •

وانه لموقف مثالى من وجهة نظر خبير شاب فى الفن لديه فى البنك دولارات امريكية ! ولما كان مضيفه الأرستقراطى المسن يعانى من مطاردات دائنية له ، فقد استجاب على الفور عندما دعاه لانى لتحديد ثمن للوحة صغيرة الحجم من ريشة « بان فان آيك » تمثل ملكة السموات فى تلك الأثواب الفخمة غاية الفخامة التى لعلها الآن تريديها فعلا ، ولكنها يقينا لم ترها قط مدة بقائها على الأرض •

وكان من بين معارف ايرما فى لونج آيلند وارثه تملك صناعة كبيرة لتعليب الاطعمة.ولما كان لابد لهم أن ياكلوا حتى حينما لايكون مايعملونه سوى الأكل ، فقد استمرت حصص « برندا سبرات » تغل ايرادا ، وكانت اظهرت الافتتان بأوصاف لانى للوحات الأساتذة الأقدمين فى أوربا واشتغاله بتجارتها ، فارسل اليها برقية يخبرها ان بوسعها الحصول الآن على كنز فريد بين كنوز الفن فى مقابل اربعمائة وثمانين ألف علبة من المكرونة الاسباجيتى بصلصة الطماطم بسعر الجملة وهو ثلاثة دولارات للصندوق الذى يضم ثمانى وأربعين علبة منها • ولم يكتب لانى هذا الكلام كله فى برقية واحدة طبعا ، وانما هى طريقته فى اغاظة ايرما بخصوص طبقة الأغنياء الحاكمة فى لونج آيلند • وفى اليوم التالى تلقى ردا يخبره باسم البنك الذى يستطيع أن يحصل منه على المبلغ • وهو انتصار حقيقى لروح الانسان على جسده ، وللجانب الخالد منه على الجانب الفانى ، ثم أنه بطريقة عرضية سيزود لانى بد بمصروفه الشخصى مدة الشتاء ، وسأل زوجته هل استطاع أبوها أن يحقق نجاحا ماديا من عمل يوم واحد وهو فى سن الحادية والثلاثين يضارع هذا النجاح •

وسارع الأعيان المرهقون بالضرائب فى فينا لمقابلة الوارثة الامريكية واخبار زوجها الألمعى الشاب بما لديهم من لوحات الأساتذة الأقدمين • وكان فى استطاعة ايرما أن ترقص حتى الفجر كل ليلة ، وفى استطاعة لانى أن يجنى ثروة محترمة من نقل الثقافة الى أرض آبائه ، لولا أنه كان يفضل مقابلة الكتاب الاشتراكيين وزعماء الحزب وسماع أقاصيصهم عن

العذاب والكفاح فى هذه المدينة التى تشـــبه راسا بلا جسد • وكان العمال من غلاة الاشتراكيين ، في حين كان المزارعون فى المناطق الريفية من الكاثوليك والرجعيين • ويضاف الى هذا ان الهتلريين كانوا قائمـــين بحملة هائلة لتفهيم صغار الناس فى الريف والمدن ان متاعبهم كلهـــا سببها اليهود المستغلون •

وكانت الحكومة المحلية ماضية ــ رغم الحالة التى تقارب الافلاس ــ فى تنفيذ برنامج للاسكان وما الى ذلك من الخدمات العامة بشجاعة • وكان هذا ما يحلم به لانى ، مع تأميم الصناعة بوسائل سلمية منظمة ، وجاشت عواطفه وتمنى أن يقضى وقته متنقلا ينظر الى مجموعات مساكن العمـــال متحدثا الى سكانها ، وهم أناس ظرفاء ، ودودون مهـــذبون ، ياوون الى فراشهم مبكرين ليوفروا الاضاءة والتدفئة ، ويعملون بجد واجتهاد لانجاح الديموقراطية • ان مكاسبهم ضئيلة بصورة رمزية ، ولما سمع لانى بنسبة وفيات الاطفال ، وسوء تغذيتهم وارتفاع أسعار اللبن على يد المستغلين تكدرت لذته واستمتاعه بالمآدب المهياة في القصـــور التى تحمـــل أسماء تاريخية • وقالت ايرما : « أنك لا تتيح لنفسك شيئا من المتعة ، فمن الخير اذن أن نعود الى بيتنا » •

- ٦ -

ولم يتحسن الحال كثيرا في بيانفيني ، وسرعان مـــا ادركت ذلك الزوجة الشابة • فقد أصبح العالم مترابط الأجزاء بروابط غير منظورة الا أنها قوية بحيث اذا انخفض ثمن الغلال والخنازير فى نبراسكا انخفض ثمن الأزهار في كاب دنتيب • وشرح لانى هذه الظاهرة بأن الرجال الذين يشتغلون بتجارة القمح والخنازير فى شيكاغو ما عادوا يعطون زوجاتهم النقود لشراء الأزهار المستوردة وبذلك أفلست الصناعة الرئيسية فى كاب دنتيب • وأصبح ليز الذى يشرف على الأمور فى ضيعة بيانفينى محاطا ببنات الأخ وأبناء الأخت وأبناء العم وبنات الخالة يتوســـلون اليه كى يلحقهـــم بخدمة آل بد • وكان في البيت منهم حشد عظيم من قبل ضعف العدد الذى يمكن ان يستخدم لأداء هذا المهام عينها فى لوج آيلند • الاأنهم في وسط فرنسا تعلموا كيف يقسمون العمل ، وما من أحد مات اطلاقا من فرط الاجهاد • وهكذا أضيف الآن عدد آخر منهم • وهى مشكلة دقيقة لان المال مال ايرما والمفروض أن يكون لها في ذلك راى • وتكلمت ايرما فقالت ان الخدم ينبغى الا يسمح لهم بازعاج مخدوميهم بقصص الحظ العاثر

الذى انتاب ذوى قرباهم ، مما يدل على أن ايرما لم تزل بحاجة الى تعلم الشيء الكثير عن الحياة فى فرنسا ! .

ولم يأت السائحون ، فاصيب « الموسم » بالكساد ، حتى لقد توقف ببطء قبل ان يبدأ بحق بدايته وذعر أصحاب الفنادق ، وهدد الخراب تجار السلع الكمالية الفاخرة ، وبطبيعة الحال وقع عبء هذا كله على الفقراء . وعرف لانى ذلك لأنه كان مستمرا فى المساعدة فى تعليم العمال فى مدرسة الأحد الاشتراكية حيث سمع قصصا افسدت شهيته واستمتاعه بالموسيقى وازعجت زوجته لأنها كانت تعلم ما يدور بخاطره ، الا وهو أنها ينبغى الا تنفق المال على الثياب والحفلات فى حين يعجز اطفال كثيرون عن الحصول على كفايتهم من الطعام .

ولكن ماذا عساك تصنع ؟ ان عليك ان تدفع أجور خدمك ، أو على الأقل أن تطعمهم . ومما يفسد روحهم الا تتيح لهم عملا يؤدونه . وفضلا عن هذا كيف يسعك أن تمنع أثمان الأغذية من الانخفاض الا بشراء جانب منها ؟ لقد ثبت والد ايرما واعمامها فى ذهنها أن الوسيلة لاشاعة الرخاء هى الانفاق . ولكن لانى فيما يبدو يعتقد أنك ينبغى أن تشترى الأغذية الرخيصة وتقدمها للفقراء . أفلا يفسد ذلك معنويات الفقراء ويحولهم الى طفيليات ؟ ان ايرما تعتقد أنها رأت ذلك يحدث « لحفنة من الرفاق » على شاطىء الريفيرا ، كانوا يعيشون بصورة عملية على مساعدات « بد » المالية ونادرا ما قالوا « شكرا » . ثم ماذا يؤول اليه أمر من ينتجون الأطعمة الغالية الثمن ؟ هل عليهم ان يأكلوها بأنفسهم ؟ .

ان الحياة اخذ وعطاء . ففى مساء الأحد يهبط لانى الى مدينة « كان » القديمة ويشرح الاهدار الناتج عن النظام التنافسى لجماعة من ثلاثين او أربعين بروليتاريا ما بين فرنسيين وأبناء البروفانس وأبناء ليجوريا (مقاطعة بشمال ايطاليا على الحدود الفرنسية وتطل على البحر الأبيض) وأبناء كورسيكا وقطالونيا . بل وفيهم عامل جزائرى . وفى مساء الاثنين يأخذ زوجته وامه الى ضيعة البلوطات السبع حيث يعزف مصاحبا مغنية من أوبرا باريس فى احدى سهرات اميلى . وفى يوم الثلاثاء يقضى النهار فى المساعدة لاعداد الترتيبات لعشاء راقص فى بيانفينى تعزف فيه فرقة من الملونين موسيقى الجاز ، وتنتشر فيه فوانيس البندقية وبها مصابيح كهربائية على امتداد المروج بالحديقة ويأتى أرقى الناس وأرفعهم القابا لتقديم احترامهم لابنة . ج . باراماونت بارمز . أجل لم تزل ثمة نفر من الناس لديهم المال ولا يمكن أن يقصروا فى واجباتهم الاقتصادية ! وهم

أناس رأوا العاصفة تقترب فوضعوا ثروتهم فى سندات ٠ أناس يملكون صناعات استراتيجية مثل انتاج الاسباجيتي المعلبة لاستهلاك ملايين الناس ممن يعيشون فى أجنحة صغيرة جدا بالمدن ولم يتعلموا قط كيف يصنعون صلصة الطماطم ! ٠

- ٧ -

وحضر روبى بد زائرا ذلك الشتاء ، وكان مشغولا بصفقة من نوع غريب ، فهو يجتمع بقائد غواصة المانية سابق كان قد دخل في خدمة حاكم صينى طرد من عرشه ويريد الآن الحصول على بنادق آلية من طراز بد ليعود اليه ٠ وكان يؤيده بعض أصحاب البنوك فى الهند الصينية الفرنسية الا أنهم غير راغبين فى شراء أسلحة وذخائر فرنسية خشية التنديد بهم فى الصحف ٠ فهى عملية تحوطها ظلال الريبة من كل جانب ، الا أن روبى كان يقول بابتسامة فاترة على المرء أن يلتقط النقود حيثما يستطيع فى هذه الأيام ، ولم تعد هناك فرصة متاحة لبيع شىء من منتجات السلم فى أوربا الآن ! وراح يروى الأقاصيص عن الأوقات العصيبة ، وهى بعينها الأقاصيص التى كان ابنه قد سمعها فى برلين وفينا ٠ فهناك نقص فى الخبز فى جميع المدن الامريكية ، حتى أنك ترى عند أركان الشوارع رجالا وبعض النساء يضربون الأرض بأقدامهم وفى أيديهم المتجمدة تقريبا تفاح يعرضونه على المارة ، فقد تدهورت أسعار التفاح وهذه هى الوسيلة للتخلص منه : « الواحدة بقرش يا سيد ، ٠ أفلا تأخذها لتساعد مسكينا فى الحصول على فنجان من القهوة ؟ » ولم تكن ثمة طريقة لاحصاء المتعطلين ، ولكن كل انسان كان مجمعا على أن العدد فى ازدياد وان الموقف فظيع ٠ وحمد روبى الله على أنه ساعد المهندس العظيم فى انتخابه رئيسا للجمهورية، فذلك الرجل المضعضع ثابت فى مكانه كالصخر مصر على ان يقوم الكونجرس بموازنة الميزانية ٠ فان تم ذلك انتعشت الأحوال فى النهاية ٠ وقد كانت الاحوال دائما منتعشة وينبغى أن تظل دائما منتعشة ٠

وسدد روبى نصف الصكوك التى كان قد أعطاها للانى وبيوتى ومرسلين ضمانا للمال الذى حولوه اليه أثناء ذعر وول ستريت ، وكان قد استثمر مائة وخمسين الف دولار لثلاثتهم فى سندات حكومة الولايات المتحدة ، وهو الآن يحاول اقناعهم بنقل المبلغ الى أسهم ٠ وتناقشوا فى الأمر ساعة أو نحوها ، وهم جلوس أمام نار مستعرة من خشب السرو فى

قاعة استقبال البيت . وترددت بيوتي ، أما لاني فقال : « لا » ، وكررها مرارا . وهتف الأب « أنظر اين الصلب الآن ! » .

فجادله الشاب قائلا : « ولكنك قلت هذا الكلام بعينه عندما كنت هنا آخر مرة . فقد كنت واثقا بأنه لا يمكن ان يمعن فى الهبوط أكثر مما هبط » .

واخذ لاني أباه فى جولة حول العالم المتحضر . فأين الأمة التى لديها مال تشترى به صلبا امريكيا ؟ ان بريطانيا وفرنسا والمانيا تستطيع كلها أن تنتج أكثر مما تستطيع تصريفه فى الاسواق . والامم الاصفر من هذه استولى عليها الخوف من دائنيها . وهذا روبى وهو نفسه من رجال الصلب قد نزل الى مستوى بيع منتجاته للحكام الصينيين وثوار أمريكا الجنوبية ! ان روسيا بحاجة يائسة الى الصلب ولكنها يجب ان تتعلم كيف تصنعه بنفسها لأنها لا تملك عملة اجنبية ولا احد يريد ان يثق بها . ثم هتف الابن « وبعد هذا تحدثنا عن عودة الصلب الى سابق مجده ! فلم يستطع روبى ان يرد ، ولكنه أيضا لم يغير رايه فهو يعلم ان لاني يستمد أفكاره من تلك الصحف الحمراء أو الوردية التى يحتفظ بها مكتبه الخاص حتى لا تؤذى انظار اقاربه واصدقائه . وجميع هذه الصحف لها مصلحة فى الكارثة . ولكن ماتقوله لا يمكن ان يكون صحيحا ، لأنه ان صح فماذا يكون من مال عالم روبى ؟ .

وقال الأب « انت وشأنك . ولكن تذكر ما اقوله لك . ان استطاع هوفر ان يثبت فى وجه الاتجاهات التضخمية فسوف نشهد انتعاشا لم يشهد العالم من قبل » .

- ٨ -

وعاد لاني الى مباهج دراسة الطفولة . وانه لشيء رائع حقا أن ترقب كيانا حيا صغيرا يتفتح بهذا النظام الكامل ويحسب ترتيبا محددا للاوقات . وكان لديهم كتاب ينبئهم بما يتوقعون ، فكان حدثا مشهودا عندما نطقت الطفلة فرانس كلمتها الاولى قبل الموعد بأسبوعين كاملين . وكانت الاثارة أعظم عند مابذلت أول جهد لها للنهوض على قدميها واجمع الاصدقاء والخدم على السواء على انهم لم يروا قط طفلة أبدع منها . وشرع لاني بمزاجه التخيلي يفكر فيما ستصير اليه . انها ستكبر وتغدو امراة شابة بديعة مثل امها . فهل سيكون من الممكن

تعليمها اكثر مما تعرفه امها الآن ؟ قد لا يكون هذا . فسوف تمتلك من المال أكثر مما ينبغي . أو لعله يكون ؟ أثمة احتمال لقيام ثورة خيرة على غرار ثورة فينا ترغمها على اداء عمل نافع ؟ .

كانت لديه أفكار كهذه تماما فيما يختص باخته نصف الشقيقة التي كانت تنضج نضجا مبكرا في شمس الاقاليم الوسطى في فرنسا الدافئة مسترسلة في البحث عن المباهج وسط مجتمعها الراقي . وستغدو مرسلين حسناء كامها . وكيف كان من الممكن الا تعلم هذا ؟ فهي منذ طفولتها الباكرة تعيش في الفة مع وسائل خلق الجمال واظهاره ، من أنواع غسول التجميل ، وادهنة التجميل ، ومساحيق التجميل واصباغه ، وقد صفت في حقاق بالغة الجمال حتى لا يطاوعك قلبك على القائها بعيدا . والثياب تصمم لتكشف عن الجمال ، والمرايا معدة لدراسة الجمال ، والاحاديث تدور حول تأثير ذلك على الذكر الذي من اجله ابتكر برمته . فهي شاعرة بذاتها ، شاعرة بجنسها وهذان الشعوران هما أنفاس الحياة نفسها لدى هذه المخلوقة اليانعة التي تشب على أصابع قدميها من فرط التوفز . عالمة بالغريزه انها تقترب من الفترة الحاسمة في حياتها .

وكانت الآنسة آدنيجتون المتزمته شديدة الاضطراب بشأن هذه الوديعة الموكولة اليها ، الا أن التي مرت بهذه المرحلة شخصيا على هذا النحو أخذت الامور بمزيد من اليسر . وكذلك لانى كان سابقا لسنه في النمو عندما كان في عمرها ، ولذا استطاع ان يفهمها ، وسيحاول ان يعلمها الحكمة والاتزان في رغائبها الدنيوية . وسيحدثها عن أبيها ، محاولا ان يجعل منه عاملا ذا أثر فعال في حياتها ان صوره تجعل منه شخصية حية ماثلة ، ولكن مرسلين لسوء الحظ لم تعرفه حين كان رساما فقيرا في كانب دنتيب يمارس عمله مرتديا بنطلونا من المخمل المضلع الملطخ وقبعة عتيقة زرقاء . لقد عرفته رجلا شهيرا ومصدرا للدخل وموضوعا للمتاجرة . فثبت مثاله اعتقادها ان الجمال والشهرة شيء واحد . وهي لا تستمتع الا حين تكون محط اهتمام الناس ، من ذوى الاهمية ما أمكن . ولكن ايما احد أفضل على كل حال من لا احد !.

- ٩ -

. ووسط هذه الاسرة العجيبة في تنوع تكوينها مضى برسيفال دنجل يمارس اهدا حياة . وكان ايمانه راسخا ان مجادلة الناس غير مسموح

بها ، وان السبيل الوحيد هو اعطاء القدوة والمثال ، وهو واثق بأن القدوة ستحدث اثرها في الوقت المناسب فلم يكن يشترك في أى نزاع في الراى ولا يبدى رأيا على الاطلاق ما لم يطلب منه ذلك ولا ينشد شيئا لنفسه لأن كل شيء كما قال في دخيلته . وكان يتنقل هنا وهناك في ارجاء المكان صديقا للازهار والطيور والكلاب ، يكثر من القراءة ويغمض عينيه في كثير من الاحيان فلا تدرى انائم هو أم يصلي . وهو عطوف على كل انسان يعامل الاغنياء والفقراء معاملة واحدة ، وكان الخدم يجلونه وقد استقر في اذهانهم انه ضرب من القديسين . وانتشرت شهرته فصاروا يطلبون اليه ان يأتي لشفاء هذا الشخص أو ذاك ، وهو أمر ضاق به الاطباء وقساوسة المنطقة وعدوه عملا غير مباح انتهاكا خطيرا للاصول المرعية .

وكان يقضي مستر دنجل ساعة على الاقل كل يوم مع السيدة سيزنكي ، وكثيرا ما كانت بيوتي تأتي معه . والارواح مسيطرة على ذهن هذين ، فينتقل تأثير العالم الآخر عن طريق هذه الجمعية الصغيرة . وتشرع بيوتي في طلب نصح الارواح ، وتتبع ذلك النصح في سائر الأمور . وقد اخبرتها الارواح اننا في أوقات خطرة ولابد لها من الحذر في تدبير مالها . قال لها مارسيل ذلك . وكذلك روح القس بلاكلس المحترم – فكهذا كان يدعو نفسه . ولم تكن بيوتي قد اتبعت نصحه مطلقا وهو على قيد الحياة ، غير انها افترضت فيه فرط الحكمة وهو في الحياة الأخرى . ولما كان لانى يريد منها ان تجنح الى الاقتصاد في نفقاتها فقد شعر بأنه مدين بالشكر للارواح . ولما كانت بيوتي سيدة ثرثارة فقد حدثت صديقاتها عن « ارواحها المرشده » فاكتسبت بيانفيني شهرة غريبة ، اشد غرابة مما كان لها من قبل ، حتى عندما كانت في مكان يرتاده الرسامون ومن يشترون الاسلحة والذخائر والازواج الذين لا يجمعهم رباط الزوجية .

واحيانا يجرب لانى حظه بجلسة بين حين وآخر ، وتغير طابع حياته الروحية ، فتراجعت مارى الى المؤخرة واحتلت مكانها مارسيل وعمه الكبير « الى بد » وصار هذان الصديقان من اصدقاء طفولته يحدثانه بالشيء الكثير عن نفسيهما ، وتدور بينهما أحاديث محتدمة في المحبس الذى يقيمان به . وهكذا كان لانى قد تخيلهما بعد وفاتهما ، وقد زاد ذلك في تأييد فكرته عن انه يتلقى من الوسيطة محتويات عقله شخصيا وقد اعيد بناؤها بحذق وبين حين وآخر تظهر واقعة لم يكن يعرفها من قبل بيد انه يرد على ذلك بانه ربما كان قد سمعها ثم نسيها ،

تعليمها أكثر مما تعرفه أمها الآن ؟ قد لا يكون هذا . فسوف تمتلك من المال أكثر مما ينبغي . أو لعله يكون ؟ أثمة احتمال لقيام ثورة خيرة على غرار ثورة فينا ترغمها على اداء عمل نافع ؟ .

كانت لديه أفكار كهذه تماما فيما يختص باخته نصف الشقيقة التي كانت تنضج نضجا مبكرا في شمس الاقاليم الوسطى في فرنسا الدافئة مسترسلة في البحث عن المباهج وسط مجتمعها الراقي . وستغدو مرسلين حسناء كامها . وكيف كان من الممكن الا تعلم هذا ؟ فهي منذ طفولتها الباكرة تعيش في الفة مع وسائل خلق الجمال واظهاره ، من أنواع غسول التجميل ، وادهنة التجميل ، ومساحيق التجميل واصباغه ، وقد صفت في حقاق بالفة الجمال حتى لا يطاوعك قلبك على القائها بعيدا . والثياب تصمم لتكشف عن الجمال ، والمرايا معدة لدراسة الجمال ، والاحاديث تدور حول تأثير ذلك على الذكر الذي من اجله ابتكر برمته . فهي شاعرة بذاتها ، شاعرة بجنسها وهذان الشعوران هما أنفاس الحياة نفسها لدى هذه المخلوقة اليانعة التي تشب على أصابع قدميها من فرط التوفز . عالمة بالفريزه انها تقترب من الفترة الحاسمة في حياتها .

وكانت الآنسة آدنيجتون المتزمته شديدة الاضطراب بشأن هذه الوديعة الموكولة اليها ، الا أن التي مرت بهذه المرحلة شخصيا على هذا النحو أخذت الامور بمزيد من اليسر . وكذلك لانى كان سابقا لسنه في النمو عندما كان في عمرها ، ولذا استطاع ان يفهمها ، وسيحاول ان يعلمها الحكمة والاتزان في رغائبها الدنيوية . وسيحدثها عن أبيها ، محاولا ان يجعل منه عاملا ذا اثر فعال في حياتها ان صوره تجعل منه شخصية حية ماثلة ، ولكن مرسلين لسوء الحظ لم تعرفه حين كان رساما فقيرا في كانب دنتيب يمارس عمله مرتديا بنطلونا من المخمل المضلع الملطخ وقبعة عتيقة زرقاء . لقد عرفته رجلا شهيرا ومصدرا للدخل وموضوعا للمتاجرة . فثبت مثاله اعتقادها ان الجمال والشهرة شيء واحد . وهي لا تستمتع الا حين تكون محط اهتمام الناس ، من ذوي الاهمية ما أمكن . ولكن ايما احد افضل على كل حال من لا احد !.

- ٩ -

ووسط هذه الأسرة العجيبة في تنوع تكوينها مضى برسيفال دنجل يمارس أهدأ حياة . وكان ايمانه راسخا ان مجادلة الناس غير مسموح

١٣٩

بها ، وان السبيل الوحيد هو اعطاء القدوة والمثال ، وهو واثق بأن القدوة ستحدث اثرها في الوقت المناسب فلم يكن يشترك في أي نزاع في الرأي ولا يبدي رأيا على الاطلاق ما لم يطلب منه ذلك ولا ينشد شيئا لنفسه لأن كل شيء كما قال في دخيلته . وكان يتنقل هنا وهناك في ارجاء المكان صديقا للازهار والطيور والكلاب ، يكثر من القراءة ويغمض عينيه في كثير من الاحيان فلا تدرى انائم هو أم يصلى . وهو عطوف على كل انسان يعامل الاغنياء والفقراء معاملة واحدة ، وكان الخدم يجلونه وقد استقر في اذهانهم انه ضرب من القديسين . وانتشرت شهرته فصاروا يطلبون اليه ان يأتي لشفاء هذا الشخص أو ذاك ، وهو أمر ضاق به الاطباء وقساوسة المنطقة وعدوه عملا غير مباح انتهاكا خطيرا للاصول المرعية .

وكان يقضي مستر دنجل ساعة على الاقل كل يوم مع السيدة سيزنسكى ، وكثيرا ما كانت بيوتى تأتى معه . والارواح مسيطرة على ذهن هذين ، فينتقل تأثير العالم الآخر عن طريق هذه الجمعية الصغيرة . وتشرع بيوتى في طلب نصح الارواح ، وتتبع ذلك النصح في سائر الأمور . وقد اخبرتها الارواح اننا في أوقات خطرة ولابد لها من الحذر في تدبير مالها . قال لها مارسيل ذلك . وكذلك روح القس بلاكلس المحترم ـ فكهذا كان يدعو نفسه . ولم تكن بيوتى قد اتبعت نصحه مطلقا وهو على قيد الحياة ، غير انها افترضت فيه فرط الحكمة وهو في الحياة الأخرى . ولما كان لانى يريد منها ان تجنح الى الاقتصاد في نفقاتها فقد شعر بأنه مدين بالشكر للارواح . ولما كانت بيوتى سيدة ثرثارة فقد حدثت صديقاتها عن « ارواحها المرشده » فاكتسبت بيانفينى شهرة غريبة ، اشد غرابة مما كان لها من قبل ، حتى عندما كانت في مكان يرتاده الرسامون ومن يشترون الاسلحة والذخائر والازواج الذين لا يجمعهم رباط الزوجية .

واحيانا يجرب لانى حظه بجلسة بين حين وآخر ، وتغير طابع حياته الروحية ، فتراجعت مارى الى المؤخرة واحتلت مكانها مارسيل وعمه الكبير « الى بد » وصار هذان الصديقان من اصدقاء طفولته يحدثانه بالشيء الكثير عن نفسيهما ، وتدور بينهما أحاديث محتدمة في المحبس الذى يقيمان به ، وهكذا كان لانى قد تخيلهما بعد وفاتهما ، وقد زاد ذلك في تأييد فكرته عن انه يتلقى من الوسيطة محتويات عقله شخصيا وقد اعيد بناؤها بحذق وبين حين وآخر تظهر واقعة لم يكن يعرفها من قبل بيد انه يرد على ذلك بانه ربما كان قد سمعها ثم نسيها ،

وكانت له احاديث صميمة مع قريبية السابقين فيما مضى ، وهى كثيرة العدد فلا يسعه بالتأكيد ان يتذكر جميع التفصيلات .

وتأكدت نظريته عندما تلقى خطابا وديا من السيد عذراهكبيورى الذى كان منصرفا الى تجنب الافلاس فى مدينة روبنس بولاية انديانا . وقال له الرجل ان الوقت فظيع ولكنه يأمل ان يستمر الناس فى شراء صابون المطبخ ويتولى الرد على هذا السؤال تقارير البيع الشهرية ، وفى هذه الاثناء يقوم السيد هكبيورى بتركيب حداوى الخيل خلف البيدر كما كان يصنع فى الايام الماضية ، وتساءل الم يزل لانى محتفظا ببراعته فى هذا الفن . وعندما كتب اليه لانى بما قالته الارواح رد عليه صانع الصابون بأن الأمر بالنسبة اليه كما كان بالنسبة لمارك توين ! فخبر وفاته مبالغ فيه . وعلى مدى السنة والنصف من الاتصال « بتكومسه » سجل لانى بضع حالات فشل فيها زعيم عشيرة الهنود الحمر فى التمييز بين الاحياء والموتى . واستنتج لانى من ذلك نتيجة اقتنع بها عقله ، وغض النظر فى الوقت نفسه من عدد آخر من الوقائع لم يقتنع بها . وهو فى هذا المسلك يحتذى مثال كثير من كبار رجال العلم .

- ١٠ -

وهكذا انقضت فترة سارة قضاها لانى فى السيارة الليموزين الوثيرة التى تتدرج به فى طريق الحياة . كان يشقيه ما يعانيه العالم من الوان العذاب ، بيد انه لم يكن شقاه يصل به الى عجزه عن مطالعة المخطوطات التى يرسلها اليه ريك ، ولا المسودة الاولى للمتتابعات السياسية التى ارسلها اليه كيرت . وكان يدرس فصله الاحمر ويناقش الشبان الحمر الذين كانوا يأتون لاستدراجه ، وفى الوقت نفسه لاقتراض نقود منه عندما تحل بهم ضائقة . وكان ينفق رصيده الخاص وجانبا من رصيد ايرما وهو يؤدى دور الراعى للسخط الاجتماعى فى فرنسا الوسطى ، الا ان ايرما لم تكن تكترث لذلك اكتراثا كبيرا لانها تملك المال، ولديها احساس غريزى بأن الاسرة كلما ازداد اعتمادها عليها صار أفرادها أحرى أن يزدادوا تلطفا معها . فمن يأكل خبزى ينشد اناشيدى !.

وحدث شىء يثير الدهشة . فبعد ظهر ذات يوم كان لانى فى

الاستديو الخاص به يعزف على ذلك البيانو شديد الضخامة الذى كان قد ابتاعه لكيرت ، الا انه بدا بيدى التائر بعقد كامل من السنين فى هواء البحر . وكان عصر ذلك اليوم من أيام الربيع مشمسا ، فترك لانى الابواب والنوافذ مفتوحة وراح يملأ الجو المحيطة به بتوترات فالس النزوة « لورين شتاين » واذ بالتليفون يرن . فلديهم الآن اجهزة للتليفون فى سائر ابنية الضيعة ، لأنه تراءى لايرما انه من السخف ان تضطر لارسال خادم فى كل مرة تريد ان تدعو فيها بيوتى للقدوم الى الكوخ لتناول الغداء ، أو حينما تريد ان تطلب من لانى القدوم للسباحة معها . وكان المتكلم فى هذه المرة خادم فى الفيلا يبلغه ان ثمة سيدا مسنا يقول ان اسمه السيد جان » ولانى ليس بطىء الفهم عادة ، ولكنه فى هذه المرة اضطر لطلب اعادة الاسم على مسامعه . وفجأة تذكر مدينة دييب .

ان الفارس حامل وسام الحمام من طبقة كوماندرووسام الليجيون دونير من طبقة ضابط عظيم لزم الصمت الجانب الاكبر من السنة الى أن تخلى لانى عن فكرة وصول أنباء منه . وبدا له ذلك صعب التصديق ، لأن زهاروف كان يعلم ولا شك انه حصل على معلومات صحيحة فى تلك الجلسة ، فكيف اطاق الا يحصل على المزيد ؟ هاهو قد قرر اخيرا ان يذعن ، وليس من طبعه ان يتخذ انصاف الحلول فهاهو قد جاء بشخصه ، وهى أول مرة يضفى فيها هذا الشرف اطلاقا على آل بد بل ان من يشرفهم على هذا النحو قليلون جدا .

وكان « السيد جان » وحده ، وقد اتخذ مجلسه على حرف كرسى غير مريح كانه لم يكن واثقا من الترحيب به . وقد احتفظ فى يده بعصا السير ، وقد اتكأ عليها بكلتا يديه مطويتين فوقها . والتقت العينان الزرقاوان الباردتان بعينى لانى ، فهل ترى اخطأ لانى فى ظنه انه لمح سيما القلق على محيا ذلك العنكبوت العجوز ، ذلك الذئب العجوز ؟ ذلك الشيطان العجوز ؟ ومهما يكن من شيء فقد رحب الشاب بزائره فى حرارة قلبية ، وقال الزائر بسرعة « كنت اعلم منذ زمن طويل انى مدين لك باعتذار . » فقال الشاب : « لا تزعج نفسك بهذا الامر ياسيد جان » وقد استخدم ذلك الاسم لأن بعض الخدم ربما كانوا على مرمى السمع . واستطرد » ولقد تحقق عندى انك كنت منزعجا . وقد قيل لى فى مرات كثيرة بتلك الجلسات ما لم يكن صحيحا ، وما كان

حريا ان يسبب الحرج لو كان غيرى حاضرا معى « وما من شيء كان من الممكن ان يكون أكثر كياسه من هذا القول .

وقال الآخر « كان ينبغي أن أكتب اليك • ولكنى أجلت ذلك ظنا منى انك ربما جئت لزيارتى » فاجابه لانى « لم تكن لدى وسيلة لمعرفة رغباتك » واضاف لانى قائلا لنفسه » لقد كنت تجرب وسطاء آخرين لترى هل يمكنك الوصول الى ما تريد ! فقال « لقد قررت ان التصرف اللائق أن أقدم اعتذارى بشخصى ، وسأقدم الاعتذار للوسيطة ان كانت لم تزل مقيمة معكم « فقال لانى : « انها لم تزل معنا . وانتظر كى يجعل الشيخ يطلب ما يريد . فقال : « اتعتقد انه من الممكن لى ان أراها مرة أخرى ؟ » فاجابه : « اتعنى انك تريد ان تحاول عقد جلسة أخرى ؟ » فقال : « انى ساعتبر ذلك منة عظيمة » فاجابه لانى : « لا أستطيع الاجابة نيابة عنها ياسيد جان ، وكما بينت لك حينئذ فان اضطراب الأمور ايا كان نوعه يسبب لها ضيقا وتعاسة شديدة جدا . وقد انزعجت انزعاجا شديدا جدا » فقال : « انا مدرك ذلك . وانا الآن مستعد تمام الاستعداد وفى وسعى أن أعدك بأن شيئا من هذا القبيل سوف لا يتكرر . فمهما حدث سأتحمله واثبت له كما تقولون معاشر الامريكيين فقال : له لانى مقترحا « لعلك تفضل ان تجلس معها بمفردك ؟ » ان وثقت بى هى كان ذلك افضل . ولك افضل . ولك أن تخبرها انى سأكافئها بسخاء » فقال « أرجوك لا تذكر هذا الموضوع ، فبيننا وبينها اتفاق مالى ، ووقتها ملك لنا » فساله : « أليس من اللائق يقينا ان اتحمل جانبا من التكاليف ؟ » فأجابه : « لا حاجة بك لاثارة هذه المسألة لأن المبلغ صغير ، وقد لا تحصل على النتائج التى تريدها » . فقال : « ان حصلت عليها وتيسر لى ان اقابلها بين حين وآخر ، انسمح لى ان اعقد نوعا من التسوية المالية ؟ » فقال : « يمكننا ان نتحدث فى ذلك بعد قليل . اما الآن فسأرى أولا هل فى استطاعتى أن اقنعها بمنحك جلسة أخرى . » فساله : « الم تخبرها بحقيقتى ؟ » فأجابه : « بل لم اخبر احدا . ولعلك تذكر اننى كتبت اليك بأن هذا ما اعتزمته » فقال : « لقد كنت كريما جدا يالانى ، ولن انسى هذا . »

- ١١ -

ولم يكن من السهولة بمكان اقناع السيدة سيزنسكى فقد كانت لم تزل غاضبة من : ذلك السيد العجوز الفظ « وما صنعه بها لم يكن

ليغتفر . ولكن لانى اخبرها ان السيد العجوز الفظ كان شقيا غاية الشقاء ، وان جانبا منا جاء من لدن « توكمسة » حطمه ، فاقتضى ذلك منه قرابة سنة للتجلد على الصدمة وهو الآن تائب اليها ، وقد قطع على نفسه عهدا ولانى واثق بانه سيحافظ على هذا العهد . وكانت السيدة متعودة على الثقة بلانى ، فهى امرأة عجوز وحيدة وقد اتخذت منه ابنا فى مخيلتها فقالت انها ستمنح السيد جان فرصة اخرى لتحسين سلوكه ، ولكن ينبغى ان يبين له لانى أولا تلك الصدمة الجسدية التى سببها لها ، وانها لبثت مريضة محطمة القوى والروح المعنوية جملة أيام ، وهلم جرا . ولا شك ان « توكمسة » سيغضب غضبا شديدا سيوبخ الجالس اليه بغير مراعاة لمكانته ووقاره . وعاد لانى وابلغ هذه الرسالة بكل أمانة ودقة ، وقبل ملك التسليح فى أوربا بكل رزانة أن يطأطىء من كبريائه أمام زعيم القبيلة الا يروكوى . وقال لانى : « لست ادرى أى شىء هو على التحقيق ، ولكنه يتصرف كما لو كان شخصية كبيرة ، ولابد لك ان تعامله على هذا الاساس . لقد اثرت استياءه باساءتك اليه ، وعليك ان تتظاهر بالتماس العفو منه » » وكان لانى يبسم وهو يتكلم ، الا أن الفارس الكوماندر والضابط العظيم كان جادا واجاب بأنه فى سبيل الحصول على رسالة من المصدر المطلوب مستعد ان يتحمل التعذيب على يد جنود حمر حقيقيين .

وبذلك اخذه لانى الى الاستديو الخاص به واراه طائفة من رسوم مارسل على الجدران ، وان لم يكن لديه من خلو البال ما يصلح للاشتغال بمسائل الفن فى هذه اللحظة ودخلت الوسيطة وقالت : « طاب يومك ياسيدى ، واجابها زهارون « واتخذ الاثنان مجلسيهما فى المقعدين اللذين كان لانى قد حركهما الى الوضع المناسب لجلوسهما وانتظر الى ان رأى المرأة تستغرق فى سباتها بنجاح ثم خرج واغلق باب الاستديو خلفه .

وكانت بيوتى وايرما فى « كان » للمرور بالمتاجر ثم عادتا وبطبيعة الحال لم يعد من الممكن كتمان السر عنهما . ولا حاجة لكتمان السر على كل حال لان المسألة ستحسم بلا شك فى هذه المرة ، فاما ان تظهر الدوقة الاسبانية ، واما ان يتخلى زهاروف عن المحاولة . واخذهما لانى الى حجرة أمه واخبرهما من الذى عقد الجلسة مع السيدة فى ديبب ، وثار اهتمام السيدتين معا لان زهاروف يحتل مكانة ملكية من طراز مكانه ايرما الملكية ، والملوك لا يلتقون كثيرا باندادهم الاجتماعيين. وسألته بيوتى « أوه . اتظنه سيبقى للعشاء ؟ » .

ومهما يكن من شيء فلابد للسيدتين من ارتداء الثياب الملائمة ، ولكن بغير مبالغة فى ازياء السهرة لان السيد جان سوف لا يكون مرتديا زى السهرة . وشرح لانى لهما سبب اتخاذ هذا الاسم ثم راح يذرع الشرفة الامامية للفيلا ويرقب غروب الشمس خلف الجبال القائمة عبر خليج جوان . وما اكثر ما راقب مغيب الشمس فى مرات تمتد الى ابعد ماتصل اليه ذاكرته ، وقد شهد نشوب الحرب واحتراق السفائن وغرقها فى ذلك المدى الازرق من الماء ، وشهد مصائر البشر تتداخل وتتعقد فوق اديم هذه الارض بالحب والكراهية والغيرة والطمع والعذاب والخوف. لقد رأى الناس يرقصون ويضحكون ويسمرون ، واكثر من مرة رآهم يبكون . فهنا جلس مارسل بوجهه المحترق للاجتماع باصدقائه فى العتمة التى تخفى وجهه وتحميه من الانظار ، وهنا ايضا عزف كيرت موسيقاه ، ووضع ريك الخطوط العريضة لمسرحياته ، وتفاوض روبى فى صفقات اسلحة وذخائر ضخمة . وها هو الان لانى يمشى جيئة وذهابا فى انتظار ان يعرف هل ستحدث روح السيدة الاسبانية النبيلة الى زوجها اليونانى من خلال شخصية هندى امريكى احمر مات منذ قرنين ويستخدم الحبال الصوتية لامرأة بولندية قروية كانت خادما فى بيت تاجر بوارسو . ان فى وسعك ان تنعت الحياة بصفة واحدة ! انها تمدك بالتنوع ! .

- ١٢ -

واقبل الشيخ من الاستديو وحده يمشى ممدود الرأس الى الامام شأنه دائما ، كانما يتحسس طريقه . وتوجه لانى لملاقاته ، فقال الرجل بحدة غير معتادة فيه « هذا يافتاى شىء مقلق حقا ! » فسأله : هل حصلت على شىء من النتائج ؟ فاجابه : « لقد حصلت على مايبدو نتائج بالتأكيد خبرنى : اقتنع انت بأمانة هذه المرأة ؟ » « اننا جميعا مقتنعون بذلك : » فسأله : « منذ متى تعرفونها ؟ » فاجابه : « منذ ثمانية عشر شهرا تقريبا » فسأله : « اتظن انها فى غيبوبة حقا عندما تتظاهر بذلك ؟ » فاجابه : « لابد أن تكون ممثلة بارعة جدا ان لم يكن هذا صحيحا ، فقد راقبناها عن كثب ، ولا نظنها من الذكاء بحيث تتغفلنا » فسأله : « اواثق انت انها لا تعرف من أنا ؟ » فاجابه : « لا أستطيع أن اتصور كيف امكنها أن تكتشف حقيقتك . فلا احد سوى ابى يعرف شيئا عن هذا الموضوع، وانت تعرف ان ابى ليس ثرثارا . وعندما كتبت الى عن الموعد اتخذت

احتياطى ومزقت خطابك ورميته في البحر « فقال الرجل : « يلانى . كأنما كانت زوجتى جالسة فى الحجرة المجاورة تبعث الى بالرسائل . وتستطيع ان تدرك مدى أهمية ذلك عندى « فأجابه : « وهو شىء مهم لنا جميعا ، فكلنا نتلقى رسائل من هذا القبيل . » فقال الرجل : « وقد ذكرتنى بامور من طفولتى ومن طفولتها . وهى أمور نعرفها كلانا ولا يعرفها احد سوانا ، فيما اعلم على الاقل » .

ودخلا الى بناء الفيلا ، لأن ساعة الغروب فى الريفيرا تشتد فيها البرودة . وكان الشيخ يريد أن يعرف كل ما يجول بخاطر لانى عن هذه الظاهرة ، وهى اغمض ظاهرة تواجه المفكر المصرى . وعندما اخبره لانى بكتب جيلى واوستى أخرج زهاروف كراسة مذكراته ودون الاسمين ، ودون كذلك اسم المجلدين الكبيرين من تاليف « بيير جانيه » ، ووعد بدراستها كلها . لقد اهمل تعليمه ولكنه سيحاول الآن أن يكتشف ما يقال عن اللاوعى وقواه المختلفة ، وهى قوى تختلف كثيرا عن قوى ملك الذخائر : لقد فاته الكثير وقد شرع يفطن الى ذلك فى أوان انحسار الحياة .

واقبلت السيدتان ، وهما من أشد السيدات أناقة وكان قد سمع بهما . ولم يكن فيما سمعه عن ايرما الا الخير واظهر لهما مجاملة خارقة للمعتاد منه ، وطلب منهما منه بأسلوب الملتمس المتواضع : هل تتفضلان فتسمحان للسيدة سيزنسكى بزيارته فى مونت كارلو اذا ما أرسل سيادته لطلبها ثم يعيدها ؟ فقالت بيوتى : « طبعا . هذا بطبيعة الحال اذا رغبت السيدة نفسها ، وأنا واثقة بأنها ستقبل « فقال زهاروف : « لقد سارت الامور بيننا على ما يرام هذه المرة » وادرك لانى الذى لا يخلو من دربة على الملاحظة ان العنكبوت العجوز — وهو كذلك لا يخلو من دربة — كان يتلمس اشارة خفيفة تدله على معرفة بيوتى بفشله السابق . ولما كانت بيوتى لا تعرف شيئا عما حدث فى تلك المناسبة ، فقد كان من السهل عليها أن تبدو بمظهر البراءة . وليس معنى ذلك ان التظاهر بالبراءة كان عسيرا عليها على كل حال !.

واتجه لانى الى الاستديو بقصد استشارة السيدة فوجدها مسرورة جدا بما طرأ على السيد العجوز من تواضع وقالت انها مستعدة

لزيارة مقره ، فعاد لانى وحدد موعدا . واعتذر زهاروف من عدم تناول العشاء قائلا انه ياكل قليلا جدا وان ذهنه مشغول بالامور التى سمعها .

وخرج ليستقل سيارته التى انطلقت ، وقالت بيوتى لا يرما : « يا للشيخ المسكين ! ان لديه مالا طائلا جدا بيد انه لا يستطيع الحصول على الشى الوحيد الذى يريده من الدنيا ! » وبعد أن قالت الحماة هذه العبارة تساءلت بينها وبين نفسها الا تبدو فيما قالت شائبة يسيرة من مجافاة الذوق والكياسة !

الفصل التاسع

ارض مات فيها آبائي

- ١ -

كانت ايرما قد وعدت والدتها ان تزور لونج ايلند ذلك الصيف لتعرض الوارثة الجديدة لعشيرتي بارنز وفاندرنجهام· وكان يوهانسي روبن قد قال انهم سيجعلون من العودة رحلة اخرى باليخت ، بيد انه كتب الآن مبديا أسفه لاستحالة مغادرته برلين ، فالاحوال المالية اصبحت عصيبة جدا بحيث يتحتم عليه ان يكون موجودا كل يوم ، وربما كل ساعة · وبلهجة جديرة بالامراء عرض على آل بد يخته مكفول النفقات جميعا ، ولكن لعله كان يعلم انهم ما كانوا ليقبلوا مثل هذه المكرمة ·

وقالت ايرما « ربما كان في وسعنا ان نستاجره منه » وتحدثوا في هذه الفكرة برهة ، ولكنهم كانوا يعلمون ان ابني روبن لن يحضرا ، لانهما سيحسان ان من واجبهما البقاء الى جانب امهما وابيهما · وسيفضل فريدى مواصلة العمل في المدرسة لان العمال لا يحظون بعطلات ، وحين يكفون عن العمل ينقطع اجرهم ، وهذا الانقطاع اخذ يحدد لعدد كبير جدا منهم · اما هانسى وبيس فيساعدان العمال بالعزف في حفلات زهيدة الاجر لجمهور الشعب في قاعات فسيحة · وعازف الفيولينا لا يرتقى بشهرته عن طريق مثل هذا العمل ، الا انه يريح ضميره ·

وكان ثمة عدد كبير من الناس يسرهم ان تتاح لهم هذه الرحلة المجانية باليخت ، بيد ان ايرما وافقت على انه من المضجر أن تظل فى صحبة مجموعة صغيرة كل هذا الوقت الطويل ، فالافضل ان تكون غير مقيدة ، حرة فى تغيير الاصدقاء حريتها فى تغيير الاماكن · واستعد المكتب الدولى الكفء للسفر — الذى لم يعد مكونا الا من السيد بندلتون وزوجته دون غيرهما — ان يقدم لهم المعلومات عن البواخر الذاهبة من مارسيليا الى نيويورك ، فثمة رحلات فاخرة في البحر المتوسط يستطيع المرء ان يحجز فيها مجلات للعودة ، وثمة بواخر تقوم بما يسمى رحلات فاخرة

حول العالم ، وتسلك طريق قنال السويس وجبل طارق الى نيويورك .
وهذه البواخر الفاخرة هى التى رغبت فيها ايرما بارنز ، وسرها ان تعلم ان صفوة الاجنحة فى هذه القصور العائمة خالية بسبب الضائقة المالية ، فاختارت ايرما أحسنها لنفسها وللانى وجناحا مجاورا له للآنسة سيفيرن والخادمة المربية والطفلة ، وقمرة بالدرجة الثانية لخادمتها ولفيزرس الذى انحطت مرتبته فصارت مهمته الآن قضاء جميع (مايطلب اليه) وتقبل جميع انواع الهوان .

وفى اوائل مايو استقلت الجماعة الباخرة فالفي لانى نفسه وقد عاد فجأة الى مجتمع المقاهى الذى كان قد هرب منه منذ عام ونصف عام .
فما بين عشرة واثنى عشر مليونا من الدولارات قد انفقت لانشاء باخرة هى صورة طبق الاصل من الباخرة « الطريق الابيض الطويل » ، وعن طريق وسائل الاعلان الموجهة بخبرة وحذق تم استدراج الطراز الملائم تماما من جموع الناس الى متنها وهذا القصر العائم به حمام سباحة يكفى عمقه للقفز العالى ، وحجرة للالعاب وجمنازيوم به مدربون ، وملعب سكواش ، وملعب للاطفال وطريق مسقوف بالاقواس به محلات للتجميع وحوانيت للكماليات وبارات عديدة ودكاكين للحلاقين يستخدمها السيدات خاصة ، وفرقة للجاز وفرقة موسيقية صغيرة وقاعة للصور المتحركة ومطعم للحوم المشوية تستطيع ان تطلب فيه ايما شىء تريده ان شعرت بالجوع فيما بين الوجبات المستفيضة المنتظمة . وها هنا اناس ممن كنت قد التقيت بهم فى ليالى الافتتاح فى « برودواى » وفى النوادى الليلية الراقية وفى المحال ذات السقوف المائلة فى بارك افنيو نثار من هواة المشاهد وطلاب الغرائب من المحدثين ـ وذلك يعنى أى مكان غربى الشارع السابع ـ وهم اناس جمعوا ثرواتهم من تجارة الخنازير او النحاس ثم استثمروها فى سندات ورغبوا فى الايتعاد عن متاعب دنياهم . وكانوا يتوقعون ان ينتهى الهبوط والكساد فى الوقت الذى يعودون فيه الى الوطن ، الا انهم اخطأوا التقدير .

وقبل ان ترسو الباخرة فى مارسيليا سرت بين الركاب انباء بقرب صعود ايرما بارنز وزوجها الى متنها ، فاحتشد جمع كبير عند السياج ليروهما ويراقبوهما . وكان التحديق يعتبر فى وقت من الاوقات فظاظة الا ان هذا الوقت قد انقضى او انه كما انقضى اوان اسبال الاجفان . واندفع عديد من الصديقات القدامى للترحيب بايرما كى تقدمهن الى الامير الشاب المجدود زوج الملكة . وبذلك غاص الزوجان منذ البداية وسط الاحداث من حفلات غداء الى حفلات بريدج ورقص والعاب رياضية من

هذا النوع او ذاك ، وما اكثر اللغط الذى يسمع او يقـــال ، وما اكثر الاشخاص الجدد الذين يلتقيان بهم ويلعبان معهم • وقمرة كل انسان من هؤلاء غاصة بالتذكارات ، ولدى كل منهم قصص يرويهـا عن زاراته • ولكن ذلك كله كما تعلم كان فى مجموعه مضجرا • فكل منهم كان يسره ان يعود الى موطنه حيث يستطيع ان يلعب الجولف ويركب الخيل ويقـود السيارة وليتخلص من الذين يسئمونه •

- ٢ -

لقد الفت ايرما نفسها حينما عاشت فى ظل النظام الاقطاعى مبهورة بفكرة التفرد ، بيد انها هنا عادت الى ذلك العالم السهل فوجدت الحياة فيه اقل عناء واكثر مجلبة للحبور • فشتى صفوف الناس يريدون ان يعرفوها ، ولكن كيف يمكن ان تعرف من هم وماذا يريدون ؟ فقد يكون الشخص خبيرا فى السرقة يحاول ان يعرف ماذا تتزين به من المجوهرات واين تحتفظ بها • وقد يكون من محترفى ابتزاز المال بالتشهير يتسقط شيئا كى يتمكن من استخدامه • وقد يكون مقـــامرا محترفا محتالا ، فكثيرون من هذا الطراز يفترسون ركاب عابرات المحيط • وكانت ايرما واحدى معارفها من نيويورك تلعبان ضد سيدتين من ذوات التهذيب وزيهما تحت مستوى النقد • وربما كان بين السيدتين اتفاق على طريقة من التفاهم بالاشارة سوى الاعلان عن الورق وهو جزء من اللعبة يدرســه اللاعبون معا ويتناقشون فيه • واقترحت السيدتان المراهنة بدولار عن كل نقطة ، ولم تبال ايرما • ولم تبال كثيرا جدا عند ما الفت خســارة جانبها فى اللعب الفين من الدولارات فى نهاية ما بعد الظهر • وانهارت شريكتها وبكت قائلة انها لا تملك نصيبها من المبلغ ، فدفعت ايرما عن كلتيهما ، ولم يرق لها كثيرا ان الح عليها لانى فى ان النساء الثلاث ربما كن على اتفاق •

وثمة ايضا مسالة الخمر • فالشبان على ظهر السفينة يحتسونه طول الوقت وانها لمعضلة كيف يستطيعون المثابرة والتحمل • وقال لها لانى لماذا لا تختارين اصدقاء يعرفون شيئا يتحدثون عنه ؟ ، ولكن هذا الصنف من الاشخاص اكبر سنا وايرما لا تحسن الا الاصغاء • وسرعان ما ياتى احد من مجموعتها فيمضى بها الى بار مزخرف زخرفة بهيجة ، او يأمران بالشراب وهما يلعبان الميناينك على ظهر السفينة • ولم يعد فى

استطاعة لانى ان يقول لها « عليك ان تفكرى فى صحة طفلتنا » فصار وضعه وضع الرجل المفيق فى وليمة خمر ، يقتل السرور والشهية بسخطه وتذمره النكد . ولم تقل له ايرما شيئا من ذلك ، ولكن غيرها قالو من وراء ظهرها ، وبدا عليهم اعتقادهم بوضوح . فانت أما ان تجارى الناس أو تعاديهم ، فاستقر رأى لانى على استعجال الوقت الذى تصبح فيه زوجته تحت جناح فانى بارنز التى تملك حق توبيخ ابنتها ، ولا تتردد فى ممارسة هذا الحق . .

وكان من بين التسهيلات ووسائل الراحة على ظهر هذه المدينة العائمة مكتب للمضاربة فى البورصة تستطيع ان تعرف منه الاسعار وتقامر على اسهمك المفضلة . وثمة ايضا صحيفة يومية تطلعك على ما يحدث فى « وول ستريت » وبقية انحاء العالم . وقبل ان تصل السفينة الى نيويورك بوقت قصير علم ان المتاعب فى فينا وصلت الى ذروتها فافلس « الكريد يتنشتالت » وهو أكبر بنك فى المدينة . وفى اليوم التالى امتد الذعر الى المانيا ، وسمع لانى اناسا يقولون « ليكن . فقد حان لهم ان يذوقوا شيئا من المتاعب » ولكن اناسا غيرهم ادركوا ان ألمانيا حين تعجز عن دفع التعويضات ، فلسوف تعجز بريطانيا وفرنسا عن الوفاء بديونهما للولايات المتحدة . وهذه المصاعب المالية شأنها شأن الموجهات الصوتية ، اذا ارتطمت بعائق ارتدت اليك على الفور . والعالم قد غدا أشبه ببهو كبير رنان ملآن ؟ بالاصداء المتلاطمة الهادرة فى هذا الاتجاه وذاك . ومن المستحيل ان تحدس ماذا سيحدث فى اللحظة التالية ! .

- ٣ -

كان تمثال الحرية قائما منتصب القامة مهيبا رافعا شعلته بثبات فبدا فى ضوء النهار الساطع مفيقا رصينا ، وتساءل لانى اهو من الممتنعين عن شرب الخمر أم تراه مثل كثيرين من معارفه فى مجتمع المقاهى لا يسكرون قبل حلول الليل ؟ وكان خطر الخمر لم يزل قائما فلا تستطيع ان تشترى شيئا منها على ظهر السفينة بعد ان تجتاز خط الاميال الثلاثة الذى يحدد المياه الاقليمية ، ولكن الجميع يعلمون انهم بمجرد نزولهم الى الشاطىء يستطيعون الحصول على اى شىء يريدونه .

وكانت فانى بارنز وفى صحبتها شقيقها هوارس ينتظران على رصيف الميناء ليحظيا بأول نظرة من أثمن طفلة. ولما انزلت سلالم السفينة

وهبطها ركب الاسرة اخذت فلنى الحزمة الدافئة الناعمة بين ذراعيها ، ورأى لانى أول دموع شهدها اطلاقا فى هاتين العينين اللتين كان يخالهما قاسيتين دنيوتين • ورفضت ان تترك الحزمة من بين ذراعيها وحملتها الى السيارة المنتظرة وجلست هناك تحطم جميع القواعد التى كانت الآنسة سيفرن قد وضعتها لحماية الاطفال صحيا ونفسيا • ورأى لانى المرأة الانجليزية ترقب ذلك باستياء ، وخشى أن تكون مشاجرة من الطبقة الاولى تتجمع فى الافق ، لان رئيسة المربيات كانت قد أوضحت قرارات كثيرة انها شخصية محترفة وتعتبر خدماتها غير ذات موضوع اذا غض الطرف عن نصائحها •

وتركوا فيندرس ليتم الاجراءات الجمركية ويحضر خادمة ايرما والخادمة المربية والحقائب فى سيارة أخرى وانطلقت السيارة بالاسرة فى وقار ، وجلست الانسة سيفرن فى المقدمة الى جوار السائق حتى لا تفطن كثيرا الى تدليل الجدة واحتضانها لطفلة فى شهرها الرابع عشر وهى تهز اصبعا فى وجهها وتكلمها هذرا • واستمر ذلك طوال المسافة التى اخترقوها عبر الشارع الرابع عشر واكواخ شرقى نيويورك الحقيرة وفوق جسر كبير ثم على طول الطريق السريع الجديد • وادرك لانى مدى جدية تصرفه حين ابقى المخلوقة الثمينة فى أوربا ، وأى معركة سيخوضها فى سبيل العودة بها الى هناك ! •

وكانت ثمة انباء كثيرة دار حولها الكلام ، من شئون الاسرة وشئون العمل واخبار جميع اصدقائهم الذين تزوجوا أو ماتوا أو ولدوا • وسرعان ماراح الخال هوراس فاندر نجهام يحدث لانى عن الاسهم وكيف انها هبطت مرة خرى ، فانباء المانيا سيئة جدا والشائعات تقول ان المتاعب قد تصل الى بريطانيا • واعلن خبير السوق السابق ان من رأيه ان الاسعار وصلت الى أقصى درجات الهبوط ، وهى بعينها كلمات روبى بد التى قالها من قبل : « انظر أين وصل الصلب الآن ! » وكان الخال هوراس قد كتب الى ايرما برجوها ان تخصص مبلغا صغيرا من المال كى يستطيع العودة الى ممارسة اللعبة ، وسيقاسمها الربح مناصفة ، وانها لجريمة ان يهدد خبرته ومعرفته التى اكتسبها فى عمره كله • ولكن ايرما قالت لا من قبل • واخبرت زوجها انها ستظل تقولها ولا تسمح لاحد ان يضايقها بالحاحه ولجاجته •

، واستؤنفت الحياة فى « شور آكرز » من حيث كانت قد انقطعت . وسويت مسالة الطفلة فرانسس بسرعة ، لان كبيرة المربيات جاءت الى ايرما التى استخدمتها ، ولم تقل ان ايرما نشات بطريقة خاطئة ، ولا ان الجدات من طراز انقضى زمنه ، بل قالت ببساطه ان العلم الحديث اهتدى الى اكتشافات جديدة وانها تعلمت ودربت كى تضع هذه المكتشفات موضع التطبيق . ولم تتصور ايرما ان تفقد هذه الشخصية المسرفة فى يقظة ضميرها ، ففرضت ارادتها على أمها التى تقبلت الامر بوداعة مدهشة . وكذلك الخال هوراس لم يقم الا بأضعف المحاولات فى اتجاه « وول ستريت » . ولاحظ لانى انهم عقدوا جلسات عائلية للاستشارة واتفق على ان تكون فانى المتعالية حماة مثالية ، وشقيقها سيحمل نفسه على ان يكون لطيفا بأى ثمن . وكل من فى البيت سحذو حذوه على امل ان يقتنع الامير زوج الملكة بالاستقرار فى قصره والاستمتاع بهذا النمط من الحياة الذى شاء الرب أن يدعوه اليه .

وكل ما على لانى وزوجته الملكية ان يصنعاه هو الشعور بالسعادة ، ولديهما اغلى انواع اللعب فى العالم للتلهى بهـا ، فقد أنشئت الضيعة لهذا الغرض وبذل الوف الصناع المهرة جهودهم واجهد مئات الفنيين عقولهم للوصول بها الى حد الكمال . فان اراد الزوجان الشابان الركوب فهناك الخيول وان أرادا ركوب سيارة فهناك السيارات ، وان ارادا الخروج الى متن البحر فثمة الزوارق الشراعية والبخارية . وهناك ايضا حمامان للسباحة احدهما فى داخل الدار والآخر خارجها ، فضلا عن المحيط الاطلسى باكمله . وثمة خدم للقيام على شانهما وتنظيف مخلفاتهما ، واشخاص يتقاضون رواتب وبطانة كاملة لتملقهما وتسليتهما . فالعالم قد رتبت اموره بحيث صار من العسير جدا على هذين الزوجين ان يصنعا شيئا نافعا على الاطلاق .

وجاء رفاق اللهو زرافات ، وهم فتيان وفتيات من مجموعة ايرما يقولون عن أنفسهم انهم «متخمون الا انهم يعيشون ويحسون ويفكرون كما لو كانوا مراهقين مايزالون» وقد أصاب الهبوط المالى كثيرين منهم، واضطر نفر قليل منهم الى التخلف ، بيد ان معظمهم واصلوا متابعة الركب وهم يقودون سيارات سريعة ولا يبالون بان يتناولوا العشاء فى موضع ثم يرقصون فى موضع يبعد عنه خمسين ميلا ، ثم يعودون بسرعة السباق الى البيت عند الفجر ، ويختارون احدهم لقيادة السيارة فيجعل همه ان

يبر بوعد الشرف الا يسكر . وكان هؤلاء الفتيان قد ذهبوا الى الكليات ، اما الفتيات فذهبن الى المدارس الراقية الخاصة التى تعد الفتيات للحياة الاجتماعية وتزودهن بالثقافة اللازمة ، فاكتسبوا واكتسبن اساليب السلوك الراقية الحديثة ، ولكنهم لم يحظوا بافكار تقلقهم . وحديثهم حديث مجتمع سرى فلهم رطانتهم الخاصة ونكاتهم الخاصة بحيث انك ما لم تكن « منتميا » اليهم فلا بد أن تسأل ماذا يعنون بكلامهم .

وكان واضحا ان ايرما انتقت لنفسها شخصا غريب الاطوار ، بيد انهم على استعداد لتقبله ، وكل ما عليه ان يتقبلهم كما هم ويصنع ما يصنعون ولا يحاول ان يفرض عليهم افكارا على الاطلاق . ووجد ذلك مسليا فترة من الوقت ، فقد كان الريف في افضل اوقات الربيع ، وضياع « لونج آيلند » مترامية وبعضها انيق ، وكل من لديه الشباب والصحة يستمتع هناك بالتنس والسباحة وتناول الطعام الطيب . ولكن لانى يتناول الصحيفة ويطالع فيها عن المتاعب التى تسود العالم اجمع ، وقد ينزل الى المدينة المكتظة بالناس حيث لا فرصة امام الملايين للعب ، بل وليس لديهم ما يكفيهم من الطعام ، وينظر الى باعة التفاح والرجال الشاحبين المفتقرين الى الخبز وعليهم ثياب لم تزل لها بقية من حشمة واحترام ، ملايين يهيمون في انحاء الارض باحثين عبثا عن العمل ، واسر كثيرة مطرودة من مزارعها لانها عجزت عن اداء الضرائب . ولم يكتف لانى بمطالعة الصحف العادية المحترمة فراح يبحث عن الصحف الحمراء والوردية ثم يروى لأصدقائه الأثرياء ما وجده فيها ، فلا يصدقه أكثرهم. ولا احد منهم لديه أدنى فكرة عما ينبغي ان يسمع حيال ذلك .

ما من احد لديه مثل هذه الافكار فيما يبدو ، فالطبقات الحاكمة في مختلف الامم ترقب انهيار اقتصادياتها وكانهم متفرجون عن كثب على بركان يرون الحمم النارية تنبثق متدفقة من فوهته ، وسحب الرماد الكثيفة تنحدر نحو السفوح فتبتلع الكروم والحقول والاكواخ . وكذلك كانت الحال عندما وقف بليني الاصغر قرب جبل فيزوف قبل الف وتسعمائة سنة تقريبا ثم كتب الى المؤرخ تاكيتوس يصف تجربته :

لقد نظرت ورائى فاذا ظلمة هائلة تخيم من خلفنا وتقبل هادرة فتغطي ولأرض من ورائنا كالطوفان . وما كدنا نجلس حتى خيمت فوقنا الظلمة ، وماهى بظلمة كظلمة ليل لا قمر فيه أو ملبد بالغيوم بل هى ظلمة حجرة مغلقة المنافذ مطفأة المصباح . وكنت تسمع صراخ النساء وبكاء الاطفال وصياح الرجال ، وفريق منهم يبحث عن أطفاله ، وفريق

آخـر عن والديه ، وفريق ثالث عن الزوجات والازواج لا يميزونهم الا باصواتهم • وهذا شخص يندب حظه ومصيره ، وآخـر يندب اسرته ، ومنهم يصلى طالبا الموت لشدة خوفه من الموت ، وكثيرون يرفعون أيديهم الى الالهة ، ولكن خيل للجانب الأكبر من الناس انه لم تعد ثمة آلهة فى اى مكان ، وان الليل الأخير الأبدى قد ران على العالم •

- ٥ -

وعن طريق سفينة عبور السيارات مابين لونج ايلند ونيولندن بولاية كنكتيكت أخذ لانى زوجته بالسيارة الى بيت أبيه وقضيا هناك اسبوعا مع الأسرة • وكانت مدينة كاسل قد تأثرت بالكساد تأثرا شديدا فاغلق مصنع الأسلحة تماما ، ومصانع البضائع الحديدية والمصاعد وغيرها تدار ثلاثة أيام فى الاسبوع فقط • والعمال يعيشون على مدخراتهم ان كانت لديهم مدخرات ويرهنون دورهم ويفقـدون سياراتهم وأجهـزة الراديو لعجزهم عن اداء اقساطها • وكانت هناك قرابة ألف أسرة مملقة تمـام الاملاق ومعظمهم من عمال بد ، فكان لذلك كله وقعه الشديد على ضمائر جميع أفراد الاسرة السائدة وجيوبها بها وكانت استر تبذل مجهودا أشد مما كانت تبـذله أثنـاء الحرب العالمية ، فهى رئيسـة اللجنة المـالية لمطابخ الحساء الشعبى فى المدينة ومساعدة الاطفال ، ولذا فهى تطوف بمنتديات السيدات والكنائس لتسرد على الأسماع قصصا مرهقة مروعة تحمل النساء على البكاء ، حتى لا تتوقف أعمـال الاحسـان الفردية كل التوقف •

وكان الموقف حرجا كما أخبرها زوجها ، لأن أمريكا اذا اضطرت لاتباع النظام الانجليزى فى المنح ، فسيكون ذلك نهاية النشاط الخاص والتلقائية الفردية • وبدا روبى لابنه كأنه الوتد الأساسى فى فريق لشد الحبل ، فهو قد حفر لعقبية مكانا فى الارض وكز على أسـنانه ونفرت عروقه من جبينه القرمزى لفرط المجهود الذى يبذله لمنع بلاده من التحرك فى الاتجاه الخاطىء • وكان روبى قد توجه الى وشنطن لمقابلة الرئيس هوفر بطله ورئيس فريقه • ووجد المهندس العظيم وقد احدق فعلا به ، فجميع قوى الفوضى والهدم ـ فهكذا كان يعتبرهم روبى ـ تحاول زحزحته عن موقفه فى اصراره على وجـوب موازنة الميزانية والمحـافظة على قيمة الدولار واتاحة الفرصة للاعمال المالية كى تعود سيرتها الاولى فى الوقت المناسب وعلى حسب القواعد الجارية •

وكانت المدن والاقاليم قد قاربت نهاية مواردها فراحت تطالب بمساعدات فيدرالية ، والجنود العائدون كانوا قد نظموا انفسهم للمطالبة بعلاوة عن الخدمات التي أدوها وراء البحار في حين كان رجال الأعمال في ارض الوطن يملئون جيوبهم بالمال • وهكذا قام المهيجون بالهجوم والزبد يتدفق من اشداقهم ، ومرروا مشروع قانونهم من الكونجرس رغم اعتراض رئيس الجمهورية • وواصل هربرت المسكين القاء خطبه عن نظام الفردية المهلهل في أمريكا وقوى من عزيمته ان يرى رجل أعمال متين كان رجال البترول مثله ذات يوم ، يأتي ليقول له انه ينقذ المدنية بسياسته •

وبطبيعة الحال كان على استر أن تصدق زوجها ، فكانت تخبر جميع سيدات النادى وسيدات الكنيسة انهن ينقذن المدنية فيضعن سنتاتهن أو دولاراتهن في صندوق التبرعات ويجتمعن فيغزلن الصدارات أو يطبخن ويقدمن الحساء الساخن • ولكن كل تدهور في « وول ستريت » كان يخرج مزيدا من الرجال من أعمالهم في نيوكاسل ، مماجعل السيدات يضقن بالحال ذرعا • وحينما كتبت ايرما شيكا بخمسة آلاف دولار للاطفال انهمرت دموع الشكر على وجنتى زوجة والد لانى • ولئن كان لانى قد سبب لها أحزانا كبيرة في الاعوام الماضية ، فقد ارتفع الآن تقديره الى عليين •

بل وصبغته الوردية في السياسة صارت شيئا محترما بفضل لون بيس القرمزى ، وكانت أمها تسأل عن أحوالها وهى فى حالات اشد حالات القلق عليها •

وقرر نادى نيوكاسل الريفى أن يقيم حفلة راقصة تنكرية للاغراض الخيرية ، وثمن التذكرة خمسة وعشرون دولارا ، فان لم تحضر الحفلة فانت لست شيئا مذكورا • واضطرت ايرما ولانى للذهاب بالسيارة الى مدينة قريبة ، لأن كل من يعرفون الحياكة في نيوكاسل كانوا مشغولين فعلا بصنع الأثواب التنكرية • ولكن الأمر كان على مايرام في تلك المدينة الاخرى لان مداخن مصانعها كانت أيضا لا يتصاعد منها الدخان • وانكب على العمل ليل نهار عدد من النساء ، وكانت النتيجة ان ظهر الزوجان الزائران في ثوبين فاخرين جدا يمثلان بياتريس وبنيدك من المخمل الاحمر والارجوانى وبطانة ذهبية • وكانت المناسبة مبهجة ، ولما انقضت اهدت ايرما ولانى الثوبين الى لجنة التمثيل بالنادى الريفى ، لأن ايرما قالت انك ان طويتهما وحملتهما في السيارة انتشرت فيهما الغضون والتجعدات فلا يصلحان للاستعمال مرة أخرى •

- ٦ -

لم تكن زيارة مدينة صناعية في مثل هذه الاوقات مصدر بهجة ولكنها مدينة آل بد ، وفى أيام الرخاء كان كل انسان هناك ودودا فى معاملته للزوجين الشابين وأصدقائهما ، حتى اليهود منهم لذلك كان من الضرورى الآن أن يبقيا ويبديا التعاطف وشيئا من العون ويتقبلا الحفلات التى تقام لتكريمهما ويصافحا عددا لا يحصى من آل بد ويثرثرا معهم ، ولم يكن لانى نفســه يستطيع أن يتذكرهم جميعا ، فكان لابد له من استذكار أسمائهم وقراباتهم على وجه السرعة كأنما يستعد لامتحان فى الكلية . ولعبا كذلك الجولف والتنس فى النادى وسبحا وركبا الزوارق الشراعية فى جو يونية البديع . وكان الريف من حولهما كانه معرض هائل للورود البرية ، والطبيعة باسرها تدعوهما الا يسرفا فى القلق لأن الحياة سائرة فى طريقها .

وكان لا بد لهما ايضا من التوجه لزيارة رئيس مؤسسة بد لصناعة البنادق ، وكان الشيخ قد قال للانى انه ربما يراه بعد ذلك مرة أخرى ، بيد انه ظل حيا ثابتا فى مكانه ، ولم يزل قائما بادارة الشركة عن طريق التليفون . وكانت يداه تهتزان بحيث يتالم من يرقبهما ، وخداه يتهدلان فى طيــات كأنمــا جلده الاصفر أصبح ضـــعف ما ينبغى لتغطية هيكله المنكمش . الا انه لم يزل ذلك المتطهر العبوس ولم يزل يستجوب لانى ليتأكد من انه لم ينس نصوص الكتاب المقدس . وكان قد سمع بالطبع بولادة الطفلة فرانس وقال انه برىوعده فذكرها فى وصيته وان كان لا يعلم هل لم تزل لديه ممتلكات على الاطلاق أو هل تســاوى أسهم بد الورق المطبوعة عليه . ودقق فى سؤال الزوجين عن اعتزامهمــا العمل على انجاب آخر عسى أن يكون غلاما ، فقــالت له ايرما انهمــا يتركان هــذه المسالة للرب . ولم يكن الامر كذلك ، ولكن لانى لم يناقضها ، وقالت له فيما بعد انه لخزى أن تقلق بال ذلك الشيخ وهو على حافة القبر .

وكان كل انسان يعلم انه لن يستطيع الثبات فترة طويلة من الزمن وكانت ثمة حرب ناشبة من وراء ستار فى سبيل السيطرة على الشركة ، فنشب صراع مؤلم بين روبى وأخيه الاكبر لورفورد ، وهو رجل صموت مكتئب شكس يتولى شئون الانتاج ، ولم يره لانى وايرما الا عندما توجها الى « الكنيسة الملية الأولى » . ولم يكن الجد العجوز قد صرح باسم من

يرغب في ان يخلفه ، وبطبيعة الحال لم يحب احد أن يسأله • ومنذ فترة من الزمن يقوم لورفورد بمقابلة المديرين وعرض وجهة نظره في الموضوع وهي تتضمن اطلاعهم على الاخطاء التي ارتكبهـا روبي ، أو التي يعتقد لورفورد انها أخطاء • وبطبيعة الحال أدى ذلك الموقف بالنسبة لروبي الى ضرورة الدفاع عن نفسه فصار الموقف قبيحا ويعتقد روبي ان زمام الموقف بيده حتى الآن فابوه قد جدد عقده بصفته ممثل الشركة لشئون المبيعات الاوربية خمس سنوات أخرى ، فاذا حصل لورفورد على الرئاسة فسيضطر لدفع ثمن باهظ لشراء كل حقوقه واجلاء عن الميدان •

- ٧ -

وكانت الحالة المالية في المانيا تسير من سيىء الى أسوأ ، وتلقى روبي خطابا من يوهانس قال له فيه ان الاحوال تبدو وكان نهاية كل شيء قد حانت ، فالقروض الأجنبية قد انقطعت والمانيا لا تستطيع المضي في طريقها بدون هذه القروض • وكان يوهانس يقوم باخراج مزيد من امواله من البلاد ويطلب من روبي مساعدته في استثمارها • وقال روبي لابنه في سرية شديدة — فايرما نفسها لاينبغي أن تعلم ذلك ان الرئيس هوفر كان قد أعد تأجيلا جبريا للدفع بالنسبة للديون الدولية ، وهو لم يزل مترددا في هذه الخطوة الخطيرة : هل تساعد على تحسن الاحوال أو تسبب مزيدا من الذعر ؟ فالفرنسيون الذين لم يؤخذ رأيهم في هذا الاجراء قد يستشيطون غضبا •

وصدر الاعلان بعيد عودة الزوجين الشـابين الى شور آكرز ، واستشاط الفرنسيون غضـبا ، ولكن هذا الاجراء لم يساعد الالمان كثيرا ، ففي منتصف شهر يوليه أفلس بنك دانات العظيم في برلين واحدث افلاسه ذعرا يضارع ما شـهده لاني في نيويورك من قبل • وتوجه المسـتشار برونج الى باريس يلتمس العون ، ولكن رئيس الوزراء لافال أباه عليه • ففرنسا الآن أقوى دولة أوربية ماليا ، اذ تجلس متربعة فوق تل من الذهب ، وترفض أن تقرضه الا لتسليح بولندا وحلفائها الآخرين في الشرق الذين كانوا يبتزون مالها بلا رحمة • وكانت بريطانيا قد اقترفت خطأ بمحاولة تدعيم المالية الألمانية ، فاذا بماليتها الآن تهتز نتيجة لذلك• وكتب دنيس دي بروين الشاب الى لاني يقول « لسنا بلهاء الى هذا الحد » فرد عليه لاني « ان تركتم الجمهورية الألمانية تسقط واستولى هتلر على الحكم ، فهل سيكون ذلك في مصلحتكم ؟ » ولم يرد عليه الشاب دنيس •

كانت هذه هي المشكلات التي تواجه رجال السياسة في الوقت الذي ينعم فيه شابان مدللان ثريان بالبهجة والمرح في سائر انحاء الولايات الشمالية الشرقية ، تصلهما الدعوة الى مكان فيأمران بحزم حقائبهما ويستقلان سيارتهما في الصباح ليقوداها بضع ساعات أو ربما طول النهار لينزلا منها الى ضيعة في بار هاربر او نيوبورت او بركشاير او تلال راماتو أو اديروند آكس أو جزر ثاوزند · وإينما توجها فثمة قصر ـ حتى ولو أطلقوا عليه اسم « كوخ » أو « معسكر » · وتعرف المعسكر بأنه مقام من رقائق من الخشب ، يرتدي فيه الناس ملابس الرياضة ولا يرتدون ثياب السهرة لتناول العشاء ، الا أن وجبة العشاء ضخمة مستفيضة الألوان مع ذلك لأن ما من أحد يقيم بمكان الا بعد أن يكون قد أرسل مجموعة خدمه من قبل ، بحيث تكون جميع وسائل الراحة مكفولة بما فيها كمية كبيرة من الخمور المهربة وترسل أجهزة الراديو والجرامافون موسيقاها للرقص ، وان لم يتيسر العدد الكافي للالعاب يدعون بالتليفون بعض الأصدقاء من مسافات طويلة فيأتون بالسيارات من على بعد مائة ميل أو أكثر ، وعندما يصلون يتباهون بسرعتهم · ومرة أخرى ذكر لاني الشاعر الانجليزي كلاف وانشودته التي ينسبها الى الشيطان في تجسده من تجسداته الكثيرة « ما أجمل أن يملك المرء المال أواه ! ما أجمل أن يملك المرء المال ! » ·

ولم يزل هؤلاء الشبان يملكون المال وان كانت جداوله بدأت تنضب · ولكن أسوأ ما يسببه هذا الكساد من الاحراج بالنسبة لبنت ج · بارامونت بارنز ، ان الكثيرين جدا من اصدقائها تحل بهم المتاعب تباعا ويحيطونها بذلك علما · وقد ألفت نفسها في موقف مبرح حقيقة ، ففي وسط مباراة للبريدج في تكسيد وبارك تلقت المضيفة اشارة تليفونية من سمسارها في نيويورك ودخلت على ضيوفها شاحبة الوجه وقالت انها مالم تستطع اداء خمسين ألف دولار نقدا صباح الغد فسيقضى على مركزها المالي نهائيا · ولم يكن كل انسان يملك كل هذا القدر من المال في البنك ، ولا سيما في أوقات انتشرت فيها الشائعات حول هذا البنك وذاك · ورأت ايرما عيني مضيفتها مثبتتين عليها ، فشعرت بضيق لا مزيد عليه ، لانها لا تستطيع أن تعالج الكساد بمفردها وحدها ، ولابد أن تقف عند حد مهما كانت الاحوال ·

أجل لم يكن امتلاك كل هذا المال مصدر بهجة خالصة ، فانت لا تريد أن تنطوي على نفسك وتصبح متحجر القلب غير مكترث بعذاب الآخرين ،

ولكنك تجد نفسك محاطا بأناس يريدون ما في يدك ولا يستحقون ذلك في جميع الاحوال • وهم اناس لم يتعلموا قط أن يصنعوا شيئا نافعا ويجدوا أنفسهم لاحول لهم ولا حيلة كالاطفال فى هذه الازمة • وينبغى بطبيعة الحال ان يعملوا شيئا ، ولكن ماذا يستطيعون أن يعملوا ؟ ان جميع المناصب مشغولة فيما يبدو بأشخاص يعرفون كيف ينهضون بأعبائها • وفي الوقت الحاضر يقال ان ستة او ثمانية أو عشرة أشخاص يبحثون عن اعمال فلا يجدون • ثم ان لانى وايرما لا يبدو عليهما انهما الشخصان تماما لاعطاء هذا النوع من النصح !

- ٨ -

وكان يوم أول يوليه موعد توزيع الحصص ، ولكن كثيرا من أكبر الاتحادات المالية واهمها اغفلت ذلك فأحدث هذا التصرف هزة فى « وول ستريت » ، ولاولئك الذين يعيشون على هذه الحصص • واصيب دخل أيرما بمزيد من النقص ، وبدا أن الانكماش يزمع أن يستمر • وكانت الانباء من الخارج من أسوأ ما يمكن • وريك الذى يعرف ما يدور وراء الكواليس كتب بما يعرف الى صديقه • فالمستشار الالمانى فى لندن يستجدى ارصدة ، ولكن مامن احد يجرؤ على مساعدته أكثر من ذلك ، وفرنسا قاسية متحجرة القلب لأن الالمان ارتكبوا جريمة محاولة اقامة اتحاد جمركى مع النمسا . ولكن كيف يستطيع هذان البلدان البقاء ان لم يتمكنا من المتاجرة ؟

وكانت عادة لانى طول حياته ان يجلس ويصغى لمن هم اسن منه يتحدثون عن احوال الدنيا ، وهو الآن يعرف عن أحوالها أكثر من معظم من يلتقى بهم ، حتى من هم أسن منه • ففى حين تلعب ايرما البريدج او تنس المائدة مع اصدقائها الشبان الذين كانوا قد أكتسبوا مهارة مدهشة فى هذه اللعبة السريعة ، ينصرف لانى الى أخبار رئيس بنك من أكبر بنوك « وول ستريت » لماذا اخطأ حين نصح عملاءه بشراء سندات ايطاليا الفاشستية أو ينصرف الى اقناع عجوز من أغنى نساء امريكا بأنها لم تعمل حقيقة على مساعدة الكفاح ضد البلشفية عندما منحت مبلغا من المال لنشاط النازى فى الولايات المتحدة . وكان شاب المانى مثقف لطيف جدا قد قدم اليها وشرح لها تلك الحرب الصليبية المقدسة لصون المدنية الغربية من الهمجية الآسيوية التى تتهددها !

وانه لعالم شديد التعقيد بالنسبة لتابعة مخلصة للكنيسة الاسقفية وعضو فى جمعية بنات الثورة الأمريكية • وكانت ثروتها المصرفية تزودها بقوة هائلة وهى شديدة الرغبة فى استخدام هذه القوة بحكمة • واخبرها لانى بالعناصر الاساسية المتباينة لبرنامج النازى ، فاستولى على السيدة العجوز الرعب • أخبرها كيف ان هتلر أخذ يتخلى عن هـــذه العناصر الاساسية واحدا بعد واحد فأخذت العجوز تنتعش مرة أخرى • بيد ان لانى آكد لها أن هتلر غير مخلص فى تخليه عن هذه العناصر كما أنه لم يكن مخلصا فى اتخاذها ، فكل مايريده هو الوصول الى الحكم وعندئذ يفعل كل ما يتراءى له ضروريا للاحتفاظ بسلطته وزيادتهـا • ووجد لانى من المستحيل اقناع السيدات الامريكيات المتحرجات المهذبات الرقيقات بان هذا المسلك حقيقة واقعة ، لفرط بشاعته • وانت حين تمعن فى الحديث عنه لاتفلح فى اقناعهن الا بأن نفسك الشاكة تعانى عيبا خفيا •

- ٩ -

ولم يكن فى وســع لانى أن يعيش مع هــذه الطبقات المتخمة طول الوقت فعاوده الحنين الى اصــحابه من ذوى الآراء والوردية ، وهبط الى المدينة الحارة المكتظمة بالناس وقام بزيارة أخرى الى مدرسة رائد للعلم الاجتماعى • واخبرهم بما كان يفعله فى سبيل تعليم العمال فى الريفيرا واكتتب بمبلغ فى نفقات المدرسة فسرى الخبر بسرعة أن هاهو صاحب كيس مكتنز بالنقود فاذا بكل صاحب قضية وثمة مئات منهم فيها بعد، — يكتب اليه الرسائل أو يبعث اليه بوثائق ونداءات منسوخة أو مطبوعة لجمع الاكتتابات • فالعالم ملآن بالمتاعب ، وما أقل من يعنيهم أمرها !

وأرسل أيضا اشتراكا فى صـحيفة القـائد الجديد « نيوليدر » فصارت توافيه بجرعة أسبوعية من فظائع النظام الرأسمالى الذى كون لنفسه قوة هائلة فى مجال الانتاج ثم عجز عن استخدامها ، مما جعل الملايين يتضورون جوعا فى حين يتخم ويسمن عدد محدود من الطفيليين يعيشون فى الترف والبذخ • ويترك لانى هذه الصحيفة ملقاة على المنضدة فى حجرته فترى أيرما العناوين البارزة وتقول « ويحى أما زلت تقرأ هذا الكلام ؟ فقد كان يضايقها ان توصف بانها من الطفيليات ، وأن يقول لها لانى « ولكن هذه حقيقتنا » ثم يمضى فى اثبات ذلك •

وكان لعدد من جماعات العمال واتحادات العمل معسكرات صيفية

يستطيع اعضاؤها قضاء العطلة فيها · وذهب لانى ليلقى نظرة على معسكر منها ، وفي ذهنه أنه ينبغى أن يعزف العمال بطريق مباشر ، الا انه اخطأ باصطحاب زوجته معه فأفسد كل شيء · وقد بذلت ايرما وسعها ولكنها لم تعرف كيف تتصرف على سجيتها · فقد كان المكان مكتظا ، وثيـــاب العمال بعيدة عن موافقة العرف وسلوكهم منطلق مرح وهم يحظون بوقت طيب على طريقتهم الخاصة غير مكترثين باختلاف ذلك عن طريقتها هى ، فهم لايرفعون ابصـــارهم الى المقـام الملكى ولا يسرهم أن ينظر اليهم احد كأنهم حديقة حيوان · وقصارى القول أن هذه الزيارة التى كانت جهدا لاقامة جسر عبر الهوة الاجتماعية التى تفصلها عنهم منيت بالفشل ·

وعلى الساحل الجنوبى من لونج أيلند توجد به ضيعة بارنز مصيف معروف باسم جزيرة كونى ، وكان لانى قد سمع به ولكنه لم يره قط· ولم يكن لدى ايرما الا ذكريات غامضة عنه منذ زارته ذات مرة فى طفولتها فى صحبة ابيها · وبعد ظهر يوم أحد حار خطرت الفكرة الشاذة لأحد أصحابها الوجهاء فقال « هيا بنا نذهب ونشاهد كونى ! » وقال الجميع ان هذا المصيف مشهد يرى ، فهو أولى مكان فى العالم بدراسة المهتمين بالأحياء القذرة ، اللهم الا أن تكون قد ذهبت الى شنغهاى أو بومباى فى احدى تلك الرحلات الفاخرة البحرية ·

وتوجهوا بسيارتين كبيرتين للأحمال الثقيلة الى المصيف ، وكان لسانا طويلا من الارض داخلا فى البحر · ووجدوا عناء فى العثور على مكان تقف فيه سياراتهم واضطروا للسير على الاقدام ميلين ،ولكنهم كانوا شبانا قد خرجوا للهو · ولابد أن عدد الناس فى المصيف وصل الى المليون، ومعظمهم محتشدون فوق الشاطىء العريض الممتد من العسير التنقل بين مجموعات المستلقين أو الجالسين على الرمل وقد ضاقت أنفاسهم من قيظ الشمس · فان كنت تريد معرفة الحقائق الأولية عن الحيوان الآدمى فهذا هو المكان الذى يمكن أن ترى فيه بالضبط أفراد هذا النوع الى أى حــد تبلغ بدانتهم أو هزالهم ، والى أى حد هم مشعرون أو مقوسو السيقان أو منحدرو الاكتاف ،والى أى حد يختلفون عماما عن المقاييس التى انشاها براكسيتيل · وفى وسعك أيضا أن تكتشف الى أى حد يصل نتن رائحتهم، وأى الأصوات الفظة تصدر عنهم ، وأى صنوف المآكل كريهة الرائحــة يتناولون، والى أى مدى يبلغ ابتعادهم عن الرشاقة والأناقة وكم ذا تبلغ سطحيتهم ·لقد كان أسوأ سيئاتهم فى نظر لانى بد التزمت فراغ عقولهم ، فهم قد أتوا الى هنا فى عطلة ويريدون الترفيه ، وثمة شارع لا نهاية له

.به كثير من الافانين المعدة لهذا الغرض ، وبثمن يبدأ من بضعة سنتات فصاعدا تستطيع أن تركب عجـــلات دوارة هائلة ترتفع بك فى الهواء أو تمتطى زرافات وحميرا وحشية مطلية بألوان براقة فتدور بك فى سرعة أو تركب سيارات صغيرة يرتطم بعضها ببعض ، أو تمشى فى انفاق مظلمة بها زلازل مستمرة ، أو فى أنفاق مضيئة تهب عليها تيارات هواء مفاجئة ترفع ثياب النســاء ، الى فوق فيصرخن ، أو تسلم نفسك الى الأشباح والوحوش فتفزعك ٠

وقصارى القول أن ثمة آلاف الأشياء العجيبة ، وكلها تنطق بأنك حيوان ولست كائنا ذا عقل ٠ وفى الامكان اذلالك وتسخيفك ، ولـكن قلما يمكن فى جزيرة كونى أن يرتفع مستواك أو تلهم شيئا أو تتعلم شيئا نافعا ٠ واعتبر لانى ذلك المكان الذى يشبه الكابوس تجسيدا لسائر أنواع الانحطاط التى صبها النظام الرأسمالى على الملايين الكثيرة من ضحاياه ٠ فهو يقوم على أى شيء يمنعهم من التفكير ٠

وهذا شأن شاب ذى لون سياسى ووردى ، وقد أقحم نفسه فى جدل حامى الوطيس مع شحنة سيارة من رفاقه الشبان ، وكانوا قد استخلصوا نتائجهم الخاصة فى هذا الانغماس فى الحياة الجسدية ٠ فايرما التى كانت تحتكر لنفســها نصف ميل من واجهة المحيط اثار تقززها أن يكتفى أحد من الناس باحتلال عشرة أقدام مربعة من هذه الواجهة أو نحوها ٠ واما رفيق طفولتها بابس لوريمر الذى كان أبوه ذات يوم صاحب « كورنر » فى المضاربة على القمح فاستخلص نتائج سياسية من هذا المنظر وتساءل كيف يتصور أى انسان ان تكون للجماهير كلمة فى ادارة دفة الحكومة وأما نودلز « ومعناه الاخرق او شعرية الحساء ونترون واسمه الاصلى نيوتن وتحصل أمه الأرملة على كسر صغيرة من السنت من كل شخص يركب الترام الى جزيرة كونى ــ فنظر الى المشكلة من الناحية البيولوجية وقال انه لايتصور كيف استطاعت جموع هذه المخلوقات القبيحـــة أن تعيش ولا يستطيع أن يعرف لماذا يرغبون فى الحياة ٠ ومع هذا انظر الى اطفالهم وكثرتهم ؟

ــ ١٠ ــ

واتضح للانى ان أحواله سائرة ســيرا حسنا بصورة مدهشــــة مع أفراد أسرة ايرما المباشرة ففانى بارنز ذات الشخصية المسيطرة كانت جامدة فى أفكارها وآرائها ، ولكن معظم هذه الآراء تتصل بمسائل آداب

السلوك والذوق ومكانة الاسرة فلم تكن تعير المسائل السياسية والاقتصادية كبير اهتمام وكان الدافع الرئيسي في حياتها هو الكرامة والكبرياء ، فهي تعيش على ايمانها بأن ربها البروتستانتي الاسقفي قد خص أسرتها بأرومة قيمة ممتازة تسري في دمائها . وهي تعتقد اعتقادا جازما ان أصحاب هذا الدم الممتاز لا يمكن ان يقترفوا خطأ خطيرا ، ووجدت الوسيلة لاقناع نفسها بأنهم لم يقترفوا شيئا من هذا القبيل . وقد وطنت العزم على أن تتقبل على خير وجه ذلك الصهر الذى اختارته لها الأقدار ، وسرعان ما راحت تتلمس له المعاذير . أيسميه بعض الناس اشتراكيا ؟ حسن . لقد تربى في اوروبا حيث لا تحمل مثل هذه الأفكار المغزى المعروف لها في امريكا . أو لم يصرح انجليزى نابغ ــ لم تستطع فانى أن تتذكر اسمه بقوله ــ « كلنا الآن اشتراكيون » ؟ واما عن سلوك لانى بصفته زوج الملكة فثمة شيء كثير يقال ، فآداب سلوكه ممتازة وحديثه أكثر امتيازا . ولم يكن يسكر اطلاقا ، وكان يحتاج الى من يحثه على انفاق مال زوجته . والشكوك التى أحاطت بمراسم زواج امه بأبيه لم تصل أنباؤها الى الصحف ، وأسرة أبيه العريقة جدا تستقبله . ولذا راحت الملكة الأم الطويلة العريضة المهيبة فى شور آكرز تتملقه لتحصل منه على الامرين اللذين تصبو اليهما بشدة ، وأولهما أن يساعد ايرما فى انجاب حفيد يطلق عليه اسم فاندرنجهام، والأمر الثانى ان يتركا الطفلة فرانس في شور اكرز حتى تربى على تقاليد آل فاندرنجهام .

أما الخال هوراس ذلك الرجل الشديد الاحتمال الذى يتحرك بنشاط عجيب فقد أثبت انه قريب رضى الخلق أيضا . وهو يتمتع بروح الفكاهة الذى يمازجه شيء غير قليل من الخبث . فكان يروقه ان يسمع لانى « يسخر من » الطبقة الحاكمة الثرية الامريكية ، ولا سيما نماذج هذه الطبقة ممن يأتون الى ضيعة بارنز . فهو شخصيا قد قضى على ثروته قضاء مبرما فتضاءل اعجابه بالنظام وازداد سروره برؤية من يتندرون به . وكان يقهقه لسماع نكات لانى ذات اللون الوردى ، واتخذ لنفسه دور رجل البلاط المسن الذى يتملق ملكا حديث التتويج . فهل تراه كان يأمل فى ان يقنع لانى ايرما يوما ما باتاحة الفرصة له لتجربة حظه مرة أخرى فى السوق ؟ أم هو يريد فحسب أن يستوثق من استمرار المعاش المريح الذى تمنحه اياه ؟ مهما يكن من شيء ، فهو عشير طيب .

اقبلت أصداء الكارثة هادرة من ألمانيا الى انجلترا ، فالتجارة تذوى والمصانع تغلق والبطالة تزداد والشكوك تنتشر حول سلامة الجنيه الاسترليني الذى ظل قرنا كاملا معيارا للقيمة النقدية فى العالم أجمع ، واخذ المستثمرون يلوذون بالدولار والفلورين الهولندى والفرنك السويسرى . وتحدث ريك عن الموقف فى بلاده فقال ان الحاجة تدعو الى جرأة والى فرض ضريبة على راس المال واتجاه الى اشتراكية الائتمان ، ولكن ما من حزب سياسى لديه الشجاعة أو صواب الرؤيا ، فالمحافظون ينادون بموازنة الميزانية بأى ثمن وتخفيض المنح ومرتبات معلمى المدارس، بل ومرتبات رجال البحرية وهى قصة بعينها مع ما اسماه « الفردية المهلهلة » . فالمهم انقاذ قاعدة الذهب بأى ثمن وانقاذ قوة الطبقة الدائنة .

وفى بداية سبتمبر سقطت حكومة العمال . وكل ماوقع سلسلة من الاحداث العجيبة ، فرئيس الوزراء العمالى رامسى مكدونالد وعدد من زملائه فى الوزارة القديمة انضموا الى المحافظين وكونوا ماسموه حكومة «قومية» تنفذ البرنامج المضاد لبرنامج العمال . وقد حدث مثل ذلك من قبل فى تاريخ الاشتراكية ، ولكن ليس بهذه الصورة المسرحية اطلاقا ، ولا بهذه الصراحة العلنية . وكتب ريك عن ذلك فى الصحف اليسارية فقال ان الذين يخونون آمال الطبقات الكادحة يحاولون عادة بعبارات منمقة ان يداروا انهم انما باعوا أنفسهم ، ولا يبرزون الى الطريق العام ليروا الناس انهم يتجردون من ثيابهم العمالية القديمة ليرتدوا كسوة الخدم الرسمية التى تحمل شعار سادتهم .

وكان ريك فيلسوفا يحاول أن يفهم أفعال البشر فقال ان الطبقات الحاكمة لا تستطيع أن تجد بين صفوفها العدد الكافى من ذوى المقدرة العقلية ، فتضطر باستمرار للاغارة على الطبقات الاخرى للحصول على ذوى العقول . وقد أضحى من مهمة الحركة الاشتراكية أن تدرب وتعد فنانين فى السياسة يتغيرون بسرعة البرق ، وهم رجال يفهمون العمال ويعرفون كيف يخدعونهم بالوعود الخلابة ثم يتسلقون على أكتافهم الى السلطة . ففى ايطاليا ظهر موسيلينى الذى تعلم أصول مهنته من تحريره اهم صحيفة اشتراكية فى البلاد . وفى فرنسا لا أقل من أربعة رؤساء بدأوا حياتهم العملية ثوريين متحمسين ، واحدثهم عهدا بيير لافال وهو ابن صاحب حانة كان يقود عربة عامة لأبيه ذات حصان واحد ويطالع

أثناء قيادتها المطبوعات الاشـــتراكية فتعلم كيف يجعل الناس ينتخبونه عمدة لبلده ٠

ولماذا يبيع هؤلاء الناس حزبهم وقضيتهم ؟ في سبيل المال ؟ ان لهذا الدافع أثره طبعا ، ورئيس الوزارة في انجلترا أو فرنسا يتقاضى مرتبا أكبر بكثير من المحرر الصحفي الاشتراكي ، ويعيش على مستوى أعلى منه بكثير ٠ ولكن الاهم من هذا هو دافع الرغبة في السلطة ، والفرصة لتوسيع آفاق الشخصية والتأثير على العالم وان تظهر صـــور المرء وأخباره في الصحف ٠

وان يقبض على الزمام ويقود سيارة الوطن العامة ٠ وحول رجل الدولة يتجمع الوف المتملقين ليقنعوه بأنه لا غنى عنه لرفاهية البلاد ، وان الخطر على الابواب ، وانه وحده يستطيع أن يتصدى للدوامة ويوجه العاصفة ويتحكم فيها ٠

وارسل ريك الى صديقه مجموعة كبيرة من قصاصات الصحف تبين كيف صار هذا الرجل الذي فقد مقعده في مجلس العموم ذات يوم بسبب معتقداته السياسية بطلا محبوبا لدى الذين طردوه من مقعده بالذات ٠ فالصحافة الراسمالية بأسرها وقفت خلفه صفا واحدا مثنية على فعلتـــه باعتبارها أعظم خدمة عامة ٠ وكتب ريك « ولكنـــه سيكتشف انه صار أسيرهم فلن يستطيع أن يصنع الا ما يسمحون له به ، ولن تكون له حياة سياسية الا في خدمتهم » ٠

وأودع ريك خطابه البريد ، ولكن قبل أن تصل الباخرة نيويورك جاءت البرقيات بأن أسير المحافظين قد سقط ٠ وخرجت بريطانيا على قاعدة الذهب ، ففقد الجنيه الاسترليني نحو عشرين في المائة من قيمته٠ واتفق ان وافق ذلك اليوم الحادي والعشرين من شهر سبتمبر ، وهـــو يوم مشهود في تاريخ وول ستريت ، لأنه كان قبل عامين اثنين تاريخ أعلى قمة وصل اليها سوق الصعود الكبير ٠ وفي هاتين السنتين فقدت الاوراق الامريكية المالية ستين في المائة من قيمتها ، والآن جاءت هذه الانباء المزلزلة فسببت هبوطا جديدا ! وقال لاني بد لأبيه تليفونيا « انظر أين الصلب الآن ! » ٠

ووسط هذه الفوضى العالمية قام بيير لافال ابن صاحب الحانة بزيارة لالمانيا ليرى ماذا يمكن عمله لتلك الحكومة المتهوسة. وكان الغلام الحودى قد كبر وصار رجلا قصيرا ممتلىء الجسم ذا شعر اسود ينحرف عن مكانه دائما وملامح قاتمة أشبه بملامح القراصنة وشارب غليظ اسود . وكان قد جمع مالا طائلا ، والمال عون ضخم على المستقبل السياسى ، واحتفظ من عهد اشتراكيته بتذكار واحد : فكان يرتدى دائما أربطة عنق صغيرة جاهزة قابلة للغسل كان طرازها شائعا أيام حداثته ، وكان ثمنها رخيصا لأنه يستطيع ان يغسلها بنفسه . وفي فرنسا يستفيد رجل الدولة من احتفاظه بأحد المظاهر البروليتارية المسرفة فى غرابتها ، والى جانب ذلك لا يكترث الناس كثيرا بأنه باع عقيدته السياسية لأن الناس امسوا متشككين مستهينين بقيمة الرجال العموميين بحيث انحصر أملهم فى ان يتبينوا من بينهم اقلهم مجافاة للشرف والامانة .

وسافر مع لافال أوستيد بريان وزير خارجيته وهو ابن صاحب حانة أيضا واشتراكي آخر كان قد غير تفكيره السياسى ، وكان قد اشترك فى احدى وعشرين وزارة . وذلك شيء يحتاج الى مرونة غير قليلة ، الا انه عمل باقتناع اصيل على توطيد السلام بين فرنسا والمانيا ، وهو الآن شيخ محنى القامة أبيض الشعر ،وصوته الضخم الذى يشبه صوت الأرغن تحطم، وقلبه القوى صار على وشك التحطم . وهو لم يزل يترافع مطالبا بالسلام، بيد أنه أسير لافال، ثم ان الوقت كان قد فات ، والاحقاد والمخاوف القديمة صارت لها الكلمة العليا ، وها هى المانيا الآن فى محنة يائسة ، وفرنسا فى محنة أسوأ لم تدرك حقيقتها بعد .

ويالها من نزوة عجيبة للتاريخ ان يتقابل بريان وهندنبورج ! ان يتقابل ابن الغسالة والارستقراطى ابن بروسيا الشرقية ، وهما عدوان قديمان وقد اقترب كل منهما الآن من القبر ، فصار يفكر فى سلامة بلاده ولا حيلة له فى تامين هذه السلامة . ان السيد الهرم (هند نبورج) يتحدث عن الثورة التى تتهدد المانيا . وهى ليست ثورة من النوع المحترم الذى يمكن أن يعيد أبناء القيصر الى العرش ، بل هى ثورة خطرة نابعة من المجارى ، وتمرد يقوم به العمال المهلهلون بقيادة رجل كان عاملا فى أشغال غريبة غير ثابتة أو مستقرة ، رسام صور لبطاقات البريد وأوباشى من بوهيميا اسمه شيكلجروبر . وبريان يطلب التخلى عن مشروع الاتحاد الجمركى النمساوى الالمانى ، فى حين يلتمس هندنبورج اتاحة الفرصة لبلاده كى تبيع سلعها . وبريان يندد بالخوذة الفولاذية وبوارج الجيب

الجديدة ، فى حين يتذمر هندنبورج من حنث فرنسا بوعدها فى نزع السلاح وهندنبورج يستجدى القروض ، فى حين يبين له بريان ان فرنسا مضطرة الى أن تحتفظ برصيدها من الذهب لأنه الحصن الاخير للاستقرار المالى فى أوربا • كلا لم يكن هناك مجال كبير لالتقاء وجهتى نظرهما ، فاذا الشخص الوحيد الذى له أمل فى الافادة من هذه الزيارة هو الاونباشى البوهيمى سالف الذكر ، الذى كانت صحفه تصرخ مندددة بالزائرين الفرنسيين وبساسة الالمان الذين يلعقون أحذيتهم بلا جدوى على السواء •

وما كان أدولف هتلر شيكلوجروبر ليهاجم هندنبورج ، لان هندنبورج كان صرحا قويا وتقليدا راسيا واسطورة حية • فركزت الصحافة النازية سمومها على المستشار ، وهو كاثوليكى وزعيم لحزب الوسط ارتكب جريمة توقيع مشروع يانج الذى كان يرمى الى استبقاء عبودية المانيا حتى سنة ١٩٨٨ • وها هو هوفر الآن قد اصدر تأجيلا جبريا للدفع • ولكن لن يكون ثمة انذار نهائى بالنسبة لبرونتج ولن تتوقف الحملة النازية المستعرة ضده •

وعرف لانى ذلك كله ، لان هاينريش يونج كان قد حصل على عنوانه — من كيرت على الارجح — وواصل امداده بالمطبوعات النازية • ولم يكن فى شور آكرز كلها من يستطيع قراءتها سوى لانى نفسه • ولكن لم تكن بالمرء حاجة الى معرفة اللغة الالمانية ، فنظرة واحدة الى العناوين كافية للشعور بانها مثيرة، ونظرة واحدة الى الصور الهزلية كافية لادراك ما بها من دعاية للكراهية القاتلة القاسية • ومنها صور تمثل جون بول بنكيرا بدينا يمتص دماء الاطفال الالمان ، أو تمثل ماريان على شكل طائر خرافى برأس امراة يرمز للبشاعة والبخل وهو طائر من الجوارح الشرهة• أو صور تمثل الدب الروسى وبين اسنانه سكين وفى كل مخلب من مخالبه قنبلة ، أو تمثل العم سام فى صورة شيلوك شديد النحول وعلى وجهه ابتسامة هازئة •

وكان الأفضل أن يلقى بكل هذه المطبوعات فى صندوق القمامة من غير ان ينزع اغلفتها • بيد ان ذلك ما كان ليمنع هذا الطوفان الشرير من اجتياح المانيا ، وما كان ليمنع الملايين من الشبان هناك من التشبع بنظرة نفسية مريضة الى العالم • وتساءل لانى بد — الذى يقترب من عيد ميلاده الثانى والثلاثين — هل لم يحن الوقت كى يكف عن اللهو ويبحث لنفسه عن عمل يؤديه ؟ ولكنه ظل يؤجل ذلك العزم ، لندرة الاعمال ، فاذا ما شغلت عملا منها حرمت سواك من توليه ، وهو أحوج اليه منك بكثير جدا ! •

الفصل العاشر

الضمير مجبنة

- ١ -

شهر أكتوبر وأوائل نوفمبر ذروة السنة الميلادية فى الولاية الشمالية المطلة على المحيط الاطلسى لوفرة أشعة الشمس وصفاء الهواء وبعثه على الانتعاش ، ففى وسع الطفل الناشىء أن يدلف بين مواطن العشب فى الحديقة ويمزح مع الكلاب تحت رعاية كبيرة المربيات الجديرة بالركون اليها ، وفى وسع الام والاب الشابين أن يستمتعا بقيادة السيارات ولعب الجولف أو المضى الى المدينة الكبيرة لزيارة معارض الفن وحضور الليالى الافتتاحية في المسارح • وكانت ايرما قد أخذت الى المتاحف وهى طفلة بيد أن ذكرياتها عنها غامضة ، أما الآن فهى تذهب اليها مع خبير تفخر به، وتبذل جهدها لتركز ذهنها فيما ترى أن تتعلم ما تدور حوله هذه الفنون حتى لا تجلس مغلقة الفم حينما يدلى هو وأصدقاؤه المثقفون بآرائهم •

وقد وقع اختيار بيير لافال على هذا الوقت المستحب من السنة كى يزور وشنطن ، بيد أن زيارته لم تكن بسبب المناخ ، لقد جاء رئيس الوزارة الفرنسي لأن العالم لم تعد به سوى دولتين كبيرتين موسرتين تمام اليسر ، وينبغى أن تتفاهم هاتان الدولتان وتؤيد كل منهما الأخرى • وكانت المانيا قد حصلت على بضعة بلايين من الدولارات من أمريكا ، ولكنها بحاجة الآن الى المزيد وفرنسا لا تريد لها أن تحصل على مطلوبها الا اذا وافقت على تنفيذ ما تطلبه فرنسا • وحظى ابن صاحب الحانة باستقبال ودى وأقيمت له مآدب عشاء ممتازة ، ولم يشر أحد فى وجهه آراءه الاشتراكية الاولى • وروى روبى بد أن ما طلبه لافال يتلخص فى الا يصنع الرئيس الامريكى شيئا • وكان رد ابن روبى الذلق اللسان « ولا بد أن هذا الطلب يلائم هربرت هوفر تمام الملاءمة » •

وبعد ذلك بأيام قلائل جرت الانتخابات العامة فى بريطانيا • وناشد

رامسى ماكدونالد البلاد أن تؤيده • وأكدت جميـع الصحف الـكبرى للناخبين ان الأمة أفلتت من الانهيـار بمشقة ، ومع ذلك ظفرت حـكومة رامسى القوميـة الجديدة بعدد من الاصوات يقـل شيئا طفيفا عن نصف المجموع العام للناخبين ولكن اعاجيب النظام الانتخابى اكسبتها عددا من الدوائر الانتخـابية يزيد شيئا طفيفا على ثمانيـة اتساع مجموع هـذه الدوائر • وكتب ريك يقول أن رامسى قد رجع القهقرى بحزب العمـال قرابة احدى وعشرين سنة •

ولم ينزعج روبى بد بهذا النبـأ بطبيعة الحال ، فقد كان واثقا بأن السفينة اجتازت الصخور ، وصار أمامها طريق طويل من المياه الصافية، وكان هربرت صديق روبى قد قال له ذلك ، ومن أعلم بهذه الامور من المهنـدس العظيم ؟ انهم طبعا ليسـوا محررى الصحف الحمراء والوردية الاسبوعية الا أن لانى واصل بشذوذه مطالعـة تلك الصحف ، وسرعان ما نبه اباه الى أن تخفيـض البريطانيين للجنيـه اتاح لهم عشرين فى المائة افضلية على المصانع الامريكية فى كل أسـواق العـالم • ومن العجيب أن روبى لم يكن قـد تبين ذلك ، الا أنه سرعان ما عرفه عن طـريق البرق ، اذالغى عقد كبير للمصنوعات الحديدية بين مصانع بد وبيونس أيرس ، وارسـل أحد عيون روبى اليـه يخبره أن الصـفقة تحولت الى مصـانع برمنجهام الانجليزية ، فكاد روبى يتميز غيظا !

- ٢ -

وركب السيد لانى بد وزوجه متن سفينة المانية الى مرسيليا• وهى باخرة حديثة البناء جدا فى منتهى الاناقة والبريق ، شأن جميع السفن الالمانية حتما ، ما دامت جميع سفن المانيا القـديمة قد صودرت بمقتضى معاهدة فرساى • فهذه الباخرة احدى النتائج غير المتوقعة لاجبار الالمان على أن يبدأوا حياتهم من جديد ! ولم يسترح البريطانيون والفرنسيون الى أن تكون لعدوتهم السابقة ومنافستهم الدائمة أبدع عابرتى محيط ، هما الحائزتان لوسـام الشرف الازرق فى خطوط الملاحة عبر الاطلنطى ، وان تكون لهـا أيضا أحدث سفينتين حربيتين ، وقد اطلق عليهمـا اسم بارجتى الجيب لأنه لم يكن مسموحا بأن يزيد وزن الواحدة على عشرةآلاف طن ، الا أن الالمان أظهروا أن فى استطاعتهم تدبير جميع المزايا تقريبا فى هذه الحدود الضيقة • ان هـذه الامة الصاعدة عادت الى الصعود وأخذت

تسبق فى المضمار كل من عداها • لقد ملأ الالمان الجو بصراخهم ضد الاضطهادات والاهانات ، ولكنهم بادروا باقتراض المال وأنشأوا به قوة صناعية جديدة هى أحدث الجميع وأعظمها كفاءة ، وبذلك استطاعوا أن يبيعوا سلعهم أرخص بكثير من منافسيهم جميعا • وأنت قد لا تحب الالمان ، ولكنك ان اردت أن تعبر المحيط فانت تحب أن يكون ذلك على سفينة جديدة لامعة ضباطها وسعاتها فى أزياء رسمية جديدة ، وخدمة المائدة فوقها انظف وافضل خدمة . وهم مهذبون جدا الا انهم فى الوقت نفسه اشداء العزم • وكان لانى مهتما بالتحدث اليهم والتعرف الى السر فى أنهم أفراد جديرون بالاعجاب وسلالة شديدة الخطر •

وهم الآن بطبيعة الحال واقعون فى المتاعب شأن جميع الناس ، فلديهم القوة الصناعية ولكنهم لا يجدون لها أسواقا • ولديهم البواخر ولكن من العسير أن يجدوا لها ركابا ! وغيرهم من الشعوب تلقى اللوم على القدر أو العناية الالهية ، أو على القانون الاقتصادى ، أو النظام الرأسمالى ، او قاعدة الذهب ، أو الحرب ، أو الخمر ، أما الالمان فى كل مكان فلا يلقون اللوم الا على شىء واحد هو معاهدة فرساى المملاة عليهم وما فرضته من التعويضات • وكل المانى يعتقد اعتقادا راسخا أن الحلفاء يتعمدون الحيلولة بين وطنهم والنهوض على قدميه مرة أخرى ، وان سائر متاعبهم نتيجة مباشرة لذلك • ويوضح لانى لهم ان تأجيلا جبريا للدفع بالنسبة لجميع الديون الدولية قد صدر ، وهذا التأجيل الجبرى للدفع لا يشمل التعويضات فحسب بل قروض ما بعد الحرب أيضا ، فلا بد أنه من اليسير عليهم الآن أن ينهضوا من كبوتهم • ولكنه شعر أن هذه الحجة ليس لها أدنى تأثير ، فثمة عقدة اضطهاد قومية تفعل فعلها فى اللاشعور القومى على غرار تأثير العقد فى اللاشعور الفردى •

ولما كان عدد الركاب قليلا جدا فقد أتيح للانى أسبوع يدرس فيه السفينة ورجالها • وكانت اجادته للغة الالمانية جواز الدخول الى قلوبهم • فكان يقول للضباط أنه نزل فيما مضى ضيفا على الجنرال جراف شتوبندروف ويقول للسقاة والمنظمين أنه تحدث مع أدولف هتلر ، ويقول للنوتية أنه صهر هانس روبن • فقد كانت السفينة أمة مصغرة فيها ممثلون لجميع الفئات وبالنسب الصحيحة تقريبا • وكان بعض الضباط قد خدموا فيما مضى فى البحرية الالمانية ، وفريق من العاملين فى الآلات اشتركوا فى التمرد عليهم واعلان الثورة الاشتراكية • وفيما بين هذين الفريقين الطبقات الوسطى من السقاة والمنظمين والحلاقين والكتبة

ورجال اللاسلكي وصغار الضباط ، وجميعهم يعملون بتذلل في سبيل الحصول على هبات ، ولكنهم يعملون بمزيد من الجد في سبيل الحب ان أنت همست لهم « هايل هتلر ! » حتى ولو على سبيل المزاح • وعجزت أيرما عن ادراك الدافع الى اهتمام لانى بالتحدث الى أمثال هؤلاء الناس ولفترات طويلة • فبين لها أنه يقوم باستقصاء اجتماعى • ولو كان ريك معهم لكتب مقالا عنوانه « المانيا العائمة » فالمسألة تتعلق بمستقبل المانيا كله والى أى مدى من العمق وصل تأثير دعاية الدكتور جوزيف جوبلز ؟ وما ظن عمال الزيت ؟ وفيم يدور حديث عمال تنظيف آنية المطبخ قبل أن يأووا الى مضاجعهم ؟ ان من بينهم حمرا اقحاحا بطبيعة الحال ياتمون بموسكو ولا يحيدون عن ذلك الاتجاه ، ولكن ثمة آخرين أقتنعوا بان هتلر صديق حقيقى للشعب وسوف يساعدهم فى الحصول على ساعات عمل أقصر واجر يكفل الحياة . واحتدمت المناقشات بينهم ليل نهار فنشبت حرب كلامية لا تفتر فوق ظهر السفينة • فالى أى الجانبين تميل كفة الميزان ؟

وكان ما يقوله الربان روندجاسى مهما أيضا ، فكما يكتسب الطبيب سلوكا علاجيا ، فكذلك ربان باخرة للركاب يكتسب ما يمكن أن يسمى سلوكا ملاحيا ، ولذا تحدث الى الامريكيين الثريين الشابين الانيقين قائلا انه يدرك لماذا يزعجهما المظهر السياسى لبلاده ولكن لا حاجة فى الواقع للانزعاج ، فجميع الالمان المان فى جوهرهم ، كما ان جميع الانجليز • وعندما يتعلق الامر برفاهية الوطن وسلامته سيصبح الجميع صفا واحدا • وينطبق هذا الكلام على الاشتراكيين المضللين ، بل على الشيوعيين جميعا فيما عدا بضعة قادة مجرمين ، وينطبق بصفة خاصة على الاشتراكيين الوطنيين • فلو أصبح هتلر مستشارا غدا لاظهر أنه المانى صالح مثل أى انسان آخر . وجميع الالمان الصالحين سيؤيدونه ويطيعون قوانين بلادهم •

- ٣ -

وبدت ضيعة بيانفين أصغر وأقرب الى الرثاثة عند قدومهما اليها من ضيعة شوراكرز ، ولكنها بينهما ، وفيها قلوب محبة لهما • وكانت بيوتى قد قضت صيفا هادئا ولكنه هانىء ، أو هكذا قالت • فابعد الزيجات عن التصور اتضح انه من افضل الزيجات ، ولم تعد تجد ما

يكفى من الثناء على طيبة برسيفال دنجل وحنانه . أى لا تجد ما يكفى من الثناء لارضاء نفسها ، وان كانت تجد يسرا كبيرا فى ارضاء اصدقائها من هذه الناحية . وهى تحاول بكل طاقاتها ان تصبح روحانية العقل ، وكان عليها ايضا ان تحارب شيطان البدانة ، الا انها عزت نفسها بأن امتلاء الجسم يمنع ظهور التجاعيد فهى الآن بلا شك مزدهرة الحسن .

وكانت السيدة سيزنسكى قد توجهت مرتين أو ثلاثا لزيارة زهاروف فى مونت كارلو ثم رحل الى الشمال وأقام فى قصر بالنكور ، وكتب يسأل بيوتى هل تتكرم عليه بالسماح للسيدة بالقدوم عليه فترة من الوقت ، فذهبت السيدة وقضت شهر اغسطس هناك ولقيت معاملة طيبة ، وأثرت فى نفسها فخامة المكان الا أنها شعرت بالوحشة مع أولئك الخدم الهندوس الغريبى الاطوار لانها كانت عاجزة عن التحدث اليهم . وعند رحيلها قدم اليها السيد الهرم خاتما ماسيا من فص واحد لا بد انه يساوى عشرين أو ثلاثين الف فرنك ، وكانت فخورا به الا أنها خافت ان تلبسه ، وخافت عليه ايضا من السرقة فطلبت من بيوتى ان تحفظه لها فى خزينة ودائعها .

واستأنف لانى موضوع دراسة الطفولة من جديد . وكان يحب أن يتبين هل ستكشف الطفلة فرانسس فن الرقص من تلقاء نفسها ، ولكن ذلك لم يكن ممكنا لوجود مرسلين هناك ترقص فى جميع ارجاء المكان ولا يمكن بأى شكل منها من أن تاخذ بيدى طفلة صغيرة تدرج على الارض فتعلمها كيف تطفر وتثب . وفى كل يوم تزداد الطفلة قوة ، وقبل انقضاء ذلك الشتاء صار فى البيت راقصتان . واذا لم يكن الجراموفون أو البيانو فى متناول اليد غنت مرسلين أنغاما صغيرة وربما ارتجلت كلمات لتلك الانغام عن الطفلة وعن نفسها .

وربما حضرت صوفى وزوجها للعب البريدج مع بيوتى وأيرما فيغدو لانى حرا لمواصلة ما فاته من المطالعة أو الاسراع الى «كان» حيث مشروعه لتعليم العمال . ولم يكن العمال قد ظفروا بعطلة بل وجدهم حيث كان قد تركهم الا أنهم تقدموا ثقافيا فصاروا كلهم تقريبا قادرين الآن على الخطابة، وخطبهم بصفة عامة فى موضوع الاشتراكية ومناهضتها للشيوعية . مع أنهم جميعا يكرهون الفاشية فانهم لا يكرهونها بما يكفى لتحالفهم ضدها . وسرهم أن يسمعوا لانى يحدثهم عن نيويورك أرض العجائب حتى لقد خلط الكثيرون منهم بينها وبين الطوبيا أو المدينة المثالية . وادهشهم أن يسمعوا ان انهيار الرأسمالية لم يبق عليها ، فثمة أفتقار

الى الخبز وبيع الشحاذين التفاح فى شوارع مدينة الطبقة الثرية الحاكمة تلك ــ ياللعجب ؟

- ٤ -

موسم آخر على شاطىء الريفيرا ، وهو أسوأ موسم من وجهة نظر مديرى الفنادق منذ نهاية الحرب ، اما بالنسبة لمن لديهم المال ويحبون الهدوء فهو الطف موسم اطلاقا ، فالمجدودون القلائل قد انفردوا وحدهم بالمتنزه المطل على البحر وبالشواطىء • والشمس ساطعة والبحر على حاله من الزرقة وأزهار « الكاب دنتيب » على حالها من الروعة • والطعام وفير منخفض الثمن ، والعمل موفور مبذول ، ان العناية الالهية بايجاز قد رتبت كل شىء لراحتك •

وعندما كانت أيرما وبيوتى بدتبرزان من تحت أيدى صانعات القبعات ومصففات الشعر متأهبتين لحضور حفلة ، كان منظرهما غاية فى الابداع ، فيزهو لانى بصحبتهما ومشاهدة جذبهما لاهتمام سائر الناس • وكان يعنى بهندامه حسب مقاييسهما ويقوم بالترحيب بالناس على الاصول التى تعلمها ، ولبث برهة سعيدا بأن يكون شابا على الطراز المرموق • وتأثرت نفس زوجته تأثرا عميقا باميلى شترزورث ، هذه المضيفة الرشيقة الرصينة ، فاتخذت منها قدوة لها ، وصارت ايرما تقول « لو أن لنا بيتا أكبر لاستضفنا الناس على نحو ما تصنع اميلى » وتقوم بمحاولات تجريبية فتدعو هذه الشخصية البارزة وتلك ، وعندما يأتى من دعتهم ملبين تقول لزوجها أعتقد أننا نستطيعمعا ان نفتح صالونا ناجحا ان وطدنا العزم على ذلك •

وبمرور الوقت أدرك لانى أنها تتطلع الى أن تعيش هذه الحياة ، وكانت اميلى آخذه فى الوهن فهى لا تستطيع أن تستمر الى الابد ، ولا بد أن يحل أحد محلها فى الجمع بين وجهاء الفرنسيين ووجهاء الامريكيين واتاحة الفرصة للفريقين كى يلتقوا بالمثقفين والكتاب والموسيقيين ورجال الدولة ممن اكتسبوا شهرة بالطرق اللائقة المحترمة • والغالب الا يتوفر لهؤلاء الناس المال أو الوقت للاستضافة ، والا تكون زوجاتهم أهلا لذلك المستوى ، فان أنت قمت بهذه الخدمة مجانا صرت «شيئا ما عن جدارة» •

وكان لانى قد قال بشىء من الارتباك أنها ليست على القسط الكافى

من المعرفة للقيام بهذه المهمة ، ومنذ آل لها ذلك وأيرما ترقب وتدرس ، فهي قد التقت بعدد من المشاهير ودرست كل واحد منهم قائلة في نفسها : « ترى هل استطيع أن أسوسك ؟ ما الذى تريد ؟ » وبدا لها أنهم يحبون الطعام الجيد والنبيذ الجيد مثل سائر الناس ، ويقدرون البيت الفاخر ويحبون زيارته والاستمتاع بشمسه . فهم قطعا يحبون النساء الحسان انهن الشمس المطلوبة ! وحجرة الملابس الخاصة بأيرما في الكوخ صغيرة الا أن بها مرآة مستطيلة ، وقد أدركت أن ما راته في تلك المرآة هو على ما يرام . وهي تعلم أن سلوكها المتحفظة له وقع حسن على الناس لانه يضفي عليها شيئا من الغموض فيتخيلون عنهـا أشياء ليس لها وجود حقيقي . والمعضلة كيف تحول بينهم وبين اكتشاف الحقيقة !

ولكل عظيم منهم « خط » خاص به ، أي شيء يتفوق فيه على جميع الناس . ولاني يفترض انها يجب أن تطالع كتاب الرجل وتصغى لخطبه أو ما الى ذلك . أما أيرما فقد ثبت في ذهنها أن هذا الفرض سذاجة من زوجها . فعليه هو أن يصنع هذا ، أما المرآة فشأنها مختلف . المرأة تدرك ان الرجل يريد أن يتحدث عن نفسه . فالمرأة التي تحسن الاصغاء لكلامه عن نفسه تصلح لاى شيء وعليهـا أن تظهر الاعجاب ولكن بغير اسراف . فالاسراف في الاعجاب خطأ ترتكبه المرأة الرعناء فيجزم الرجل بأنهابلهاء . أما المرأة الساكنة العميقة على غرار « موناليزا » فتقول بوقار « كم ذا أردت أن اعرف الكثير عن هذا الموضوع . فارجوك أن تقص على المزيد عنه ، فتكون هي المرأة التي تدفيء قلب الرجل الشهير .

وادركت ايرما أن المعضلة ليست في دفعهم الى الكلام بل في حملهم على التوقف ! فمهمة ربة الصالون أن توزع وقتها وترقب الاجتماع وتقرر بحصافة متى يحتاج الموضوع الى تغيير فتحدثه بكياسة من غير أن يفطن أحد . وقد راقبت ايرما أسلوب مضيفتها في العمل وبدات تلقى عليها الاسئلة . ولم يحدث ذلك أثرا سيئا على الاطلاق لدى آميلي ، لأنها — هي أيضا — لم تكن فوق مستوى حب الملق ، وراقتهـا فكرة اتخاذها مضيفة تحت التمرين ، وأطلعت أيرما على دفتر عناوينها فوجدته حافلا بعلامات سرية لا تفهمها سوى سكرتيرتها الخاصة . وبعض هذه العلامات تأويله حسن وبعضها الآخر سيىء .

ولاحظ لانى أن اهتمامها هذا المتزايد بانشاء صالون قائم على أساس دراسة لسماته الخاصة شخصيا ، فقد كان دائما يحب اميلى ويستمتع بعلاقاتها ، لانها سمحت له بالاطلاع عليها منذ كان غلاما ، لما كان عليه من سلوك مهذب غاية التهذيب ، ولكن فات ايرما أن لانى آخذ فى التغير : فالامور التى كانت ترضيه وهو غلام لم تعد بالضرورة مرضية له وقد تجاوز عيد ميلاده الثانى والثلاثين ، والنظام الراسمالى قد تجاوز ذروته فهو يعود الآن من احدى سهرات اميلى ليفتح مجموعة من بريده أشبه بكورس فى مسرحية لسوفوكل ينوح على القضاء المضروب على بيت أوديب ، فالصفحة الأولى من اى صحيفة سجل كوارث حديثة النزول ، فى حين تنم صفحة المقالات على التوجس من كوارث أخرى توشك أن تحيق .

لقد ظل المفكرون الصفاه فى فرنسا سنوات يهنئون تلك البلاد على حصانتها ضد الكساد ، فبفضل الثورة الفرنسية صارت الزراعة فى أيدى ملاك مزارعين ، وكذلك الصناعة فيها متنوعة وليست مركزة ولا متخصصة كما هى الحال فى المانيا وبريطانيا وأمريكا . وكانت فرنسا قد خفضت عملتها فعلا ، ولكل خطوة آوانها ، ولديها رصيد عظيم من الذهب ، وبذلك تفادت الاعصار الذى طوح ببريطانيا بعيدا عن قاعدة الذهب ، وتبعها فى ذلك صف ينتظم اثنتى عشرة دولة أخرى .

اما الآن فيبدو أن المفكرين الصفاه كانوا مخدوعين بأمانيهم ، فها هى الاوقات العصيبة تحل بفرنسا ، وها هى البطالة تنتشر ، والاثرياء يبعثون بأموالهم الى الخارج ، والفقراء يخفون ما لديهم فى الحشايا أو تحت أقدم شجرة زيتون فى الحقل . ان العذاب والخوف فى كل مكان ، فكيف يتسنى لك – ان كنت مثاليا شابا ذا قلب رقيق – أن تشعر بالسعادة ؟ ولا سيما اذا كانت مبادئك تقنعك بانه لا حق لك فى هذا المال الذى تنفقه ! واذا كنت مصرا على مخالطة الثوريين والساخطين المستعدين كل الاستعداد لتأييد آرائك – ولا ستخلاص النتيجة البديهية ، وهى أن هذا المال ما دام لا يخصك فهو حتما يخصهم ! والقاعدة أن يطلبوا منك منحة للقضية ، وكثيرون منهم مخلصون فى ذلك ، فهم ينفقون هذا المال فعلا فى اصدار المطبوعات أو استئجار أماكن الاجتماعات . وهذا تبرير كاف لافعالهم فى نظرهم وفى نظرك ، ولكنه لا يكاد يصلح مبررا فى نظر

السيدات والسادة ذوى العقول المحافظة الذين تتوقع زوجتك دعوتهم الى صالونها !

لقد انقضت خمس سنين منذ شرع لانى يعاون فى تعليم العمال فى الاقليم الاوسط فى فرنسا وهو زمن كاف لتخريج جيل على يديه من الطلاب يقدم له فكرة عما حققه · فهل أعان تدريب قادة أصلاء للطبقة العاملة ؟ أو هو عمل على اعداد طالب منصب مستعد لبيع الحركة فى سبيل كرسى رئاسة الوزارة ؟ لقد كان التشجيع وثبوط الهمة يتداولان نفس لانى ، وهذا نصيب كل معلم · بيد ان لانى لم يكن لديه أحد ممن سبقت لهم هذه الخبرة كى يقول له هذا الكلام · وقد برز من الفصول المتباينة فتيان وفتيات لامعون أمسوا موضع اعزازه وآماله ، وقد اكتشف أنهم جميعا — وهم من أبناء وسط فرنسا — يريدون أن يصيروا خطباء · وقد اكتسب كثيرون منهم حيل البلاغة قبل ان يتيسر لهم أساس متين، فاذا حاولت أن تكبحهم وفشلت أيقنت أنك أفسدت صانعا جيدا · وكثيرون منهم جرفهم الشيوعيون ، وهم لسبب ما أشد المهيجين البروليتاريين نشاطا ومثابرة ، ولديهم أيضا نظام فى التفكير يتخذ مظهر العلم ويستخدم لغته ، وبذلك يؤثرون فى العقول الشابة · واذ كان لانى بد يتكلم لغة القانون والنظام والاقناع السلمى والتطور المتدرج فقد الفى نفسه مدموغا بانه «طراز قديم» أو متخلف · وكان الشبان الحمر يقولون له : « طبيعى أن يكون شعورك على هذا النحو لان لديك المال · ففى وسعك أن تنتظر · أما نحن فأى شىء لدينا » ·

وكان ذلك صحيحا الى درجة أزعجت ذهن لانى بصورة مستمرة · وجعل يرقب تأثيره الخاص فى أصدقائه البروليتاريين وتساءل : أهو يسرى اليهم شيئا من الخير حقا ؟ أم المبشرون بالصراع الطبقى على حق ، والصدع الاجتماعى تتجاوز فرجته ذرع أبرع بناة المعابر والقناطر ؟ أى شركة فى الشعور أو الذوق يمكن أن تبقى بين المتأنق الذى يعيش فى بيانفينى وبين ابن عامل غير فنى يعيش فى قبو عمارة سكنية فى مدينة « كان » القديمة ؟ أليس من الجائز أن لانى بقدومه الى المدرسة فى زى حسن ، متحدثا أرقى لغة فرنسية انما يقيم أمام نواظرهم مثلا عليا ومستويات من شأنها أن تفسدهم مثلما تحرك شاعرهم ؟ ان أصدقاءه فى المدرسة يرونه يقود سيارته المبهرجة ، ويرونه مع زوجته الشابة المزهوة ، فهى وان كانت قلما تحضر الا انهم يعرفونها بالنظر ، ويعرفونها أكثر من ذلك بالسمعة ، وأى تأثير لذلك فى شبان فى سن التأثر السريع

هل يعلمهم ذلك أن يكونوا أوفياء لفتاة من الطبقة العـــاملة ، لرفيقة متواضعة فقيرة الزى من رفيقات حركتهم ؟ أم يملؤهم بأحلام الصعود الى السماوات حيث تعيش السيدات الانيقات الثريات ؟ ويتفحص لانى زوجته الخلابة ويدرك انه ليس في العالم «اغراء» أقوى منها لروح الرجل وعقله. وقد تلقف هذا الاغراء أكثر من مرة فى حياته ، وهو يعلم أيضـا بعض الشيء من الاشتراكيين الاربعة الذين صاروا رؤساء وزارات فى فرنسا ، ويعلم أن كل واحد منهم قد اجتذبته يد حورية أنيقة بعيـدا عن طريق الولاء لتزج به فى طريق الخيانة .

- ٦ -

وفى ضيعة بيانفينى بناء مريح ، هو « اللورج » كان لانى قد شيده لنينا وريك ، وقد رجاهما أن يأتيا ويشغلاه هذا الموسم ، فلديه بضعة افكار هامة يريد ان يناقشها ، ولكن ريك قال أن التدهور المالى أصاب اباه أصابة شديدة ، ويبدو أن هذا التدهور موجه الى ملاك الاراضى فى جميع أنحاء العالم ، فرد عليه لانى بشيك يغطى ثمن تذاكر السـفر ، وكان قد ربح هذا المال من بيع احدى لوحات مارسل ، وهناك مائة غيرها فى المخزن . وذكر لانى له أيضـا ان حديقة الخضر فى بيانفينى قد اتسعت ليتيح الفرصة لبعض ابناء عمومة « ليز » فى كسب معاشهم ، فتعالوا لتساعدوا فى استهلاك ما تنتجه من الطعام !

وحضر الاب والام والاطفال الثلاثة ، وبعد أن استقروا كشف لانى عما فى ذهنه ، الا وهو الحصول على مزيد من المال من تجـــارة الصور (ولعل أيرما تود الاكتتاب بجانب من مالهـا ايضا) لتأسيس صـحيفة اسبوعية يتولى ريك تحريرها ، ويحاولان أيقاظ المثقفين ، والعمـل على اقامة نوع من النظام التعاونى فى أوربا قبل فوات الاوان . وقال لانى انه لا تتوفر له الدراية الكافية لتحرير صـحيفة بنفسه ولـكنه سيكون ما يسمونه فى امريكا نصيرا غير محترف ، فقال ريك أنها مهمة عسيرة ضخمة ، فهل يدرى صديقه فى أى شيء سيورط نفسه ؟ أن ميدان المجلات التجارية شديدة الازدحام ، والصحف الدعائية لا تفى بنفقاتها وتكاليفها باهظة كالخطيئة ، فقال لانى : « ليكن . لقد أنفقت كثيرا على الخطيئة ، فلأحاول الانفاق على شيء آخر على سبيل التغيير » فصارحه ريك « ان المرء لا يستطيع أن ينشر صـــحيفة فى مكان مثل « كان » . فأين تريد أن

تذهب ؟ » فقال له : « لقد ساءلت لنفسى هل فى المستطاع اصدار صحيفة فى لندن ، وفى الوقت نفسه فى باريس باللغة الفرنسية ؟ » فسأله « أتعنى أن تصدر الصحيفتان بمضمون واحد ؟ » فأجابه « بمضمون واحد عمليا . اما ان كنت تريد التعرض للاحداث الجارية فسوف تجد اهتمامات الشعبين وأذواقهما متباعدة تباعدا لايسمح بذلك . » فقال لانى « ان الهدف هو التقريب بينهما ياريك ، فان طالعا شيئا واحدا فقد تعلما كيف يفهم كل منهما الآخر . » فأجابه ريك « ولكنك تحاول أن تجبرهما على قراءة ما لا يريدان ، وبذلك تبدو الصحيفة أجنبية لكل منهما وهذا ما سينعتها به خصومك ، وسيحاولان اظهارها بهذا المظهر بشىء من المبالغة . » فقال المثالى الشاب » انا لا أزعم أن هذا المطلب يسير ، ولكن مشقته هى بالضبط مصدر أهميته فقال ريك : لست أمارى فى الحاجة اليه ، ولكنه سيتكلف مالا طائلا ، فلا بد للصحيفة من الصدور بانتظام ومتى ظهر عجز استمر بلا توقف . » فألح عليه لانى قائلا « هل من الممكن أن تهتم بهذا العمل بحيث تتخذه مهنة ؟ » فأجابه « لا بد من وقت للتفكير ، فقد جئت الى هنا وذهنى تملؤه مسرحية جديدة » .

وكان هذا هو الاشكال الحقيقى ، كما اتضح فيما بعد . فلا جدوى من تخيل قدرة أحد على تحرير صحيفة باعتبارها عملا جانبيا ، فذلك عمل يشغل الوقت كله من بضعة رجال ، ومعنى هذا ان يتخلى ريك عن مطمح حياته ، الا وهو أن يغدو كاتبا مسرحيا . وكان قد حظى من النجاح بما يكفى بالضبط لاستمراره ، وهذه أيضا غاية مهمة : ان يدخل المشكلات الاجتماعية قسرا الى المسرح ويحطم التحريم الذى كان يدفع بالدعائية كل جهد لتصوير صراع الطبقات ، وهو الحقيقة الاساسية فى العالم الحديث . وقد حاول لانى ذلك ثمانى مرات أو عشرا ، وقال لو أنه كان قد بذل مثل ذلك المقدار كله من الطاقة والمقدرة فى تصوير العلاقات الجنسية المتشابكة لدى السراة المتعطلين لكان حريا ان ينضم الى تلك الجماعة المحسودة ويحظى بعلاقات متشابكة وفيرة ، ولكنه كان يفكر على الدوام فى فكرة جديدة رائعة لا يقدر الجمهور على مقاومتها . ولديه الآن فكرة من هذا القبيل ، ولذا يجب أن تنتظر المجلة الاسبوعية الفرنسية الانجليزية الى أن يخلى محررها المنتظر ذهنه لها .

وقال لانى « ان كانت مسرحية جيدة فقد نساندها انا وايرما » ، وكان من عادته أن يشرك فى عباراته زوجته بدافع التهذيب ، وقد يحدوها دافع مماثل الى الانضمام له فعلا . وأجابه ريك « وهذا أيضا يتكلف مالا ،

ولكن المسرحية على الاقل متى سقطت لا تجد نفسك مضطرا لتقديمها فى الأسبوع التالى أو الأسبوع الذى يليه » ٠

- ٧ -

عاد زهاروف الى قصره في مونت كارلو ، وصار يرسل سيارته لتاتيه بالسيدة سيزنسكي ، ويكتب رسائل يعبر فيها عن عرفانه بجميل الأسرة وقال فيها أنه يود لو كان ثمة شيء يستطيع القيام به مقابل هذا الجميل والظاهر أنه كان يعني ذلك حقا ، لانه عندما تملك روبى بد كتلة من أسهم الشركة العربية الانجليزية الجديدة وحضر لمقابلة الشيخ ، اشترى منه الاسهم بالسعر الذى طلبه ٠ ولم يكن المبلغ طائلا ، ولكن لانى قال انها علامة على أن الدوقة الاسبانية تتصل به حقيقة ٠

وكان الفضول يلتهم بيوتى بصدد هذه الجلسات ، فتسأل السيدة كلما عادت من عنده ، ولكن الوسيطة تمسكت بقولها أنها لا تدرى شيئا مما يحدث عندما تكون في شرودها ٠ وبديهى أن « تكومسه » كان حسن السلوك ، لانها كلما أفاقت وجدت جليسها لطيفا مجاملا ، وكانت تتناول الشاى دائما مع خادمة ابنة السير بازيل المتزوجة ، وفى بعض الاحيان كان الرجل العظيم نفسه يسألها عن حياتها وافكارها ٠ وبديهى أنه كان يواصل قراءة الموضوعات الروحية ، ولكنه لم يقل قط كلمة واحدة عن نفسه ولم يذكر قط اسم الدوقة على لسانه ٠

وفى رأى بيوتى أنه لفساد ذوق من أى مقترض أن يبقى المالك فى جهل تام بما يجرى ، ولعل الفكرة خطرت للسير بازيل ، لانه اتصل بلانى تليفونيا وسأله هل لديه من الفراغ ما يسمح له بالحضور لديه ، فعرض عليه أن يقود بنفسه السيدة فى الرحلة التالية ، فقال زهاروف وهو كذلك وفى وسع لانى أن يحضر الجلسة ان راقه ذلك . وكذلك هذا تقدما لا شك فيه،ولا يمكن أن يكون معناه سوى ان زهاروف قد استطاع أن يصل الى مصادقة الزعيم الايروكوى وزمرته من الارواح ٠

« أن الجسد كله كالشعب ، وملاحته كلها مثل أزهار الحقل » ٠ بهذه العبارة كان « قد تمثل جدا » لانى فى حديثه عن علاقة فاضحة فى نيوكاسل بممثلة شابة اغرم بها ٠ وخطر للفتى اللاهى ذلك الآن وهو جالس يرقب ذلك الرجل الذى قد يكون فى سن جده صمويل ٠ ان

اسلوبه المهذب فى السلوك ونعومته بمثابة قناع ، اما روحه فحزمة من المخاوف . لقد ناضل نضالا قاسيا فى سبيل الثراء والقوة ، وها هو الآن يجلس ويرقب الشيخوخة تدب اليه ويحس بكل شيء يتسرب من يديه . « ثم التفت انا الى كل أعمالى التى عملتها يداى والى التعب الذى تعبته فى عملى فاذا الكل باطل كقبض الريح انه لا نفع تحت الشمس ».

والتكتم هو أنفاس حياة ملك الذخائر . فمنذ عام تقريبا أستأثر لنفسه بتكومسة والارواح . فان كان قد أخبر احدا بما كان يحدث فهذا شيء لم يصل الى مسامع لانى . الا أنه لا يستطيع أن يثبت على تكتمه الى مالا نهاية ، لان الشكوك كانت تهتك روحه . أهى الدوقة الاسبانية حقا التى تبعث اليه بالرسائل ؟ أم هو وهم فحسب أو ملعوب قاس من شخص أو من شيء مجهول ؟ لقد حضر لانى جلسات كثيرة وثابر على دراسة الموضوع ولا بد للشيخ من معرفة ما وصل اليه .

وكانت الجلسة نفسها عادية . وبديهى أن ملك الذخائر وروح زوجته المتوفاة قد توطدت بينهما الصلات على أساس متين فظهرت له على الفور على نحو ما كانت حرية أن تظهر أن هو ناداها من الحجرة المجاورة ولم تكن لديها الكثير تحدثه به ، ولعلها كانت حرية أن تجد لديها الكثير لو أن « عشبها » لم يذو ولم تذره الرياح . وكل الفرق أن زهاروف كان حريا ان يعرف « العشب » بحقيقته الماضية ، اما هذا العشب المزيف ، هذا السراب ، هذا الرسم على الضباب ، فأى شيء هو ؟ لقد أكدت له انها تحبه ، ولم يكن لديه قط فى ذلك شك . وأكدت أنها سعيدة ، وكانت قد ذكرت له ذلك مرارا وهو نبأ طيب ان كانت هى القائلة حقا .

أما عن ظروف وجودها فهى غامضة فى حديثها عنها، شأن الارواح فى هذا الموضوع عموما ، ويقولون أن من العسير على العقول الفانية أن تدرك كيفية وجودها . وهذا جائز ، ولكنه ايضا من الممكن ان يكون هروبا من الاجابة . وكانت الدوقة قد قدمت له أدلة على حقيقتها ، اما الآن فيبدو انها راغبة فى ان يعتبر هذه المسالة منتهية ، فذلك يسعدها فوق سعادتها وهو بطبيعة الحال ينشد سعادتها ولكنه بعد ذلك يعذب نفسه بالشكوك ، فهل ينبغى أن يعذبها بهذه الشكوك أيضا ؟ .

لقد حيت لانى وتحدثت اليه . فقد ظهرت له أولا وبعثت معه برسائل الى زوجها . وهى الآن تشكره لقيامه بتبليغها . كانما كانت معه فى حديقة قصر باريس . وقد ذكرته بذلك وبالكلاب الصغيرة الجسم

الطويلة الشعر البيضاء كالثلج التى حلقوا شعرها لتشبه الاسود ، وقد صحبته الى المكتبة فادرك وهو الغلام المجامل المهذب أنه قد لا يكون لديها فراغ من الوقت له بعد الآن فتطوع بشغل نفسه بتصفح مجلة . فهل يذكر أى مجلة هى ؟ وقالت له أنها مجلة الحياة الباريسية ، فتذكرها على الفور . ورمى بنظرة الى زهاروف فخيل اليه أنه رأى اللحية البيضاء العجوز ترتجف . والحت الدوقة الاسبانية عليه فى لهجة بولندية « قل له ان هذا صحيح ، فشد ما يمضه القلق ، ذلك العزيز المسكين » .

وتحدثت الروح عن الجو الرطب بصورة غير عادية وعن الكساد ، فقالت أن كليهما سيزولان سريعا ، ومثل هذه المتاعب لا تؤثر فيها الا بمقدار تأثيرها فى من تحبهم ، وهى تعرف كل ما يحدث لهم . ويبدو انها كانت تعرف كل ماتريد أن تعرفه ، فسألها لانى بتهذيب أتستطيع أن تخبرهما بواقعة حال عن أحوال أسرتها القديمة لم تصل قط الى علم زوجها ولكنه يستطيع التحقق منها عن طريق البحث والاستقصاء . كأن تكون الواقعة واردة فى وثيقة قديمة أو شيئـا مخيفا فى قبو سرى فى قلعة . ويستحسن أن يكون شيئا لم تكن تعرفه أثناء حياتها حتى لا يكون موجودا فى العقل اللاواعى لاى واحد من ثلاثتهم ؟ فضحكت السيدة الاسبانية وقالت « يا للدلك العقل اللاواعى ! انه لا سم تشقون أنفسكم به . فما العقل مالم يكن واعيـا ؟ هل عرفت قط شيئا كهذا ؟ » فقال لانى » لا . لانه ان عرفته يكون واعيا ؟ ولكن ما الذى يفعل اذن وكانه عقل لا واع ؟ » فكان الجواب « لعله الله وتساءل لانى أتراه احضر معه جانبا من عقل « راسيفال ونجل » اللاواعى فحقن به العقل اللاواعى الذى يسمى نفسه ماديا ديل بيلار أنطونيا انجيلا باتروتشينو سيمون دى موجويرو اى بيروته ، دوقة ومركيزه فيلا فرانكا دى لوس كباليروس ؟

- ٨ -

ولما انتهت الجلسة دعت الخادمة السيدة الى حجرة أخرى لتناول الشاى ، وتناول السير بازيل الشاى مع لانى وتجاذب معه حديثا طويلا فقد كان يريد أن يعرف ما تعلمه الشاب وما يعتقده الآن وراقب لانى المحيا القلق المسن فادرك بالضبط ماذا يريد . فزهاروف ليس عالمـا يحب الحقيقة وانمـا هو رجل يترنح على حافة القبر يريد أن يصدق أنه بعد

رحيله عن هذه الارض سوف ينضم الى المرأة التى كانت تعنى لديه الشىء الكثير . وهل لانى عالم أو صديق ؟ .

كان في وسعه أن يقول بأمانة أنه لا يدرى ، وأنه متردد بين هذا الاتجاه الآخر تارة أخرى . وما من شك أنه يبدو ان المتحدثة هى الدوقة لا بصوتها بل بعقلها وشخصيتها وبشىء لا يلمسه الانسان مطلقا ولا يراه مطلقا ولكن المرء يستنتجه لانه يتضح بوسائل اتصال كثيرة . ان الأمر اشبه بحديث الدوقةعبر تليفون خطوطه بحالة سيئة جدا مثلا !

وسر زهاروف وقال أنه كان يطالع فى تلك الكتب « التليبانى » ؟ هذه فيما يبدو لى كلمة اخترعوها ليوفروا على أنفسهم عناء التفكير . فأى شىء هذا التليباني ؟ وكيف يعمل ؟ لانه لا يمكن أن يكون ذبذبات مادية ، لان المسافة لا تؤثر فيه . وعليك أن تفترض أن عقلا يستطيع الغوص فى عقل آخر كلما أراد ذلك فيحصـــل على أى شىء يشاء . وهل هذا أسهل فى التصديق ما عدم فناء الشخصـية ؟ « فقال لانى » من المعقول ان نفكر بانه قد يوجد الباب للوعى يبقى فترة بعد الموت كما يبقى الهيكل العظمى بعد الجسد » ولكنه رأى أن هذه الصورة لا تروق السيد الهرم فأسرع مردفا » ولعل الزمن ليس حقيقة أساسية ، ولعل كل شىء وجد من قبل يظل موجودا على نحو ما فيما وراء ذرعنا او فهمنا . وليست لدينا فكرة عما عسى أن تكونه الحقيقة أو صلتنا بها . ولعلنا نخلق الخلود لانفسنا برغبتنا فيه ، فبرنارد شو يقول ان الطيور أنبتت لنفسها أجنحة لانها كانت راغبة فى الطيران محتاجة اليه .

ولم يكن الفارس الكومندر والضابط العظيم قد سمع أطلاقا بالعودة الى متوشالح . فحدثه لانى عن تلك الصورة الضخمة الشاملة لما وراء علم الحياة ، وتحدثا فى أمور كثيرة غامضة وعويصة الى أن صارا مثل ملائكة « ملتون » الساقطة ، ضائعين بين طوايا الدهشة الحائرة والذهول ، الى ان تذكر لانى ان عليه أن يسحب زوجته الى حفلة عشاء ، فغادر الشيخ فى حالة عقلية أسعد كثيرا الا أنه شعر بشىء من الاثم وقال لنفسه « أرجو ألا تكون لدى روبى أسهم أخرى يبيعه اياها » !

ووجد لانى زوجته ترتدى ثيابها ، وفيما هو يرتدى ثيابه أبلغته انباء جديدة « الخال جسى كان هنــا » فقال لانى « حقــا ؟ ومن قابله ؟ » فأجابت « كانت بيوتى فى المدينة ، فجرى لى معه حديث طويل »فسألها« وماذا يصنع ؟ فقالت انه مستغرق فى حملته الانتخابية « فسألها »وكيف استطاع أن يجد فراغا للقدوم الى هنا ؟ فاجابت « لقد جاء لعمل · فهو يريد منك ان تبيع بعض رسومه »فقال« يا الهى يا ايرما ! أنا لا أستطيع أن أبيع هذه الاشياء ، وهو يعلم هذا « فسألته « ليست من الجودة بقدر كاف ؟ »فقال« أنها لا بأس بها على نحوما · ولكنها غير ممتازة ، فلا بد أن فى باريس ألف رسام يحسنون مثلها »فسألته« وهل يفلحون فى بيع أعمالهم ؟ »فاجابها« أحيانا · ولكنى لا أستطيع أن ازكى فنا ما لم اعلم له مزيه خاصة · »فقالت« : لقد بدت لى رسومه فاتنة واظن أن كثيرين من الناس سيحبونها · »فسألها« اتعنين انه أحضر بعضها معه ؟ فقالت شحنة سيارة أجرة كاملة · فظفرنا بمعرض طيلة العصر ، وتحدثنا عن الكومنتيرن وعن — ما اسمهــا ؟ الجرجرية ؟ « فقال « المادية الجدلية ؟ » فقالت « أنه يقول أن بوسعه أن يجعل منى شيوعية لولا أموالى · ولذا حاول أن يجردنى من جانب منهــا · « فســألها « هل طلب منك مالا ؟ » فاجابت « انه قد يكون رساما رديئا يا عزيزى ولكنه بائع جيد جدا » فسألها « اتعنين أنك أشتريت بعضا من هذه الاشياء »فقالت »صورتين » فهتف بحق السماء ! وماذا دفعت فيها ؟ »فاجابت« عشرة آلاف فرنك لكل منهما « فقال « ولكن هذا غير معقول يا ايرما انه لم يحصل قط على نصف هذا المبلغ فى صورة له طيلة حياته »فقالت« لقد أسعده ذلك على كل حال وهو آخو أمك ، وانا احب ان أقر الســلام فى الاسرة »فقال« الحقيقة يا حبيبتى أنك لست مطالبة بشىء من هذا القبيل · وبيوتى لن تحب ذلك » فاجابت أيرما وهى ترقب مرآة مائدة زينتها وخادمتها تقوم باللمسات الاخيرة من تصفيف شعرها « أن اقول نعم أسهل كثيرا من أن اقول لا · والخال جسى ليس انسانا شريرا كما تعلم » فسألها زوجها « وأين الصورتان ؟ «فاجابت» وضعتهما فى خزانة الحجرة فى الوقت الحاضر فلا تضيع الوقت الآن والا تاخرنا « فقال » دعينى الق نظرة واحدة عليهما فالحت زوجته قائلة « أنا لم اشترهما لوجه الفن ، بيد انى أحبهما ، وقد اعلقهما فى هذه الحجرة ان كانتا لا تؤذيان شعورك » .

واخرج لاني اللوحتين ووضعهما فوق مقعدين ، وكانتا من النوع المعتاد الذى كان جسى بلاكلس ينتجه بمعدل صورة كل اسبوعين فى أى وقت يشاء . واحداهما تمثل غلاما صـــغيرا ، وتمثل الاخرى بائع فحم مسن ، والصورتان كلتاهما عاطفية ، لان الخال جسى يحب حقيقة هؤلاء الفقراء ويتخيل فيهم أشياء تتفق مع نظرياته . أما أيرما فلم تكن لديها مثل هذه المشاعر ، الا ان لاني كان قد علمها انها ينبغى ان تتحلى بها ، ولا شك أنها تبذل جهدها الآن . وسألته هل هما حقيقة رديئتان جدا ؟ « فأجابها » انهما ليستا مغنما « فقالت » المبلغ كله ثمانمائه دولار ، وهو يقول انه مفلس بعد أن انفق كل شىء فى المعركة الانتخابية . ثم لا تنسى يا لانى أنه قد لا يكون أمرا سيئا ان يصير خال لك عضوا فى مجلس النواب « فهتف لانى » ولكن اى عضو هو يا ايرما ! أنه سيجعل من نفسه فضـــيحة دولية . وكان ينبغى ان اذكر لك انه اختـــار دائرة عمالية ورشح نفسه ضد رجل اشتراكى « فقالت الزوجة الشابة بدماثة » ليكن . سأساعد المرشح الاشتراكى ايضا ان اردت « فقال لها » وبذلك أن تأتى بحصانين فتشدى أحدهما الى مقدمة عربتك وتشدى الآخر الى مؤخرتها ثم تسوقينهـــا باقصى ما تســتطيعين من شدة فى اتجـــاهين متضادين » .

ولم تكن ايرما سريعة الخاطر عادة ، ولكنها الآن فكرت فى شوراكرز وقالت « انت تعـــلم أننى أدفع أجورا طول الوقت لرجال يمـــرنون جيادى » .

- ١٠ -

كان الفريد بوميرى نيلسن الاصغر فى مدرسته بانجلترا وجاء الى بيانفينى لقضاء عطلة الفصح فأستأنف هو ومرسلين حياتهما من حيث كانا قد تركاها على ظهر اليخت بيسى بد قبل عام ونصف . وفى هـــذه الفترة كان كل منهما اســتعد لصاحبه وفى الوقت نفســه يقوم باكتشـــافات مهمة عن ذاته .

وكانت ابنة مارسيل ديتاز وبيوتى بد لم تتم الرابعة عشرة بعد ، وهى فى المرحلة التى يلتقى فيها الجدول بالنهر ، فتحلق الانوثة والطفولة معا » فكانما هى بطلة فى الغوص واقفة على حافة لوحة القفز وقد شدت

كل عضلة في جسدها وتاهبت للخطة الاندفاع قدما • فهي على هـذا النحو بدت فوق حمام سباحة الاناقة والاستمتاع وصنوف شـتى من الابهة والبهاء • وراحت تطل في حمام السباحة مسحورة وأعدت نفسها للغوص باسرع مما درى أحد من اعضاء أسرتها أو شاء بكثير • لقد كان هذا سرها • كان هذا مغزى القلب الخافق والوجنتين المتوردتين وحالة توفزها العامة ، فليس في وسعها أن تنتظر كي تبدأ الحياة !

وكانت مرسلين تحب أمهـا ، وتعبد اخاها غير الشـقيق الوسيم الانيق ، وتتطلع برهه الى جونو المزدهرة التي دخلت حياتها اخيرا تحف بها هالة ذهبيه ، فكل انسان يتحدث عنها ، وصورتها في الصـحف ، فهي بايجاز ملكة من جماعة الاثرياء الحاكمة ، ذلك العـالم الذي كانت مرسلين قد تعلمت أن تعتبره جميلا عظيما عاليا أنيقا متعاليا رشيقا وقفا على الصفوة الممتازة ، وهي مزمعة أن تسـتلفت الانظار في هذا العالم السحري ، ولا جدوى من محاولة ثنيها عن عزمها ، فالرجال قد شرعوا ينظرون اليها ، وليست بالتي يفوتها ادراك ذلك أو معرفة مغزاه • الم يكن هذا المغزى مدار أحاديث جميـع السيدات الانيقات منذ بدأت تعي معاني الالفاظ ؟ وهؤلاء السيدات بدأت تتقدم بهن السن ، فهن في طريقهن الى الخروج من الميدان ، ومرسلين تزمع أن تُدخل اليه ، فقد حل دورها !

والآن ها هو ذلك الفتى الانجليزي الذي يكاد يضاهيها في العمر ، والذي اختارته أحاديث الاسرة كي يكون شريك حياتها • وقد يتم ذلك ، ولكنها أولا لابد أن تسوي بضع مشكلات • وأول هذه المشكلات أنه من الحتم تحديد من منهما ستكون بيده قيادة الاسرة • أن « الفي » جاد مثل أبيه ، يقظ الضمير الى أقصى حد ، صموت بصورة تتجاوز الحد الطبيعي لمن في مثل حداثته ويعذبه أحساس خفي بالكبرياء • أما مرسلين فمندفعة منطلقة ثرثارة ، ولها مثل كبريائه تماما ولكن على طريقتها الخاصة وكل من هذين المزاجين كان يخشى الآخر خلسة • وكانت الغرابة الطبيعية التي يستشعرها فتى يافع ازاء فتاة وتستشعرها الفتاة أزاء الفتى عاملا مشددا لما بينهما من اختلافات وجارحا لتقدير كل منهما لذاته • أهو يزدريها حين يلزم الصمت ؟ أهي تغيظه حينما تضـحك ؟ وزاد الغيظ والحنق بغطرسة الطرفين •

ومن عادة الانجليز عندما يصل غلامان الى التلاكم أن يكونوا حلقة حولهما ثم يتركوهما ينهيان معركتهما وحدهما • وبدا الآن ان هذه هي

العادة المرعية أيضا في معركة الجنس ، فقد قال ريك « من الافضـل أن يحسـما ما بينهما الآن لا فيما بعد » ولم يقدم نصيحة لابنه الا ان طلبه منه ، فالفى المسـكين متكبرا حتى مع أبيه • فمن شـأن كل رجل أن يسوس نساءه بنفسبه !

اما مرسلين فكانت تفر الى أمها وتنطلق فى نوبات بكاء ، وتحاول بيوتي ان توضح لها المزاج الخاص بالانجليـز ، فيبدو عليهم البرود من غير ان تكون هذه حقيقتهم • واوشكت العطلة القصيرة أن تنقضي فنصحت بيوتي ابنتها أن تصالحه بسرعة ، ولكن مرسلين صاحت « أنهم شعب فظيع وما لم يتحسن سلوكه لن تكون لى به علاقة بعد الآن • » وهكذا كان الفرنسيون والانجليز فى حرب متواصلة منذ سنة ١٠٦٦ •

ومن العجيب ان الرجل القادم من أيوواهو الذى قام بدور الوسيط الدولى فى الصلح • ولم يكن برسيفال دنجل يتدخل مطلقا فى شئون أى انسان دائما كان يتكلم عن محبة الله ليس غير ولعلها مصادفة أن كلامه يكون ابلغ ما يمكن حينما يعلم ان شخصين على خلاف • فالله هو الكل والله محبة والله حى والله حاضر ، والله يعلم ما نفعل وما نقول وما نفكر • وعندما نجانب الصواب في افعالنا فكأنما نقطع أنفسنا عمدا عنه سبحانه وتعالى ونقضى على سعادتنا • وهذا هو القانون الروحى : ان الله لا يعاقبنا بل نحن نعاقب أنفسـنا وأننا اذا تواضعنا أمامه سـمونا بأنفسنا أمام بعضنا بعضا • ويمضى فى كلامه على هذا النسق فى تسلسل من العبارات الصوفية كأنها رسائل من عالم أفضل •

وهذا كله كان حريا ان يبدو عقيدة مألوفة لدى أسـلاف كل من هذين اليافعين • ولعل الافكار ينبغى أن تنسى كى تبدو لنا وكأنها حقائق جديدة • ومهما يكن من شىء فهذا السيد الغريب بدا فى نظر مرسلين والفى كليهما مؤسسا ومكتشفا لمذاهب تبعث الرهبة فى النفس • وهو سيد ذو وجه ملائكى ووجنتين ورديتين وشعر اشيب يتكلم بلهجة أهل البرارى • وذات مرة عندما أراد أن يغسل يديه وهو فى زورق شراعى استخدم ما سماه « صفحة الغسيل » فخيل الى الفى أن هذا أغرب تركيب للألفاظ سمعه فى حياته . ولكن يبدو أن الله لا اعتراض له على لهجة « ايووا » فقد كان يلهمه مايصنع ، وعندما تفكر فى الله لا على أنه فى مكان ما من السماء جالسا فوق عرش ، بل على أنه حى فى قلبك وموجود فيك على صورة لا يمكن ادراكها ، يبدو لك على الفور انه من السخافة والحمق

ان تتخاصم مع صديق للاسرة حتى ولو لم يكن زوج المستقبل • فمن الافضل تناسى الخصام ، مدة مباراة فى التنس على الاقل •

وخطر لبيوتى أن وجود روحاني يشفى الناس فى الأسرة مسألة ملائمة جدا ! وقالت فى نفسها انى امراة غير فاضلة ، ويجب أن أحاول التشبه به فاحب كل انسان وأقدر فى الناس افضل جوانبهم • وينبغى فى الحقيقة ان أذهب الى مدرسة لانى واقابل بعض هؤلاء الفقراء واحاول ان اجد فيهم ما يجده • وتجول ببالها هذه الافكار وهى ترتدى ثوب سهرة ثمين أعطتها اياه أيرما بعد أن ارتدته مرتين أو ثلاثة ، ثم تمضى الى حفلة فى بيت بارونة نوريت السابقة حيث تصغى الى اللغط حول راكب خيل فى سيرك كان قد تزوج مليونيرة مسنة وهو يستلفت جميع الانظار على شاطىء الملذات هذا • وتمزق السيدات سمعة المليونيرة أربا وتستمتع بيوتى ببراعتهن القاسية فى ذلك التمزيق وتنسى كل شىء عن استماع الله لكل كلمة •

يا له من عالم معقد ، من العسير جدا أن يغدو المرء فيه صالحا !

الكتاب الثالث

هبى يا رياح وارتطمى

الفصل الحادى عشر

انه وجود المراة باكمله

- ١ -

لقد فعلت خيانة الحركة العمالية البريطانية فى اريك فيفان بوميروى نيلسون ما يفعله الحديد المحمى حين يغرس فى لحم جسد الحى ٠ وأخذ يمعن التفكير فى هذه الخيانة ويحلل أسبابها فملأ رحاب نفسه بصور متعددة لها ، وكانت النتيجة مسرحية اسمها « رشوة بدلة السهرة » ٠ وهو ليس عنوانا أدبيا فيه وقار وحيدة ، بل هو عنوان نضالى دعائى ٠

والشخصية الاساسية فى المسرحية ابن عامل مناجم هرب من العمل فى المناجم تحت الارض بأن أصبح سكرتيرا لاتحاده العمالى ، وله زوجة كانت معلمة ، فهى أعلى منه مكانة بعض الشىء ٠ ولم يكن لهما أطفال لان الحركة العمالية كان من المقرر أن تكون لهما بمثابة الولد ٠ وفى مفتتح المسرحية نجده وقد انتخب حديثا لعضوية البرلمان ٠ وثمة شخصيات ووقائع مروية تسترجع أيامه الاولى فى الحماسة والمثالية ، أما الآن فنراه مستغرقا فى تفصيلات غير بناءة أو مجدية كل الجدوى لسياسات الحزب والمناورات على السلطة والوفاء بالالتزامات الماضية أملا فى استجلاب المزيد من هذه الالتزامات ٠

والمرأة التى تمثل نساء الطبقة الثرية فى القصة مستوحاة من شخصية روزمارى كونتس سندهافن ، وهى معشوقة لانى القديمة واحدى أولئك النساء اللواتى استولت عليهن الحركة النسائية فلم يسمحن لأنفسهن بالوقوع فى حب عميق لان ذلك من شانه أن يؤثر فى استقلالهن واستمتاعهن بالشهرة والظهور والتصفيق ٠ وهى امرأة سياسية تحب

ممارسة السلطة ، شرعت في اغواء زعيم عمالي لا لانها تريد خدمة مصالح جماعتها من المحافظين بل لانها تستمتع باللهو برجل واخضاعه لارادتها . وحاولت أن تعلمه ما تسميه البداهة المشتركة ، لا في صدد الحب فحسب، بل أيضا في صدد السياسة وجميع أحوال العالم الذى يعيشان فيه . ولم تبال بتحطيم قلب زوجة تعتبرها شخصا أقل منها ولا لزوم لها . وان انتهى بها الامر أثناء هذه العملية الى تحطيم اتحاد عمالي فهو كسب عرضى لها .

وهو دور دسم لأية ممثلة ، وبايحاء من لاني جعل ريك لهذه المرأة اما أمريكية ، وهي ظاهرة شائعة في مجتمع لندن ، مما يجعل ذلك الدور من الممكن أن تؤديه فيليس جراسن . وكانت صديقة لاني القديمة ورفيقة لهوه قد برزت نجما لمسرحيتين اخفقتا في برودواى لأسباب لا ذنب لها فيها ، فكانت في حالة نفسية متواضعة ، وعندما كتب اليها لاني عن مسرحية ريك ابرقت على الفور ترجو السماح لها بالاطلاع على المخطوط . وكان الدور قد كتب لها كي تؤديه ، الى حد السماح بشيء من اللكنة الامريكية .

وكان لاني قد أصبح شديد الانشغال بالمسرحية وتحدث عن كل مشهد فيها مع أصدقائه سواء قبل كتابة كل مشهد أو بعد كتابته ، وقرأتها ايرما وبيوتي واميلي وصوفي ، وزوجة ريك أيضا بطبيعة الحال .

وتشاورت أولئك السيدات معا وادلين بمقترحات حول كيفية شعور أفراد المجتمع الراقي الجميل العظيم وسلوكهم ، وبذلك أصبحت المسرحية مسألة عائلية على نحو ما ، ولم يعد هناك الا احتمال طفيف لوجود أدنى خطأ في جوها ولونها المحلي . وبعد أن قرأت اميلي المخطوط كاملا عرضت أن تسهم بخمسة آلاف دولار بالشروط عينها التي يسهم بها الباقون . وما كانت صوفي البارونة السابقة لتسمح لنفسها بالتخلف عنها .

والمسرحية ستكون باهظة التكاليف عند اخراجها بسبب جو الثراء فيها . فان كنت تريد ممثلين يبدون كالعمال أو زعماء حزب العمال ففي وسعك أن تستأجرهم بثمن بخس ، اما ان أردت ممثلا يستطيع اداء دور وزير الخزانة فلابد لك من خزانة عامرة . وكان ريك الذى صارت له الآن خبرة وافية قد قدر مجموع النفقات بثلاثين الف دولار ، وبدا الرقم مألوفا في نظر لاني ، لأنه كان تكاليف أول اخراج لرواية مثلتها جراسن ، ومن أجل هذا المبلغ هجرته . اما الآن فسيحاول أن يكون النصير غير

المحترف ، ومن نوع أعلى وأسمى لن تحتاج للتمثيل له الا على خشبة المسرح ٠

- ٢ -

تمت المسرحية فى أوائل شهر ابريل واتجهت الأسرة الى الشمال ، مع عودة الفتى الى المدرسة ، وقـــام لانى مع ايرما بتوصيل الأب والأم بالسيارة حتى باريس مبكرين بضعة أيام لان زلطان كرتيزى كان هناك وهما راغبان فى مشاهدة صالون الربيع من خلال عينيه الخبيرتين ٠ وكانت ثمة ايضا مسرحيات يجب أن تشاهد لأهميتها لدى المحترفين ، وهما يوشكان أن يدخلا فى عدادهم ٠ واتفق أن فرنسا كانت فى معمعان معركة انتخابية طاحنة ، وعندما يكون لك خال مرشح لمجلس النواب فلابد أن تعنيك مشاهدة مايجرى فيها ٠ وكان هانسى وبيسى قد وافقا على الحضور لتقديم حفلة موسيقية لتأييده فى دائرته ، وستكون هـــذه الحفلة لونا من الاجتماع العائلى ٠

وكان الخبير المجرى فى الفنون رقيقا صافى النفس كعادته ٠ وهو قد عاد لتوه من رحلة فى الغرب الأوسط حيث لم يزل - مع مافى ذلك من غرابة - أصحاب ملايين ذوى دخول كبيرة يريدون شراء مايسمونه « رسوم فنية » ٠ وكان لانى قد زود زلطان بصور فوتوغرافية للوحات ديتاز التى لم تزل فى المخزن ، فباع ثلاثا منهـــا بأثمان ستساعد فى اخراج « رشوة بدلة السهرة » ٠ وأصرت ايرما على أن تسهم بنصيب من المال ، لا لأنها تعرف شيئا عن المسرحيات ، بل لأنها تحب لانى وتريد له أن يحظى برغبات فؤاده ٠

ووقفت مثل ذلك الموقف المتسامح من الاجتماعات السياسية فان أراد لانى أن تذهب صحبته وحاولت ان تفهم اللغـــة الفرنسـية التى يصيحون بها فى نبرات طائشة مستثارة ٠ وكان جيسى بلاكلس متقدما للانتخاب عن دائرة ضاحية من الضواحى الصناعية التى تحيط باريس بنطاق أحمر واسع ٠ والقـــانون الفرنسى لا يحتم أن يكون المرشح من المقيمين فى الدائرة الانتخابية ، ولكنه ينبغى أن يكون صاحب ملكية فيها ، فاشترى المرشح الاحمر أرخص قطعة أرض خلاء استطاع العثور عليها ٠ وكان شديد الاهتمام بأحوال الدائرة منذ زمن طويل ، يتحدث الى جماعات

من العمال كل ليلة شهورا متوالية ، ويحضر اجتماعات اللجنة ، بل يزور الناخبين فى بيوتهم ، لا لشيء سوى الاكتفاء بالحلول محل خصم اشتراكى خارج على « خط موسكو » . ولم تكن ايرما تفقه هذه المصطلحات الفنية ، الا أنها لم تتمالك الشعور بهزة وقد وجدت ذلك الخال الذى صار لها منذ أمد وجيز محور الاهتمام فوق المنصة ، وهو يلقى خطبة ملتهبة دفعت الجمهور المحتشد الى آفاق من الحبور الجنونى . ولم يفتها أن تشعر بالتأثر حين رأت هانسى روبن يعزف لعمال بلد أجنبى فيستقبلونه استقبال الرفيق والأخ . آه لو لم يكونوا اناسا ذوى منظر فظيع على هذا النحو ! .

- ٣ -

كل هذا وضع لانى فى موقف غريب ، فهو يحضر اجتماع خاله ولكنه لا يريد له النجاح ، وصارحه بذلك . وبعد ذلك عرجوا مع مجموعة من أصدقائهم الى مقهى تناولوا فيه العشاء وتناقشوا وتحاجوا حتى الساعات الأولى من الصباح . وكان المقهى حافلا بزحام شديد من الناس والضجة فيه عالية ودخان الطباق يملأ جوه . وكانت ايرما قد صحبت زوجها الى مثل هذه الأماكن فى برلين ولندن ونيويورك فعرفت أن المثقفين يعيشون على هذا النحو . والمفروض أنها حياة بوهيمية ، وهى بدون شك حياة مختلفة عن حياة الناس . وليس فى وسعها اطلاقا أن تشكو من أن زوجها لم يزودها بالمغامرات .

والى جانب المليونيرة جلس شاب روسى أشقر يحدثها بالانجليزية مما سهل التفاهم بينهما . وكان قد خرج لتوه من الاتحاد السوفييتى ، ذلك المكان الذى سمعت عنه الكثير جدا من الحكايات الفظيعة . وحدثها عن مشروع السنوات الخمس الذى قارب التمام . وقد تم بالفعل انجاز كل جزء من أجزاء برنامج ذلك المشروع ، فالمزارع الكبيرة الجماعية تقوم هذا الربيع ببذر مساحات من الحبوب أكثر مما بذر فى التاريخ الروسى كله من قبل ، ومعنى ذلك ابتداء حقبة جديدة تماما فى تاريخ البشرية . وكان الغريب أن الشاب يتكلم بثقة هادئة ، وايرما ترتجف فى مواجهة القضاء المحتوم الذى يحيق بالعالم الذى نشأت فيه . ومن سلوك الآخرين معه استنتجت أنه شخص هام ، من مندوبى الكومنترن . ولعله بعث ليتأكد من أن المعركة تسير على الخط الصحيح الذى رسمه الحزب .

ولعله يحمل معه شيئا ما « ذهب موسكو » الذى سمع المرء كلاما كثيرا حوله ! .

وعبر المائدة جلس هانسى وبيسى . وسرعان ماشرعا يخبران رجل الكومنتيرن بتفصيلات عن الموقف فى ألمانيا . وكانت الانتخابات للمجالس النيابية فى مختلف الولايات قد أجريت حديثا جـــدا ، وظفر الحزبان المتطرفان المتضادان بمكاسب هائلة ، ومحيت من الميدان الطبقات المتوسطة ومعها وجهة النظر التى تمثلها . وقال هانسى ان الصراع على الشوارع فى المدن الالمانية ذلك الصراع الذى استعر فى السنتين أو الثلاث سنوات الأخيرة أخذ يتجه ضد مصلحة الشيوعيين ، فلدى أعدائهم المال والاسلحة. وكان هانسى قد شهد معركة فى وضح النهار ببرلين ، وكانت كتيبة من جنود العاصفة سائرة رافعة أعلام الصليب المعقوف تتقدمها الصفارات والطبول ، فمرت بمتجر تعاونى وأخذت تقذف نوافذه بالحجارة ، فاندفع من بداخل المتجر من الرجال ونشبت معركة بالهراوات والخناجر . ولم ينتظر عازف الفيولينا حتى يرى النتيجة ، وقال وهو يبسط يديه بلهجة الاعتذار « لست أعتقد أنه ينبغى ان استخدم يدى فى ضرب الناس » . وقالت ايرما فى نفسها : « يالهانسى المسكين . فهو وفريدى شقيان بعد أن اكتشفا مدى اتصال أبيهما بجميع المعسكرات فى هذه الحرب الأهلية الالمـانية . فالنازيون يســـــتخدمون بنادق بد الآلية فى قتل العمال ، وكيف كان من الممكن أن يحصلوا عليهـــا من غير أن تكون مؤسسة « ر ، ر » على علم بذلك ؟ ان الشابين لم يتشاجرا مع أبيهما ـ فلا طاقة لهما بذلك ـ بيد ان راحة بالهما تلاشت وصارا يتساءلان كيف يمكن أن يواصلا الحياة فى ذلك البيت .

وقالت ايرما فى نفسها أيضا « ياللانى المســـكين ! » فقد رأت زوجها موزع النفس بين الطوائف المتحاربة ، فالحمر مهذبون معه فى هذا الزحام لأنه ابن أخت جسى ، ولأنه أيضا سيدفع ثمن العشاء ، وهو واجب ينهض به فى جميع الاحوال . ويبدو عليه كأنه يشعر أنه ينبغى أن يبرر حياته ، وهو شخص لا يستمتع بالقتال ولا يستطيع أن يجمع أمره على كراهية أحد من كل قلبه ، ومع ذلك فهو لا يستطيع البعد عن المجادلات . ولما قام المرشح الشيوعى لمجلس النواب بوضع فرصة المسجل المعهود وقال ان الديموقراطيين الاشتراكيين عقبة فى سبيل التقـــدم أشد من الفاشيين رد عليه لانى بقوله : « ان ظللت ياخالى جسى تتمنى هذا فستجد

نفسك وجها لوجه مع الفاشيين » . فقال الجراموفون : « سواء أرادوا أو لم يريدوا فسوف يساعدون على تحطيم النظام الرأسمالى » . فقال لانى متهكما هادئا : « اذهب وقل هذا الكلام لموسولينى ! لقد قضيت فى مجابهته عشر سنين ، فالى أين بلغ بك المدى ؟ » فرد عليه « هو يعلم أنه قارب نهايته » . فقال لانى : « ولكننا نتكلم عن الرأسمالية ! هل درست تقارير حصص شركتى فيات وانسالدو ؟ » .

وهكذا استمرا يتناوشان جذبا وطردا ، وقالت ايرما فى نفسها « رباه ! كم أكره المثقفين ! » بيد انها لم تتمالك نفسها من التأثر عندما ظهرت نتائج الانتخابات وظهر اسم « زيس بلوك ليس » كما يسميه الناخبون فى رأس احصائية الاقتراع فى دائرته ، وفى يوم الاحد التالى جرت انتخابات الاعادة بين أكثر اثنين من المرشحين أصواتا ، واتفق أنهما الاحمر والوردى ، وجاء الخال جيسى الى ايرما سرا يرجوها ان تمده بمعونة فأعطته ألفى فرنك كلفتها تسعة وسبعين دولارا . واتفق ايضا أن المرشح الاشتراكى كان صديقا لجان لونجيه فذهب الى لانى وحصل منه على ضعف ذلك المبلغ ، ومع ذلك ظفر « زيس بلوك ليسى » ببضع مئات من الأصوات أكثر من منافسه ، واضفى على لانى شرف وجود خال له بين نواب الجمهورية الفرنسية ، وهى صلة استطاع شبان كثيرون أن يستغلوها للاثراء ، أما لانى فكل ما كان يمكن أن يتوقعه هو مزيد من فواتير حسابات الطعام والخمر التى استهلكت فى حفلات فوز خاله فى المطاعم .

- ٤ -

وكان آل بوميروى نيلسون قد ذهبوا الى لندن حيث استعان ريك بمخرج مسرحى ومدير مالى ، وذهب آل بد وآل روبن زائرين الى « ليه فوريه » حيث كانت اميلى سترزورث قد وصلت لتوها ، وعزف لها هانسى وبيس ، ثم عندما شغل لانى مع بيس بالتدرب على معزوفات ثنائية على البيانو اختلت ايرما بمضيفتها لتسألها النصح فى معضلات زوج وردى (اشتراكى) ونسيب أحمر (شيوعى) . وكانت مسز سترزورث دائما متفتحة الذهن فى المسائل السياسية ، فسمحت لاصدقائها وضيوفها أن يقولوا وان يعتقدوا ما يشاءون ، وكانت تكتفى بوصفها ربة صالون بتوجيه دفة الأحاديث بعيدا عن المشاحنات . وها هى الآن تقول لها أن

العالم بسبيله الى التغير فيما يبدو ، فمنذ الحرب وجد السادة - والسيدات أيضا - مزيدا من العناء فى ابقاء المناقشات السياسية داخل نطاق المجاملة المهذبة ويبدو أن هذه الظاهرة بدأت بنشوب الثورة الروسية التى كانت مسالة بعيدة عن التهذيب كل البعد • وعلقت اميلى عليها بقولها : « فعليك اما أن تكونى معها أو عليها ، وايا كان اختيارك لا يمكنك بعدئذ أن تتسامحى مع أى انسان فى المعسكر الآخر • » فقالت آيرما : « مشكلة لانى انه مستعد للتسامح مع اى انسان ، ولذا تجدينه دائما واقعا تحت ضغط • » فأجابتها صديقتها : « لقد راقبته وهو غلام صغير ، فبدا لى عذبا جدا حبه لاستطلاع أفكار الناس وجهده لفهمهم • ولكن هذه المزية من الممكن - كاى مزية - أن تصل الى حد التطرف •» •

وكان لانى قمينا أن تحمر أذناه لو انه سمع هاتين المرأتين تفكان اجزاءه ثم تحولان تجميعها ثانية على حسب مشيئتهما • وكانت اميلى الحكيمة العطوف - التى كانت المسئولة عن زواجه - تريد أن يستمر ذلك الزواج موفقا ، ولذا دعت ضيوفها الشبان للاقامة لديها فترة كى يتسنى لها سبر غور هذه المشكلة ونبهت الزوجة الشابة الى أن الحذر والكياسة ضروريان ، لأن الرجال مخلوقات عنيده وهم لا ينظرون بمودة الى محاولات توجيههم وتحريكهم • ان تسامح لانى مع الحمر والورديين متأصل فى عطفه على العذاب ، وان ايرما حرية أن يقل حبها له لو ان هذه الصفة نزعت من فطرته • فقالت ايرما : « لست أبالى أن يتبرع بالمال لو انه لم يقابل مثل هؤلاء الناس البشعين ، وكل هذا العدد العديد منهم ! » فأجابتها : « انه مهتم بالأفكار ، ويبدو أن الأفكار فى هذه الأيام تنبع من الطبقة الدنيا ، وقد لا يعجبك أو يعجبنى هذا ، ولكن الواقع أنهم يحطمون الآن البوابات ، ولعل من الحكمة أن نسمح لبعضهم بالدخول أحيانا » •

وكانت ايرما مستعدة أن تتجشم ايما عناء فى سبيل فهم زوجها ودوام الترفيه عنه ، فحاولت أن تكتسب افكارا جديدة ، بيد أنها كانت تريدها أفكارا مأمونة ذات صلة بالموسيقى والفن والكتب والمسرحيات لا بالسياسة والاطاحة بالنظام الرأسمالى • وكانت بطريقتها فى التعبير تقول : « مايسميه بالنظام الرأسمالى » ، كانما هى غلطة فى التكتيك أن تعترف بوجود شيء كهذا • وقالت : « لقد تأكد عندى أنه لن يهتم بأصدقائى فى نيويورك ، ولكنه يتأثر كثيرا فيما يبدو بطراز الناس الذين يلتقى بهم من معارفك ، فلو أريتنى كيف أنمى صلتى بهم قبل فوات الأوان ، ذلك أنه ان أمعن فى صلاته بالاشتراكيين والشيوعيين فلن

يرضى المحترمون من الناس ان تكون لهم به صلة » فقالت اميلى باسمة : « اشك فى أن هذا سيحدث ، فسوف يتسامحون معه اكراما لك • ثم انهم يتسامحون عادة مع الامريكيين ، فالمفروض أننا قوم فيهم شذوذ ، والفرنسيون يجدوننا مسلين ، على نحو مايجد لانى أصحابه الحمر والورديين » •

- ٥ -

ولم يحط لانى علما بهذا الحديث أو بغيره من الاحاديث التالية من قبيله ، بيد أنه فطن ـ وليس ذلك لأول وهلة فى حياته ـ لاحداق أذرع نسوية به ، باذلة شيئا يسيرا من الضغط فى اتجاه يبعد عن اتجاه آخر • لم يحس كوعا نسائيا ينغرس فى اضلاعه ، بل ذراعين ناعمتين تطويانه فيشعر بالدفء ، وربما شعر بمس شفاه أو همس بكلمات تدليل من قبيل حبيبى وعزيزى واسماء أخرى من نداءات التحبيب التى تبدو فى الطباعة سخيفة ، وتبدو سخيفة فى السمع أيضا مالم تكن صادرة عن الشخص المختار • ولم يسمع قط : « دعنا لا نذهب الى هناك ياعزيزى » بل يسمع بدلا من ذلك : « فلنذهب الى هنا ياعزيزى » و « هنا » دائما مكان له صلة بالموسيقى أو الصور أو الكتب أو المسرحيات ، ولا صلة له بتقويض النظام الرأسمالى المزعوم أو الموهوم •

وبارشاد اميلى عرفت ايرما انها ارتكبت خطأ بتثبيط جهود لانى كى يكون خبيرا فنيا • ويقينا انه من السخف فى الظاهر ان يحاول المرء كسب مزيد من المال ولديه كل هذه الثروة ، ولكن معتقدات الرجال التحكمية لابد من احترامها ، فهم لا يحبون أن يمدوا أيديهم الى زوجاتهم للحصول على المال ، ويعتبرون من أوليات الكرامة ان يكسبوا على الاقل نفقاتهم الشخصية • وقررت ايرما أن تاثير سلطان كرتيزى على حياة زوجها ممتاز ، وكانت حتى الآن تنظر اليه على أنه خادم من مستوى أعلى من الخدم العاديين أما الآن فقد قررت أن تعامله معاملة الصديق •

وقالت مقترحة على زوجها : «دعنا نتلبث فى باريس قليلا ياعزيزى، فانا فى الحقيقة اريد أن افهم شيئا عن الصور ، وانها لمتعة كبيرة ان نأنس برأى زلطان » •

وبطبيعة الحال تأثر لانى بهذه العلامة الدالة على الاذعان ، وزارا

المعارض الفنية التي يبدو ان عددها في باريس لا نهاية له . وكانت ثمة ايضا بيوت خاصة بها مجموعات ، وزلطان لديه المفاتيح السرية التى تفتح أمامه الأبواب هو وضيوفه . وسرعان ما اكتشفت ايرما أن بوسعها الاستمتاع بالنظر الى الاعمال الابداعية الجميلة ، وكانت تركز انتباهها وتحاول أن تفهم النقط التى يشرحها زلطان : منحنيات الجبال أو أشكال الاشجار التى تقيم التوازن فى المنظر الحلوى ، والمفارقات بين الألوان فى الصور الداخلية ، وطريقة وضع الأشكال وترتيب الخطوط بحيث تقود العين الى السمة الرئيسية . أجل ، هذا مثير للاهتمام ، ولئن كان هذا مايميل اليه لانى ، فسوف تميل اليه زوجته أيضا . ان الزواج ـ فيما سمعت ـ عملية « يانصيب » ، وعلى المرء أن يتقبل نصيبه المقسوم بروح طيبة .

- ٦ -

وقال لانى : « بيت زهاروف فى شارع هوش يضم بعض لوحات بوشيه المرحة الزاهية ، وليس من المنتظر ان يكون هناك ، ولكن الخدم يعرفوننى ، ولذا لست أشك فى أننا سنستطيع الدخول » .

وتوجه ثلاثتهم الى القصر المشيد بالحجر الابيض ، وصناديق الزهر المغطاه بالزجاج فى نوافذه حافلة بالازهار ، وكان كبير الخدم المترنح لم يزل قائما بالعمل ، والصور الجميلة لم تزل معلقة فى حجرة الاستقبال حيث أحرق السير بازيل أوراقه الخاصة واشعل النار فى مدفئته . وقال كبير الخدم ان سيده فى القصر الريفى وقلما يحضر الآن الى المدينة ، ولكن لا أحد يدرى متى يحضر وهو مثابر على العادة التى ظلت مرعية منذ عرفه لانى ، الا وهى اعداد عشاء كامل كل مساء يكفى له ولبضعة ضيوف . فان لم يحضر حتى ساعة معينة أكل الخدم مايشاءون واعطوا الباقى للفقراء المستحقين . وكانت أزهار البيبلومن والبيزار التى تحبها الدوقة لم تزل ناضرة فى حديقتها بعد مرور خمسة عشر عاما على اطلاعها لانى عليها . وكانت قد قالت له : « ان لها نوعا خاصا بها من الخلود » . وقد كررت على مسامعه هذه الكلمات امرأة بولندية عجوز فى « منزرث » ، يوم كانت تعيش فى حجرة بعمارة فى الشارع السادس بنيويورك ، وقطارات الترام المعلقة تمر بنوافذها فى جلبة صاخبة .

وفي قصر بالنكور الريفي لوحات للاسـاتذة القدامى تستحق المشاهدة ، فاتصـل لانى تليفونيا واتفق على موعد لاحضـار زوجته وصديقه ، وقادهما بالسيارة الى هناك في يوم شامس بهيج ، واستقبل الفارس الكومندر والضابط العظيم الجماعة الصغيرة بكل علامات المودة • وكان قد اكتشف ان زوجة لانى عطوف ، وأى شيخ وحيد يقدر اهتمام امرأة شابة جميلة بشأنه • وأراهم مالديه من لوحة دافيد الى لوحة فراجونا الى لوحة جويا ، الى لوحات انجر ولوحات كورو • وهذه أيضا لها نوعها الخاص بها من الخلود ، يتمثل في قدرة سحرية على ايقاظ الحياة في نفوس من ينظرون اليها • وكان زهاروف قد قال للانى انه سئمها ، ولكن يبدو الآن أن نيران اعجاب هؤلاء الشبان بها قد أذكت مما كان خابيا كالرماد من اعجابه •

وما كان ليفوت الخبير المجرى أن يقول شـيئا ذا بال حول كل صورة ، ولم يفت زهاروف ان يرى صواب كلامه • وتحدثوا عن الاثمان، وهو أمر يهمه هو ولانى معا ، وله أهميته عند زلطان ، فالمرء لا يمكن أن يدرى ماذا تتمخض عنه صلة من الصلات • وقال لانى : « هذا هو الرجل الذى علمنى معظم ما أعرفه عن الفن » فقال زلطان وقد تضرج وجهه دما من السرور : « أيعقل هذا بالنسبة لربيب مارسل ديتاز ؟ ! » •

وتحدثوا عن ذلك الرسام الذى كان زهاروف قد سمع به ، ووجه أسئلة وقد سقطت فى عقله بذرة فكرة وشرعت فى الانبات ، فقد تكون هذه هى الوسيلة للحصول على مزيد من وقت السيدة سيزنسكى أن يشترى لوحة من رسم ديتاز ! » •

وقدم الشاى فوق مسطح من العشب أمام القصر ، وكان المنظر الجميل يتألف من حدائق منسقة وغابة بعيدة ، ولما علق لانى عليه قال زهاروف : « لقد اختارت زوجتى هذا المكان فاشتريته من ليوبولد ملك بلجيكا » . ولم يزد ولكن لانى كان يعرف القصة ، وأثناء العودة بالسيارة الى باريس امتع صاحبيه فى الرحلة بالتفاصيل اللاذعة ، فملك البلجيكيين كان رجلا طويلا فخما ذا لحية عظيمة بيضاء مربعة ، وقد ألف ارتياد مسالك باريس الظاهرة والخفية بحثا عن قطع شهية من اللحم الانثوى ، فوقع العاهل ابن الخمسة والستين عاما ذات مرة على فتاة فى السادسة عشرة شقيقة احدى شهيرات انصاف الحرائر فى المدينة ، وأرسل قوادة تبتاعها له ، وأخذها لتعيش فى المجر فترة وجن بها غراما وأعادها الى

باريس واشترى لها هذا القصر ليكون بيتا لها . ولم يكن راضيا عنه بل أصر على اعادة تشكيل جانب كبير منه ، وهدم سقف مخدع السيدة واعاد بناءه بارتفاع طابقين كأنه كنيسة ، وتكلفت الستائر المقامة على النوافذ الاربع المواجهة للفراش عشرين الف فرنك ، وغطاء الفراش من المخرمات الانجليزية النقش تكلف مائة ألف وعشرة آلاف فرنك ، من فرنكات ما قبل الحرب ! وقاعة حمامها شيد من الحجر السماقي المسمط وأما حوض الاستحمام فمن الفضة ، وفي البدروم حمام سباحة من الموزايكو الذهبي . وتساءل لاني الذى لم يستحم هنا قط هل احتفظت الدوقة المركيزة الحريصة على اللياقة والسداد بتلك الافانين من الأبهة البيزنطية .

- ٧ -

ومن البيوت الأخرى التى زارها الثلاثي بيت دوق بلومون فى المدينة ، وهو سليل أسرة فرنسية من الأمر النبيلة القديمة وقد تزوج ابنة أحد ملوك قطعان الماشية فى الارجنتين وبذلك تسنى له أن يعيش فى أبهة أسلافه ، ويقع القصر على ناصية شارع بالقرب من حديقة مونسو ، وله واجهة مهيبة من الرخام الابيض وبه نحو ثلاثين حجرة كثير منها فسيح جدا ، وهو مزين بتلك الأبهة التى نماها الفرنسيون على مر الاجيال ، فكل قطعة أثاث ، وكل قطعة رياش وتمثال وزهرية جديرة بدراسة مستقلة . فهذا صليب من الكريستال به نقوش تمثل تذكارات مقدسة من الميناء يرجع الى القرن السادس عشر ، وتلك مائدة كتابة مطعمة من عهد لويس السادس عشر ، وهذه قدور زنجبيل لازوردية نصف شفافة من الصين القديمة ، وهذا القبيل من الاشياء ترفع زلطان كرتيزى الى سماوات النشوة . والقصر فى مجموعه أشبه بمتحف ، وهذا شيء لا يثير أحدا فى فرنسا ، وقد يكون له نظير فى لونج آيلند أيضا .

وكانت الاسرة على سفر ، والاثاث مغطى لحمايته من التراب ، ولكن زلطان يعرف ناظر القصر الذى كان على يقين من هبة سخية فعرض على انظارهما كل شيء أبديا اهتماما به . وخطرت لايرما فكرة مؤداها أن الكساد ربما أدرك سوق الماشية فى الارجنتين ، واستفسرت عن امكان تأجير المكان ، وكان الرد أن فى وسع السيدة الرجوع الى وكيل الدوق ، ورجعت ايرما اليه فعلمت ان فى وسع أسرة موثوق بها أن تستأجر هذا

القصر مقابل مليون فرنك سنويا . فصاحت ايرما : « ياله من مبلغ زهيد يالاني اقل من أربعة آلاف دولار » فسالها : « ولكن ماذا عساك تصنعين به ؟ » فاجابته : « أفلا تحب أن تعيش في باريس ويتاح لك استضافة أصدقائك ؟ » فقال : « ولكن لديك فيلا أبيض فعلا ! » (يعني أن لديها قصرا باذخا نادرا كالفيل الابيض) . فقالت : « كن معقولا ياحبيبي وواجه الواقع . أنت لا تحب شور آكرز ولا من ياتون اليها ، فانت تريد أن تعيش في فرنسا » فقال : « ولكني لم أطلب قط قصرا ! » فقالت : « أنت تريد أن يكون أصدقاؤك من حولك ، وتريد أن تصنع لهم شيئا ، وقد ظللت طول حياتك تاخذ ماخذ التسليم أن يقوم أحد بالضيافة ، وتستفيد أنت منها . انه يبهجك أن نذهب الى » البلوطات السبع « ونقابل المثقفين ورجال الفكر . وتسمع مشاهير الموسيقيين ، وتسمع الشعراء يقرأون اعمـــالهم ، ويبدو أنك تخال هذه المباهج تنمو على الاشجار ، وأنت لا تكلف نفسك قطف الثمرة ، فهي تاتيك مشذبة منسقة وتقدم اليك وسط قطع الثلج ! الم يخطر لك أن صحة اميلي آخذة في الانحطاط ؟ وانك يوما ما لن تجد امك ، أو صوفي ، أو مارجي ، وسيكون اعتمادك كله على ماتعلمته زوجتك ! » .

وتبين له أنها فكرت في الموضوع طويلا ، وخطر له أنها استشارت السيدات الأخريات ، وهن بطبيعة الحال وافقن ، لأن ذلك سيتيح لهن متعة طيبة ، واعترض في وهن : « ستحملين على كاهلك عبئا ثقيلا . » فقالت : « لن يكون الأمر سهلا في بلد أجنبي ، ولكني ساجد العـون وساتعلم . ستكون هذه مهنتي مثلما كانت مهنة اميلي . » فسألها : « وماذا أنت صانعة بشور آكرز ؟ » فقالت : « فلنجرب هذا المكان عاما ، ولعلنا ان احببناه نستطيع أن نشتريه ونبيع شور آكرز . أو ان كانت أمي تريد مواصلة الاقامة هناك ، ففي وسعها أن تنقص عدد الموظفين والخدم . وان استمر الكساد فانه سيسر الخدم أن يعملوا نظير قوتهم وايوائهم ، وسيكون ذلك عدلا . » فسالها : « ولكن هبي دخلك استمر في التناقص يا ايرما ؟ » فأجابته : « ان كان العالم سينتهي ، فمن الذي يستطيع أن يتنبأ بما سيفعل ؟ ! وعلى كل حال لن يضيرنا ان يكون لنا رهط من الأصدقاء » .

- ٨ -

وكان ماتقترحه تسوية مضمونها أن تعيش فى فرنسا كما يريد ، ولكن بحسب مقاييسها هى • ولكن يوقفها عن اتباع تلك المقاييس يجبه ان يقول لا بصراحة ، وهو ليس من حقه أن يقول لا ، فالمال مالها ، والعالم اجمع يعلم ذلك •

ولم تكن فكرة المعيشة فى باريس شيئا جديدا كل الجدة بالنسبة للانى بد ، فهو قد قضى شتاء بأكمله هنا أثناء انعقاد مؤتمر الصلح ، وقضى فيها شتاء أخر فى فترة الحياة الثلاثية مع مارى دى بروين وزوجها وكانت باريس تقدم لروادها جميع أنواع المتع الفنية ، وموقعها متوسط ، والطرق والسيارات صارت من التقدم بحيث تستطيع الوصول من هناك الى لندن أو جنيف أو امستردام فى بضع ساعات ففى وسعهما أن يستقلا سيارتهما فى الصباح ليصلا الى بيانفينى عند هبوط الليل • وقالت ايرما « سيكون ذلك فى الحقيقة نوعا من المقايضة • »

وقد ادهشه ما ابدته من همة فى الاقبال على العمل ومن سرعة فى إنجاز الموضوع • فهى ابنة ج. باراماونت بارنز وقد ألفت طول حياتها سماع القرارات تتخذ والأوامر تصدر • وبمجرد أن تفوه لانى بالموافقة جلست الى التليفون واتصلت بجيرى بندلتون فى كان وسالته « كيف حال الأعمال ؟ » ولما جاءها الصوت والمرح المالوف بأن الأعمال ميتة وموسدة التراب سالته هل يجب أن يحظى بعمل ، فاجابها انه يتلهف على ذلك ويثب اليه وثبا • فقالت : « اذن عليك أن تثب الى قطار الليل السريع ولا تجعله يفلت من قبضتك » فاعترض لانى : « ولكن ياحبيبتى ! أنه لا يعرف شيئا عن كيفية ادارة قصر ! » فأجابته : « انه أمين ، وقد عاش فى فرنسا خمسة عشر عاما وعاون فى اعمال كثيرة ولن يطول بهالوقت كى يتعلم أسرار العمل • »

ولما وصل الملازم السابق الأحمر الشعر ابن كنساس واجهته بالموضوع فهو سيصبح ناظرا للقصر أو مراقبا عاما مثل الهرمايسنر فى شتوبندورف • ونصحته قائلة : « تشمخ واظهر للناس قيمتك » وكان عليه أن يستخدم مديرا للقصر من الدرجة الأولى ورئيسا للخدم يعرف ما يجب أن يصنع وما لا يجب • وسوف يكون أجره كافيا بحيث يتمكن من شراء سيارة خاصة يذهب بها لرؤية أسرته بين الحين والحين •

وكان جيرى بادلتون قد نهض ذات مرة بالاشراف على تثقيف لانى يد من غير اعداد سابق ، وها هو الآن تتاح له فرصة أخرى مماثلة • فلا وقت لديه حتى لقراءة كتاب عن واجبات المراقب العـام ! بل يجب أن ينبرى للعمل فورا لأن الموسـم بوشك أن يبدأ • وايرما تريد ما تريد حينما تريد • وتم الجرد المستفيض لمحتويات القصر وروجعت القوائم ووقعت كل صفحة منها ، وتم توقيع عقد الايجار وتسليم المبلغ وتسلم المفاتيح • وكان لكبير خدم اميلى أخ يحترف هذه المهنة أيضا ويعرف كل شىء تجب معرفته عن مجتمع باريس • ويعرف أيضا خدما يكفون للقيام بالأعمال الطارئة العـاجلة فاتوا ورفعو الأغطيه التى تمنع التراب عن الأثاث والرياش وأعدوا كل شىء بسرعة أمريكية •

وانتقلت ايرما وزوجها الملكى ومراقبها العام الى بيتهم الجديد • ولم تنقض بضع ساعات حتى كانت الصحف قد علمت بالخبر ، واخذ جرس الباب يرن وأنوار مصابيح آلات التصوير الخاطفه راحت تنفجر • وتبين لانى أن زوجته حصـــلت مرة أخرى على قيمة أموالها فهاهما قد عادا الى مجتمع المقهى وقد تركزت عليهما الأضواء ، فباريس توشـك أن تظفر بمضيفة جديده شهيره • وبليت سلالم القصر الرخاميه من وقع أقدام السائقين والحجاب الذين جاءوا يتركون بطاقات الزياره التى تحمل أبرز الأسماء ، وجرس المدخل الجانبى يرن معلنا حضور تجار الجواهر والخياطين وتجار الأزياء • وقالت ايرما : « ينبغى أن تحضر أمك وتساعدنا » فكتب اليها لانى على الفور ، وقالت فرس الحرب العوان : « ها ها ! » وقد شمت رائحة الوغى عن بعد • ولو أنها دعت احدى الحماتين دون الأخرى لكانت اهانة قاتله • ولذا أرسلت ايرما برقيه الى شور أكرز ، وعلى الفور نفضت تلك الفرس الأسـن والأعظم خبره من أفراس الهـجوم جميع خططها وأستقلت أول باخره • بل أن اميلى حضرت الى المدينه لقضاء بضعة أيام وجاءت معها بقوائم المدعوين وعلاماتها السرية ، وجلسـت فيذرس الى جوارها وأمامها كراسة اختزال لتجمع درر المعلومات التى تتساقط من شفتى أعظم مضيفه أمريكيه فرنسيه •

وقصارى القول أن لانى بد الفى نفسه وسـط دوامه اجتماعيه • وكان حريا آن يعتبر نفوره منها جفوة قاسية ، فهاهن السيدات مره أخرى يتولين قيادة حياته ، وما يرينه ملائما يفعله • فهو يصغى لكلامهن ويقابل من يأتين لمقابلته • وان أراد أن يعزف على البيانو فيجب أن يكون ذلك فى أوقات متقطعة فيما بين الارتباطات الاجتماعية ، أما جلوسـه فى مكتبة

فخمة ودفن نفسه بين الكتب فحماقة واستيحاش وأنانية واستهانة بجميع اولئك الذين يريدون تقديم تحياتهم وتقديرهم لمستأجر كل هذه الابهه ٠

- ٩ -

أحدثت نتائج الانتخابات هزه هائله بين العناصر المحافظة فى فرنسا ، فقد كسب حزب جى بلاكلس مقعدين فقط ، اما حزب ليون بلوم فكسب سبعة عشر مقعدا ، فى حين كسب الراديكاليون ثمانية واربعين مقعدا ٠ وليس لهذه الكلمه المعنى الذى لها فى الولايات المتحده بالتأكيد ، فالراديكاليون هم حزب المزارعين وصغار رجال الأعمال ، ولكن من المنتظر أن يتعاون مع الاشتراكيين فتحظى فرنسا بحكومة يساريه تشوبها عفونه رديئه من التمسك بالسلم ، والأرجح أن تقدم على تنازلات خطيره للألمان ٠ ودب الذعر الشديد فى الجماعات التى كانت تحكم فرنسا من قبل ، وهم جماعات ممثلى الصناعات الكبرى ورؤوس الأموال الضخمة ، أولئك الذين يطلقون عليهم هناك فى الأوساط الشعبية اسم « جدار المال » ٠

وكان من بين واجبات لانى فى باريس أن يظل على اتصال بانسبائه السابقين آل دى بروين ٠ ولما كان قد صار له بيت ملائم خاص فى باريس فقد دعاهم للعشاء ، وحضر الأب والولدان وزوجه دنيس الابن الشابه ٠ ولم تكن ايرما قد التقت بهم قبل ذلك الا أنها كانت قد سمعت عنهم الكثير ، وشعرت أنها صارت فرنسيه بصوره ساحره وهى ترحب بأسرة عشيقة زوجها السابقه ٠ أما هم فقد أخذوا المساله من جانبهم فيما يبدو على أنها طبيعيه جدا ، مما جعلها تبدو ذات صبغه فرنسيه أشد ٠ وكانوا أناسا على جانب كبير من الثقافة العالمية وأدب فى السلوك مستحب فسرت ايرما بالمعاونه فى تنفيذ الوعود التى كان لانى قد قطعها لتلك المرأه على فراش الموت ، وهى التى صنعت الكثير جدا لاعداده كى يكون زوجا صالحا مرضيا ٠

وتحدثوا فى السياسة وفى الأحوال العالمية. ولمثل هذا الحديث أعد هذا البيت الفاخر ، حتى لا يضطر لانى لمقابلة أصدقائه فى المقاهى المكتظه حيث يحدث التدافع بالمناكب ولا يكاد احدهم يسمع صوت الآخرين ،

فهنا يجلسون بكل راحة ويعبرون عن آرائهم على مهـل بوقار ٠ وكـــان في مرجو ايرما أن تتخذ الأحاديث شيئا من جو الأشياء المحيطه بهم ، وقد بدا ذلك صحيحا بالتأكيد فيما يختص آل بروين ، فقد كانوا أربعتهم من الوطنيين وفي حالة قلق شـديد من اتجاه البلاد الجديد ووضـــعها في العالم ٠

وقال مالك الأسطول الكبير من سيارات الأجرة متحدثا بشيء من التردد الى المضـيفة القادمة من وراء البحار « أخشى الا يكون لدى أبناء وطنك تصور واضح للوضع الذى وضعوا بلادى فيه » فأجابت ايرما بأقصى ما استطاعته من التعبير بالفرنسية في لهجه رسـمية : « خذ حريتك كامله في الكلام بصراحة ياسيدى » فقال : «هناك حاجز طبيعي يستطيع وحده أن يحمى هـذه البـلاد من غزو البرابره ، وهذا الحاجز هو نهر الراين ٠ وكان في نيتنا أن نسـتولى عليه ونحصنه ، ولكن رئيسـكم فيلسون (فهكذا ينطقون اسمه في فرنسا مع اخراج حرف النون خفيفا ومن الأنف) أجبرنا على التراجع من هناك الى أرض يكاد يستحيل الدفاع عنها ، بالغا ما بلغ اجتهادنا باقامة خط ما جينو ٠ وقد أقدمنا على ذلك التنازل بسبب تعهد رئيسكم باقامة اتفاقية للحماية ضد المانيا ، بيد أن الكونجرس تجاهل هذه الاتفاقية ، وهكذا نقف اليوم مجردين من وسائل الدفاع تقريبا ٠ والآن ها هو رئيسكم أوفا (فهكذا ينطقون هوفر في فرنسا) قد أعلن تأجيلا جبريا لدفع تعويضات الحرب ، وبذلك انتهت مسألة التعويضات ولا نكون قد حصلنا تقريبا على شيء ٠ » ٠

وأراد لانى أن يقول : « لقد حصلتم على خمسه وعشرين بليونا من الفرنكات على أساس مشروع داوز ، وقد غصت بالمنتجات أسواق العالم » الا أنه تعلم في بيت دنيس أن كل مناقشة معه عقيمة ، ولن تكون أقل عقما في قصر الدوق دى بيلومون ، وهو أحد شركاء دنيس الماليين ٠

وسألت ايرما محاولة أن تكمل تعليمها السياسى : « الا تشـعر بأن من الممكن اطلاقا الثقة بالجمهورية الألمانية ؟ » فأجابها : « عندما يقـول المرء المانيا اليوم ياسـيدتى فهو يعنى بروسيا ٠ والنية الطيبة في نظر هؤلاء الناس كلمه سخرية واستهزاء ٠ وفي نظر رجال مثل تيسن وهو جنبرج ومقرضى النفوذ من اليهود ليست كلمة الجمهورية الا شكلا من أشكال التمويه ٠ وأنا أتكلم بصراحة لأن حديثنا محصور في نطاق الأسره كما كان من قبل ٠ » فقالت المضيفة : «بالتأكيد » فأستطرد : « ان كل تنازل نقدم عليه يقابله من جانبه طلبات أخرى ٠ لقد انسحبنا من الراين

ولم تعد لنا أى سيطرة عليه ، ولذا فهم يبتسمون خلسة ساخرين ويمضون فى اعادة التسلح • وقد انتظروا كما رايت الى ما بعد انتخاباتنا حتى لا يفزعونا ، فلما رأوا انتصار اليسار نبذوا مستشارهم الكاثوليكى وصارت لهم وزارة من البارونات كما تسمى بحق • وان كان فى أوربا كلها رجل أقل جداره بالشقة من فرانزفون بابن فلست أدرى أين أجده • »

ولاحظت ايرما انك تستطيع أن تدعو وطنيا فرنسيا الى أفخم البيوت وتقدم له أفضل العشاء ، ولكنك لن تستطيع بذلك أن تجعله سعيدا تمام السعادة • وارادت أن تمارس دورها الجديد بوصفها ربة صالون فادخلت الشباب فى الحديث ، الا ان هذا لم يحسن الموقف اذ اتضح ان شارلو المهندس الشاب منضم الى : «الصليب النارى» وهو من المنظمات الوطنية التى لا يمكن أن تقبل تسليم الوطن للحمر ولا للبروسيين • والصليب النارى يستخدم وسائل الاعلام والازياء العسكرية والاستعراضات والأناشيد كما يفعل الفاشيون فى ايطاليا والنازى فى المانيا • ولكن لانى قال له : « أخشى يا شارلو انكم لن تصلوا الى نجاح كبير لانكم لا تبذلون مثلهم الوعود الكثيرة للعمال » فقال الشاب الفرنسى بترفع : « انهم يقولون للناس الاكاذيب ، أما نحن فرجال شرفاء» • فتنهد صديقه القديم وقال : « أجل • ولكن الى أى مدى ينجح الشرف فى السياسة ؟» فأجابه : « انه لا يصل الى شىء على الاطلاق فى هذه الجمهورية المنحلة ، ولكننا شرعنا فى تحويل فرنسا الى وطن للرجال الذين يعنون ما يقولون » •

ولم يقل لانى بعد ذلك شيئا • فقد أحزنه أن يرى ربيبيه — فالمفروض انهما شىء من هذا القبيل — يسيران فى طريق الفاشية ، بيد انه لم يكن بيده أن يصنع شيئا فى سبيل منعهما ، وهو يعلم ان امهما كانت تشاركهما هذه الاتجاهات • فهما فرنسيان وطنيان ولن يستطيع أن يجعلهما عالميين ، ممن يسميهم « الاوربيين الصالحين » •

— ١٠ —

اما وقد حصل على جرعة كبيرة الى هذا الحد من الرجعية ، فقد صار لا بد له من جرعة أمل ، فقال لايرما ينبغى على فى الحقيقة ان أزور ليون بلوم وقد أدعوه للغداء فى الخارج • فهل يعنيك أن تأتى الى ذلك

الغداء ؟ » فهتفت « ولكن يالاني ، لای شیء جعل هذا البيت ؟ » فقال : « لم يخطر لى انك تريدين استقباله هنا » فسألته : «ولكن ياعزيزی ، ای بیت یکون هذا ان لم يكن فی مقدورك أن تحضر اليه أصدقاءك ؟ » فادرك انها مصممة على الانصاف فی تصرفاتها ، وخطر له انها بحثت هذا الموضوع مع المضيفة اميلى وانها تنفذ البرنامج الذى رسمته لها . فان كان لا بد لزوج المرأة منا أن تكون له رذائله ، فلنسمح له باتيان هذه الرذائل فى البيت حيث قد يمكننا تخفيف حدتها وابقاؤها داخل حدود معقولة . وليون بلوم بعد كل شيء زعيم ثانی حزب سیاسی من حيث الضخامة فی فرنسا ، وهو عالم وشاعر وكانت له ذات يوم ثروة . وفی تلك الايام ، عندما كان شابا مشتغلا بمسائل الجمال ، كان يكثر من التردد على صالون اميلى . أما الآن فقد استبدل بمارسيل بروست كارل ماركس ، الا انه ظل سيدا مهذبا وصاحب ذهن متوقد . ومن الممكن بالتأكيد دعوته للغداء ، بل وللعشاء اذا ما اختار المرء المجموعة المدعوة بعناية . وقد تأتى اميلى نفسها . فادرك لانی من ذلك الكلام ان المسألة كانت قد نوقشت من قبل .

وتقبل الخير الذى ساقته اليه الآلهة ، وجاء الزعيم الاشتراكی فجلس فی المقعد نفسه الذى شغله دنیس دی بروين من قبل . ولعله شعر لذلك ببعض ذبذبات سيئة فقد راح يتكلم بلهجة حزينة جدا ، انه فى غمار هذا الفساد الذى لا حد له يحاول أن يؤمن بالامانة . وفى غمار القسوة الشاملة يحاول الايمان بالرقة . فالنظام القائم على الربح ، والصراع التنافسی الاعمى على المواد الاولية والاسواق يحطمان الحضارة . وما من أمة تستطيع تغيير ذلك بمفردها ، بل يجب أن يعاون الجميع ، الا ان أمة ما ينبغى أن تكون البادئة ، وصوت الحق ينبغى أن يسمع فی كل مكان . وليون بلوم يتكلم بلا كلل فی مجلس النواب ويكتب افتتاحيات يومية لصحيفة البوبيلير ، ويتنقل مسافرا هنا وهناك مناشدا وموضحا . وقد يفعل ذلك أيضا على مائدة الغداء عند صديق ثم يكف ويعتذر باسما ويقول ان السياسة تفسد سلوك المرء المهذب كما تفسد طباعه .

وهو رجل طويل القامة نحيل ويداه الطويلتان النحيلتان كيدى فنان ، ووجهه نحيل حساس به شارب غزير جعله مصدر بهجة لدى الرسامين الكاريكاتوريين فی الصحافة الفرنسية . وقد خاض معارك وحملات ذات مرارة لا يصدقها العقل . لأن أنصار اليمين الفرنسی كانوا

يعتبرون ضغثا على ابالة أن يتخذ خصومهم يهوديا ناطقا بلسانهم ، مما جعل حركة العمل في نظرهم جزءا من المؤامرة اليهودية الدولية ، وزود الهجمات الفاشية على فرنسا بسم فعال • وقال ذلك السياسي : « وقد يكون من الخطأ بعد كل شيء أن يحاول خدمة القضية • »

وهو ساخط عن النتيجة التي أحرزها حزبه في الاقتراع ، فكسب سبعة عشر مقعدا غير كاف للنصر • وقال ان عملا جريئا فوريا قد صار لا بد منه ان أردنا تجنيب أوربا فظائع حرب اخرى • وقال أيضا انه الجمهورية الالمانية لا يمكن أن تعيش بدون معاونة سخية من فرنسا • «ووزارة البارونات» هي الرد الطبيعي على وزارة المتعصب بوانكاريه ، وعلى وزارة الفشاش لافال • ان بلوم يناصر نزع السلاح الحقيقي لجميع الامم بما في ذلك فرنسا ، وهو مستعد لمجابهة انقسام في حزبه حتى لا يلين في هذا الصدد أو يتراجع • وقالت ايرما بعد الغداء : « لن ندعوه مطلقا مع آل بروين في وقت واحد ! » •

- ١١ -

ومنذ اتخذت ايرما قرارها باستئجار هذا القصر صار ذهنها مشغولا بمشكلة اقامة حفله تحضرها باريس كلها ، لتكون بمثابة تدفئة للبيت ، فقد قال لانى أن بناء بهذا الحجم من الرخام الابيض يحتاج الى قدر كبير من المودة للتأثير في درجة حرارته • وأرادت زوجته أن تفكر في شيء مبتكر ، والحفلات متشابهة جدا ، فالناس يأكلون طعامك ويشربون خمرك – ويسرفون في ذلك معظم الاحيان – ويرقصون أو يصغون لمغنية سمعوها مرارا كثيرة في الاوبرا وسئموها • واستشهد لانى بعبارة قديمة « ثرثرة والتهام ودندنه » •

وأصرت ايرما على ان باريس كلها لا بد أن تتوقع من أمريكا شيئا براقا من طراز جديد لا نظير له • ألا يسعهما أن يفكرا في شيء ؟ وأدلى الزوج باقتراحات شتى : أن تستقدم فيلا من السيرك يقوم بعرض العابه، أو جماعة من لاعبى الاكروبات العرب كان قد شاهدهم في ملهى ليلي ، فشعرهم الاسود طوله قدمان ، وعندما يؤدون جملة شقلبات في قفزة واحدة يهدمون البيت • فقالت له زوجته : « لا تكن سخيفا ياعزيزى » • ففكر في فكرة تضع حدا لجميع الافكار : « اعلنى عن جائزة بمائة ألف

فرنك لاحسن اقتراح مبتكر لنظام حفله • وسوف يجعلهم هذا الاعلان يتحدثون ويلغطون بك كما لم يسبق لهم أن يتحدثوا ويلغطوا » وكان يرمي الى الهزل بهـذا الاقتراح ، بيـد ان ايرما ـ لدهشـتـه ـ اهتمت بالموضوع وتحدثت فيه وراحت تتخيل أنواع الاقتراحات التى يمكن أن تحصل عليها وما الى ذلك • ولم تكف الا بعد أن سألت اميلى فأكدت لها انها فكرة طيبة لشيكاغو لا لباريس • وحتى بعد أن طرحت ايرما هذا الموضوع من اهتمامها ظلت تنازعها نفسها اليه وتقـول « أعتقد ان أبى كان حقيقا أن ينفذه • فهو لم يكن يسمح للناس بافزاعه من الاقدام على شيء » •

وتقرر أن تكون السـهرة مما جرى به العرف ، فيأتى هانسى وبيس ويعزفان ، فمن دلائل الرقى أن يقدم المرء المواهب من أسرته الخاصة ، وأن تكون من أفضل المواهب • ولحسن الحظ ان صحف باريس لا تنشر شيئا عن الاعمال الشيوعية مالم تكن شغبا أو شيئا من هذا القبيل . ولذا لم يعرف الا القليلون ان هانسى ساعد على انتخاب زيس بلوك ليس لمجلس النواب • (وكان هذا المجلس قد انعقد بالفعل وأبى العضو الجديد لفخامة الأشياء المحيطة به أن تقلل من جرأته فأطلق اسطواناته القديمة وقد أصبح لها الآن مكبر صوت ضخم بحيث سمعت تهديداته ضد جدار المال فى تونس وتاهيتى والهند الصينية الفرنسية وغينيا •

وأخذ لانى يرقب كالمسحور زوجته الشابة وهى تؤدى الدور الذى اختارته لنفسها • ولم تكن قد بلغت بعد الرابعة والعشرين من عمرها ، الا انها ملكة ، وقد اكتشفت كيف يكون سلوك الملكات فلا قلق هناك ولا توتر ، ولا احساس بعدم الثقة بالنفس • ولانها أمريكية فقد استطاعت من غير تضحية بكرامتها أن تسأل رئيس الطهاة أو رئيس الخدم كيف يتصرف الناس فى فرنسا ، ثم تقرر هل تتبع هذه الطريقة فى بيتها أو لا تتبع • وكانت تتكلم بحزم هادىء فتعلم الخدم بسرعة كيف يحترمونها• وحتى المراقب العـام الجـديد أخذ بشخصيتها وقال للانى : « بحـق الشيطان ، انها لطاقة جبارة ! » •

ولما حل اليـوم العظيم لم تتـوفز أعصابها شأن مضيفـات كثيرات فترهق نفسها بحيث لا تتمـكن من الاستمتاع بانتصارها ، فلا تدخين متصل للسجائر ، ولا قهوة ولا رشـفات من البراندى لتسـاعدها على التماسك • وهى أيضا لم تلق المسئوليات على أمها أو حماتها ، فذلك يعتبر

سابقة سيئة ، بل قالت : « هـذا بيتي وأريد أن أتعلم كيف اديره • »
وكانت قد فكرت في كل شيء سلفا ،وأمرت باعداد قوائم ، ثم استدعت المشرفين من الخدم أمامها وراجعت ما تم انجازه ثم اصدرت اليهم التعليمات الختامية • وكانت قد تعلمت كيف تحكم عليهم في اسبوعين أو ثلاثة • فجيري همام وكل ما يتعهد به في حكم المنجز • وامبرواز كبير الخدم دقيق يقظ الضمير ولكن لا بد من تملقه • وسيمون المديرة قلقة الاعصاب مرتبكة تنقصها ممارسة السلطة . وفيذرس كانت دائما مغفله ويمكن أن ترتبك عند أي مفاجأة • وبعد أن راجعت ايرما كل شيء نعمت بنوم طويل بعد الظهر •

وفي نحو التاسعة مساء بدأت سيارات الليموزين اللامعة تدرج أمام القصر ، وارتقى تيار متدفق من المدعوين المتأنقين السلم الرخامي الابيض المكسو ببساط عريض من المخمل الاحمر • وكانوا زبدة المجتمع الدولي الذي جعل مقر قيادته العليا في عاصمة الأناقة في العالم • وكان كثيرون منهم قد التقو بايرما من قبل في نيويورك او على شاطىء الريفيرا أو في برلين او لندن أو فينا او روما • وكان من بينهم غرباء وجهت اليهم الدعوة لمكانتهم الرفيعة وحضروا بدافع الفضول بالنسبة لوارثة يتحدث عنها الناس كثيرا ، بقصد مشاهدة ما أعدته للناس ، وكيف ستبدو ، وهم مستعدون لرفع أحد حاجبيهم والهمس خلسة عند اهون خطأ في التفاصيل •

ولكن لم يكن ثمة موضع لنزاع ذي بال ، فجونو الشابه حسنة المنظر ، وافضل الفنانين بذلوا جهدهم في ذلك ، وطراز الزى السائد كان في مصلحتها ، وهو طراز ارتد الى مراعاة الخطوط الطبيعية وابرازها مع الارتفاع بالخصر ، وفتحة الظهر كانت منخفضة ، بل الواقع انه حيث كان ينبغي أن يوجد ظهر الثوب لم يكن لشيء وجود سوى ايرما نفسها • بيد ان ذلك كانت فيه الكفاية • وشعرها البني الداكن كان مجموعات من التموجات اضفى عليها الشباب والصحة ، وثوبها المصنوع من الحرير الازرق الشاحب بدا بسيطا الا انه تكلف مبلغا طائلا ، ومثل ذلك يصدق على عقدها الطويل من اللآلىء •

وكانت بنت ملك المشروعات العامة رقيقة بطبعها تحب الناس وتشعرهم بذلك • وقامت بالترحيب بضيوفها من غير تدريب ظاهر للعيان ، لانها تجشمت أن تتعلم من هم أشخاص ضيوفها ، وان كانت

لقيتهم قبل ذلك تذكرت أين كان هذا وقالت لهم كلمة تدل على المودة ٠ وان كانوا غرباء افترضت انهم قدموا للترحيب بها فى باريس وشكرتهم على مجاملتهم المهذبة ٠ والى جوارها وقف شاب وسيم ، وهو «ولد طيب» ابن أبيه ــ من أصحاب مصانع بد للاسلحة كما تعلم ، وهى مؤسسة ضخمة فى أمريكا ٠ وفى المؤخرة فيلق من نساء أكبر سنا هن الوالدتان الطويلتان الوجيهتان ومسز شترزورث التى يعرفها كل انسان ٠ وقصارى القول ان كل شيء كان كما ينبغى من وجهة نظر جميع الناس ٠

- ١٢ -

وتقدم عازف فيولينا شاب متواضع المظهر وعزف بمصاحبة زوجته سوناتا سيزار فرانك على الفيولينا ، وهى موسيقى فرنسية كتبها فى باريس عازف ارغن مغمـــور ومعلم موسيقى عاش بينهم مجهولا الى ان دهمته سيارة عامة فقتلته ، وهم الآن يكرمونه ويصفقون لمن يعزف هذه الموسيقى ٠ وعند طلب المزيد عزف هانسى مقطوعة هيرى كانى من تاليف هوبوى ، وهى مقطوعة نارية عاطفية ٠ ولما صفقوا له مرة أخرى ابتسم وانحنى بيد انه لم يعزف شيئا بعد ذلك ٠ وتقدمت زوجة أخيه راحيل روبن التى لم يسمع بها أحد قط نحو البيانو وبمصاحبة لانى بد غنت ــ فى حين تولى زوجها العزف على المزمار ــ أغنيتين ريفيتين كانت قد وزعت موسيقاهما بنفسها ٠ وكان صوتها رائقا وبدت العملية كلها عائلية بيتية بحيث تتساءل اهم يعرضون أنفسهم أم يقصدون من وراء ذلك الى توفير النقود ٠ الا انهم بالتأكيد لم يراعوا التوفير فى الطعام والشراب ، وهذا شيء له أهميته فى أية حفلة ٠ وفى قاعة الرقص عزفت جوقة من الملونين موسيقى الجاز ٠ وفى الحجرات الاخرى كانت الزوجة الشابة والزوج الشاب يتنقلان هنا وهناك لتجاذب أطراف الحديث مع هذا وذاك ٠ وكانت من بين المدعوين السيدة هلشتاين من العائلة المصرفية الدولية الشهيرة ومعها ابنتها اوليفيا التى صارت الآن السيدة دى بروساى ٠ وكان لانى قد قال لزوجته : « كان من الجائز أن أتزوجها لو لم تبعث الى روزمارى باشارة تحذير فى اللحظة الحاسمة ! » فكان طبيعيا أن تهتم ايرما بالنظر اليها ، فاذا هى فتاة من بنات أورشليم حسنة الشكل الا انها آخذة فى البدانة ، وقالت ايرما فى نفسها : « أولئك النساء اليهوديات جميعا فيهن استعداد للبدانة » ٠

ثم كانت هناك أيضا احدى بنات زهاروف المتزوجات . وكانت يوما ما تتطلع الى ابن بد باعتباره مرشحا مناسبا للزواج بها ، وهناك كذلك السيد فور العجوز وهو مستورد خمور وزيت زيتون ثرى كان قد اشترى لوحات تمثل سيدات عاريات من زلطان . وثمة أيضا مهراجا رحالة يشترى السيدات أنفسهن ولكن من تاجر آخر ! وغراندوق روسى منفى وأمير ملكى من اسكندناوه ، واثنان من الادباء الشبان الصاعدين حتى لا تبدو الداعية متعالية . وكان لانى لطيفا فلم يطلب منها دعوة أحد من الحمر أو الورديين ، وقال لها انهم ما كانوا ليقدروا هذا الشرف . ولم تكن ايرما بارعة الذكاء ، ولكن هذه ميزة فى نظر غير المنتمين ، فى حين انها الليلة بين المنتمين . فهى هادئة لطيفة رشيقة ، تحس وهى تجوس خلال هذه الصحبة الانيقة برجفات يسيرة من السعادة تعتريها . وتقول لنفسها : « لقد أحرزت الفوز . فالحفلة ممتازة راقية حقا » . ونطقت هذه الصفة الاخيرة بالفرنسية ، وهى من أوائل الكلمات الفرنسية التى تعلمتها . أما لانى ابن الثانية والثلاثين الذى سئم الدنيويات فقال فى نفسه : « ما أشق الجهد الذى يبذلونه جميعا فى التصنع والظهور بالمظهر الذى يزعمونه لأنفسهم ! ان العالم كله خشبة مسرح وجميع الرجال والنساء ان هم الا ممثلون » وكانت العبارة الاخيرة من أوائل مأثورات شكسبير التى تعلمها هو .

انه يعرف عن هؤلاء الممثلين أكثر مما تعرفه زوجته عنهم بكثير ، فقد سمع قصصا كثيرة من أبيه ومن أصدقائه رجال الاعمال ومن أمه وصديقاتها الانيقات ومن خاله الاحمر ومن بلوم ولونجيه وغيرهما من الورديين . فهذا المحامى عن لجنة مصانع الحديد الذى تكمن داخل جمجمته جميع أسرار السياسة المالية العليا ، وذلك المالى الذى يتحكم فى المدفوعات للبنوك الكبرى وتضم قوائم مأجوريه نصف أعضاء الحزب الراديكالى ، وهذا الناشر الذى أخذ ذهب القيصر قبل الحرب وصار الآن مدير مصانع سكودا وشنايدر كريزو ! من من الناس يمكن ان يحسد هؤلاء الرجال على أدوارهم المسرحية ؟ ان الرواية كلها تبدو محتملة فى نظر الممثلين لا لشىء الا لما يجهلونه عنها ، أو لانهم يلقون بالجانب البغيض الى مؤخرة رءوسهم . وكان لانى بد وهو يخطو فوق أرض القاعات يؤدى بصورة مقبولة دور الامير زوج الملكة ويستمتع بنصف ذهنه بهذا الدور ، فى حين يتساءل بالنصف الآخر من ذهنه : كم من هؤلاء الضيوف يمكن أن يطيقوا الرقص ان هم علموا بما يزمع أن يحدث لهم بعد عشر سنين من الآن ؟ .

الفصل الثاني عشر

افراح في مركز القيادة

- ١ -

كانت تجارب مسرحية « رشوة بدلة السهرة » تجرى فى لندن ؟ ولو ترك الأمر للانى لكان قد ذهب الى هناك ليرقب كل لحظة من لحظاتها ، بيد ان ايرما كان لديها فيلها الابيض الجديد ترعاه ولا بد لها من استخدامه، وينبغى أن تنقضى عدة أسابيع قبل ان تجد مسوغا للرحيل ومغادرة مجموعة خدمها بلا عمل . أما الآن فلا بد لهـا من دعوة الناس للقدوم لزيارتها فى اى ساعة ما بين الظهر ونصف الليل وكان المفروض أنها تدعوهم للحضور لرغبتها فى رؤيتهم ، ولكن السبب الحقيقى انها تريدهم ان يروها . وما دامت قد منحتهم ضيافتها فهى ملتزمة بقبول ضيافتهم ، فهى دائما فى نشاط تحضر المناسبات الاجتماعية او تستعد لمناسبات مقبلة . وهى دائما راغبة فى الصحبة ، فيصحبها لانى لأنه تعود طيلة حياته ان يفعل مالا يريد لأن ذلك أفضل عنده من رؤية ايرما المحبوبة وقد خاب أملها او استاءت منه . أما زوجته فكانت حائزة على اقصى رغبة لها بوقوفها فوق قمة الهرم الاجتماعى ، فماذا يعنيها الهبوط عن هذه القمة للتوجه الى لندن كى ترقب زمرة من الممثلين والممثلات يتدربون طول النهار فى مسرح خال من النظارة ، وقد ارتدت النساء منهن بلوزات وخلع الرجال ستراتهم فى الأيام الحارة ؟ اما ان احدى أولئك النساء فيلبس جراسن فأمر لا يزيد من اهتمامها ، ويجب ألا يدع لانى هذا الامر يزيد من اهتمامه أكثر مما يعجكى !

واقنع آل روبن الشبان بالبقاء فترة ، لأنه يفضل صحبتهم كثيرا على صحبة أولئك المتأنقين فيعزفون معا الموسيقى كل صباح وفى أوقات متفرقة عندما تسمح بذلك الواجبات الاجتماعية . ولن يسمح لشىء بالتدخل فى تمرين هانسى على الفيولينا ، فمن واجبه ان يتقن معزوفات الكونشرتو الكبرى واحدة بعد الاخرى ، ومعنى هذا ان يثبت فى رأسه

مئات الألوف من النغمات مع طريقته الخاصة المحددة لأداء كل نغمة منها . وما من أحد ممن يعيشون بقربه يستطيع مغالبة التأثر بتدقيقه الخارق في الأداء . وتمنى لاني لو أنه كان لديه مثل هذا الهدف لحياته شخصيا بدلا من نشأته متعطلا متلافا . اما الآن فقد فات الاوان طبعا ، وفسد حاله فسادا ميئوسا منه !

- ٢ -

واذ كان لاني جالسا في مكتبة الدوق دي بللومون البديعة الحافلة بذخائر الثقافة الفرنسية المتراكمة ، تبادل مع أخته نصف الشقيقة حديثا صريحا قلبيا ، وكان قد تباعد عن هذه الاخت في السنوات الاخيرة . أما هي فكانت من قبل تتوقع منه أمورا جليلة فخاب أملها فيه . وأصرت على أنه ليس من الضروري ان يوافقها في آرائها ، الا أنه من الضروري ان يحزم أمره على شيء ويثبت عليه . وكان لاني يحسب أنه قد حزم أمره على شيء واحد : ان البرنامج الشيوعي اذا ما طبق على الامم ذات المنظمات البرلمانية يصبح نوعا من الخطأ في التكتيك . الا أنه من مضيعة الوقت ان يفاتح بيس في هذا الموضوع . وكان لديها أمر آخر تريد أن تتكلم فيه ، الا وهو الشقاء الذي يأكل كالسرطان نفوس أعضاء أسرة روبن ، لانهم انقسموا الى ثلاثة معسكرات ، وكل زوج متفق مع زوجته ولكنه غير متفق مع أحد من العضوين الآخرين في الاسرة . فصار على كل زوجين ان يتحاشيا الاشارة الى اى مشكلة سياسية أو اقتصادية في حضور الآخرين . وفي ضوء الاحوال الجارية الآن في المانيا يكون معنى ذلك تقريبا تجنب جميع الموضوعات ما عدا الموسيقى والفن والكتب القديمة . فيوهانس يطالع « صحيفة السوق المالية » وهانسى وبيس يطالعان « العلم الاحمر » في حين يطالع فريدى وراحيل « التقدم » وكل زوجين يبغضان مجرد النظر الى الصحيفتين الأخريين ولا يصدقان كلمة واحدة مما ينشر فيهما والام المسكينة التي لا تقرأ الصحيفة اطلاقا وليست لديها الا فكرة غامضة جدا عن موضوع النزاع تقوم بدور ضابط الاتصال بين أحبائها الثلاثة .

ولم يكن في ذلك شيء خارج على المألوف جدا ، فقد عاش لاني في خلافات مع أبيه معظم أيام حياته ، بيد أنهما كليهما يتمتعان بروح الفكاهة فينتهي الموضوع بمداعبة كل منهما للآخر . وجيسى بلاكلس غادر البيت لأنه لم يستطع الاتفاق مع أبيه ، وهو الآن لا يتناقش في

السياسة اطلاقا مع أخته وينتهي دائما بالتخاصم مع ابن أخته • ومعظم الراديكاليين يقصون عليك هذا القبيل بعينه من الحكايات ، فهي جزء من عملية التغير التي تحدث للعالم • والصغار يكبرون مخالفين لوالديهم، وقد يحدث ان يجد الآباء اليساريون انفسهم ولهم أبناء ذوو عقلية محافظه وقال الفتى اللاهي لنفسه « سيكون هذا مصيري » •

وفي أسرة روبن زادت المشكلة حدة لأن جميع شبانها يأخذون الحياة بجد شديد فلا يدعون الامور تمر بملاحظات أو تعليقات هازلة • فأربعتهم يرون من البديهي أن والدهم لديه من المال ما يكفيه وزيادة ، فلماذا بحق كارل ماركس لا يعتزل ويغادر هذه الحمأة الفاسدة من الاعمال المالية المطعمة بالسياسة ويصر على التمرغ فيها ؟ ومن لم يجرب المقامرة قط لا يمكن أن يدرك لماذا يثابر من اعتاد المقامرة على ملازمة المائدة الخضراء متشبثا بتعويض خسائر ليلته • ومجتنب المسكرات لا يمكن أن يفهم الشذوذ الذي يجبر المدمن على طلب رشفة أخرى • اما يوهانس روبن فاليوم الذي لم يكسب فيه شيئا من المال ليس من عمره ، ولمح فرصة للكسب واهتبالها انما هو عمل منعكس شرطي آلي • ثم انك حين تملك المال يكون لك أعداء يحاولون انتزاعه منك ، فتحتاج الى مزيد من المال لتكون بمأمن حقيقي • ثم ان لك أيضا حلفاء وشركاء وعليك نحوهم التزامات ، فاذا ما حلت بهم ازمة توقعوا منك أن تقوم بدور معين فان لم تقم به اعتبروك متنكلا عنهم • فليست لك حرية الاعتزال الا بقدر ما لدى قائد عسكري من الحرية في الاستقالة وهو في معمعان معركة حربية •

والمأساة ان الناس لهم صفاتهم المستحبة وصفاتهم المستهجنة والفصل بين الجانبين مستحيل • ثم انك نشأت بينهم والفتهم وارتبطت بهم وقد تكون مدينا لبعضهم بجميل تعجز عن رده • ولو أن صغار آل روبن فرضوا ارادتهم قائلين « اما أن تكف عن القيام بدور رأس المال الكبير في المانيا واما أن نغادر قصرك ولا نركب يختك » لكانوا حريين أن يظفروا بتحقيق رغبتهم • ولكن ماذا يبقى بعد ذلك من يوهانس روبن ؟ واين عساهم يأخذونه وماذا عساهم يصنعون به • ان لانى كان قد ضغط على أبيه ضغطا شديدا في موضوع اللعب في سوق الاوراق المالية وأملى ارادته عليه • ولكن في حالة يوهانس كانت المسألة تتجاوز ذلك بكثير • لأنه جرى على أن يتخلى عن كل ما يصنعه ، وعن كل صلة ، وعن كل شريك ، وعن كل اهتماماته فيما عدا أولاده وشئونهم . وقال لانى لبيس « هبي أنه يكره الموسيقى ويرى الفيولينا شيئا لا أخلاقيا ، فماذا كنت

صانعة أنت وهانسي ؟ فأجابته « ولكن ما من احد يمكن ان يظن ذلك يالاني « فقال لها » كثيرون من أجدادنا المتطهرين كانوا يعتقدون ذلك . ويخيل الى أن جدى يعتقد ذلك الآن . وهو بالتأكيد يعتقد أن في منع رجال الاعمال من كسب المال أو تجريدهم مما كسبوا منافاة للأخلاق » .

وهكذا راح لانى محب التوفيق يحاول تهدئة هؤلاء الشبان واقناعهم بأنهم يستطيعون الاستمرار فى تناول طعامهم فى قصر برلين من غير أن يغصوا به . فها هم خمسة أشخاص ـ بما فيهم هو شخصيا ـ قضى عليهم أن يقيموا في أبهاء من الرخام ، وفى الخارج خمسة ملايين ، بل خمسمائة مليون ، ينظرون اليهم على اعتبار أنهم أجدر أهل الغناء جميعا بأن يغبطوا خمسة مقيمون فى الابهاء الرخامية يتوسلون أن يطردوا منها ، ولسبب غريب يعجزون عن اقناع ملايين الحاسدين بالاقدام على العمل . وقبلهم باكثر من قرن نادى شاعر من أبناء الطبقة الممتازة هؤلاء الملايين أن يهبوا كالأسود بعد الكرى في اعداد لا تقهر ، بيد ان الاكثرية ما زالت نائمة بينما الاقلية ما زالت حاكمة ، والاغلال الواهنة ، وكأنها الندى ، لم تزل مكبلة من لهم ثقل الرصاص الوزين !

- ٣ -

كانت الملكة الام ، ملكة فاندرنجهام بارنز قد توجهت الى جوان كي تكون مع ولية العهد ، فقد حدث شئ فظيع في أمريكا ، شيء بعث رعدة رعب في أوصال كل جدة وأم وبنت من الطبقة الممتازة فى العالم المتحضر ، ففي ريف نيوجيرسى الوادع اقدم مجرم ـ أو عصابة من المجرمين ـ على احضار سلم تسلق به الى داخل بيت الطيار لندبرج وزوجته المليونيرة واختطف طفل هذين الزوجين السعيدين وهو ابن تسعة عشر شهرا ، وتبودلت طلبات الفدية وعروضها ، ولكن يبدو أن الخاطفين اصابهم الذعر ، ووجدت جثة الطفل المقتول في غابة قريبة . واتفق وقوع هذا الاكتشاف المروع في الأسبوع نفسه الذى أطلق فيه الرصاص على رئيس الجمهورية الفرنسية بيد قاتل وصف نفسه بانه « فاشى روسى » ، وفاضت الصحف بتفصيلات الفاجعتين وصورهما ، فياله من عالم مخيف عنيف ذلك الذى نعيش فيه ، وارتعدت فرائص الاغنياء والاقوياء وطار نومهم .

وكانت أسرة روبى بد الشاذة قد عاشت جيلا كاملا في ضيعة بيانفيني الواسعة ، وقلما خطرت ببالها فكرة الخطر ، حتى فى زمن الحرب .

ولكن صار من العسير الآن أن يفكروا ـ ولا سيما السيدات في شيء سواه • ففانى بارنز تتخيل الخطافين كامنين وراء كل شجرة ، وكلما احدثت الريح صريرا في مصاريع النوافذ ـ وهو أمر كثير الحدوث في الكوت دازير ـ جلست وتحسست فراش الطفلة التى كانت قد نقلت الى حجرتها • وليس من المعقول أن تواصل الحياة في بناء من طبقة واحدة نوافذه مفتوحة ولا تحصنها الا ستائر يمكن تمزيقها بمدية من مدى الجيب ، ولذا أرادت فانى أن تأخذ سميتها الصغيرة الى شو اكرز وتقيم معها في حجرة بالطبقة الخامسة بعيدا عن متناول أى سلم خارجي ، ولكن بيوتى قالت : « وماذا عن الحرائق ؟ فاوشكت الجدتان أن تشتبكا في أول شجار لهما •

وارسل لانى برقية الى ابيه يسأله عن « باب سميث » وهو اعظم حارس يعتمد عليه وأفضل المندوبين السريين ، وكان « باب » يعمل في خدمة الشركة في نيوكاسل ، ولكن في الامكان الاستغناء عنه هناك • وفعلا أرسله روبى على أول باخرة • وهكذا صارت أفنية بيانفينى تحت الحراسة كل ليلة من راعى أبقار سابق من ولاية تكساس يستطيع أن يقذف في الهواء بدولار فضى ثم يصيبه بمسدس آلى من صنع بد • وكان « باب » قد جاش خلال أرجاء فرنسا كلها للقيام بأعمال سرية متباينة لكبير باعة أسلحة بد ، ولذا كان يعرف لغة الناس هناك ، واستأجر اثنين من المحاربين القدماء للقيام بالحراسة النهارية ، ومنذ ذلك الحين قلما غابت الصغيرة الثمينة التى سترث ثروة آل بارنز عن أنظار رجل مسلح• ولم يكن لانى واثقا بسداد هذه الفكرة ، لأن « الكاب انتيب » بأسره يعرف السبب في وجود هؤلاء الرجال المسلحين ، مما يجعلهم اعلانا عن وجودها في الوقت الذى يريدون فيه حمايتها ، ولكن لا جدوى من قوله هذا الكلام للسيدات !

وكان وصول باب عن طريق باريس ليتشاور مع لانى وايرما ، وكان على مر الأيام خدينا لابن روبى ، وفى هذه المرة جرى بينهما حديث سرى ، وأماط فيه « باب » اللثام عن اعتناقه الاشتراكية ، فكان ذلك مثار دهشة لدى الشاب ، لأن أعمال باب كانت دائما بين أشد المحافظين جمودا ، وباب نفسه بأنفه المكسور وعينيه الباردتين الفولاذيتين لم يكن يطيق منظر انسان مثالى ، ولكنه كان قد قرأ فعلا الصحف والكتب وعرف الموضوع الذى يخوض فيه ، وكان هذا بطبيعة الحال مصدر سرور لمخدومه الشاب • وسافر الرجل الى الكاب وشرع يحضر مدرسة الأحد الاشتراكية

فى وقت فراغه ، وأصبح خدينا حميما للشاب الاسبانى المخلص راؤول بالما .

واستمر الحال هكذا سنة أو اكثر قبل أن يكتشف لانى الحقيقة الخافية ، وكانت الفكرة البارعة قد انبثقت فى راس روبى بد - وفى نظره أن الفوضويين والشيوعيين والخطافين قبيل واحد كلهم بلا اختلاف فقال باب ان هذه الطريقة سريعه وسهلة للاتصال بذلك العالم السرى الذى يعمل تحت الارض فى « أواسط فرنسا » ولذا حصل « باب » قبل أن يستقل الباخرة على حمل من كامل المطبوعات الحمراء ، وظل طوال فترة عبور الاطلنطى يستذكر ما فيها بسرعة كانه يستعد لامتحان دخول كلية « ونجح » مع لانى . ثم مع راؤول وسائر الرفاق الذين لم تساورهم الشكوك بطبيعة الحال فى أى انسان يأتيهم من بيانفينى . وكان الموقف حرجا بعض الشىء لأن « باب » كان فى الوقت نفسه على اتصال بالبوليس الفرنسى ، الا أن لانى لم يدر ماذا يمكن بالضبط أن يصنع ازاء ذلك ، وهى نتيجة أخرى لمحاولة الحياة فى معسكرى جيشين متعادين يتأهبان للقتال .

- ٤ -

وكان لكثرة ما سمعت وفكرت فى قضية لندبرج أثره الكبير فى دوافع الامومة عند ايرما ، فقررت أنها لا تستطيع الاقدام على مزيد من الاسفار من غير أن تحظى بلمحة على الاقل من الطفلة ، فاقترحت أن يقفزا الى السيارة ويسرعا الى بيانفينى ، والجو هناك حار وفى مقدورهما ان يحظيا بالسباحة أيضا . ولم يكن شباب آل روبن قد رأوا الطفلة منذ أكثر من سنة ، فهيا بنا معا ! وكان هانسى قد حضر الى باريس فى سيارة بيس التى تقودها بنفسها ، فقفزت العائلتان فى سيارتين وفى المساء وصلتا الى بيانفينى ، ووقفت ايرما الى جوار فراش حبيبتها النائمة وراحت تطلق أصوات غبطة متأوهة وهى لا تكاد تغالب ايقاظ الطفلة .

وفى اليومين التاليين انفجرت فى اظهار عواطف الامومة ، حاشدة كل مظاهرها فى وقت وجيز ، فلم تسمح لأحد أن يلمس الطفلة ، بل قامت هى بغسلها والباسها ثيابها ، واطعامها ، واللعب معها والسير معها ، والتحدث اليها ، مهللة لكل كلمة طفلية تتمكن من التفوه بها . ولا بد أن هذا كله أذهل الطفلة بنت السبعة والعشرين شهرا بما فيه من اقتحام

مفاجيء لحياتها المنظمة تمام التنظيم بيد أنها تقبلته بهدوء وسمحت الآنسة سيفرن بايقاف العمل ببعض القواعد لعترة وجيزة .

وجرى حديث آخر مع « باب سميث » حارس كنز الملكة والمعتنق الفجائي لقضية العدالة الاجتماعية . ورفع اليه « الباب » تقريرا عن خبراته في المدرسة ، وأبدى تقريره للعمل الذي يتم هناك ، وقال عن القائمين عليها أنهم جماعة من المثاليين الحقيقين ، وانها مصدر أمل في المستقبل . ورأى لاني مصدر أمل في المستقبل ان يرى راعي بقر سابق وحارس شركة النور الحق يهتدى للتضامن مع العمال .

« وحدثه « باب » أيضا عن الاحوال في نيوكاسل ، حيث بات واضحا ان من المستحيل تأجيل احداث تغير اجتماعي على نحو ما ، فليس في هذه المصانع الكبرى من النشاط ما يكفي لدفع الضرائب ونفقات الصيانة وقد انتشر الجوع فعلا بين العمال . وقد رهن الناس بيوتهم وباعوا سياراتهم ورهنوا مقتنياتهم ، وسكنت عائلات معا لتوفير الايجار ، وصار كل ستة أشخاص يعيشون على كسب شخص واحد له عمل ، وكثيرون جدا من أهالي نيوانجلند تمنعهم كبرياؤهم من التماس الصدقة، ويؤثرون الانزواء في ركن ليتضوروا جوعا . ومن المستحيل الا يتأثر المرء بمثل هذا الكرب ، أو الا يدرك أن شيئا ما يجب ان يصنع كي تعود هذه المصانع الضخمة للعمل .

ولكن « باب سميث » كان دائما على اتصال وثيق بروبي بد ، ولذا بدا هذا التغير المفاجيء مهما . وصارحه الرجل بأن الامر لا سر فيه ، فهو قد أخبر السيد روبرت بما في ذهنه ، فقال السيد روبرت انه لا يغير من الوضع شيئا . ورأى لاني ان هذا الموقف من روبي له أهميته أيضا ، فهو منذ خمسة عشر عاما او نحوها كان يأمل ان يبصر والده النور ، ويبدو الآن ان الوقت قد حان . واعرب عن سروره في خطاب الى روبي ، ولا بد ان روبي افتر عن ابتسامة ذات مغزى - !

- ٥ -

حظى الشبان بالسباحة الموعودة ، واثبين للغوص من الصخور الى مياه البحر الابيض الزرقاء ، وبعد ذلك جلسوا على الشواطيء ؟ وأحضر « باب » من السيارة صندوقين ثقيلين ، في احدهما أسلحة آلية وغير آلية من صناعة بد ، وفي الآخر بضع مئات من طلقات الذخيرة . وكان

« باب » قد جاء معه من نيوكاسل بمدد كبير منها يكفى لرد حصار يقوم به جميع قطاع الطرق فى فرنسا • وقال ان الاسرة ينبغى أن تواظب على التدريب ،لأنهم لا يدرون متى يقوم الفاشيون أو النازى بحركة انقلاب، ونحن « الرفقاء » سنكون أول الضحايا ، واذهله أن يعلم أن هانسى وفريدى لم يسبق لهم اطلاق النار فى حياتهما كلها ، ولم يخطر لهما انه من الممكن أن يحتاجا الى ذلك • وأراد الحارس السابق أن يعرف ماذا يصنعان اذا حدث فرضا أن ثورتهما فشلت وانتصر الجانب الآخر ؟

وأراهما ما عساه يقترح القيام به ، فقذف بزجاجة مقفلة بسدادة فلين الى البحر ، ثم أطار السدادة بطلقة واحدة من مسدس من مسدسات الجيش ، وقذف بكتلة من الخشب الى الماء واطلق ثمانى رصاصات من مسدس آلى طراز بد ٣٢ ر فى خيط واحد ، ولم تطش رصاصة واحدة فى الماء واعترف « باب » أن ذلك يتطلب مرانا كثيرا ، لأن كتلة الخشب تقفز من مكانها مع كل اصابة ، ويجب أن تعلم مقدار وثبتها فى كسر صغيرة من الثانية • ثم كرر التجربة ليبرهن لهما على أن الأمر لم يكن مصادفة • ولم يستطع أن يكررها للمرة الثالثة ، لأن الكتلة كانت قد اكتظت بالرصاص فغاصت فى الماء •

ولم يكن بوسع لانى أن يقوم بحركات بهلوانية من هذا القبيل ، ولكنه كان ــ كما قال باب ــ قادرا على اصابة أى نازى • وكانت الأهداف كلها من النازى أو الفاشيين ، لأن الحارس كان قد استقر تفكيره على أن المتاعب القادمة من جهتهما ، ولا خير فى استغفال المرء لنفسه • وأراد أن يعلم هانسى اطلاق الرصاص ، ولكن هانسى رفض أن يستخدم يده التى تحرك قوس الفيولينه فى مثل هذا العمل المحطم للأعصاب • وسيكون على بيس أن تحميه ، فقد تعلمت اطلاق النار وهى طفلة ، وأثبتت الآن أنها لم تنس ماتعلمته • وجاء دور فريدى فحاول اطلاق المسدس ، ولكنه وجد عناء شديدا فى ابقاء عينيه مفتوحتين وهو يضغط الزناد • وكانت نتائج هذا الضغط على مسدس آلى من طراز بد مفزعة جدا حقا ، ولم ييسر الأمر على مثالى رقيق النفس أن يتخيل داخل المجال البصرى عضوا فى حزب العمال الألمان الاشتراكى الوطنى •

ولم تكن لدى لانى ــ الذى ألف المسدسات طيلة حياته ــ اية فكرة عن تأثير هذه الأعمال على الشابين الخجولين • فقد أعلن هانسى ان موسيقاه ظلت أسبوعا بعد ذلك غير صائبة الوقع ، أما بالنسبة لأخيه الأصغر فقد أحدثت التجربة لديه نوعا من التقلص المعنوى فى نفسه • وما من شك فى

أنه كان قد رأى المسدسات في برلين وغيرها يحملها الجنود ورجال الشرطة وفرق الأمن وفرق الهجوم ، ولكنه لم يقبض بيده على مسدس من قبل ، ولم يسبق له أن تحقق من الأثر المدمر الفورى للمسدس الآلى . وكان اطلاق أسماء أجزاء من الجسم البشرى على الأهداف مزحة مستملحة لدى راعى البقر السابق ، ولكن مخيلة فريدى غصت بصور الجثث المجندلة ، فظل يتكلم عن ذلك فترة طويلة ويسأل لانى : « اتعتقد يالانى أننا مقبلون حقا على حرب أخرى ؟ أتظن أننا يمكن أن نعيش بعدها ؟ » .

بل لقد تحدث فريدى عن هذه المشكلة الى فانى بارنز ، متسائلا ألا يمكن تنظيم جماعة من نوع ما لتعليم الأطفال الرقة المثلى ، فى مقابل تلك القسوة الفظيعة التى يعلمونها الآن فى المانيا . وتأثرت الملكة الأم الجليلة بعواطف الشاب ، ولكنها اعربت عن خشيتها ان تحول واجباتها الكثيرة فى بيتها دون افساح الوقت أمامها لتنظيم جمعية سلام للاطفال فى نيويورك . ثم أليست المانيا هى البلد الذى يحتاج الى انشاء هذه الجماعة فيه !؟

أكثرت فانى اظهار التذمر من شدة الحر فى بيانفينى وأخذت ينتابها الاعياء وتستلقى وتجلب الهواء لنفسها بالمروحة وتطلب مشروبات مثلجة، وكانت بيوتى - التى طالت خبرتها بجو الريفيرا - تبتسم ساخرة لعملها انها محاولة أخرى - ترجو أن تكون الأخيرة - لاصطحاب الطفلة فرانسس معها . ووجدت بيوتى لذة فى تنبيهها الى عدد الأطفال الأصحاء السمر البشرة على الشواطىء وفى شوارع جوان ، واشارت الى لانى ومرسلين باعتبارهما دليلا على أن أعضاء الطبقات غير الخشنة يمكن تربيتهم هنا بنجاح . والطفلة نفسها لم يظهر عليها طفح جلدى أو شىء من أمراض الصيف ، بل هى على عكس تمرح فى الشمس و (تبلبط) فى الماء ، وتنام ساعات طويلة وتأكل كل ما تصل اليه يدها ، ولم يصبها شر أسوأ من عضة فى أصبع قدمها من أبى جلمبو !

وهكذا تركت الملكة الأم حقائبها تحزم وتوضع فى الصندوق الخلفى من سيارة لانى ، ثم استقرت هى وخادمتها فى المقعد الخلفى لتمضى بها السيارة الى اقصى ما يسمح لها به زوج ابنتها المهذب . وفى مساء اليوم التالى أوصلاها سالمة الى لندن ، وحصلا لها على مقعد فى الصف الثالث عند الممر لحضور الحفلة الافتتاحية لمسرحية « رشوة بدلة السهرة » ، وهى مسرحية أنكرتها أشد الانكار ولم تتردد فى التصريح بذلك . وفى اليوم التالى ، عندما وجدت معظم النقاد على رأيها ، واجهت المؤلف بهذه

الحقيقة ، وهى أنه وقد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره ينبغى أن يترك هذا الطيش الأدبى ويشرع فى الوفاء بمسئولياته نحو طبقته التى شادت الامبراطورية البريطانية الجبارة • فقد كانت سليلة آل فاندرنجهام وكنة آل بارنز تدين بمبادىء حزب المحافظين كأسوأ الغلاة المتشددين فى مجلس اللوردات ، وكلما التقت بأحد من دعاة التخريب روادتها نفسها أن تصيح بكلمات ملكة أخرى شهيرة « اقطعوا رأسه أو رأسها » •

ولكن الجمهور كله لم يكن متفقا معهـــا فى الرأى ، بل كان المسرح مقسوما قسمة أفقية ، فمن المقاعد الامامية والممتازة لا تسمع الا الصمت المتجمد ، أما من أعلى المسرح فتعلو عواصف من التصفيق • وكان النقاد أيضا منقسمين على هذا المنوال نفسه ، فأصحاب الصيغات الوردية يهللون للمسرحية ويعتبرونها صورة حقيقية للدور الذى يقوم به المجتمع الراقى فى السياسة ، وصحيفة اتهام لذلك الفساد المتنوع الأشـــكال الخاص ببريطانيا ، فحيث يدفع ثمن الامتيازات فى فرنسا بالمال ، وفى أمريكا بالمناصب تعتبر الامتيازات فى انجلترا بصورة طبيعيـــة حقا من حقوق الوراثة أو المكانة الاجتماعية • فالسلطة على كل حال تنضاف الى السلطة و « القوة تشد أزر الأقوياء باستمرار » •

كانت المسرحية من النوع الذى يدفع آليـــا بانه دعاية ، وبذلك لا يمكن ان يكون فنا ، ولكنها مكتوبة عن معرفة باطنة بالأمور الجارية فى الحياة العامة ببريطانيا وتقول للناس ما هم بحاجة الى معرفته عنها • ومنذ الليلة الأولى تحول المسرح الى ساحة حرب ، وكانت المقاعد المرتفعة الثمن نصف خالية أما المقاعد الرخيصة فكانت مكتظة • وقال ريك : « المسألة هل نستطيع دفع الايجار اسبوعين أو ثلاثة الى ان نثبت اقدامها » فأجابه لانى : « سندفعه ولو اقتضى ذلك مني أن ابيع بضع صـور فى المـزاد العلنى » ولم يكن أمرا سهلا أن تجمع المال اللازم والأزمات العصيبة تنتشر فى أرجاء العالم أجمع ، بيد انه اتصل تليفونيا بجميع المرموقين الذين يعرفهم يرجوهم أن يشاهدوا المسرحية ، واستطاع بالمداجـــاة أن يقنع مارجى ، وهى الليدى أفرشام والسون الأم ، باقامة سهرة موسيقية ودفع مائتى جنيه الى آل روبن كى يعزفوا فيها على أن يتبرعوا بالمبلغ للمسرحية • واسهمت ايرما بنصيبها وان كانت فى أعماق قلبها لاتحب هذه المسرحية • واما هانسى فكتب الى ابيه الذى اودع لحسابه خمسمائة جنيه لدى البنك الذى يعامله بلندن ، وهى طريقة رخيصة سهلة لشراء السلام فى أسرته ولنبرهنة مرة أخرى على المباهج التى يتيحها المال ، وما أحلاه !

وبطريقة او بأخرى أبقوا المسرحية معروضة على الجمهور ، وعرضت جراسين ـ التى كان دورها دسما جدا فى نظرها ـ تأجيل الحصول على مرتبها أسبوعين ، وكتب لانىمقالات فى صحف العمال مبينا اهمية انتاج هذه الرواية بالنسبة للعمال ، فاستمروا فى مشاهدتها والهتاف لها ٠ وتطورت المسألة الى فضيحة ، مما حدا الطبقات الممتازة الى الكلام عنها ، ثم الى رغبتهم جميعا فى معرفة هذا الشيء الذى يتحدث عنه الجميع ٠ وانتهى الأمر بأن حقق اريك فيفيان بوميرى نيلسون ضربة نجاح كبيرة وهو شيء كان يرمى اليه منذ أكثر من عشر سنين ، وصمم على رد النقود لجميع أصدقائه ، وبعد ذلك دفع جانبا من رهنيات أبيه الذى لبث يعوله ويسانده أمدا طويلا ٠ والمهم أن ريك استطاع أن يقول شيئا للشعب البريطانى ، واكتسب شهرة ستمكنه من أن يقول له المزيد ٠

- ٧ -

ظل آل روبن يرجون آل بد ان يقوموا بزيارة لألمانيا ، فوقت الرحلات باليخوت قد اقترب ، وان كانوا قد اقنعوا « باب » أن يأمر بتشغيل يخت بيسى بدمرة أخرى ، لأنهم يريدونه ان يبتعد عن مزعجات العمل وقلقه ٠ حينئذ يستطيع ذلك خيرا من لانى بد الرائع وزوجته التى تضارعه روعة ؟ ولعل لانى يستطيع ان يقنعه باعتزال العمل نهائيا ، او ربما اقنعه بالقيام برحلة طويلة حول العالم بحيث يكون بعيدا عن متناول الأصدقاء والأعداء ٠

وكانت ألمانيا فى غمار معركة انتخابية حامية ، ومجلس رايشتاج جديد يوشك أن يختار ، فوزارة البارونات المعروفة أيضا باسم « وزارة المونوكل » تطلب من الشعب تأييدا كبيرا ٠ وكانت الانتخابات دائما مثار اهتمام لانى فاستحثه الشباب على القدوم ليراها ، الا أن ايرما أصيبت بنوبة أمومة أخرى فقالت « هيا بنا نسرع الى جوان ثانية لنبدأ الرحلة البحرية فى نهاية المعركة » فقال لانى : « كما تشائين » ٠

وهكذا تفرقت المجموعة فاستقلت فانى باخرة الى نيويورك ، واستقل آل روبن سفينة عبرت بهم البحر الى فلاشنج ، وركب آل بد سفينة أخرى عبرت بهما الى كاليه ٠ وارسلا برقية الى القصر فى باريس فوجدا العشاء معدا عند وصولهما ٠ وقالت ايرما « ما الطف أن يكون للانسان مسكنه الخاص فذلك الطف بكثير من النزول فى الفندق » فأدرك لانى أنها راغبة فى ايجاد تبرير أمام نفسها لانفاق كل هذا المال ، فوافقها على أن ذلك

« الطف » فعلا . وكان جيرى موجودا ومعه كمية من الشيكات فى انتظار توقيعها ، وأراد منها أن تراجع الحسابات ، ولكنها واثقة بأنها مضبوطة فوقعت من غير أن تنظر الى شيء وذهب الثلاثة الى استعراض فى ملهى ليلى بهيج جدا ، فيه موسيقى ورقص بأقل مايمكن من الثياب ، مما جعل ايرما فى بعض المشاهد تحمر خجلا ، بيد انها تحاول اكتساب الصبغة العالمية .

وفى المساء وصلا الى بيانفينى ، فاذا الطفلة وقد امست أكبر واذكى مما كانت ، تعرف كلمات أكثر وتتذكر ما يلقن لها . وقد أخذ عقلها ينمو « أوه يا لانى ! تعالى انظر هذا . تعالى أنظر ذاك ! » وكان لانى حريا ان يسعد بالاستقرار لدراسة الطفولة والسباحة واصابة الأهداف مع باب ، والتحدث الى العمال فى المدرسة ، لولا أنهما كانا قد حددا موعدا مع آل روبن . ثم وصل خطاب من بيترو كورساتى الذى كان فى لوزان لتغطية أنباء المؤتمر موفدا من صحيفته ، وقال فى خطابه « انه حدث ضخم ! كيف يمكن أن يفوتك ؟ » .

وفى ذلك الوقت أقامت أوربا مهرجانين دوليين للكلام على هذه البحيرة السويسرية بعينها . ومنذ سنوات كثيرة وأمثال هذه الاجتماعات هى النوع المفضل لدى لانى من أنواع التسلية ، فحضر عددا كبيرا منها من قبل والتقي فيها بكل من يثيرون الاهتمام من الناس ، سواء من رجال السياسة أو الكتاب أو المصلحين او المخبولين . ولم تكن ايرما حضرت اجتماعا منها قط ، وان كانت قد سمعته يتحدث عنها وبعبارات تتقد حماسة . فلما اقترح عليها الان قائلا « هيا بنا نتخلف هناك فى طريقنا الى برلين » قالت ايرما « لا مانع عندى » !

- ٨ -

وتتبعها مجرى نهر الرون الذى تحمل كل مرحلة منه شيئا من ذكريات مارى دى بروين ، فثمة الفنادق التى نزلت فيها مع لانى ، والمناظر الطبيعية التى أعجبا بها ، والتاريخ الذى استعاداه معا . ولكن لانى فضل لايرما أن تحظى بذكرياتها الخاصة بها غير مضمخة بعطر أية امرأة أخرى . وتسلقا معا منطقة أشجار الصنوبر وتجولا بين الممرات الصخرية الضيقة الفائرة بين الجبال حيث الهواء ساكن صاف . وصلا بعد ذلك الى منطقة تكثر بها القناطر وفيها سد هائل . وهناك ترامت أمامهما بحيرة ليمان وعليها تقع جنيف مقر عصبة الأمم ، تلك المؤسسة التى ظلت سنوات قليلة معقد رجاء الجنس البشرى ، بيد أنها تبدو الآن وكأنها خرت صريعة

علة غامضة · ومنذ بداية السنة ظل منعقدا ها هنا مؤتمر كبير لتحديد السلاح يضم ستمائة مندوب عن ثلاث عشرة دولة ، وسيظل هذا المؤتمر منعقدا سنة أخرى ، فكل دولة تتقدم بدورها باقتراح تحديد نوع السلاح الذى لا تملكه أو الذى لا تحتاج اليه ، فتنبرى الدول الأخرى لبيان عيوب هذا المشروع ·

وعلى مسافة أخرى فوق شاطىء هذه البحيرة نفسها توجد لوزان حيث اجتمع رؤساء الوزارات ووزراء الخارجية لبحث مسألة التعويضات القديمة · ورحب لانى بد بصديقه بيت (تدليل بيترو كورساتى) وغيره من الصحفيين الذين ظل يلتقى بهم فى فترات متقطعة منذ مؤتمر السلام الكبير قبل ذلك بثلاثة عشر صيفا ، وقد تذكروه جميعا وسرتهم رؤيته ، وكان لديهم علم بزوجته ذات الثراء الطائل وقصرها فى باريس ، ولديهم علم أيضا بريك ومسرحيته · وها هنا استعراض عظيم آخر ، أخذوا بيد الزوجين الشابين المرموقين الى ما وراء الكواليس مباشرة ليشهدوا خفاياه ·

ولوزان مشيدة على جانب الجبل ، فكل شارع من شوارعها له مستوى مختلف عن الشوارع الأخرى · وقد نزل الفرنسيون فى فندق على القمة ونزل الانجليز فى فندق عند القاع ، ونزل مندوبو الأمم الاخرى فيما بين هذين · وكان الدبلوماسيون يصعدون ويهبطون للمحاوتة ومناقشة النزاع فى أجنحة بعضهم البعض ، واصيب رجال الصحف بالهزال من جراء مطاردة أطراف الخصومة المتعددين صاعدين فى الجبل وهابطين أو هذا على كل حال هو الوصف الذى أدلى به « كورساتى » · فرجال السياسة كانوا يجتهدون فى تكتم أعمالهم ، وقال بيت ان الواحد منهم متى رآك غاص داخل جحره كأنه فار فى الجبل ، فأمست فرصتك الوحيدة لوضع يدك على أحد منهم ان تظفر به وهو يسبح فى البحيرة ·

وكان هذا لونا جيدا نظيفا من المرح ، ان كنت مشاهدا يحب سماع اللغط وحل الألغاز أو صحفيا جريئا غير مكترث تحت يده حساب للنفقات ولديه الحرية لانتقاله كما يشاء · فالطعام كان من أفضل مايكون ، والمناخ بديعا ، والمنظر الطبيعى كذلك ، فقمة مون بلان عند بابك الخلفى مباشرة أو هكذا تبدو لك فى هواء جبال الألب الخالى من الغبار · ولن يخامرك الشقاء الا أن فكرت فى ملايين البشر الذين تجرى المقامرة بمصيرهم على يد الساسة · وكانت مائدة القمار برميل بارود فى مثل ضخامة جبال الألب ، ولا هم للمقامرين الا أن يضع كل فريق منهم وطنه الخاص فوق القمة ، وان يضع طبقته الخاصة فوق قمة وطنه ، وأن يضع كل منهم ذاته فوق قمة طبقته ·

واضطر الساسة للتخلي عن مشروع « ينج » الذى اقامته المانيا ملزمه بمقتضاه أن تدفع خمسة وعشرين بليون دولار تعويضات • بيد أن فرنسا لم تستطع التخلي عن الأمل فى الحصول على شيء • ولذا حاول مندوبوها بواسطة الجدل الذى لا ينقطع والمشادة أن يفرضوا مشروعا تؤدى بمقتضاه المانيا فى نهاية ثلاث سنوات سندات قيمتها ثلاثة بلايين مارك • ولكن معظم المراقبين اتفقوا على عقم هذا الاقتراح عقما تاما ، فالمانيا تقترض ولا تدفع • وهى تقول لرجال البنوك فى الولايات المتحدة « لدينا خمسة بلايين من نقودكم ، فان لم تنقذونا خسرتموها كلها ! » وشعب المانيا يقول « ان لم تطعمونا اعطينا اصواتا لهتلر ، أو لمن أسوأ منه وهو تيلمان البلشفى وساسة المانيا يقولون « نحن فزعون مما سيحدث » • ومن يدرى هل هم فزعون حقا أم يتظاهرون بالفزع فحسب ؟! منذ الذى يستطيع أن يثق بأحد فى الحكم ، فى اى مكان فى الدنيا ؟

وكان روبى بد قد روى لابنه حكاية وقال له ان جميع رجال الاعمال يعرفونها ، ومؤداها أن تاجر جلود ذهب الى مدير البنك الذى يعامله ليمد أجل سندات ديونه فرفض مدير البنك اجابة ملتمسة • فقص عليه تاجر الجلد ما يلاقيه من المتاعب والحف فى الرجاء ، وفى النهاية سأله « هل سبق لك الاشتغال بتجارة الجلود ؟ » ولما أجابه « لا » قال الرجل حسن • ها أنت ذا الآن غارق فى هذه التجارة « وكان من راى بيترو كورساتى أن هذا بعينه موقف جمهور المستثمرين فى الولايات المتحدة فهم جميعا الآن غارقون فى تجارة الجلد الألمانية فى شئون الصـــلب والفحم والكهرباء والكيمياء هذا بخلاف شئون انشاء الطرق وحمامات السباحة • بل لم يعد كافيا أن تؤجل مواعيد استحقاق الديون ، فلا مناص من تقديم رأس مال التشغيل أيضا لتجنيب هذه الأعمال المالية كلها السقوط فى هاوية الخراب ، ولمنع العاملين فيها من التحول الى حمر ! •

وكانت ايرما تعلم ان هذا « العالم العظيم » الذى سترتبط به سيرة حياتها ، ولذا كانت تصغى لهذا اللغط وتتعلم كل ماتستطيع أن تتعلمه عن الممثلين البارزين فى هذه الدراما الدبلوماسية • وكان لانى قد التقى من قبل بعدد من وكلاء الوزارة فأدرك هؤلاء أن الزوجين الشابين الثريين جديران بتقديمهما الى « المستوى الأعلى » • وقيل لايرما أن الشتاء التالى قد يشهد مزيدا من المباحثات فى باريس ، فاستقر فى نيتها أن يجد هؤلاء الأشخاص المهمون فى بيتها مكانا للاسترخاء ، وربما للمؤتمرات الخاصة

السرية . فما كان في وسع اميلي نفسها أن توفق الى ما هو خير من هذا .

ولاحظ لاني افتتان زوجته بالطبقة الحاكمة الانجليزية ، وهو افتتان يصيب أمريكيات . حتى عرف هـذا المرض المحدد باسم « الجنون بالانجليزى » والانجليز من ابناء الطبقة العليا رجال طوال القامة وسيمون هادئون فى لسانهم عذوبة ، يبدون المودة لأصدقائهم والتحفظ لمن عداهم. وفى اعتقاد ايرما أن هذا هو المسلك القويم . وكان ثمة لورد ديكتورب الذى كان لانى قد التقى به ذات مرة فى سباق لعربات النزهة فى أسكوت حين كان كل منهما فتى يافعا . أما الآن فقد أضحى ديكتورب دبلوماسيا وقورا يحمل حقيبة أوراق ملآنة بالمسئوليات ، أو هكذا يبدو عليه ، وهكذا ايضا تخيلته ايرما ، وان كان لانى الذى خبر كثيرا مما وراء الكواليس فى مواطن شتى يؤكد لها ان أبناء الأسر الكبيرة لا يقومون فى العادة بكثير جدا من العمل الشاق . وكان ديكتورب وسيما وسامة تفوق التصور ، وله شارب صغير لونه بنى فاتح ، فقالت ايرما « كيف تعلل بقاء رجل كهذا اعزب؟ فقال الزوج : « لا أدرى وربما استطاعت مارجي أن تخبرك بالسبب . وربما لم يستطع الظفر بالفتاة التى يريدها » . فقالت : « أعتقد أن أى فتاة تجد عناء شديدا جدا فى رفض رجل كهذا » فأجابها لانى : « بل قد يحدث ذلك » . فيتشاحنان مثلا أو يضطرب أمرهما لسبب ما . فحتى الأغنياء لا يستطيعون دائما أن يظفروا بما يريدون وهى فكرة لانى العتيقة ذات اللون الوردى !

- ١٠ -

ووقع الساسة المجتمعون معاهدة جديدة فى لوزان اتفقوا فيها أن يقوموا بعمل عدد من الأعمال بعد أن فات الأوان . وبعد انتهاء التوقيع ووضع الأختام ذهب كل منهم لحال سبيله ، وغادرت ايرما ولانى سويسرا بالسيارة عن طريق بال . وقبل وقت العشاء وصلا الى شتوتجارت . وكانت لوحات الاعلان مغطاه بالشعارات وصيحات القتال التى تطلقها الاحزاب المتباينة فى هذه المعركة الانتخابية المريرة . وقرا لانى الذى حصل على الصحف بمجرد وصوله اعلانا عن اجتماع للنازى يعقد ذلك المساء . وسيكون الخطيب الأساسى الزعيم رقم واحد لتنظيم الرايخ ، وهو بعينه الذى كان قد تلقى ذلك التقريع الشديد من زعيمه فى حضور لانى منذ عشرين شهرا تقريبا ، فقال لانى « أود أن أسمع ماذا سيقول

الآن ؟ » • فهتفت ايرما : « ياله من شيء مضجر يا عزيزى ! » الا أنها لم تشأ أن يتركها فى حجرة الفندق بمفردها فقالت : « على ألا تبقى هنـاك طويلا » •

وفى خلال هذه العشرين شهرا كان الفتى الامريكى الفرنسى اللاهى قد أكثر من التنقل فى الدنيا بالسرعة التى تتيحها سكك الحديد والسيارات والطيارات والبواخر واليخوت الخاصة ، فطاف بمعظم بقاع غرب أوربا وانجلترا ونيو أنجلند ، وطالع كتبا فى موضوعات كثيرة وعزف الوفا من القطع الموسيقية ، وتطلع الى مثل عددها من الصور ، واختلف الى مسارح كثيرة ورقص فى قاعات رقص شتى وسبح فى بحار عديدة • وثرثر مع أصدقائه ولعب مع طفلته وتناول أفخر الاطعمة ، واحتسى أفضل الخمور ، واستمتع بحب زوجة أنيقة حسناء • وقصارى القول أنه حظى بأبهج حياة يمكن أن يتصورها الرجل العادى •

ولكن فى هذه الأثناء كان شعب المانيا يعيش حياة مختلفة تماما ، فيقوم بعمل شاق رتيب سـاعات طويلة بأجور منخفضـة ، وأثمان الضروريات فى ارتفاع متصل ، والقلق وانتفاء الضمان والأمان يتزايدان فلم يعد الرجل منهم واثقا أنه وأسرته سيجدون خبز يومهما غدا ، ولهذه الحالة أسباب معقدة أغمض بكثير من فهم الرجل العادى ، بيد أن ثمـة جماعة من الناس أخذت على عاتقها تبسـيط هذه الأسباب وتوضيحها لأغبى الأغبياء • ففى غضون هذه العشرين شهرا السالفة الذكر كان ابن موظف الجمارك النمسـوى آدى شيكلجروبر يتنقل أكثر مما تنقل لانى بد ، مستخدما عين تلك التسهيلات فى المواصلات من السـكك الحديدية الى السيارات والطائرات ، ولكنه لم يتنقل بقصد المتعة ، بل كان يعيش حياة الناسك ، النباتى ، الممتنع عن المسكرات ، مخصصا طاقاته التعصـبية جميعا لاقناع الجماهير الالمانية أن متاعبهم راجعة الى معاهدة فرساى المملاة على المانيا ، والى الأجانب الحاقدين الحاسدين الذين يحاولون قتل الوطن الالمانى ، والى اليهود القذرين المنحطين ، والى حلفـائهم من رجال البنوك الدوليين والحمر الدوليين • وكان أسلوب أدولف هتلر أن يقول ابسط الأشياء وأكثرها وضوحا للعيان ثم يكررها تباعا كلما أمكن ذلك ، ويضع فى أقواله من الصراخ الانفعالى أقصى ما تطيقه الحنجرة البشرية • وقد ظل يطبق هذا الاسلوب ثلاث عشرة سنة منذ وقعت هذه المعاهدة الملعونة وهو قد أصبح الآن فى ذروة جهوده ، ومعاونوه يعقدون مئات الاجتماعات كل ليلة فى جميع أنحاء المانيا وكأنها كلها اجتماع واحد ، والخطب واحدة والكلام واحد سواء ورد فى جريدة مطبوعة أو صورة هزلية أو اعلان حائطى

او على اسطوانة جراموفون ٠ ولا أهمية لصدق الكلام أو عدم صدقه ، « فادى » كان يعنى حرفيا قاعدته المأثورة أن الأكذوبة كلما عظمت كان تصديقها أسهل ، لأن الناس سيقولون أنك ماكنت لتجرؤ على اختلاق شيء فظيع كهذا ٠ فتخيل أسوأ ما يمكنك تخيله عن أعدائك ثم أقسم أنك تعرف ذلك عنهم ، وأنك رأيته بعينيك ، وأن الله على ما تقول شهيد ، وانك مستعد للمراهنة بحياتك على ذلك ٠ صاح بهذا الكلام ، وجأر به مرارا وتكرارا نهارا بعد نهار وليلة أثر ليلة ٠ والكلام أن ادلى به شخص واحد كان هراء ، ولكن اذا انضم اليه عشرة آلاف صار اتهاما قائما ، فاذا صار عددهم عشرة ملايين انقلب الاتهام قطعة من التاريخ ٠

ها هو اذن اجتماع جماهيرى ضخم آخر ، والزحام شديد حتى لتكاد تعجز عن الدخول ، فاضطر الأمريكيان الشريان للتسلق الى مكانين بعيدين في الصفوف العليا بأعلى المسرح ، ولكن ذلك لاضير فيه لوجود مكبرات الصوت ، وهى ابتكار مدهش يستطيع به شخص صغير القامة فوق المنبر ان يكون له صوت عشرين من العمالقة ، فى حين يبدو من يقاطعه قزما ينبعث منه صرير كأنه جرذ ٠ والراديو اختراع أروع من هذا أيضا ، فهذا الجهاز البلورى الضعيف الصغير ذو السماعات الذى كان روبى قد أحضره الى بيانفينى قبل عشر سنين قد أصبح الآن أشد القوى النفسية سيطرة ونفوذا ، فيه يستطيع المرء أن يصل الى أسماع مائة مليون شخص وعقولهم، وقد استنبط الفنيون العلماء فى مسائل العقل البشرى وسائل لاثارة الفضول والاستطلاع بحيث تصغى الملايين لما يقال ٠ ومهما كانت شدة مخالفة المرء لما يسمع فهو عاجز عن الرد ٠ وقد صار حلم كل دكتاتور أن يصبح المسيطر الأوحد على هذا الجهاز الجبار ، بحيث يستحيل على أحد فى جميع حقب التاريخ أن يرد على أقوالهم ٠ وعندئذ يصبح كل ما يقوله الحقيقة ، ولا حقيقة سواه ، مهما بلغ من خطل كلامه قبل سيطرته على المذياع ٠ فمن يتسنى له أن يسيطر على المذياع يصبح الها بين البشر ٠

ومرة أخرى لاحظ لانى تطبيق فن اثارة عقل الجماهير وتوجيهها ٠ وكان أدولف هتلر يعلم أعوانه ان الجماهير لا تفكر بأمخاخها بل بدمائها ، أى أنهم لا يستخدمون المنطق والقياس بل تسيرهم غرائزهم وأعظم الغرائز الأساسية هى الرغبة فى البقاء والخوف من الفناء ٠ ولذا جعل أدولف هتلر يقول لهم ان أعداءهم يريدون افناءهم وانه وحده يستطيع انقاذهم وسينقذهم ٠ ويقول لهم أيضا انهم الجنس السيد الذى اختارته الطبيعة ليعيش ويحكم جميع أجناس الأرض ٠ والغريزة الأساسية الثانية هى الجوع ، وقد ذاقوه وعانوه ، وهو يعدهم ان ألمانيا تحت زعامته ستقتحم

مخازن خيرات الدنيا جميعا ، وستحصل على مجالها الحيوى الذى تتوسع فيه وتنمو • والغريزة الأساسية الثالثة ، وهو يقول لهم ان القدر اختارهم ليكثروا فى الأرض ويعمروها بنسلهم ، وان كل فتاة آرية نقية الدماء هى الأم التى هيـــأها القـــدر لولادة أبطال شـــقر ، وانها لهذا خلقت، ولا حاجة بها الى ترخيص خاص كى تشرع فى أداء رسالتها فالوطن الحصيف سوف يعنى بأمرها ويضفى عليها وعلى ذريتها الشرف والفخار •

وقد تراكمت هذه الغرائز فصارت مصدر فخر ونصر على أعداء المانيا ، وهم يصيحون «يحيا النصر» وقد ابتدع الحزب طقوسا مستفيضة لتجسيد هذه المفهومات وهز أشد النفوس غباء واثارتها • ففى مؤامرة حانة البيرة الفاشلة التى كان لانى قد شهدها فى ميونيخ حمل المتآمرون الأعلام ، وقد ثقبها وابل الرصاص بعد ذلك وصبغتها دماء الشهداء عنـــد اخماد المؤامرة فصارت هذه الأعلام مقدسة ، وقد حملها أدولف هتلر فى جميع ارجاء المانيا ، وفوق المنابر العامة كان يلمس بها الأعلام الجديدة وبذلك صارت جميع أعلام النازى مقدسة جديرة أن تلطخ بدماء الشهداء • والآن كلما رفعت هذه الأعلام تعلو دقات القلوب ، ويصبو جميع أعضاء الحزب الصالحين الى فرصة الاستشهاد كى تؤلف الجماهير وتنشد عنهم نشيدا حماسيا جديدا • وكانت الابواق تدوى عندما تدخل الاعلام الاجتماعات ، وتقرع الطبول وينفخ فى الزمور ويدخل حرس شرف من الابطال الى القاعة وقد اكتست وجوههم بالجد والصرامة •

وصعد الى منبر الخطابة جريجور شتراسر الضخم بوزنه الثقيل • ولم يكن ذليـــلا مطاطىء الرأس على نحو ما رآه لانى آخر مرة ، بل كان يتفجر ثقة بسلطانه ، فهو أحد زعماء الحزب المؤسسين ، وقد ساعد أدولف على البقاء حيا فى الأيام الأولى لكفاحه ، وكان قد آمن بالبرنامج الأول للحزب بكل ما فيه من وعود بالقضاء على الاغنياء والأخذ بناصر المحرومين، فهل تراه لم يزل مؤمنا بذلك وقد علم الآن أن الفوهرر لم يعد ينوى تلك الوعود ؟ انك لا يمكن أن تحدس بذلك من سماع خطبته ، بل بدا أن لديه قاعدة واحدة هى التفكير فى كل شىء يمكن أن يريده عشرة آلاف من أهالى فرتنبرج فيعدهم به وبتحقيقه يوم ينتخبون مرشحى حزب العمال الألمان الاشتراكيين الوطنيين •

وقال لانى « هذه يقينا هى الطريقة المثلى للظفر بالأصوات ! » أما ايرما التى لم تفهم ما كان يعـد به الخطيب وكان حكمها مســـتخلصا من

اشاراته ونبرات صوته فقد قالت « كلامه شبيه فى السمع بكلام خالك جسى بصورة تثير الدهشة جدا » • فضحك زوجها وقال « لا تدعى أحدا منهما يسمعك تقولين ذلك ! » •

- ١٢ -

كانت معركة سياسية وقودها الحقد الجنونى حتى اوشكت ان تكون حربا أهلية ، فكتائب الرجال المسلحين تسير فى الشوارع وكل كتيبة تنظر الى الكتائب الاخرى عند ما تمربهـــا نظرات متوهجة كالجمر ، وكل منهم على استعداد للانقضـــاض على الآخرين • بل انهم كانوا يقدمون على ذلك فعلا فى أحياء الطبقات العاملة ودوائرهم ، فيضطر المارة الى الفرار ناجين بحياتهم • فالمحافظون الذين يسمون أنفسهم ديمقراطيين ووطنيين لديهم كتائب الخوذة الفولاذية ، وفرق الجهاد • والنازيون لديهم كتائب الحرس وكتائب الهجوم ، والاشتراكيون لديهم لواء الرايخ ، والشيوعيون لديهم الجبهة الحمراء ، وان كانت هذه الكتائب الاخيرة ممنوعة من ارتداء زى عسـكرى خاص بها • والاعـــلانات الحائطية والصور الكاريكاتورية والرايات والاعلام كلها ذوات رموز وشعارات ناطقة بالحقد على الآخرين من الناس ، سواء كانوا من الالمان المنتمين الى طبقة غير مرضى عنها ، أو من الروس أو الفرنسيين أو التشيك او البولنديين أو اليهود • ومن المستحيل أن تفهم كل هذه الانواع الكثيرة من الكراهية أو اسبابها • وقالت أيرما « هذا فظيع يالانى • فلنقطع كل صلة لنا بهذا كله » •

وكانت قد التقت بأشخاص ظرفاء فى برلين • وها هو يوهانس قد اقام لها حفلة استقبال فأتوا جميعا وعندما اكتشفوا انها لا تحب السياسة قالوا انهم لا يلومونها على ذلك ، وتكلموا عن المهرجانات الموسيقية ومعارض الفن وسباق اليخوت القادم • واجتهد اليهودى قطب المال الكبير أن يبقى على مودته مع الجميع ، وأدرك أن كثيرين ممن كانوا عادة لا يقبلون أن يدخلوا بيته رضوا بالحضور لأن ضيفته وارثة امريكية شهيرة • وجريا على عادته لم يحاول اخفاء هذه الحقيقة ، بل بالعكس حرص على ذكرهـــا وشكرها عليها • وكانت تعلم أن هذه الاسرة اليهودية ارتقت الى مكانتها هذه فى الدنيا بمساعدة آل بد وما داموا يظهرون الشكر اللائق والعرفان ولا يجنحون الى الغرور فلا بأس من استمرار آل بد فى معاونتهم • حضر حفل الاستقبال كبار رجال المال الالمان وزوجاتهم وهم سادة طوال القامة

فيهم جفاف يضعون على عيونهم المونوكل ، ومعهم عقيلاتهم اللواتى كأنهن أنشئن خصيصا لمسرح ماى روث (١) · وكلهم من ذوى الألقاب الطويلة ، لا يسقطون منها شيئا من اضافات الشرف مثل « فون » و « تزوس » · ووجدت ايرما عناء فى تمييز الهرفون من الهربارون والهجراف (· صاحب المقام الرفيع) من ايرلاوخت (صاحب المجد النبيل) وايرلاوخت من دور خلاوخت (صاحب السمو) وحضر جراف شتوبندروف وتحدث عن عن الاحوال فى موطنه ، وجدد بمودة دعوتهما لعيد الميلاد القادم أو لما سيسبقه من موسم الصيد · وحضر المستشار الجديد طويل القامة نحيل الوجه ، وهو أشد الدبلوماسيين رشاقة وآنق الارستقراطيين الكاثوليك ويعيش غارقا فى حباله من الدسائس نسجها بنفسه · وكان ابن حى اليهود الفقراء فى روسيا حريا ان يذهله شرف حضور المستشار ، بيد ان يوهانس اعتبر حضوره وفاء لدين ، فأعضاء نادى السادة الراقى لم يتمكنوا من جمع المال الكافى لانقاذ حزبهم ، فاضطر المستشار الى أن يلجأ لهذا اليهودى · لقد وجدته أيرما ظريفا ، وأعربت عن ذلك لزوجها الذى علق بقوله « ليس فى أوربا كلها وغد أعظم منه · لقد أخرج فرانزفون بابن من الولايات المتحدة قبل أن ندخل الحرب لأنه كان يمول عمليات نسف مصانع الذخيرة » · فهتفت « أوه ! انك تقول كلاما فظيعا جدا يا حبيبى ! ولا يمكن ان تكون واثقا حقا منه ! »

فقال الوردى الشاب « لم يكن من الفطنة بحيث يحرق كعوب شيكاته وقد أسر الانجليز سفينته فى طريقها الى بلاده ونشروا جميع الوقائع والوثائق » ·

---

(١) مهرجان يعقد صيفا فى « بايروث » فى بافاريا للاحتفال بأوبرا فاجنر ــ المترجم ·

الفصل الثالث عشر

حتى شفا الدمار

- ١ -

بدأت رحلة اليخت بسي بد • ولم تكن رحلة طويلة فلا يمكن ان تدوم أكثر من أسبوع فى المرة الواحدة فى تلك الأيام المضطربة •

وكانوا يقفون وسط البحر لصيد السمك والسباحة ويرسلون فوق وجه بحر الشمال ونسماته الكثير من الموسيقى الرومانسية البديعة •

ولابد ان رجال البحر وصيادى الاسماك الذين مروا بقربهم فى الليل كانت تستبد بهم الدهشة ولعل من بينهم شابا مثل هاينى حلق على أجنحة الخيال فبعيدا من هنا على الساحل الصخرى لاسكتلندة حيث تشرف القلعة الصغيرة الشهباء على البحر المتلاطم ، هناك فى النافذة العالية التقويص تقف امرأة حسناء نحيلة شفافة الرقة مرمرية الشحوب تعزف على الهارب وتغنى وتعبث الرياح بجدائل شعرها الطويلة وتتخللها وتحمل اغنيتها الحزينة فوق وجه البحر العاصف المترامى •

وكان لانى بد كلما استراح من سبحات خياله هذه يتجاذب الاحاديث الهادئة مع مضيفه على أمل ان يفلح تدخله اللطيف اللبق فى تقليل توتر مشكلة هذه الاسرة التى تكشفت له • وبين له يوهانس بالفاظ تشبه كثيرا الألفاظ التى استخدمها روبى بد عندما كان لانى فتى صغيرا ـ ان رجل الاعمال لا يفكر فى المال الذى يكسبه أو يمكن أن يكسبه فحسب ، بل انه يحمل على عاتقه مسئوليات نحو ألوف المستثمرين • وليسوا جميعا من المتعطلين الشرهين ، بل بينهم مسنون كثيرون وارامل وايتام ليس لهم مورد سوى انصبتهم أو اسهمهم ومسئوليات أيضا ازاء العمال الذين تتضور أسرهم جوعا مالم تدفع اليهم مرتباتهم الاسبوعية • وانه لافتراء فى حق مديرى الاعمال المالية ان يظن خلوهم من الاحساس بالواجب نحو غيرهم من الناس ، حتى ولو كان معظمهم غرباء •

وقال يوهانس أيضا ثم ان المرء حينما يكون قد أمضى حياته كلها يتعلم ما ينبغى للقيام بنشاط معين ، فليس من السهل اقناعه بالتخلى عنه وهو فى اوج قوته « أجل هناك مصاعب ولكنه كان يتوقعها ويأخذها مأخذ التحدى ، فهو يجد متعة فى التصدى لها واثبات قدرته على قهرها • فترك الميدان والفرار امام الصعاب جبن لابد أن يدمر معنوياته فلا يستطيع ان ينتفع بنفسه بعدها ويقضى وقته كله مطرقا مهموما ، مثل أمير البحر الذى نكص على عقبيه وهجر أسطوله •

واستطرد قطب المال الكبير يقول « ابناى لهما قانونهما الاخلاقى الخاص بهما ، ويريان من واجبهما اقناعى بأن قانونهما ينطبق على حياتى• فهما راغبان فى انشاء عالم جديد أفضل وسوف يسرنى ان ينجحا ، وان وجدت أمامهما أى أمل فى النجاح فقد انضم اليهما • فأنا أسالهما عن مشروعاتهما فيقدمان لى أحلاما غامضة لا أرى فيها أنا رجل الأعمال أى صفة عملية • فهى بختام أوبرا « ذهب الراين » الفاجنر : ثمة فردوس (فالها لا) وهو رائع الجمال ، ولكن سبيل الوصـول اليه ليس سـوى قنطرة من قوس قزح • وقد يكون فى مقدور الأرباب أن يسيروا فوق قوس قزح ، أما المستثمرون والعمال فليس فى مقدورهم هذا • ويؤكد لى ابناى ان قنطرة أمتن سوف تقام ، وعندما اسالهما عن أسماء المهندسين يقدمون لى أسماء زعماء حزبيين ورجال دعاية وخطباء لا يستطيعون حتى ان يتفقوا فيما بينهم • ولولا ما يسمونه البوليس الراسمالى لاشتبكوا فى قتال حامى الوطيس وصرنا الى حرب أهلية بدلا من الطوبيا (المدينـة المثالية الفاضلة) • فكيف يتوقع منى ان أوافقهما قبل ان يصلا على الأقل الى الاتفاق فيما بينهما ؟

واحزن لانى ألا يجد لديه جوابا عن هذا السؤال • وكان قد وجهه من قبل الى اخته ، فلم تستطع أن تقول شيئا سوى انها وزوجها على حق وان فريدى وراحيل على ضلال • ولا جدوى من توجيه السؤال الى الزوجين الآخرين لأن جوابهما سيكون جواب أخته بعينه ولا سبيل الى زحزحة أى من الطرفين عن رايه كما أنه لا سبيل لنزول لانى نفسه عن اقتناعه بأن برنامج الشيوعيين هو الذى تسبب فى نمو الفاشية والنازية ، أو على الاقل مكن لهما من الانتشار فى ايطاليا والمانيا • اما فى اسكندناوه والبلاد الانجلوسكسونية حيث رسخت فى الأرض جذور الانظمة الديمقراطية فلم يستطع الحمر ولا نقيض الحمر أن يجدوا لهم سبيلا للانتشار •

- ٢ -

لم يكن ثمة اذن سبيل لاقناع يوهانس روبن بالانسحاب للاقامة في دير أو حتى في يخت خاص في الوقت الحاضر . وهو لا يزعم أنه يعرف ماذا سيحدث في ألمانيا ، ولكنه يعرف ان هذه الفترة عاصفة وانه وهو أمير البحر يجب ان يقف الى جانب أسطوله المقاتل ، فيحمي ممتلكاته ويبقى مصانعه عاملة . وفي سبيل الحصول على عقود وامتيازات يجب ان لزم الأمر تقديم هدايا لبعض الساسة الأقوياء ، وفي هذه الحالة يساوم يوهانس بحصافة فلا يدفع أكثر مما ينبغي . وهكذا كانت أحوال الدنيا منذ عرف فيها نظام الحكومات وعلى من كان مثله تاجرا يهوديا منفيا يقبله الناس على مضض في أرض غريبة ان يكتفي بتوجيه عنايته الى منافعه الخاصة . اما ابناه فيشعران بمزيد من الألفة والارتباط بالمانيا ويحلمان بمحاولة تغييرها . اما هو وهو ابن حي اليهود الفقير في روسيا فحسبه ان يطيع القانون . وانه ليعترف بأسى « ان هذا الملك ليس شديد النبل ، ولكن عندما يأتيني من هم أنبل مني طالبين العون فقد يحصلون عليه مني » .

ان العالم في حالة سيئة وتزداد كل يوم سوءا . فالبنوك تفلس في جميع أنحاء الولايات المتحدة ، والبطالة هناك تزيد باطراد . وانتخابات الرئاسة موعدها نوفمبر ، والاحزاب السياسية عقدت مؤتمراتها واختارت مرشحيها ، فأيد الجمهوريون المهندس العظيم (هوفر) وكل أعماله ، في حين رشح الديموقراطيون محافظ نيويورك واسمه فرانكلين روزفلت واستفسر يوهانس من لاني هل يعرف شيئا عن هذا الرجل فقال لاني لا . ولكن عندما وصلت الى اليخت رسائل البريد كان من بينها الخطاب الاسبوعي الذي يرسله روبي ، وهو مزيج من تقرير رجل الاعمال ومرثية من مراثي أرميا . وفي هذا الخطاب قال روبي ان المرشح الديموقراطي رجل ليست لديه أية خبرة بالأعمال المالية ، وهو فضلا عن ذلك مقعد ساقاه مقعدتان ومجمدتان بشلل الأطفال ولاشك أن هذه الأوقات بحاجة الى رجل صحيح البنية على الأقل فالرئاسة عمل يحتاج الى مجهود قاتل وهذا الروزفلت ان تم انتخابه لا يمكن أن يعمر مع هذا المجهور الرئاسي أكثر من سنة ، ولكنه لن ينتخب لأن روبي واصدقاءه سيخلعون ستراتهم ناشطين لمقاومته ، ولا نريد أن نقول شيئا عن فتحهم أكياس نقودهم على سعتها .

وضحك الابن الذي لا يعرف التوقير قائلا « أحسب روبي » سيطلب

منك اكتتابا لهذا الغرض » فأجابه اليهودي «ان لي مصالح كثيرة في أمريكا» فتذكر لاني الكلمة التي كان قد سمع زهاروف يقولها ذات مرة « أنا مواطن كل بلد لي فيه استثمارات » ٠

- ٣ -

وتناقشا في أحوال المانيا التي تعيش على راس مال مقترض وتنزلق كل يوم الى درك أعمق من الهاوية ٠ والحكومة القائمة ليس لها سند شعبي ، بل يديرها نادي السادة وهو منظمة من كبار رجال الاعمال والارستقراطيين وكبار اصحاب المناصب ، وله نحو عشرين فرعا في أنحاء المانيا ٠ وانشط اثنين من ساسته هما المستشار فون بابن والجنرال فون شلايخر ، والمفروض انهما زميلان ، بيد أن كلا منهما لم يكن يثق بالآخر متى بعد عن نظره ٠ وبابن في الوقت الحاضر يتولى الحكم ، اما شلايخر فيتفاوض سرا مع النازي ليؤيدوه في عملية اخراجه من الحكم ٠ ولا أحد يثق بأحد ، فيما عدا صرح طبقة اليونكر البالغ من العمر خمسة وثمانين عاما ، وهو الماريشال فون هندبنورج والسيد العجوز المسكين كلما تقلبت عليه أعباء الدولة لا يجد كلمة يقولها سوى « يجب أن أخلد للراحة ! »

وقدر يوهانس أنه من المؤكد حصول النازي على مكاسب ضخمة في الانتخابات القادمة ، الا انه أبى أن يقلق باله بذلك ، فكثيرون من النازي أسماؤهم في قوائم من يحصلون منه على نقود ، ولكن اعتماده بالأكثر على ما حدث من ذهاب هتلر الى دوسلدورف حيث عقد اجتماعا طويلا مع تيسن وآخرين من اقطاب وادي الرور ٠ وقد طلبوا حل اتحادات العمال الحمراء ، واقنعهم هتلر باستعداده للاقدام على ذلك ٠ وقد تستطيع خداع واحد واثنين من رجال الصلب الخشنين هؤلاء ، ولكنك لا تستطيع ان تخدع الكثيرين منهم فهم يعرفون الساسة وطالما تعاملوا مع رعيل منهم بعد رعيل ، ان ذلك جانب أساسي من لعبة توجيه الصناعة وادارتها في عالم حافل بالبرلمانات والاحزاب وهذا شيء مزعج ولكنك تتعلم منه كيف تحكم على الرجال وكيف تحرص على الا يصل الى الحكم أحد لا يمكنك ان تثق به ٠

ويقال مثل ذلك عن كبار ملاك الاراضي في بروسيا ، فهم يريدون قبل كل شيء اقامة استحكامات ضد البلشفية ، وهم مستعدون لأداء أفدح الأثمان نظير هذه الخدمة ٠ وهاتان القوتان ، قوة رجال الصناعة في الغرب وكبار ملاك الأراضي في الشرق ، هما اللتان حكمتا ألمانيا منذ أيام بسمارك وستظلان تحكمانها ٠

وسأله لانى « ولكن الا تخشى من قبل هتلر عداوة للسامية ؟ »

فهتف صاحب يخت يسى « يا الهى ! لقد نشأت وسط الفتن والمذابح ، فماذا كان بوسعى أن أصنع وماذا بوسع أى واحد منا ان يصنع اللهم الا التضرع الا يحدث شىء من ذلك فى الشارع الذى نقطنه ؟ » فقال لانى « ولكنهم يتوعدون بأن يجعلوا هذا العداء عاما شاملا يا يوهانس ! » فاجابه « انما هى وسيلة للوصول الى الحكم فى عالم تستبد فيه الحيرة بالناس ولابد لهم من أحد يلقون عليه الملام • وكل ما استطيعه من أمل ان النازى ان وصلوا الى الحكم فسيواجهون من المشكلات الحقيقية ما يحول بؤرة الضوء عن قومى » •

وكانت ايرما قد بدت رغبتها فى الابتعاد عن الشئون السياسية الألمانية ، ولكن ذلك لم يتيسر بصورة كاملة ، فثمة مدرسة العمال التى كان فريدى شديد الاهتمام بها ، والتى كانت منشأة على غرار مشروع لانى تقريبا • فلما عادا الى برلين انصرفت زوجة لانى للعب البريدج فى حين ذهب هو مع فريدى وراحيل الى حفل استقبال قابل فيه المعلمين وأصدقاء المشروع وسمع مشكلاته تناقش واخبرهم كيف تسير الامور فى وسط فرنسا •

وكان لانى فى طريقة تفكيره اقرب الى هؤلاء الاشتراكيين الشبان منه الى اية جماعة اخرى ، ومع هذا فما أشد تباين الآراء فيما بينهم ، وما أشق جمعهم حول برنامج للعمل ! وقبل الانتخاب ببضعة أيام قامت حكومة فون بابن بانقلاب فى ولاية بروسيا التى تضم مدينة برلين ، وتم اخراج رئيس الوزارة والوزراء وكلهم من الديمقراطيين الاشتراكيين — من مناصبهم ، وهددوهم بالقاء القبض عليهم ان هم حاولوا المقاومة ، وكانت مقاومتهم ضعيفة بحيث امكن اعتبارها استسلاما • وكان من نتيجة ذلك ان انتشر الطنين بين الاشتراكيين كأنهم سرب من النحل هوجمت خليته ، بيد انهم للأسف بدوا نحلا لا ابر له ! واقترح الشيوعيون اضرابا عاما للعمال ، وطلبوا من الاشتراكيين التعاون معهم ، ولكن كيف يسع اى انسان ان يتعاون مع الشيوعيين ؟ انهم يستغلون أى هياج للاستيلاء على ازمة الامور لأنفسهم وينقلبون على حلفائهم مثلما فعلوا بكيرنسكى فى روسيا • والاشتراكيون يخشون الشيوعيين اكثر مما يخشون الرجعيين ، ويخشون ان يعملوا ما يعمله الشيوعيون ، وان يبدوا كالشيوعيين ، وان يسميهم الناس شيوعيين •

وهكذا سيطرت وزارة البارونات على شرطة برلين وسائر سلطات

الحكومة المحلية ٠ وكم كان الحال مختلفا قبل اثني عشر عاما اثناء « انقلاب كاب » ففي ذلك الحين لم ينتظر العمال اوامر قادتهم ، بل عرفوا على الفور ماذا ينبغي أن يصنعوا ، فالقوا بأدواتهم من ايديهم وخرجوا الى الشوارع واظهروا باسهم ٠ اما الآن فالظاهر أنهم فقدوا اهتمامهم بالجمهورية ٠ فاى خير افاءته عليهم فى هذه السنوات الاثنتى عشرة ، انها لم تستطع رد غائلة ضنك البطالة عنهم ٠ بل انها لم تعد تقدم لهم الوعود ! فهى مكبلة بآرائها الخاصة عن الوسائل المشروعة بحيث تعجز عن مكافحة وسائل الآخرين غير المشروعة ٠

واصغى لانى لمناقشات هؤلاء المثقفين الألمان ، وهم من طبقات شتى جمع شتاتهم ما بينهم من شركة فى الافكار ٠ ووجد لديهم ادراكا ثابتا جدا للخطر المحدق بقضية الحرية والعدالة الاجتماعية ٠ وكانوا جميعا يريدون ان يعملوا شيئا ، ولكنهم ينبغى ان يتفقوا اولا على ما يجب عمله والظاهر انهم لا يقدرون على ذلك ، فظلوا يتجادلون الى ان انهكت قواهم٠ وتساءل لانى : اهو داء يصيب جميع المثقفين ؟ أهو شلل يصاحب حياة العقل ؟ ان كان ذلك كذلك فلا بد ان يظل المفكرون على الدوام خاضعين لرجل القوة الغاشمة ، وسيظل حلم افلاطون بدولة يحكمها الفلاسفة لا طائل تحته الى الأبد ٠

وقال لانى لنفسه : « ينبغى ان يتزعمهم أحد ! وكان يريد ان يقول : « يا الهى ! قد يحسم الامر الليلة ٠ وتموت جمهوريتكم ! هيا بنا الآن ندعو العمال للخروج الى الشوارع بيد انه قال لنفسه بعدها : « كيف يمكن ان ابدو وانا اتزعم ثورة المانيا ، انا الامريكى !؟ » واسترخى فى جلسته واصغى لمزيد من المجادلات وقال لنفسه « انا كالآخرين ٠ فأنا مثقف ايضا ! وعندى بضعة مسدسات واعرف كيف استخدمها ولكنى لا استخدمها ! » ٠

- ٥ -

وكانت فى المدرسة معلمة للفن اسمها ترودى شولتز ، حديثة السن جدا ، وهى شخصيا طالبة فى مدرسة فنية ، ولكنها تأتى ليلتين او ثلاثا كل اسبوع لتلقن العمال ما تعرفه ، ومعظمهم أسن منها وهى متزوجة من فنان شاب يعمل فى الرسوم التجارية بمرتب صغير لدى مؤسسة للاعلان ، ويكره هذا العمل وترودى ولودى شولتز كلاهما من النمط الآرى الكامل الذى ينوه به ادولف هتلر بيد انه من الواضح عدم انتمائه اليه ٠ فللفتاة

شعر اشقر مموج ، وعينان زرقاوان صافيتان بريئتان وملامح حساسة توحي بالصراحة والاخلاص • وقد راقبها لانى وهي ترسم على السبورة لتلاميذ صفها اشكالا تخطيطية ، وخيل اليه ان لديها موهبة خارقة في رسم خطوطها • فهي ترسم شيئا ما ثم تمحوه بلا مبالاة ، فيكره ان يراه يمحى •

وسرها اهتمامه فدعته للحضور ومشاهدة عملها • وهكذا قاد لانى بالسيارة فريدى وراحيل – في مساء آخر اثناء انصراف ايرما للعب البريدج الى احياء طبقة العمال في المدينة حيث يعيش الزوجان الشابان في مسكن صغير • وتفقد لانى كمية كبيرة من الرسوم بقلم الرصاص وعددا قليلا من الرسوم بألوان الماء واشتد اهتمامه بما اعتقد انه موهبة حقيقية • وكانت هذه الفتاة ترسم ما تراه في برلين ، الا انها تلونه بشخصيتها • وهي مثل جسى بلاكلس تحب العمال وتنظر الى الاثرياء باستنكار خفى مما جعل اعمالها « دعاية » من العسير بيعها • بيد ان لانى خطر له انها ينبغى ان تروق الصحافة الاشتراكية فعرض عليها ان يأخذ بعضا منها معه فيريه لليون بلوم وجان لونجيه • وبطبيعة الحال اهتم الشابان الزوجان شولتز بذلك ، لأنهما كانا قد سمعا بأن لانى هو الذى اختار لوحات الاساتذة الاقدمين لقصر يوهانس روبن ونظرا الى الأمريكى الشاب الثرى نظرتهما الى قوة في عالم الفن •

ولانى من جانبه كان سعيدا بلقاء شخصيات حيوية فى الحركة العمالية وقد ازداد مع الوقت اقترابه من اعتبار الفن سلاحا في صراع اجتماعى وها هما شابان يشاركانه وجهة نظره ويفهمان على الفور ما يقول • وهو قد سافر الى اماكن كثيرة قاصية ، اما هما فلم يعرفا سوى برلين وضواحيها والريف المحيط بها حيث كانا يقومان احيانا برحلات على الاقدام ، بيد انهما استطاعا أن يستنبطا المغزى بعينه الذى استنبطه من الحياة • ان العالم الحديث يزداد في كل يوم توحدا ، والاشياء المادية متجهة عن طريق الانتاج الكبير الى ان تكون لها مستويات واحدة • في حين يشكل صراع الطبقات عقول العمال والسادة ونفوسهم •

وقد راقب لانى انتشار الفاشستية من ايطاليا الى المانيا مغيرة اسمها ولون قميصها ، اما فيما عدا ذلك فما اقل التغيير ، وقد سمع المجادلات بعينها بالضبط حول الفاشية هنا في برلين وفي باريس وفى أواسط فرنسا وفى مدرسة راند للعلم الاجتماعى فى نيويورك •

ان هؤلاء الشبان الخمسة متشابهون كثيرا جدا في مستوياتهم

ورغباتهم ، ويعبرون عما في قلوبهم بطريقة لم يتح مثلها للانى منذ زمن طويل · وكلهم تعذبهم المخاوف مما يحدق بأوربا ويتوقون الى تحديد ما يجب عليهم عمله في مواجهة عاصفة الرجعية التى تتاهب للهبوب · فما هي اسباب الشلل الفظيع الذى يبدو انه اصاب حركة العمال في العالم ؟

ان ترودى شوتز وهى فنانة مثالية تعتقد ان السبب فشل القوى المعنوية · فقد نشأت في بيت ماركس الا انها ساخطة على بعض القواعد التى كانت تعتبرها من قبل انجيلا · ولاحظت أن المادية الجدلية لا تمنع الناس من الشحناء ولا من الغيرة ولا من الحقد الانتقامي وضيق افق العقل· والاشتراكيون يتحدثون كثيرا عن الزمالة ولكنهم كثيرا ما يفشلون في ممارستها ، واستقر رأى ترودى على ان البشر بحاجة الى اكثر من الاحساس الطبقى او الوعى الطبقى كى تتكون منهم وحدة اجتماعية ·

وفريدى روبن الذى كانت لديه معرفة دراسية علمية بهذه الأمور كان من رأيه ان التوحيد بين الديمقراطية الاجتماعية والفلسفة المادية امر عرضى محض ، مرجعه الى ان كليهما نشأ بألمانيا في القرن التاسع عشر · ولم تكن بين المسألتين صلة أساسية · والآن وقد ابتعد العلم الحديث عن الفكرة المذهبية القديمة القائلة بأن الذرة الفيزيائية هى مادة بناء الوجود كله · فقد حان اذن للاشتراكيين ان يجدوا لانفسهم فلسفة تفسر الجهد الخالق والغاية الاخلاقية ·

وكانت الفتاة الطالبة متلهفة وسعيدة بسماع أحد يقول هذا الكلام مستخدما الألفاظ الاصطلاحية الفلسفية الطويلة التى تجعل الكلام يبدو صوابا في سمع أى ألمانى · وقالت انها لاحظت ذلك الخطأ يسرى في الحياة اليومية · فالذين ينادون بأن المادة والقوة هما اساس الحياة والحقيقة الوحيدة يميلون لتطبيق هذه النظرية في حياتهم الخاصة · وعندما تصل يدهم الى شيء من السلطة يفكرون في الاحتفاظ به وينسون تضامنهم مع الكادحين المتواضعين · ان الناس ينبغى أن يؤمنوا بالقوة الخلقية وان يتركوا الحب يعمل عمله في الدنيا · ويجب عليهم أن يكونوا مستعدين للتضحية براحتهم الشخصية وأعمالهم ومرتباتهم ، بل وأرواحهم ان لزم الأمر · وهذا الافتقار الى روح الأخوة والتضامن الحى هو الذى مكن اوتو براون الديموقراطى الاشتراكى رئيس وزارة ولاية بروسيا ، وكارل سيفيرنج وزير الداخلية من الانحناء أمام تهديدات الارستقراطيين لابسى المونوكل بحيث لاذا بالفرار الى بيتهما من غير أن يبذلا أقل مجهود لاثارة الشعب كى يحمى جمهوريته والحريات التى تضمنها له ·

وقال لانى في نفسه « هنا أخيرا وجدت ألمانيا يفهم معنى الحرية ! »

وفي يوم احد ، آخر ايام شهر يولية توجه اكثر من سبعة وثلاثين مواطنا في الجمهورية الالمانية ما بين رجال ونساء الى صناديق الاقتراع وسجلوا اختيارهم للنواب الذين سيمثلونهم في الرايشتاج ٠

وبالمقارنة بالاقتراع الذي جرى قبله بسنتين خسر الاشتراكيون ستمائة الف صوت تقريبا ، وكسب الشيوعيون مثل هذا العدد ، اما النازى فزادت اصواتهم من ستة ملايين ونصف مليون الى اربعة عشر مليونا ٠ وصار لهم مائتان وثلاثون نائبا من مجموع النواب البالغ ستمائة وثمانية ، وهو عدد يزيد على ما ظفر به الشيوعيون والاشتراكيون معا لو أنهم اتحدو ، وهو ما لن يقدموا عليه ٠ وبذلك صار من المستحيل من الآن فصاعدا ان يحكم المانيا أى امرىء دون موافقة ادولف هتلر ٠

وبدات سلسلة طويلة من الدسائس والشد وجس النبض وراء الكواليس ٠ ويروى يوهانس ما يعلمه عن الاحداث للانى ، ولوالد لانى أيضا الذى قد اتى للتشاور مع شريكه وركب مع الاسرتين اليخت بس بد فى رحلة بحرية قصيرة ٠ فساسة اليمين الذين ظفروا بأقل من خمسة فى المائة من الاصوات ما زالوا متشبثين مع ذلك بالسلطة ويحاولون اقناع هتلر بالدخول فى وزارتهم كى يتسنى لهم تملكه وتهدئة ثائرته وكما حدث من قبل مع ماكدونالد فى انجلترا ٠ ويبدون استعدادهم لتقديم هذا المنصب الوزارى وذاك اليه ٠ ويحاولون كسب انصاره وابعادهم عنه ويستدعى « أدى » المنتبذين من هؤلاء الانصار الى المثول امامه ويصرخ فى وجوههم بطريقة هستيرية٠ وعندما يعجز عن املاء رأيه يهددهم بالانتحار. وانصاره لا يمكن ان يعرفوا أهو جاد فى تهديده ام غير جاد ٠

وكان حدثا ضخما فى حياة برلين عندما رضى الفيلد مارشال العجوز ان يستقبل الاونباشى البوهيمى ٠ وركب هتلر السيارة الى شارع فيلهلم وحشود الجماهير تهتف له على جانبى الطريق ٠ وهناك تناول الغداء مع فون بابن المستشار الذى يطالب هتلر بمنصبه ٠ وعندما ادخلوه الى حضرة هندنبورج كان فى حالة عصبية شديدة حتى انه تعثر فى بساط ٠ وشرع يلقى احدى خطبه المعهودة ، على نحو ما كان يفعل جلادستون امام الملكة فيكتوريا بالضبط ، حتى اضطر قائده القديم ان يوقفه عند حده ٠ واخبره هندنبورج انه لا يمكن ان يسند منصب المستشار الى رجل يمارس انصاره الارهاب وانتهاك القانون بطريقة منظمة ٠ فهو يعتقد ان منصب نائب المستشار كاف جدا لمثل هذا الرجل ، ولكن هتلر رفضه وطلب

سلطة كاملة . وثار اليونكر العجوز ، بيد ان الاونباشي السابق كان قد الف هذه العاصفة ، وكان كل رده « المعارضة حتى الرمق الاخير » . فقال هندنبورج « لا بد لى من الخلود الى الراحة ! » .

وبدأت موجة جديدة من الارهاب فتمت هجمات على الحمر بجميع ظلال الوانهم على يد كتائب الهجوم النازية فى ملابسهم الرسمية ودون هذه الملابس . وسمعت ايرما بذلك وبدأت ترجو لانى أن يقطع زياراته لهؤلاء الناس ، وحاولت ان تستعين بروبى على ذلك ، ولما اخفقت هذه الاستعانة أبدت رغبتها فى مغادرة برلين . فما هذه الاستجابة اللاارادية التى تدفع زوجها الى صحبة اشخاص يريدون على الاقل ان يستولوا على ماله وكثيرا ما يتآمرون لتوريطه فى دسائس خطرة ؟ ما الذى صنعوه له ؟ ما الذى يمكن ان يكون مدينا به لهم ؟.

واصر لانى على أنه لا بد ان يسمع جميع الاطراف فدعا اميل مايسنر للغداء ، ولكن ليس فى بيت روبن ، لان اميل ما كان ليأتى الى هناك . وكان الشقيق الاكبر لكيرت قد صار الآن كولونيلا ، ولانى يريد أن يعرف رأى ضابط بروسى فى هذا المازق السياسى . وقال اميل ان الموقف يرثى له ، واتفق فى الرأى مع لانى على ان النازيين لا يصلحون على الاطلاق لحكم المانيا . وقال ان فون بابن لو كان رجلا قويا حقيقة لما سمح بتاتا باجراء الاقتراع . ولو كان الفيلد مارشال هو الرجل الذى كانه فى سالف ايامه لأخذ بيده أزمة الامور وحكم البلاد الى ان تنتهى هذه الازمة الاقتصادية لاستطاع الشعب ان يستقر بحالة عقلية سوية . فسأله لانى: « ولكن افلا يعنى هذا نهاية الجمهورية ؟ » فقال الكولونيل مايسنر : « الجمهوريات تغدو وتروح ، اما الامم فتبقى » .

- ٧ -

واتصل هنريش يونج تليفونيا وهو يتفجر زهوا بانتصار حزبه . وعرض على لانى ان يخبره بالقصة من الداخل ، فقال لانى : « ولكننى ضالع مع اعدائك » فضحك الآخر واجابه : « اذن تستطيع انت ان تخبرنى بالقصة من الداخل ! » ويبدو انه كان يرى لانى الامريكى فوق المعركة . فهل كان النازى الشاب يسعى الى اعجاب شخص اجنبى ؟ هل كان فى اعماق فؤاده يشعر بلذة المناقشة الحرة والتعبير عن الرأى غير المتحيز الذى لا يظفر به فى صحافة حزبه ؟ ام الحقيقة ان لانى لانه طائل الثراء فانه يبدو له اشبه بشخصية فى فيلم من هوليود ؟.

وكانت أسرة يونج قد زادت زيادة جديدة فمازحه لانى قائلا ان معنى ذلك : « زيادة عـدد اليونكر » مسـتغلا التقارب اللفظى بين يونج واليونكر • وكان مرتب هانيريش قد زاد وانتقل الى بيت اوسع ، ودعا بمناسبة قدوم لانى هوجوبير ، فجلس ثلاثتهم ساعتين يرشفون البيرة الخفيفة ويحسمون مصير المانيا وجيرانها • واثار اهتمام لانى ما لاحظه من وجود خـلافات بين المثقفين النـازيين كما عند سـواهم ، والصفتـان الاساسيتان لحزب هتلر تضمان وجهات نظر شـديدة الاختلاف بعيدة عن التماسك • وكان هاينريش يمثل صفة الوطنية وهوجو يمثل الاشتراكية• وفي حين كانا متفقين على تأليه الفوهرر والجزم بعصمته من الخطأ كانا مختلفين في خطط الحزب السياسية المباشرة وفى اهـدافه النهـائية على السواء • وخيل للزائر ان الصدع قد اتسع كثيرا منذ آخر مرة رآهما فيها • فهوجو الذى ارتد عن الماركسية جاء معه بمسلك الوعى بالطبقة العاملة وبرنامج التأميم • اما هاينريش وهو ابن أحد موظفى جراف شتوبندروف فله عقلية مستخدم في ضيعة بروسية يعتبر الضبط والربط أساس الوجود •

وخيل للانى ان فى هذه المفارقة نصرا دراميا ، وانه قد يفيد كاتبا مسرحيا انجليزيا ان يأتى الى برلين ويدرس ما يجرى فيها • وكان قد اقترح هذه الفكرة على ريك الذى لم ير الحركة النازية على جانب كاف من الاهمية ، ولكن لعل الاقتراع الاخير غير رأيه فى الموضوع ! ومهما يكن من شيء فقد اهتم لانى بالاصغاء للشابين المتعصبين المتحمسين المصممين على تغيير العالم على غرار زعيمهما الملهم • وسره أن يتناول عتلة ذهنية يزج بها فى الصدع القائم فى عقليهما فيوسـعه ويعمقه • والى أى مدى من العمق يمكن ان يصل قبل ان يفطنـا اليه شخصيا ؟ ولم يسع لانى ان يخبرهما بما يعلم • لم يكن فى مقدوره ان يقول لهوجو : « ان زعيمك فى مممعان مفاوضات مع تيسن وكروب فون بولن وكارل فون سيمنس وغيرهم من اشد رجال الصناعة جشعا فى بلادك • وهو يبذل لهم وعودا جديدة بانتهاج مسـلك محافظ يتقيد بالوسـائل المشروعة وهو مستعد للاقدام على أى شيء فى سبيل الوصول للسلطة ، وعلى أى شيء فى سبيل الاحتفاظ بها • وما أنت واصحابك سوى جموع من العسـاكر الخشبية كعساكر الشطرنج يحركها هنا وهناك وهو على استعداد للتضحية بهـا حينما تتطلب منه اللعبة ذلك » • كلا لم يسعه ان يقول لهما هذا لانهما كانا سيسألانه : « وكيف عرفت هذا ؟ » ولم يكن فى وسعه ان يجيبهما : « فريتزتيسن اخبر أبى بالأمس » • لانهما كانا سيفترضان انه عرف هذه المعلومات من يوهانس روبن اليهودى • وذلك يعنى لديهما امرين : اولهما

ان هذه المعلومات اكاذيب • والامر الثانى ان فريقا من الوطنيين النازيين ينبغى ان يزور قصر روبن ليلا ويحطم جميع نوافذه ويكتبون بالطلاء : « الموت لليهود ! » على بابه الامامى •

كلا •• ان المرء لا يناقش بين الكاثوليك طهارة العذراء المقدسة • وبين النازى لا يناقش المرء شرف الفوهرر فهو عندما قال فى كتابه انه لن يكون شريفا كان يقصد بذلك مع أعدائه ، أما مع أعضاء حزبه فهو لهم الراعى المحب الذى ينبغى أن يتبعوه على غرار الغنم • وكل ما استطاعه لانى وتوجيه أسئلة غير شخصية : « كيف يستطيع الفوهرر الحصول على ائتمانات تجارية ان قصرت المانيا فى دفع قيمة سنداتها ؟ ولست اعنى التعويضات بل سندات المستثمرين من الافراد العاديين » وكان هوجوبير الاشتراكى الشاب الساذج لا يدرى حتى بمجرد وجود مثل هذه السندات فقال لانى : « عندى عدد منها فى خزانة حصينة بنيوكاسل بولاية كنيكتيكت • وقد اشتريتها لانى كنت اريد مساعدة جمهوريتكم الاشتراكية » فقال : ماركس السابق : « هذه خدعة برجوازية ! » فكان هذا الرد ختام جميع دعاوى لانى •

- ٨ -

وكان كيرت قد كتب يرجو ايرما ولانى فى القدوم للزيارة ، ولم يكن لانى قد توجه قط الى ستويندورف الا فى وقت عيد الميلاد ، فخطر له انه مما يستحب ان يشاهد الريف هناك فى منتصف الصيف ، وانطلقا بأسرع من الريح فوق طرق بروسيا المستوية الفاخرة مارين بجماعات من البولنديات المهاجرات يعملن فى جمع البطاطس • والطرق على جانبيها أشجار فاكهة قد عنى بها فقالت : ايرما : « لا يمكننا أن نصنع مثل ذلك فى أمريكا لان الناس يسرقون عندئذ جميع الفاكهة » ولم تكن رات فى حياتها اطلاقا حقولا مترامية مزروعة بهذا الاتقان التام ، فكل بوصة فى الأرض مستخدمة ، ولا وجود لشىء اسمه الحشائش الفطرية ، والغابات نفسها أشجارها مغروسة فى صفوف منتظمة كالبساتين • وجددت اعجابها بالشعب الألمانى •

ونزلا فى القلعة ، مع ان الجراف لم يكن موجودا • وكان كيرت قد رزق ببيونكر جديد ، وكذلك اسرة أخيه واسرة اخته • وقد ضعفت صحة عرمايستر بيد انه استطاع ان يتكلم فى السياسة فجدد تذمره من فساد

الحكومة الالمانية التى أكره على الحياة تحت نيرها ومن عدم كفايتها • وفى هذه الآونة بالذات نشبت منازعات حول المسائل الدينية ، فمشكلة العلاقات بين الكنيسة والدولة وهى مشكلة قديمة اثيرت وصارت تناقش بكل المرارة الموروثة خلال ستة قرون أو أكثر • فالبولنديون اللوثريون والألمان اللوثريون لا يقبلون أن يصلوا للرب معا • والكاثوليك البولنديون يحاولون صبغ الألمان الكاثوليك بالصبغة البولندية • وهناك ايضا الكنيسة الروسية الفولونية والكنيسة الاونية وهما وسط بين الكنيسة الروسية الارثوذكسية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، فهم يقبلون رئاسة بابا روما ولكن قسوسهم يتزوجون وينجبون عددا كبيرا من الابناء • وفضلا عن هذا كله نشأ نظام كنسى بولندى جديد يقضى بخضوع جميع الكنائس للحكومة • ولما كان الهر مايسنر على وشك مغادرة هذه الارض ، فقد الفى خروجه منها خروجا مناسبا مشكلة معقدة كأعقد ماتكون المشكلات التى واجهته مدة اقامته فوقها •

وكان لانى يتطلع منذ مدة الى حديث صريح من خدينه القديم • وكان يريد أن يخبر كيرت بما عرفه عن الجهاز السياسى للنازى ويبذل جهدا أخيرا لاخراجه منه ، بيد انه تحقق ان كل جهد فى هذا السبيل عبث ، فقد كان كيرت فى حالة حبور حماسى بسبب نتائج الاقتراع ، وهى النتائج التى كان يأمل فيها منذ عشر سنين ويعمل لها منذ خمس • فهو يعتبر أن ألمانيا وجدت خلاصها ، ولذا فهو يؤلف مارش النصر الذى يختم به سائر المارشات • وقرر لانى محزونا أن الأفضل له أن يعزف ثنائيات على البيانو وأن يعتبر السياسة شيئا يجاوز فطنة الموسيقيين الموهوبين •

وكان فى نيته أن يعود مع ايرما الى برلين للقيام بنزهة بحرية أخرى ، لولا وصول برقية من الآنسة سيفرن التى كان لديها معلومات مشددة بالتبليغ عن أقل علامة تدل على انحراف صحة وديعتها • وتضمنت البرقية اضطرابا فى الهضم ودرجة حرارة ١٠١ فهرنهايت ، وهذا لا يعنى شيئا ذا بال لدى الطفلة ، فالمربية تؤكد ان الأمر خطير ، بيد ان ايرما أصيبت بذعر على الفور ، وراحت تقول انها أم مهملة انانية تهرب من مسئولياتها لتتلهى فى أنحاء أوربا • وأرادت أن تستقل طائرة ، ولكن لانى قال لها : « ان الوقت الذى ننفقه فى الوصول الى المطار وترتيب الحصول على مكان فى طائرة يمكن أن يوصلنا الى منتصف الطريق نحو البيت • فهيا نتناوب القيادة الى هناك مباشرة » •

وهكذا فعلا ، فوصلا الى جوان بعد يومين بقليل ، وليس هذا معدلا سيئا جدا اذا راعينا وجود الجبال فى النمسا وايطاليا • وقد توقفا فى

الطريق مرتين للاتصال تليفونيا • وعند وصولهما الفيا الحرارة هبطت تماما • فهل كان ذلك بتأثير سحرى من برسيفال دنجل ، أم هو الاستعداد الطبيعى لدى جميع الأطفال الصغار للتغلب على الحمى بمثل السرعة التى تصيبهم بها ؟ لم يكن ثمة سبيل لمعرفة الجواب ، وحسبهما أن زوج أم لانى قد بذل خير ما فى وسعه ، وان الآنسة سيفرن بذلت خير ما فى وسعها ، وان الطفلة فرانسس بخير ، وعلى استعداد للاستفادة الكاملة من عواطف أمها المهتدية التائبة ! وسعدت ايرما بالهذر والرقص واللعب مع عزيزتها الصغيرة بحيث لم تعد تدرى كيف رغبت فى أى وقت فى الظهور وجاه المجتمعات •

- ٩ -

واستقرا مخلدين لحياتهما العائلية • وفى المساء قد تحضر صوفى وزوجها للعب البريدج مع ايرما وبيوتى • وكانت مرسلين قد بدأت الانتظام فى مدرسة خاصة لا تتعلم فيها الشابات الراقيات شيئا كثيرا جدا ولكنهن يكن تحت الملاحظة بعيدات عن العبث والسوء • وبذلك ترك لانى حرا يقرأ المجلات التى كانت قد تراكمت مدة غيابه ، ويعزف الموسيقى التى تروقه ، ويختلف الى مدرسة العمال ويحدثهم بما وصل اليه عمله فى انجلترا والمانيا وينصحهم كيف يتجنبون الكوارث التي حلت برفاقهم فى هذين البلدين •

وكانت المعضلة الوحيدة أن الوقائع تبدو معقدة والنتائج المستخلصة غير مؤكدة • فماكدونالد تبدو مسالته دليلا على عقم التدرج والوسائل المشروعة • ومتى ذكرت الماكدونالدية وثب اليك شاب أحمر قائلا : « ها انت ترى ما يحدث عندما يشق العمال بالبرلمانات ! » وحينما تذكر هتلر يثور على الفور نزاع فى أسباب ظهوره وانتصاره • أهو عميل الصناعة الألمانية الثقيلة ودليل على ان الراسمالية لا يمكن أن تخضع بالوسائل السلمية لأى تحديد لسيطرتها ؟ أم ان النازيين ثمرة المخاوف التى أوحتها البلشفية الى الطبقة الوسطى الصغيرة ، من صغار رجال الأعمال وصغار الموظفين المؤهلين أصحاب الشهادات الذين ليست لهم نقابات ولا يستطيعون حماية مراكزهم ؟

وفى وسعك ان تاخذ أيا من الجانبين فى هذه المناظرة ، وتدلى بعدد كبير من الوقائع لاثبات قضيتك ، وتخرج شاعرا بانتصارك عن يقين • أما

الشخص الذى لا سبيل له الى الراحة فهو من كان على غرار لانى يريد الحقيقة كاملة ، ويرى جانبا منها فى كل من المعسكرين • وما من أحد يستطيع أن ينظر فى طبعة من الصحف النازية دون أن يتبين انهم يستغلون الخوف من روسيا الحمراء أقصى استغلال • وفى الوقت نفسه من الذى يستطيع أن ينظر الى بيت هتلر البنى بتجهيزه الثمين ، أو يرى كتائب الهجوم تسير بأزيائها الجديدة اللامعة وأسلحتها البراقة ولا يدرك ان هذه الحركة تمولها أموال كبيرة من نوع ما ؟ ان رأس المال الكبير يخاف روسيا كما يخاف صاحب المؤهلات • ولكن رأس المال الكبير يستغل جميع العاملين ، والفريقان لا يمكن أن يتفقا على السياسة الداخلية • وان عاجلا أو آجلا سيجد النازى أنفسهم مضطرين لاتخاذ قرار حاسم بصدد السيد الذى ينوون خدمته • وهذه هى مأساة الأحداث الراهنة فى المانيا ، ولانى يتوق لتوضيحها للعمال الفرنسيين ولمن يلتقى بهم من زعمائهم • فهتلر جالس فى مكتبه ببرلين ، او فى ميونيخ ، أو فى المعتزل الذى اشتراه لنفسه فى الجبال وزعماء النازى يأتون اليه ويجادلونه ويتجاذبونه فى هذا الاتجاه وذاك ، وهو يفكر فى ذلك كله ويقلبه فى ذهنه ويختار ايما اتجاه يبدو له انه يفتح له الطريق الى السلطة • انه شديد الزوغان والتملص مثل ثعبان الماء ، وسريع فى حركاته مثله أيضا ، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بما سيصنعه الا بعد أن يقوم به فعلا • والأمر الوحيد الذى تستطيع أن تقوله عن يقين ان الاشتراكية الوطنية قوة بغير ضمير • ففى وسعك أن تسميها ذروة الراسمالية ، أو صورة منحلة من البلشفية ، ولا مشاحة فى الأسماء ما دمت مدركا ان هذه الحركة ثورة مضادة •

والسؤال الهام هو هل ينتظر حدوث مثل ذلك فى كل بلد • هل يمحو الكساد الطبقات المتوسطة مما يدفعها للارتماء فى أحضان الديماجوجيين ؟ هل يدفع العمال الى الثورة ، فيقابل ذلك بنبذ البرلمانات ؟ هل الشيوعيون على صواب فى فكرتهم التى تبدو جنونية ومؤداها ان الفاشية مرحلة ضرورية من مراحل انهيار الراسمالية •

الظاهر ان السؤال كان مطروحا للاجابة عنه فى البلد الذى كان يدعوه لانى وايرما بلدهما ، فرجال الجيش السابقون الذين عبروا البحار ليقاتلوا فى سبيل أوطانهم عادوا ليجدوا المناصب والأموال فى أيدى الآخرين وأصبحوا متعطلين ، وكثيرون منهم يتضورون جوعا فكانوا يتجمعون فى واشنطن لطلب المعونة ، وأحضر بعضهم أسراتهم المعدمة واحتشدوا فوق درجات سلم الكابيتول أو عسكروا فى الأراضى الفضاء

بجوار نهر بوتوما . وأصيب المهندس العظيم بالذعر ولم يستطع التفكير في شيء سوى اطلاق الجيش عليهم ، فقتل أربعة واحرق الخيام كلها وسائر ما بها من المقتنيات الزهيدة . وطرد « أنصار العلاوة » وهم جماعة لا حول لهم من الغوغاء لم يهتم أحد أين يذهبون ما داموا قد كفوا عن ازعاج الساسة المشغولين باعادة انتخابهم .

وبدا في نظر لاني ان هذا شبيه تماما بوزارة البارونات واستيلائها على الوزارة البروسية وحكمها ألمانيا وهي لم تظفر الا باصوات قليلة من الرايشتاج . ومثل ذلك أيضا ما فعله بوان كاريه حين احتل الرور لمصلحة لجنة مصانع الحديد . وما صنعه زهاروف حين أرسل جيشا الى تركيا كي يحصل على امتيازات البترول . فهو نمط واحد من الرجال في جميع أنحاء العالم ، يحاول كل منهم سلب مالدى الآخرين من فحم وصلب وبترول وذهب . بيد انهم جميعا في اللحظة التي يتهددهم فيها عبيدهم الأجراء في أي مكان يتحدون معا ليكافحوا الخطر المشترك . ويكافحون ذلك الخطر المشترك بالجيش أو بالعصابات المسلحة أو عن طريق زعماء العمال أنفسهم الذين يشترونهم أو يغرونهم بالألقاب . ومظاهر التكريم والتصفيق ! .

تبين لاني ذلك كله بوضوح وانها لمتعة للعقل أن يكتشف الوحدة في غمار التباين ثم يخطر له خاطر : « ابى أحد هؤلاء الرجال .. وكذلك أبوه وأخوته .. واحدهم أيضا حمو أختي .. وكذلك كان والد زوجتي وجميع رجال أسرتها » . فيفسد ذلك الخاطر لذة لاني العقلية .

- ١٠ -

مر أسبوعان أو ثلاثة وبدأ الطموح يعتمل مرة أخرى في نفس ايرما بارنز بد . فثمة ذلك القصر الباذخ في باريس الذي كانت تدفع ايجارا شهريا له فوق الثمانين ألف فرنك ، وقرابة ذلك المبلغ في نفقاته وصيانته سواء استخدمته أو لم تستخدمه . وها قد حل الخريف وهو من أفضل الفصول في مدينة النور يعود فيه المجتمع الوجيه من مناطق الجبال والبحر وتقام صالونات الخريف الفنية والأوبرات والحفلات الموسيقية وسائر تلك الأشياء التي يحبها لاني . وهناك أيضا السهرات الراقصة والحفلات ومعرض للسيارات وغير ذلك من مظاهر الترف وانطلق الزوجان الشابان في سيارتهما ، وصوفي وزوجها في سيارة لهما أيضا ، وبيوتي وزوجها في

سيارتها • ولم يكن السيد دنجل يبالى أين تأخذه ، لان الله فى باريس ــ وان كان ذلك قد يبدو غريبا ــ وهناك أيضا يوجد اناس يعرفونه سبحانه ، حتى فى غمار التهالك على الملذات • وحضرت مارجى ليدى افرشام وطسون الوالدة من لندن وجاءت معها بنينا وريك لقضاء عطلة قصيرة • وكان ريك قد أضحى الآن شهيرا تتهافت عليه المضيفات • ودعى أيضا الجنرال جارف‌شتوبندورف ردا لضيافته، ولدهشة لانى لبى الدعوة• وأتى آخرون غيره من وجهاء أهل برلين ومرة أخرى عاد التصافح عبر نهر الراين ، بيد ان لانى لم يعد ساذجا ، لقد عجز عن اقناع نفسه ان ذلك من شأنه أن يبقى السلام سائدا بين دول أوربا الكبرى • وكان مؤتمر تحديد التسليح لم يزل مستمرا فى مجادلاته بجنيف وأخذ يواجه الاخفاق التام• ورجال السياسة والمرموقون من أهل الوجاهة حتى رجال الجيش قد يشربون النبيذ ويتناولون العشاء معا على خير ما يكون الأصدقاء الا انهم مستمرون فى تكديس الأسلحة ونسج الدسائس ، كل منهم ضد الآخرين الى أن يدوى ذات يوم صوت النفير فتراهم جميعا قد انطلقوا مسارعين كل منهم الى ضفته من النهر أو جانبه من الجبل أو أيا كان خط الحدود •

ولم تستغرق ايرما وقتا طويلا كى تغدو المضيفة الكاملة ، وكانت تساندها اميلى شترزورت وغيرها من السيدات فقامت بدورها فى وقار وتوفيق وأحبها الجميع • وأشد الدخلاء المتزمتين فى حى سان جرمان وهم الطبقة المتعالية لم يستطيعوا أن يجدوا فيها عيبا • فهى لم تضع فى ذهنها أن تحاول انشاء صالون ، فهذا مطلب يستغرق وقتا طويلا ، وقد يأتى بالتدريج وكأنه ثمرة عرضية أما الآن فهى تقيم دعوات ترفيهية أنيقة فى غير شح على الاطلاق ، فى وقت اضطر فيه الناس جميعا الا أقل القليل لانتهاج هذه الخطة التى لا تغتفر •

وقد ظل أنبياء الأعمال المالية ثلاث سنوات يقولون للعالم أجمع ان التدهور وقتى ، وان الرخاء على الأبواب • أو هو كامن وراء زاوية البيت • ولكن يبدو ان ذلك البيت مستدير • والظاهر ان شيطانا تسلل الى داخل الجهاز الاقتصادى وراح يخربه • ففى وول ستريت والمعركة السياسية المستعمرة فى أوجها بدأت من موجة جديدة من افلاس البنوك ، وتوقف دفع الحصص والآن توقفت أيضا فوائد السندات • ودخل ايرما فى الربع الثالث من السنة هبط الى أقل من مائة الف دولار • فقالت لزوجها : « سنبذل جهدا جبارا حتى نهاية مدة هذا الايجار ثم نعود ونتكمش داخل مخبأ العواصف » فأجابها : « وهو كذلك وترك المسألة عند هذا الحد • فقد كان يعلم أنه لا قبل له بتغيير عقيدة ايرما بأنها تساعد على حفظ

النظام الاجتماعى بتوزيع المال على خدم منزلها وتجار الخمور وتجار الازهار وصناع الازياء وكل ذلك الطابور الطويل الذى كان يأتى الى الباب الجانبى لهذا القصر على نحو ما كانوا يأتون فى أيام مارى انطونيت منذ مائه وخمسين سنه • ولكن ذلك لم يجد قديما فى انقاذ النظام الاقطاعى ولانى يشك اليوم فى ان هذا المسلك يمكن ان ينقذ النظام الرأسمالى ولكن لا فائدة من ازعاج أى انسان قبل الأوان ! •

واقلق لانى ان يرى حياته مفرطة فى السهولة • والواقع ان ذلك ظل يقلقه منذ سنين ، ولكن كيف يسعه ان يجعلها شاقة ؟ حتى جسى بلاك الوعر المرور نائب الجمهورية الفرنسية لم يستطع ان ينسى انه فى الواقع مدين بانتخابه لتبرعات ايرما ، وانه ان عاجلا أو آجلا سيحتاج لدخول معركة انتخابية جديدة بل ان جان لونجيه نفسه وهو أديب ومحرر اشتراكى لم يكن يحاول مناقشة احكام شاب أمريكى ثرى يأتيه ببضعة رسوم من ريشة طالبة فن المانية • بل انه يسره ان ينشر هذه الرسوم ، وأسعد ترودى شولتز ان تتلقى اكرامية متواضعة من صحيفة «البوبيلير» ولم يخطر ببالها أن هذه النقود جزء من الاكتتاب الذى تبرع به لانى لصندوق الحرب فى هذه الجريدة الحزبية •

- ١١ -

حتم برنامج هتلر للمعارضة حتى الرمق الأخير حل الرايشستاج ، وبدأت معركة انتخابية جديدة كان وقعها شديدا على ادولف لانه عجز عن الحصول على المال الذى يتطلبه مثل ذلك المجهود وحين تمت الانتخابات فى أوائل نوفمبر اتضح انه خسر مليونين من الاصوات فى ثلاثة أشهر • وسرى عن يوهانس روبن كثيرا وكتب يقول انها علامة تحول التيار او انحسار الموج • وشعر بانه كان على حق فى ايمانه بالشعب الالمانى الذى لا يمكن اقناعه بلن يعهد بأموره الى شخص مختل العقل. وقال يوهانس ان سلوك الفوهور منذ هذه النكسة دل على انه عاجز عن السيطرة على نفسه وينبغى ايداعه مؤسسة من المؤسسات •

وبعد الانتخابات الالمانية بيومين تمت الانتخابات فى الولايات المتحدة • وكان روبى بد مؤمنا بالشعب الامريكى ، وظل متعلقا بذلك الايمان حتى الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء غداه أول يوم اثنين فى شهر نوفمبر سنة ١٩٣٢ ، ثم تحطم ذلك الايمان تحطما تاما لارجاء

فيه فقد هزم المهندس العظيم صديق روبى ومعبوده هزيمة ساحقة واكتسح : « ذلك الرجل روزفلت » جميع الولايات ما عدا ستا . وكانت احدى الولايات التى فشل فى اكتساحها موطن روبى . وللجمهورى المتعصب ان يحمد الله على هذه الذروة الصغيرة من احترام الذات الباقية له ! قد يكون آدى هتلر مخبولا ، ولكنه المثل الاعلى للحكمة اذا قيس بروزفلت كما كان يتراءى فى عين روبى فذلك المرشح قد انطلق فى نزهة مرحة يجوب أنحاء البلاد يعد كل انسان بأى شىء فجاءت وعوده متناقضة تمام التناقض ، من قبيل موازنة الميزانية وبرنامج حكومى للتوسع يرفع الدين العام الى مستوى الارقام المستخدمة فى علم الفلك .

وكان من عادة روبى ويوهانس كليهما ان يرسلا صورة بالكربون من رسائلهما التى تتضمن تعليقا على المسائل العامة . ولاول مرة منذ الحرب العالمية غدا التاجر اليهودى هو المتفائل . فكرر عبارته التى يستعيرها من فن الطهو ، وهى ان الحساء لا يمكن أن يشرب بمثل الحرارة التى طهى بها ، وعرض ان يثبت ايمانه بأرض « مفخرة الحجاج » عن طريق سماحه لروبى ان يشترى له مزيدا من حصص بد ، ولكن روبى رد عليه فى سرية تامة ـ حتى انه كتب الخطاب على الآلة الكاتبة بنفسه ـ ان مصانع بد من المحتمل ان تغلق أبوابها تماما عن قريب ، وان حكمة هوفر ومزاحم الاتحاد المالى لاعادة البناء هما اللتان حالتا دون نكوصها عن أداء سنداتها .

وبمقتضى النظام الامريكى لابد من انقضاء أربعة أشهر بين انتخاب روزفلت وتقليده السلطة . وظن روبى ان هذه الفترة ستسمح له باسترداد أنفاسه الا أنها كانت فترة شلل ، فلم يتم فيها شىء وصار كل فريق يلوم الفريق الآخر . وكان هربرت واثقا من فرانكلن يريد أن يرى البلاد حطاما كى يحظى بمجد انقاذها ومهما يكن من شىء فها هو الدمار فى صورة موجة بعد موجة من افلاس البنوك ، حتى صار الناس يخفون نقودهم فى حشايا الفراش ، واقبل رجال الاعمال على شراء الذهب توقعا للتضخم واهل أوربا الذين كانوا قد أرسلوا أموالهم الى أمريكا شرعوا فى استردادها . ويقال ان سبعة عشر مليونا من العمال لا عمل لهم وهو رقم قياسى عالمى ! .

وفي هذه الأثناء كان المأزق في ألمانيا لم يزل قائما فالاشتراكيون خسروا كتلة كبيرة أخرى من الاصوات كسبها الشيوعيون ، وازدادت كراهية كل منهما للآخر • وحظى هتلر بمقابلة أخرى مع هندنبورج وطلب منصب المستشار لنفسه ولم يظفر به • واستشاط متطرفو النازى غضبا من « عقدة الوسائل القانونية » عند هتلر وصاحوا يطالبونه بالاستيلاء على السلطة • ونشب خصام عنيف آخر بين الفوهور وجريجور شتراسر الزعيم رقم واحد لتنظيم الرايخ ، وهدد أولهما بالانتحار مرة أخرى ، وهدد الآخر بالاستقالة من الحزب وانشاء حزب جديد خاص به •

وشرع شتراسر في حبك الدسائس مع أعضاء نادى السادة الذين كانوا مستعدين لعقد صفقة مع اى شخص يمكن أن يتيح لهم الاصوات • وكان الجنرال فون شلايخو يريد ان يحل محل فون بابن الذى كان مفروضة انه صديقه وحليفه • وخطرت له فكرة بارعة وهى تأليف وزارة تضم متطرفى اليونكر ومتطرفى النازى ، وبذلك يستطيعون تخويف هتلر لان حزبه مفلس ومموليه قبضوا أيديهم عنه ، وهو شخصيا فى حالة ذهول ويتحالف شلايخر وشتراسر يهددان بحل آخر للرايشستاج واجراء انتخابات أخرى واثقين ان أصوات النازى ولا مال لديهم ستهبط الى النصف• وكانت هذه صورة الاشعة للسياسة الالمانية كما أرسلها يوهانس روبن الى صديقيه الموثوق بهما • ولم يقل بصريح العبارة أن كلا من المتآمرين حضرا اليه فى طلب المدد ، ولكنه قال انه لم يحصل على المعلومات سالفة الذكر بواسطة •

والظاهر ان هذه الصفقة ابرمت ، فعندما وصل أفراد أسرة بد بالسيارات الى بيانفينى لقضاء عيد الميلاد كان الجنرال قد أصبح مستشار الجمهورية الالمانية ، وكان جريجور شتراسر قد انفصل عن هتلر ودار حول اسمه الكلام باعتباره مرشحا لمنصب وزارى ، وأمكن تخويف هتلر فوافق على تأجيل الرايشستاج حتى شهر يناير •

ومن كنيكتيكت ومن لونج ايلند جاءت رسائل عيد الميلاد وكان واضحا فيها ان من كتبوها أجهدوا أنفسهم كي يفكروا فى شىء بهيج يقولونه • ولما طالعتها ايرما قالت لزوجها « قد يكون من الافضل ان نغلق القصر ونوفر النقود كي يتسنى لنا رعاية والدتى ووالدك ان لزم الامر »•

فأجابها الأمير زوج الملكة : «على رسلك! لقد استأجرت ذلك الفيل الابيض حتى شهر ابريل ، فمن الخير ان تركبيه هذه المدة » روبى لا يقامر فى سوق الاوراق المالية ، وكذلك والدتك فيما أظن ، ولذا لا يمكن ان يفلسا افلاسا تاما .

وفكرت ايرما برهة ثم قالت « انه لأمر مدهش حقيقة يالاني كيف صدقت نظرتك تماما فى الامور المالية . ان جميع الاشخاص المهمين كانوا على خطأ ، اما انت فأصبت كبد الحقيقة » . فقال الوردى الشاب : « ان يسمع المرء هذا من زوجته أمر يهون فى سبيله معاناة الكساد » ! .

الفصل الرابع عشر

الرياح العاصفة تهب

- ١ -

واذ عاد لانى الى باريس فى شهر يناير أخذ يتلقى كل صباح نسخة من صحيفة « التقدم » البرلينية بعد صدورها باربع وعشرين ساعة ، فيجد فى صفحتها الأولى تفصيلات الموقف السياسى معروضة تحت عناوين مفزعة ومشفوعة بمقالات حافلة بالنذر ، وذلك كله من وجهة نظر اشتراكية بالطبع ، ولكن لانى يسعه أن يخفف من هذه الغلواء بصعوده الى أكمة مونمارتر وسماع تعليقات خاله عضو مجلس النواب المبنية على أساس قراءة صحيفة « الأومانيتيه » ، وهى الصحيفة التى أنشاها جوريس وصارت الآن فى يد الشيوعيين ٠ وفيها أيضا أنباء برلين تحت عناوين مفزعة من مقالات حافلة بالنذر ٠٠ولما كانت الاومانتيه تحصل على أنبائها تلك بالبرق ، فقد كان لانى يتجرع الترياق أحيانا قبل أن يتجرع السم ٠

ويصيح الخال الأحمر : « أرايت ؟! ان الديمقراطية الاشتراكية ليس لديها اقتراح واحد بناء ، وكل همهم أن ينددوا بما نقترحه نحن ! فيجيبه : « ولكنكم تنددون بهم أيضا يا خالى جيسى » فيقول : العمال يعرفون برنامجنا ، وفى كل مرة تجرى فيها انتخابات يخسر الديمقراطيون الاشتراكيون نصف مليون أو مليون صوت ونكسبها نحن ! » فيجيبه : « ولكن هب انه لم تجر انتخابات أخرى يا خالى جيسى ٠ هب أن هتلر استولى على الحكم ! » فيقول : « انه لا يستطيع أن يصيب حزبنا المتماسك بأذى ، فقد علمنا ودربنا أعضاءنا وسيبقون فى المقاومة » ٠ فيجيبه : « ولكن هب انه اعتبر تنظيمكم خارجا على القانون ! » فيقول : « انك لا تستطيع أن تقضى على حزب يضم عدة مئات الوف من الأعضاء ، وحصل على أربعة أو خمسة ملايين صوت » فيجيبه : « لا تنزلق الى بخس قوة عدوك » فيقول « حسن ٠ ان لزم الأمر لجأنا للعمل السرى ٠ وقد حدث هذا من قبل ، ولك أن تثق بأننا أعددنا خططا ، فى فرنسا وفى ألمانيا على

السواء • » فأجابه لاني : آمل الا تكون مخطئنا يا خالى جيني • وكان يعني مايقول فهو يجادل ضد الشيوعيين ولكن بقلب غير خالص ، فهم بعد كل شيء حزب عمالى ، ولا أحد يستطيع أن يجزم بأن الحالة لن تدعو لوجودهم• وكان مشروع السنوات الخمس الأولى في الاتحاد السوفيتي قد تم بنجاح، وجميع الحمر يهللون له فرحا به • ولم يغالب الورديون الشعور بالانهيار ، ودخل كثيرين منهم التردد واخذوا يتساءلون افلا يكون الاسلوب الروسى هو الأسلوب الاوحد • ومهما يكن من شيء فمن حقهم أن يصغى اليهم فيما يقولون ، وقد بذل لاني كل مافي وسعه لاقناع كل من الفريقين بالكف عن الشجار ، وضرب لهم المثل برفضه السماح لهم بالشجار معه •

- ٢ -

وكلما ساورته الشكوك حول ما يحدث في المانيا حقيقة فلا بأس عليه من أن يكتب الى يوهانس روبن • وخطاب قطب المال اليهودى أشبه ريح وتكتسح امامها وتكشف لعينيه المنظر ، فاذا بالأمة الألمانية سائرة في طريق محفوف بالمخاطر ، على جانبيه هوات فاغرة ، والزلازل تهز الصخور وتقتلع جذورها ، والبراكين تنفث سحبا من رماد نارى • ويقينا أن لا بليني الكبير ولا ابن أخيه واجها ظاهرة طبيعية أشد هولا من الظاهرة التي واجهتها جمهورية فيمار في مطلع سنة ١٩٣٣ • فالنازيون الذين لا يكفون عن العدوان يشنون غاراتهم ليل نهار على الشيوعيين في جميع انحاء البلاد • والفئتان الحاكمتان وهما فئة رجال الصناعة في الغرب وفئة كبار ملاك الأراضي في الشرق تركز اهتمامهما كله في الحصول على تعريفات جمركية اعلى لحماية مصالحهما ، فربح مائة في المائة لم يكن كافيا في أيام كساد الاسواق تلك • وقد رفض العمال الذين يريدون اسعار أرخص للسلع والطعام ان يمنحوا أصواتهم لمرشحى هاتين الفئتين ، بيد أن الساسة الرجعيين ظلوا متشبثين بالحكم وأصواتهم أقل من خمسة في المائة ، ضاربين كل طائفة من الأمة بالطوائف الأخرى ، مستخدمين مزيجا من المداجاة والوعيد •

وكان المستشار شلايخر قد شرع يخطب ود نقابات العمال ، مطلقا على نفسه اسم « الجنرال الاشتراكى مبينا للمعتدلين من الاشتراكيين والكاثوليك مدى سوء الحالة ان دخل الفريقان المتطرفان الميدان • وبهذه المراهنات خسر الحظوة لدى مموليه في الرور الذين كانوا يريدون حل

نقابات العمال فراحوا يصفون لانشودة هتلر السخرية التى يعدهم فيها باداء هذه الخدمة . وكانت هناك أيضا مشكلة اعانات استبقاء نظام الضياع الشرقية ، وهى فضيحة معلقة فوق رؤوس الارستقراطيين أصحاب الأراضى فى بروسيا الشرقية . فقد تقررت مبالغ كبيرة من الاموال العامة لانقاذ الفلاحين من الخراب ، بيد أن أصحاب الضياع الكبيرة وهم ارستقراطيون أقوياء تمكنوا من الحصول على معظم هذه الأموال ، وقد استخدموها فى غير أغراض تحسين الأرض . والآن لا يكاد يمر يوم من غير أن تنشر الصحافة الاشتراكية والشيوعية اتهامات طالبة التحقيق فيها .

وبابن وشلايخر مازالا يتظاهران بالصداقة ، فى حين يدبر كل منهما الخطط سرا للقضاء على صاحبه ولئن كان شلايخر قد ازاح بابن من طريقه بصفقه عقدها مع النازيين ، ففى وسع الآخر أن يلعب لعبة مماثلة وبابن « الجوكى الجنتلمان » متآمر لا يعرف الكلل . فمضى هذا الارستقراطى الأشقر الشاحب ذو الوجه النحيل المتغضن الذى تعلوه ابتسامة دائمة من اجتماع سرى الى اجتماع آخر ، راويا لكل فريق قصة مختلفة ، ولكن جميع رواياته مقصود بها الاساءة لخصومه .

وكتب ياهانس يقول : « بابن يجتمع بهلتر فى بيت البارون فوف شرودر صديق تيسن . » ولم يكن لانى بحاجة الى سؤاله عن مغزى هذا الخبر . وكتب أيضا : « وقيل لى أن بابن وهوجنبرج تفاهما » وهذا الكلام أيضا ليس فيه خفاء . فقد حضر هوجنبرج « الثعلب الفضى » احدى سهرات روبن . وكان رجلا ضخما ذا شارب أشبه فيل البحر ، فيه فظاظه ولكنه بارع ، وهو زعيم طائفة الجامعة الألمانية وصاحب أكبر جهاز دعاية فى العالم يتكون من جميع الصحف الراسمالية تقريبا فى ألمانيا ، فضلا عن مؤسسة « أ . ف . أ » التى تحتكر صناعة الأفلام . وكتب يوهانس : « ان بابن يجمع أموالا لهتلر من رجال الصناعة . وقد سمعت أن الفوهرر عليه ديون مقدارها مليونان من الماركات لا يستطيع الوفاء بها ، والمسالة الآن هل يصل الى الجنون قبل وصوله الى المستشاريه » .

- ٣ -

عقد النازيون اجتماعا من اجتماعاتهم الضخمة فى قصر الرياضة والقى هتلر خطبة من خطب حملاته الملتهبة ، فوعد الناس بالسلام والنظام واعادة الاعتبار الى الشعب الألمانى ، ونشرت الصحف المحافظة فى باريس وعوده وكادت تصدقها ، لأن المحافظين يخافون الحمر اشد مما يخافون النازى ، واكتشف لانى أن دنيس دى بروين ميال للنظر الى هتلر باعتباره نموذجا للساسة الفرنسيين • وانتاب لانى نفسه التردد ، وتلهف لهفة شديدة على أن يثبت له أنه على حق • فهتلر يناشد الله القدير أن يمنحه الشجاعة والقوة لانقاذ الشعب الألمانى وتصحيح نظام فرساى • وأخذ لانى ـ الذى سبق أن احتج بشدة على هذه المظالم ـ يتساءل الآن أليس من الجائز أن يفزع هتلر فرنسا وبريطانيا بحيث تقدمان على التنازلات الضرورية ، وعندئذ يستقر له الأمر ويهدأ ويخلد لحكم بلاده بما فيه صالح أولئك الملايين من « صغار الناس » الذين يتكلم عنهم بهذه الفصاحة •

ان ابن روبى بد زوج بارنز قد يتردد ، أما العمال الالمان فلا • لقد اجتمع منهم مائة الف فى حديقة ملاهى برلين مطالبين بالدفاع عن الجمهورية ضد أعدائها الخونة • وكتب يوهانس مصطنعا التعبير على الطريقة الامريكية: « ان شيئا ما يوشك أن يحدث فجأة • فالسيد العجوز فزع من احتمال مناقشة مسالة اعانة الضياع الشرقية أمام الريشتاج • وشلايخر يبحث مع نقابات العمال فكرة رفض الاستقالة والبقاء فى الحكم بمساندتهم • وقد قيل ان الكاثوليك وافقوا على الفكرة ، أما الاشتراكيون فيخشون الا يكون هذا الاجراء مشروعا • فما رايك أنت ؟ » وادرك لانى أن صديقه القديم يغيظه ، فلم يدل برأيه فى القانون الدستورى الالمانى •

ولم يذكر يوهانس ما كان يصنعه فى هذه الازمة ، ولكن لانى حدس أنه ماض فى برنامجه الخاص باستبقاء مودة جميع الاطراف • ولا شك فى أن لديه معرفة خارقة بالدسائس الجارية • وبين الحين والحين يطلبه لانى بالتليفون البعيد المدى ، وهو ملهاة كبار الاغنياء ، ويتحدث يوهانس بشىء من التعمية فيقول « صديقى فرينز شن يريد أن يصير الكلب الاكبر ، ولكن صديقه الناشر يريد ذلك ايضا ، وقد تحقق مشروعاتهمـــا بسبب عدم اتفاقهما » • فيدرك لانى أنه بابن وهوجنبرج • وعندما يستطرد يوهانس : « أنهما قد يشدان الرجل الطائش الى العربة ويسوقانه معا • » لايجد لانى

صعوبة فى فهم المراد ٠وسرعان ما قال يوهانس : « فكانما يطالع رواية تفيض بالدماء والعواطف على حلقات ، ولا بد له من انتظار الطبعة التالية ليعرف ترى هل تصل جماعة الانقاذ فى الوقت المناسب » ٠

- ٤ -

وفي الثالث عشر من يناير أذيع على العالم الماخوذ نبأ تعيين الرئيس هندنبرج أدولف هتلر مستشارا للجمهورية الالمانية ٠ بل ان النازيين أنفسهم استولت عليهم الدهشة ، فهم لم يدعوا للاشتراك فى الدسائس ، ولم يتصوروا أية قوة سحرية جعلت أعداء زعيمهم يرفعونه فجأة الى الحكم ٠ وصار فوانز فون بابن نائب المستشار ، ودخل هوجنبرج الوزارة ٠ وكان عدد الرجعيين تسعة مقابل ثلاثة من النازى فماذا عسى أن يكون ذلك ؟ لقد أكدت الصحف خارج المانيا أن معناه استسلام هتلر ، وانه خضع للاشراف والتوجيه ، وصار رامسى مكدونالد آخر ٠ وأثرت تلك الصحف فماذا عسى أن يكون مغزى ذلك ! لقد أكدت الصحف خارج المانيا ان معناه استسلام هتلر ، وانه خضع للاشراف والتوجيه ، وصار رامسى مكدونالد آخر ٠ وآثرت تلك الصحف الا تلتفت الى الاعلان الذى أصدره الفوهرر نفسه الى أتباعه بأن هذه الخطوة انما هى بداية الكفاح ، ولكن كتائب الهجوم التفتت اليه ، وانطلقت تقوم باستعراضاتها فى حبور شديد حاملة المشاعل فى شارع ظلال الزيزفون (اونتردن ليندن) ومر سبعمائة الف شخص فى موكب زاحف أمام مبنى المستشارية ، وهندنبرج ـ يحييهم من نافذة فيه ، وهتلر يحييهم من نافذة اخرى ٠ ومر نداء الشيوعيين الى اعلان اضراب عام من غير أن يلتفت اليه أحد ٠

وهكذا وقع ما كان لانى يخشاه فى السنوات الثلاث أو الاربع الاخيرة، واستولى النازى على المانيا ! ان معظم اصدقائه كانوا يعتقدون ذلك أمرا غير محتمل الحدوث ، اما الآن وقد حدث فهم يفضلون ان يعتقدوا ان ذلك غير صحيح ، وقالوا أن هتلر لا يملك زمام السلطة حقا ، وانه لا يمكن أن يبقى أكثر من اسبوع أو اسبوعين فى الحكم ٠ ان الشعب الالمانى اعقل من هذا ، والطبقات الحاكمة هناك اقدر واشد دربة من ان يسمحوا له بذلك ، بل سوف يكسرون من حدة تعصبه ، وعندئذ يمكن تناول الحساء وقد برد ٠

ولكن أدولف هتلر تسلم سلطة هامة جدا ، بل أهم ما تكون لديه ،

وسوف يحتفظ بها ، وتلك هي سلطة الدعاية ، فهو الآن الرئيس التنفيذي للحكومة الالمانية ، وأيما منشور يجب اصداره يحتل الصفحة الاولى من جميع الصحف • وهرمان جورنج صار وزير الداخلية لحكومة بروسيا وفي وسعه أن يقول للعالم أجمع عن طريق الاذاعة « الخبز والعمل لمواطنينا، والحرية والشرف للامة ! » والقزم يوب جيبلز رئيس لجنة الدعاية في الحزب الفي نفسه وزير الدعاية والارشاد القومي للجمهورية الالمانية • وحركة النازي خلقتها الدعاية ، والآن ستغمر هذه الدعاية المانيا كلها كأنها الانفجار •

وأبى هتلر أن يتنازل عن شيء للاحزاب الاخرى،وبذلك اجبر هندنبرج على حل الراشستاج والامر باجراء انتخابات جديدة • ومعنى هذا أن تظل البلاد شهرا في دوامة المعركة الانتخابية • ولكن ما أشد اختلاف هذه المعركة عن سابقتها ! لا مشكلة من حيث الموارد المالية ، لا لدى هتلر الآن موارد الامة ، وخطبه التنديدية صارت وثائق رسمية • وفي مقدور جيبلز ان يقول الآن ايما شيء يشاء عن أعدائه ويمنع اذاعة ردهم • وفي مقدور جورنج وهو المسيطر على شرطة برلين أن يلقي بخصومه السياسيين في السجن فلا يدري أحد أين هم • وهذه هي الامور التي ظل آدي شيكلجروبر يحلم بها منذ نهاية الحرب العالمية ، واين ـ فيما عدا ألف ليلة وليلة ـ حدث لرجل قط أن يستيقظ من منامه ليجد مثل هذه الاحلام قد تحققت ؟

ـ ٥ ـ

كان لاني بد يعيش في الظاهر حياة شاب من أهل الوجاهة ، فيصحب زوجته الى حفلات شتى ، وعند ما تقيم الحفلات يؤدي دور المضيف بوقار • ولما كان قد انقضى على زواجه زهاء أربع سنوات فقد كان من حقه أن يستمتع بشيء من المغازلة الخفيفة مع فاتنات شتى من سيدات المجتمع ، وكن يتوقعن ذلك منه ، ووسامته وعذب حديثه يسوغان له توقع النجاح في ذلك الغزل ، ولكنه بدلا من ذلك يتخير دبلوماسيا أو رجلا من رجال الاعمال فيختفي معه داخل المكتبة كي يتناقشا في مشكلات أوربا • وكان هؤلاء السادة يؤخذون بما يتمتع به هذا الشاب من سعة المعلومات ، الا أنهم يرونه قلقا بغير موجب من جهة هذه الحركة النازية الجديدة • فهم قد عرفوا ما الثورة الفرنسية ، وما الثورة الروسية ، بيد أنهم يجدون

عناء في معرفة حقيقة ثورة تحدث على حلقات صغيرة وتحت ستار بارع من التخفي • ولا يكاد يوجد من ذوى الثراء أو المكانة في فرنسا من لا يتقبل النازية على انهار رد رجل الاعمال على البلشفية • وعندما يطالعون في الصحف أن الشيوعيين يطلق عليهم الرصاص لاعدامهم بكثرة في أنحاء المانيا يهزون اكتافهم على طريقتهم الفرنسية ويقولون : « ثم ماذا ؟ اترى يشكو الحمر الآن من مجافاة الوسائل الشرعية ؟ » •

ودفع لانى مبلغا طائلا سدادا لحساب الاحاديث التليفونية مع اصدقائه في برلين ، وتلك كانت وسيلة اسرافه الوحيدة ، وقد تعلمت ايرما كيف تشاركه اياها ، فتتناول المسماع عندما يفرغ من حديثه وتسأل راحيل عن طفلها ، او تسأل ماما عن اى شيء لأن لهجة ماما الغريبة في التحدث باللغة الانجليزية كانت تطربها كأنها « نمرة » من نمر الفودفيل • وكان لانى قلقا جدا على سلامة أصدقائه ولكن يوهانس قال له : « لا ! لا ! تشغل بالك ، فلدى ضمانات لا استطيع أن اخبرك بها • انا لابس طاقية الاخفاء» ويروى تفصيلات آخر مستحدثات حيل هؤلاء النازى ، الذين لا يستطيع مغالبة اعجابه بمهاراتهم وكفاءتهم : « لا • انهم لن يحلوا الحزب الشيوعى ، لان أصواتهم في هذه الحالة ستذهب الى الاشتراكيين ، ويتكرر المأزق القديم في الرايشستاج • اما ان تركوا نواب الشـــيوعيين ينتخبون ثم اقصوهم عن مقاعدهم ، فسوف تكـــون للنازى الاغلبية بين الباقين في المجلس ! ما هذا الذى تقول عن سلخ جلد القطة ؟ هناك تسمة طرق للقيام بسلخه ؟ » •

والى متى يسمح ليهودى – حتى ولو كان اغنى اغنيائهم – ان يروى أدق أسرار الفوهرر عن طريق التليفون لباريس ؟ تساءل لانى عن ذلك ، وتساءل عن الطاقية السحرية التى يخال يوهانس أنه يرتديها • أفلا يكون خادعا نفسه مثل كثيرين غيره ممن اودعوا ثقتهم في المغامرين السياسيين؟ ومن من بين ذوى النقود النازيين يكن ادنى احترام ليهودى ، أو يظل على عهوده معه اكثر مما يناسب اغراضه بدقيقة واحدة ؟ ان الالتجاء الى مستغل ثرى لطلب المال لحزب منبوذ مكافح شيء ، وأداء الدين بعد الوصول الى مركز السلطان في الدولة شيء آخر ، كما يقول اليهود في نيويورك •

لقد كان لانى قلقا على الخصوص بشأن هانسى الذى لم يكن من الجنس البغيض فحسب ، بل من الحزب البغيض أيضا ، وقد أعلن ذلك عن نفسه من فوق المنابر العامة • وقد التفتت اليه الصحافة النازية ووصفته بأنه عازف ربابة من الدرجة العاشرة لا يستطيع ان يعزف عزفا

سليما من النشاز • فهل يسمحون له بالمضى فى الخروج على النسق المنغوم فى اجتماعات الحمر ؟ لقد أطلقوا العنان الآن لافراد الهجوم ليصبوا نقمتهم على الحمر ، وكم من الوقت سيمضى قبل ان يخطر لوطنى متحمس أن يمنع هذا الخنزير اليهودى من تدنيس الموسيقى الالمانية ؟

وكتب لانى يرجو هانس القدوم الى باريس ، وكتب الى بيس التى اعترفت له بخوفها ، ولكنها حفيدة المتطهرين (البيوريتان) الذين لم يفروا امام الهنود الحمر • وبينت له أنها وزوجها شاركا فى نشر الشيوعية ببرلين ، أفلا يعتبر التخلى عنهم الآن فى ساعة المحنة أبعد ما يكون عن البطولة ؟ ورد عليها لانى قائلا ان الفنان الكبير مخلوق من نوع خاص مختلف عن الانسان المحارب ، ولا ينبغى اخضاعه للقانون العسكرى • وكتب لانى الى « ماما » يقول لها أن من واجبها ان تتولى تصريف أمور الاسرة فى وقت كهذا • ولكن توجيه الابناء الحمر لم يعد الآن سهلا على نحو ما كانت الحال على عهد موسى والوصايا العشر •

واتفق فى ذلك الحين أن كبيرة مغنيات فى الاوبرا الايطالية التى لها شهرة كبيرة فى باريس أصيبت فى حادث سيارة ، وشاءت العناية الرحيمة الا تكون اصابتها بالغة الخطورة ، وانما هما ضلعان لها فحسب اللذين كسرا مما يمنعها من الغناء فترة من الزمن • وظهر هذا النبأ فى الصحف وقت وجود لانى وايرما فى بيانفينى وكانا قد توجها الى هناك لرؤية الطفلة وحضور احدى حفلات اميلى الاجتماعية • وتذكر لانى ان المغنية كانت متعاقدة على الظهور فى أحد برامج الاركسترا السيمفونية بباريس ، فلابد اذن من أحد يحل محلها ، فطلب من اميلى أن تستخدم التليفون بعيد المدى ، فهى تعرف قائد هذا الاوركسترا ، وتقترح عليه احلال هانسى روبن محل المغنية المصابة ، ولما كانت مسز شترزوورث راعية معروفة للفنون ، فقد كان من الطبيعى ان تعرض التبرع للجمعية السيمفونية بمبلغ يضارع الاتعاب التى يتوقع هانسى روبن الحصول عليها •

وأبرمت الصفقة ، وشرع لانى يتصل بهانسى تليفونيا، بمعدل عشرين فرنك لكل دقيقة من الحديث ، كى يقنعه بوجوب تقديم الموسيقى الالمانية فى فرنسا ، وان كل عرض من هذا النوع خدمة للثقافة العالمية ، وخدمة أيضا للجنس اليهودى الذى بات فى مسيس الحاجة الى اثارة العطف عليه دوليا ، وبعد ظهوره فى باريس ستقيم اميلى سهرة فى ضيعتها « البلوطات السبع » كما أن اتفاقات أخرى ستسهم فى جعل رحلته تستحق العناء

المبذول فيها ، فأجابه عازف الفيولينا المتلهف على وقف ما فى المحادثة من اتفاق مسرف للفرنكات : « وهو كذلك • أنا متفق على العزف فى كولون ، وهي في منتصف الطريق • » فقال لانى : « ناشدتك الله ان تتجنب السير فى الشوارع ليلا ، والا تخرج بمفردك ! » •

- ٦ -

أفتقد لانى مصدر أخباره من داخل المانيا ، لان حكومتها منعت نشر صحيفة « التقدم » الاشتراكية ثلاثة أيام لنشرها نداء انتخابيا للحـزب الديمقراطى الاشتراكي • ومنعت الاجتماعات الشيوعية فى طول البـلاد وعرضها ، وأوقف صدور كثير من الصحف الشيوعية والاشتراكية نهائيا• واعلن الفوهرر « أنه فى مدى عشر سنوات لن تكون فى المانيا ماركسية •» وكان جورنج يقوم فى بروسيا كلها باحلال رؤساء للشرطة من النازيين محل الرؤساء الحاليين ، وكتائب الهجوم تحضر الاجتماعات بكامل أهبتها وتفض منها ما يجرى فيه انتقاد الحكومة • وبعد ذلك منعت اجتماعـات المركزيين والحزب الكاثوليكى ، والغيت صحيفة الكاثوليك « جرمانيا » التى كان بابن أهم أصحاب الاسهم فيها • ومن بعدها الغيت صـحيفة « العلم الاحمر » وهى صحيفة الشيوعيين فى برلين وأذيعت هذه الاحداث تحت أضخم العناوين فى صحيفة « الاومانيتية » وندد بها الحال جيسى فى مجلس النواب بغضب شديد ، ولكن يبدو ان ذلك لم يكن له أدنى تأثير فى هتلر •

لقد كان النازيون مصممين على شيء واحد ، وهو كسب الانتخابات التى ستجرى اليوم الخامس من مارس ، لانهم ان حصلوا على الاغلبية فى الرايشستاج فقد صاروا سادة البلاد ، ويتم اقصاء الوطنيين والارستقراطيين عن الوزارة وبذلك تتم الثورة • وكان بابن وهوجنبرج وأنصارهما يعرفون ذلك تمام المعرفة ، وكانوا فى محنة شديدة كما يقول يوهانس • ويالهـا من حالة غريبة : فأعضاء نادى السادة يدافعون عن الحمر لانهم يعلمون ان هتلر يستخدم الغول الاحمر لتخويف الشعب كى يمنحوه أصواتهم ! وجوبلز يطالب برأس مدير شرطة برلين لانه لا يريد تقديم ما يثبت اعمال الخيانة على الشيوعيين • وكاتب رجل المال اليهودى يقول : « ان تاريخ المانيا يوشك ان يصبح ميلودراما ، وسيرفض الناس فى المستقبل تصديق هذا التاريخ • » فالرجل قد بدأ الآن يقلق من جهة امكان وقوع هجوم

على ولديه ، وهما اللذان يعبثان بالنار من غير ان يدركا الى أى حد يمكن أن تكون محرقة ، مع انهما وقد بلغا الآن الثامنة والعشرين والسادسة والعشرين من عمريهما كان ينبغى أن يثوبا لرشدهما • ولم يقل يوهانس أن أخت لانى غير الشقيقة هى التى قادتهما الى أسوأ حالات التطرف ، ولكن لانى يعلم أنه يعتقد ذلك ، ولم يكن اعتقاده بلا أساس • ومهما يكن من شىء فلديه فى القصر حارس موثوق به ، وهو حارس آرى لا شك فى آريته الراسخة • ومدرسة لانى اغلقت ، وكانت عملية اغلاقها بسيطة جدا ، فقد حضر جماعة من كتائب الهجوم وأمروا الناس بالخروج منها ، ولم يكن بوسع أحد عمل شىء لانهم مسلحون ومتلهفون على استخدام أسلحتهم فخرج الجميع من غير ان يسمح لهم بارتداء قبعاتهم ومعاطفهم فى شهر فبراير ، واغلق المبنى ، وحملت جميع الاوراق فى سيارة شحن •

ولن يجد النازيون دليل خيانة فى هذه الوثائق ، وانما هى ايصالات وأوراق امتحان فى النظرية الماركسية • ولكن هذا قد يكون الآن دليل خيانة ! أو لعل النازى يعدون وثائق اخرى يدسونها فى الملفات كان يكون ذلك أوامر صادرة الى الطلاب بنسف مقر قيادة النازى ، أو ربما دار المستشارية ؟ فمثل هذه التزويرات أعدت فى الماضى أكثر من مرة ، وليس فى المانيا وحدها • ألم يتم كسب الانتخابات فى بريطانيا على أساس « خطاب زينوفيف » المزعوم ؟

ان مقر قيادة الحزب الشيوعى فى المانيا فى « بيت كارل ليبكنشت »، وهذا هو المكان الذى يجب ان تنشد فيه الخيانة • واستولى الشرطة على وثائقه ، وبعد يومين نشرت صحافة الهر جوبلز التفصيلات عن «سراديب القبور » و « الاقبية تحت الارض » والتنظيم السرى غير الشرعى الذى يعمل فى بدروم المبنى وما الى ذلك • وذكر يوهانس فى خطاباته أمر الجدل المرير الذى ثار فى اجتماع الوزارة حول هذه التزويرات الفاضحة والتى اعتبرت دون مستوى الوقار اللازم للحكومة الالمانية ، ولكن لعل الحكومة الالمانية لن تتمسك بالوقار من الآن فصاعدا ! ولم يغالب المالى اليهودى اظهار سروره باندحار « الجوكى السيد المهذب » و « الثعلب الفضى » وبقية زمرة اليونكر • فهم الذين أعدوا هذا الفراش من الورد، ثم اكتشفوا بعد فوات الاوان كثرة ما به من الشوك •

والامر الذى اقلق لانى جواز ابراز عميل نازى خطابات تثبت أن هانسى روبن كان يحمل الديناميت فى صندوق فيولينه ، أو أن فريدى يحمله فى صندوق كلارينته ، فلا بد أنه كان للنازى جواسيس فى

المدرسة وهم على علم بكل ما كان الشابان يقولان ويصنعان • وقال لانى : « لماذا يا يوهانس لا تاتى أنت وأسرتك كلها لزيارتنا برهة ؟ » فأجابه رجل المال ضاحكا : « ربما قمنا برحلة باليخت عند ما يتحسن الجو » فقال لانى بالحاح وهو على طرف الخط فى باريس : « بل سيزداد الجو سوءا » •

- ٧ -

تحدث لانى فى هذه المشكلة مع زوجته ، ولم يكن فى مقدورها بسهولة أن ترفض استضافة آل يوهانس التى قبلت من جانبهم الشىء الكثير بيد أنها لا تحب الجو الذى يجلبه آل روبن الشبان معهم ، وكانت تراهم ذوى تاثير سىء على زوجها • وجادلته قائلة ان الخطر لا يمكن أن يكون كبيرا حقا على نحو ما يخشى لانى « فان كان النازيون قلقين متلهفين على الاصوات ، فلا يمكن أن يؤذوا الاشخاص المهمين ولا سيما المعروفين فى الخارج » فأجابها لانى « ان الحزب ملآن بالمجرمين والمنحلين ، وقد أثملهم الاحساس بالسلطة » ولم يستطع أن يكف عن القلق ، ولما اقترب يوم قدوم هانسى قال لايرما « ما رأيك فى الذهاب معى بالسيارة الى كولون فناتى بهما معنا ؟ » فسألته وماذا فى مقدورنا أن نصنع يا لانى ؟ « فأجابها فى كثرة العدد نوع من الامان • ثم ان الامريكيين لهم لون معين من الهيبة فى المانيا » •

ولم يكن الوقت مستحبا للرحلة بالسيارة فى أواخر فبراير ، ولكنهما كانا يتمتعان بالتدفئة الصناعية فى سيارتهما ويرتديان معاطف الفراء فلا باس عليهما مالم تثر عاصفة شديدة الوطاة • وكانت أيرما تحب المغامرة ، ومن الاسباب التى جعلتها هى ولانى موفقين الى هذا الحد البعيد أنه كلما اقترح أحدهما القفز الى سيارة بادر الآخر على الفور « هيا بنا » ولم يقف فى طريق هذه الرحلة أى ارتباط هام فسمحا لنفسيهما بيوم اضافى احتياطيا لسوء الحالة الجوية •

وكان بورياس العجوز رحيما بهما فدرجا فى وادى الميز الذى دخل الالمان فرنسا عن طريقه منذ ثمانية عشر عاما ونصف • وأخبر لانى زوجته بقصة صوفى تيمونز ، بارونة لاتوريت ، التى حبسها عن المضى فى طريقها اندفاع الجيوش وتمكنت من الفرار فى عربة فلاح يجرها حصان هرم متورم العرقوب •

وكان وصولهما الى كولون بآخرة من تلك الليلة ، وقضيا اليوم التالى فى مشاهدة كاتدرائية عظيمة ولوحات فى معرض للفن القوطى قريب منها . ووصل هانسى وبيس بقطار بعد الظهر ولزما جناحهما فى الفندق لايفعلان شيئا يلفت النظر الى أحد أفراد الجنس اللعين . اما بين محبى الموسيقى فسيكون هانسى بخير لانهم « أوربيون صالحون » ظلوا قرنين من الزمان يشيدون صرح تقاليد دولية » .

فهل كان جمهور السامعين يحاول التعبير عن ذلك بعواطف التصفيق التى حيوا بها أداء ذلك العازف اليهودى النابغ الشاب الكونشرتو مندلسن الرشيق ؟ وهل كان هذا الاعتبار فى ذهن هانسى عندما عزف « كول نيدرى » لبروخ فى احدى اعاداته ؟ وعند ما وثب جمهور السامعين واقفين على أقدامهم وهتفوا « برافوا » هل كانوا يعنون حقيقة أن يقولوا « اننا لسنا نازيين ! ولن نكون نازيين ! » وقد آثر لانى أن يصدق ذلك وانشرح صدره . وكان واثقا ان كثيرين من اهالى الراين المعجبين تعمدوا الانتظار عند باب المسرح واصطحاب الشبان الاربعة الى سيارتهم . ولكن فى الشارع المظلم تحت وابل المطر البارد داهمته الشكوك مرة أخرى وتساءل هل يحمل أهل الراين الودودون مسدساتهم لحمايتهم ؟ ومهما يكن من شىء لم تتعقبهم سيارات النازى ، ولم يكن احد من كتائب الهجوم فى انتظارهم عند فندق مونوبول . وفى الصباح التالى ركبوا السيارة الى الحدود ولم يقم احد بتفتيش صندوقى فيولينتى هانسى بحثا عن الديناميت ، وجرت الأمور فى مجراها الرتيب من حيث اعلانهم عن النقود التى سيأخذونها معهم الى خارج البلاد ثم تسلمهم رجال الجمرك البلجيكى . وتذكر لانى اليوم الذى تلقى فيه الامر بمغادرة ايطاليا وكيف كان ارتياحه بالغا عند ما رأى الازياء العسكرية الفرنسية وسمع الاصوات الفرنسية وها قد مرت ثمانى سنوات ولم يزل بنيتو كالحمام الهزاز يعلن بغطرسة ان خليفته لم يولد بعد . والآن ها هى اعماله تتكرر بحذافيرها فى بلد أقوى من بلده بكثير ، وتدور الشائعات بانه يبذل النصح للحركة الجديدة . ترى فى كم من البلاد الاخرى سيرى لانى بد ذلك النمط يحتذى ؟ وكم من التعديلات ستحدث له ؟ وهل سيتخذ اليابانيون غزاة منشوريا قمصانا اخرى مستحدثة الالوان ، أو سيتخذون الكيمونو الملون ؟ وهل ستشهد فرنسا قيام الصليب النازى ؟ ام ستشهد انجلترا تفوق جماعة موزلى ؟ وان حدث هذا فالى اى بقعة من العالم يمكن أن يلوذ محبو الحرية ؟

بدا هانسى بقامته الطويلة النحيلة امام الجمهـور فى القـاعة السيمفونية ، وهو جمهور من الباريسيين المتزمتين المتحفظين فى تحياتهم. وفى الصف الامامى جلس لانى وايرما وبيس متوفزى الاعصاب جدا . وكان مظهر هانسى وقورا ، وكذلك انحناءاته فهو يعلم ان هذا العرض هام ـ ولكنه لم يكن مفرط العصبية بعد ان عرف بمرور الوقت مايستطيع أن يحققه . وكان القائد فرنسيا خصص حياته الطويلة لخدمة الفن الذى يعشقه فابيض شعره ، وصار ما تبقى منه أشبه بسياج يحيط بيافوخه الاصلع اللامع من أسفل . ودق الرجل النوته الموسيقية ثم رفع العصـا وانطلقت اربع نقرات من الطبلة الصغيرة ثم اعقبتها انغام قليلة من انشودة للسير خجول ، ثم اربع نقرات أخرى ومزيد من النغمات ، انه كونشرتو الفيولينه لبتهوفن .

ولبث هانسى واقفا ينتظر وفيولينته فى ثنية ذراعه وقوسـه الى جانبه . وكانت المقدمة مستفيضة ولم يحاول ولو بحركة من عينيه أن يحول انتباه الناس عن النغمات . وكان لانى بد ، وهو جالس فى الصف الامامى مع زوجته وبيس ، يعرف كل نغمة من هذه المعزوفة . وكان قد عزف على البيانو الجزء الاوركسترالى منها لهانسى فى ضيعة « ليه فوريه » فى ذلك اليوم الحاسم منذ سبع سنين الذى التقت فيه بيس بالفتى هانسى لاول مرة ووقعت تحت تأثيره السحرى . وهذا من بين الاسباب التى جعلت هانسى يكن لهذا الكونشرتو منزلة خاصة ، وأشرب اداؤه له بالحب ، على نحو ما يصنع الحب لكل ما يلامسه .

واكتسب السير خطوة بيتهوفن الثابته ، وأرعد الاوركسترا ، وود لانى أن يقول « حذار يامايسترو . لم تكن لدى الرجل كل هذه الآلات! » ولكن يدى القائد المعبرتين اشارت للفريق بالهوادة عند ما مست قوس هانسى الاوتار ، وانبعثت الانشودة بهيجة بيد أنها حنون ، رقيقة بيد أنها قوية . وهذه هى الصفات العالية التى تحلت بها روح بيتهوفن التى يكبرها هانسى . وتغنت القيثارة وجعل الاوركسترا يعلق على غنائها ، وتناقلت آلات شتى أداء النغمة المتوافقة المعذبة ، فى حين راح هانسى يطرز الوشى بالنغمات من حولها ، ويرقص محدقا بها ومن فوقها ومن تحتها ، قافزا ومحلقا فى حركات بهلوانية مرحة بارعة . والكونشرتو وسيلة مبتكرة لاستعراض امكانيات اية آلة موسيقية ، ولكنه فى أفضل

صوره قد يستطيع أيضا تصوير امكانيات العقل البشرى بأفراحه وأحزانه وكدحه وانتصاراته وامجاده وعظمته • ان الرجال والنساء يكدون فى عملهم اليومى الرتيب فيستولى عليهم الاعياء وخمول الحس والاستهانة بالقيم أو ما هو شر من ذلك • ثم يأتى فكر جبار فيفتح أبواب وجودهم امام أعينهم فيدركون أى شيء رائع كاد يفوتهم فى حياتهم •

لقد قضى هذا الشاب الحساس اكثر من عشرين سنة مخصصا حياته كلها لاتقان مهارة واحدة محددة ، فجعل من نفسه عبدا لبضع قطع من الخشب وشذرات من امعاء الخنازير وشعرات من ذيول الخيل • وبمثل هذه الوسائط غير المقبولة استطاع بيتهوفن وهانسى أن يعبرا عن الثراء والاناقة والتنوع فى حياة البشر ، فصحباك الى مصنع الكون حيث ترسم تصميمات المعجزات وتنفذ والى ينبوع ذلك الانتاج الضخم الذى يبرز الى الوجود ربوات من فروع الاشجار وأوراق الازهار واجنحة الحشرات والطيور وانماط بلورات البرد والمنظومات الشمسية • لقد أماط بيتهوفن وهانسى اللثام عن عمليات هذا الجهاز الضخم الذى يتدفق منه طوفان لا ينقطع من اللون والرقة والقوة والرونق •

وكان لانى قد مازح زوج شقيقته كثيرا حول اسم عائلته بحيث لم تعد هذه القفشات اللفظية تخطر بباله على أنها قفشات • ولم يكن فى منظر هانسى شيء يدل على انتسابه الى « الهزار » المغرد (واسمه بالانجليزية روبن) ولكنك عند ما تصغى لموسيقاه تتذكر ان أجنحة الهزار بدع فى خفتها ورشاقتها وان كل ريشة تمثل انتصارا قائما بنفسه • وقلب الهزار قوى ، فهو يطير طويلا بغير توقف ويمضى فى طيرانه الى أرض بعيدة وراء البحار • وهانسى روبن يحلق عاليا فى الطبقات العليا من النغمات التوافقية حيث تكون الهواس أرهف بكثير من المعهود على وجه الارض • وعزف هانسى السريع على الفيولينه يتجمع فيه ما للطيور كلها من قدرة على الانقضاض والارتفاع ، وهزات أنغامه الطويلة أشبه برفيف أجنحة الطيور الطنانة التى تبدو قرمزية وخضراء وذهبية فى ضوء الشمس حين تحلق فتبدو وكأنها لا تتحرك ، وفى كل لحظة تتوقع منها أن تندفع مبتعدة ، بيد أنها تبقى وكأنما بقاؤها بسحر ساحر •

- ٩ -

كان هانسى يعزف الكادينة المطولة ، ولا يسمع سوى صوت عزفه فى القاعة كلها ، فأفراد الاوركسترا جالسون كأنهم اصنام وكذلك

جمهور السامعين ، والنغمات الطائرة تصعد السلم الموسـيقى وتهبطه مندفعة ، تصعده كالريح حين ينبعث رفيفها بين أشجار الصنوبر على جانب الجبل ، وتهبط كمساقط الماء يتطاير منها فى شعاع الشمس ما يشبه ألوفا من قوس قزح · وكان بيتهوفن قد أدى ببراعة ذلك التداخل بين النغمتين المتقابلتين وها هو هانسى يؤدى ببراعة تلك الهزات الصوتية باصبعين فقط ويحدث التوافق فى النغم بالاصبعين الآخرين · ولا يستطيع أن يدرك سوى المشتغل بالموسيقى كم من السنين ينقضى فى عمل شاق لتدريب الاعصاب والعضلات على مثل هذا « التوقيف المزدوج » ولكن كل سامع يستطيع أن يدرك كم هو جميل ذلك الاداء وكم هو جامح فى الوقت نفسه ·

وكانت الحركة الثانية صلاة يمتزج فيها الاسى بالتشـوف · وعن طريقها استطاع هانسى أن يعبر عما يثقل روحه فيقول ان العالم شاق وقاس · وراحت رياح الغابة تئن : « ولدنا للاحزان · ولدنا للاحزان » وفيولينة هانسى تحلق نغماتها حول أنين الريح وتغمغم بالرثاء ، ولكن المرء لا يبكى طويلا مع بيتهوفن لانه يحول الألم الى جمال ، ومن العسير أن تجد فى كنوزه كلها عملا واحدا يغادرك فريسة اليأس · فها هى نفحة من الشجاعة والعزم تهب ، وها هو الاسى ينقلب الى رقص · لقد شعر مؤلف هذا الكونشرتو بالمذلة واثار غضبه استيلاء جنود نابليون على مدينته الحبيبة فينا تلك المدينة الجميلة ، فخرج الى الغابة بمفرده وذكر نفسه بأن قاهرى العالم يغدون ويروحون ، أما الحب والفرح فيعيشان فى قلوب البشر ·

« تعالوا وامرحوا · تعالوا وافرحوا · تعالوا كلكم وارقصوا معى!» هكذا راح لانى يسلى نفسه باكتشاف الفاظ لهذه النغمات الموسيقية · واستمر ذلك الرقص فوق مروج مفروشة بالأزهار ، تطرد فيها النسمات ومخلوقات الطبيعة تشارك فى هذا الموكب البهيج فترفرف الطيور فى الهواء ، والارانب وغيرها من الكائنات اللطيفة تتواثب على الارض موليه· وأقبلت زمر من الشباب متشابكة الايدى فى أردية فضفاضة هفهافة « أيها الفتيان والفتيات · أيها الفتيان والفتيات تعالوا أضحكوا وغنوا ورقصوا معى ! » وفى ذاكرة لانى ستظل حيـة الى الأبد اهتزازات « ايزادورا » الجامحة · وعند ما طفت عاصفة الاوركسترا فاغرقت فيولينة هانسى شعر السامع بأنه وثب الى قمة جبل ، ومن تلك القمة الى قمة وراءها ، وهكذا دواليك ·

ولابد أن سواه من السامعين حدثت لهم مغامرات من هذا القبيل . فعند ما رنت النغمة الاخيرة هبوا واقفين على أقدامهم وراحوا يعبرون للفنان عن احساسهم ، وتبين لانى أن زوج أخته أحرز نصرا • وبدا شخصا عذبا رقيقا وقد أحمر وجهه من الاجهاد ، فبدا أشد نحولا من عادته ، وظهر عليه العبء الذى يرزخ تحته في حياته • ويبدو أن الناس أدركوا انهم بازاء شخص لا يفسده الاطراء ، ولن يطغيه مجده فيمسى مغرورا ضجرا ، بل سيعيش لمحبة فنه وخدمته • وأدركوا أن هتافهم لهذا النابغ الشاب نوع من التأييد لقضية الحرية والكرامة الانسانية ، وفكر لانى في المؤلف الموسيقى العظيم صديق البشر وبطل المضطهدين ، وكان هذا الكونشرتو قد عزف عزفا سيئا فى مدة حياته ، فما كان أحراه أن يفرح حين سمعه يؤدى على يد عازف منفرد وقائد أوركسترا ليس امام أحد منهما نوته موسيقية • ثم بعد ذلك خطر للانى « وماذا يقول بيتهوفن لو رأى ما يحدث الآن فى أرض مولده ؟ » وبذلك طارت أحلام الفن وحلت محلها الحقيقة المؤلمة • وقال لانى فى نفسه « ان الروح الالمانى سقط فى قبضة هتلر ! وما الذى يستطيع ان يمنحه أياه سوى جنونه وشذوذه ؟ وما الذى يستطيع أن يصنعه به سوى أن يجعله صورة من نفسه الملتوية ؟ » •

- ١٠ -

كان هانسى يريد دائما أن يعود الى البيت مباشرة بعد الانتهاء من كل عرض موسيقى لما ينتابه من الاعياء ، فلا يطيب الجلوس فى المقاهى الساهرة •ودخل القصر وأوشك أن يذهب الى حجرته حين دق التليفون• وقيل أن برلين على الخط فقال هانسى « هذا أبى يريد أن يعرف كيف كان الكونشرتو » وكان على صواب فى ذلك ، فقد أخبر أباه ان كل شىء مضى على مايرام • ولم يسأله يوهانسى عن التفصيلات فقد كانت لديه أنباء يفضى بها « مبنى الرايشستاج يحترق فهتف الابن « يا الله ! » والتفت الى الآخرين وكرر على اسماعهم كلمات أبيه الذى قال بعد ذلك « والنازيون يقولون ان الشيوعيين هم الذين أشعلوا النار فيه » فقال هانسى « ولكن هذا جنون يا أبى ! » فقال أبوه « ينبغى الا أتحدث فى هذا الخصوص ، وستجد الانباء فى الصحف وتستنتج منها ما تشاء • والمبنى يحترق منذ ساعتين ويقال أن رجالا شوهدوا وهم يحرقونه بالمشاعل » فصاح هانسى « انها مؤامرة ! » فقال ابوه « لا أستطيع أن أجزم • ولكنى سعيد لانك لست هنا ، فيجب أن تبقى حيث أنت فى الوقت الحاضر • فالحالة رهيبة » •

ولم يأو هانس الى فراشه فترة طويلة بل جلسوا يتحدثون ، واتصل لانى بأصدقائه فى صحيفة البوبيلير للحصول على مزيد من التفصيلات ٠ والمعتقد أن المبنى العظيم تقوض ، والحكومة تتهم بذلك الحريق العمد مبعوثين من قبل الشيوعية الدولية ٠

وكان الشبان الاربعة جميعا يعرفون ذلك النموذج الضخم لطراز بسمارك فى فن العمارة ، فوسعهم ان يتصوروا المنظر ووقعه هناك وفى غير ذلك الموضع أيضا من المدينة ٠ وقالت بيس «انها فرية» فالشيوعيون ليسوا ارهابيين ووافقها لانى على رأيها ٠ أما ايرما فايا كان رأيها فقد احتفظت به لنفسها ٠ فلا مفر من أن يقول جميع الشيوعيين انها مؤامرة ، وان يؤكد جميع النازيين العكس ٠ وقال هانسى « المسألة واضحة حقا ! فالانتخابات ستتم بعد أقل من ستة أيام، وهؤلاء الاوغاد مستميتون للعثور على وسيلة ليشوهوا بها سمعتنا ! » وقالت بيس باصرار « ولكن العمال لن ينخدعوا ! فحزبنا متماسك » وقال لانى فى نفسه « انها اسـطوانة الجراموفون المعهودة ! » الا أنه قال بصوت مسموع « ان الحالة فظيعة كما يقول أبوك ، والليلة سيهاجمون مراكز الحزب الشيوعى فى جميع أنحاء المانيا ، فمن حسن حظك أن لديك هذا العذر الحسن للغياب » بيد أن الموسيقيين لم يبتسما لهذه الفكرة لانهما فى دخيلة نفسيهما كانا يشعران بوقع اللطمات التى يعلمان أنها لابد منها له على رفاقهما فى الحزب ٠

- ١١ -

ان ما حـــدث فى مبنى الرايشستاج فى تلك الليلة من الســـابع والعشرين من فبراير سيظل موضع خلاف فى الرأى خارج المانيا وداخلها لسنوات طويلة قادمة ، ولكن لا محل للشك فيما حدث فى غير ذلك المكان ٠ ففى الوقت الذى كان فيه الشبان الاربع يتبادلون الحديث فى باريس كان قائد كتائب الحرس فى برلين الكونت هلدورف يصدر أوامره بالقبض على البارزين من الشيوعيين والاشتراكيين وكانت قوائم الضـحايا قد أعـدت سلفا ، وكذلك أوامر القبض ومع كل أمر منها صورة فوتوغرافية للضحية المقصودة ٠وقال الكونت انه يعلم أن الماركسيين هم الجناة المجرمون ، واعلن جورنج أن الهولندى المعتوه الذى عثر عليه فى المبنى ومعه ثقاب وأدوات اشعال النيران كان يحمل بطاقة عضوية فى الحزب الشيوعى ٠ وقد اتضح عدم صدق هذا القول ٠ ولكنه أدى الغرض منه فى حينه ٠

وفى اليوم التالى اقنع هتلر هند بنورج بتوقيع مرسوم « لحماية الدولة من الخطر الشيوعى » وبعد ذلك جرى كل شيء على ما يروم النازيون ، فغصت السجون بالمشتبه فيهم • وبدات اقامة معسكرات الاعتقال على قدم وساق • واصدرت حكومة بروسيا التى على رأسها جورنج بلاغا بخصوص الوثائق التى عثر عليها عند الاغارة على بيت كارل ليبكنشت قبل الحريق بثلاثة ايام ، واتضح منه ان الشيوعيين كانوا يعدون لاحراق الابنية العامة فى جميع انحاء المانيا واشعال حرب اهلية وثورة على الطراز الروسى وان السلب والنهب كانا سيبدآن مباشرة بعد الحريق ، وان أعمالا ارهابية كانت ستقترف ضد الارواح والممتلكات • ووعدت الحكومة البروسية بنشر هذه ان أدت الغرض منها ، الا وهو تبرير الغاء الحريات المدنية فى جميع انحاء ما كان يسمى الجمهورية الالمانية •

- ١٢ -

وبتسرب وقائع الاحداث الى صحف فرنسا وبريطانيا قضى الشبان من الحمر والورديين ساعات طويلة فى محاولة تفهم احدى المفتريات الكبرى للسؤال الاول على طيار الحرب العالمية الالمانى الذى فر الى السويد حيث أصبح من مدمنى المخدرات ودخل مصحا للامراض النفسية ، فهيرمان جورنج فى التاريخ ، أى عقل دبرها ؟ وأى يد نفذتها ؟ وتركزت شكوكهم بالنسبة لرجل شديد الجسامة ، مغرور بصورة مضحكة ، شغوف بالازياء العسكرية ذات الزخارف الكثيرة التى جعلته اضحوكة لاهل الفكاهة فى برلين • وهو أيضا رجل ذو طاقة هائلة ، فيه فظاظة وحشية ولا يعرف التحرج أو الندم ، فهو النمط الكامل لاولئك النهابين الذين خربوا حدود الامبراطورية الالمانية فى العصور الوسطى واضفوا على انفسهم الالقاب وصارت لهم الآن تماثيل ضخمة من الرخام الابيض فى طريق النصر المعروف لاهل الفكاهة فى برلين باسم « جبانة الفن » •

وقد حصل هيرمان جورنج على القابه التى يشتهيها ، فهو وزير بغير وزارة ، والمندوب الفيدرالى للنقل الجوى ، ووزير الداخلية البروسية • وهذه الالقاب تخول لصاحبها من السلطات ما كان على عهد السلب والنهب الغابر ، ولكن هذه السلطات تخضع الآن للاسف للانتخابات ، وفى يوم الاحد التالى قد يذهب البروليتاريا الى مراكز الاقتراع فيجردون هيرمان من أمجاده ، وذلك امر شديد الازعاج لرجل ذى ميول ارستقراطية وصديق

لولى العهد السابق ولتيسن • والذى حدث ان هذا الرجل العملى كان فى مركز يسمح له بالعمل لان مركزه الرسمى يتصل بمبنى الرايشستاج بممر طويل تحت الارض ، وتحت يده جيش حسن التدريب متلهف على تنفيذ أى أمر يصدره اليه • وما قيمة مبنى بالقياس الى مستقبل حزب العمال الالمانى الاشتراكى الوطنى ؟

والرجل الذى اسند اليه النازى فى النهاية الجريمة هولندى ضعيف العقل كان قد طرد من الحزب الشيوعى فى هولنده فهام على وجهه فى سائر أنحاء أوربا • وزعم الشرطة أنه عند التحقيق المبدئى ذكر قصة مفصلة عن اشعاله النيران فى ستائر مطعم المجلس بالثقاب ومشعلات النار ، ولكن المطعم لم يكن القاعة الوحيدة التى أحرقت بل حدث انفجار عنيف فى حجرة الاجتماع • وتحول المكان الرحب الى كتلة من اللهب والغازات المفجرة ولاحظ رئيس قسم الاطفاء فى برلين وجود أثر على شكل خطوط من البترول على ارض حجرات المبنى وبعد الحريق مباشرة أعلن أن الشرطة أخرجوا شحنة سيارة من مواد محرقة لم تشتعل كانت فى مسرح الحريق ، وبعد تصريحه هذا مباشرة أقيل من منصبه •

وكانت هذه هى التفصيلات التى أذاعها الراديكاليون الشبان فى الخارج بعد أن جمعوا أشتاتها ونشروها فى صحفهم ، اما فى داخل المانيا فجميع الصحف التى كان من الجائز أن تنشر هذه التفصيلات كانت قد أوقفت عن الصدور وزج بمحرريها فى السجون وتعرض كثيرون منهم لالوان قاسية من التعذيب ومن المؤلم أن تعلم أن رفاقك المثاليين الذين وثقت بهم وتبعتهم يضربون بخراطيم المطاط ، أو يرقصون فوق أجسادهم بأحذية ذات مسامير مدببة، ويركلونهم فى كلاهم الى أن تنخلع من مواضعها، وفى خصاهم الى ان يسحقوها سحقا • ولكن الاشد ألما من هذا أن تعلم أن الحقوق المدنية قضى عليها فى أمة من أرقى أمم العالم ، وان موطن جوته وباخ صار فى أيدى رجال قادرين على تدبير مثل هذه الفظاعات وارتكابها •

- ١٣ -

كان للحريق أثره المقصود من القاء موجة من الفزع فى قلوب الالمان جميعا • فليس النازى هم الذين يندون بالحمر فقط ، بل ان بابن وهو جنبرج أيضا يندون بالمتآمرين الحمر عن طريق الاذاعة فجميع وسائل الدعاية نشطت فى عقالها لاقناع الناخبين بان الوطن فى خطر ماحق من

الثورة الشيوعية واعلن يوم الجمعة « يوم يقظة الأمة » وسار النازى بالمشاعل على قمم الجبال وفوق الابراج العالية فى المدن واشعلت محرقات عظيمة اطلقوا عليها اسم نيران التحرير ، وراح هتلر يبتهل فى الاذاعة « يارب حررنا ! » « فنقلت مكبرات الصوت كلماته الى كل ميدان وساحة فى كل مدينة ٠

وفى يوم الاحد ادلى الناس باصواتهم ، وارتفع عدد الاصوات التى حصل عليها النازى من أثنى عشر مليونا تقريبا الى أكثر من سبعة عشر مليونا ، ولكن الشيوعيين خسروا نحو مليون صوت فقط ، ولم يخسر الاشتراكيون شيئا تقريبا ، والكاثوليك كسبوا فعلا على الرغم من جميع المصادرات ، فاتضح أن الشعب الالمانى ليس من السهل هزيمته بعد كل شىء ، فالنازيون مازالوا غير حائزين لاغلبية مقاعد الرايشستاج وبذلك لا يمكنهم تكوين حكومة من غير مساندة وموافقة الأرستقراطيين ٠ فماذا سيترتب على ذلك ؟

والجواب أن هتلر سيكون له ما يريد ، فهو ماض فى طريقه يوما بعد يوم نحو هدفه ٠ ولن يوقفه أحد ٠ وقد تثور هذه المعارضة فى مجلس الوزراء ، فيفعل ما كان يفعله فى مؤتمرات الحزب ، يجادل ويثور ويناشد ويندد ويهدد ، ويجعل من المستحيل على احد سواه أن يسمع له كلام ، ويثير من المقاطعات ما لا يمكن تحمله ، ويثبت أن باستطاعته الثبات ضد اية معارضة ، وان غضبه الجنونى لا يمكن السيطرة عليه ، وان ارادته لا تقهر ٠ ولكن وراء هذا الجنون الظاهرى عين فاحصه وذهن حصيف دقيق الحساب ٠ فآدى يعلم بالضبط ما يصنع والى أى مدى يمكن أن يمضى ، فاذا وجد المعارضة أقوى مما ينبغى انقاد ومنح الوعود ، ثم يتضح فى اليوم أن اتباعه ماضون فى تنفيذ ما يريد ، ثم يزعم أنه عجز عن السيطرة عليهم ٠ وأن كان الامر خطيرا مثل حريق الرايشستاج فهو لا يعلم عنه شيئا ، ويبدو ماخوذا تماما ، مذهولا ، مرتاحا ، ولكن الوقت يكون قد فات لان المبنى قد احترق فعلا ، والضحية ماتت ، وسبق السيف العزل ٠

وقد لبث أكثر من عقد من الزمن يدرب اتباعه على هذه الخطط ، فلابد لهم أن يكونوا عصابة من الاوباش لا يقفون فى غاياتهم عند حد ، وليس فى السماء ولا على الارض شىء مقدس سوى قضيتهم ، ولا عيب فى اية وسيلة تعين قضيتهم ولا صواب فى اية وسيلة تعرقل هذه القضية ساعة واحدة ٠ ولابد أنهم فرادى وجماعات أكفأ المجرمين وانشطهم ، واوقح الكذابين واشدهم اصرارا ، فهم على أستعداد لان يقولوا أى شىء فى براءة

مظهر وجمود ملامح ، وأن ضبطوا لا يعترفون بشيء بل يلقون الاتهام ضد الطرف الآخر فهو الكذاب وهو الشرير وهو القادر وحده على كل معصية . وادولف هتلر لم يعترف قط بشيء لاى انسان ، ولم يكذب مرة فى حياته . ولم يقترف قط فعلا غير لائق ، فهو نفس مقدسة لقد عاش وهو مستعد أن يموت فى سبيل قضية واحدة هى انتصار الاشتراكية الوطنية وتحرير الشعب الالمانى .

لقد ظل عشر سنين ينظم جيشيه السريين من الشبان،ويضمان بضع مئات الالوف من المتعصبين المتشبعين بهذه الروح وهما كتائب الهجوم ، وتشكيلات الحرس أو الدفاع . وهؤلاء هم الرجال الذين سينفذون ارادته ، وهم الآن يعرفون هذه الارادة جيدا بحيث يستطيعون العمل وهو يتناول طعامه او يستريح او ينام ، بل أثناء حديثه الى العالم اجمع أنه لا يريد منهم أن يصنعوا ما يصنعون فحتى لو طلب منهم ان يكفوا لمضوا قدما فى سحق آخر عد و للاشتراكية الوطنية داخل ارض الوطن ، وفى أخلاء الشوارع للكتائب البنية ، وهى الامل فى انشودة « وكر النسر » التى علمهم هتلر كيف ينشدونها .

- ١٤ -

سلسلة فظيعة من الاحداث ، وليس بكاف ان تجد نفسك فى أمان جسديا من غوائلها ان كنت ذا نفس حساســه . وعاف هانسى وبيس الطعام ، وجفاهما النوم ، وعجزا عن التفكير فى اى شيء سوى ما يحدث لاصدقائهم وشركائهم فى الوطن ، فكتائب الهجوم تاتى حين تشاء وتفعل ما تشاء ، ولدى الشرطة أوامر بالتعاون معهم . فهم يأتون الى بيوت النــاس ليلا ، يحملونهم الى حيث لا يســمع أحد عنهم شــيئا بعد ذلك . ولكن تدريجا وبوسائل سرية بدأت أنباء هذه الافاعيل البشعة تتسرب متحدثه عما يجرى فى اقبية مراكز قيادة النازى فى شارع هيديمان ، وفى بيت كولمبس وفى السجن الحربى القديم بشارع الجنرال بابن .

وكتب أبوه مذكرات موجزة بلهجة شديدة الحيطة قال فيها « لا تقلق علينا فلنا أصدقاء » ولكن هانسى وبيس يعرفان مائة شــخص يقلقهما

أمرهم ، وكانا يطالعان جميع الصحف التي يستطيعان الحصول عليها ويحاولان وضع طرف من هذا النبأ الى جانب طرف من نبأ آخر ليحدسا شيئا عن مصير « حزبهما المتماسك » وحررا رسائل تفيض قلقا ثم ازعجهما الا يصلهما رد · فماذا حدث لهذا الزعيم وذاك ؟ لابد حتما أن يكون نفر منهم قد فروا ، والوصول من برلين الى باريس لا يستغرق وقتا طويلا · ومن العسير جدا التدريب على الموسيقى في مثل هذه الظروف ، فما قيمة تلوين جملة موسيقية عندما يكون المجاذيب مطلقى السراح فى وطن المرء ، وتكون حضارة عظيمة على وشك الانهيار ؟ بيد أن الزوجين الشابين كانا مقيدين بارتباطات لا بد لهما من الوفاء بها ، فتركا مضطرين لانى وأيرما يقلانهما الى جوان حيث أرتديا ثيابا مناسبة ، وتوجها الى فيلا اميلى ليعزفا برنامجا لا يطغى عليه الوجوم ·

الفصل الخامس عشر

الطريق الخامس

- ١ -

لم يعد هانس وبيس الى المانيا فقد حرم عليهما والدهما القدوم ، وحرم عليهما لانى الذهاب ،وابرق روبى بد يحرم الذهاب على بيس٠ واهم من هذا كله ان ادولف هتلر حرم القدوم على كليهما بان تصيد جميع الشيوعيين البارزين وزج بهم فى السجون فصار من الواضح ان الشيوعيين لا يستطيعون بعد الآن ممارسة نفوذهم أو تحقيق أى هدف لهم فى ألمانيا ٠ ان سياسة الرعب التى اشتهرت أيام الحرب العالمية الأولى لم تفلح عند استخدامها ضد العالم الخارجى ، بيد انها من الممكن بالتأكيد أن تفلح فى داخل البلاد ٠

واستقر الزوجان الشابان فى المبنى المعروف باسم اللودج فى بيانفينى ٠ وكان شعور بيوتى مطابقا لشعور ايرما تمام المطابقة ، فهى لا تحب أن يحيط بها الحمر ، ولا تحب أن يكون لبيتها مثل هذا الجو ، بيد انها أيضا كانت ضيفة فيما مضى على اليخت بيسى بد وفى قصر برلين ولا يمكنها أن تتخلف عن رد الضيافة ، ثم لا يمكنها أيضا أن تقصر فى اظهار الرقة والمودة لابنة روبى ٠ وتمت التسوية الودية من غير أن يشار اليها بكلمة واحدة فلم يكن هانس وبيس يدعوان اصدقاءهما الحمر الى الضيعة ، بل يلقيانهم فى جوان أو فى كان ٠ وكان ذلك عاملا مخففا ولكن كل التخفيف ، لأن الزوجين الشابين لا يسعهما ان يغالبا احضار المتاعب معهما الى البيت ، سواء فى تفكيرهما أو مظهرهما ٠

وكان هذا شبيه جدا بما شهده لانى قبل عشر سنين عندما استولى موسولينى على السلطة ٠ زرافات من اللاجئين فروا أمام ذلك الارهاب ، وكان طبيعيا الا يطول بهم الأمد حتى يعرفوا أين يقيم هانس وبيس ٠ والزوجان من المفروض انهما غنيان ، والواقع انهما غنيان فعلا بالقياس الى حالة معظم الشيوعيين ، وليس فى وسعهما بسهولة ان يقولا لأحد

فلهم لا ، اذ ما معنى كلمة « رفيق » ما لم يكن معناها أن تفتح قلبك وكيس نقودك في وقت فظيع كهذا ؟ ويرسل الأب نقودا لا يقولان له لماذا يريدانها ، فالمفروض أن الخطابات الواردة والصادرة عرضة للفتح ، الا أن الوالد كان يستطيع أن يخمن وما من ثمن يراه أبهظ من ابقاء عزيزيه بعيدين عن موطن الخطر بعدم عودتهما . بيد أن ما يرسله ما كان ليكفي ، فأموال فورتونا تس ولمسة ما ميدوس التي تحول كل شيء الى ذهب ماكانا ليكفيا حاجات كل ضحايا هتلر منذ هذا الوقت وبسنوات طويلة لا يستطيع تخمين عددها أحد . واما أن يكون لك جلد وحيد القرن أو يعتصر قلبك الألم . وسيبتكر القدر وسائل جديدة لتعذيبك في كل يوم وكل ساعة ان أنت سمحت بذلك . فهنا ضحايا يثيرون الشفقة اثارة شديدة ويقصون أشد القصص ايلاما ، عن أولئك الذين ذهبوا الى أن صاروا حطاما بدنا وعقلا ، اناس تعذب أزواجهم أو زوجاتهم أو أحباؤهم أو اطفالهم او والداهم أو ما الى ذلك من ذوى المنزلة والقرابة ، أو قد يعذبون غدا . انهم اناس هربوا تاركين كل شيء ولا يملكون ثمن وجبة واحدة ، أو يستجدون اجر السفر لاحضار هذا الشخص أو ذاك وقد احدق به الخطر من بين براثن الشياطين .

وكان هانس وبيس يأكلان منفصلين من طعام تعده احدى قريبات « ليز » لهما . وسرعان ما روت هذه الفتاة انهما لا يأكلان ما فيه الكفاية بعد أن اعطيا اخر فرنك لديهما لرفيق جائع ، ثم راحا يخرجان من البيت الطعام الذى حصلا عليه نسيئه ، فكانت بيوتي تدعوهما الى مائدتها للاكل فياتيان ، لانك على كل حال لا يستطيع أن تعزف الموسيقى مالم تأكل ، ولن يجدى على هانس أن يغمى عليه وسط الحفلات الموسيقية التى يقيمانها لمصلحة اللاجئين . وانهارت بيوتي وبكت ، وبكت بيس ، فكان بينهما استعراض عاطفى كبير ، ولكن ما من كلمة يمكن أن تتبادلاها حرفيا الا وينشب بينهما جدال .

ارادت بيوتي ان تقول « بالله يافتاتى الا تعرفين اوربا ؟ لقد عشت هنا اعواما اطول مما استطيع الاعتراف به ، ولست أذكر وقتا مضى لم يأت فيه أقوام فارون من الاضطهاد من مكان ما . فحتى قبل الحرب كان هناك الثوار الروس ، واشخاص قادمون من البلقان ومن أسبانيا ومن أرمينيا ، وقد نسيت معظم أسماء تلك الاماكن . فهل تعتقد أن في استطاعتك حل سائر مشكلات العالم ؟ وارادت بيس أن تجيبها هذا هو تفكيرك البورجوازى ولكنها لم تستطع ان تقول ذلك لضيفتها . فاكتفت بان قالت « هؤلاء رفاقى وهذه قضيتى » .

- ٢ -

وعاد لانى وايرما الى باريس فاذا كل شيء هناك على ذلك النحو فقد حصل اللاجئون على عنوان لانى • حصل عليه القادمون الأوائل من خاله جس ، وحصل عليه الباقون من بعضهم بعضا وهو عنوان راق غاية الرقى، وغير مفهوم لدى أى رفيق فى ضائقة أن شخصا يعيش ولو بصفة مؤقتة فى قصر الدوق دى بلومونْ يمكن الا يكون غارقا في الثراء وفي وضع يسمح له بمساعدته ومساعدة جميع رفاقه واخواته وبنات عمه وخالاته المقيمات فى مسقط رأسه ، بحيث يحضرهم جميعا الى باريس وينزلهم فى جناح من أجنحة الضيافة بالقصر ، أو على الاقل يدفع ايجار حجرة في السطح• وهو موقف يثير أعصاب أشخاص كثيرين عاثرى الحظ ويجرح احساسهم الخلقى فليسوا من القديسين ، والجوع ذو أثر فعال يدفع الناس الى سلوك شتى السبل • فهناك حمر ليسوا فوق مستوى المبالغة في ضائقتهم • وهناك متسولون عاديون ونصابون يتظاهرون بأنهم حمر أو بانهم اى شيء فى سبيل الحصول على صدقة • وبمرور الوقت تزداد هذه المشكلات سوءا لان الطفيليين يتكاثرون ويزيد عددهم مثل سائر الكائنات وتدفعها الظروف بطريقة آلية الى تجويد فنون بقائهم على قيد الحياة •

وقد مر لانى بمثل هذه الظروف وتعلم بثمن باهظ دروسا مؤلمة من اللاجئين فرارا من الفاشتية ولكن الحالة الآن اسوأ لأن هتلر أخذ فنون موسولينى وراح يطبقها باتقان المانى • ثم أن موقف لانى أصبح الآن اسوأ لأن له زوجة غنية ، وما لاجيء يمكن أن يفهم كيف انه وهو يعيش معها لا يستطيع الحصول منها على نقود • لابد انه يحصل على نقود كثيرة منها ، وانظر الى سيارته ، والى ملبسه ، والى الاماكن التى يتردد عليها ! اهو نصير حقيقى أم مجرد فتى لاه يبحث عن الاثارة ؟ ان كان الاحتمال الأخير هو الصحيح فهو اذن هدف مناسب • فانك ان لم تحصل منه على هذا المال حصل عليه الخياطون واصحاب المطاعم ومن اليهم ، فعليك به ولا يفل من عزمك الاحتشام الكاذب •

وكان لايرما مثل بيوتى تفكير بورجوازى ، وتريد أن تقول ما تقوله السيدات البورجوازيات ، ولكنها اكتشفت الآن ما الذى يجرح مشاعر زوجها ، وما الذى أن تمادت فيه يثير غضبه • ان لديهما وسائل كثيرة ليسعدا معا ، وهى شديدة الرغبة فى تجنب الشجار على نحو ما يصنع ازواج كثيرون آخرون من الشبان ، ولذا كانت تكتم أراءها فى موضوع صراع الطبقات وتحاول بأفانين متباينة من الحيل أن تبعد شريكها الضعيف العقل عن طريق الغواية • فقيل للخدم انه اذا ما جاء غرباء يثير مظهرهم

الشك ان يخبروهم ان السيد بد ليس فى الدار وانهم لا يعلمون متى يعود • وكانت ايرما تبتكر خططا لبقه لتشغل وقته دائما بعيدا عن صحبة النواب الشيوعيين والمحررين الورديين • ولكن لانى لم يكن عاجزا عن ادراك هذه الأفانين ، فهو قد نشأ مع سيدات بورجوازيات ويعرف تفكيرهن ومتى بالضبط يشرعن فى توجيه قياده ولماذا •

وحاول أن يكون منصفا فلا يعطى أكثر مما ينبغى من أموال ايرما للاجئين ولا أكثر مما ينبغى من ماله الخاص حتى لا يمسى خاوى الوفاض • ومعنى هذا أن عليه كذلك أن يكثر من التملص وتقديم الأعذار للمنكوبين ، ثم يشعر بعد ذلك بالخجل من نفسه وبغصة فى قلبه أكثر من ذى قبل ، لأن العالم ليس كما يريد أن يكون ولأنه شخصيا ليس من النبل وكرم النفس كما كان يؤثر انيظن فى نفسه •

- ٣ -

وعلى الرغم من أصدق الجهود التى بذلها لانى فقد وجد من المستحيل أن يظل بعيدا عن المجادلات مع من يلقاهم من الناس • فظلت الامور الاقتصادية والسياسية تفرض نفسها عليهفضيوف البيت يريدونالتحدث فيما يجرى بالمانيا ويريدون أن يعرفوا رأيه • ولعلهم كانوا يعرفون رأيه سلفا ويريدون أن يتحرشوا به • ولم يكن بين الناس من يجيد آداب الاجتماعات الراقية أكثر مما يجيدها ابن بيوتى بد ، ولكن حتى الدمائة الفرنسية لم تكن لتستطيع الثبات فى هذه الاحايين ، لأن الناس عجزوا عن الاصغاء للاراء التى يعتبرونها فظيعة من غير أن يبدوا علائم الا ستهجان• وانقضت الأيام السالفة التى كان فيها من طرائف اللغط والاحاديث التى يلوكها الناس أنالسيد ايرما بانز وردى وان زوجته منزعجة لهذا السبب، فقد صارت هذه المسألة الآن مسألة جدية ولا يمكن أن تطاق • فهذه السيدة دى كلوسون زوجة مدير البنك الشهير ، تقول له بلهجتها اللاذعة حسبتك كنت تقول انك لست شيوعيا فاجابها وانا لست شيوعيا يا سيدتى ، وانما انا مدافع عن تلك الحريات الاساسية التى ظلت حتى الآن لباب مجد الجمهورية الفرنسية فقالت وهى حريات يحجدها الشيوعيون فيما قيل لى جحدوها ياسيدتى فنحن لا نريد أن نجاريهم فى ذلك أو نتخلى عما نعتز به فاجابته : هذا كلام يبدو جميلا ، ولكنه يعنى انك تفعل بالضبط ما كانوا يحبون أن يفعله الناس •

كان هذا كل مافى الامر ، بيد انه كاف ، فالسيدة دى كلواسون

سيدة عظيمة المكانة ونفوذها قد يعني نجاح اية امريكية ذات طموح اجتماعى او فشلها . ولم تسمع ايرما شخصيا هذه المناوشة ، ولكن صديقة رقيقة القلب جشمت نفسها نقلها اليها ، وهى تعلم ان هذه المبارزة الكلامية قد تقضى على جهودها التى ظلت تبذلها طيلة السنة الماضية ، ومع ذلك لم تقل شيئا ، وهى تريد ان تكون منصفة وهى تعلم ان لانى ظل منصفا بعد ان اخبرها بتطرفه قبل أن يطلب يدها ، وهى قد قبلته على علاته . ومن سوء حظها انها لم تدرك معنى ان يكون لها زوج ذو صبغة وردية قاتمة بحيث يلتبس أمرها على التفكير البورجوازى فيظنونها قرمزية .

- ٤ -

ودعى الرايشستاج الجديد الى الاجتماع على عجل وتم اجتماعه فى مدينة بوتسدام موطن الامجاد القديمة فى بروسيا وقد استخدم هتلر عبقريته فى ابتكار المراسم المعبرة عن مقاصده الوطنية ولانعاش آمال الشعب الالمانى ، فانفجرت اراضى الوطن كلها بالاعلام ، وهى أعلام الصليب المعقوف الجديدة التى اعلن مجلس الوزراء انها يجب ان تحل محل علم الجمهورية المحتضرة . ومرة اخرى اوقدت النيران المتوهجة فوق قمم الجبال واقيمت استعراضات بالمشاعل ليلا اشتركت فيها جميع منظمات النازى والطلبة والأطفال . ووضع هتلر باقة من الزهر على قبر رفاقه الراحلين . وافتتح هند نبورج الريشستاج واذيع حفل الافتتاح على جميع المدارس . والقى الاونباشى البوهيمى خطبة من خطبه الملهمة قال فيها لقائده الاعلى السابق الفيلد مارشال انه حين عينه مستشارا « ابرم الزواج بين رموز المجد القديم والعنفوان الصاعد الحديث . »

وكان هتلر يريد شيئين : ان يصل الى السيطرة على المانيا ، وان يتركه العالم الخارجى وشأنه وهو يتم هذه السيطرة . ولما بدأ الرايشستاج دور انعقاده العادى فى دار أوبرا « كرول » ببرلين وجه الى المجلس خطابا اعد بعناية اعلن فيه أن الشيوعيين هم الذين احرقوا مبنى الرايشستاج . وان خيانتهم يجب ان تمحى من الوجود بقسوة بربرية . وقال للاغنياء ان : « رأس المال يخدم الاعمال التجارية والصناعية » ولم يكن الاغنياء يطلبون ما هو اكثر من هذا . اما المزارعون الالمان فوعدهم بمعونات الانقاذ ووعد جيش المتعطلين بالعودة الى التوسع فى الانتاج .

وكي يتسنى له تنفيذ هذا البرنامج طلب من المجلس تفويضاً بسلطة العمل في قرار صيغت الفاظه بطريقة ماكرة ، وقد سمي هذا القرار « قانون رفع العوز عن الشعب والامبراطورية » والغرض من هذا القانون السماح للوزارة الحالية ، وللوزارة الحالية وحدها ، باصدار القوانين وانفاق الاموال دون الرجوع الى الرايشستاج . ولكن القانون لم يقل ذلك بصريح العبارة بل عمد الى ايقاف العمل بمواد محددة في الدستور كانت تحتفظ بهذه السلطات الرئيسية لمجلس الرايشستاج . ومدة هذا التفويض اربع سنوات الا اذا سقطت الوزارة الحالية وتلتها وزارة اخرى فيعتبر هذا التفويض ملغى فلن يكون احد سوى أدولف في يوم من الايام فوهرر المانيا ! .

وهذه الحيلة تتفق مع ما يتصف به المستشار الجديد من « عقدة الاجراءات الشرعية » فهو حريص على ان يستجمع في يده ادوات السلطة باساليب تراها الكتلة الكبرى من الشعب متفقة مع القانون . وكانت خطبته في تأييد هذا القرار مصاغة بحذق وحصانة بحيث تتفق مع ميول شتى الاحزاب فيما عدا الشيوعين الذين كانوا قد اقصوا عن مقاعدهم ، والاشتراكيين الذين سيلحقون بهم ويقاسمونهم مصيرهم بعد قليل . وكان جمهور من النازي المسلحين يقف خارج المبنى ويصرخ طالبا الموافقة على ذلك القرار بقانون ، وتم ذلك باغلبية ٤٤١ صوتا ضد ٩٤ ، وهذا العدد من المخالفين كلهم من الاشتراكيين . ثم اعلن جورنج رئيس الرايشستاج الجديد تاجيل دور الانعقاد ، وهكذا فقد شعب عظيم حرياته في الوقت الذى كان يبتهج فيه بحصوله عليها .

— ٥ —

وفي هذه الفترة كانت الولايات المتحدة مسرحا لاحداث مثيرة مثلما كانت الحال في المانيا ، اذ اصبحت الازمات والافلاس وباء ، واذا بحاكم ولاية بعد اخرى لا يجد مفرا من اعلان اغلاق جميع البنوك في الولاية . وكتب روبى يقول ان السبب في ذلك استنكار الناس الشديد لقرب مصير امورهم الى رئيس جمهورية من الحزب الديمقراطي . وعند ما تسلم الرئيس الجديد السلطة — وكان ذلك اليوم عشيه انتخابات هتلر — كان اول عمل اقدم عليه هو الامر باغلاق جميع البنوك في الولايات المتحدة كلها ، وهو ما يعادل في نظر روبى بد قيام القيامة . وكان

خطابه في هذا الموضوع شديد التشاؤم حتى لقد دفع ابنه الى ان يبرق اليه قائلا : « تشجع فستجد القوت على كل حال · »

والحقيقة ان الموقف لم يكن من السوء بحيث توقع كل انسان ، لان الناس اخذوا المسألة ماخذ الهزل ، فاغنى اغنياء البلاد قد لايكون فى كيس نقوده فى ذلك اليوم الا مليمات قليلة وهذا كل ما يملكه نقودا سائلة ، فكان اصحابه يرون ذلك مثيرا للضحك ، فيضطر هو ايضا للضحك مثلهم · ولم يمنع ذلك احدا من الثقة به وقبول شيكاته ثمنا لأى شيء وبذلك استطاع ان يحصل على كل ما يريد كما كانت الحال من قبل تماما · وبذلك لم يخسر روبى وجبة واحدة لا هو ولا اى فرد من عائلة بد · وفى هذه الاثناء اصغوا الى صوت رائع فى الراديو يقول لهم بثقة هادئة ان الحكومة الجديدة ستعمل ، وستعمل بسرعة ، وان جميع مشكلات البلاد ستحل · وان الاسلوب الجديد قد بدأ فى العمل ·

وكانت الخطوة الاولى هى الانضمام الى بريطانيا والامم الاخرى فى خروجها على قاعدة الذهب · وكان معنى ذلك فى نظر روبى حدوث التضخم ، وان هذا البلد سيحدث له ما حدث لالمانيا · والخطوة التالية اجراء عملية تصنيف او فرز للبنوك ليتقرر تحديد الصالح او المركز المتين منها كى يفتح ابوابه لمساندة الحكومة · وكان من نتيجة ذلك ان انتقل وول ستريت من نيويورك الى وشنطن ، وصارت الحكومة مركز السلطة ، وهرع اليها رجال البنوك ومعهم محاموهم وحقائب اوراقهم ، وهذه خطة رعناء ستؤدى الى شتى الوان الاخطاء · وستظل امريكا ارض المفارقات والمتناقضات سنوات طويلة وستسنح لروبى بد وامثاله فرص لا حصر لها للسخرية والتنديد ، ولكن الاعمال ستاخذ فى الانتعاش وسيجد الشعب مرة اخرى ما يأكله ، ولن يكون الاكلون آل بد وامثالهم وحدهم ·

ولم يجد لانى متاعب من اى نوع لان البنوك الفرنسية لم تغلق ابوابها ، فكان لديه مال ينفقه على لاجئيه · وان ظل دخل ايرما على انخفاضه ففى وسعهما العودة الى بيانفيني وهى المخبأ من الاعاصير كما تسميها · ولم تكن قد اضطرت لكسب شيء من النقود فى حياتها ، ولذا كان من اليسير عليها ان تتخذ موقفا مستهينا متفائلا مثل موقف زوجها · فهى ان فقدت اموالها فكل انسان آخر سيكون قد فقد ماله ايضا فلن تشعر بأى نقص · والحقيقة ان الموقف كان مثيرا وأن الجيل الجديد

اعتبروه نوعا من التحدى الرياضى • وتتردد ايرما بين هذا الموقف وبين حلمها بافتتاح صالون بارز فخم • ولما وضح لها لانى عدم التوافق بين هذين الموقفين اكتفت بالضحك •

- ٦ -

وحضر ريك لتمضية بضعة ايام معهما • وهو لم يعد من الفقر بحيث يقلقه التفكير في نفقات رحلة الى باريس • بل صار من ضمن عمله أن يلتقى بشتى انواع الناس ويرقب مايجرى من الامور • والطيار السابق الاعرج الذى قد يصبح حائزا للقب سير بالوراثة يوما ما ، والذى حقق بالفعل نجاحا ككاتب مسرحى ، يعتبر شخصية رومانتيكية ولو أنه متطرف فى حديثه • فالسـيدات مسرورات به ، وقد اكتشفت ايرما أن لديها ما يمكن ان يسمى فنانا صاعدا من صناعة بيتها • فتروى لأكثر الناس جاها كيف كان لانى خدن طفوله ريك وقد صحبه الى جميع مؤتمرات أوربا وساعده على تخطيط بل على مراجعة مسرحياته • وتروى لهم ايضا كيف أنها ـ أى ايرما ـ ساعدت فى تمويل رواية « رشوة بدلة السهرة » فلم تسترد نقودها فقط بل حصلت أيضا على ربح كبير• وهذا أول استثمار انفردت به فى حياتها ، ولذا يغتفر لها أن تزهو به ، وأن تتفاخر بشأنه لدى امها وأعمامها وأخوالها العديدين •

وزاد يقين ايرما بميلها الى موقف الانجليز من الحياة • فالرجل الانجليزى عميق الاحساس كما تكشف لها فيما بعد ، ولكنه يكتفى بالكلام عن موقفه بهدوء ، بل هو أميل الى التقليل من شأنه ، فلا يرفع صوته مثل كثير من الأمريكيين ، ولا يلوح بيديه كالفرنسيين ، ولا يجعجع كالألمان • فرجال الانجليز سلخوا زمنا طويلا فى ممارسة الحكم ، ولذا فهم ينظرون الى الحكم نظرة شىء مفروغ منه ، بيد أنهم فى الوقت نفسه مستعدون لوضع وجهة نظر الآخر موضع الاعتبار ، بل انهم مستعدون للوصول الى نوع من التسوية معه • ويبدو ذلك بصفة خاصة فى مسائل القارة الأوروبية حيث يحاولون بجد ان يتوسطوا بين الفرنسيين والألمان• وقال دنيس دى بروين « ما أكرمهم فى الحقيقة عندما يتصرفون فى المصالح الفرنسية ! » •

وكان مؤتمر تحديد التسليح لم يزل منعقدا فى جنيف تتقارع فيه الآراء ، كاشفا عن عدم استعداد اية أمة للثقة بأية أمة أخرى ، أو الاذعان

والقبول لما يمكن ان تكون فيه مصلحة أمة منافسة لهـــا • وقال ريك الاشتراكى : « ليس فى الدنيا مايكفى من التجارة لتيسير أحوال الجميع ولذا فهم لايستطيعون التفاهم على طريقة تقسيمها • » أما جيسى بلاكلس الشيوعى فقال : « انهم كقوم مغرقين فوق طوف ، وقد اخذ الطعام ينفذ ، فهم يعلمون أن أحدهم لابد أن يؤكل ، فمن ذا الذى يوافق على أن يكون اول ماكول ؟ » •

وكانت هناك مفاوضات خاصة كثيرة بين الانجليز والفرنسيين ، فكان كبار الموظفين البريطانيين يكثرون من التردد على باريس • وقد احضر ريك عددا منهم الى القصر لتناول الشـــاى أو للرقص • وهذا ما استأجرت ايرما القصر له ، فشعر أنها تحصل بذلك على مقابل عادل لنقودها ، وان كانت بالطبع لم تقل الكلام بهذه الفجاجة • ومن بين من جاءوا اللورد ويكثورب الذى كانت قد قابلته فى جنيف فى السنة الماضية وهو يشغل منصبا له جانب من الخطورة وكان يتكلم على سجيته وهو بين « المنتمين » وكان يعد ريك وآل بد من المنتمين • فكانت ايرما تصغى بانتباه لأنها باعتبارها المضيفة لابد أن تقول شيئا ، وهى تريد أن يكون كلامها صوابا حين تتكلم • وبعد خروجه تتحدث مع لانى وتجعله يفسر لها مالم تفهم • وتقول عرضا « أتمنى لو أنك نظرت الى الأمور نظرة موازنة على غرار ويكثورب » فيجيبها : « ياعزيزتى ان ويكثورب عضو فى الارستقراطية البريطانية ، وهو هنا ليحارب فى سبيل الامبراطورية ، وهو حاصل على الشىء الكثير من كل مايريده فمن الطبيعى أنه يستطيع ان ياخذ الامور ماخذا هينا » فسالته : « وانت ألم تحصل على ما تريد يالانى ؟ » فأجابها : « اطلاقا ! انى أريد حياة أفضل لسواد الناس الذين ليسوا فى الامبراطورية البريطانية ، بل ولكثيرين فى تلك الامبراطورية ممن يخرجهم ويكثورب من حسابه » فقالت : « ولكنك سمعته يالانى يقول اننا الآن جميعا اشتراكيون » فأجابها « أعلم ذلك ياعزيزتى • وهى صيغة محفوظة ، ولكنهم يحددون لأنفسهم تعريف هذه الكلمة ، ومعناها لديهم ان ويكثورب يتولى الحكم ويحدد للعمال مايحصلون عليه • وبذلك يستمر سكان البيوت الحقيرة فى ايسست اند يدفعون الاتاوات لأصحاب المساكن ، ويقوم الفلاحون المعدمون فى الهند والزنوج فى جنوب افريقيا ببذل عرقهم كى يوفروا الترف والبذخ لحمله السندات من البريطانيين » فقالت ربة الصالون المنتظرة : « ويحى ! من ذا الذى يحب ان ياتى لزيارتنا ان كان حديثك على هذا المنوال ؟ » •

- ٧ -

وكان لانى مهتما بوجهة نظر هؤلاء الأشـخاص الرسميين فكان يجلس في المكتبة الضخمة بالبيت الذى استاجرته زوجته ويصغى لريك يناقش الحركة النازية مع ويكثورب وسكرتيره ريجى كالتدج الذى كان أيضا ابن عمه . ولم تكن وجهة نظره جديدة باية حال على لانى ، فهى وجهة نظر كان والده قد شرحها له حينما كان فتى صغيرا جدا . والطبقات الحاكمة فى بريطانيا اتخذت سياسة ثابتة لها الا تسمح لاية امة واحدة بأن تصل من القوة بحيث تسيطر على القارة الأوربية بصرف النظر عن أى هذه الأمم يمكن أن تكون المسيطرة ، فهم فى هذه الحالة يأخذون على عاتقهم اقامة أمة منافسة لها لتحدث التوازن معها .

وويكثورب يكره النازى ويكره مايصنعون ولكنه لا يهدر بالغضب عليهم ، وكل مايقوله عنهم انهم جماعة من الأوباش . وهو يأخذ ماخذ التسليم أن وعودهم الخيالية انما هى وسيلة استعانوا بها للحصول على السلطة ، وقال عنها : « ان هذه الا حيل ، سياسية » وأبى أن يشغل باله باحتمال ان يكون هؤلاء الأوباش يعنــون حقـا مايقولون . واصغى الانجليزيان باهتمام عندما روى لهما عن مقابلته لهتلر ووجها اليه بضعة أسئلة ، ولكنهما فى النهاية احتفظا برأيهما . وقال فخامة اللورد « لدينا فى حياتنا العامة رجال كثيرون جامحون . وأنا وانت أصغر سنا من أن نتذكر كيف كان جون بيرلز المجوز يهذى فى خطبه فى ميدان الطرف الأغر ، ولكن والدى كانا يجهزان جماعات لزيارة الأحياء الفقيرة ويذهبان لسماعه . وبعد ذلك بمدة طويلة كان فى وسعك أن تقابل ذلك العجوز فى نادى الاصلاح الجديد وتسمعه يتحدث عن ذلك . والواقع أنه كان من العسير أن تجعله يتحدث عن أى شىء آخر ».وأضاف كالتدج الى ذلك قوله « لقد كان ممتنعا صارما جدا عن المسكرات ولكن وجهه كان فى حمرة غبب الديك الرومى » فقال لانى « وهتلر أيضا لا يشرب الخمر » ولكن الآخرين لم يبد عليهما انهما قدرا لهذه الملاحظة أهميتها ، ومضيا فى افهام ريك ان انصـار الامبراطورية الفرنسيين متغطرسون ، وان دبلوماسييهم تسببوا فى كثير من المتاعب بسوريا والعراق وغيرهما من الأماكن ، وان لدى رجال المصارف الفرنسيين مخزونا كبيرا من الذهب يستخدمونه بأساليب تضر منافسيهم . ولم يقل ويكثورب أن هتلر قد يفيد وجوده فى شغل بال الفرنسيين ، ولكن حججه وضحت الفكرة العامة وهى انك لا تستطيع ان تثق بأية مجموعة من الاجانب متى حصلت

على سلطة أكثر مما ينبغي • بل كان من الممكن أن تدرك أن قلبه لم يتحطم أسى لما حدث فى وول ستريت أثناء السنوات الأربعة الأخيرة ، لأن جانبا كبيرا من رخاء بريطانيا يتوقف على خدماتها باعتبارها غرفة المقاصة فى العمليات التجارية الدولية ، فما يضايقهم جدا هو أن يثبت الدولار أنه أرسخ وضعا من الجنيه •

وقام ويكتورب وابن عمه بتصوير مريع لما سيكون عليه دور هتلر فى الشئون العالمية • فبفرض أنه استمر فى السلطة ، فالروس هم الذين سيحاربهم • وهو المرشح منطقيا لذلك بسبب موقعه الجغرافى • فهذا العامل يجعل من المستحيل على بريطانيا أن تقوم بذلك تقريبا •وأراد لانى أن يسأله : « ولماذا لابد لأحد أن يحارب روسيا ؟ » ولكنه كان يخشى أن يكون هذا السؤال غير لائق •

هاهو اللورد الشـــاب الطويل جالس ، ببشرته الناعمة ، وخده الوردى ، وشعره الأشقر ، وشاربه الصغير كأنه اللعبة ، كامل الأناقة وعلى سجيته تماما • ولكن ليس فى الاستطاعة أن يقال عنه أنه كامل التعليم ، فثمة أمور هامة لا يعرف عنها شيئا ، كالعلوم مثلا ، واقتصاديات الواقع فى مقابل اقتصاديات النظرية الكلاسيكية • وهو يعرف الحضارتين الاغريقية والرومانية ، والفيولوجيا العبرية كما عدلتها كنيسة انجلترا ، ويعرف الشئون العالمية الحديثة على طرف لسانه ، وفيه رصانة تامة وسحر فى آداب سلوكه ، وبراعة فى الاحتفاظ لنفسه بتلك الافكار التى ليس لأشخاص معينين الحق فى الاطلاع عليها • وهو واثق بأنه سيد مهذب ومسيحى ، ومع هذا فهو يأخذ ماخذ التسليم ان من واجبه العمل واعداد العده لقيام حرب من أقسى الحروب واشدها حمقا •

وقال لانى مقترحا برفق « فى وسعكم كما تعلم أن تقوموا بتبادل تجارى ضخم مع الاتحاد السوفيتى فلديهم المواد الخام ولديكم الآلات • » فاجابه : « نعم يابد ، ولكن المرء ينبغى الا يقصر تفكيره على الاعمال التجارية فهناك اعتبارات خلقية » فقال لانى : « ولكن ألا يجوز أن يخفف الحمر من غلوائهم ويشعروا بالمسئولية كما تنتظر هذا من النازى ؟ » فقال اللورد : « اننا لا نستطيع ان نثق بالمفسدين » فقال لانى : « لقد قيل لى انهم يؤدون التزاماتهم بانتظام فبنك تشيس القومى تمضى اموره معهم على مايرام • » فقال اللورد : « لست أعنى ماليا بل سياسيا • فقد يشرعون فى الهجوم على البلقان أو الهند أو الصين ، فعملاؤهم يحاولون اشعال الثورات طول الوقت » • فالح لانى قائلا : « هل خطر لك أنه من

الجائز ان لم تتاجروا معهم ان يتاجر معهم النازى ؟ ان اقتصادياتهم تكمل احداها الأخرى » فأجاب اللورد : « ولكن ايديولوجياتهما على طرفى نقيض ! » فأجاب لانى : « هكذا تبدوان ولكنك قلت شخصيا ان الايديولوجية تتغير عندما يصل الرجال الى السلطة ويخيل الى أن ستالين وهتلر كليهما رجل عصامى وقد يتسنى لهما ان يتفاهما • فما الرأى اذا فرضنا أن ستالين قال ذات يوم لهتلر ، وقال هتلر لستالين : اسمع ياصاحبى : ان الانجليز قد رتبوا أمورهم على أن يقضى كل منا على صاحبه بالقتال فلماذا نخدم أغراضهم ؟ » فقال لورد ويكثورب الشاب : « أعترف أن ذلك اليوم سيكون بالغ السوء » ولكنه قالها بابتسامة ولم يأخذ الامر مأخذ الجد فلما ضيق عليه ريك الخناق أدلى بسبب آخر لاستحالة التفكير فى تبادل تجارى على نطاق واسع مع الاتحاد السوفيتى ، ويتعلق هذا السبب بتأثير هذه السياسة على الموقف السياسى فى الداخل « انها ستشد أزر الحمر وقد تاتى بالعمال الى الحكم » •

وقال ريك للانى عندما صارا بمفردهما : «الطبقة فوق الوطن ! » •

- ٨ -

كان برنامج النازى لكبح اليهود يوضع موضع التنفيذ خطوة خطوة، وستكون هذه طريقة النازى فى كل شىء • فالموظفون المدنيون الذين تجرى فى عروقهم دماء يهودية طردوا من وظائفهم وحل محلهم آريون صالحون من ذوى الانساب الصحيحة الثابتة • والمحامون اليهود منعوا من الترافع أمام المحاكم • والصقت علامات اليهود أو رسمت بالطلاء على محال اعمال الجنس البغيض • وكان الضرب والارهاب يجدان تشجيعا سريا بقصد ارغام اليهود على الخروج من البلاد وحرمانهم بذلك من الوظائف والممتلكات • وعندما كانت تذكر هذه الحوادث فى الصحف كانت تنسب الى « اشخاص مجهولين متنكرين فى ثياب جنود كتائب الهجوم » ولكن اللاجئين الهاربين الى العالم الخارجى كانوا يذيعون الحقيقة، وبذلك بدأ غليان الاستنكار بين اليهود فى جميع البلدان فعقدوا مع العاطفين عليهم اجتماعات للاحتجاج وبدأت حركة لمقاطعة التعامل مع المانيا ، وكان رد الفعل فى المانيا مباشرا ، وقد كتب يوهانسى فى ذلك الشان ، ومما له مغزى كبير انه لم يكتب الا للانى ، لا لوالديه ، ولم يوقع الخطابات ولم يترك عليها علامة تدل على شخصيته ، فقد صار جريمة

عقوبتها الحبس أن يقدم أى ألمانى معلومات الى الاجانب • وكان يوهانسى يخاطب لانى باعتباره المانيا ويحذره من أخبار أى انسان فى باريس بهذه المعلومات !

وكانت المقاطعة تقلق بال رجال الاعمال فى المانيا وفى الوقت نفسه تثير غضب زعمـــاء الحزب ولا يدرى أحد اى وجهتى النظر يكتب لهـا التفوق • ان « يوب جوبلز » كان ينادى بوقف التعـامل مع اليهود فى المانيا ، وكانت النتيجة حدوث ذعر فى سوق الاوراق المالية ، لان جانبا من أهم الاعمال فى المانيا مملوك لليهود بما فى ذلك المتاجر الكبرى فى برلين ، وهى التى كان البرنامج الاصلى للحزب قد وعد بتأميمها ، والآن أصبح الشباب المتـحمس فى كتائب الهـجوم وكتائب الدفاع أو الامن متحمسين لاقتحامها والقيام بمهمتهم •

ونشبت فى الوزارة منازعات على المنوال المألوف حول هذه المسألة كما قال يوهانسى ، فاقطاب المال والاعمال الذين مولوا ظهور هتلر صاروا ينحون عليه فكيف يستطيعون أداء الضرائب وكيف يمكن أن تمول الحكومة اذا ترك البلطجية طليقى العنان لتخريب الاعمـال والتجـارة سواء فى الداخل أو الخـارج ؟ وكانت نتيجة لعبة شد الحبل هذه اتفـاقية غريبة ومضحكة ، فالمقاطعة التى كان متعصبو الحزب قد أعلنوا بدأها فى اليوم الاول من شهر ابريل ستنفذ ، ولكنها ستستمر يوما واحدا من أيام العمل وهو ثمان ساعات ، ثم تنتظر المانيا ثلاثة أيام لترى ماذا سيكون رد الفعل من العملاء الاجانب ومصاصى الدماء من اليهود الذين يفترون الاكاذيب بلا حياء عن المانيا • فان أظهروا الندم وتخلوا عن تهديداتهم الوقحة سمحت المانيا مقابل ذلك باستمرار الاعمال والمصالح اليهودية فى سلام ، والا نزل بهم عقاب صارم ، وربما استؤصلت شأفتهم ، وسيكون اللوم فى هذه الحالة واقعا على اليهود مصاصى الدماء خارج المانيا •

والمقاطعة فكرة اقترحها الدكتور جوبلز ، لان الفوهرر نفسه كان مشغولا باعادة تنظيم شتى حكومات الولايات • وعشية يوم المقاطعة وقف القزم الصغير الاعرج بفمه الهائل الواسع يتحدث الى رفاقه فى الحزب فى اجتماع بقاعة فى الطرف الغربى ، وكان رجال كتائب الهجوم فى سائر انحاء المانيا يصغون لما يقوله فى المذياع • وطالب الخطيب بمظاهرة تدل على : « النظام الحديدى » فينبغى ألا يكون هناك عنف ، بل تراقب جميع المؤسسات اليهودية ولا يسمح لألمانى أو ألمانية بدخولها وجعل ذلك اليوم عطلة نازية ، فلبث اليهـــود فى بيوتهم وسار ذوو القمصان البنيه فى

جميع مدن المانيا وبلدانها الريفية منشدين أناشيدهم القـائلة ان الدماء اليهودية ينبغى أن تنبجس بحد السكين ، ووضعوا علامات يهـودية على متجر كل تاجر يعجز عن اثبات أربعة جدود له من الآريين • وصنعوا مثل ذلك بالاطباء والمستشفيات مستخدمين لافتة عبارة عن نقطة دائرية كبيرة صفراء وسط ارضية سوداء ، وهى العلامة المعروفة فى جميع أنحاء أوربا للعزل الصحى • وبذلك يقولون للعـالم ان الطبيب اليهـودى وباء مثل الجدرى او الحمى القرمزية أو التيفود أو الجذام مما يتصدى لعلاجه •

وقد نفذت هذه التعليمات بدقة فى الاحياء الراقية • أما فى المناطق الفقيرة والمدن الصغرى فقد الصق جنـود الهجوم المتحمسون علامات على جباه المتعاملين مع المتاجر اليهودية ، وضربوا ومزقوا ثياب امرأة أصرت على دخـول متـجر منها • وفى ذلك المسـاء عقد اجتماع هائل فى مطار تمبلهوف واظهر جوبلز حبوره لتلك المظاهرة التى شهدها العالم أجمع ، واعلن ان الاجانب الوقحين سيجزعون ويركعون على ركبهم • ولما كانت معظم الصحف قد صودرت ، فعلى الناس اما أن يصدقوا ذلك أو لايصدقوا شيئا • وضحك الاجانب بطبيعة الحال لانهم يعرفون انهم غير جزعين ، واستمرت الاجتماعات الجماهيرية وتوزيع نشرات المقاطعة ، ولكن زعماء النازى آثروا أن يعلنوا خـلاف ذلك ، فى اليوم التـالى تم غسـل جميع واجهات المحال فى أنحاء المانيا ، وصار شعار الآريين وغير الآريين « العمل كالمعتاد » •

- ٩ -

وكانت لهذه الحركة آثار غير مرتقبة ، فتـكون ما سـمى « اتحاد اليهود الالمان الوطنيين » واصدر منشورا قال فيه ان اليهود يجدون معاملة منصفة وانه لا نصيب من الصحة لما يشاع من الشائعات • ووقع نفر من أقطاب اليهود ذلك المنشور ، ومن بينهم اسم يوهانسى روبن •

وخيل للامريكى ان الانسان لا يمكن أن يعيش سعيدا فى مثل هذه الظروف ، فكتب لانى خطابا كتبه بعناية وحذر مؤداه ان هانسى سيقيم حفلات موسيقية مهمة وان ايرما ستقيم مناسبات اجتماعية شتى ، وانه يسرهم ان تحضرها الاسرة ، واجاب يوهانسى بأن دواعى العمل تمنعه من مغادرة المانيا فى الوقت الحاضر • وطلب اليهم الاينزعجوا بسبب المراسيم الجديدة التي تحرم على أى شخص مغادرة المانيا بدون جواز سفر خاص ،

لان في وسعه ان يحصل على هذه الجوازات الخاصة لنفسه وللأسرة متى شاء • وقال ان المانيا وطنهم وانهم جميعا يحبون الشعب الالماني • وهو الخطاب الذي يليق بيهودي في تلك الظروف ان يكتبه ، وقد يكون ما به صحيحا مع قليل من التحفظات •

وكان النازيون قد وعوا درس المقاطعة ، وان لم يعترفوا بذلك قط ، فانتهت مرحلة استخدام ضجة الفرق الموسيقية النحاسية في الاضطهاد وشرعوا في تحقيق اغراضهم بهدوء وسكينة ، وواصلوا بسرعة انتزاع اليهود والمتزوجين من يهوديات من أعمالهم • فلا يسمح ليهودي أن يعلم في مدرسة أو جامعة بالمانيا ، ولا لمحام يهودي بالترافع ، ولا لأي يهودي بشغل منصب رسمي حتى أصغر الوظائف الكتابية ، وهذا معناه توفير عشرات الألوف من المناصب لضباط وجنود النازي ، وهي وسيلة للوفاء بالوعود المقطوعة لهم أسهل بكثير من تاميم الصناعة أو تقسيم الضياع الزراعية الكبيرة • ووجد المثقفون المتعطلون عملا كثيرا باجراء أبحاث في الانساب لملايين الاشخاص الراغبين في اثبات نسب أسلافهم وحدث شيء عجيب خارق للمعتاد ، وهو ان أشخاصا ممن لهم ام آرية وأب يهودي أو جده آرية وجد يهودي شرعوا في ابحاث حول السيرة الخلقية لجداتهم الاناث ليثبتوا انهم آريون خلصاء عن طريق التدليل على انهم أبناء سفاح• وقبل مضي وقت طويل اكتشف النازيون آن بعض اليهود نافعون ، وبذلك أنشئت رسميا طائفة أطلق عليها اسم « الارين الفخريين » •

وبوسيلة أو أخرى أفهم أقطاب اليهود ان الافضل لهم الاستقالة من ادارات الاتحادات الكبرى ومن المناصب التنفيذية المرغوب في شغلها بأبناء اخوة أو أبناء اعمام بعض كبار النازيين • ويقال ان هذه الوسائل كانت من القسوة احيانا بحيث اقدم نفر منهم على الانتحار • ومثل هذه الاحداث لا تنشرها الصحف ولكن الشائعات نشرتها في خارج المانيا بطرق خفية • والسجون القديمة والمؤسسات الرسمية وثكنات الجيش التي ظلت خاوية منذ معاهدة فرساي حولت الى معسكرات للاعتقال سرعان ما امتلأت بالرجال والنساء ، فالناقلات تحمل شحنات جديدة اليها كل يوم حتى قارب عدد المعتقلين مائة الف •

وكتب لاني مرة أخرى يقول ان أصدقاءه مخطئون جدا بعدم قدومهم لحضور انتصارات هانسي الموسيقية وانتصارات ايرما الاجتماعية • وفي هذه المرة رد يوهانسي بقوله ان مشاغله العملية بدأت تثقل عليه • وان أطباءه نصحوه بالقيام برحلة بحرية ، وانه بسبيل اعداد اليخت بيسى بد

لرحلة أخرى حقيقية هذه المرة ، فهو يريد من هانس وبيس أن يقابلاه في احدى موانيء شمال فرنسا ، وهو يأمل في قدوم آل بد معهما ، ويعني بذلك الاسرة كلها : لاني وايرما والسيد دنجل وزوجه ومرسلين والطفلة فرانسس واى عدد من المربيات يشاءون • وكذا قيل ستكون الرحلة الى اى جزء من العالم تفضله أسرة بد ، واقترح يوهانس عبور الاطلنطي مرة أخرى لزيارة نيوكاسل ولنج آيلند ، ثم في الخريف قد يهبطون الى جزر الهند الغربية وربما عبروا قناة بنما الى كاليفورنيا ، وان شاءوا الى جزائر هونولولو واليابان وبالى وجاوه والهند وايران وجميع المواضع التاريخية والرومانتيكية التي يمكن أن تخطر لهم • سيكون اليخت جامعة تسير بالديزل ! •

- ١٠ -

وصار من المحتم بذلك على ايرما أن تصل الى قرار فيما أجلته حتى اللحظة الاخيرة ، فهل هى عازمة على استئجار القصر سنة أخرى ؟ لقد الفته وصار لها فيه مجموعة من الخدم الاكفاء حسنى التدريب ، ثم هي أيضا قد ثبتت مكانتها مضيفة • ويبدو من العار أن تفقد ذلك كله ولكن من جهة أخرى اخذ المال يشح ، فالكساد الفظيع مستمر ، وقد اطلعها لاني على الحسابات التي أجراها أحد رجال الاقتصاد مثبتا ان هذا الكساد كلف الولايات المتحدة ستة أمثال ما تكلفته الحرب العالمية • وبفضل مؤسسه اعادة البناء المالي أمكن دفع فوائد سندات الصناعة ، بيد ان كثيرا من الاوراق المالية الثمينة على صورة أسهم مما تملكه ايرما لا تؤدى حصصا في الوقت الحاضر ، وهي تقول لأصدقائها انها تعيش الآن على الشوكلاته والبسكويت والكوكاكولا • لا على انها عناصر غذائها ، كما قد يبدو لأول وهلة ، بل انها مصادر ايرادها • ولديها شور اكرز بنفقاتها الاضافية الهائلة • فاضطرت لانقاص مخصصات أمها ، وقامت الأم باعلان الجميع هناك انهم يستطيعون على سبيل المساعدة لهم أن يبقوا في الضيعة ويعملوا فيها مقابل الاقامة والطعام ولكن بدون مرتبات • وحتى على هذا الاساس كانت نفقات الطعام كبيرة والضرائب باهظة • ومتى لم تكن الضرائب كذلك ؟ وتضمنت خطابات السيدة بارنز الى ابنتها احساسا بقرب الاملاق • وقالت هذه الابنة المكروبة وهي مستلقية فوق الساتان الوردى الفاخر في فراش استقبلت فيه السيدة دى منتنون الملكة الشمس : « انك لا تهتم كثيرا جدا بهذا القصر يالاني ، أليس كذلك ؟ » فاجابها : « انت

تعلمين ياعزيزتى انى لا احاول أن أرشدك كيف تنفقين مالك » . فقالت : « ولكنى اسألك الآن » . فأجاب : « انت تعرفين بدون سؤال . فان انفقت أكثر مما لديك فانت فقيرة ولا أهمية للمبلغ » . فسألته : « أتظن ان عدنا الى باريس بعد الكساد اننى يمكن ان أشرع فى القيام بدور المضيفة مرة أخرى ؟ » فأجاب : « هذا يتوقف تماما على مقدار المال الذى تنجحين فى الاحتفاظ به » فصاحت المضيفة : « الا ما افظعك يالانى ! » فقهقه قائلا : « انت التى سألتنى » .

وكان قد انقضى عام تقريبا منذ رات الملكة الأم حفيدتها ، وهذا أمر يجب أن يؤخذ فى الاعتبار . فسيكون سرورها لا حد له ، وسيكون مبهجا كذلك الالتقاء بكل أولئك الأصدقاء فى نيويورك وسماع لغطهم . ويستطيع لانى ان يتحمل ذلك ما لم يطل كثيرا . ويالها من راحة لعمها جوزيف بارتر الوصى ومدير ممتلكات بارتر أن يعلم أنها سوف لا تسحب شيكا لمدة سنة ! .

وسالت زوجها : « اتعتقد يالانى أن يوهانس يستطيع حقيقة ان ينفق علينا طيلة هذه الوقت ؟ » فأجاب سليل آل بد : « كان فى وسعه أن يذهب وحده ان شاء . والواقع أننى أحسب هذا الوغد يملك الآن من المال أكثر مما كان لديه طول عمره . فهو دائم التحريك لأمواله فى أحسن الأوقات وأسوئها ، وسواء ارتفعت السوق أم هبطت » فسألته : « كيف يستطيع ذلك يالانى ؟ » فأجابها : لأنه يرقب الأمور طول الوقت ويحتفظ بامواله حيث يستطيع نقلها بسرعة فهو مضارب على الصعود فى الأوقات الطيبة ومضارب على النزول فى الأوقات السيئة » فقالت ايرما : « هذا رائع حقا . أتظنه يستطيع أن يعلمنا أن نصنع مثله ؟ » فأجاب : « مامن شىء يسره مثلما يسره تعليمك ، ولكن المشكلة فى أنك لابد ان تركزى ذهنك فى هذه المسالة ولا تغفليها مطلقا » فقالت ايرما وهى تتمطى بذراعيها البديعتين وتتثاءب فى الفراش الحريرى الوردى الذى كان يوما ما للعشيقة الرسمية للعاهل العظيم : « أظن أن ذلك سيكون مضجرا ان طال عليه الوقت » .

- ١١ -

هبط الزوجان الشابان الى جوان ، وعقدت ايرما مع بيوتى مؤتمرا للأمومة حول مشكلات مستقبلهما ، وكانت بيوتى تحب رحلات اليخت

وتجدهما وسيلة راقية للأسفار • وقد تعلمت الجغرافيا والتاريخ بهذه الطريقة ، وقد يحدث ذلك أيضا لايرما ، ولكن أهم شيء مايوفره اليخت من الامان فبيوتى لا تبالى كثرة ماينفس فيه صغارها من أحاديث حمراء ووردية بشرط ألا يصل اليهم من فى الخارج من الحمر والورديين ليقترضوا نقودهم ويغروهم بانشاء المدارس والصحف وما الى ذلك ، ويورطوهم فى معارك مع الفاشية والشرطة فمن الافضل أن تحملهم الى البحر وتبقيهم هناك ، وقد تجد جزيرة استوائية بديعة يستطيعون الاستقرار فيها ليعيشوا فى سلام ووئام الى أن تتم دورة الثورات والثورات المضادة ! وليقيم اليخت بمهمه سفينة الامدادات فيأتيهم بآخر المؤلفات الموسيقية او اى شيء آخر قرأوا عنه ، ولكن بشرط أن لا يأتيهم بالمهيجين الشيوعيين أو الاشتراكيين ، ولا بالفاشيين أو النازيين الذين يسيرون صائحين ملوحين بمسدساتهم وخناجرهم ! وسألت بيوتى بدء الوردية الخفيفة : « اتظنين أن فى البحار الجنوبية بعوضا ؟ » •

واقتنعت ايرما أن هذه هى الطريقة المثلى لابقاء زوجها ذى المزاج المتقلب سعيدا وفى أمان ، لأن باريس فى الوقت الحاضر مكان خطر ، وانظرى الى الأسلوب الذى ينبعه جيسى مندفعا من اجتماع الى آخر ليلقى الخطب الهستيرية وملصقا بالنازى جميع الشتائم التى تحفل بها اللغة الفرنسية ! وكانت تصل كل يوم الى بيانفينى نسخة من « الاومانيتيه » ، فتنظر فيها بيوتى أحيانا وفى حسبانها أن من واجبها أن تتعقب أعمال أخيها • فكان ذلك يوهن قواها لأنها تعلم مايمكن أن يثيره هذا الكلام بين الهتلريين ، وهى تعلم أيضا أن كثيرين من الاشخاص الهامين والاثرياء فى فرنسا عاطفون على الهتلريين • فالصليب النارى والشبيبة الفرنسية وغيرهما من الجماعات تتاهب لمقـــابلة القوة بالقوة • والبنوك الكبرى والمصالح الاستثمارية الأخرى لن تسمح بتدمير سلطانها بدون قتال ، وسوف يكون مايحدث اشد حمقا وفظاعة مما حدث فى المانيا • وناشدتها بيوتى قائلة : « هيا بنا نبتعد عن هذا كله ونبقى الى أن تنتهى العاصفة ونستطيع عندئذ أن نحكم هل من المامون أن نعود » •

واقتنعت ايرما وجلستا فحررتا فيما بينهما خطابا الى نينا احتالتا فى كتابته بكياسة بحيث يطالعه ريك من غير أن يستاء • فلا خطر يمكن أن يحدث فى انجلترا ــ أو على الأقل يمكن أن يعترف به ريك ــ وكلمة « فار » من اشد الفاظ الاحتقار عنده • ولذلك حرصتا على تصوير الرحلة أساسا بالنسبة لريك على أنها فرصة لتركيز اهتمامه فى كتابة مسرحية

جديدة . وسيكون الحضور من جانب نينا دليل صداقة لأنها ستكون الرابعة فى لعب البريدج وبالنسبة « لآلفى » ســتكون الرحلة بمثابة دروس متاحة له فى الجغرافيا والتاريخ فوق أنها فرصة لتصفية اختلافات المزاج بينه وبين مرسلين فان لم يشأ الابوان اقصاءه عن المدرسة فى هذا الوقت المبكر ففى وسعه أن يعبر المحيط الى نيويورك بالباخرة لقضاء الصيف مع المجموعة .

وقرأنا هذا الخطاب على لانى الذى استصوبه ، ولكنه يستطيع أن يصنع خيرا من هذا فيما يختص بخدينه . فلانى كان ينضج فى ذهنه مشروعا رائعا لأنه يستطيع أن يحدس حقيقة الحالة النفسية لسيد من سادات المال يهودى شهد أخيرا استيلاء عصابة من القراصنة ــ فى نظره ــ على الحكم فى بلاده فلابد ان ذلك أحدث تأثيرا فى ذهنه وجعله مستعدا لادراك أنه وغيره من الراسماليين يعيشون ويعملون داخل فوهة بركان . فراح لانى يرسم الخطة لنصب فخ شديد الخفاء لرجل من أثرياء اليهود وهو اقناعه بأنه لا مفر من نوع ما من التغيير الاجتماعى ، ثم يحصل على معونته لاحداث هذا التغيير بأسلوب نظامى . وهى بعينها الخطة التى كان لانى قد ناقشها مع ريك لاصدار صحيفة أسبوعية للمناقشة الحرة غير مرتبطة بحزب أو مذهب بل هى ذات اتجاه عام نحو الصـناعة التعـاونية تحت رعاية الاساليب الديموقراطية . وكتب الى ريك يقول : « سيكون خالصا لنا بضعة اشهر ، وربما سنة كاملة . فان استطعنا اقناعه بمساندتنا فسيكون فى وسعنا انشاء العملية على نطاق واسع مما يضمن لها نجاحا حقيقيا . أفلا تأتى وتساعدنى فى ذلك ؟ فأنت أقدر منى على الاجابة عن أسئلته ، واعتقد أنك تستطيع الوصول بهذه الخطة الى النجاح التام » .

وكان هذا الاغراء اقوى من مقاومة أى حالم (يحيا فى طوبا من صنع خياله) . فقال ريك : « وهو كذلك » وأبرق لانى بالقـــرار الى يوهانس . واغرته نفسه بتكرير النص المقتبس من « اوليس » للشاعر تنيسون ، وهو النص الذى كان قد استخدمه منذ بضع سنين فى مناسبة مماثلة : « هدفى أن أمخر البحر الى ما وراء مغرب الشمس حيث تستحم سائر نجوم الغرب ، الى ان اموت » ولكنه ذكر نفسه بان المانيا صارت الآن أرض هتلر ، وان حاسة الفكاهة لم تكن فى يوم من الأيام سمة بارزة من سمات الالمان . ترى أى خاطر يمكن الا يخطر ببال رقيب من حزب النازى وهو يقرأ ثمانية أسطر أو عشرا من الشعر الانجليزى المرسل فى برقية واردة من الريفيرا الفرنسية ! .

الكتاب الرابع

(وخيمت الظلمة)

الفصل السادس عشر

« اصل جميع الشر »

- ١ -

ان غازيا عالميا ظهر في العصور الحديثة ، مثيل للاسكندر وقيصر واتيلا وجانكيز خان ونابليون • ظهر في عصر الكهرباء ، وعصر المطابع الدورة ، وعصر الراديو ، في العصر الذى يجزم تسعة من كل عشرة رجال أن ظهور مثله فيه مستحيل • والغازى للعالم لا بد أن يكون رجلا ليس عنده الآن قلة من الأفكار ، وما لديه من الافكار ثابت لا يتغير ، فهو مزيج غريب من الخصائص المنشودة بالضبط سواء منها الصالح والطالح: تصميم كالحديد ، وطاقة لا تقاوم ، ولا تحرج من أى نوع كان • فلا بد له أن يعرف ما يريد ولا يسمح لأى عقبات أن تقف فى طريق حصوله عليها • وعليه أن يفهم عقول سواه من البشر سواء كانوا أعداء او أصدقاء وأى الاطماع والمخاوف والبغضاء وألوان الحسد والغيرة من شـانها أن تدفعهم الى العمل ، ويجب أن يكون فاهما لعقلية الجماهير والمثل العليا أو الضلالات التى تهيمن عليهم • ويجب أن يكون على جانب كاف من التعصب بحيث يتكلم لغتهم ، والا يبلغ من التعصب الحد الذى يهيمن عليه تعصبه • ويجب ألا يؤمن بشيء سوى قدره ومصيره ، وصورة ذاته متوجه بالمجد على صفحة التاريخ ، ان سلالات كاملة من الجنس البشرى قد صيغت على غراره ووفق ارادته • ولكى يحقق هذا الهدف يجب أن يكون كذابا لصا قاتلا على نطاق يتسع للعالم أجمع ، ويجب أن يكون مستعدا بلا تردد لاقتراف أية جريمة تقتضيها مصلحته الخاصة سواء بالنسبة للافراد أو الشعوب ، يجب أن يرصف الطريق الذى تدب فوقه كتائبه بعظام أعدائه،

ويجب أن تطفو بوارجه الحربية فوق بحار من دماء البشر ، ويجب أن ينظم أناشيد مجده من أنات البشرية ولعناتها •

والميزة المنفـــردة التى حظى بها أدولف هتلر هى ان شعبه كان يصدق ما يقول فى حين أن الشعوب الاخرى لم تستطع أن تصدقه ولا تريد أن تصدقه • فسلوك العالم الخارجي ازاءه سلوك الفلاح الذى يحملق فى زرافة يراها فى السيرك ويهتف : « لا وجود لمثل هذا الحيـوان فى الدنيا ! » وكلما أمعن ادولف فى اطلاع العالم على حقيقة نفسه وما يروم ان يصنع ازدادت ابتسامة العالم تعبيرا عن عدم التصديق • فأمثاله لهم وجود فى كل مستشفى للمجاذيب ، ونمطه مألوف جدا حتى ان أى طبيب أو محلل نفسى يستطيع أن يقوم بتشخيصه من فقرة واحدة من خطبة أو صفحة واحدة من كتاب له • ولكن العقلاء قالوا « هراء ! » وانصرفوا الى شأنهم تاركين ادولف يغزو العالم • وهنا وهناك صاح رجل ذو بصيرة اجتماعية محذرا مما يحدث ، ولكن هؤلاء المحـــذرين كانوا أيضا نمطا معروفا ولدى المحللين النفسانيين أسماء يطلقونها عليهم •

لقد وصل ادولف هتلر الى السيطرة على الحزب الاشتراكى الوطنى بسبب هذا المزيج من الخصائص ، ولأنه كان أشد المتعصبين تعصبا ، وأشد المصممين تصميـما ، لا يعرف الكلل أو التعب ، وهو فى الوقت نفسه أشد الجميع حصافة وأبعدهم عن التحرج وافتكهم • ومنذ البداية تمرد رجال على سلطته فحرص فى حال ضـعفه على مداراتهم ومداجاتهم حتى اذا قوى بأسه سحقهم • وحدث فى حركته الانقسام تلو الانقسام ، فتعقب زعماء الانقسام بغير رحمة أو هوادة حتى قبل أن يصل الى مقاليد الحكم ، وظلت كتائب هجومه المتعصبة تضرب ، وتقتل فى بعض الاحيان خصوم هذه الديانة السوداء الجديدة ، ديانة الدم والثرى • اعمل مع ادولف هتلر تصعد الى ذروة السلطة فى العالم ، أما ان عارضته فسوف ينثر مخك على قارعة الطريق أو يطلق على ظهرك الرصاص وتترك جثتك لقى بغير دفن فى الغابة المظلمة •

ان هيرمان جورنج الطيار وضـــابط الجيش ورجل المـال والثراء صاحب الذوق المترف والغرور الذى لا يعرف الارتواء يبغض ويحتقـــر جوزيف جوبلز الصحفى الثرثار والقزم الصغير المشوه القدم الذى ينفث لسانه السم الزعاف • وكانت هذه المشاعر متبادلة بين الرجلين باخلاص، فيوب كان حريا أن يلقى بماء النار على وجه هيرمان ، وهيرمان كان حريا أن يصرع يوب بالرصاص بمجرد وقوع نظره عليه ، لو ان كلا منهما وجد

الجرأة الكافية . ولكن الفوهرر كان بحاجة الى هيرمان ليكون رئيس الجهاز التنفيذى ، والى يوب ليكون كبير الدعاة ، فشدهما فى عنانين امسكهما بيده وقادهما كانهما حصانان مشدودان الى مركبة واحدة .
ويصدق هذا القول على مئات من الرجال فى ذلك الحزب القائم على الجنون والبغضاء . فهم من ضحايا الحرب العالمية وضحايا الكساد والمرض النفسانيين ومدمنى المخدرات والمنحرفين والشواذ والمجرمين ، وكلهم بحاجة الى ادولف أكثر مما يحتاج ادولف اليهم لأنه يصوغ شيئا اقوى من ذواتهم ولا يكاد يوجد أحد منهم لا يثق بأنه أعظم من ادولف واكفا منه لقيادة الحزب . وفى الايام الخوالى كان من الجائز أن يشمله برعايته ، بل ان الكثيرين منهم ما زالوا يشعرون انهم فى هذا الوضع فعلا فى أعماق قلوبهم ، بيد أنه أفلح فى التفوق عليهم بسبب هذا المزيج من الخصائص ، فهو الشخص الذى اقنع الجماهير أن تثق به ، وهو القادر على أن يتزعم حزب العمال الالمان الاشتراكيين الوطنيين وجميع أعضائه ورجاله الرسميين فى طريقهم الى الغزو والقهر .

- ٢ -

لقد راقب ادولف هتلر من قبل لينين ، وهو اليوم يراقب ستالين وموسولينى ، وقد تعلم منهم جميعا . وفى شهر يونيه ، من سنة ١٩٢٤ عندما كان لانى فى روما كان بنيتو موسولينى قد تولى رئاسة الوزارة فى ايطاليا منذ أكثر من عشرين شهرا ، بيد أن الاشتراكيين كانوا مستمرين فى اصدار صحف لها من القراء أضعاف عدد قراء صحف موسولينى مرات كثيرة . وكانت حرية الكلام لم تزل مكفولة فى البرلمان الايطالى وخارجه ، فثمة حزب معارض لم يزل قائما ، وثمة نقابات عمال وهيئات تعاونية ووسائل أخرى لمقاومة ارادة الفاشيين . لقد احتاج قاتل ماتيوتى إلى سنة أخرى أو أكثر للوصول الى هدفه وهو سحق المعارضة وتنصيب نفسه سيدا مطلقا على الامة الايطالية . أما جدول توقيت ادولف فكان مختلفا عن ذلك ، فلدى ادولف عمل يقول به فى العالم الخارجى ، وليس فى نيته أن يتلكأ ثلاث سنوات قبل الابتداء بتنفيذه ، أجل انه عرف كيف ينتظر ، ولكنه لا يمكن أن ينتظر ساعة واحدة أكثر مما هو ضرورى ، وهو الحكم الوحيد فى التوقيت الذى يحدده ، وسيذهل العالم ، بل وسيذهل اتباعه شخصيا بما فى حركاته من عنصرى المباغتة والسرعة .

ان الاعداد النفسى يجب أن يسبق كل خطوة . فهل هو مقدم على

لمحو حقوق العمال الألمان والقضاء على حركة ظل العمال يشيدونها بصبر قرابة قرن كامل ؟ اذن يجب ان تكون الخطوة الاولى الاقبال على هيئـات العمال بيدين ممدودتين مفتوحتين كي يضمها الى صدره ضمة أخوية فى حين تتلقى فى ظهرها الطعنة القاضـيـة ، أو يجلسها على عرش بحيث يتسنى اختراق جسدها بالرصاص بأمان وثقة بالمدافع الرشاشة ٠

ويوم العمل فى أوربا هو اليوم الاول من شهر مايو ، وفى كل مكان من تلك القارة يقوم العمال فى ذلك اليوم بمواكب واستعراضات ويعقدون اجتماعات كبيرة ويقومون برحلات ومهرجانات رياضية وينشدون الاناشيد ويصغون لخطب زعمائهم ويشجعون أنفسهم على استقبال مائة وأربعة وستين يوما شاقا ٠ أما الآن فقد أعلن قبل ذلك الموعد ببضعة أسابيع أن حكومة هتلر ستتبنى اليوم الاول من مايو وتجعله : «عيد العمال القومى» فهى حكومة « الاشتراكية الصحيحة » وهى صديقة العمال لأنها حكومة عمال ٠ ولا يمكن أن يثور بعد الآن صراع طبقات أو أى تعارض طبقى فى المصالح ، فقد تمت الثورة ويستطيع العـمـال أن يحتفلوا بانتصـارهم وبالمستقبل الجديد المجيد الذى يرتسم أمامهم ٠ وهذه كلها الفاظ ذهبية براقة قامت كل قوى الصحافة والاذاعة بنشرها وبثها فى جميع أنحـاء الوطن الالمانى ٠ وبطبيعة الحال قامت أيضا فى الوقت نفسه قوة الشرطة وجيوش النازى الخاصـة بارهاب وسحق اى شخص يمكن أن يحاول الافصاح عن أية فكرة تخالف ذلك ٠

وكتب هنريش يونج بنشوة وحماس قائلا : « أوه يالانى آ ينبغى ان تاتى لترى هذا اليوم فسيكون شيئا لم يسبق له مثيل فى العالم من قبل ٠ فجميع قوات الشباب ستتجمع فى الصـبـاح فى حديقة الملاهى وسيقوم الرئيس هندنبورج بنفسه بالقاء خطبة فينا ٠ وبعـد الظهر ستقام استعراضات تنكرية لجميع الحرف والمهن ، بل ولكل مصنع كبير فى المانيـا ٠ وسيتجمع الكل فى مطار تمبلهوف وستتجاوز الزينـات كل ما يتصوره العقل ٠ والاغنياء هم الذين دفعوا تكاليفها بأثمان المقـاعد القريبة من مكان الفوهرر ٠ وبطبيعة الحال سيخطب الفوهرر وبعد ذلك ستطلق الالعاب النارية وكانها معركة حقيقية ، وسيتساقط المطر الفضى من ارتفاع ثلاثمائة متر ! وأنا أرجوك أنت وزوجتك أن تحضرا ضيوفا على ، وستشعران دائما بالسرور لأنكما شهدتما هذه المناظر التاريخية ٠٠ حاشية : ارسل اليك طائفة من المطبوعات عن برنامجنا العمالى الجـديد الرائع ، ولن تساورك الشكوك بعد ذلك »

وكتب اليه لانى شاكرا على خطابه معربا عن أسفه • ولم يكن يكلفه شيئا أن يظل على اتصال بهذا المسئول الشاب المتحمس ، والمطبوعات التى أرسلها قد تغدو ذات فائدة يوما لريك • وكان لانى واثقا بانه لن يفكر فى دخول المانيا ما بقى ادولف هتلر مستشارا لها •

- ٣ -

وتم الاحتفـال بكل الابهة التى وعد بها هاينريش • فقد كان كل شىء فيه على أضخم نطاق عرف من قبل ، حتى ان المراسـلين الاجانب المتحفظين جدا أصابهم الارتياع وأرسلوا الى صحفهم يقولون أن شـيئا جديدا قد ولد فى العالم • ففى المطار الضخم اجتمع عند الظهر ثلاثمائة الف شخص جلسوا على الارض فى انتظار الاحتفالات التى لا تبدأ قبـل الساعة الثامنة مساء • فلما حان ذلك الموعد بلغ عدد المحتشدين مليونا أو مليونا ونصف يقال انهم أكبر عدد من الناس اجتمع فى مكان واحد • وحضر هتلر وهندنبورج راكبين متجاورين فى سيارة واحدة ، وهى أول مرة يحدث فيها شىء من ذلك القبيل ، فاخترقا شارع فردريش بطوله كله وقد اكتظ عن آخره بالجماهير الهاتفة وعلقت فيه بيارق تحمل شعارات « نحو الاشتراكية الالمانية » و « المجد للعاملين » وما الى ذلك • وأمام منصة الخطابة وقف المستشـار الجديد يجيل ببصره فى بحـر مترام من الوجوه • وكان وقوفه تحت الاضواء المركزة وهو يؤدى التحية النازية مرارا وتكرارا • ولما تكلم فى النهاية حملت مكبرات الصوت كلماته الى كل ركن من أركان المطار ، وحملت أجهزة الاذاعة وأسلاك البرق خطبته الى جميع بقاع العالم •

وكانت رسالة المستشار الجـديد ان « الشعب الالمانى يجب أن يتعلم مرة أخرى كيف يعرف أفراده بعضهم بعضـا » وأن التقسيمات الداخلية لألمانيا ابتدعتها البلاهة البشرية ويمكن علاجها بالحكمة البشرية• وقرر هتلر أنه منذ الآن سيكون اليوم الاول من مايو يوما يحتفل فيـه الجميع بالتصافى والتضامن ، وشعاره « مجدوا العمل واحترموا العامل » وقال للالمان ما هم بحاجة قصوى لسماعة ، « انكم لستم أمة من الدرجة الثانية بل انتم اقوياء ان اردتم أن تكونوا اقوياء » • وانقلب الى التقوى وراح يبتهل : « اللهم ساعدنا على كفاحنا فى سبيل الحرية ! » •

ولم يكن فى الامكان ان يقال ما هو ابلغ أو انبل من هذا • فهل غمز

أدى بعينه لصحفيه قائلا : « ها قد افلحنا يايوبشن » أو أى عبارة المانية تفيد هذا المعنى الدارج ؟ مهما يكن من شيء فقد حدث في صباح اليوم التالي ان محيت من الوجود بضربة واحدة جميع نقابات العمال في المانيا التي تمثل ملايين العمال ويبلغ دخلها السنوى قرابة مائتي مليون مارك • وكان عملاء هذه العملية يسمون « لجان العمل » وهم من منظمة خلية التجارة ، وهى المنظمة النازية التى قامت ببث الدعاية النازية فى النقابات • وظهرت عصابات مسلحة عند مقار الرياسات العامة لجميع النقابات وقبضت على الموظفين المسئولين والقت بهم فى معسكرات الاعتقال وصودرت جميع الارصدة والغيت الصحف الخاصة بالنقابات وزج محرروها فى السجون واغلقت بنوك النقابات ، وقد تم ذلك كله دون مقاومة • وقد كان الاشتراكيون مصرين على الانتظار الى أن يقترف النازى شيئا « غير شرعى » وها هو ذلك الشيء قد وقع •

وكتب فريدى الى لانى فى خطاب غفل من التوقيع مكتوب على الآلة الكاتبة لأن مثل هذا الخطاب كان حريا ان يكلفه حياته : وماذا نستطيع ان نصنع ؟ ان أصدقاءنا يعقدون اجتماعاتهم الصغيرة فى بيوتهم ، ولكنهم لا يملكون سلاحا ، والضباط والجنود قد فت فى عزيمتهم جبن زعمائهم • والشائع على الألسنة أن المؤسسات التعاونية ستصادر ايضا ، وسينشأ تنظيم جديد يسمى « جبهة العمل الالمانية » يرأسها روبرت لى ، وهو الوغد السكير الذى أمر بهذه الغارات • واخال الصحف فى باريس لابد نشرت منشوره الذى يقول فيه : كلا ايها العمال ان منظماتكم مقدسة مصونة من العدوان فى نظرنا نحن الاشتراكيين الوطنيين ! » فهل يمكن ان يتخيل أحد مثل هذا الرياء ؟ هل فقدت الالفاظ كل معانيها ؟ لا ترد على هذا الخطاب ولا تكتب الينا شيئا الا مالا ضرر منه ، فمن المؤكد أن بريدنا مراقب ولا بد أن نطلب من اقاربنا فى الخارج الا يحضروا أى اجتماعات سياسية فى الوقت الراهن والسبب فى ذلك واضح » •

وانه لمصدر عذاب لهانس وبيس أن يجلسا مفقودى الايدى فى حين يستمر الفزع والارهاب ، ولكن النازى كانوا قد بينوا بما لا يدع مجالا للشك انهم سيحيون عادة همجية قديمة وهى عادة معاقبة الاعضاء الابرياء فى الاسرة حتى يرهبوا المذنبين • ولا يمكن لانسان أن يكون مكافحا حقا ضد النازية وهو يعلم انه قد يتسبب لزوجته أو اطفاله أو والديه أو اخوته فى القائهم فى معسكرات الاعتقال وتعذيبهم • ولم يكن أمام هانس اختيار سوى الغاء ارتباطاته بالعزف فى حفلات موسيقية لمساعدة اللاجئين •

وقالت بيوتى للزوجين : « انتظرا على الاقل الى أن تخرج الاسرة من المانيا » وسال الاحمران الشابان ضميرهما « ثم ماذا ؟ » هل من حقهما أن يمضيا النزهة على اليخت فى حين يقاسى أصدقاؤهما ورفاقهما العذاب الاليم ؟ ومن جهة اخرى ما القول فى حاجـة الوالد الى الراحة ؟ وفكر هانس فى أبيه الذى أتاح له أحسن الطيبات جميعا فى هذه الدنيا ، ولن يحظى بالراحة اذا ما أعلن ابنه الاكبر الحرب على النازية • ثم هناك أمه التى عاشت للاسرة ولم تفكر فى شىء سوى سعادتها ، فهل يحكم عليها بالفزع والرعب ابتداء من الآن ؟

وسال الشاب الذى يريد أن يكون فنانا ومصلحا فى الوقت نفسه « ما رايك يا لانى ؟ » فخطر للانى أن يكشف له عن المشروع الذى كان يختمر فى ذهنه وهو اقتناص يوهانس واستغلال أمواله ، فراقت الفكرة هانس كثيرا ، لأنها يمكن أن تريح ضـــميره فيمضى فى دراســته على الفيولينا • أما بيس ذات المراس الصـعب فقالت : « ســتكون مجلتكم مجرد مجلة اخرى تناصر الحرية » فقال لانى باسما : « فى وسعكما أن تســتقلا داخلها بقسم أحمر » فقـالت حفيدة المتطهرين : « ان ذلك من شأنه أن يحدث انقساما فى الاسرة » •

- ٤ -

وكتب يوهانس أنه حصل على جوازات سفر لرحلته وحدد تاريخ وصول اليخت الى كاليه ومن هناك يتوجهون جميعـــا الى رامسجيت ثم يذهبون الى لندن لقضاء بضعة أيام وربما زاروا آل بوميروى نيلس لأن هذه الرحلة ستكون رحلة تسلية ، ويتسع فيها الوقت للقيام بأى عمل يخطر ببال أحدهم • وقال فى الخطاب أيضا : « لقد استحققنا عطلة » وفكر لانى فى أن هذا قد ينطبق على يوهانس روبن ولكن أتراه ينطبق على ايرما بارنز ؟

وكتب ردا جاء فيه : « لقد وصلت اميلى شترزورث الى ضيعتها ليه فوريه وان هانس يقيم لها حفلا موسيقيا ببرنامج بديع جدا فلماذا لاتحضر أنت والاسرة على الفور لقضاء بضعة أيام فى باريس ؟ اننا فى اشد اللهفة لرؤياكم • وصالون الربيع هو أطرف ما رأيت منذ سنوات • زلطان هنا وسيبيعك بضع صور بديعة • زهاروف فى بلينكور والسيدة معه هناك وســأخذك لتحظى بجلسة وربما التقيت مرة أخـــرى بأرواح أعمامك

الراحلين • وثمة مسرات أخرى أستطيع أن أقترحها عليك وعندى من الأسباب ما يبرر شدة لهفتنا على رؤياكم » •

ورد عليه يوهانس والابتسامة تلوح بين السطور : « ان دعوتك موضع تقدير ولكن أرجـــو أن تشرح لأرواح أعمامى انه لم تزل أمامى موضوعات مهمة لا بد من تسويتها أولا ، فأنا أقوم بخدمات لبعض ذوى النفوذ وسيكون ذلك لمصلحتنا جميعا » وهو كلام مبهم جدا ولكن لانى يستطيع ان يخمن منه ان يوهانس يبيع شيئا ، او لعله يتخـــلى عن الاشراف على مشروع كبير ولا يمكنه أن يفلت بضعة ملايين من الفرنكات، وذلك امر تستطيع أرواح أعمامه أن تقدره • وكتب أستاذ الحرص والحذر يقول أيضا : « لا تصدق شيئا مما تقوله الصحافة الاجنبية عن ألمانيا • ان تغييرات اجتماعية مهمة تجرى الآن وروح الشعب فيما عدا جماعات معينة صغيرة عالية جدا » • وبدراسة هذه العبارة تجدها ذات ألفـاظ مختارة بعناية ويمكن ان تؤول على عدة وجوه • وكان لانى يعرف تفكـير صديقه القديم وعددا غير قليل من المتصلين به ومن بينهم أمراء الاقطاع المفلسين الذين اقرضهم الاموال ، ومنهم أمراء الصلب والفحـم الذين تحالف معهم وما زالوا يواصلون كفاحهم للســيطرة على ألمانيا • وهم يعملون داخل الحزب النازى وما به من انقسامات فهم سببه الى حد ما • ولاحظ لانى ان الاغارات على نقابات العمال قام بها روبرت لى وعصاباته• فهل حول الوغد السكير البنادق ضد زملائه فى الحزب ؟ ان صح هـذا فللمرء أن يشك فى أن يد تسن الفولاذية كانت تعمل وراء الكواليس • ومن يستطيع ان يتصـــور كم بليونا من الماركات تعنى فى نظر رئيس احتـكارات الرور أن يتخلص من النقـــابات البغيضـة ويأمن جـانب الاضطرابات منذ ذلك اليوم ؟

وقد كتب روبى بد عن هذا الموقف المهم فى نظره قائلا : « هنـاك نضال مرير للسيطرة على الصناعة فى ألمانيا ، فثمة فريقان كلاهما قوى سياسيا وهما فريق تسن وكروب فى مقابل فريق اتوفولف والفـريق الاخير بعضه يهودى والوضع الراهن غير ملائم له • ويوهانس يعتقـد ان له اصدقاء فى المعسكرين كليهما ، وانا ارجو الا يكون مخدوعا فهو يسخر بسفينة صغيرة وسط بحر عاصف » • وأورد روبى ايضا انباء اخرى : « أبى صحته منحطة واخشى الا تجده هنا عندما تصل • وهـو ليس مصابا بمرض معين وانما هو الانهيار البطىء الذى يلازم الشيخوخة، وهو شىء محزن جدا لمن يشاهده ، ومعنى ذلك مسئوليات ثقيلة بالنسبة لى ، ولا احب ان اكتب عن هذا الموقف الآن ولكنى ساخبرك به عندما

ـا أراك٠اكتب الى السيد العجوز وأكد له تقديرك لحنانه عليك فهو يحاول الاحتفاظ بسيطرته على الاسرة كلها وعلى العمل أيضا ٠ وهو ينسى ماقلته له بالامس ٠ ولكنه يذكر بوضوح أمورا حدثت منذ زمن بعيد ، وهـذا أمر شاق على جدا لأننى سببت له شقاء عظيما فى الايام الماضية فى حين بدأ الشيخ يتعلم فى السنوات الاخيرة كيف يأخذنى على علاتى ويفيد من ذلك بقدر الامكان وأنا أحاول الا أحزن عليه ، لأنه حصل من الحياة على اكثر مما يحصل عليه معظم الناس ، والقدر لا يتركنا نعيش الى الابد ولا يسمح لنا بالحصول على مرادنا ونحن على قيد الحياة » ٠

— ٥ —

ان ادولف هتلر هو الرجل الذى ينال ما يريد أكثر من اى شخص عاش فى العصور الحديثة ، فهو ماض فى السيطرة على كل شىء فى المانيا حكومة ومنظمات وحياة اجتماعية وثقافية ٠ وكل تنظيم اعترض طريقـه حطمه فى سرعة وبلا هوادة بحيث يترك المعارضة ذاهلة تشعر بدوار ٠ والحزب الوطنى الذى تخيل انه يستطيع السيطرة عليه وجد نفسه لاحول له ولا طول ، فبابن نائب المستشار تحول الى صورة رمزية لا سلطان لها ، وحل جورنج محله فى السـيطرة على الدولة البروسية ٠ وهـو جنبرج الغيت عدة صحف له ، وعندما هدد بالاسـتقالة من الوزارة لم يأبه لذلك أحد ٠ وارغم الاعضاء الوطنيون على الخروج واحدا بعد الآخر وحـل النـازى محلهم ٠ والمرءوسـون كان يتم القبض عليهم ويتهمون بالاختلاس وما الى ذلك ، فقد كان فى سلطة وزير الاستعلامات أن يتهم اى انسان بأى شىء ، وكان من الخطورة أن يرد على الاتهام ٠

وفى اليوم العاشر من شهر مايو اقيمت احتفالات فى أنحاء المانيا استلفتت أنظار العالم المتمدين فقد جمعت كميات ضخمة من الكتب من مكتبة برلين العظيمة ومن بينها معظم الكتب القيمة التى ألفت فى المائة سنة الاخيرة فى أى موضوع يمس ولو من بعيد المشكلات السياسية أو الاجتماعية أو الجنسية ، وتم تكديس نحو اربعين الف مجلد فى الميدان الواقع بين الجامعـة ودار الاوبرا واغرقت بالبترول ، وقام الطلبـة بالاستعراضات مرتدين قلانسهم الاحتفالية البراقة ومنشدين اغانوطنية واناشيد النازى ، ثم أشعلوا المحرقة بكل جد ووقف الجمهور الحاشـد تحت رذاذ المطر يرقب الكتب وهى تحترق ٠ وهكذا دمر الفكر الحديث

رمزيا في المانيا ، وتاهبت أمة كانت في طليعة الحياة العقلية لأن تتعلم كيف تفكر ووسيلتها الى ذلك هي اراقة الدماء .

وفي ذلك اليوم العاشر من مايو أيضا صدرت الاوامر الى المدارس في ألمانيا أن تبدأ تلقين مبادىء النازى الخاصة بالسلالة . وفي ذلك اليوم صادرت الحكومة الارصدة الخاصة بالحزب الاشتراكي وحولتها الى النقابات الجديدة التي يسيطر عليهاالنازى . وفي ذلك اليوم كذلك خطب المستشار هتلر في مؤتمر العمل قائلا : ان أصله المتواضع ونشأته المتواضعة يؤهلانه لفهم احتياجات العمال ورعايتها . وفي ذلك اليوم منع مراسل النيويورك تايمز من الابراق بأنباء انتحار ابنة شيدمان الزعيم الاشتراكي وانتحار بطلة في التنس كسبت المجد لألمانيا ولكنها تعارض في ربط الرياضة الالمانية بالدعاية النازية .

- ٦ -

كان اعضاء أسرة بد في بيانفيني وباريس يحزمون حقائبهم ويستعدون لغيبة تطول عاما عن البيت . فماذا ينبغى أن يأخذوا وماذا يتركون ؟ ان كل شيء يؤخذ الى ظهر اليخت يجب أن يرقم بعلامات تبين القمرات أو جوف السفينة . اما ما يرسل من باريس الى بيانفيني فترك في عهدة جيرى بندلتون الذى يتولى أمر تعبئته وتفريغه . وكان المؤدب السابق والملازم السابق قد اقتصد معظم مرتب السنة وسيعود الى النزل وينتظر عودة السائحين . والسيدة سيزنسكي ستعار سنة لملك الذخائر لأن أرواخ آل بد وآل دنجل يبدو انها قالت كل ما كان لديها ، أما الدوقة المركيزة فلم تزل بحالة جيدة . وبب سمث سيحرس الصغيرة الثمينة فرانسس الى اليخت ويتأكد من وصولها سليمة الى ظهره ثم يستقل باخرة فيعود الى عمله في نيوكاسل الى أن تصل الطفلة الى أرض العصابات ووطن الخطافين .

ووصل القادمون من بيانفيني الى باريس بالقطار ، وهم هانس وبيس وبيوتى وزوجها ومرسلين ومربيتها وقد صارت مرسلين في السادسة عشرة تقريبا شابة أنيقة ولكنها يجب أن ترغم على الدراسة كل يوم على ظهر اليخت . واذا صادفها شيء لا تعرفه الآنسة ادنجتون مربيتها ففي وسعها أن تبحث عنه في دائرة المعارف ، أو يخبرها بجليته لانى العارف بكل شيء . والطفلة فرانسس سنها الآن ثلاث سنوات ،

وكانت بطانتها عبارة عن الآنسة سيفيرن ومربية وراعى القصر السابق من تكساس • وكان وصول هؤلاء الاشخاص العشرة فى الصباح ، وثار زؤاط وصراخ لأنهم جميعا يريدون هذا أو ذاك قبل الصعود الى اليخت ، وبدا أن بهو المدخل فى القصر لم يشـــهد من قبل كل هـــذه الكومة من الحقائب والصناديق •

وفى المساء اتجهت البعثة الى كاليه وقد زادت أربعة اشخاص هم ايرما وزوجها وخادمتها وسكرتيرتها فيذرس التى كانت على حد وصف ايرما لها مرارا وتكرارا ، بلهاء ولكنها بلهاء طيبة تقوم بجميع المهـام التى تحتاج الى انتقال وتقوم بشراء السلع من الســـوق والاتصـــالات التليفونية وتدون الحسابات وترتبك عند ضبطها ارتباكا لا حيلة فيــه ، وتتقبل التوبيخ بالدموع وتعد باصلاح شأنها وبذلت المسكينة خير جهدها ، ولكنها لا تستطيع شيئا من ذلك لأنها نشأت سيدة ، وتفكر فى ذاتها أكثر مما تستطيع التفكير فى عملها •

لقد تضاعف الآن عدد الصناديق والحقائب ، وتضاعفت الارتباكات والهرج ، ولكن ذلك كله حدث بصوت منخفض لأن ايرما تنشـــط فى المحافظة على كرامة الاسرة ، فهى أسرة بارزة وفى المحطة مندوبون للصحف يشهدون سفرها ويسألون عن رحلتها المزمعة • وملايين الناس سيطالعون أعمال الاسرة فتسرى اليهم هزات الاثارة ، وملايين سيعجبون بهم وملايين سيحسدونهم ، ولكن حفنة صغيرة فحسب ستحبهم ــ وهذا فيما يبدو هى حال الدنيا •

- ٧ -

وفى صباح اليوم التالى ظهرت المجموعة على رصيف محطـــة ذلك المرفأ القديم • ومقصد السابحين وانتظروا ريثما اتصل لانى تليفونيا ثم أكد لهم أن اليخت لم تعرف له أنباء بعد ، فركبوا سيارات الاجرة الى فندقى التجارة واكسلسيور حيث كدست الامتعة فى حجرة وقد كومت على شكل جبل وعينت فيذرس لحراستها وكان يوما رائعا من أيام الربيع فشرعت الاسرة تبحث عن نقطة للمراقبة تترصـــد فيها اقتراب اليخت بس بد الابيض الانيق • ولدى ايرما ولانى ذكرى لهذا المنظر لا تنسى ، وهى ذكرى يومهما فى رامسجيت حينما كانا يحاولان الزواج على عجل ، فهيأ لهما اليخت وصاحبه المرح وسيلة للتهرب من سلطان رئيس أساقفة كانتربيورى •

والآن يزمع هذا اليخت أن يقلهما الى طوبيا ، أو الى جزيرة استوائية بها برج عاجى ، أو أى مكان فى العالم لا يرى فيـه النازى صـــارخين مستعرضين صفوفهم منشدين أناشيدهم • والسفن التى تسير بالبترول لا تترك على صـفحة الافق لطخـا من الدخان الاسـود ، ولذا يجب أن يتسقطوا نقطة باهتة تنمو وتكبر تدريجا • وامثال هذه النقطة يظهر كثيرا على الافق ولكنها متى كبرت تكشفت عن شىء آخر • وهكذا مضت المجموعة للغداء فجلس أربعة عشر شخصا على مائدة واحدة طـويلة ، وقد اقتضى جلوسهم بعض الجهد وكذلك تسجيل طلباتهم ثم توزيعها توزيعا صائبا • ولانتمائهم الى الطبقات الهامة لا ينبغى لهم ولا لخدمهم أن ياتوا شيئا يلفت اليه الانظار علنا • وقد فرض ذلك حتى على من عمرها ثلاث سنوات • هس • هس • أيتها الطفلة !

وجلسوا طيلة بعد الظهر فى المتنزه المطل على البحر وراحوا يرقبون الافق الشرقى ، وسبح نفر منهم ، ومضى نفر آخر لمشـــاهدة المدينـة كالحصن الذى أنشىء منذ أربعمائة سنة ، والقلعة ، وكنيسة نوتردام وبها لوحة من تصوير روبنسن•واشتروا بطاقات بريد أرسلوها الى أصدقائهم العديدين • وبين الحين والحين يتفقدون المرفأ ، ولكن لا أثر لليخت بس بد الانيق الابيض • ومرة أخرى صفت لهم الموائد على شكل مائدة واحدة طويلة فى المطعم وتناول الاشخاص الاربعة عشرالعشاء ثم خرجوا وترقبوا حتى حلول الظلمة ولكن لا أثر لليخت •

واخذ القلق يساورهم ، فقد حدد يوهانس ســـاعة معينة لمبارحة بريمر هافن وهو رجل دقيق يؤدى كل شىء فى وقته ويحمل مستخدميه على ذلك • فلو قد حدث شىء غير متوقع لأرسل برقية أو اتصل تليفونيا • وكان قد تحرى فى خطابه الاخير أن يحدد الفندق الذى ينزلون به كى يعرف أين يلتمسهم • وهم قد ركبوا البحر معه كثيرا من قبل فيعرفون كم ساعة يستغرقها اليخت ليصل الى كاليه • وقد وضعت الخطة لليخت كى يصل فى وقت واحد مع القطار القادم من باريس • وها قد مضى على هذا الموعد اثنتا عشر ساعة •

لا بد أن شيئا قد حدث ، وقضوا الوقت فى مناقشـــة الاحتمالات فاليخوت الخاصة التى يعتز بهـا كما يجب لا يحدث لآلاتها عطب فى الجو الهادى ولا ترتطم بجزائر فريزيان وهى فى طريها من المانيا الى فرنسا ، بل تسير بأمان ليلا ونهارا على السواء • ولـكن بطبيعة الحال قد تعترض سفينة للصيادين أو غير ذلك من العقبات طريق اليخت وقال لانى هاوى قيادة السيارات « متاعب فى مطاط العجلات ! »

ولما حان وقت الايواء الى الفراش من غير أن يصل نبأ اليخت اتجه لانى الى التليفون وطلب الاتصال باليخت بسى بد فى بريمرهافن ، فهذه اسرع طريقة لمعرفة هل اقلع من هناك • وجلس هانسى وبيس معه وبعد انتظار الفترة المألوفة سمع صوتا حلقيا يقول بالالمانية « اليخت المسير بالديزل بسى بد » فسأل لانى : « من المتكلم ؟ » فاجاب الصوت : « بريسمان » فسأله : « ومن بريسمان ؟ » فاجاب « القائد الثانى لقوة الاعتقال الادارية بالرايخ» والالمان يحملون هذه الالقاب باعتداد ويقولونها بسرعة • فسأله لانى: « وماذا تصنع على ظهر اليخت ؟ » فأجاب الصوت: « الادلاء بالمعلومات ممنوع ! » فقال لانى: « ولكن اليخت كان من المفروض أن يبحر بالأمس ! » فقال مرة أخرى : « الادلاء بالمعلومات ممنوع » فقال لانى : « ولكن من فضلك ...» فقال الآخر : « آسف هذا غير مصرح به ». ثم سمع صوت اقفال الاتصال واصغى لانى مأخوذا الى سلك ميت ثم هتف « يا الهى! هل من الممكن أن يكون النازى قد استولوا على بسى بد ؟» فشحب لون هانسى وغرست بيس أظافرها فى راحيتها وهتفت : «ولماذا يقدمون على ذلك ؟ » فاجاب لانى : « لا أدرى الا اذا كان أحدهم يريد يختا » وهمس هانسى « لقد قبضوا على بابا ؟ » وبدا عليه كما لو كان سيخر على وجهه فامسكت بيسى بكتفيه وصاحت « هانسى ! يالها نسى المسكين ! » وكان من رايها أن تفكر فيه بصفة خاصة ، فهو الذى كتب عليه أشد التأثر بالالم !

وكانما نزلت من السماء صاعقة فبددت خططهم وحولت مسراتهم الى كابوس من العذاب • خراب تام وبوار لا فرار منه • هكذا بدا الامر ، ولم يستطع احد أن يفكر فى شىء يقوله للتسرية عن الآخرين • ومرت أكثر من ست وثلاثين ساعة منذ الموعد المحدد للابحار ، فهل من المقصود أن يتريث يوهانس كل هذا الوقت قبل أن يبعث بكلمة الى أصدقائه ؟ وهل لو ظل أحد من أفراد الاسرة طليقا كان يفوته الاتصال بهم ؟ لم يبق الا احتمال واحد هو أن يكونوا افلتوا من الاعتقال وهربوا من الجائز انهم الآن فى طريقهم الى خارج المانيا ، أو لعلهم مختبئون فى مكان ما ولا يجسرون على ارسال برقية • وفى الحالة الاخيرة قد يعمدون الى الوسيلة التىاستخدموها بالفعل من قبل وهىوسيلة الخطابات الغفل من التوقيع. فان كان مثل هذا الخطاب فى الطريق فمن المنتظر وصوله فى الصباح •

وقال لانى : « سأحاول الاتصـــال ببرلين » . فلا بد من عمل شيء لتحطيم حالة الجمود ! وطلب الاتصال بقصر روبن ، ورد عليه صوت غير مألوف له فسأله لانى هل يوهانس روبن موجود فحاول الصوت الغريب أن يعرف من المتكلم . ولما ذكر له لانى اسمه انطلق الآخر يستجوبه عن الاسباب التى دعته لهذا الاتصال التليفونى . ولما الح لانى أن يعرف من الذى يكلمه قطع المتكلم الاتصال فجأة . وهذا أيضا يعنى شيئا واحدا ، وهو أن النازى استولوا على القصر ! وصاح هانسى : « يجب أن أذهب وأساعد بابا! » ونهض واقفا كمن يريد أن يجرى صوب المحطة على الفور، أو ربما صوب المطار ان كان ثمـــة مطار ، وأمسك به لانى وبيسى فى آن واحد وأمره صهره : « اجلس . تعقل . ليس أمامك ما تصنعه فى المانيا سوى أن تجعلهم يقتلونك » فقال هانس : « ولكنى لا بد أن أحاول حتما يا لانى » فأجابه : « بل ينبغى حتما الا تحاول ! فليس هناك من يفضلون القبض عليه أكثر منك » فقال : « سأذهب تحت اسم آخر » فقال لانى : « بجواز سفر مستعار ؟ انت الذى عزفت على كثير من المسارح الموسيقية؟ ان لاعدائنـــا عقولا يا هانسى ويجب أن نظهر لهم أن لدينـــا عقولا أيضا » وقالت بيسى « انه على حق . وكل ما يمكن عمله فأنا التى يجب أن أقوم به » فتحول لانى اليها قائلا « انهم يعرفونك كما يعرفون هانسى تقريبـــا ولا بد أنهم يبحثون عنك ، لن يجسروا على التعرض بشيء لامريكية » فقال لها « انهم يقـــدمون على ذلك بلا تحرج . ثم انت لســـت امريكية ، لانك زوجة مواطن المانى . مما يجعلك المانية » . وكان الاربعة من شباب آل روبن قد جعلوا أنفسهم مواطنين لجمهورية فيمار لانهم آمنوا بهـــا ورتبوا امورهم على قضـــاء حياتهم هنـــاك . واستطرد لانى « وهـــذا يضع حدا لتفـــكيرك فى الذهاب . ويجب أن يعدنى كلاكمـــا وعد الشرف الا تدخلا المانيا والا تقتربا من حدودها حيث يمكنهم اختطافكما . وبعد الحصول على هذا الوعد منكما سأدخل أنا وايرما المانيا لنرى ماذا نستطيع أن نصنع» . فنظر هانسى الى صهره بعينين يبدو فيهما عرفان الجميل كأنه كلب وقال « اتقدمان على ذلك حقـــا يا لانى ؟ » اعدك بذلك عن نفسى واحسب ايرما ستذهب معى . ولكنى بطبيعة الحال يجب أن اسألها رأيها » .

- ٩ -

وكانت ايرما وحدها فى حجرتها تستريح فذهب اليها بمفرده ولم يكن متأكدا من كيفية تقبلها لهذا النبأ المروع . وأراد أن يمنحها فرصة

للتفكير قبل أن يذاع النبأ على اى شخص آخر . وايرما ليست مصلحة ولا قديسة . وانما هى شابة حصلت دائما على ما تريد وكانت تأخذ مأخذ التسليم ان العالم انما وجد ليحقق لها مرادها . وها هو القدر الآن يوجه اليها ضربة قذرة . وجلست تحملق فى زوجهـا فى ذهول . فلم تستطع أن تحمل نفسها على التصديق بأن شيئا من هذا القبيل يمكن أن يحدث فى هذا العالم المتمدين المريح الذى خلق لها ولمن على شاكلتها ، وهتفت « انهم لا يمكن أن يصنعوا ذلك يا لانى ! » فقال « انهم يصنعون ما يرونه مناسبا لهم يا عزيزتى » فقالت «ولكنه يقضى على رحلتنا البحرية! ويتركنا غائصين فى وحول الشاطىء ! » فقال لها « لعلهم الآن قد زجوا بأصدقائنا فى السجن ، ولعلهم أيضا يضربونهم ويهينونهم » فصاحت « ان هذا غير معقول يا لانى ! » فقال « نعم . ولكن هذا لن يكفهم عن المضى فى ذلك . ويجب أن نتدبر طريقة لانقاذهم » فسألته « وماذا نستطيع أن نصنع ؟ » فقال « لست أدرى بعـد . يجب أن أذهـب الى برلين وارى ماذا حدث » فقالت « لانى لا يمكنك أن تدخل ذلك البلد الفظيع ! » فقال « ليس فى استطاعتى أن ارفض يا عزيزتى . ولا تنسى اننا كنا ضيوفا على يوهانس، واننا كنا بسبيل أن ننزل ضيوفا عليه سنة أخرى كاملة . فكيف يسعنا أن نتخلى عنه ؟ » فلم تدر ماذا تقول واكتفت بالجلوس محملقة فيه . فلم يخطر ببالهـا قط أن الحياة يمكن أن تلعب عليهـا مثل هذا الملعوب هى وشريك لهوها المختـار . ان ذلك فظيـع وجنونى ! ورأى لانى شـفتيها ترتجفان ولم يكن ابصرها على هذا النحو من قبل ، ولعلها لم تكن على هذا النحو قط من قبـل . وهو شخصيا لم يكن راضـيا كل الرضى عن هذا الموقف ، ولكن كأنما القـدر امسك بتلابيبـه فلا يستطيع أن يتحرر من قبضته . وقال لها « تمالـكى اعصابك يا حبيبتى وتذكرى أن يوهانس والد هانسى . وأن هانسى زوج اختى . ولا استطع أن أتركهما يروننى نكسا رعديدا » . فسألته« ولكن ماذا تستطيع أن تصنع هناك يا لانى ؟» ان هؤلاء النازى يسيطرون على كل شىء فى المانيا » فأجابها « اننا نعرف نفرا من ذوى النفوذ هناك وسأسالهم النصح . واول ما نفعـله بطبيعة الحال هو ان نعرف ماذا حدث ولماذا حدث » فقالت « انك يا لانى ستكون فى خطر ماحق ! » فقال « انه ليس خطرا عظيما جدا فيما اظن . فالهيئات العليا هنـاك لا تريد فضائح من الاجانب فى يقينى » . فسـألته « ماذا تتوقع منى أن أصـنع ؟ أن أذهب معك ؟ » فأجابها « انهـا ليست رحلة عطلة . وقد تفضلين الذهاب الى بيانفينى مع الطفلة ، وفى استطاعتك أن تستقدمى والدتك أو ان تأخذى الطفـلة وتذهبى لزيارتها » فقالت « لن

احظى بلحظة هدوء واحدة اذا خطر لى انك فى مأزق • وليست لدى أقل فكرة عما استطيعه ولكني اظن من واجبى أن اكون معك » فقال « لا شك عندى ان وجودك سيساعدنى ، فثروتك لها وقع كبير عند الالمان ، بما فيهم النازى » فقالت : « اوه يا لانى • هذا ازعاج فظيع وخيبة أمل ! كنت احسبنا سنلهو ونستمتع كثيرا ! » فقال « نعم يا عزيزتى ولكن لا تدعى هانسى وبيس يسمعانك تقولين هذا • تذكرى ماذا يعنى الامر بالنسبة لهما » فقالت « كان ينبغي عليهما أن يفكرا فى ذلك منذ زمن طويل ، ولكنهما لا يسمحان لاحد أن ينصحهما وها هما يريان الآن نتيجة سلوكهما • وقد صار منتظرا منا الآن ان ندفع الثمن ! » فقال « ليس هناك مبرر يا عزيزتى لافتراض انهما سبب ما حدث » فقالت « لا بد أن هناك سببا لاضطهاد يوهانس دون غيره من أغنياء اليهود • ولا بد أن تحمس أحد ولديه للشيوعية وتحمس الولد الآخر للاشتراكية قد خلق له أعداء » • ولم يستطع لانى أن ينكر ذلك ولكنه قال « ارجوك ألا تشيرى الى ذلك الآن•وهانسى وبيس يكاد الحزن يجعلهما نصف مخبولين• ولنذهب نحن لنخرج اسرتهما من المانيا وعندئذ ستكون فى وضع يسمح لنا بمصارحتهما القول » فقالت ايرما بتجهم « نعم • ولكنك لن تكلمهما بصراحة ! » فهى مستعدة للذهاب معه الى جوف عرين الاسد ، ولكنها لا يمكن أن تتظاهر برضاها عن ذلك ! وعندما ينتهى الموضوع ستقوم هى بتوجيه الكلام اليهما شخصيا •

- ١٠ -

لم يحظ البالغون من أفراد الاسرة بنوم تلك الليلة ، فجلس ستتهم على هيئة مؤتمر يراجعون ويعيدون مراجعة المعلومات الهزيلة التى لديهم ويحاولون التكهن بالمستقبل ورسم خطة لتحركاتهم • وانه لأمر محزن أن تهدم مشروعات سعادتهم لمدة سنة وان يجدوا أنفسهم غائصين فى وحول الشاطىء هنا فى كالية بيد أنهم أشخاص حسنو التربية ولذا اخفوا ضيقهم • وبيوتى لم تستطع فى البداية تحمل اقحام عزيزها نفسه فى موطن الخطر وظلت برهة تلح فى الذهاب معه واستخدام نفوذها الاجتماعى هناك ، ولكن لانى عارضها فهو ليس منزعجا على الاطلاق بخصوص نفسه شخصيا وبعد بضعة أيام قد يطلق سراح اليخت ويستأنفون تنفيذخططهم • فلتمكث الاسرة هنا بضعة أيام لتكون بمثابة دار للمقاصة تصلح للاتصال بأصدقائهم فى العالم الخارجى فان صح

اسوا الفروض وتوقعوا اقامة طويلة فى المانيا ففى استطاعة مرسلين وفرانسس أن تعودا الى جوان ، وان يذهب الزوجان دنجل والزوجان هانسى روبن الى باريس ، أو لعل اميلى تستضيفهم فى ضيعتها « البلوطات السبع » .

واتصل لانى تليفونيا بجيرى بندلتون فى منتصف الليل وكان جيرى لم يزل مقيما فى باريس لدفع قوائم الحساب وتسويته وغير ذلك من الامور . وكانت الاوامر الصادرة اليه قبل ذلك أن يعود بسيارته الى بيته ، وأن يقود السائق المرسيدس سيارة ايرما ولانى . اما الآن فقد أمر لانى جيرى بالبقاء فى باريس ، وأن يغادرها السائق فورا الى كاليه . فاذا قاد السيارة بسرعة وصلها قبل الظهر فيتسنى للانى وايرما ركوبها صوب برلين . وسيذهبان وحدهما لأن السائق وباب سمث وفيذرس لا جدوى منهم فى المانيا لجهلهم اللغة . وقالت ايرما لسكرتيرتها وهى تصب على المسكينة ضيقها « لو كنت جديرة بلقمتك لتعلمت الالمانية » .

وارسل لانى برقيتين الى أبيه والى ريك يخبرهما بما حدث. وخطر له أن فى مثل هذه الاوقات يثبت الصحفى الاجنبى أنه شخصية أقوى من أى قطب من رجال الصناعة أو وارثه ثرية . وتمثل لانى نفسه فى حملة لاثارة العالم المتمدين لمناصرة ذلك اليهودى المستغل واسرته. وكان راسه يغلى بالخطابات والبرقيات والمنشورات والندوات . وفى استطاعة روبى أن يستثير رجال الاعمال . وفى استطاعة الخال جيسى ان يستثير الشيوعيين وفى استطاعة لونجيه وبلوم استثارة الشيوعيين . وفى استطاعة هانسى وبيس اثارة دنيا الموسيقى وفى استطاعة زلطان اثارة محبى الفن . وفى استطاعة برسيفال اثارة المتدينين وفى استطاعة بيوتى واميلى وصوفى ومارجى اثارة الطبقة الانيقة . وفى استطاعة ريك اثارة الصحافة البريطانية وفى استطاعة كورساتى اثارة الصحافة الامريكية . فاى ضجة صاخبة تنشا عندما ينشط هؤلاء جميعا !.

ونزع لانى ورقة من دفتر مذكرات أبيه وأعد شفرة يستطيع بها الاتصال بامه سرا . فرسائله وبرقياته ستوجه الى مسز دنجل ، لأن اسمها غير مشهور . وسيكون رمز بابا روبن « النقود » ورمز ماما روبن « المشد » لأنها ترتدى هذا النوع من قطع الثياب . وسيكون رمز فريدى « الكلارينت » ورمز راحيل « متزو » . وقال لانى يجب افتراض أن جميع الخطابات والبرقيات الموجهة اليه سيطالعها النازى ، وان جميع الاتصالات التليفونية سيستمعونها . وقد يرتب فيما بعد طريقة سرية للاتصال

ولكن شيئا من ذلك لا يمكن أن يكون بعنوان فندق ادلون · فان كان لديه شيء خاص يريد تبليغه سيكتبه على آلته الكاتبة الصغيرة التي يحملها معه ويرسله بدون توقيع من مكان متطرف في برلين · وعلى بيوتى أن تفض جميع الرسائل الواردة باسم لانى وتحول اليه مالا حرج منه فقط · وجميع الرسائل المضاة الصادرة والواردة يجب أن تضم عبارات الاعجاب بما حققته الاشتراكية الوطنية · وقال الفتى اللاهى وقد ارتد جادا « لا تدهشوا اذا سمعتم انهم ادخلوني مذهبهم » فقالت أمه محذرة « لا تسرف فى ذلك ، فانك لن تخدع كيرت وهو حتما سيسمع بذلك » · فقال لها « فى وسعى أن ادعه يقنعنى ويهدينى شيئا فشيئا » فهزت بيوتى راسها الاشقر الجميل ، فهى قد قامت بنصيب غير قليل من الخداع فى شبابها ولا ايمان لها لقدرة لانى فى هذا المجال · ولذا قالت « سيعرف كيرت بالضبط سبب وجودك هناك · ففرصتك المثلى أن تصارحه بكل شيء فقد انقذت حياته فى باريس ومن حقك أن تطلب منه العون الآن » فقال لانى « ان كيرت نازى ولن يساعد أحدا سوى حزبه » ·

واصغت ايرما لهذا الحديث وقالت لنفسها « هذا لا يمكن أن يكون حقيقيا · انه ميلودراما ! » واستولى عليها الفزع ولكنها فى الوقت نفسه بدأت تشعر بآثار غريبة وتساءلت « افى مقدورى أن اتظاهر بالنازية ؟ استطيع أن أخدعهم ؟ ومضى ذهنها الى ماهو أجرا من ذلك « أفى استطاعتى ان اغدو فتاة اغراء نفعية مثل اللواتى رأيتهن على الشاشة الفضية ؟ وكيف عساى أن أشرع فى ذلك ؟ وما الذى يمكن أن أصل اليه عن هذا الطريق ؟ » ·

- ١١ -

وجاءتهم صحف الصباح ، ومن العسير أن يتخيل المرء الاستيلاء على يخت مليونير وقصره من غير أن تصل كلمة واحدة عن ذلك الى العالم الخارجى ، ولكن القواعد فى بلاد النازى تغيرت بحيث لا تعرف ماهو الممكن الا عندما تراه نصب عينيك · وبحثوا فى الصحف الفرنسية ووجدوا فيها انباء كثيرة عن المانيا فيما يتصل بمؤتمر تحديد التسليح فى جنيف وتهديد المانيا بالانسحاب منه · وكان هتلر قد دعا الريشستاج للاجتماع على غير انتظار واعتقد المراسلون انه أراد بذلك أن يتخذ من الريشستاج منبرا يخاطب منه العالم وكانت فرنسا كلها تترقب فى تلهف ما سيقوله.

ويبــدو أن ذلك لم يترك في الصــحف متسعا لمتــاعب يهودى مستغل ٠ وكانت الفرصة التالية البريد ، فالخطاب الذى يرسل من بريمرهافن أو برلين أمس الاول قد يصل بعد ظهر الامس أو لا يصل ، ولكنه يقينا لا بد أن يصل هذا الصباح ٠ وانتظر هانسى البريد فى الطابق السفلى بمكتب الفندق وعجز عن التفكير فى أى شيء آخر ، حتى ولافى خطة لانى٠ واقبل مندفعا الى داخل الحجرة يلهث من الجرى واللهفــة صائحا « خطاب بخط ماما ! » وسلم الخطاب الى لانى لانه كان موجها اليه ، فاحساسه باصول اللياقة لم يسمح له بفضه ٠ وكان الخطاب مكتوبا بخط رديء على عجل على قصــاصة من الورق داخل مظروف عادى رخيص ففضــه لانى وقرأ مضمونه بنظرة واحدة ٠ وكره أن يرفع صوته بتلك الكلمات لولا وجود خمسة أشخاص فى انتظار سماعها بقلق ٠ وكان الخطاب باللغة الالمانية فترجمه لهم : « يا لانى لقد استولى النازى على السفينة وقبضوا على بابا ولا يريدون أن يقولوا لنا كلمة واحدة عما سيفعلونه به ويهددون بالقبض علينا ان اقتربنا منهم ولكنهم لن يقبضوا عليك ٠ نحن ذاهبون الى برلين وسنحاول البقاء هناك وانتظارك ٠ تعال الى فندق ادلون وانشر ذلك فى الصحف ٠ وسنترقبها نحن خائفون جدا ٠ لاتخذل بابا المسكين ياعزيزى لانى ٠ ماذا سيصنعون به ؟ أنا وحدى هنــا ، فلقد حملت الاطفــال على الابتعاد لانهم ينبغى الا يجدونا معا ٠ كان الله فى عوننا جميعا ٠ ماما »٠

هذه هى المسالة اذن ! هؤلاء المساكين يسافرون متفرقين ويقضون ايامهم ولياليهم فىرعب على أنفسهم وحزن على ما قد يحدث لوالد الاسرة! وانهار هانسى وبكى كالطفل وكذلك فعلت بيوتى ٠ وجلست بيس تلوى يديها احداهما بالاخرى٠ والآخرون وجدوا من العسير عليهم أن يتكلموا٠ وكان لا بد لاحد أن يتولى زمام الموقف، ورأى لانى أن ذلك من واجبه فقال « اننا على الاقل نعرف الآن اسـوأ ما فى الامر ولدينــا أساس للعمل ٠ وبمجرد وصول السيارة ساتوجه بهــا أنا وايرما الى برلين لا نلوى على شيء » فقالت بيس « ألا تعتقد انكما ينبغى أن تذهبا بالطائرة ؟ » فأجابها « لن يكون الفرق أكثر من بضع ساعات ، وسنحتاج للسيارة هناك فهى من الطراز المناسب وستترك أثرا حسنا لدى النازى ٠ وسوف لا تكون هذه المهمة مما ينجز فى ساعات قليلة فيما أخشى » فقالت له : « ولــكن فكر فيما عساهم يفعلون به الآن يا لانى ! » فقال « لقــد فكرت فى ذلك كثيرا ، واشك فى الحــاقهم اذى جديا به ٠ فلا بد انهم يريدون أمواله ، وستكون المسالة مســألة مساومة » ٠ فقالت « ولــكنه يهودى يا لانى » فاجابها « أعلم هــذا ولــكن له أصدقاء كثيرين فى وطنه وفى الخــارج ٠

والنازى يعلمون ذلك وأنا لا أعتقد أنهم يريدون فضائح لا لزوم لها. وفى استطاعة ايرما واستطاعتى أن تقوم بدور الوسطاء باعتبارنا صديقى الطرفين ، وأن نقابل الاشخاص المناسبين ونعرف كم ستتكلف المسالة!» فاعترضت بيوتى وهى تغالب دموعها قائلة : « ستكون مجهدا عندما تصل » فقد كانت تريده أن يأخذ السائق . فقال « لا . سنتناوب النوم فى المقعد الخلفى ، وكل ما نحتاج اليه عند وصولنا دخول الحمام وان أحلق ذقنى وتصلح ايرما من زينتها. وحين نقود السيارة وحدنا سيكون فى وسعنا أن نتكلم بحرية دون خوف من الجواسيس . ولا أريد ان أثق بخادم سواء كان المانيا أو فرنسيا . وسيظل ذلك ساريا طيلة وجودنا فى أرض النازى .

- ١٢ -

ودعى لانى لاتصال تليفونى ، وكان المتحدث جيرى بندلتون من باريس ليقول أن خطابا وصل من المانيا ولا يحمل اسم المرسل منه بيد أن جيرى حدس أنه قد يكون ذا صلة بالموقف . فطلب منه لانى أن يفضه ويتلوه عليه ، فاتضح أنه خطاب غفل من التوقيع بعث به فريدى الذى كان قد وصل الى برلين. وقد كتبه بالانجليزية ليفضى اليه بالانباء نفسها (التى بعثت بها أمه) الا أنه أضاف اليها أنه وزوجته مختفيان وليست لهما حرية التصريح بعنوانهما . وليسا واثقين كم يستطيعان المكث حيث هما . أما ان حضر لانى الى فندق ادلون فسيبلغهما ذلك ويرتبان مقابلته.

وقال لانى لجيرى: « اسرتى قادمة الىباريس فورا فاصنع ما تستطيع لمساعدتهم وقد اخبرتهم أن يثقوا بك كل الثقة ، وليس لك أن تثق بأحد سواهم » . فأجابه « أدركت ما تعنى » فقال لانى « انك لم تزل المراقب العام ومرتبك مستمر وجميع النفقات التى تتكبدها ستعاد اليك . هل رحل السائق ؟ » فقال : « انطلق فى الساعة الرابعة هذا الصباح ، وهو يعتقد أنه سيصل فى العاشرة » . فقال لانى : « وهو كذلك . شكرا » .

وابلغ لانى ذلك كله الى الاسرة وقالت أمه « ينبغى أن تنام قليلا قبل أن تبدأ قيادة السيارة » فأجابها : « ذهنى مشغول باشياء أكثر مما ينبغى . اذهبى أنت ونامى يا ايرما وفى وسعك أن تتولى النوبة الأولى فى القيادة » .

واحيت ايرما ذلك الزوج الجـديد الذى يبـدو عليـه أنه يعرف بالضبط ما ينبغى أن يصنع ويتحدث بكل هذا الحزم • وقد كان لها يوما ما أب على هذه الشاكلة • وكانت بالصـدفة تشعر بتعب شـديد جدا فسرها أن تبتعد عن هذا الحزن اليهودى المظهرى • ولئن كان لانى طلب اليها أن تنام فهى حيوان شـاب صحيح البدن يواتيـه النوم بسهولة • وكانت نصف منومة مغناطيسيا وهى ترقب برسيفال دنجل الذى جلس فى مقعده برهة طويلة مغلق العينين • فان لم تكن تعرفه جيـدا ظنته نائما ، ولكنه كان يتأمل فهل كان يسأل الله أن ينقذ يوهانس روبن ؟ أم كان يسأل الله أن يرقق قلوب النازى ؟ ان الله يستطيع ان يصنع مثل هذه الامور بلا شك • ولكن من العسير أن يدرك الامر سر هذه المعضلة ، لأنه لماذا خلق الله النازى ابتداء ؟ فان قلت أن الشيطان هو الذى خلقهم، فلماذا خلق الله الشيطان ؟•

ولم يعد هناك مبرر لبقاء أى أحد منهم فى كاليه بعـد ذلك ، ولذا ذهبت فيذرس لتبتـاع تذاكر السـفر الى باريس ولترتب نقـل جبـل الحقائب ، وفى الوقت نفسه أخذ هانسى وبيس ولانى يتناقشون فى أفضل الوسـائل لاذاعة كارثة يوهانسى على العـالم الخارجى ، وذلك قـد يكون مصدرا مهما للعون ، بل لعله اهم المصادر جميعا • واول ما خطر للانى أن يطلب تليفونيا مكاتب صحيفة البوبيلير ، الا أنه كبح جماح نفسه وقد تحقق لديه انه ان كان مزمعا أن يتحول الى عاطف على النازى أو نصير لهم فلا ينبغى أن يقدم أنباء مثيرة متفجرة الى صحيفة اشتراكية • يضاف الى هذا ان المسالة ليست مسالة اشتراكية أو شيوعية ، لانها تتعلق بقطب من كبار أقطاب المال ومكانها الصحافة البرجوازية ، ويجب أن يصدر النبأ من ابن الضـحية وهو شـخص مرموق فى حد ذاته • فينبغى أن يتوجه هانسى وزوجته الى فنـدق كريون وهناك يستدعيـان رجال الصحف من فرنسيين وأجانب ليخبراهم ويطلبا عن طريقهم عطف العالم • وكان لانى قد قابل عددا من المراسلين الامريكيين فى باريس فاعطى هانسى أسماءهم• وقال المتآمر الناشىء « ان النازى يكذبون بسخاء ويجبرونك على ان تحذو

حذوهم • فلا تذكر لرجال الصحف شيئا عن بقية اسرتك ، وان سألوك قل انك لم تسمع شيئا عنهم ولا فكرة لديك عن مكان وجودهم • وقل انك حصلت على معلوماتك عندما اتصلت تليفونيا باليخت والقصر والق المسئولية كلها على القائد الثانى لقوة الاعتقال الادارية للرايخ المسمى بريسمان ، فذلك حرى أن يجعل قائده الاول ينزله الى القبو القبر ويرميه بالرصاص عقابا له • فلا تذكر ولو تلميحا انك حصلت على المعلومات من أسرتك أو من ايرما أو منى • ووضح هذه النقطة لجيرى أيضا فاننا يجب أن نتعلم مراعاة الحذر فى كل خطوة منذ هذه اللحظة ، فالنازى يريدون شيئا ونحن نريد شيئا آخر وان كسبوا هم خسرنا نحن ! » •

الفصل السابع عشر

اتتفضل بدخول حجرة جلوسى ؟

- ١ -

سجل السيد لاننج برسكوت بد من جوان ليه بأن بفرنسا اسمه واسم زوجته فى فندق ادلون بشارع اونترو دن ليندن (أى تحت ظلال الزيزفون) • وهو الفندق الذى ينزل به ثراة الامريكيين ، وحل اثرى زوجين شابين فى جناح يتناسب ومكانتهما ووضع تحت تصرفهما كل ما يمكن من الوان الترف • وتولى المستخدمون أمر سيارتهما من حيث التشحيم وما الى ذلك بسرعة وامانة • وحضرت خادمة ووصيف لتفريغ حقائبهما وحمل ملابسهما لكيها ، وأحضر حاجب صغير مشروبات مثلجة ونسخا من شتى صحف الصباح • وجلس لانى على الفور فتأكد من خلو هذه الصحف من الاشارة الى قصر ويخت مصادرين • وقد تثور ضجة هائلة فى العالم الخارجى أما الشعب الالمانى فلا يعرف الا ما يراه سادته الجدد ملائما • وكان اليوم هو السابع عشر من شهر مايو وقد خصصت العناوين الكبرى للخطبة التى سيلقيها الفوهرر أمام الرايشستاج فى الساعة الثالثة بعد الظهر بشأن مؤتمر جنيف لتحديد التسليح وموقف الحكومة الألمانية من مقترحاته •

ودق التليفون • وكان المتحدث مخبرا صحفيا يلتمس شرف أجراء حديث مع السيد بد وزوجته • وكان لانى قد تساءل كيف ستكون الاحوال فى هذا العالم الجديد وهل سيظل المال الطائل مصدرا للمكانة الكبيرة • ويبدو أن الامر كذلك فالسياحة وهى من العناصر الحيوية فى الاقتصاد الالمانى كانت قد هبطت الى درجة الندرة بسبب اهانة الاجانب الذين تخلفوا عن أداء التحية النازية فى المناسبات الملائمة فكان لابد للصحف من الاهتمام الشديد بالزائرين القلائل من الاجانب • ولدى كل صحيفة كبرى ثلاجة مشرحة يسمونها فى المانيا الارشيف ، ومنه يستطيع المرء أن يتأكد بلا أبطاء مما نشر سابقا عن أى شخص • وكل مخبر يكلف

بمهمة ذات شان يراجع الارشيف قبل أن يشرع فيها . ولذا كان هذا المندوب القادم لمقابلتهما نموذجا من الشبان النشطين يمثل صحيفة أنباء الظهر التى تم تنظيمها سياسيا فى المدة الاخيرة ، ولديه معلومات كاملة عن القادمين الجـــدد ، فسألهما الاسئلة المعتادة بادئا بالاستفسار عن رأيهما فى بلاده ، فقال لانى أنهما حضرا بالســيارة الى بربلين فى أربع وعشرين ساعة ، ولذا فانطباعاتهمـا سريعة سطحية . ولكنهما دهشـا للنظام والاناقة التى شاهداها على طول الطريق ، وهما شـخصان غير مشتغلين بالسياسة وليست لديهما آراء عن الاشتراكية الوطنية الا انهما متفتحا الذهن ويسرهما أن يشاهدا ويطلعا على كل شيء . وأجفل لانى قليلا وهو يتحدث عندما فكر فى أصدقائه الاشتراكيين الذين قد يطالعون هذا الكلام . ولما سأل المخبر هل يصدق العالم الخارجى قصص الفظائع والاضطهادات الجارية فى المانيا ، قال لانى ان البعض يصدقون ذلك فيما يظن والبعض الآخر لا يصدقونه ، كل بحسب ميوله . وهو قد حضر مع زوجته لتجديد الصداقات القديمة ولشراء أعمال الاساتذة القدامى لهواة المجموعات الفنية من الامريكيين .

وهذا كله من شأنه ان يجعله فى وضـع مناسب بالنسبة لعـالم النازى ويتيح له البقاء بدون اثارة للشبهات . فلم يذكر شيئا عن زوج اخت له يهودى أو والد لزوج أخته مستغل ، لا لهذا المخبر الصحفى ولا لغيره ممن جاءوا فى أعقـابه . بل كانا يسـتقبلان المخبرين بالترحيب ويقدمان لهم السجار والمشروبات فى مودة وبلا رسميات والامريكان قوم بهيجون يعجب بهم الالمان كثيرا ويذهبون لمشـاهدة أفلامهـم ويتبعون لهجتهم ورياضتهم ومشروباتهم ووسائلهم الآلية وأزيائهم .

- ٢ -

وكان أول واجبات لانى ان يبلغ عن وصوله شـخصيا فى مركز البوليس فقدم جوازى سفره وسفر زوجته وحدد مهنته بأنه خبـير فى الفن وحدد سلالته بأنها آرية ، ثم عاد للفندق حيث وجد برقية من أمه فى باريس تقول « ابلغنا روبى أن جدك توفى ليلة أمس . حضور روبى الآن مستحيل وقد ابرق للسفارة بشأنك وينصحك بالتوجه الى هناك فورا » .

اذن مات صانع الاسلحة المتطهر العجوز ! وكان لانى قد فكر طويلا

جدا في قرب وفاته فلم يحدث له النبا صدمة . وكان لا بد له من حصر تفكيره في مهمته ببرلين ، وبلا ابطاء كتب رسائل قصيرة الى صاحب المقام الرفيع الجنرال جراف شتوبندورف والى العقيد أميل مايسستر والى هاينريش يونج . وبناء على اقتراحه كتبت ايرما الى عدد من السيدات البارزات اللواتي التقت بهن من قبل . ولكن لا يهود ولا نساء مستغلات بل الانقياء الذين لا تشوبهم شائبة اجتماعية !

وفي هذه الآونة كانت صحف بعد الظهر قد صدرت وتباع في الشوارع حاملة نبأ وصول لاني فطفق يتوقع اتصالا تليفونيا ، وجاء الاتصال التليفوني وسمع صوتا يقول « أعتقد أنك مهتم برسوم الكسندر ياكوفلف » فاجاب لاني بدون تردد انه مهتم اهتماما عظيما ، فقال له الصوت « ثمة طائفة من أعماله في معارض دوباسيت ينبغي أن تشاهدها » فقال لاني « حسن جدا . أينبغي أن أحضر فورا ؟ » فقال الصوت « ان سمحت » ؟ .

وكان قد اتفق مع ايرما على أن حجرات الفندق قد تكون لها آذان ، فكان كل ما قاله لها « تعالى » فتطلعت اليه وأومأ برأسه ودون كلمة نهضت وارتدت ثوبا من ازياء الربيع حديث السكي ، وأمر لاني باحضار سيارته وبعد برهة وجيزة استقرا فيها آمنين من الآذان التي تسترق السمع فقال لها « نعم انه فريدي » وكان معرض تاجر اللوحات الفنية في شارع فريدريش على مسافة قصيرة من فندق ادولون . وقاد لاني السيارة أمام المعرض ببطء فاذا بشاب أسمر طويل القامة يهودي السحنة يذرع الرصيف فابطأت المرسيدس جدا عند المنعطف وركبها الشاب وانطلقت السيارة في الشارع ودارت حول عدة منعطفات الى أن تأكدوا من انهم غير متبوعين بسيارة أخرى . وتضعضع صوت فريدي وهو يقول « أوه . كم أنا مسرور لرؤيتكما . » ودفن وجهه في راحتي يده وطفق يبكي ويقول « شكرا لك يا لاني . شكرا لك ياايرما . » وكان يعلم انه لا ينبغي ان يكون سلوكه على هذا النحو الا انه كان تحت ضغط عصبي هائل . وقال له الشاب الآري « انس هذا كله يا فتى » فقد كان لابد له من قيادة السيارة ومواصلة المراقبة عن طريق المرآة . ثم سأله « خبرنا هل سمعت أنباء من ابيك ؟ . فأجابه فريدي : « ولا كلمة واحدة » فسأله لاني : « هل نشر أي شيء فيه ؟ » فأجابه : لا شيء « فسأله » أليست لديك فكرة الى اين اخذوه ؟ « فأجابه » لا فكرة لدى عن هذا . فنحن لا نجسر على التوجه الى السلطات كما تعلم « فسأله » وهل

والدتك وراحيل والطفل بخير ؟ فاجابه كانوا بخير عندما غادرتهم « فساله » الست مقيما معهم ؟ فاجابه اننا نخشى أن نلفت الانظار الينا، ولذلك تقيم أمي مع بعض خدمنا القدماء وتقيم راحيل والطفل لدى أسرة ابيها « فساله » وانت ؟ فاجابه لقد نمت ليلة امس فى حديقة الحيوان « فضاحت ايرما برعب » أوه . فريدى . « فقال فريدى » كان الحال لا باس به . لم يكن الجو باردا » فساله « الا تعرف احدا يمكن أن ياويك ؟ » « فقال » أعرف كثيرين ولكننى ساجر عليهم وعلى نفسى المتاعب . فظهور يهودى فى مكان جديد يوحى بانه مطلوب القبض عليه. ولا تستطيع ان تتصور حقيقة الحال . فثمة جواسيس فى كل مكان بين الخدم ووكلاء العمارات السكنية وشتى صنوف الناس يحاولون التزلف الى النازى . ولم يكن فى وسعى ان ادعهم يضعون يدهم على قبل ان اتحدث اليك . « فقال لانى » ولن يضعوا يدهم عليك بعد ذلك فسوف نخرجكم من هذه البلاد . فقد يكون من الاحكم لك وللآخرين ان تغادروها على الفور . فمن الواضح انكم لا تستطيعون شيئا لمساعدة والدك فاجاب الشاب التعس « ليس فى وسعنا ان نغادرها لو شئنا فوالدى كان يحمل جوازات الخروج . والآن قد استولى عليها النازيون » .

واخبرهما بايجاز بما حدث . وكانت الاسرة قد ذهبت مع عدد من الخدم الى بريمرها فى قطار الليل وركبوا سيارات الاجرة الى اليخت . وبمجرد وصولهم الى حوض الميناء استوقفتهم جماعة من ذوى القمصان البنية واخبروا اباه انه مقبوض عليه . فسالهم أبوه بتهذيب شديد هل يستطيع ان يعرف السبب فبصق قائد الجماعة فى وجهه على الفور ونعته بالخنزير اليهودى وزجوه داخل سيارة انطلقت به وتركوا الباقين واقفين مذهولين . ولم يجسروا على الصعود الى ظهر اليخت فراحوا يتسكعون على رصيف الميناء حاملين حقائبهم . وتبادلوا الرأى ثم قرروا انه ليس فى استطاعتهم تحسين موقف الوالد بتمكين النازى من القبض عليهم . وكان كل من فريدى وراحيل من الجائز ان يزج بهما فى معسكرات الاعتقال بسبب نشاطهما الاشتراكى فقررا السفر متفرقين الى برلين والاقامة فى أماكن سرية الى أن تصلهما انباء من اصدقائهما .

- ٣ -

وقال فريدى ، وكان معى مبلغ قليل من النقود وانا اهم بركوب اليخت وكان على أن ادفع أجر سفرى عائدا الى هنا ، فاخرج لانى حافظة

نقوده واراد ان يعطيه مبلغا ضخما ولكنه قال لا فهو قد يسرق ، أو يقبض عليه فيستولى النازى على النقود · فمن الافضل ان يعطيه مبلغا صغيرا فى كل مرة · وشرع يقول ان اباه سيسدد جميع هذه المبالغ ولكن لانى طلب اليه ان يكف عن السخف فكل ما يحتاج اليه فهو له · وسالته ايرما « وأين تزمع أن تقيم ؟ » فقال انه سينضم الى زحام المقيمين فى « النخيل » وهو ملجأ لمن لا ماوى لهم · والمكان سىء جدا ولكنه لن يضيره ولن يلتفت اليه أحد هناك · ولن ينعته بأنه خنزير يهودى · وهو يامل الا يطول الانتظار كثيرا . واضطر لانى أن يقول له ان الانتظار سيطول بعض الوقت لأن نشاطه سيكون داخل الدوائر العليا · والأمور فى هذه الدوائر لا تمضى بسرعة · اذ لا بد من تطبيق الفنون الاجتماعية هناك · فقال فريدى « آمل أن يتحمل أبى المسكين الانتظار » فاجابه لانى «سيكون على يقين من اننا نبذل قصارى جهدنا · وبذلك سيظل لديه الأمل على الأقل · »

ولم يخض الأمريكى فى تفصيلات خططه لأنه خشى أن ينزلق فريدى الى الافضاء بجانب منها الى زوجته أو أمه · ثم هناك أيضا ذلك الاحتمال المخيف أن يتمكن النازى من انتزاع شىء منه بالتعذيب · وهو بالتأكيد لا يمكن أن يخبرهم بما لا يعرف · وقال له لانى « فى وسعك دائما أن تكتب الى وتطلبنى تليفونيا فى الفندق وتحدد موعدا لاطلاعى على أعمال فنية · واتفقا على شفرة سرية فالصور بريشة بوجيرو معناها أن كل شىء على ما يرام · اما جويا فمعناها الخطر · وقال لانى « فكر فى أى شىء يمكن أن تقوله عن الصور والتصوير بحيث يؤدى المعنى الذى فى ذهنك » · ولم يساله عن عناوين بقية أفراد الأسرة لعلمه أنهم عند الحاجة يستطيعون الكتابة اليه أو الاتصال به تليفونيا بحجة الصور والتصوير · ورأى فريدى أن اللقاء يجب أن يكون أقل ما يمكن لأن السيارة الفارهة التى يقودها أجنبى تلفت الانظار جدا · ومن يركبونها أو يهبطون منها قد يقعون تحت المراقبة . ووقفوا قليلا فى شارع سكنى هادىء وتجاذبوا الحديث · ثم قال فريدى « ينبغى الا أعطلك عن مشروعاتك · انزلنى قرب مدخل أى مترو تحت الأرض كى أستقله الى ملجأ النخيل » وانطلقت بهم السيارة وقال لانى على الطريقة الانجليزية « استبشر » فأجابه اليهودى الشاب على الطريقة الأمريكية التى يعرفها « شكرا لك مليون مرة » · وابطأت السيارة ونزل منها · وسرعان ما ابتلعته فوهة الحفرة الكبيرة فى أرض شوارع برلين · وقالت ايرما وقد مسحت دمعة فى

عينيها « انا بحاجة الى شىء من النوم » فهى أيضا قد تعلمت الأساليب الانجليزية .

- ٤ -

اجتمع الرايشستاج فى دار أوبرا كرول بعد ظهر ذلك اليوم ولتسمع واستمع لخطبة أدولف هتلر عن الشئون الخارجية . وقد استغرقت الخطبة ثلاثة أرباع الساعة وبعدها مباشرة طرح جورنج الموافقة التى حظيت بالاجماع وتأجل على الاثر اجتماع الرايشستاج . وبعد ذلك بقليل كان باعة الصحف يصيحون منادين على طبعات خاصة بها النص الكامل للخطبة تحت عناوين ضخمة . وبطبيعة الحال وصفت تلك الصحف المتماثلة الخطبة بانها عمل سياسى خارق جدا .

والقى لانى نظرة عجلى عليها فادرك أنها خطبة ليست كاية خطبة أخرى فى تاريخ الفوهرر السياسى فهذه أول مرة يتلو فيها خطبة مكتوبة سلفا . وقد اتضح أن شارع فلهلم - هو مقر وزارة الخارجية الألمانية - قام بضغط كبير عليه واقنعه ان ثمة خطرا حقيقيا من قيام فرنسا بعمل علنى . وليس لدى ألمانيا وسائل للمقاومة . ويقيننا أن هذا آخر ما ترغب فيه حكومة النازى الوليدة . ولذا بدأ هتلر بصورة جديدة . وانه لشىء مريح أن يكون المرء قادرا على اتخاذ صورة جديدة كلما رغب فى ذلك فلا يعوقه عن ذلك ما كان عليه من قبل . وتحدث الفوهرر بلهجة ، فيها من الأسى أكثر مما فيها من الغضب ، عن الأضرار التى عانت منها بلاده . وقال للرايشستاج انه رجل شديد التعلق بالسلام والعدالة بين الأمم . وكل ما يطلبه من بقية العالم أن يحذوا حذو ألمانيا وينزعوا سلاحهم . فلا يبقى بين الأمم مجال لاستخدام القوة . وهو ما سماه « الاندفاع الجنونى الذى لا حد له » وقال انه سينتهى الى « غرق أوربا فى الفوضى الشيوعية » .

واطلقت فرنسا وبريطانيا القلقتان زفرة ارتياح . فالفوهرر ليس فى الحقيقة بالسوء الذى صور به نفسه آنفا . وحساؤه لن يشوى لسان أحد . فهو مستعد أن يثوب للهدوء والاستقرار ويدع سواه يكتب له خطبة ويحكم البلاد بصورة سليمة . وكان من الواضح جدا فى نظر الدبلوماسيين ورجال الدولة فى البلاد الاجنبية أن أونباشيا ورسام بطاقات بريدية لا يمكن أن يدير دولة حديثة كبيرة فهذا عمل يحتاج الى

رجال مدربين • ولدى المانيـا كثيرون منهـم وهؤلاء فى وقت الضرورة يتسلمون زمام الأمور •

ولم يكن لانى متأكدا من ذلك • ولكنه رأى خطبة اليـوم احسن فال ممكن لآل روبن • فأدى خفف من غلوائه • فهو لايريد نزاعات عائلية أو فضائح تتسرب الى العالم الخارجى • فهو فى موقف يمكن فيه ابتزازه بلطف وتهذيب • وكانت لدى لانى فكرة عن كيفية الشروع فى ذلك •

ورن جرس التليفون • ان رسـالته الى هاينريشـيونج وصلته بسرعة • وقد حضرها ينريش اجتمـاع الرايشسـتاج • وها هو الآن ينتهز فرصة للاتصـال بصديقه قائلا « اوه يا لانى • أنهـا أبدع عمل سـياسى • هل قرأت الخطبة ؟ فأجابه « لقد قرأتها فعلا واعتبرها عملا سياسيا عظيما » • فصاح هاينريش « رائع » • ورد عليه لانى « هائل » باللغة الألمانى فى غنة فخمة الرنين • فقال هاينريش « براعة سياسية كاملة • » فرد عليه لانى « بصورة مطلقة » هى فى الألمانية كلمة تنطق وكأنها بندقية صوت • فهتف المسئول النـازى • « عبقرية أصلية » • وهكذا مضيا يتغنيان ، وكأنهما ثنائى فى الأوبرا الايطالية ، بمحاسن ادولف هتلر وخطبته وحزبه ومذهبه وبلاده • وانتشى هاينريش فهتف « ها أنت قد رأيت الحقيقية الآن • » فقال الزائر الأنيس • « لم أكن أظنه قادرا على هذا » فقال هاينريش فى عذوبة غنائية حاول أن يجعلها أمريكية « لقد اسـتطاع ذلك بنجاح ، ويستمر فى النجاح • وكما تقولون فى بلادك لقد فاز بها » وضحك لانى فقال المسئول النازى الشاب •« متى استطيع ان أراك ؟ » فسأله لانى • « أأنت مشغول هذا المساء ؟ » فأجابه « ليس لدى شىء لا أسـتطيع التحرر منه • » فقال لانى • « اذن تعال عندنا • كنا بصدد طلب نأكله وسننتظرك » ووضـع لانى المسـماع • فقالت له ايرما • « الست تبالغ قليلا ؟ » فوضع لانى أصبعه على شفتيه وقال • « هيا نرتدى ملابسنا وننزل للعشاء فى قاعة الطعام • أرتدى أفضل ثيابك • فالاثر الأدبى يستحق هذا العناء • » •

- ٥ -

كانوا ثلاثة فى حجرة الطعام المهيبة فى أرقى فنادق برلين • الوارثة الأمريكية فى أفخم ثوب سهرة أحضرته معها • ولانى فى بدلة سموكن وهانيريش فى كسوته الرسمية الأنيقة التى كان ارتداها لحضور الاجتماع

في دار اوبرا كرول . أن المجتمع الراقي يحدق في ثلاثتهم . فكاد قلب هاينريش يونج ابن الحطاب ينشق زهوا ،لا بنفسه طبعا ، بل بزعيمه وبالحركة الرائعة التي يشيد صرحها . واحترام المكانة والمنصب متسرب الى عظام الصبي الذي نشأ في ضيعة شتو بندورف . وهذا العشاء هو ارقى درجة صعد اليها في الهرم الاجتماعي فهذان الزوجان الامريكيان الانيقان كانا ضيفين في مناسبتين بالقلعة . وقد يحدث أن يدخل الجنرال جراف هذه القاعة فيقدماه الى ابن مراقب غاباته . ولم يفت لاني أن يشير الى انه كتب الى مقامه الرفيع في قصره ببرلين . وعزفت الفرقة الموسيقية عزفا خافتا . وكان السقاة ينحنون في تذلل . وكشف لاني وهو البق مضيف عن استاذيته في معرفة فنون الطعام الانيقة. هل يفضل هاينريش لونا بذاته ؟ لا ان هاينريش يترك ذلك لمضيفه . وقال المضيف ألم ينبغ أن يتناولوا شيئا يحمل طابع برلين الحقيقي . ما رأيه في شيء من سرطان البحر الذي كتبوا اسمه في القائمة باللغة الفرنسية ؟ فقال هاينريش ان ذلك يسره كثيرا . وأخفى في طوايا نفسه انه لم يذقه في حياته من قبل . ثم اتضح انه عبارة عن سرطان الماء العذب صغير الحجم يقدم ساخنا يتصاعد منه البخار في صحفة كبيرة من الفضة يعلوها غطاء من الفضة مزين بكثير من النقوش البارزة . وعرض عليهم الساقي فخامة الصحفة قبل أن يضع جانبا مما فيها في الصحاف المتفرقة . وكان لا بد من اطلاع هاينريش على الطريقة المثلى لاستخراج اللحم الاحمر الحار من القشرة الرقيقة الصلبة ثم يغمسه في اناء به زبد ساخن . أجل . ولكن طعمه كان لذيذا .

وماذا يحب هاينريش أن يشرب ؟ وترك هاينريش ذلك أيضا لمضيفه وبذلك حظي بنبيذ الراين ولونه كالماس الاصفر . وبعد ذلك حظي بشمبانيا فواره . وأكل أيضا الشليك البرى بالقشدة المخفوقة وكعكات صغيرة تعلوها قشرة سكرية متعددة الالوان . ثم قالت الوارثة ، هلا شربنا القهوة في جناحنا ؟ ، وصعدوا الى هناك . وفي طريق صعودهم رمقتهم عيون كثيرة . وتكفلت كسوة هاينريش بعلاماتها الخاصة التي تدل على رتبته في الحزب بألا تدع مجالا للشك في ان السيد والسيدة ايرما بارنز لا غبار عليهما . وسيسرى هذا القول في الفندق ويسمع به المخبرون الصحفيون وبعد ذلك تنشر أعمال الزوجين الشابين الاجتماعية في الصحافة الخاضعة للرقابة والسيطرة . ان النازيين لن يحبوها بطبيعة الحال لان النازيين ليسوا عاطفيين ولكنهم يرحبون بمن يتسلقون عربة

فرقتهم النحاسية ويتركونهم يركبونها الى المدى الذى يراه زعيم الفرقة النحاسية مناسبا ٠

- ٦ -

وفى الحجرة شربوا القهوة وشربوا كذلك البراندى فى كئوس كبيرة الا انها رفيعة جدا ٠ ولم يشعر هاينريش قط فى حياته كلها بانه كان افضل حالا مما هو الآن وظل يتحدث ساعتين عن حزب العمال الالمانى الاشتراكى الوطنى والأعاجيب التى أنجزها وسينجزها ٠ وكان لانى يصغى بانتباه ويشرح موقفه بصراحة ٠ فمنذ اثنتى عشرة سنة عندما عرف ابن مراقب الغابة لأول مرة حركة شيكلجروبر لم تكن لدى لانى ادنى فكرة عن احتمال نجاحها أو حصولها على أهمية كافية ٠ ولكنه راقب نموها خطوة خطوة وبطبيعة الحال لم يتمالك نفسه من التاثر بذلك ٠ أما الآن فقد تحقق لديه ان هذه الحركة هى ما كان الالمان بحاجة اليها ٠ وبطبيعة الحال أيضا يرى ان من حق الالمان الكامل أن يحصلوا على هذه الحركة التى يريدونها ٠ ولم يستطع لانى أن يقول انه آمن واهتدى ولكنه دارس جاد للحركة متلهف على التحدث الى زعمائها وسؤالهم عنها بحيث يتسنى له أن يحمل الى العالم الخارجى صورة حقيقية أمينة عن التغيرات التى تحدث فى ألمانيا ٠ وقال « أنا أعرف عددا كبيرا جدا من الصحفيين وقد يتسنى لى أن أمارس شيئا من النفوذ لديهم» فأجابه هاينريش بحرارة « أنا واثق فى الحقيقة بانك تستطيع ذلك ٠ فجذب لانى نفسا عميقا وتلا فى سره صلاة صغيرة ثم قال «هناك عقبة وحيدة ياهاينريش ٠ فانت تعلم طبعا ان أختى متزوجة من اليهودى» ٠ فأجاب المسئول الشاب بجد «نعم٠ وهذا أمر بالغ السوء » ٠ فقال لانى « ومن المصادفات انه عازف فيولينه ممتاز ٠ هو أفضل عازف عرفته ٠ هل سمعته ؟ » فقال « مطلقا » فقال لانى « لقد عزفُ كونشرتو لبيتهوفن فى باريس منذ بضعة أسابيع فاعتبروه خارقا » فاجاب هايزيش « لااظننى أهتم بسماع يهودى يعزف بيتهوفن » وهكذا اصيبت حماسته ببرودة ثلجية مفاجئة ٠ فاستطرد لانى « هاك موقفى . أن والد يوهانس كان شريك ابى فى أعماله فترة طويلة . » فقال هاينريش « لقد بلغنى انه من كبار المستغلين » فقال لانى « ربما ٠ فقد كان بين الالمان عدد كبير من المستغلين ٠ واكبرهم جميعا شتينس ٠ فقد كانت السوق مفتوحة والناس يبيعون فيها ويشترون ولا أحد يدرى ممن

يشترى ولا لمن يبيع . المهم اننى مرتبط بآل روبن وهذا ما يجعل موقفى حرجا » فقال هاينريش « ينبغى على هؤلاء الناس اذن أن يغادروا البلاد يا لانى . دعهم يذهبوا الى امريكا ان كنتم تحبونهم وتستطيعون معاشرتهم والتعامل معهم » فقال لانى « بالضبط . هكذا ما كنت أحاول اقناعهم به حتى رغبوا فيه . ولكن لسوء حظى اختفى يوهانس . » فسأله هاينريش « اختفى ؟ ماذا تعنى ؟ » فقال لانى « كان بسبيل الصعود الى ظهر يخته فى بريمرها فن عندما قبض عليه بعض ذوى القمصان البنية وانطلقوا به ولا يدرى أحد أين هو الآن » فقال هاينريش «ولكن هذا سخف يا لانى» فأجابه « أنا واثق انه لا يبدو سخفا لصديقى العجوز » فقال هاينريش « وماذا اقترف ؟ لابد انه ارتكب خرقا للقانون » فقال لا نى « ليست لدى ادنى فكرة ولكنى اشك كثيرا جدا أن يكون أقدم على شىء من ذلك »فسأله « وكيف عرفت بالأمر يا لانى ؟ » فأجابه اتصلت تليفونيا باليخت فرد على صوت غريب وقال لى انه القائد الثانى لقوة الاعتقال الادارية بالرايخ » فقال هاينريش « هذه القوة قسم من جبهة العمل الجديدة التابعة للدكتور لى . ولكن ما شأنه بيهودى مستغل ؟ » فقال لانى « تسدى الى جميلا عظيما ان استجليت لى هذا الامر يا هاينريش » فقال « انك تعرف مايحدث فى الثورات . فاذا أناس يأخذون بيدهم ازمة الامور فتقع حوادث مؤسفة . والفوهرر لا يمكن أن يعرف كل شىء مما يجرى فى البلاد » فقال لانى : « أنا جد واثق بهذا . ومنذ سمعت الامر قلت انى أعرف بالضبط اين ينبغى أن أذهب . فهاينريش يونج هو الشخص الذى سيفهمنى ويساعدنى . وها أنذا » .

- ٧ -

ولم يكن المسئول التنفيذى النازى الشاب مغفلا ولو بعد الذى احتساه من نبيذ الراين والشمبانيا والبراندى ، فقد أدرك على الفور السر فى حظوته بكل هذه الضيافة . بيد انه كان قد عرف لانى بد منذ اثنتى عشرة سنة وكان قد تناول وجبات أخرى على نفقته من غير ان يسأله معروفا مقابلها . ومن المهين لغرور المرء أن يضطر للشك فى أصدقائه القدامى . وهاينريش لديه استعداد طبيعى للمكاشفة ولذلك سأله « ماذا تريدنى ان أصنع ؟ » فأجابه « أريد أولا أن تفهم موقفى فى هذه المسألة التعسة . فلى أصدقاء كثيرون فى المانيا ولا أريد أن أوذيهم . ولكنى فى الوقت نفسه لا أستطيع أن أدع فردا من أسرتى ملقى فى معسكر للاعتقال.

من غير ان أحـاول على الأقل أن أعرف تهمته · أترى ذلك في وسـعى يا هاينريش ؟فاعترف على مضض « لا · لا أظن ذلك · » فقال لاني « وحق الآن لم تنتشر هذه المسألة فيما رأيت من وسائل الاعلام · ولكن قد يتسرب نبأ عن ذلك الى الخارج بطبيعة الحال فيحدث أثره · فيوهانس له أصدقاء وشركاء هناك · وعندما تنقطع اخباره عنهم قد يلجأون الى استخدام التليفون للاستفسار · وعندئذ تحدث فضيحة · واخالني أؤدى معروفا لك ولكيرت ولصاحب المقام الرفيع يل وللفوهرر اذ أتيت الى هنا واحيطكم علما بالموقف · وأول شخص أقابله في برلين حر ان يسألنى اين يوهانس ؟ « فماذا عساى أقول له ؟ وهو حمو أختي وشريك أبي ومن المفروض على أن أزور بيته أو على الأقل اتصل تليفونيا وأخبره بوصولى» فوافقه هاينريش قائلا ان الامر محرج بالتأكيد « فقال لاني » وثمة شيء آخر عندما يصل خطابي صباح غد الى مقامه الرفيع قد يتصل بنا تليفونيا · وهو صديق ليوهانس والواقع انني التقيت به أول مرة في قصر يوهانس · وكذلك ايرما تتوقع أن تقابل الاميرة بسمارك غدا · ولعلك تعرفها · فهي سيدة سويدية فاتنة جدا · فماذا عساها تقول في هذا الشأن ؟ »

واعترف هاينريش أن الامر فظيع واستطرد لاني « فان اخبرت هؤلاء الناس بما حدث ساكون في وضع من جاء الى هنا ليهاجم النظام الحالى · وهذا آخر شيء أريده · ولكن القصة لا يمكن أن تبقى مكتومة الى الابد · وعند انفجارها ستفوح لها رائحة كريهة · ولذا قلت لايرما هيا بنا نذهب بسرعة الى هاينريش لنوقف المسألة قبل انفجارها ويوهانس شخص غير سياسى على الاطلاق ولا مصلحة له في نشر الفضائح · وأنا واثق بأنه سيوافق بسرور على اغلاق فمه ونسيان كل ما حدث فقال هاينريش « ولكن لابد أن الرجل اقترف شيئا يا لانى · انهم في المانيا لا يجرون الناس ببساطة ليزجوا بهم في السجن بلا سبب » فسأله « حتى ولا اليهود يا هاينريش ؟ » فأجابه حتى ولا اليهود· لقد رأيت بنفسك كيف كانت المقاطعة منظمة · أم لعل الصحافة الاجنبية كذبت عليكم بصورها » · فقال « لقد سمعت قصصا رهيبة ولكنى رفضت أن أصدقها ولا أريد أن أصدقها · بل أريد أن يتاح لى الخروج لأقول لاصدقائي انني بمجرد أن أبلغت هذه القضية الى سلطات النازى صحح الخطا · وأنا أقدم لك فرصة تبرز فيها شأنك يا هاينريش لان رؤساءك سيحمدون لك مساعدتك على تجنب فضيحة كبيرة في العالم الخارجي » ·

جرت هذه المحادثة باللغة الالمانية لان انجليزية هاينريش لم تكن وافية بالغرض ٠ والمانية ايرما كانت أشد هزالا من انجليزية هاينريش ٠ ولكنها كانت على علم بخطة لانى فى المعركة فاستطاعت أن تتبع أطوارها على وجه المسئول الشاب ٠ وهو وجه شمالى محدد الملامح فيه عينان فى زرقة السماء تنظران نظرة جادة ٠ وتعلوه جمة من شعر بلون الدريس حليق بحيث يمكن أن يلبس فوقه خوذة مدببة ٠ وان كان هاينريش لم يلبس شيئا كهذا قط ٠ وكان هذا الوجه ورديا من فرط السرور فى بداية السهرة وأصبح أكثر وردية بتأثير الطعام الجيد والشراب الجيد والصحبة . أما الآن فهو يبدو أميل الى الشحوب من فرط القلق وعبء التفكير الباهظ ٠

وسأل مضيفه « ولكن ماذا يسعنى أن أصنع يا لانى ؟ » فقال « خطر لى انك قد تساعدنى فى وضع الامر مباشرة أمام الفوهرر » فقال « لا يمكننى ان اصنع هذا يا لانى بأى حال » ٠ فقال له « انك على صلة به مباشرة ٠ أليس كذلك ؟ » فأجابه « لم يعد الامر كما كان فقد تغيرت الاوضاع ٠ ففى الايام الخالية كان مجرد زعيم حزب أما الآن فهو رئيس الحكومة وليست لديك فكرة عن الضغط الواقع عليه وحشود الناس الذين يحاولون الوصول اليه طول الوقت » فقال لانى « أستطيع ان افهم هذا ٠ ولكن هذه حالة خاصة طارئة ويقينا انه سيشكرك على اللجوء اليه» ٠ فقال « لن أجرؤ ببساطة يا لانى ٠ ويجب أن تفهم اننى لست سوى موظف حددوا لى عملا معينا أقوم به بكفاية فيعطوننى مزيدا من المهام ٠ ولكنى لم أتدخل قط فى السياسة» فسأله لانى «وهل هذه سياسة ياهاينريش؟» فأجابه «ستكتشف سريعا انها سياسة ٠ وما دام الدكتور لى قد قبض على يهودى غنى فلا بد ان لديه مبررا ٠ وهو سياسى قوى وله أصدقاء فى البلاط ـ أعنى حاشية الفوهرر ٠ فاذا مضيت أنا واصطدمت به فسأكون بمثابة من يدخل المنطقة الحرام أثناء تبادل اطلاق النار وكل خطواتى لدى الفوهرر مستمدة من اننى معجب قديم ٠ لم أطلب منه شيئا على الاطلاق طول حياتى ٠ فاذا جئت اليه الآن ووجد اننى أتدخل فى شئون الدولة فقد يثور غضبه ويصيح «اخرج من هنا ولا يرانى بعد ذلك ابدا» فقال لانى « ومن جهة أخرى يا هاينريش اذا ما بلغ مسامعه انه كانت لديك سلفا دراية بهذه المسألة وفاتك أن تنبهه اليها فهل سيرى فى ذلك دليلا على صداقة عظيمة ؟ » ولم يرد النازى الشاب ولكن الخطوط التى ظهرت

على جبينه دلت بوضوح على انه يواجه ازمة أخلاقية . ثم قال « الحقيقة انى لا أدرى ماذا أقول يا لانى . اذ يقال لى انه فى الوقت الحاضر سريع الهياج بصورة مخيفة ومن السهل اغضابه جدا » فقال لانى « انى أراه لا بد شاعر بالسعادة بعد خطبته الرائعة والثناء الذى لا بد أن تحرزه له فى العالم الخارجى . واعتقد انه الآن أشد تلهفا على تجنب كل ما يفسد هذا الأثر الذى أحدثته خطوته المدبرة بعناية » فهتف محدثه « يا اله السماء . لا بد لى أن احصل على مشورة شخص يعرف حالته العقلية» فقال لانى فى نفسه « ها هو البيروقراطى يواجه حالة طارئة ليس لديه أوامر بصددها » . ولكنه قال بصوت مرتفع «كن حذرا فى اختيار من تثق به» فقال الالمانى « طبعا . وهذا أسوأ ما فى المعضلة . ففى الامور السياسية لا تستطيع الثقة بأحد . وقد سمعت الفوهرر يقول ذلك شخصيا» وقطب هاينريش جاجبيه أكثر من ذى قبل وقال أخيرا « ان المسألة تتعلق بالتأثير الذى سيحدث فى العالم الخارجى . ولذلك يمكن بصورة سليمة عرضها على وزير الرايخ للارشاد القومى والدعاية » فسأله لانى « أتعرفه ؟ » فاجاب « أعرف زوجته معرفة جيدة جدا . فقد كانت تعمل قبل الزواج فى مقر القيادة العليا للحزب فى برلين . فهل تدعنى آخذك اليها ؟» فقال لانى « بالتأكيد . ان كنت واثقا بان هذه خطوة حكيمة . ولما كانت المسألة سياسية فيجب أن تراعى الموقف بين الدكتور جوبلز والدكتور لى . فان كانا صديقين فسيحاول جوبلز أن يطوى الموضوع وربما منعنا من مقابلة الفوهرر » فهتف هاينريش « يا اله السماء . لا أحد فى العالم يستطيع تقصى كل المنازعات والمنافسات والدسائس هذا شىء فظيع » فأجابه لانى « أعرف ذلك . فقد كنت أسمعك أنت وكيرت تتحدثان فيه فى الايام الخوالى » فقال « ان الحالة الآن أسوأ الف مرة مما كانت لان المهام والمناصب صارت كثيرة جداً . وأعتقد ان الحالة كذلك فى السياسة فى كل مكان . ولذا حرصت على الابتعاد عنها » فقال لانى لنفسه « ها هى ذى قد أدركتك الآن » ولكنه قال بصوت مسموع « لابد أن نبدأ من مكان ما . فلنر ما ستنصحنا به فراوجوبلز » .

- ٩ -

اتجه هاينريش يونج الى التليفون وطلب منزل وزير الرايخ الدكتور يوسف جوبلز . ولما اتصل الخط بزوجة وزير الرايخ ناداها باسم «ماجدة» وسألها هل سمعت قط بلانى بد وايرما بارنز ويبدو انها لم تكن

سمعت بهما فراح يخبرها بالحقائق الاساسية عنهما • وهي كم من المال تمتلكه ايرما وكم من البنادق صنعها والد لانى • وأيضا انهما زارا قلعة شتوبندورف ونزلا عليها ضيفين • وان لانى تناول الشاى ذات مرة مع الفوهرر • ولديهما الآن موضوع له أهميته بالنسبة للحزب ويريدان نصيحة ماجدة في صدده • وقال هاينريش « اننا في فندق ادلون • نعم باسرع ما يمكن الى اللقاء » •

وطلب لانى سيارته • وأثناء قيادتها الى ميدان الريشستاج أخبرهما هاينريش عن جمال السيدة التى سيلقيانها قريبا وفتنتها ودفء قلبها • وقد تكون هناك مسالة في مصلحتهما وهى انها طفلة متبناة لأسرة يهودية • وكانت متزوجة من قبل من الهر كوانت وهو من أغنى رجال المانيا وأكبر منها سنا بكثير • وقد طلقته وتحصل منه الآن على نفقة كبيرة • في حين حل الرجل الذى يدفع لها نفقتها في معسكر للاعتقال • وقد اعتنقت الاشتراكية الوطنية وذهبت للعمل في قيادة الحزب • ومنذ برهة وجيزة اصبحت عروس الدكتور جوبلز • وكان شاهد العريس هتلر • وهو حدث كبير في عالم النازى • وهى الآن السيدة وزيرة الرايخ أو عقيلة وزير الرايخ ولها صالون • ويبدو ان الرجال لا يستطيعون المضى قدما في حياتهم دون تاثير النساء • ولو كانوا من دعاة مذهب «الطعام والاطفال والكنيسة» بالنسبة لجماهير الشعب •

ومضى المسئول الشاب في شرحه « الناس يتهمون ماجدة بالطموح • ولكنها ذكية قادرة وبطبيعة الحال تحب أن تستخدم ذكاءها ومقدرتها لمصلحة القضية » فأجابه لانى « ستسنح لها الفرصة الليلة لذلك » •

واقتيدوا الى المسكن الانيق الراقى الذى كانت السيدة كوانت تعيش فيه ذات يوم مع رجل الصناعة المسن • وبدت السيدة وزيرة الرايخ في ثوب سهرة بلون الكرز وفي عنقها عقد مزدوج من اللؤلؤ يضاهى عقد ايرما • وكلا العقدين صحيح حر خالص غير زائف • ولكن كلا من السيدتين كان يهمها أن تعض عقد السيدة الاخرى لتتاكد من ذلك • وكان لماجدة شعر أشقر متموج ووجه مليح يكاد يكون وجه طفل وعينان حزينتان وبدأت تتكون حولهما حلقات سوداء • وكان لانى يعرف انها متزوجة من رجل من أشد رجال المانيا قبحا • فاعتقد انها كانت بحاجة للاقدام على ذلك الزواج مدفوعة بحافز الطموح • وتساءل هل لم تزل تجد الرضا في ذلك الزواج الذى تشوقت اليه •

وكانت الساعة قد تأخرت • فدخل الزائرون في الموضوع بسرعة •

ولما كان لاني يعلم ان وزير الارشاد القومي والدعاية عدو لدود للسامية فقد قال « مهما كانت آراء الانسان • فالحقيقة ان هانسي روبن موسيقي من الطراز الاول • والحفل الموسيقي الذى قدمه بالاشــــتراك مع فرقة باريس الســيمفونية هذا الربيع كسب له حفاوة هائلة • وقد قدم حفلات موسيقية مماثلة في لندن وفي جميع المدن الكبرى بالولايات المتحدة وهذا يعني ان ألوف الناس مستعدون لمناصرته والدفاع عنه • ويقال ذلك أيضا يصدق عن رجال الاعمال الذين يعرفون أباه • فمن وجهة النظر العملية المحضة يا سيدتي وزيرة الرايخ تعتبر هذه المسالة ضارة بنظامكم • ولست ارى ماذا يمكن أن تكسبوا من اعتقال يوهانسي روبن بحيث يوازى هذا الكسب خسارة المكانة التى ستمنون بها في البلاد الاجنبية » •

فقالت المرأة على الفور « انى أتفق معــك • فهــذه مسالة من أشد المسائل مجافاة للعقل • ويجب أن تعترف ياسيد بد أن ثورتنا تمت بعنف اقل من اى ثورة اخرى سبقت في التاريخ • ولكن هناك حالات لم يكن لها لزوم علم بها زوجي واستخدم نفوذه لتصحيحها • فهو بطبيعة الحال رجل مرهق بالمهام في الوقت الحاضر ومن واجبي باعتباري زوجته أن أحميه من الهموم لا أن ألقي على كاهله مزيدا منها • ولكن هذه حالة خاصة كما تقــول وسألفت نظره اليها • فمــاذا قلت لى عن تلك المنظمة الحزبية المسئولة ؟ » فأجابها « قوة الاعتقال الادارية بالرايخ » فقالت « أعتقد انها تابعة لجبهة العمل التي يقودها الدكتور لى • فهل تعرف روبرت لى ؟ » فقــال « لم يكن لى هذا الشرف » فقــالت « انه أحد الرجال الذين دخلوا حزبنا من القوات الجوية• وكثيرون من أكفأ قادتنا كانوا طيارين سابقين• جريجور شتراسر ••• » فقال لاني « لقد قابلته » واستطردت « وهيرمان جورنج ورودولف هيس •• الخ القائمة طويلة • فرجال الطيران يتعلمون كيف يعملون من غير أن تؤثر عليهم المشاعر • والدكتور لى مثل زوجي من أهالي الراين • ولســـت أدرى هل تعرف حقيقة الحــال في بـــلاد الصلب •••» فقال « ان أبى من رجال الصلب يا سيدتي وزيرة الرايخ » فقــالت « هكذا • اذن تســتطيع ان تتصور أهمية العمل والعمــال في الرور • وكان الحمر يعتبرونه ميدانهم • فلم يعد جزءا من المانيا بل من روسيا . وقد تدرب روبرت لى على العمل باغاراته على اجتماعاتهم والقاء الخطب من فوق المنبر • وفي كثير من المرات كان قميصه ينزع عن ظهره، ولكنه يستمر في الخطبة • وبعد عشر سنين من النضال على هذه الوتيرة لا يمكن أن يكون شخصا مهذبا في جميع الاحوال» فقال « لقد سمعت عنه حكايات كثيرة » فقالت « وهو الآن على راس جبهة العمل عندنا وقد حطم

الاتحادات الماركسية وسجن الزعماء الذين كانوا يستغلون عمالنا الالمان ويمزقون الوطن اربا بحرب الطبقات • وهذا نصر شخصى عظيم للدكتور لى • ولعله مسرف فى اعتزازه به بعض الشىء • فهو ما تطلقون عليه معشر الامريكيين لفظ « الراس المتورم » كناية عن الغرور » وابتسمت السيدة وزيرة الرايخ فابتسم لانى • واستطردت « واعتقد انه راى يهوديا غنيا يغادر البلاد فى يخت خاص اقتناه بالوسائل التى جعلت اليهود مكروهين جدا فى بلادنا • ولعله خطر له أن يحصل على هذا اليخت ليكون مستشفى لعمال الحزب الاشتراكى الوطنى الذين اعتدت عليهم عصابات الشيوعيين بالضرب واطلاق الرصاص » فضحك لانى قائلا « ألم أقل لك يا سيدتى وزيرة الرايخ • لقد أكد لى هاينريش اننى ان جئتك سأحصل على حقيقة الموقف • فلتاخذ جبهة العمل اليخت ولتعطنى والد زوج أختى ولنعتبر ذلك صفقة مفروغا منها • وسنعتبرها منة وفضلا » •

- ١٠ -

وسمع صوت اغلاق الباب فقالت ماجدة جوبلز « أظن القادم وزير الرايخ » ونهضت ونهض هاينريش • فحذت ايرما ولانى حذوهما • لانك ما دمت فى برلين فينبغى أن تصنع ما يصنعه البرلينيون ولا سيما حينما تلتمس المكرمات من عضو فى الوزارة له منزلة تربو على منزلة الملوك فى هذه الايام •

وظهر يوكشن جوبلز فى فرجة باب حجرة الاستقبال • وكان قصيرا حقا ولكنه ليس من القصر كما تراءى للانى عندما رآه واقفا على المنصة فى أحد الاجتماعات الجبارة • وهو يظلع فى مشيته ظلعا لايمكن اخفاؤه • وله وجه نحيل ينتهى بقمة هى انفه الحاد وله فم واسع مرسوم باحكام يبدو كالقناع الاغريقى عندما يفتحه ليتكلم • وعيناه بارزتان وشعره الاسود مرجل الى الخلف من جبهة منحسرة واذناه الواسعتان معلقتان بقمة راسه • وله أيضا مخ ولسان • ولكن مخه سطحى الا انه يضم كل ما هو ضرورى لامتاع مائة الف برجوازى صغير محتشدين فى استاد مزين بالصلبان المعقوفة • أما لسانه فحاد كلسان الثعبان ويسيل منه السم مثله أيضا • وذهن جوبلز مكدس بوقائع مشينة لكل شخص وجماعة وأمة يمكن أن تتصدى لمعارضة الاشتراكية الوطنية •

ومخيلته المتلهفة تستطيع أن تخترق ما تشاء من الوقائع بحيث

يجارى أى شاعر أو قصاص عاش على وجه الارض • ولم يعد هناك فارق بين الخيال والحقيقة لدى الدكتور يوكشن • وهذا الرجل القصير السوقى له في داخل المانيا سلطان تام ومسئولية لا معقب عليها على الصحف والافلام والاذاعة والمسرح والادب والفنون وجميع المعارض والمهرجانات والاستعراضات والاجتماعات والمحاضرات فى أى موضوع كانت ، وكتب المدارس والاعلانات والعلاقات الثقافية من اى نوع كانت بين المانيا والعالم الخارجى بما فى ذلك تلك المنظمات والنشرات التى تقوم بالدعاية للنازى فى عشرات من الامم • ان هذا الرجل القبيح الاسم المشوه الذى يثير الرثاء لديه ميزانية تعادل مائة مليون دولار فى السنة للتغنى بمحاسن الآرى الكامل الاشقر الجميل •

وهو فى حياته الخاصة انيس حاضر النكتة واسع الحيلة سريع البديهة فى الجدل • مستهين تماما بقيمة عمله بحيث تستطيع ان تعابثه فى صدد ما يصنع وتتندر به فيتندر معك ايضا بنفسه فالعالم كله مسرح وجميع من عليه من الرجال والنساء مجرد ممثلين• فكيف وجدت ماعرضته عليك الليلة ؟ وكجميع الممثلين العظام الحقيقيين كان الهر وزير الرايخ الدكتور جوبلز يعمل باجتهاد ودأب فظيعين • تدفعه عزيمة حديدية للوصول الى القمة فى مهنته والبقاء فوق القمة رغم أنف جميع المنافسين له • ولقد كان فى بداية حياته العملية خصما عنيدا لحزب النازى ولكن الحزب عرض عليه مرتبا أكبر فاعتنق مبادئه على الفور • وها هو الآن فضلا عن كونه وزير الارشاد القومى والدعاية قد أصبح قائد منطقة الحزب فى برلين ومدير « الهجوم » وهى صحيفة النازى القوية فى المدينة •

وقد سره أن يجد أمريكيين ثريين من ذوى النفوذ فى بيته • فمن واجباته أن يستقبل أمثالهما ويشرح لهم الاشتراكية الوطنية • وكان سريعا فى قراءة الطبائع وملاءمة ما يقوله لمكانة سامعيه ومعتقداتهم • وللمرة الثالثة هذا المساء سرد لانى قصته ، وأصغى الدكتور وزير الرايخ بانتباه . فلما سمع ختامها التفت الى زوجته قائلا«ها قد رأيت يا ماجدة. هذا الرجل بلطجى الحانات وفتوة المذبح « لى » • أمثل هذا الجلف يمثلنا أمام العالم الخارجى ويورطنا فى اعمال عصاباته» • فحذرته ماجدة قائلة « حذار » • ولكن زعماء النازية فوق مستوى تحذيرات زوجاتهم • فالح جوبلز قائلا « بلطجى سكير يريد ان يسيطر على جميع العمال الالمان وهو لا يستطيع السيطرة على نفسه • هل رأيت ذلك المنظم العظيم عندنا يا مستر بد ؟ فأجابه « فيما أعلم لا ياسيدى وزير الرايخ » فقال « انه

وغد صخاب بطنه كالقدر لا يستطيع الحياة من غير أن تكون القنينة الى جواره ·

ويحب سرد النكات وينفجر ضاحكا فتتطاير على المحيطين به كمية عظيمة من الرذاذ · وهو الذى ينشىء الان صرح جبهة العمل الجديدة · ولا بد له فى ذلك من الميلودراما · فهو يصر على الاغارة بنفسه على مقر ادارة الاتحادات هنا فى برلين · ولا تكفيه المسدسات والقنابل اليدوية بل لا بد من تركيب المدافع الآلية أمام الأبواب للقبض على الطفيليين الجبناء البدناء من قادة اتحادات العمال الذين يجدون عناء فى النهوض من كراسيهم الدوارة بغير معاونة · وهكذا أصبحت الامور فى بلادنا المعروفة بالضبط والربط · وبذلك سنحول برلين الى شكاجو اخرى ونطلق يد القراصنة والخطافين للعمل فى شوارعنا · ارجو الا أكون قد أسأت اليك بهذه المقارنة يا مستر بد » فضحك لانى قائلا « اطلاقا فوطن ابائى وأجدادى يبعد الوف الاميال عن شيكاجو ونحن أيضا قد لاحظنا احيانا نقائص الطبيعة البشرية تطل برأسها فى نظامنا السياسى الكامل» ·

فقال الدكتور وزير الرايخ « أرايت · » ثم ثاب الى الجد فقال « انى أترك اجراء العدالة للسلطات المختصة · ولكن حين يتعلق الأمر بشخص له سمعته الدولية فمن حقى بالتأكيد أن استشار · وأعدك انى سانظر فى الأمر أول شىء فى الصباح وسابلغك ما أصل اليه » فقال لانى « أشكرك كثيرا جدا هذا كل ما اطلبه» ·

ويبدو ان الرجل العظيم القصير لاحظ نظرة القلق على ملامح زوجته الرقيقة فاضاف « ومفهوم طبعا انى لا أعرف الجريمة المتهم بها صديقك اليهودى · ولا أعرف أيضا هل للدكتور لى ذى النشاط المفرط علاقة حقيقية بالموضوع · فلنترك اذهاننا مفتوحة لجميع الاحتمالات الى أن نعرف بالضبط ما حدث » فقال لانى على الفور «ان ما قلته منذ قليل لى لن يتجاوز شخصى وحده أوكد لك فلست هنا لأثير اللغط بل لاوقفه · » ·

- ١١ -

استرخى وزير الرايخ للارشاد القومى والدعاية فى مقعده ورشف النبيذ الذى صبته زوجته له وللضيوف ثم هتف « والآن اخبرنى ما رأيك فى خطبة زعيمنا » فشرع لانى يكرر ما قاله سابقا لابن مراقب الغابات · وانشد الانشودة الايطالية الثنائية الجميلة مرة أخرى لمساعدته

افانيت يوبشن انه مغن (تنور) أكثر رومانسية من هاينريش . فما من لغة مهما كانت حرارتها يعجز عن استخدامها فى الثناء على هتلر . وادرك لانى الموقف . فلنانب من نواب الزعيم كل الحرية فى انتقاد زملائه نواب الزعيم من أمثال لى وشتراسر وهيس ورهم . أما الواحد العظيم فهو الكمال المطلق . ويجب ان يغطى بطبقة كثيفة من زبد التملق . وكان هاينريش قد أخبر لانى ان بيت آل جوبلز أمسى مزار « آدى » المفضل حينما يكون فى برلين . وتحرص ماجدة على أن تكون صحائف الخضروات التى يحبها معدة له دائما وبعد تناولها يسترخى ويصغى للموسيقى ويلعب مع طفليها . ولم يكن لانى بحاجة الى أن يقال له أن الدساس الداهية يستغل هذه الفرصة ليملأ ذهن زعيمه بآرائه الخاصة فى شتى الشخصيات التى تتشابك حياتهم مع حياته . وعلى هذا النحو يساس العواهل وتتم السيطرة على مصائر الدول .

ووزير الرايخ للارشاد القومى والدعاية يستمتع بكل جانب من عمله وينكب عليه ليل نهار . وها هو أمام امريكيين ثريين حسنى الهندام يبدو أن أحدهما على الأقل ذكى . فخطر له ما ظل هاينريش يفكر فيه طيلة السنوات الاثنتى عشرة الأخيرة . وهو أن يرسل لانى الى الخارج مبعوثا لنشر الايمان بالنازية فى البلاد التى يعتبرها بمثابة اوطان له . فقال جوبلز « كل ما نريده نحن الاشتراكيين الوطنيين أن نترك وشأننا بحيث نستطيع اعادة تنظيم صناعة بلادنا وحل مشكلة البطالة بالأعمال العامة فيرى العالم كيف يمكن أن توجد الدولة النموذجية . وليس هناك ما نجنيه على الاطلاق من ارغام الشعوب الأخرى على اعتناق افكارنا » فقال لانى « منذ عشر سنوات قال لى موسولينى أن الفاشية ليست للتصدير ولكننى منذ ذلك الحين أراه يصدرها الى المانيا » وادرك الدكتور وزير الرايخ أنه بازاء شاب ذكى بالرغم من ثيابه المتقنة الصنع وزوجته الثرية فاعترف قائلا « لقد تعلمنا حيثما استطعنا » فابتسم الآخر وقال « حتى من لينين » فقال جوبلز « ان أجبت عن هذا السؤال ياسيد بد فيجب أن يكون ذلك كما تقولون معاشر الأمريكيين كلاما ليس للنشر » فقال لانى « طبعا ياسيدى وزير الرايخ . وينبغى أن أوضح لك أنه كان من حسن طالعى أن عملت سكرتيرا ومترجما لأحد الخبراء فى الوفد الامريكى الى مؤتمر السلام ، فتعلمت هناك كيف تجرى الشئون الدولية . وتعلمت أيضا كيف أكتم آرائى واحتفظ بمعلوماتى لنفسى » فسأله جوبلز « انت أسن من عمرك ياسيد بد أم أنت أسن مما تبدو من مظهرك ؟ » فأجابه « كنت فى التاسعة عشرة يومئذ فحسب . ولكنى كنت قبل ذلك قد

عشت فى جميع أنحاء أوربا وعرفت اللغات خيرا من أى جغرافى تخرج مما نسميه فى ولايات الغرب الوسطى كلية المياه العذبة » فاختلط الأمر على وزير الارشاد القومى وظن المعنى المياه الباردة لا المياه العذبة لغموض الكلمة فى اللهجة الامريكية ، فلما صحح له لانى الترجمة ضحك الاثنان من غرابة التعبيرات الامريكية ، ثم قال جوبلز « يخيل الى أنك فيلسوف ياسيد بد • وأنا أيضا لى تطلعات فى هذا الاتجاه • ولكن مشاغل الدنيا استأثرت بى • فخبرنى بأمـــانة وبدون روغان ما الذى ستفهمه اوربا وامريكا من خطبة الفوهرر ؟ » فأجابه « سيسرون منها بالطبع ولكنهم سيدهشون من لهجتها المهذبة • والمتشككون سيقولون انه يريد تحاشى المتاعب الى أن يتسع الوقت أمام ألمانيـا لاعادة تسلحها » فقـال جوبلز « فليتعلموا احدى عباراته وهى ان ألمانيا لا تريد شيئا سوى الحفاظ على استقلالها وحماية حدودها » فقال لانى « نعم ياسيدى وزير الرايخ • ولكن ثمة أحيانا شك فى موضوع الحدود أين هى واين ينبغى أن تكون » فلم يسع الآخر الا أن يبتسم ولكنه أصر قائلا ســترى أن تسليحنا كله دفاعى • فنحن غارقون تماما فى مشكلات اقتصادنا • وننوى أن نثبت سلامة الاشتراكية وقوتها فى اسم حزبنا ونرى العالم الخارجى وشعبنا أن مشكلات البطالة من الممكن حلها • ففى مدى خمس سنوات ـ لا بل اجرؤ أن أقول فى مدى ثلاث سنوات لن يبقى فى ألمانيا رجل واحد يريد العمل ولا يجده » فقال لانى « سيكون ذلك شيئا يستحق أن نتطلع اليه فعلا ياسيدى وزير الرايخ » فشرع الرجل العظيم يشرح له كيف يمكن ذلك • ومن الفم الخارق الاتساع تدفق طوفان من الكلمات وكان لانى قد لاحظ ذلك الشىء بعينه لدى هتلر وموسولينى ولدى دعاة كثيرين اقل منهم • فهم جميعا ينسون الفارق بين أربعة من السامعين وأربعة ملايين • ويبذلون من طاقاتهم للأولين والآخرين جهدا متساويا ومضى يوبشن يتكلم • ولعله كان حقيقيا أن يستمر فى الكلام طول الليل • لولا أن زوجته اللبقة تخيرت فرصة كان يلتقط فيها نفسه فقالت « ان السيد الدكتور وزير الرايخ قضى يوما فى العمل الشاق وأمامه مثله فينبغى أن يحظى ببعض النوم » • فنهض الآخرون على أقدامهم فورا وبذلك فاتهم الحديث عن طريق السيارات السريع الذى تعتزم الحكومة الجديدة انشـ[اءه] فى جميع أنحاء ألمانيا وشكروا الضيف والمضيفة وانصرفوا مسرعين •

وبعد أن أوصلا هاينرش الى بيته وصـــارا وحدهما فى أمان بالسيارة قالت ايرما « أتعتقد أنك وصلت الى هدفك ؟ » فأجابها « لا نستطيع التنبؤ بشيء في عالم الدسائس هذا · فسوف يقلب جوبلز الامر فى ذهنه ويقرر أين مصلحته » وكانت ايرما قد فهمت قليـــلا من الحديث هنا وهناك فقالت « انك على الأقل ألقيت القذارة على الدكتور لى » · فأجابها زوجها « نعم · وان أسعدتنا الظروف بمقابلة الدكتور لى فسنلقى القذارة - الدكتور جوبلز ؟ » ·

الفصل الثامن عشر

هذا انا

لم يكن فى نية لانى ان ينفذ اقتراح ابيه بالتوجه الى السفارة الامريكية فالملحق الذى كان صديقا قديما لروبى لم يعد موجودا هناك . والسفير ممن عينهم هوفر وهو شيخ جمهورى سابق من كنتاكي والرجل النموذجى فى نظر روبى بد ، بيد انه كان مريضا فذهب الى فيشى بفرنسا .ومن هناك ادلى بحديث صحفى يدافع فيه عن نظام النازى . اما من جهة لانى نفسه فهو لم يكن يتوقع متاعب جدية ، ولو واجه المتاعب فسوف يلجأ الى السفارة لاخراجه من ورطته . وقد اتفق مع ايرما على انه عند خروجه وحده يحدد موعدا لعودته . فان عاقه عائق اتصل بها تليفونيا ، فان لم يفعل ابلغت عنه باعتباره مفقودا .

وفى الصباح أخذا الامور فى يسر فتناولا الافطار فى الفراش وطالعا الصحف التى تضمنت احاديث معهما وبيانا مفصلا عن اجتماع الرايشستاج .واخبار النازى الأخرى . وكانت تعليقاتهما حذره لانهما يجب ان يتوقعا وسيلة من وسائل التجسس . وما لم يكونا وحدهما فى السيارة فكل شىء فى المانيا رائع ، ولا يستخدمان الاسماء الصريحة بل كنيات عنها . فهاينريش اسمه « الآرى » وجوبلز اسمه « الفم » وعقيلته « السيدة فم » وهى كنيات خالية من الاحترام ، ولكنهما شابان وتصرفاتهما فيها ذكاء .

وحدث اتصال تليفونى من جانب فريدى ، ولكن لانى عرف صوته فقال على الفور « لقد رأينا طائفة من صور بوجيروا فى الليلة الماضية ونحن فى انتظار حديث تليفونى جدد لنا السعر . واتصل بنا فيما بعد » . ثم جلس فكتب خطابا قصيرا الى السيدة دنجل فى باريس ارفق به قصاصات شتى من الصحف قائلا « سوق الصور تبدو مشجعة

ونامل القيام بالمشتريات سريعا . الكلارينيت والآلات الأخرى بحالة طيبة » .

وفيما هو يكتب اتصلت الاميرة دونر شتاين تليفونيا - وهى أحدى صديقات ايرما - لتدعو الزوجين الشابين للغداء ، فطلب لانى من ايرما أن تقبل الدعوة بالنسبة لنفسها لانها تضيع وقتها بالجلوس اثناء المقابلات الطويلة والاحاديث مع المسئولين باللغة الالمانية فلتخرج ولتنشر النبأ الخاص بيوهانس لتعرف رد الفعل لدى المجتمع الراقى عن اختفاء قطب المال اليهودى وسينتظر لانى شخصيا فى جناحهما لتلقى الرسائل .

وفيما هما يرتديان ثيابهما رن جرس التليفون . وكان المتحدث هو السكرتير الخاص للسيد وزير الرايخ الدكتور جوبلز معلنا ان السيد وزير الرايخ يريد ان يخبرك انه اخذ على عاتقه المسئولية الكاملة عن الموضوع الذى لفت اليه نظره وسيتصل بك بمجرد فراغه من التحقيق فيه » فشكره لانى ثم قال لزوجته « لا انا نصل الى نتيجة ! » فقالت ايرما « لقد كان حقيقة شخصا لطيفا يالانى » فتطلع اليها متوقعا غمزة صغيرة من عينها ولكنها فيما يبدو كانت تعنى ما قالت . وكان يود أن يقول لها « انها لخسارة ان خطبه العلنية ليست فى لطافة احاديثه الخاصة » ، ولكن ذلك لا يمكن أن يقال الا فى السيارة » .

واضاف حاشية الى رسالته لأمه : « لقد وصلنى الآن ما يبرر الأمل فى سرعة انجاز صفقتنا » . وكان على وشك ان يعرض على ايرما ان يصحبها الى الغداء عندما طرقا على الباب وقدم اليه احد السعاه بطاقة قرأ عليها » الهر جونتر لودفيج فورتفنجلر رئيس الدائرة الرابعة بلجنة التحقيق والتحكيم بحزب العمال الالمانى الاشتراكى الوطنى » ولم يتوقف لانى ليحل ألغاز هذه الحروف الالمانية المتشابكة بل قال « دع السيد يصعد» . ثم اخذ يفحص البطاقة فاستطاع ان يكون فكرة عن زائره لأن الالمان لا يضعون عادة اللقب هر على بطاقاتهم ، اذ يعتبر ذلك من باب الفجاجة .

ودخل الضابط حجرة الاستقبال فصك كعبيه وانحنى بخاصرته . وقال « هايل هتلر . صباح الخير ياهربد » وكان رجلا لم يجاوز الشباب يبدو انيقا فى كسوته الفضية السوداء الخاصة بكتائب الأمن وعليها الجمجمة البيضاء والعظمتين المتقاطعتين » اتشرف ياهربد بابلاغك انى عينت بالأمس فى الحاشية الشخصية لوزير الرايخ ورئيس وزراء بروسيا النقيب جورنج ، ورتبتى ملازم أول ولكنى لم أجد بعد متسعا من الوقت

لطبع بطاقات جديدة . وصاحب السعادة يرغب فى دعوتكم وفراو بد لاحتفالاته الافتتاحية التى ستقام بعد غد « فقال لانى مخفيا دهشته » لنا عظيم الشرف أيها السيد الملازم أول » فقال : « واقدم لكما بطاقة الدخول هذه . ومفهوم طبعا انه من الضرورى ان تحملها معك » فقال لانى : « بالتاكيد » ووضع الكنز الثمين فى موضع امين داخل جيب سترته فوق صدره . واستطرد الآخر » وصاحب السعادة رئيس الوزراء يريد ان يحيطك علما بانه يولى موضوع يوهانس روين اهتمامه الشخصى العاجل « فقال الامريكى » اشكرك أيها الملازم أول « وفى هذه المرة لم يستطيع اخفاء دهشته فاضطر ان يفسرها له » منذ بضع دقائق اتصل بى مكتب وزير آخر من وزراء الرايخ واخبرنى أن الوزير اخذ المسالة على عاتقه « فقال الضابط » لدى تعليمات ان احيطك علما بانك اذا صحبتنى الى مقر صاحب السعادة رئيس الوزراء فسيتولى شخصيا احاطتكم علما بالموضوع « فاجابه لانى » لى الشرف وأنا يسعدنى بطبيعة الحال ان اذهب . اسمح لى بلحظة ريثما اخبر زوجتى . « وشحب وجه ايرما عندما اخبرها بذلك النبأ لانها كانت قد سمعت عن جورنج الذى لم يظهر له منافس حتى الآن فى لقب اشد رجال حكومة النازى وحشية . وسألته « هل من الممكن ان يكون هذا بمثابة القبض عليك يالانى ؟ « فابتسم وقال » من فساد الذوق الشديد ان يخطر ببالنا ذلك . ساتصل بك حتما فى قصر الاميرة دونر شتاين فى الساعة الثانية . انتظرى ذلك هناك فان لم أتصل بك فقد يكون الامر خطيرا . ولكن فى هذه الاثناء لا تفسدى غداءك بالقلق . ومنحها قبلة سريعة ثم هبط الى السيارة الرسمية الكبيرة ، وهى مرسيدس فى حجم المصفحات لها ست عجلات ولها سائق وحارس وكلاهما فى الكسوة النازية . وقال لانى لنفسه « بحق الجحيم اذ لابد ان يكون يوهانس أغنى بكثير مما أعلم ! » .

- ٢ -

وبعد رحلة قصيرة بالسيارة فى شارع تحت ظلال الزيزفون وتحت بوابة براند نبرجر وصلا الى المقر الرسمى لرئيس الوزارة عبر الشارع فى مواجهة الرايشستاج بقبته المحترقة ، وكان لانى قد سمع مناقشات لا نهاية لها عن نفق طوله ثلاثمائة قدم يمر تحت ذلك الشارع ، ويقال أن رجال كتائب الهجوم اخترقوه ليلا ليملئوا المبنى بالمواد الحارقة ثم اشعلوا فيها النار بالمشاعل . وكل العالم غير النازى يعتقد ان هيرمان

فيلهام جورنج كان قد أمر بهذا الحريق ودبره . ويقينا انه ما من احد يمارى فى انه هو الذى أمر ودبر اصطياد وقتل وسجن وتعذيب عشرات الالوف من الشيوعيين والاشتراكيين والديمقراطيين وانصار السلام خلال الثلاثة شهور ونصف الماضية وبصفته وزيرا بدون وزارة فى الرايخ الالمانى أصدر قرارا رسميا الى الشرطة بالتعاون مع القوات النازية. وفى خطبة له بدور تموند دافع عن قراره هذا قائلا « فى المستقبل لن يكون سوى رجل واحد فقط يستخدم السلطة ويتحمل المسئولية فى بروسيا . وهذا الرجل هو انا . فكل رصاصة تنطلق من فوهة مسدس رجل من رجال الشرطة فهى رصاصتى فان قلتم ان هذا قتل فانا اذن القاتل وأنا لا أعرف الا نوعين من القانون لأنى لا أعرف الا نوعين من البشر : من هم معنا ومن هم ضدنا » .

ومع مضيف كهذا كل شىء ممكن . ولا جدوى من محاولة لانى ان يخمن ما سيحدث . فما الذى استطاع ان يعرفه قائد الشرطة البروسية ومؤسس الجستابو وهو شرطة الدولة السرية عن ذلك الوردى الامريكى الفرنسى فى مدى بضع ساعات ؟ لقد كان لانى متهورا حين ذكر لجوبلز انه قابل موسولينى . فهل اقدموا على اتصال تليفونيا بروما وعرفوا كيف طرد ابن بد من المدينة لمحاولته نشر نبذ مقتل جاكومو مايتونى ؟ هل من الجائز انهم اتصلوا تليفونيا بكان وعرفوا شيئا عن مدرسة العمال ؟ أو بباريس وعرفوا شيئا عن خاله الاحمر واكتتابات ايرما بادنز فى الحملة الانتخابية التى جعلت منه نائبا فرنسيا ؟ ان لانى يستطيع أن يتظاهر أنه مناصر للنازى أمام هاينريش يونج ، ولكنه لا يستطيع بسهولة ان يتظاهر بذلك أمام أكبر رجل قوى حازم من بطانة الفوهرر ! .

ان كل شىء يبدو غامضا الى أقصى حد . وقال لانى لنفسه : « هل حول جوبلز الموضوع الى جورنج ، أم أن جورنج انتزعه من بين يدى جوبلز ؟ » ان الجميع يعلمون ان الاثنين الد المتنافسين ولكن منذ صارا عضوين فى الوزارة فمكتباهما يجب أن يتعاونا حتى فى شتى الامور . فهل بينهما منازعا تعلى الاختصاصات ؟ وهل يمكن ان ينشب بينهما صراع حول امتلاك ذلك اليهودى الثرى والفدية التى يمكن استخلاصها منه ؟ ان جورنج يصدر أوامره الى شرطة برلين فى حين يقود جوبلز باعتباره قائد منطقة برلين جهاز الحزب هناك ، وبالتالى له القيادة على ذوى القمصان البنية . فهل يمسى يوهانس روبن المتهالك على ركبتيه سببا فى حرب اهلية ؟ .

وثمة أيضا خواطر اشد من هذه غرابة : كيف استطاع جورنج ان يعرف مسألة يوهانس روبن ؟ اله جاسوس في بيت جوبلز ؟ أو في مكتب جوبلز ؟ أم هل اخطأ جوبلز فاتصل تليفونيا باحد اقسام الاستعلامات الكثيرة التابعة لجورنج ؟ وتخيل لانى دسائس كخيوط العنكبوت تنسج حول قضية روبن ، ولا يستغرق نسجها طويلا حين يتم ذلك عن طريق اسلاك التليفون .

- ٣ -

وادخلهما الحجاب في كسواتهم الرسمية مشيعين بالانحناء ، وقاد سكرتير لانى فصعد به سلما عريضا الى حجرة باذخة ذات سقف مرتفع فاذا الرجل العظيم يجلس متكاسلا في مقعد كبير وثير والى جواره كومة من الاوراق فوق منضده صغيرة ، والى جواره من الناحية الاخرى منضده عليهـا مشروبات وكان لانى قد شاهد صورا كثيرة للرجل فكان يعرف ما يتوقع أن يراه . فهو رجل كالجبل له وجه عريض مقطب وغبب ضخم وشفتان غائرتان وأكياس من الدهن تحت عينيه . وهو في الاربعين من عمره لا يزيد ولكنه أصاب تضخما عظيما في الصدر والبطن يغطيهما بكسوة رسمية زرقاء زاهية ذات قلابات بيضاء . وحول عنقه شريطان أبيضان معلق عليهما نجم ذهبى له أربعة أطراف مزدوجة . وكان حب الطيار السابق للسلطة بحيث جعله يتولى مزيدا من المناصب على التوالى ، فهو وزير من وزراء الرايخ بغير وزارة ورئيس وزراء بروسيا ووزير الطيران والقائد الأعلى لقوة الطيران الالمانية وكبير مراقبى الغابات في الرايخ ومندوب الرايخ المفوض . ولكل منصب من هذه المناصب يتخذ كسوة رسمية جديدة زرقاء سماوية أو بلون الزبد البقرى أو حمراء وردية . ولن يمر وقت طويل قبل أن يخترع أحد ارباب الفكاهة في برلين قصة هتلر يحضر عرضا لاوبرا لوهنجرين فيستغرق في النوم ، وبين الفصول يقبل اليه كبير المغنين في كسوته الفخمة التى تمثل زورق البجع وفي نيته أن يقدم احترامه الى الفوهرر ، فيستيقظ هتلر من غفوته ويفرك عينيه ويصيح به لا . لا يا هيرمان ! هذا كثير ! .

وكان جورنج التالى لزعيمه مباشرة في الشهرة بين النازيين فقد كان فيما مضى من أبطال الطيران وقد ابدى شجاعة فائقة ، ولديه قدره المانية خارقة على الجمع بين الضراوة والتسامح ، فهو مع خلانه متهجح

انيس كثير التنكيت سكير صخاب يشرب الباطية باكملها وله قدرة على استيعاب كميات غير محدودة من البيرة . وقصارى القول انه من أبطال الاساطير التيوتونية الاقدمين ، اولئك المحاربين الذين يقضون النهار بطوله فى ذبح اعدائهم وفى الليل يشربون الانخاب بايديهم التى لم يغسلوها من الدماء . فان قتلوا اقبلت الفلكيرى (وهن عذارى المعبود اودين اللواتى يطفن ساحات المعارك ليتخيرن الشجعان لادخالهم الجنة) على ظهور خيولهن السريعة ليحملنهم الى الفلهلا (وهى الجنة فى الديانة الشمالية القديمة الوثنية) ليشربوا الانخاب بعد ذلك الى الابد .

- ٤ -

كانت اول خاطرة للانى « هذا ابغض البشر ! » ولكن الخاطرة الثانية التى وافته فى اعقابها مباشرة « انا معجب بجميع انذازين ! » فانحنى امامه بالطريقة الصحيحة وقال « طاب صباحك ياصاحب السعادة » فقال النقيب فى صوت مقعقع كخوار الثور : « طاب صباحك يا سيد بد . تفضل بالجلوس » واشار الى كرسى بجواره فاطاع لانى . وكان قد قابل كثيرين من عظماء الارض فى سنوات عمره الثلاث والثلاثين فتعلم كيف يعاملهم باحترام ولكن بغير تذلل ، والاسلوب الامريكى الذى ظل مقبولا حتى الان . وكان يعلم ان على المضيف ان يذكر لماذا استدعاه للحضور فى الوقت نفسه اذعن لنظرات التفحص فى صمت . وقال الرجل العظيم اخيرا « ياسيد بد . هل رأيت صحف هذا الصباح الصادرة فى باريس ولندن ؟ » ولما كان لانى قد سمع ان جورنج لديه حاسة الفكاهة فقد اجابه قائلا « ليست لى مزية امتلاك اسطول جوى يا صاحب السعادة » فقال مضيفه وهو يبتسم « بل اننى احيانا اعرف ما فى هذه الصحف تليفونيا فى الليلة السابقة لصدورها . ان صحف هذا الصباح فيها قصة مفادها ان مرابيا يهوديا اسمه يوهانس روبن قد اختفى فى المانيا واسنا حريصين على ان ياخذ العالم الخارجى انطباعا عنا اننا بصدد اقتباس العادات الامريكية ولذا امرت باستقصاء الموضوع على الفور ، ومنذ قليل اخبرت الصحف ان هذا المستغل قد قبض عليه بصورة شرعية لمحاولته اخراج مبالغ هائل من الاموال من بلادنا معه على ظهر يخته . وهذا كما قد تعلم امر يحرمه قانوننا . » فقال لانى « يؤسفنى أن أسمع هذا النبأ ياصاحب السعادة » فقال : « ان السجين حقيق ان يعاقب بعشر سنوات مع الاشغال الشاقة وستكون

شاقة جدا حقا اؤكد لك » فقال لانى « هذا طبيعى ياصاحب السعادة • ولا استطيع ان اقول شيئا عن هذا الموضوع قبل ان اسمع جانب يوهانس من القصة • فقد كان على الدوام مواطنا حريصا على طاعة القانون • وانا واثق بانه ان كان قد خرق القانون فعلى سبيل السهو • فقد كان شارعا فى رحلة بحرية بانيخث ، والمرء لا يستطيع ان يبحر الى بلاد غريبة من غير ان يكون لديه أموال نقديه على ظهر يخته لشراء الطعام والوقود. « فقال جورنج » من الضرورى حتما الحصول على ترخيص من مراقبة النقد ، وسجلاتنا تدل على ان مثل هذه الوثيقة لم تصدر وهذا القانون نافذ منذ أكثر من سنة وقد تم الاعلان عنه بصورة وافية ولا يسعنا ان نرى وطننا تستنزف ثروته القومية أو نقودنا السائلة وقد هبطت قيمتها فى أسواق العالم • ونحن نجد فى الوقت الحاضر ـ بسبب سفالة الشيوعين واليهود الذين حكموا المانيا ـ ان احتياطى الذهب لدينا قد هبط الى ثمانية ونصف فى المائة وحياة دولتنا صارت فى خطر بسبب نشاط هؤلاء المستغلين الخنازير • وقد اجد لدى المبرر لاتهام يوهانس روبن بالخيانة العظمى ، وقد اقرر توجيه ذلك الاتهام اليه فعلا . « فقال لانى » هذا طبيعى ياصاحب السعادة وانى شديد الاسى لسماع هذا كله . فهل فى نيتكم ان تسمحوا لى بمكرمة الاجتماع بالسجين ؟ » فقال جورنج « هناك شيء أهم من حماية عملة الرايخ ، الا وهو حماية سمعته الطيبة فقد اثار استنكارنا ما يقال من التنديد والتشنيع الدائم عن طريق أعداء نظامنا وفى نيتنا أن نتخذ جميع الخطوات الممكنة ضد هؤلاء الشياطين » . فقال لانى « استطيع ان اؤكد لك يا صاحب السعادة انه فيما يتعلق بيوهانس لا توجد مثل هذه الدوافع فهو شخص غير سياسى اطلاقا وقد ذهب الى أبعد مدى فى حرصه على السلوك الودى. فقال رئيس الدولة البروسية « انى بسبيل اتخاذ خطوات لاكتشاف من هم هؤلاء الاصدقاء . وعندما أصل اليهم سأعدمهم رميا بالرصاص».

كانما قد أطلق الرصاص على لانى على نحو ما ، فقد ابصر من وراء تلك الكرات من الشحم عينيين زوقاوين بارزتين تحدقان فيه فادرك أن ذلك النسر الحربى طير مميت من الطيور الجوارح • واستطرد جورنج : « فلنصل الى موضوعنا يا سيد بد . انى مستعد للتفاوض معك . ولكنى اطلب منك كلمة الشرف باعتبارك سيدا مهذبا ان اية معلومات أفضى بها اليك أو مقترحات أعرضها عليك ستظل سرا شديدا بيننا الان وفى المستقبل . وهذا يعنى بالضبط ما أقوله حرفيا ، وسبب مقابلتى اياك اننى سمعت عنك انك رجل يحافظ على عهوده » . فقال لانى « لست

ادرى من الذى قال عنى هذه الكلمة الطيبة يا صاحب السعادة ، ولكنى اؤكد لك انه لا رغبة لى فى هذا الموضوع سوى مساعدة صديق قديم تربطنى به المصاهرة فى الخروج من المازق الذى تردى فيه . فان سمحت لى ان أصنع ذلك ثق ان لا يوهانس ولا انا ستكون لنا مصلحة فى اذاعة شىء عن هذه المسالة المنكودة » فقال جورج « حدث ان هذا الموضوع بداه غيرى ، ولكنى اخذته الان على عاتقى . وكل ما سمعته خلاف ذلك يجب ان تغض النظر عنه . فيوهانس روبن اسيرى وأنا مستعد لاطلاق سراحه بشروط معينة . وهى شروط نازية لن تحبها وهو بالتاكيد لن يحبها . ونك ان تنقلها اليه وتنصحه بقبولها أو عدم قبولها . ولست اضغط عليك وانما اشترط عليك الشرط الذى ذكرته لك آنفا : وهو بقاء المسالة فى طى الكتمان ، ويجب أن توافق على الا تميط اللثام عن هذه الوقائع لاى انسان ، وان يوافق يوهانس على ذلك أيضا » فساله لانى « ولنفرض ان يوهانس لا يريد ان يقبل شروطك يا صاحب السعادة ؟ » فاجابه « ستكون مقيدا بعهد الكتمان سواء قبل الشروط أو رفضها . وسيكون هو مقيدا بذلك العهد أيضا ان قبلها . أما ان رفضها فليس لذلك اهمية لانه لن يتحدث الى أى انسان بعد ذلك » فقال لانى « هذا واضح بما فيه الكفاية فيما يتصل به . ولكنى لا افهم لماذا ادخلتنى فى الموضوع ؟ » فقال جورنج « لانك فى برلين ولديك علم بالقضية وانا اعرض عليك فرصة لانقاذ صديقك من أسوا مصير تستطيع انت أو هو ان تتصوراه . وجزء من الثمن سكوتك وسكوته . فان رفضت العرض ستكون حرا فى الخروج الى العالم لتقول ما تشاء ولكنك بذلك تكون قد حكمت على قريبك اليهودى هذا بميتة ساجعلها مؤلمة قدر استطاعتى . » فقال لانى « هذا واضح بما فيه الكفاية يا صاحب السعادة . فبديهى انك تتحكم فى كما تتحكم فى يوهانس . ولا يسعنى ان اصنع شيئا سوى أن أقبل اقتراحك » .

- ٥ -

وكان لانى يعلم ان هذا الرجل المخلوق من الدم والحديد كان مشغولا بقلب الحكومة الالمانية رأسا على عقب فهو يطرد المسئولين من جميع الانواع ما بين مديرى الشرطه والعمد ، بل والاساتذة والمعلمين ويحل محلهم النازيين المتعصبين وفى هذا اليوم بالذات قالت الصحف ان مجلس التشريعى الاصغر فى ولاية بروسيا قد دعى للاجتماع كى

يقدم استقالته الجماعية ويتسنى بذلك لجورنج تعيين هيئة أخرى من اتباعه الحزبيين . ولكن رغم كل هذه المشاغل اتسع وقته كي يشرح لزائر امريكى شاب انه وهو راس الدولة البروسية لا يمكن ان يعتبر فى عداد المتعصبين ضد اليهود ، فخصومته معهم خصومة عملية محض ، ذلك انهم طائفة أثرت من امتصاص دم الشعب الالمانى المسكين بعد الحرب حتى بات هذا الشعب على شفا الهلاك ، فقد اشتغل هؤلاء اليهود بالمضاربة فى المارك واستغلوا لمنفعتهم اسوأ نكبة وطنية بل ابشعها فى العصور الحديثة « ولك ان تنظر الى اطفالنا فى المدارس يا سيد بد ولن تجد صعوبة فى تمييز من ولدوا منهم بين سنتى ١٩١٩ و ١٩٢٣ بسبب حجمه الذى توقف نموه دون الحد الطبيعى » .

وظل لانى يصغى بتهذيب الى راس الحكومة البروسية وهو يستخدم الفاظا يشيع استعمالها فى الثكنات ، وجانب منها لم يسمع به ذلك الامريكى المشتغل بعلم الجمال قبل الان . وفجاة هوت قبضة انه الرعد السمينة على المنضدة بضربة مدوية « أما والأمر كذلك فالى العمل ! ان اليهودى الذى اتخم وسمن على دمائنا يجب ان يتقيا ماملا به جوفه . فيخته سيكون وسيلة للترفيه عن الجديرين من اعضاء الحزب . وقصره سيتحول الى متحف عام . وقد بلغنى انه يضم مجموعة حسنة الاختيار من لوحات بريشة الاساتذة الاقدمين » فقال لانى « اشكرك على هذا الثناء يا صاحب السعادة . ام لعلك تعلم انه كان لى سرور القيام بانتقائها شخصيا ؟ » فومضت العينان الزرقاوان القاسيتان بين الطبقات الثقيلة من الشحم وقال « هكذا ! اتحب ان اطلق عليه اسم متحف لانى بد ؟ » فرد عليه لانى قائلا « بل ينبغى ان يحمل المتحف اسم من انشاه يا صاحب السعادة » واستطرد جورنج والومضة لم تزايل عينيه « وفى نيتى أن انجز هذه الامور على حسب الاجراءات القانونية . وسيقوم باعداد الاوراق نائبنا العام وسيقوم المستغل بتوقيعها أمام الموثق . وسيتم البيع القانونى بمبلغ وقدره مارك واحد عن اليخت ومارك آخر عن قصره وماركات أخرى عن أنصبته فى مشروعاتنا الصناعية الكبرى وبنوكنا وسيؤدى الى اتعاب عن خدماتى فى الامور سالفة الذكر على صورة شيكات بكل ارصدته فى البنوك . وثق انى ساصرف هذه الشيكات قبل أن يبارح البلاد . » فساله لانى « أتنوى ألا تترك له شيئا يا صاحب السعادة ؟ » فاجاب « ان كل عملية مقايضة من هذه العمليات ستكون مقابل مارك واحد . وستكون هذه الماركات ملكا شخصيا له لا ينازعه فيه أحد . أما عن الباقى كله

فعريان جئت الى المانيا وعريان اخرج منها ! » فقال لانى « اسمح لى أن اصحح شيئا يا سيدى فانا اعلم بالصدفة ان يوهانس كان رجلا ثريا عندما جاء الى المانيا ، فقد كان هو وابى شريكين سنوات كثيرة ولذا أعرف تمام المعرفة ماذا كان يمتلك » فقال جورنج « ولكنه كون هذه الثروة من المتاجرة مع الحكومة الالمانية كما قيل لى » فاجاب لانى « جزئيا نعم . فقد كان يبيع أشياء أسعد الحكومة الألمانية أن تحصل عليها وقت الحرب مثل المولدات الكهربائية المغناطيسية التى لابد انك استخدمتها فى الطائرات التى أديت بها أعمال بسالتك المشهورة » فقال جورنج « انك شاب حصيف يا سيد بد ، وبعد انتهاء هذه الصفقة ساكون انا وانت صديقين طيبين وربما قمنا بعمليات مربحة معا . أما فى الوقت الحاضر فانت محامى الشيطان الذى كتب عليه أن يخسر قضيته . فقد كنت حتى الان لا أفهم السر فى أن مولداتنا الكهربائية المغناطيسية كانت كثيرا ما تخوننا فى اللحظة الحاسمة ، أما الآن فقد عرفت انها بيعت لنا على يد خنزير يهودى قذر لعله أفسدها بحيث نضطر لشراء المزيد منها » قال الرجل العظيم ذلك بابتسامة عريضة فكأنه قطة ضخمة قوية تلعب بفأر شديد الحيوية ولكن لا حول له ولا قوة . وأمامه على البساط تحت قدميه يرقد شبل أسد لم يبلغ أشده يتثاءب ثم يلعق شعرات شاربه وهو يرقب سيده يتأهب لتسديد طعنة فى مقتل . وقال لانى لنفسه « ها انذا قد عدت الى الاشوريين!».

- ٦ -

وخامر الزائر الشعور أنه ينبغى ان يناضل قليلا فى سبيل ثورة صديقه ولكنه لن يستطيع أن يتصور كيف يشرع فى ذلك فهو لم يقابل قط فى حياته كلها رجلا كهذا . فقد اخافه تماما لا على نفسه بل على يوهانس فاما نقودك واما حياتك !

وغامر بقوله « ياصاحب السعادة . الست قاسيا بعض الشىء على فرد عاثر الحظ ؟ فثمة مستغلون كثيرون من غير اليهود . وهناك يهود كثيرون أغنياء فى المانيا تمكنوا حتى الآن من تحاشى سخطك » فقال جورنج « لان هؤلاء الخنازير كانوا حريصين على عدم خرق قوانيننا . اما هذا الخنزير فخرق الوصية الحادية عشر وقد ضبط متلبسا بذلك . وهذه الوصية تقول لا تجلب الشر على نفسك وفضلا عن هذا فلدينا أوجه نستخدم فيها أمواله . »

وفكر لانى فى نفسه « ان الصفقة ليست السبب كما يبدو لان الكثير جدا من أموال يوهانـ رفى الخارج » وقرر الا يغامر بالدخول فى معركة ، الا انه قال « سأنقل رسالتك اليه » فاستطرد رأس الحكومة البروسية قائلا : « الاحظ عليك انك تتجنب الاشارة الى الاموال التى قام هذا المستغل بالفعل بنقلها الى خارج البلاد واخفاها فى دول أخرى . فان كنت تعرف تاريخ أوربا فانت لابد تعرف انه بين الحين والحين كان احد العوامل عندما يحتاج الى أموال يلقى برجل من اغنى رعاياه اليهود فى الجب ويأمر بتعذيبه الى ان يعترف بمكان المخبأ الذى اودعه ذهبه ومجوهراته « فقال لانى » لقد قرأت التاريخ ياصاحب السعادة» فقال جورنج « لحسن الحظ ان شيئا من هذا القبيل لن نكون بحاجة اليه فلدينا كل المعلومات المصرفية عن هذا الوغد بما فيها ايصالات الايداع وما الى ذلك . ولدينا صور فوتوغرافية من وثائق كان يظنها بمأمن من جميع العيون . وسنقدم اليه شيكات ليوقعها بحيث تحول الى جميع هذه الارصدة . وعندما يفرغ وكلائى من تحصيل آخر دولار وجنيه وفرنك فى الخارج عندئذ سيكون قريبك اليهودى قد اصبح بالنسبة لى قطعة عفنة من لحم الخنزير المنتن اعاف ان اشمها وسوف يسرنى فى هذه الحالة ان تحمله بعيدا عنى « فسأله لانى » وأسرته ياصاحب السعادة ؟ » فأجابه « هم ايضا ستكون رائحتهم نتنه فى خياشيمى وسنحملهم الى الحدود ونعطى كل واحد منهم ركله فى عجيزته لنتأكد من أنهم سيعبرون الحدود بلا أبطاء » وأراد لانى أن يقول « وسيروقهم ذلك » ولكنه خشى ان يعتبرها تهكما ولذا اكتفى بمواصلة الابتسام . وكان الرجل العظيم يبتسم أيضا لأنه كان يستمتع بممارسةسلطانه الذى كافح طول حياته ليصل اليه وقد نجح فى ذلك نجاحا تجاوز كل تصور خطر بباله . وتثاءب شبله وبسط رجليه ؛ فقد حان الوقت للذهاب الى الصيد .

وقال جورنج (وأخيرا دعنى أوضح لك ما سيحدث لهذا اليهودى القلر ان هو تجاسر على تحدى ارادتى . فانت تعلم ان العلم الالمانى وصل الى درجة عالية فى العالم ولدينا خبراء فى كل باب من أبواب المعرفة ، وقد جعلناهم يعملون سنوات طويلة لاستنباط الوسائل التى تحطم ارادة من يقفون فى طريقنا . فنحن نعرف الان كل شىء عن الجسد البشرى والعقل البشرى وما يحلو لك أن تسمية الروح البشرية . ونعرف كيف نسوس كلا منها . وسنضع ذلك الخنزير فى زنزانة شيدت خصيصا من حيث الحجم والشكل بحيث يستحيل عليه

لن يقف أو يجلس او يستلقى من غير تعب ممض وسيظل الضوء الساطع مسلطا على عينيه ليل نهار وسيرقبه حارس بنخسه كلما أغفى ٠ ودرجة حرارة الزنزانة ستكون بالضبط .درجة حرارة البرودة بحيث لا يموت ولكن يصير ذهنيا كقطعة من العجين فى أيدينا ولن يسمح له بالانتحار ٠ فان لم تنهر ارادته سريعا وضعنا زيت الكافور فى مسالكه البولية وعندئذ سيتلوى ويصرخ الما طول النهار والليل ويتمنى مايون مرة لو انه مات ، ولكن جسمه لن تظهر فيه علامة واحدة للتعذيب . وهناك وسائل اخرى لن اذكرها لك لانها سرنا الخاص ، الذى حصلنا عليه فى الثلاث عشرة سنة الاخيرة التى كان المفروض اننا قضيناها ، عاجزين وقد استنزف الدم من عروقنا المستغلون مصاصو الدماء القذرون النتنون من اليهود والبلاشفة . ان الشعب الالمانى سيتحرر يا سيد بد . وستساعدنا أموال هؤلاء الطفيليين على تحريره . الديك أسئلة اخرى تحب أن توجهها الى ؟ » فقال لانى : « لا أريد الا ان أتأكد من اننى فهمتك بدقة ٠ أفان قبل يوهانس شروطك ووقع الاوراق المطلوبة التى تضعها أمامه تسمح لى بأن آخذه واسرته الى خارج المانيا بدون امهال آخر ؟ » فقال جورنج « هذه هى الصفقة . وعليك من جانبك أن توافق على أنه لا أنت ولا اليهودى ولا أى عضو من أسرته سوف يقول شيئا لأى انسان عن هذه المقابلة أو عن شروط مغادرته البلاد » فقال لانى « فهمت ياصاحب السعادة سأنصح يوهانس بأن رأيى أن لا خيار له سوى الخضوع لطلباتك » فقال جورنج « وأخبره ايضا ان هذه كلمتى الاخيرة » : «ان انت أو هو أو أى فرد من اسرته اخل بهذا الاتفاق فساعد قائمة بمائة من اقاربه واصدقائه اليهود فاقبض عليهم واجعلهم يدفعون ثمن ذلك نيابة عنه . أهذا واضح ؟ » فقال لانى « واضح جدا » فقال جورنج » ان اعدائى فى المانيا يكتشفون الآن اننى السيد واننى احطم من يعترضون سبيلى ٠ وبعد انتهاء هذه المسألة سيكون عندى بعض بعد الفراغ فتعال وقابلنى مرة ثانية وسأريك كيف تستطيع ان تجمع ثروة كبيرة وتستمتع بحياة لذيذه » فقال لانى « شكرا لك ياسيدى ولكن الواقع أن أحب ما أحب من الأعمال عزف أعمال بيتهوفن على البيانو » ٠ فقال القائد الثانى للنازى بضحكة مجلجلة أذهلت زائره « تعال اذن وأعزفها للفوهرر » وتساءل لانى هل ذلك الرجل النسر يسخر من ضعف زعيمه للموسيقى ؟ أهو مثلا يترقب الفرصة التى يستولى فيها على ازمة الامور من يد هذا الرجل العاطفى الحالم الذى لديه موهبة الخطيب القادر على اثارة الغوغاء ولكن

ليست لديه القدرة على الحكم ؟ هل قال جواسيس رئيس الوزارة البروسية له ان لانى تناول ذات مرة الشاى مع الفوهرر ؟ أو انه قضى جانبا من الليلة الماضية فى البيت الذى يؤثر الفوهرر التردد عليه ؟

وعندما نهض لانى للانصراف بسط الشبل وتمطى وزمجر . فقال الرجل العظيم « لقد كبر اكثر مما ينبغى وصار كل انسان يخافه عداى » .

- ٧ -

مرت أربعة أيام وأربع ليال منذ أخذ يوهانس روين أسيرا وتساءل لانى كيف تحمل هذا الوضع . هل كانوا يذيقونه نماذج من ذلك التعذيب العلمى الذى استنبطوه ؟ أم تركوه للقسوة البربرية المتوفرة فى كتائب الأمن التى طالع عنها لانى الكثير فى المانشستر جارديان وفى الصحف الأسبوعية الوردية ؟ انه لم ير من الحكمة أن يسأل الجنرال عن ذلك ، ولم يسأل الملازم الأول الشاب فى كتائب الأمن الذى جلس الى جواره فى طريقه لزيارة السجين . وتحدث فورت فنجلر عن المشاهد الرائعة التى رآها الناس فى عيد أول مايو الاشتراكى الوطنى . ولم تكن ذكرياته عن ذلك اليوم قد بهتت فى مدى ثمانية عشر يوما ، ولا هى ، كما قال ، من الممكن أن تذهب جدتها فى مثل ذلك العدد من الأعوام . وكان يتكلم بالحماسة الساذجة التى تكلم بها هاينريش يونج من قبل ، وادرك لانى ان ذلك لم يكن مصادفة من مصادفات الاتفاق فى الامزجة دائما بل هو ثمرة اخرى من ثمرات العلم . فهذا الشاب من انتاج وسائل النازى الفنية فى التربية التى طبقت على مدى عشر سنين . وساله لانى فعرف ان اباه عامل قتل فى المعركة الاخيرة على نهر السوم ، ولعله مات برصاصة من بندقية مارسيل ديتاز . وادخل الغلام اليتيم فى جماعة شبيبة هتلر وهو فى سن الخامسة عشرة وتدرب تدريبا عسكريا فى معسكراتهم وعرف الخبرة الحربية فى معارك الشوارع مع المؤابيين والفويكولم والشونبرج وغير ذلك من أحياء العمال فى برلين ، وكان يتلهف لهفة شديدة على أن يصبح ضابطا حقيقيا مثل ضباط جيش الرايخ . وكان حرس الأمن يتطلعون الى الحلول محل الجيش ويعتبرون ذلك التحويل للسلطة جزءا من الثورة البروليتارية . ولذا كان هذا الملازم الاول يريد أن يصك كعبيه ويحيى بشدة أقوى وحدة أكثر من اى رجل فى

الجيش النظامى ، بيد انه فى الوقت نفسه لا يستطيع ان يغالب كونه شابا ساذجا من طبقة العمال يتساءل دائما بينه وبين نفسه هل يقع الموقع الصائب لدى رجل أجنبى بادى الاناقة ، ولابد انه مهم ، والا فلماذا أنفق رئيس وزارة بروسيا نصف ساعة من وقته لمقابلته فى يوم مزدحم بالاعمال كهذا الصباح ؟ .

وفى هذه المرة اقلتهما سيارة هسبانوسويزا عادية لا سيارة ذات ست عجلات أشبه بالمصفحة ولكن هذه السيارة أيضا كان لها سائق وحارس فى كسوتين رسميتين . فكانت توجد مئات من هذه السيارات من جميع الماركات بما فيها الباكار واللينكولن واقفة أمام المقر الرسمى لرئيس وزراء بروسيا والابنية العامة الاخرى القريبة منه ، فهذه هى مقتضيات المنصب وأسباب الاستيلاء على السلطة ووسائل الاحتفاظ بها . واللازم أول فورت فنجلر سيحظى بكسوة رسمية جديدة وببطاقات زيارة جديدة . فاليوم يوم مشهود فى حياته وهو فى غاية الابتهاج ، وليس بحاجة الا الى تشجيع يسير كى يفرغ ما به من الزهو لامريكى لابد انه نصير للحزب — ومن الذى يفوته ان يكون نصيرا للحزب ؟ — وبذل لانى خير جهده ليكون لطيفا معه لانه بحاجة الى اصدقاء فى البلاط .

وكان يوهانس قد أخرج من ثكنات النازى التى يسمونها ثكنات فريزن ووضعوه فى المقر الرئيسى لرئاسة الشرطة ، بيد انه لم يزل فى عهدة جماعة خاصة من فرق الامن . وهى فرق تشبه الحرس السويسرى لملوك فرنسا الاقدمين أو الانكشارية لسلاطين الاتراك ، فهم غرباء عن المكان لهم واجب خاص ومهمة خاصة فيوهانس يمثل كنزا به بضع عشرات من ملايين الماركات . ولم يكن لانى يعرف بالضبط عددها . فان خطر له أن ينتحر فسيفقد رئيس الوزراء البروسى جورنج كل فرصة فى الحصول على ذلك الجانب من الكنز المخزون فى الخارج ، ولن يستطيع الحصول على الجانب المخزون فى المانيا من غير ان يخرق ما لدى زعيمه من عقدة الاجراءات القانونية .

- ٨ -

وقفت السيارة أمام مبنى كبير بالطوب الاحمر فى ميدان الكسندر، وأدخل لانى وقعقعت الابواب الفولاذية من خلفه ، وهو صوت سبق

له سماعه فى مبنى ادارة الامن العام بباريس ووجده مثيرا للاشمئزاز جدا . واقتيد فى دهليز خال ، ارضه من الحجر وفتحت واقفلت ابواب اخرى تصل صليلا الى أن وجد نفسه فى حجرة صغيرة لها نافذة واحدة بها قضبان من الفولاذ ، وهناك مائدة وثلاثة مقاعد . وقال الملازم الأول « تفضل بالجلوس » وجلس لانى فى مقعد مواجه للباب . وتساءل « أتراهم حلقوا له راسه بالموسى والبسوه الزى المخطط هل ساجد عليه علامات التعذيب ؟ » .

ولم تكن عليه علامات تعذيب الا اذا أردت ان تحصى العلامات النفسيه . وكان مرتديا البدلة البنية التى ارتداها للتوجه الى يخته ولكنه كان بحاجة الى حمام وحلاقة لحيته ، وقد دخل الحجرة وكانه فى طريقة الى فرقة الاعدام . فلما رأى اخا زوجة ابنه غير الشقيق جالسا بهدوء فى مقعد اجفل بصورة ظاهرة ثم استجمع اعصابه وضغط على شفتيه بشده كأنه لا يريد للانى ان يراهما مرتجفتين وقصارى القول انه كان نموذجا لليهودى المذعور المتخاذل ، فهيئته تشبه هيئة حيوان اسيئت معاملته — لا حيوان مقاتل بل حيوان داجن اليف . وقال الملازم الاول « اجلس ياهر روين » فقد كان مستعدا ان يكون مهذبا حتى مع هذا الوضيع اكراما للهربد . وجلس يوهانس فى المقعد الثالث، ثم قال الضابط للانى « ارجو ان تتكلم الالمانية » .

وكان اثنان من كتائب الامن قد تبعا السجين الى داخل الحجرة فاغلق الباب وراءهما ووقفا امامه . ولم يسمع لانى وهو فى موضعه الا أن يراهما حتى وهو مستغرق فى الحديث . لقد بدا له هذان الغلامان فى الأحذية الطويلة السوداء اللامعة والكسوة السوداء والفضية التى تعلوها علامة الجمجمة والعظمتين المتقاطعتين فى وقفتهما كأنهما تمثالان تذكاريان للعسكرية البروسية ، فقامتهما متخشبة وصدرهما بارز للامام ، وبطناهما متراجعان الى الخلف . وكان لانى قد تعلم هذه التعبيرات من صديقه الجاويش السابق جيرى بنلدلتون . وكانت ايديهما غير مدلاة الى جنبيهما بل مضغوطة بأكف مفتوحة واصابع متلاصقة الى فخذيهما بصورة ثابتة كأنما هى مثبتة بالغراء ولا تبدو على الوجه أى اثار معبرة ، ولا تبدو فى العين أهون حركة . فكأنما كل منهما قد تخير نقطة معينة فى الجدار وراح يحدق فيها باستمرار لمدة ربع ساعة. فهل تراهما يفعلان ذلك لانهما فى حضرة ضابط أم للتأثير فى نفس ذلك الأجنبى ، أم لأنهما تدربا على ذلك بحيث يؤديانه بدون تفكير ؟ .

وقال لانى بالالمانية كما طلب منه « لقد جئت أنا وايرما يابوهانس بمجرد سماعنا بمتاعبك . وجميع أفراد اسرتك بخير وسلام » . فغمغم السجين « الحمد لله ! » وكان قابضا على الكرسى الذى جلس فوقه . وحين تكلم ضغط شفتيه مرة اخرى . ولأول مرة فى حياته بدا يوهانس روبن رجلا مسنا . لقد كان فى الستين ولكن لم يظهر عليه قط انه بلغ تلك السن . وقال لانى « ان الموقف خطير يابوهانس ولكن من الممكن تسويته بالمال . ويسمح لك ولاسرتك بالذهاب الى فرنسا معنا » فقال اليهودى بسرعة « لست ابالى بالمال » وثبت عينيه على وجه لانى ولم يحولهما عنه بعد ذلك وكانه يسأله « ايجب ان اصدق ما تقول ؟ » وظل لانى يهز رأسه وكانه يقول « نعم هذه هى الحقيقة وليس حلما » . واستطرد لانى بصوت مسموع « ان التهمة الموجهة اليك انك حاولت اخراج الاموال من البلاد على ظهر يختك » فهتف السجين وقد مال بجسمه الى الامام فى مقعده « ولكنى يالانى كنت حاصلا على تصريح بكل مارك اخذته معى ! » فسأله لانى « واين وضعت التصريح ؟ » فاجابه « كان فى جيبى عندما قبض على » فسأله « أواثق انت بذلك ؟ » فاجابه « كل الثقة . فانى اعتبر مجنونا لو إنى حاولت حمل أموال الى خارج المانيا بدون ذلك التصريح »

ولم يدهش لانى كثيرا جدا لسماع هذا الكلام وقال « لابد ان نفترض ان شخصا خبيثا قد اعدم هذه الورقة يابوهانس » فقال « نعم . ولكن لابد ان لها اصل مسجل فى مكتب مراقبة النقد » فقال لانى « لقد قيل لى من أحسن المصادر الممكنة انه لا وجود لهذا الأصل فى مراقبة النقد . واخشى اننا يجب ان نفترض أن خطأ ما قد وقع وانك لم تكن تحمل تصريحا صحيحا » .

واتجهت عينا يوهانس جزءا من الثانية صوب ضابط كتائب الامن ، ثم قال بذلة اى مراب فى سجون القرون الوسطى « نعم يا لانى . بالطبع . لابد ان الامر كذلك » . فقال لانى « وهذا جرم خطير جدا . واخشى ان تكون عقوبته اشد مما تستطيع صحتك ان تتحمله . فالمقابل الوحيد لذلك ان تتخلى عن مالك . عن كل مالك » .

وكان لانى مستعدا لمشهد من مشاهد الجزء الشيلوكيه : « العدالة ! القانون ! اموالى وابنتى ! » ولكن يوهانس غاص فى مقعده واسترد لهجته الخاملة قائلا « لقد كنت اتوقع هذا يالانى وهو كذلك » وكان منظر الرجل ومسلكه ينمان على أكثر ما نمت عليه كلماته فلانى يعرف

جيدا كيف كان يحب أمواله كم ذا احبها وكم من المشروعات رسمها لها ولكن ها هو يقبلها قبلة الوداع وكأنه فتى محظوظ لا يبالى كل همه فى الرقص وعزف البيانو والاستماع الى الورديين وهم يناقشون نزع ملكية من نزعوا الملكيات من قبل ! فما الذى حدث له حتى تغير كل هذا التغير ؟ هل كانوا يعالجونه بهراوات المطاط التى لا تترك اثرا مذكورا ؟ هل رقد مستيقظا طول الليل يصغى لصرخات الرجال الذين حقنوا بزيت الكافور فى مسالكهم البولية ؟ لابد ان شيئا من هذا القبيل قد حدث .

- ٩ -

وكان على الزائر الابدع مجالا للشك فى ذهن صديقه . كان عليه ان يبدى ما ابداه رئيس وزراء بروسيا جورنج نفسه من الجمود فقال « انه يعنى الحصول على كل شىء تملكه يابوهانس سواء هنا او فى الخارج » . فاجابه « فاهم » فقال لانى « لقد كان لهم عميل فى مكتبك ولديهم جميع السجلات » فاجاب « كنت قد شعرت بشىء من هذا » فقال لانى « لقد سرت فى الموضوع بحذر وعناية واخشى انك لابد ان تستسلم » فاجاب « ان كانوا حقا سيتركوننى اذهب انا واسرتى فلهم ان يحصلوا على كل شىء » فقال لانى « لقد حصلت على كلمة الشرف من رئيس الوزراء جورنج واعتقد انه يعنى ما يقول . وقد اوضح لى باجلى بيان انه لا ارب له فيك او فى ذويك وسيسره ان يتخلص منكم » فاجاب « أنا واثق ان رئيس الوزراء جورنج رجل شريف واقبل وعده » فقال لانى « انه يريد أموالك لاستخدامها فى اقامة صرح الاشتراكية الوطنية وهذا من وجهة نظره طبعا غرض عظيم » فاجاب « أن المال لن تكون له فائدة لى وانا فى هذا المكان » فقال لانى « بالضبط يابوهانس . نستطيع السفر الى الخارج وتشرع انت وروبى فى العمل مغامرة اخرى . وسوف تساندك ايرما » فاجاب « شكرا لك يالانى . ساستطيع المضى فى حياتى بنجاح وانا بذلك واثق » فقال لانى « كان لابد ان اوافق ، وانت ايضا يجب ان توافق على الا تقال أى كلمة عن هذه القضية لأى انسان . فنحن سنخرج من البلاد وننسى كل شىء » فقال « الله يعلم انى لا اريد ان اتكلم عن هذه القضية يالانى . فما جدوى ذلك لى ؟ » فقال لانى « وهو كذلك اذن سيحضرون اليك أوراقا لتوقعها » فأجاب

« ساوتمها » فقال لانى « بعض الاوراق يجب ان ترسل الى نيويورك كما تعلم فلابد ان تستغرق أسبوعا أو اسبوعين . وأنا وايرما سننتظر هنا لنأخذك ونأخذ الآخرين الى الخارج معنا » فأجاب « لن أفيك حقك من عرفان الجميل يالانى » فقال لانى « لا تهدر طاقتك فى ذلك . فكل ما نريده ان تكون الاسرة معنا فى الريفيرا . ونستطيع ان نحظى بوقت طيب بدون كل هذا المال الكثير . هل يعاملونك معاملة طيبة فى حدود المعقول ؟ » فأجاب : لست اشكو من شىء » فقال لانى « أثمة شىء تستطيع ان ارسله اليك على فرض حصولى على تصريح بذلك ؟ فاجاب « لدى كل ما احتاج اليه . كل شىء فيما عدا قليل من الحبر الاحمر .. ربما » . قال يوهانس العبارة الاخيرة من غير ان يهتز له هدب ، وأجابه لانى من غير أن تتغير لهجته ؟ واو سيماه ؟ « سأرى ان كان من الممكن ان تحصل على شىء منه » .

وقال لانى فى نفسه « حبرا احمر ! يا للوغد البارع ! ان ذهنه يعمل بسرعة البرق الخاطف » لقد استطاع يوهانس وهو جالس بحضور ضابط فى فرق الأمن وحارسين من الجنود وعليه كل هذا العبء من الرعب والحزن وهو مطالب باتخاذ اخطر قرار فى حياته ، ان يفكر فى طريقة يخبر بها لانى بما يريده ان يعرفه ودون أن يتسنى لأعدائه ان يحدسوا ماذا عناه بقوله .

لقد ظل لانى خمسة عشر عاما مع صديقه المسن يرقبان تجربة الاتحاد السوفيتى ويتناقشان فى صددها . وكان يوهانس معارضا على طول الخط ويدخل السرور على نفسه بجمع الحكايات الساخرة واعادتها على مسامع لانى الذى يصدق كل شىء ، وعن طريق لانى تتسرب الى ولدى يوهانس الشاردين المضللين . واحدى هذه الحكايات عن رجل أعمال المانى كان بسبيل القيام برحلة الى فردوس البروليتاريا ووعد صديقا له من رجال الاعمال الالمان ان يكتب اليه بيانا كاملا عما وجده هناك . فاعترض عليه صديقه قائلا « ولكنك لن تجسر على كتابة الحقيقة ان كانت فى غير صالح السوفييت » فأجابه الآخر « سنتفق على طريقة . سأكتب اليك ان كل شىء بديع . فان كتبت ذلك بالحبر الاسود فهو صحيح ، وان كتبته بالحبر الاحمر فالعكس هو الصحيح » وسافر الرجل وفى الوقت المناسب تلقى صديقه خطابا بالحبر الاسود يسرد تفاصيل أعاجيب وروائع فردوس البروليتاريا : « كل انسان حر ، والاسواق ملآنه بالطعام ، والمتاجر مكدسة بالبضائع . والواقع

انني لم أستطع العثور على شيء واحد فقط . الا وهو الحبر الاحمر! »

وفيما كان لاني والملازم الاول عائدين بالسيارة الى الفندق ساله الاخير « وفيم يريد الحبر الاحمر ؟ » ولم يكن لاني بطيء الذهن ، ففسر له الامر على النحو التالي « انه يدون يومياته في مذكرات ويكتبها بالحبر الاحمر ليميز باستمرار بينها وبين سائر أوراقه » فأجابه الضابط « ان المرء لا يستطيع ان يدون مذكراته اليومية في السجن ، لابد ان يأخذوها منه يقينا » .

- ١٠ -

كان على الملازم الاول ان يقدم تقريره لرئيسه فاضطر لاني لانتظاره ، ووصل الى الفندق قبل الساعة الثانية بدقائق قليلة فاتصل بزوجته تليفونيا وقال لها « لقد قابلت صديقنا وهو بخير واظن ان الأمور ستسوى . خذي وقتك . والى أمه وابيه وريك أرسل برقيات نصها « قابلت صديقنا . اعتقد ان الامور سويت . » ولم ير استعمال أسماء متفق عليها على سبيل الشفرة . فان كان الجستابو مهتمين بالامر فليعرفوا ماذا يقول ولمن . واتصل تليفونيا بها ينريش وقال له « أظن الامور قد سويت ، وانا شاكر لك ما قمت به وقام به أصدقاؤك من المساعدة . وقد طلب مني ان أبقي الامر سرا ولذا لا أستطيع أن أقول أكثر من هذا » وكان في ذلك الكفاية لبيروقراطي شاب كامل الصفات .

وتضمنت صحف بعد الظهر قصة القبض على يوهانس روبن وقد أعلنتها الحكومة البروسية . وبذلك يتسنى لثمانين مليونا من الالمان — مع استبعاد الاطفال الصغار وعدد محدود من الساخطين — ان يعلموا ان مستغلا يهوديا ضبط متلبسا بمحاولة تهريب العملة الى خارج البلاد على ظهر يخته .

وعادت ايرما في منتصف بعد الظهر واخذها للنزهة بالسيارة . ولما كان يشعر انه غير مقيد بوعد لقاطع طريق فقد أخبرها القصة كلها وقال لها بعد ذلك « ان ذكرت طرفا منها ولو تلميحا لاحد هنا فقد يكلف ذلك يوهانس واسرته حياتهم » واصفت ايرما محملقة بعينيها فزعا . فما أشبه ما سمعته بما يطالعه الناس عن آل بورجيا . وقال

نها ردا على ذلك ان لا شيء فى التاريخ كله يمكن ان يقارن بما يحدث الان ، لان البرابرة لم يكن لهم من قبل السلطان على مصادر العلم الحديثة . فسألته « اتعتقد ان جورنج سيأخذ هذا المال لنفسه ؟ » فقال « الامر سيان . فجورنج هو المانيا والمانيا ستكون جورنج سواء رضيت ولم ترض . فالنازى سينفقون كل ماتملكه المانيا » . فسألته « والاموال التى فى الخارج ! ماذا سيصنع بها ؟ » فقال « لهم شبكة من العملاء فى البلاد الأخرى . لاشك أن عدد عملائهم سيزيد . ثم ان جاءت الامور على عكس ما يشتهى واضطر جورنج نركوب طائرة فى يوم من الايام فسيكون مستحبا ان تتوفر له ثروة طيبة فى الخارج بحيث يتسنى له قضاء شيخوخه مريحة فى باريس او بونس ايرس » فقالت « ياله من عذاب فظيع ليوهانس أن يتخلى عن كل هذا المال ! ان ابى كان حريا ان يموت قبل هذا » فقال « ان اباك ما كان ليتردى فى مثل هذا المازق ، فيوهانس كان مسرفا فى الثقة واعتقد انه يستطيع ادارة دفة الأمور بالوسائل الدبلوماسية ولكن هؤلاء الناس قلبوا مائدة المؤتمر . ولهم مزية أنه ما من أحد يستطيع ان يدرك مدى سوئهم . فلو ذهبت انا وانت الى باريس أو لندن غدا وقلنا هذه القصة لوصفنا النازى بالكذب ووجدوا تسعة اعشار الناس يصدقونهم » .

- ١١ -

وعادا الى الفندق متوقعين اتصالا تليفونيا من فريدى ، بيد أنه لم يتصل . وفى المساء حضر الكولونيل اميل مايسنر لتناول العشاء وكان قد قرا عن قضية روبن فى الصحف ، ولم يخطر له ان يشك فى كلام حكومته وقال ان شيئا كثيرا من المحاباة والتدليس كان سائدا فى عهد الجمهورية ، ولكن يبدو الان ان القوانين ستكون نافذه المفعول على الاغنياء والفقراء على السواء . واعرب هذا الضابط البروسى الطويل الصارم السحنة عن أسفه باسلوب مهذب لوقوع مثل هذه الكارثة لاحد اقارب لانى . واكتفى المضيف بأن قال ان لديه اسبابا للامل فى تصحيح الامور فى وقت قريب ، وانه قد طلب منه ان يعتبر المسالة سرية . فتقبل اميل هذا الكلام كما تقبله هاينريش . فجميع الالمان الصالحين مستعدون لتقبل مثل هذا الكلام .

وتحدث اميل بحرية عن النظام الجديد وكان يحتقر الجمهورية

الا انه كان يطيع أوامرها لان ذلك واجب ضابط الجيش . والآن غدا ادولف هتلر قائده الاعلى ومن الضروري ان يطيعه ، حتى ولو كان المرء فى دخيلة نفسه يبغض آداب سلوكه . بيد ان اميل كان واثقا بأن اقاصيص اساءة استعمال السلطة بولغ فيها كثيرا لاغراض خبيثة . ثم انه لابد من اعمال متطرفة في اى انقلاب فى الحكم . والمهم ان المانيا انقذت من براثن الحمر ، وان كل انسان متحضر مدين للمستشار الجديد بعرفان الجميل لهذا السبب ، ولم يتورط لانى فى مجادلات وردية ، ولكنه قال انه وزوجته قد تأثرا كثيرا بما وجداه فى البلاد .

وظلا منتظرين الى ساعة متأخرة اتصالا تليفونيا من جانب فريدى، ولكن الاتصال لم يحدث فأويا الى فراشهما وهما يفكران فى ذلك . ومما لاشك فيه انه يتجنب المجازفة ، ولعله ايضا يخشى ان يضايقهما. ولكن من دواعى الاسف الشديد الا يستطيعا الافضاء اليه بالنبأ الذى يريح باله كثيرا . وكان لانى متأهبا لان يقول له انه عثر على لوحه رائعة لبوجيرو !

وجاء الصباح ونشرت الصحف مقالات افتتاحية عن قضية المستغل اليهودى . وفى بلاد هتلر صارت كل موضوعات الاخبار مقالات افتتاحية حافلة بالتهديد والوعيد . فاخيرا شعر الخونة المتسللون بيد القانون الحازمة ، واخيرا بدأ جسم المانيا ينفض عنه الحشرات الطفيلية الحقيرة ! وكانت صحيفة الهجوم متهللة بصفة خاصة لما حدث فهاهو الدليل امام كل بلاد العالم الاشتراكية الوطنية تعنى مما تقول ، وان نفوذ الطبقة الثرية الحاكمة من اليهود لم يعد يحكم المانيا ! وترجم لانى الكلمات لا يرما ثم قال « ان السيد « الفم الواسع » لا يبدو لطيفا فى كتابته المطبوعة كحديثه الخاص . »

وتناولا الافطار من غير ان يتم اتصال من جانب فريدى . ولم يحبا ان يخرجا قبل ان يتصل بهما ، وانصرفت ايرما الى عملية تصفيف شعرها بيد المختصين ، ثم قام مختصون آخرون بالعناية بأظافر يديها ، وقرأ لانى قليلا ، وكتب بضع مذكرات وتمشى فى الجناح الخاص وانتابه القلق ، وكانا مدعوين للغداء فى قصر الجنرال جراف شتوينيدروف فى برلين ، وكان لابد لهما من الذهاب ، فقالت ايرما « فى وسع كلارينيت ان تتصل بنا مرة أخرى أو ترسل الينا مذكرة » .

واثناء القيادة الى القصر خلا لهما الجو لمناقشة شتى الاحتمالات. فمن الجائز ان يكون جـورنج قد قبض على فريدى أو ان يكون ذوو القمصان البنية اعتقلوه من غير أن يعلم جورنج شيئا عن ذلك ٠ ففريدى يهودى واشتراكى ، وأى صفة من هاتين كافية لاعتقاله .. وخطر لايرما فرض آخر « الا يجوز أن يكون جورنج عازما على ابقاء الأسر كلها تحت يده الى أن يصير متأهبا لاخراجهم من البلاد ؟ » فقال لانى « كل شيء جائز فيما عدا اننى لا استطيع ان اتخيل فريدى يتأخر كل هذه المدة من غير ان يتصل بنا تليفونيا وهو مطلق السراح . »

وافسد القلق غداءهما . والواقع ان الغداء لم يكن جيدا بصفة خاصة ، والصحبة لم تكن طيبة جدا ، اللهم الا ان كان يكفيك ان تعلم انك ضيف أحد اليونكر البارزين جدا ٠ وكان مسلك الجنرال جراف هو بعينه مسلك اميل ، فهو ترس فى آلة جيش الرايخ ويطيع الاوامر . واهتمامه الخاص موجه الى استخلاص منطقة موطنه من براثن البولنديين . وكان يعلم ان لانى يعطف على هذا الهدف ومع ذلك تحدث عنه بحذر ، لأن المستشار جنح فى خطبته الاخيرة الى المسالمة فمن واجب جميع الالمان الصالحين ان يتركوا موضوع خطوط الحدود بدون اثارة ويركزوا حديثهم على حق المانيا فى المساواة فى التسليح ٠ وبعد ان اعرب الجنرال جراف شتوبندروف عن اسفه لما حل بقريب لانى اليهودى تحدث عن اصدقائه الآخرين وعن حالة محصولاته وعن أسواقها وماذا يرى والد لانى عن أسواقهـا وماذا يرى والد لانى عن احتمالات نهوض العالم من كبوته الاقتصادية ؟ وكان لانى يرد عليه بجانب من ذهنه ، اما الجانب الآخر فكان يتساءل « اترى يتصل بنا فريدى الآن ؟ »

ولكن فريدى لم يتصل ..

الفصل التاسع عشر

لا سلام

- ١ -

عندما زار السيد والسيدة ايرما بارنز برلين قبل ذلك بعام كانا قرة عين الطبقة الراقية · وسر جميع الأشخاص المهمين ان يستضيفوهما · اما الآن فقد تغير المناخ الاجتماعى كله ، وبدأت تتجمع عاصفة هادرة ولا احد يدرى متى تنقض الصاعقة · وكانت قصة يوهانس روبن معروفة للمدينة كلها ، ومن الذى يستطيع ان يحدس اية اعترافات عساه أدلى بها او ماذا وجد فى أوراقه ؟ وثمة أشخاص كثيرون لهم معاملات مع المرابين يعنيهم الا تظهر للملأ · وكثيرون أيضا لهم شئون من شـــتى الأنواع يفضلون الا يطلع عليها بوليس الدولة السرى · ويتحاشون بحرص كل انسان يمكن أن يكون موضع مراقبة من تلك الهيئة المرهوبة ·

وفضلا عن هذا كانت ايرما ولانى قلقين ، وعندما يكون المرء قلقا لا تكون صحبته مستطابة · ومر يوم آخر وثالث فتأكد لديهما ان شيئا فظيعا لا بد قد وقع لفريدى · وبطبيعة الحال من الجائز أن تكون دهمته سيارة نقل أو اعتدى عليه أحد نزلاء ملجأ من لا مأوى لهم من الفقراء او ظن أنه يحمل مبلغا من المال كبيرا فسرقه · ولكن الأقرب من هذا الى الاحتمال بكثير انه وقع فى براثن القمصـــان البنية الرهيبة · وكانت المعضلة فى نظرهمـــا هل يعلم جورنج ذلك · فان كان يعلمه أهو نكث للعهد من جانبه أم هو مجرد احتياط ضد نكث العهد من جانبهم ؟ وهل يكتفى جورنج بالاحتفاظ برهينته الى أن تتم الصفقة أم لا بد أن يبقى فريدى فى قبضته وقتا طويلا ؟

وكلما فكر لانى فى ذلك اكتشف مزيدا من التعقيدات · فهـــل من الجائز ان تكون ثمة حرب دائرة بين الزعيمين النازيين القويين ؟ هل ثار عضب جوبلز لأن جورنج استولى على السجين ؟ وهل وضع يده على

فريدى كى يحبط مسعى جورنج ويمنعه من انجاز صفقته ، وان صح هذا فما المفروض أن يصنعه لانى ؟ وما الدور الذى يستطيع أن يقوم به بشر عادى فى معركة الجبابرة · اللهم الا أن يهشم رأسه بصخرة طائرة او شجرة مجتثة · ان لانى لا يستطيع أن يذهب الى جوبلز ويساله لان هذا معناه نكث وعده لجورنج · لا · ان كان ذاهبا الى أحد فلا بد أن يكون ذهابه الى جورنج ولكن هل يجوز له ذلك ؟ أمن عناصر الصفقة ان رئيس وزراء بروسيا الذى يشغل ستة مناصب او ثمانية هامة يجب ان يترك جانبا من واجباته ومهامه كى يقتفى أثر الكوارث التى تحل بأسرة يهودى مستغل ؟ ان كل ما التزم به جورنج ان يتركهم لشأنهم · وما أسهل ان يقول له « يا سيد بد أنا لا أعرف شيئا عن هذا الموضوع ولا رغبة لى فى ذلك » فهل من حق لانى أن يجيبه أنا لا أصدقك يا صاحب السعادة » ؟

كان واضحا ان كل ما يستطيعه لانى هو تركيز اهتمام الجستابو على أسرة روبن · لأن الجستابو اذا شرع يبحث عن فريدى فلا بد ان يسأل عنه لدى أصدقائه · وقد يطلبون من لانى قائمة بهؤلاء الأصدقاء · فماذا عسى لانى أن يجيبهم ؟ أيقول لهم « أنا لا أثق بكم أيها السادة رجال بوليس الدولة السرى ؟ » ومن جهة أخرى ان أعطاهم الأسماء فقد يقضى على كل هؤلاء الأصدقاء بالزج فى معسكر الاعتقال · وزوجة يوهانس مختفية لدى احدى خادماتها السابقات · وسيحصل الجستابو على قائمة للخدم فيخرجهم من جحورهم ومعظمهم من اليهود · ولا بد أن لديهم أسرارا خاصة بيوهانس وشركائه · ومن الذى يستطيع أن يحدس ماذا يمكن أن يميطوا اللثام عنه · أو ما الذى يمكن أن يختلقه أى واحد منهم تحت تأثير الأساليب العلمية الجديدة للتعذيب ·

- ٢ -

حضر لانى وزوجته مراسم الاحتفال الشديدة الفخامة لتنصيب رئيس وزراء بروسيا وقد استقبلهما الملازم الاول فورت فنجلر وقدمهما الى مدير الوزارة الدكتور س والجنرال ريترفون ص· وأحاط بهما النازى فى كسوات فخمة تغطيها الاوسمة والنياشين · وكانوا جميعا يتصرفون بوقار بل وفى شيء كثير من الرشاقة والسحر · وكان من الصعب جدا أن يصدق المرء انهم أخطر من فى العالم من اللئام · وكانت ايرما عاجزة فى دخيلة نفسها عن تصديق ذلك · وفى طريق عودتهما بالسيارة بعد ذلك

نشب بينهما جدال على النحو المألوف لدى الازواج . فايرما بنت الحضارة واذا شكت فى وقوع جريمة اتجهت الى الشرطة أما الآن فيبدو أن رجال الشرطة هم المجرمون . وكانت ايرما قد سمعت أصدقاء لانى الحمر والورديون يندددون بالشرطة فى جميع البلاد فكان ذلك يضايقها أشد مما يبدو من كلامها . وكانت لم تزل ثمة آثار لهذا الضيق فى نفسها فاضطر لانى ان يصيح بها « يا الهى . أليس جورنج قد اخبرنى بفمه انه حرى ان يبحث عن مائة من اقارب يوهانس وأصدقائه ويعذبهم ؟ » فأجابته زوجته بذلك الاسلوب اللطيف الذى يمكن ان يكون مثيرا جدا للاعصاب « نعم يا حبيبى . ولكن اليس من الجائز انه كان يحاول اثارة رعبك ؟ » فانفجر قائلا « يايسوع من بضع سنين وانا أحاول أن اقول للناس من هم النازى . ولكن يبدو اننى لم أفلح و لاحتى فى اقناع زوجتى » . ورأى انه جرحها فأبدى لها أسفه على الفور . وكان قد مر بذلك كله مع امه قبل عقد من السنين . فبيوتى لم تستطع أن تصدق ان موسولينى من السوء بحيث يصوره ابنها . وكانت لا تستطيع أن تظن بأى لاجىء ايطالى سوى انه مُقترف جريمة من نوع ما . وأصدقاء بيوتى القادمين من ايطاليا يذكرون لها ان كل شىء هناك قد تقدم . فالشوارع نظيفة . والقطارات تسير فى مواعيدها المحددة . واخيرا ذهبت لترى بنفسها فهل رات أحدا يضرب أو علامة من علامات الارهاب ؟ بالطبع لا .

والآن ها هو الشىء بعينه يحدث بالنسبة لالمانيا . فاينما قدت سيارتك لا ترى الا النظام التام . والناس نظيفون تبدو عليهم جودة التغذية ومهذبون وودودون . وجملة القول أن المانيا بلد ساحر يسر المرء أن يزوره . وكيف يستطيع اى انسان أن يثق بهذه الأقاصيص عن الارهاب والرعب ؟ ولذا كانت ايرما فى صراع مستمر بين ما تريد ان تصدقه وبين ما يفرض على ذهنها المتقاعس . ولما بحثت عن شىء تصنعه للمسكين فريدى خطرت لها فكرة براقة « اليس فى امكانى ان اذهب واكلم جورنج ؟ » فسألها « لتخاطبى طبيعته الخيرة . اهذا ما ترومين ؟ » فاجابته « خطر لى أنى أستطيع أن احدثه بأمور كثيرة عن آل روبين » فقال لها « انك ان ذهبت الى جورنج فلن يريد منك الا شيئا واحدا. ولن يكون هذا الشىء قصصا عن اليهود » .

وماذا كان باستطاعة ايرما أن تقول فى هذا؟ فهى تعلم انها رفضت ان تصدقه ستضايق زوجها. ولكنها ألحت « وهل ثمة ضرر من المحاولة؟» فرد عليها عدو النازى قائلا « قد يكون لذلك ضرر بالغ. فانك ان رفضت

الاذعان له ثار غضبه وصب انتقامه من هذه الاساءة على آل روبن » فسالته « اتعرف حقا انه من هذا الطراز من الرجال يا لانى ؟ » فاجابها « لقد تعبت من اخبارك عن هؤلاء الناس. انتحى جانبا بالاميرة دونريشتاين فى ركن وسليها أن تخبرك بقذارتهم » .

- ٣ -

لقد دمرت كل لذة فى امكانهما الحصول عليها من زيارة برلين . فكانا يجلسان فى حجرتهما متوقعين اتصالا تليفونيا . وينتظران كل دورة من دورات البريد . ولم يستطيعا التفكير فى شىء يعملانه لئلا يزيد الامور سوءا . ومع هذا كان عدم قيامهما بعمل ما فظيع الوقع عليهما . فكانا يقولان لنفسيهما « حتى لو كان فى معسكر اعتقال لوجد وسيلة لتهريب رسالة . يقينا ان جميع الحراس ليسوا مخلصين ولابد ان يكون فيهم أحد من الممكن رشوته » .

وازعج لانى نفسه بهذا السؤال . اتراه يرتكب خطأ فى حق يوهانس ويخون ثقته بعدم اطلاعه على هذا الموقف الجديد ؟ لقد أكد ليوهانس أن الاسرة كلها بخير . فهل من واجبه الآن ان يقابل السجين مرة أخرى ويقول له ان فريدى قد اختفى ؟ ان ذلك معناه ايضا اخبار الجستابو . وبذلك تبدأ المعضلة الكبرى من جديد . وحتى لو اخبر يوهانس فماذا بوسع يوهانس أن يصنع ؟ أتراه مستطيعا ان يقول « كلا يا صاحب السعادة أنا لن أوقع الاوراق الا بعد أن أعرف أين ابنى الاصغر هيا عذبونى ان شئتم » ولنفرض أن جورنج أجابه « ليست لدى فكرة عن مكان ابنك . وقد حاولت العثور عليه واخفقت . وقع والا عذبت » .

ووجه العذاب فى المسألة أن لانى كلما حاول ان يتوجه بالسؤال الى جهة ما الفى نفسه سيورط شخصا ما فى متاعب آل روبين . فالاصدقاء والاقارب اما أن يكونوا جميعا فى قائمة الجستابو أو أنه سيتسبب فى ادراج اسمائهم فى تلك القائمة . اهناك من يتبعه ؟ انه لم ير دليلا على ذلك حتى الآن . ولكن هذا لا يقطع بانه غير متبوع . أو أن التعقب يبدأ متى غادر الفندق . ومن يتوجه لمقابلتهم ايا كانوا سيعرفون ما فى الاتصال به من خطر وستكون أول خاطرة لهم « بحق السماء اذهب عنا الى مكان آخر » .

انه يعرف مثلا اسم والدى زوجة فريدى . وهذا الاسم موجود فى دليل التليفون . ولكن فريدى كان قد قال له « لا تتصــل بهما مطلقا . فذلك سيعرضهما للاخطار ؟ وماذا يحدث اذا استرق أحد الســمع على الحــديث التليفونى ورفع عنــه تقريرا ؟ أو اذا قام امريكى ثرى بزيارة عمارة سكنية من الدرجة الثالثة يحتقر سكانها اليهود. والنازى يتفاخرون بان لهم اتباعا فى كل عمارة سكنية يترصدون حركات السكان ويبلغون عن كل حادث مريب أو خارق للمألوف ؟ انه الارهاب البنى .

وكان لانى حرا فى تجاهل رجاء فريدى ولو فى سبيل انقاذ حياة فريدى ؟ وهل يرضى فريدى عن انقاذ حياته عن طريق المخاطرة بزوجته وطفله ؟ وهل يحب أن تعرف زوجته نبأ اختفائه ؟ وماذا بوسعها أن تصنع لو عرفت سوى أن تضطرب حتى تمرض . وربما رفضت أن تسمح للانى وايرما باصطحابها الى خارج البلاد ؟ كلا . ان فريدى يريد لها يقينا ان تذهب . ولن يشكر للانى مخالفة رغباته . ومن الجائز انه لم يخبر زوجته بعنوان لانى وايرما . ولكن لا بد انها عرفت العنوان من الصحف أو من والديها . ويقينا لو انها عرفت اين فريدى وكان بحاجة الى معونة لجازفت بكل شيء كى تبعث بكلمة الى لانى . فهل هى أيضا فى حالة فزع شديد بحيث تتردد فى الاتصال بلانى لان فريدى حرم عليها ذلك ؟ .

- ٤ -

وفكر لانى فى آل شولترز وهما زوجان من الفنانين. ولما كان قد نشر جانبا من اعمال ترودى فى باريس فلديه سبب مشروع لزيارتها . ويعيش الزوجان فى احدى المناطق الصناعية لرغبتهمــــا فى البقاء على اتصال بالعمال . وهذا بطبيعة الحال جعلهمامعروفين هناك . وتردد برهة ولكنه قاد السيارة أخيرا الى الموضع . وهو عمارة سكنية كبيرة المساحة ذات ست طوابق أشد أناقة من المبانى المماثلة فى أى بلد آخر . ففى جميع النوافذ تقريبا أصص للازهار . لان الشعب الالمانى لا يتقبل بسهولة ما فى الحيــاة المدنية من انحصــار ويريد كل منهم ان يحظى بقطعة من الريف .

ومنذ شهور قلائل نشبت حرب أهلية فى هذه الشوارع . وذلك حين دخلها ذوو القمصان البنية بمواكبهم فالقى عليهم العمال الزجاجات

والطوب من أسطح المنازل · وتمت الاغارة على الاجتماعات وانتزع عمال الحزب من داخل بيوتهم وضربوا ضربا موجعا · اما الآن فقد انتهى هذا كله وتم الوعد الوارد فى انشودة وكر النسر بأن تصبح الشوارع خالية للكتائب البنية · وتغير المظهر الكلى للمنطقة فالناس لم يعودوا يعيشون في الشوارع حتى فى هذا الجو الصحو فى فصل الربيع ، والاطفال يلزمون حجراتهم · والنساء حاملات سلال السوق لا يذهبن الى أبعد مما تحتمه الضرورة · ويرقبن الطريق وهن سائرات بنظرات حذرة ·

واوقف لانى سيارته فى منعطف ثم سار الى البيت · وفتش عن اسم شولتزر فلم يعثر عليه · فبدا يطرق الأبواب ويستفسر فلم يعثر على شخص واحد يعترف بأنه سمع في حياته باسم لورى وتودى شولتزر · وكان واثقا من مسلك الناس ان هذا غير صحيح وانهم خائفون منه · لأنه مصدر خطر سواء كان اشتراكيا او جاسوسا · فلم يستطع ان يحصل منهم الا على كلمة « لا نعرف » ومما لا شك فيه انه كان فى هذا المبنى « رفاق » ولكنهم « اختفوا تحت الارض » ولابد ان تعرف اين تحفر الارض كى تعثر عليهم · وهذه ليست مهمة احد من (الورديين الهواة) ولا أحد يريدهم ان يتدخلوا فى هذا الشأن ·

- ٥ -

عاد لانى الى الفندق وواصل الانتظار · فان عاجلا أو اجلا لابد ان تصل اليه رسالة مكتوبة أو تليفونية وينتهى هذا التخمين المؤلم والتخيل الوجيع · ونزل الى الطابق الاسفل بالفندق ليقص شعره ولما عاد وجد زوجته في حالة توفز شديدة · وهمست قائلة « الأم تكلمت وهى ستشترى قفازات من متجر فيرتايم ولابد ان أقابلها هناك فى مدى نصف ساعة » وكانت ايرما قد امرت باعداد السيارة بالفعل فنزلا ، واثناء القيادة وضعا خطة تكتيكاتهما بحيث تدخل ايرما وحدها لان اللقاء بين سيدتين اقل استرعاء للانتباه · واقترح عليها لانى « من الافضل الا تتحدثى اليها · دعيها تراك وتتبعك الى الخارج · وسأدور بالسيارة حول البناء لالتقطكما » ·

ولم تكن زوجة يوهانس روبن بحاجة الى تحذير من الخطر · لأنها ارتدت الى عهد روسيا القديمة حينما كان الخوف يستشرى فى عظامها ·

وعندما مرت ايرما فى ممشى المتجر الكبير كانت الام تستفسر عن الاسعار وهى مشغلة طبيعية لسيدة يهودية مسـنة • وتبعت ايرما عن بعد • وعندما خرجت ايرما الى الشارع واقبل لانى بالسيارة ركبتا معا • وكان اول ما قالته همسا مع أول نفس لها فى داخل السيارة « اين فريدى ؟ » فقال لانى « لم نسمع اخبارا عنه » فصاحت « يا اله النـاموس ... واسرع لانى يقول « لقد رتبنا الامور بالنسـبة ليوهانس • انه بخير وسيسمح له بمغادرة المانيا معك ومع الآخرين » وقد سرى هذا عنها ولكن مدى دقيقة واحدة • فهى كالرجل الذى لديه مائة نعجة ثم شردت واحدة منها • فهو يترك التسع والتسعين نعجة ويمضى فى الجبال بحثا عن النعجة الواحدة الضائعة •

ولم تكن الام سمعت شيئا عن ابنها منذ اتصل تليفونيا بلانى ثم كتب اليها رسالة قصيرة مطمئنة • وظلت بعدها تصنع ما صنعه لانى بالضبط • فانتظرت والخوف يملؤها وراحت تتصور الكوارث جميعا • وكان فريدى قد حرم عليها الاتصال بآل بد تليفونيا او الاقتراب منهم • وقد اطاعته ما استطاعت الصبر على الطاعة • لقد كان ذهنها وكأنه فى كابوس لما يغشاه من قصص الرعب التى تنتشر بين الجحور التى يختفى فيها امثالها • بمعزل عن سائر المانيا • هى قصص جثث يعثر عليها كل يوم فى الغابات أو تنتشل من البحيرات والقنوات فى برلين • وقصص حوادث انتحار أو قتل لا يمكن لاحد ان يعرف حقيقة ما حدث لهـم ولا تذكر اسماؤهم فى الصحف • وقصص عن ذلك المصنع المهجور فى شارع فريدريش وقد استولى عليه النازى وصـاروا يجلبون اليه ضـحاياهم لضربهم وتعذيبهم • وكيف ان الجدران لهـذا البناء مبللة بالدم البشرى بحيث تستطيع ان تسير الى جوارها وتسمع الصراخ • ولكن من الخير لك ان تمضى فى سبيلك بسرعة • واقاصيص عن معسكرات الاعتقال حيث يرغم الشيوعيين والاشتراكيين واليهود على حفر قبورهم بأيديهم استعدادا لعمليات الاعدام المزعومة • وتنزل بهم كل صـنوف الاذلال التى يتفنن المتوحشون والمنحلون فى ابتكارها فيجبرونهم على التمرغ فى الطين وغمس وجوههم وابقائهـا مغمورة فى برازهم • وان يجلدوا ويضربوا بعضهم بعضا الى أن يفقدوا الوعى • وبذلك يوفرون الجهد على حراسهم •

ولم تستطع الام ان تتماسك الا لسبب واحد هو احترامها لصديقيها العطوفين • فتقول « أنا لاحق لى فى التصرف على هذا النحو • فما أكرمكما اذ حضرتما لمحاولة مساعدتنا نحن المنكوبين المساكين • وبطبيعة الحال

فريدى يريد لنا جميعا ان نغادر البلاد وان نعيش على افضل وجه بدونه • فهل تعتقدان حقا ان النازى سوف يطلقون سراح الوالد ؟ » ولم يخبرها لانى بالقصة بل قال فقط « ان ذلك سيتكلف مالا طائلا » فقد خطر له ان هذا القول سيجعلها تتصور الموقف بصورة واقعية • فهى لا يمكن ان تتوقع الرحمة من هؤلاء المعذبين ولكنهـا تستطيع ان تفهم رغبتهم فى الحصول على المال • وقالت « أوه لانى • لقد كانت غلطة اننا تملكنا كل هذا القدر من المال • ولم يخطر ببالى قط انه يمكن ان يدوم لنا • فليذهب هذا المال كله ان استطعنـا ان نغادر البلد الرهيب » فأجاب « أريد ان ان أخرجكم وبعد ذلك ارى ماذا استطيع ان اصنع لفريدى • فانى لم اجسر على محاولة شىء فى هذه الاثناء لان ذلك قد يسبب مزيدا من المتاعب للوالد فان استطعت ان أخرج اربعة منكم بامان فانا واثق ان فريدى سيرضى عن هذا » فقالت الام « بالطبع • فهو يفكر فى كل انسـان فى الدنيا عدا نفسه وانت تعلم يا لانى انى مستعدة ان اجود بحيـاتى بعد دقيقة واحدة لو تسبب هذا فى انقاذه • فلابد لنا ان ننقذه • » فقال لانى أعلم هذا ولكننا يجب ان نفكر فى الآخرين • فلابد للوالد ان يبدأ حياته من جديد وسيحتاج الى مشورتك كما كانت الحال فى سالف الايام• ثم لا تنسى ان لديكم ابن فريدى » فقالت « لا استطيع ان اصدق ان أمورا طيبة ستحدث لنا بعد الآن • لا استطيع ان اصدق ان احدا منا سيخرج من المانيا حيا • لا استطيع ان اصدق ان الرب لم يزل حيا » •

- ٦ -

اتصل الملازم اول فورت فينجلر تليفونيا وقال ان السجين وقع الاوراق الضرورية وان الترتيبات فى طريقهـا الى الانجاز • وسأل لانى ماذا ينوى ان يصنـع به فقال انه سيأخذ الأسرة كلها الى بلجيكا بمجرد ان يسمح له بذلك • وتولى الضابط الشاب العملى تدوين اسماء أعضاء الأسرة وقال انه سينجز تصريحات خروجهم والتأشيرات اللازمة فى الوقت المحدد • وكان سيبدو طبيعيا ان يقـول لانى « ان فريدى روبن مفقود فأرجو ان تبحثوا عنه وتجعلونى اتصل به » ولكنه بعد ان فكر وتداول فى الامر بضعة أيام وليال قرر ان كان لم يزل حيا فسـوف يكون فى استطاعته غالبا ان يظل على قيد الحياة أسبوعا او أسبوعين الى ان يتم اخراج بقية الأسرة من البلاد • ولم تكن تحت يد لانى وسـيلة لارغام

جورنج على تنفيذ تعهداته ان كان لا يريد ذلك ٠ ولما كان نصف الرغيف خيرا من لا شيء فاربعة اخماس أسرة خير من لا أحد منهم ٠ الا اذا أخذت بوجهة نظر النازى الى الأسر اليهودية ٠

ومع ذلك فقد يكون من الحكمة ان يستعد للمستقبل ٠ ولذلك دعا لانى الملازم الاول للغداء وقد سر الضابط بالحضور وباحضار زوجته معه وهى فتاة طويلة قوية البنية من الريف ٠ وكان واضحا انهـا شديدة الابتهاج لوجودها ضـيفة على زوجين راقيين يتحدثان بطلاقة عن باريس ولندن ونيويورك ويعرفان جميع الاشـخاص المهمين ٠ وقد يكون النازى شديد التعصب لوطنهم ولكن عواصم العـالم الكبرى لم تزل هيبتهـا عندهم ٠ واراد لانى ان يغطى ماضيه السيء فاشار الى ورديته السـابقة وقال ان المرء يكبر فيتجاوز هذه المرحلة مع تقدمه فى السن ٠ وما يعنيه الآن حقيقة هو معرفة كيف يمكن حل مشكلة البطالة وكيف يمكن توزيع منتجات الصناعة الآلية الحديثة ٠ وفى نيته ان يعود الى المانيا ليرى كيف يبر الفوهور بوعوده ٠ ولم يكن ذلك النازى الشاب بحاجة الى أكثر من هذا فاذا بالملازم الأول يتحمس فى حديثه الى مضيفه ومضيفته ٠ وقد قالت ايرما بعد ذلك « انهم يؤمنون حقا بمذهبهم هذا بكل قلوبهم ٠ » ٠ ورأى لانى انها تجد من الاسهل عليها أن تثق بما يقال عن الجوانب الحسنة فى نظام هتلر أكثر من ثقتها بما يقال عن الجوانب السيئة ٠ وهى تقبل بلا تشكك الفكرة السارية بين أصدقائها من أبناء الطبقات الموسرة عن ان موسولينى انقذ ايطاليا من البلشفة ٠ وان هتلر يقوم بهذه المهمة نفسها بالنسبة لالمانيـا ٠ وهى تريد أن تعرف « اى جـدوى من قلب كل شيء ومناصرة طغمة من الناس فى مثل فساد النازى أو شر منهم ؟ » ٠

ولم يذكر لانى للضـابط سوى كلمة واحدة على سـبيل التلميح انى مبتعد عن آل روبن وأصدقائهم جميعا لانى لا أريد أن اورط نفسى بأى شكل من الاشـكال فى الأمور السياسية ٠ وارجو الا يقع شيء غير مستحب لال روبن ونحن فى الانتظار ٠ وان وقع شيء من هذا القبيل فأنا معتمد على صاحب السعادة فى تصحيحه ٠ « فأجاب الضـابط » نعم ٠ بالتأكيد ٠ ان صاحب السعادة لن يسمح بأن يمسهم اذى ٠ والواقع انى اؤكد لك انه ما من ضرر يحدث فى المانيا لأى يهودى الا اذا بدأوا هم انفسهم باحداث الشغب والمتاعب » ٠

وكان النصف الاخير من هذا القول مقصودا به الغاء النصف الاول

وهذا شأن الدعاية النازية . وهو ايضـــا ما يجعلها عسيرة على النقد . فعليك ان تتناول كل كلمة جملة على حدة وان تتعرف على الاجزاء التى يعنون بها ما يقولون فعلا وتميزها من الاجزاء التى تعتبر طعما للمغفلين . وكان الملازم الاول ودودا ويبدو عليه انه معجب بلانى وزوجته كثيرا . ولكن هل يمنعه ذلك من الكذب بجرأة اذا كان رئيسه مثلا قد قبض على فريدى روبن ويريد اخفاء هذه الحقيقة ؟ وهل يمنعه ذلك من ارتكاب اى عمل آخر من اعمـال الغش والخيـانة التى قد تكون ضرورية لقضـية الاشتراكية الوطنية ؟ كان لابد للانى من مواصلة تذكير نفسه بأن هؤلاء الشبان قد تربوا على كتـاب كفاحى . وكان لابد له من مداومة تذكير زوجته التى لم تطالع قط هذا الكتاب ولكنها بدلا من ذلك سمعت اللورد ويكثورب يستشهد بنصوص من لينين ينـادى فيها بمذاهب سياسية تنطوى على الاستهانة وتبدو شبيهة بما يقوله هتلر .

- ٧ -

وهاينريش يونج ايضا كان قد اكتسب حق الضيافة ولذا دعى هو وزوجته ربة البيت الصغيرة الزرقاء العينين الى العشاء فكان ذلك حدثا بارزا فى حياتها . فهى قد أهدت الوطن ثلاثة من الآريين الصغار ولذا لم تكن تخرج كثيرا جدا كما اعترفت . وقد ابدت دهشتها فى سذاجة وحبور لنفائس الترف فى فندق ادلون . والحت على ايرما كى تؤكد لها أن ثوبها المصنوع فى المنزل مناسب لهـــذه المناسبة العظيمة . وتحدث هاينريش فى الشئون السياسية لحزب العمـال الالمانى الاشـتراكى الوطنى . وحاول بصفة عرضية ان يعرف ماذا تم فى قضية يوهانس روبى التى أثارت فضولا شديدا لا حد له فى دوائر الحزب كما قال . ولم يسع لانى ان يقول الا ان لديه اوامر بعدم الكلام . وبعد قليل ســأله « هل قابلت عقيلة وزير الرايخ جوبلز منـذ اجتماعنا الأخير ؟ » فعـرف ان هاينريش دعى للشاى فى بيتها وبذلك لم يكن لانى بحاجة للسؤال عمن ابدى الفضول فى دوائر الحزب . وسرعان ما قال هاينريش ان ماجدة تريد ان تعرف هل يحب السيد بد وزوجته ان يدعيـــا لاحدى حفلات استقبالها . وسارعت ايرما تقول ان ذلك يسرها . وتعهـــد هاينريش بتبليغ هذا الرد . وهكذا يستطيع المرء ان يتقدم فى المجتمع الراقى اذا كان لديه المال والملابس المناسبة والسلوك الملائم فيمضى منقاعة استقبال

الى قاعة استقبال يحشو بطنه بأفضل الاطعمة والشراب ويمـــلأ أذنيه بالمختار من احاديث اللغط ·

وكان هوجو بير القائد الرياضي للمنطقة قد أعلن عن رغبتـــه فى مقابلة لانى مرة أخرى · وحرص هاينريش وهو يبلـغ ذلك ان يقـول « أظن من واجبى أن أحذرك يالانى فأنا وهوجو مازلنا صديقين ولكن ثمه خلافات فى الرأى تزداد جسامة فيما بيننا » فوجه اليه لانى بضعة أسئلة فعلم ان فريقا من النازى قد نفذ صبرهم لان الفو هرر لا يقوم بتنفيـذ الدعامات الاقتصادية الاساسية التى قام حزبه عليها · فبدا كأنه انقلب محافظا وانضم الى أصدقاء جورنج من كبار رجال الصناعة ونسى الوعود التى قطعها على نفسه للرجل العادى · وقال هاينريش ان من الســـهل العثور على أخطاء ولكن من واجب أعضـــاء الحزب أن يدركوا مـدى ثقل الاعباء الملقاة على عاتق الفو هور وان يثقوا به ويمنحوه فسحة من الوقت لانه لابد ان يعيد تنظيم الحكومة والرجال الجدد الذين قلدهم المناصب يجب ان يتعلموا واجباتهم الجديدة قبـــل ان يشرعوا فى اجراء تغييرات أساسية · ومع ذلك فثمة اناس لا صبر لهم بطبيعتهم · ولعلهم حاسدون لا يريدون ان يمنحوا الفو هور الثقة التى يستحقها · ولو ترك لهم الحبل على الغارب لدمر الحزب بالانقسامات الداخلية قبل ان ينطلق فى طريقه ·

وتكلم هاينريش باسهاب وبجد شديد كالعهد به دائما · وكانت زوجته الصغيرة المخلصة تصغى له وكأنما الفو هور شخصيا يتكلم · ومن هذا الحديث ادرك لانى ان الشقاق خطير حقا · وان الجناح الايمن كسب الموقف على طول الخط · وان الجناح الايسر فى حالة ارتباك · فجورج شتراسر الذى كان قد تلقى التوبيخ الشديد من هتلر فى حضور لانى استقال من مناصـــبه العـــالية فى الحزب واعتكف فى الريف متقززا · وارنست رهم رئيس اركان حرب كتائب الهجوم (العاصفة) ومن اقدم اصدقاء هتلر منهمك فى الاحتجاج ويقال انه على اتصال بشليخر الجنرال المالى الذى اقصاه هتلر عن منصـــب المستشار · وهو موقف خطر جدا وهوجو يرتكب خطا فاحشا بالانزلاق فى هذا المعترك · ومضى هاينريش يقول « ولكنك تعرف ان هوجو كان ديمقراطيـا اشتراكيا · وعنـــدما يتسرب سم الماركسية الى عروقه مرة واحـدة فمن العســير التخلص منه » فقال لانى « نعم » فهو يقرر هذا · لانه قضى برهة فى ذلك المعسكر · ولكن لا جدوى من توقع احداث تغييرات فى كل شيء فى مدى شهور قليلة » وانتم لديكم عنصران فى حزبكم هما الوطنية والاشتراكية · واعتقد انه

ليس من السهل على الدوام ان يحفظ المرء التوازن بين هذين العنصرين » فقال هاينريش سيكون ذلك سهلا ان هم وثقوا بالفوهرر فهو يعلم ان اشتراكيتنا يجب ان تكون المانية ومناسبة لفهم الشعب الالماني · وسيقدم هذه الاشتراكية للشعب بمجرد قدرته على التكييف بها » ·

وبعد انصراف الضيفين قال لاني لزوجته « ان كنا نريد معرفة الاسرار القذرة فهوجو هو الفتى الذى يقدمها الينا · »

- ٨ -

اتفقت الأم مع لاني وايرما على انه لا جدوى من اخبار الاسرة فى برلين باختفاء فريدى لانهم سيعجزون عن كتمان الامر وبذلك يعرضون يوهانس للخطر · بل انه قد يحدث ايضا ان هانس أوبيس يصران على القدوم الى المانيا · وكانت أقل اشارة الى هذا تصيب الأم بالفزع · ولذا كتب لانى الى والدته خطابات مبهمة « تحت تسوية كل شىء · كلما قلت العلنية كان ذلك افضل · أخبرى اصدقاءنا ان يتوجهوا الى جوان ليستريحوا فالحياة هناك رخيصة واعتقد ان الامور ستكون عصيبة اقتصاديا » وما الى ذلك من الاشارات الخفية ·

ولم تذهب بيوتى شخصيا الى جوان · وكان خطابها التالى مكتوبا على أوراق تحمل شعار قصر بالينكور « هل تتذكر الليدى كيار ؟ انها أرملة السير فنسنت كار الذى كان من أقرب شركاه السير بازيل فى مصانع فيكرز · وهى روحانية متحمسة وقد نشرت كتيبا يضم الرسائل الروحية التى تلقتها من زوجها فى عالم الارواح · وهى شديدة التأثر بالسيدة وتريد ان تقترضها اطول مدة يمكن للسير بازيل ان يستغنى فيها عنها · وقد دعانى الى قصره هنا وعقدنا عدة جلسات · وقد ظهر شىء ازعجنى · لان تورمسة قال « هنا رجل يتكلم الالمانية فهل فيكم من يعرف الالمانية ؟ » فقال السير بازيل « انا اعرفها بعض الشىء » فقالت الروح « الكلارينيت اختل توافقها » ولم تقل اكثر من هذا وبدأت المدام تئن وعندما افاقت من سباتها كانت شديدة الاكتئاب ولم تستطع ان تقوم بجلسة أخرى فى ذلك اليوم · ولم أفهم شيئا فى بداية الامر · ولكنى الآن اتساءل ايمكن ان يكون حدث شىء للكلارينيت التى تعرفها ؟ لن أقول شيئا لاحد الى ان تصلنى اخبار منك » ·

وها هي مرة اخرى اشارة من تلك الاشارات الغامضة تأتي من عالم اللاشعور · فاللفظ الالماني الدال على اختلاف التوافق قد يعني اختلال الانغام أو تكدر المزاج·وقد ادركت بيوتي ان الكلارينيت معناها فريدى · وكان من السهل ان يتخيل ان تورمسه قد استخرج ذلك الخاطر من اللاشعور عند بيوتي · ولكن بيوتي لم يكن لديهـا ما يدعو لتخيل ان فريدى في مأزق · فهل يمكن القول ان بيوتي عندما جلست في حلقة لتحضير الارواح اندمج عقلها الباطن بعقل ابنها الباطن فانتقل انزعاجه اليها ؟ ام ان الاسهل الاعتقاد بأن احد الاشتراكيين ظل يركل أو يضرب او اطلق عليه الرصاص الى ان انتقل الى عالم الارواح على يد النازى وهو الآن يحاول الاستنجاد لانقاذ رفيقه ؟

وارسل لانى برقية الى أمه « موسيقى الكلارينيت تثير الاهتمام ارسلى المزيد منها ان امكن » · وقد قرر ان هذه وسيلة يمضى بها الوقت وهو ينتظر تعطف رئيس وزراء بروسـيا جورنج وبرلين مثل باريس ولندن ملآنة بالوسطاء والعرافين من جميع الانواع · ويقال ان الفوهرر نفسه يستشير فلكيا · ومن العجيب أنه يهودى · وها هو لانى مضطر ان يجلس فارغا من كل عمل وقتا غير محدد ولا قابلية لديه للحياة الاجتماعية او الموسيقى او الكتب · فلماذا لا ينتهز هذه الفرصـة ليرى ان كان يستطيع الحصول على مزيد من الاشارات من ذلك العالم السفلى الذى أثار دهشته مرارا كثيرة ؟ ·

واهتمت ايرما بما حدث فاتفقا على أن يذهبـا متفرقين الى وسط مختلفين وبذلك يضاعفان الفرص أمامهما · ولعل جميع الأرواح لا تكون قد اعتنقت النازية فيستطيع الزوجان الشابان احراز سبق على جورنج فى هذه المملكة الغامضة ·

- ٩ -

أهو اذن لانى وقد أدخل الى المسكن الراقى الذى تقيم به أشهر عرافات برلين السيدة ديزيز (ولو كانت تمارس مهنتها في باريس لجعلت اسمها مرادفا المانيا هو فراو فارساجيرى · والمعنى فى الحالتين المخبرة بالغيب) ولابد آن يتولى تقديمك اليها صديق · والجلسات بموعد سابق قبل مدة طويلة· ولكن هذه الزيارة عاجلة وقد تولت تدبيرها فراوريترفون فيبيفتش · وستتكلف مائة مارك · وليست ثمة ملابس عربية ولا خرائط

تمثل الابراج السماوية ولاغير ذلك من أساليب التهويل والاحتيال. وانما هى حجرة استقبال بها أثاث على آخر طراز من الأنابيب المعدنية الخفيفة . وبالحجرة سيدة فرنسية أنيقة ذات شعر أبيض تتكلم بلهجة ضاحية سان جيرمان بباريس . وفى بعض الأحيان تقدم ظاهرات بدنية وتتحدث بأصوات شتى وبلغات تزعم أنها لا تعرف منها كلمة واحدة وتعقد الجلسات فى حجرة داخلية صغيرة تغدو مظلمة تماما عندما يطفأ ضوء الفلورسنت الهادىء . وهناك جلس لانى صامتا مدة قد تصل الى عشرين دقيقة وكاد يعتقد أن ماركاته المائة قد ذهبت هباء عندما سمع صوتا رخيما كأنه صوت طفل يقول بالانجليزية « ما الذى تريده يا سيدى ؟ » . فأجابها « أريد أنباء عن صديق شاب قد يكون أو لا يكون فى عالم الأرواح وبعد فترة انتظار أخرى قال الصوت : « ها هو سيد مسن يحضر ويقول أنك لا تريده » وكان لانى قد تعلم ان المرء ينبغى أن يكون مهذبا على الدوام مع أى روح . فقال « يسعدنى دائما أن أقابل صديقا قديما . ومن هو ؟ » وعندئذ وقعت تجربة يجدر بفيلسوف شاب أن يحتفظ بها ما تبقى من عمره موضوعا للتأمل . فقد أجابه صوت فيه فحولة وكأنه انفجر فجأة فى الحجرة الصغيرة صائحا به « لقد نسى الناس كلمة الرب » فلم تكن بلانى حاجة الى أن يسأله « من أنت ؟ » لأنه شعر كما لو كان جالسا فى حجرة المكتب بالقصر الجهم فى نيوانجلند بأثاثها الذى يبلغ من العمر مائة سنة مصغيا الى جده صموئيل يفسر الكتاب المقدس . ولم يكن المتكلم الآن ذلك الشيخ الواهن بصوته المرتجف الذى قال له آخر مرة ، انهم قد لا يكونون هناك عندما يأتى لانى مرة أخرى » بل المتكلم صانع الأسلحة ابان الحرب العالمية الذى كان يتكلم عن الأثم وهو يعلم أن لانى مولود الأثم ـ ولكننا جميعا مولودو الأثم فى نظر رب السبت الصبؤت ! » .

واعلن الصوت العجيب فى الظلام « جميع متاعب العالم سببها أن البشر كفوا عن سماع كلمة الرب . وسيظلون فى عذاب الى أن يسمعوا ويطيعوا . وهكذا سيكونون الى أبد الآبدين آمين » فقال لانى على نحو ما كان يقول مرارا كثيرة فى مكتب جده « نعم يا جدى » . ولما كان يريد أن يكون مهذبا بصفة خاصة فقد سأله « هذا أنت حقا يا جدى ؟ » فأجابه « الجسد كالعشب » وصوتى باطل الا حينما أقول الكلمات التى أعطاها الرب للبشر . فقد كنت شابا والآن ها أنذا قد شخت . ومع ذلك الم أر الابرار منبوذين وذراريهم يستجدون الخبز » فاما أن يكون هذا هو الرئيس الراحل لمؤسسة بد لصناعة الأسلحة أو يكون المتكلم ممثلا على درجة عالية جدا من البراعة . وانتظر لانى برهة على سبيل الاحترام ثم سأله « ما الذى

تريده منى يا جدى ؟ » فانفجر الصوت « أنك لم تفطن الى الكلمة . » وخطرت للانى كلمات كثيرة يمكن ان تصدق عليها هذه العبارة ولذا انتظر وبعد برهة أخرى استطرد الصوت « اقسم الآن أمامى بالرب الهك انك لن تقطع ذريتى من بعدى » .

وكان لانى يعرف خير المعرفة ما معنى هذا الكلام . فالشيخ كان يعارض معارضة حامية ضد مزاولة ما يسمى تحديد النسل فقد كان يريد أحفادا كثيرى العدد لأن هذه هى وصية الرب أثمروا وتكاثروا واملاوا الأرض . وكانت هذه احدى افكار صموئيل بد المستولية عليه . وفى أول مرة أخذ ايرما اليه لتراه استشهد بكلمات الملك شاؤل الشيخ لداود ولكن ايرما تجاهلت هذه الوصية فهى لا تريد شرذمة من الأطفال لأنها تريد أن تستمتع بوقت طيب وهى لم تزل شابة . والثمن الذى تتقاضاه الطبيعة للأطفال اغلى بكثير من أن تطيقه السيدات الأنيقات الراقيات . ولذا جاء الآن الشيخ خارجا من قبره ليحذره .

أم لعل المسألة كلها مصدرها عقل لانى الباطن ؟ فضميره يستشعر الذنب . وكذلك ضمير ايرما لأنها لا تتحدى جد لانى فى عالم الأرواح فحسب . بل تتحدى أيضا امها المقيمة فى هذه الدنيا . ولكنها ظاهرة غريبة على كل حال غرابة كافية .

وقال لانى باللباقة التى أصبحت جزءا من روحه « سأضع كلماتك فى ذهنى يا جدى . ولكن كيف اعرف أن من يكلمنى حقيقة أنت ؟ » فأجابه الصوت « لقد اتخذت خطوات كفيلة بأن تجعلك تتأكد ولكن لا تحاول أن تصرفنى عن هدفى بعبارات منمقة » وكان هذا الرد مقنعا فاستولى الخوف فعلا على لانى . ومع هذا فهو غير مستعد أن ينسى موضوع فريدى فقال « يا جدى . أتذكر زوج بيسى وشقيقه الأصغر ؟ هل تستطيع أن تعرف لى شيئا عنه ؟ » .

ولكن الجد كان فى استطاعته أن يضارع الحفيد فى عناده فصاح به الصوت الأمر « تذكر كلمة الرب » ولم يسمع بعد ذلك شيئا . فتكلم لانى بعد ذلك مرتين أو ثلاث مرات ولكنه لم يتلق ردا وأخيرا سمع زفرة فى الظلام واضىء نور الفلورسنت واذا به يرى السيدة ديزيز جالسة تسأله بصوت خامد مجهد « هل حصلت على ما كنت تريد ؟ » .

وصل لانى الى الفندق قبل ايرما بدقائق معدودة . وكانت ايرما قد استشارت وسيطتين اختارتهما عن طريق اعلانات الصحف بسبب اسميهما الانجليزيين . وسألته « هل وصلت الى شيء ؟ » . فأجابها لانى « لم أصل الى شيء عن الكلارينيت . وأنت ؟ » فقالت « أنا لم أصل الى شيء على الاطلاق فقد كان الأمر كله مضيعة للوقت . واحدى الوسيطتين كان المفروض أنها امرأة هندوسية وقد قالت اننى سأتلقى خطابا من عشيق أسمر وسيم . أما الوسيطة الأخرى فكانت امرأة بدينة دهنية البشرة عجوز ذات أسنان صناعية غير مضبوطة وكل ما قالته ان رجلا مسنا يحاول أن يخاطبنى . ولم تخبرنى باسمه فكل ما كان يريده منى أن أتعلم بضع كلمات » فسألها « وهل تعلمتها ؟ » فأجابته لم يكن لى حيلة فى ذلك فقد جعلنى أكرر الكلمات ثلاث مرات وهو يقول : « استعرفين ماذا تعنى هذه الكلمات . وهى كلمات بدت لى كأنها مقتبسة من التوراة » . فهتف لانى « قوليها ! » فقالت « وليس لك أن تمحو اسمى من بيت أبى » فصاح لانى « يا الهى يا ايرما !؟ هذا اتصال مزدوج بطرفين فى آن واحد ! » فسألته « وما معنى هذا ؟ » فأجابها الا تتذكرين أول مرة قابلت فيها جدى فراح يستشهد بآية من التوراة ويوصيك بانجاب الأطفال وألا تتدخلى فى ارادة الرب ؟ » فقالت « نعم . ولكننى لا أتذكر كلماته » فقال « هذا جزء مما قاله . وقد جاءنى منذ قليل وأعطانى بداية النص : « اقسم الآن أمامى بالرب الهك أنك لن تقطع ذريتى من بعدى . وتتمتها : ولن تمحو اسمى من بيت أبى » . فهتفت الزوجة الشابة « ما أعجب هذا يا لانى ! » فقال « وقال لى أيضا أنه قد اتخذ بالفعل خطوات لاقناعى بأنه المتكلم حقيقة . ولعله كان بالفعل قد تحدث اليك » .

وكانت ايرما تعيش مع الأرواح منذ أربع سنوات تقريبا ، وقد ألفتها على نحو ما . ولكن هذه أول مرة تصادفها ظاهرة من هذا القبيل . وقال لها لانى أن مطبوعات الأبحاث النفسية حافلة بهذا الاتصال المزدوج أو المتقاطع ففى بعض الأحيان تؤدى عبارة واحدة على جزءين فى وقت واحد جزء منها فى انجلترا وبقيتها فى استراليا . وفى بعض الأحيان يشار الى مرجع مع تحديد الصفحة والسطر ، وعن طريق وسيط آخر يشار بالرجوع الى كتب أخرى فى مواضع محددة . وعندما توضع النصوص متجاورة يتكون منها المعنى المنشود ويبدو أن هذا دليل على أن العقل الذى يعمل وراء هذه الظاهرة غير مقيد بحدود الزمان والمكان . والمعضلة الأساسية

هي صعوبة التصديق ، فالناس لا يستطيعون ولا يريدون مواجهة هذا الواقع • وقال لانى « والآن ، أتريدين أن ترزقى طفلا آخر ؟ » فسألته « وماذا تظن جدك فاعلا ان لم نرزق الطفل ؟ » فأجابها لانى مقهقها « اذهبى واسأليه » •

ولكن ايرما لم تذهب وتسأله • فبعد يوم او يومين وصل خطاب من روبى يخبرهما بما سيفعله الجد ان لم يطيعاه فقد أنشأ فى وصيته رصيدا لفرانسس بارنز بد راس ماله خمسون ألف دولار ، ونص على مثل هذا المبلغ لكل طفل او أطفال آخرين قد تنجبهم ايرما بارنز بد فى مدى سنتين بعد وفاته • ولم يترك الواقعى العجوز شيئا للصدفة فأضاف الى ذلك قوله « بشرط أن يكون لانى بد والدهم » •

- ١١ -

حضر القائد الرياضي الشاب الأزرق العينين الذهبي الشعر هوجو بير لزيارة صديقه الأمريكى فأخذه لجولة فى السيارة • ولم يكن هوجو بحاجة الى حث لاغرائه بفضح القاذورات حول الاتجاهات الحالية فى الحزب الاشتراكى الوطنى • فقد قال أنه انما انضم اليه لاعتقاده أنه حزب اشتراكى ، وثمة ملايين يشعرون بمثل شعوره ، فهم يريدون للحزب أن يظل اشتراكيا ومن حقهم أن يحاولوا الابقاء على اشتراكيته وجعله ينفذ جزءا على الأقل من البرنامج الذى كسب على أساسه ثقة الجماهير الألمانية• فتقسيم الضياع الزراعية الكبيرة وتاميم الصناعات الأساسية والمتاجر الكبرى والغاء عبودية الربا ، هذه هى التعهدات التى قطعها الحزب على نفسه أمام الشعب ملايين المرات • أما الآن فالحزب على تفاهم وثيق مع أقطاب الصناعة فى الرور ، وها هو البرنامج القديم قد نسى تماما • ان الفوهرر واقع تحت تأثير رجال لا هم لهم الا السلطة ، واذا ترك لهم الحبل على الغارب وجهت كل طاقات البلاد للاستعداد الحربى ، ولم يخصص منها شىء للرخاء الاجتماعى •

وقال هوجو « اجل أن كثيرين من القادة يشعرون بمثل شعورى ونفر منهم أقدم رفاق هتلر فى الحزب وليس ذلك تهديدا لزعامته وانما هو جهد مخلص لحمله على ادراك الخطر والرجوع الى الطريق السوى » وعرض المسئول الشاب أن يقدم لانى الى نفر من الرجال العاملين فى هذه الحركة• ولكن الزائر شرح الموقف الخاص الذى يجد نفسه فيه وله قريب يهودى

واقع تحت طائلة القانون وهو بحاجة الى التستر والمداراة بسبب ذلك .
وادى هذا الكلام الى طرق موضوع اليهود فاثبت الآرى الشاب ولاءه لعقيدته بتنديده بذلك الجنس الشرير والدور الذى قام به فى افساد الثقافة الالمانية ، ولكنه أضاف الى هذا انه لا يقر اضطهاد الأفراد الذين لم يخرقوا القانون . وصاح مدير الرياضة « ولكن للاسف ! » واستطرد بقول الكلام الذى كان يعرفه لانى عنظهر قلبوهو ان أى انقلاب اجتماعى كبير لابد ان تحدث فيه أمور مؤسفة . فقال لانى « ولهذا السبب يجب على كل منا أن يفعل مايستطيع فى الحالات التى تصل الى علمه . وما اريده الآن شخص فى الحزب استطيع الثقة به يؤدى لى خدمة وهى تحديد مكان فريدى ويخبرنى بما هو متهم به » . فأجاب الآخر « قد لا يكون هذا سهلا . فمثل هذه المعلومات لا تقدم بسخاء . هذا اذا فرضنا انه حقيقة تحت يد السلطات » . فقال لانى « ظننت انك ولك كل هذه الصلات الكثيرة مع افضل عناصر الحزب قد تكون قادرا على القيام بالاستفسار من غير ان تستلفت الأنظار كثيرا . فانك ان اوليتنى هذا الجميل سيسعدنى جدا أن اقدم لك مقابل ما انفقته من وقتك .. » فقال الآخر « لا أريد شيئا يا هر بد ! » فقال لانى « بل لابد أن تتناول ذلك المقابل لأن العمل قد يتطلب منك كثيرا من الوقت . ولست املك وسيلة أخرى لتعويضك عنه . وزوجتى هنا ولا يستطيع احدنا أن يستمتع بشىء لفرط قلقنا على ذلك الفتى المسكين . واؤكد لك أنها ستعتبر الف مارك ثمنا زهيدا لراحة البال التى ستشعر بها من مجرد معرفة أن فريدى لم يزل على قيد الحياة . وان استطعت ان اعرف اين هو وما تهمته قد استطيع التوجه الى السلطة المناسبة واسوى معها الأمر دون فضيحة غير مرغوب فيها » فبدأ المسئول الشاب يقول فى تردد « لو تأكدت أن اسمى لن يذكر فى هذا الصدد .. فقال لانى « أعدك بهذا وعد الشرف . فلا شىء يمكن ان يغرى زوجتى او يغرينى بذكر اسمك . بل ولا لزوم لأن تذكره أنت عندما تطلبنى تليفونيا . بل يكفى أن تقول مثلا أن لديك لوحة من ريشة آرنولد بوكلن لتطلعنى عليها واذكر لى مكانا اقابلك فيه فآتى اليك . وارجو ان تتكرم بقبول مائتى فرنك على سبيل البداية ، لأنك قد تحتاج لدفع مبالغ صغيرة هنا وهناك » .

طار رئيس الوزارة البروسية هيرمان فيلهلم جورنج الى روما على غير انتظار ٠ وكان قد توجه الى هناك مرة من قبل ولم يوفق كثيرا فى مهمته ، مع « الحمام الهزاز » فكانت بينهما خصومة مريرة حول موضوع السيطرة على النمسا ، بيد أنهما هذه المرة وصلا الى اتفاق وقتى على نحو ما وخرجت صحف العالم على الناس بحدث ضخم وهو أن الدول الأوروبيـــة الأربع الكبرى وقعت ميثاق سلام اتفقت بمقتضاه على الامتناع لمدة عشر سنوات عن أى عمل عدائى فيما بينها وعلى تسوية جميع المشكلات بالمفاوضة ٠ ووقع موسولينى عن ايطاليا ، ووقع جورنج عن المانيا ، وقع السفيران البريطانى والفرنسى بفيينا عن حكومتيهما ! وعاد جورنج الى وطنه عود الظافرين ، وقالت ايرما ها أنت ترى أن الأمور ليست من السوء حيث كنت تظن » ٠

وذهب الزوجان الى حفل استقبال فى بيت عقيلة وزير الرايخ جوبلز حيث قابلت كثيرين من كبراء النازى ٠ وتذكر لانى الذى كان قد قرأ تاريخ القوط الغربيين الذين غزوا روما القديمة بسهولة مدهشة وراحوا يجوبون المدينة الفخمة مبهورين باكتشاف ماصار تحت تصرفهم ٠ وتذكر كلايف الذى أذهلته أيضا كنوز البنغال وقال بعد ذلك انه حينما فكر فى الفرص التى كانت مواتية له دهش لاعتداله ٠ وهـــكذا الحال أيضا مع رجال كانوا منذ بضع سنين لا يجدون ثمن وجبة ولا يجدون مكانا يضعون أعضاء حزب العمال الاشتراكى الوطنى من حيث الاعتدال بل من حيث الفرص المتاحة ٠ لهم فى رؤوسهم ، وفجأة تملكوا المانيا كلها فهم يرتدون أفخر الكسوات التى يستطيع خياطو برلين تصميمها ، وزوجاتهم يعرضن على الأنظار مفاتنهن فى آخر ازياء باريس ٠ أوشحة ونياشين وأزهار أوركيد متألقة ، أتراهم حصلوا على ذلك كله من مرتبات الحزب أو من مرتبات المنصب فى الرايخ الألمانى أو فى بروسيا ؟ أم ان كل واحد منهم نشط للعمل لحسابه الخاص ؟ لا حاجة بهم الى السرقة ولا للتهديد ؟ ، فما عليهم الا أن يبقوا أيديهم مفتوحة فيأتى أصحاب الثراء والامتيازات مسرعين ليملئوها بالعطايا ٠

ها هم أصدقاء ورفاق معسكر يوبشن جوبلز الصحفى الفاشل من بلاد الراين الذى أصبح الآن السيد المهيمن على الحياة العقلية فى بلاده ٠ وكلمته يمكن أن تبنى أو تهدم أى انسان فى أية مهنة ٠ والدعوة الى بيته هى فى آن واحد أمر وفرصـــة عظمى لمن توجه اليـــه ٠ الرجال ينحنون

ويتزلفون والنساء يبتسمن ويتملقن والجميع في الوقت نفسه يرقبون بحذر لأن عالمهم محفوف بالمخاطر ولا يستطيع المرء أن يحتفظ بمكانة فيه الا باليقظة الساهرة • قطط وحشية محبوسة كلها في قفص واحد يدور كل واحد منها حول الآخر بحذر مع المحافظة على مسافة للأمان ، والفهد والببر كانا من الممكن أن يتشابكا لولا أنهما كليهما خائفان من النمر • ولكنهم قطط متمدينة تعلمت آداب السلوك وتطبق علم النفس وتتظاهر بأنها لطيفة غير ضارة ، بل ودودة • وأفتك القتلة يفترون عن أحر الابتسامات ، وادهى الدهاة هم أشد الجميع وقارا وفخامة • فلديهم قضية عظيمة ومصير تاريخي وواجب وطني وقائد ملهم • وهم يقولون « اننا نبني المانيا جديدة » وفي الوقت نفسه يجول بفكرهم « كيف أبقر بطن هذا المخلوق ؟ » ويقولون « طاب مساؤك أيضا أيها الرفيق في الحزب » ويجول بفكرهم « أيها الوغد الأسود المفترى ، أنا أعرف تلك الأكاذيب التي تهمس بها ! » ويقولون « طاب مساؤك يا هربد » ويجول بفكرهم « من محدث النعمة هذا وماذا يصنع هنا ؟ » ويهمس أحدهم « ان الرئيس يظن أنه يستطيع الافادة منه » فيخطر بذهن سامعه « لابد أن الرئيس يبتزه بوفرة وغزارة ! » •

- ١٣ -

وقالت المضيفة بأحلى ابتساماتها « مرحبا بك يا هر بد • سمعت أنك تحركت كثيرا في مواطن شتى منذ التقينا آخر مرة » فقال لانى متوسلا « لا تقولي ذلك أيتها السيدة وزيرة الرايخ ! ارجوك أن تصدقي أن ما حدث لم أكن أتوقعه ولم أكن أسعى اليه » أتراها تصدقه ؟ انها طبعا لن تصدقه ما لم تكن لديها معلومات من الداخل وقالت له « الن تخبرني بما حدث ؟ » وهو طلب خبيث فلابد لستره من أخبث ابتسامة ، على حسب المبدأ القائل أنك لا تقول الصدق الا حينما تكون غير راغب في أن يصدقك سامعك •

ولاني خبير الدسائس منذ كان صبيا صغيرا يسمع أمه وأباه يناقشان تسليم أسلحة وذخائر متعاقد عليها • فلاني بد حفيد آل بد صناع الأسلحة لا يعرف شيئا يصنعه في مازق افضل من الاخلاص والصدق فقال « سيدتي العزيزة وزيرة الرايخ أرجو أن تترفقي بغريب في أرض غريبة فأنا في موقف مؤلم ، وأتلقى أوامري ممن يملكون السلطان فلا يسعني الا أن أطيع » فقالت زوجة الوزير التي تعرف فيما يبدو وسائل أخرى للتعامل مع شخص في وضع مؤلم : « وان أصدرت اليك

انا الأوامر هل تطيعها يا هر بد ؟ ان ما تسميه السلطان يتنقل بسرعة مفاجئة . فى أوقات كهذه فمن الخير لك أن تمنحنى فرصة لا محضك النصح» فقال « الحقيقة يا سيدتى وزيرة الرايخ انى سوف اغنم لنفسى تعطفك بالنصح » وكان يريد أن يقول « بمجرد ان أغدو حرا فى التصرف » ولكنه قرر ان يترك لنفسه فرصة لمعاودة التفكير .

وكانت ايرما فى صحبة « بوتزى » هانفشتانجل وهو ابن ناشر اعمال فنية غني يقوم بدور المهرج لهتلر وبطـــانته وهو نصف أمريكى متخرج فى هارفارد طويل القامة ضخم الجسم يطوح ذراعيـــه كطاحونة الهواء . وقد ظل برهة جادا ثم فجـــأة رقص وقفز واطلق النكات وأخذ يضحك منها بصوت مرتفع بحيث شرع الجميع يضـــحكون منه . وكان الشبان يشعرون بفضول ازاء الوارثة الشهيرة ، فراحت تمتع نفسها كما كانت تفعل عادة حين تكون فى جماعة من الناس . وكان الرجال الأنيقون ذوو الكسوات الرسمية ينحنون باحترام ويتملقونها ويأتونهـــا بالطعام وبأنواع قوية جدا من الشراب . وكان كثير منهم يفرطون فى الشرب ، بيد ان هذا ليس شيئا جديدا على المجتمع المرح ، وايرما تعرف كيف تعـــامل أمثال هؤلاء الرجال .

وعند العودة بالسيارة فى ساعات الصباح الأولى كانت ثملة بعض الشيء تغالب النوم . وفى الصباح التالى ، أو على الأصح فى ساعة متأخرة من ذلك الصباح نفسه جلسا فى فراشهما يحتسيان القهوة وقالت ايرما رأيها فى الموضـوع . فهى قد قابلت هناك أناسا ظرفاء ولا تـــستطيع ان تصدق مايقال عنهم من السوء واضطر لانى أن ينتظر ريثما صـــارا فى سيارتهما قبل أن يدلى برأيه وهو « لقد شعرت أنا بانى فى لقاء للقراصنة» فقالت ايرما « اسمع يا حبيبى . هل التقيت قط بجماعة من الساسة فى الولايات المتحدة ؟ » فاضطر أن يعترف لها بأن أساس المقارنة ينقصه ، فاستطردت زوجته « لقد كانوا يأتون الى بيت أبى كثيرا . وكان من عادته أن يتحدث عنهم . فكان يقول أنهم سلابون بالفطرة وان ما من واحد منهم أنتج شيئا ، فكل ما يصنعونه هو الاستيلاء على ما ينتجه رجال الاعمال . وكان يقول انهم لن يكفوا عن ذلك الا بعد أن تستحوذ براثنهم على كل شيء » فقال لانى « لقد تمت هذه النبوءة فى ألمانيا ! » .

الفصل العشرون

العذاب هو الشعار

- ١ -

وصل خطاب طويل من روبى بد يتحدث فيه عن الموقف الناجم عن وفاة ابيه فالسيد العجوز كان قد تمسك بسلطته الى آخر لحظة الا أنه لم يحسم موضوع خلفه · ومنذ زمن بعيد كان قد حاول تسوية النزاع بين ابنه الأكبر وابنه الأصغر ثم عدل عن ذلك وتركهما يصفيان ما بينهما بالقوة ، وهذا ما صنعاه بالفعل · فكل منهما يريد أن يغدو رئيس مؤسسة بد ، وكل منهما واثق بأن الآخر غير أهل لهذه المهمة · وقال روبى بمرارة « واحسب أن ابى لم يكن يعتبر أيا منا اهلا لها » ·

ومهما يكن من شيء فالمسالة ستحسم على يد حملة الأسهم فقد اتفق حلول موعد انتخاب أعضاء مجلس الادارة ، وسيظل « روبى » و « لوفورد » لمدة الستين يوما التالية يقومان بالمناورات والاتصالات الخفية ويحاولان حشد الاصوات · والواقع انهما منذ سنوات يمهدان لذلك خلسة · أما الآن فقد أصبح القتال بينهما مكشوفا ·

والى أن يحين موعد الانتخابات يتولى نائب الرئيس الرئاسة ويقبض بيده على الاسفنجة على حد تعبير روبى ، ونائب الرئيس اخو استرايد وابن رئيس بنك فيرست ناشيونال في نيوكاسل وكتب روبى يقول عن ذلك « ان اخشى ما كان يخشاه الشيخ الهرم دائما أن تقبض البنوك على زمامنا ! » وكان لانى يعلم أنه يقول ذلك على سبيل المعابثة ، لأن روبى و «تشاس رمسن» كانا على وفاق ، والاثنان وزوجتاهما يلعبون البريدج معا ليلة من كل اسبوع ·

ان ماكان يقلق روبى حقيقة جواز تدخل جهاز من أجهزة وول ستريت بصورة اقتحامية ، وكانت مؤسسة بد قد اضطرت الى الاقتراض من احدى شركات التأمين الكبرى ، اما هذه او هيئة اعادة بناء الاقتصاد

المالى ، وهذا يعنى الدخول تحت رحمة الساسة • وروبى فى حالة جيشان مفرط من حيث ما تصنعه الادارة الحكومية الجديدة ، لان روزفلت سلخ الان ثلاثة اشهر يظهر فيها اتجاهه وبراعته ويبدو ان الشيء الوحيد الذى يدريه عن الحكم هو اقتراض المال وبعثرته كأنه بحار ثمل • وهذا بطبيعة الحال مجرد تأجيل للمعضلة عن طريق اغـــراق الوطن فى الديون التى يتكفل المستقبل بسدادها • وفى الوقت نفسه يرمى الى تعليم كل انسان كيف يتجه الى وشنطن « كما تتجه الحلاليف الى المعلف » على حد تعبير بائع الاسلحة والذخائر الذى يتخير أشد التشبيهات ابتذالا عند الكلام عن الاحوال الحكومية فى بلاده ، فكل ما يمنح لساسة السـلطة معناه الديون والضرائب والمشكلات •

بيد ان روبى لم يخض فى هذا الموضوع الان ، فلديه مشـــكلاته العاجلة « فلو استطعت أن أدبر مالا سائلا لشراء جانب من أسهم بد التى اعرف شيئا من امرها لامكننى ان اسوى موضوع السيطرة على المؤسسة ، فقل لصديقنا اننى اريد ان اسمع منه انباء بمجرد توفر الوقت لديه ، وفى استطاعتى ان اقدم له عرضا يجده رابحا » وكان هذا الكلام قد كتب قبل ان يتسلم خطابا غفلا من التوقيع يخبره فيه لانى ان « صديقنا » قد حيل بينه وبين كل دولار يملكه على وجه الدنيا • فيا للمســكين يوهانس ، ويا للمسكين روبى !

ولم يكن الوالد الكتوم دائما بحاجة الى تحذير بخصوص ما يكتبه عن الاحوال فى المانيا فكان خطابه نموذجا فى الغموض والابهام • قال « هناك مجال لصفقات كبيرة تعقد فى اوربا هذا العام ويجب ان اكون هناك لابرام العقود • ومتى تمت تسوية مشكلاتنا هنا فى الوطن سانكب على هذا العمل » وادرك لانى ما يعنيه ، فاعادة تسليح المانيا قد بدأت ، وما يعجز النازى حتى الان عن صنعه بانفسهم سيشترونه عن طريق وسطاء فى هولنده وسويسرا والسويد • وبذلك تعود مداخن المصنع فى نيوكاسل الى ارسال دخانها • ولا يبالى روبى بد بان يكون معنى ذلك اتاحة وسائل السلطة فى يد هتلر وجورنج وجوبلز • فأول قاعدة يسلم بها لدى البائع ان جميع دول أوربا رديئة على السواء • وسواء كتبت الغلبة للببر أو الفهد او النمر فهذا امر لا يعنى احدا خارج لغابة •

وتلا لانى هذا الخطاب لزوجته التى قالت (الا تعتقد انها قد تكون فكرة طيبة ان أساعد اباك ؟) فأجابهـا (انت تعلمين يا عزيزتى انى لم اكن راغبا فى يوم من الايام فى استغلال زواجى) فقالت « نعم • ولكن كن

معقولا ، فانا أملك كمية من الأسهم والسندات قلما لا استبدل ببعض منها اسهم بد ؟ » فاجابها « ان والدك انتقى هذه الاستثمارات بحصافة شديدة يا ايرما • وبعضها لم يزل يؤدى حصصا كبيرة ، واسهم بد لا تؤدى الآن حصصا » فقالت « نعم • ولكن الاسعار يبدو انها تتجه الى التوازن على حسب الارباح » • وكانت ايرما قد شغلت تفكيرها بأحوالها المالية منذ منيت بتلك الهزة الفظيعة فى فترة الذعر المالى • واستطردت « فان نحن حصلنا على اسهم بد بثمنها الحالى افلا يكون من المأمون الاحتفاظ بها ؟ » فسألها « افلا يزعجك أن تقومى بتمويل الاسلحة والذخائر ؟ » فأجابته « ولماذا يزعجنى ؟ لابد لأحد ان يقوم بذلك » •

هذه هى المسالة اذن كل انسان « معقـــول » ما عدا لانى • ان كان النازى بحاجة الى مدافع آلية ومسدسات آلية ففى السوق ماركات كثيرة منها فلماذا لا تحصل مؤسسة بد على الصفقة مثل مصانع فيكرز أو بوفورز او سكودا او شنيدر كريزو ؟ وحسمت ايرما المسالة قائلة « عندما نفرغ من هذا الموضوع الذى يعترض طريقنا سنسرع الى نيويورك ونجمع بين روبى وعمى جوزيف ونرى ما يتمخض عنه اجتماعهما » فقال لانى « هذه رقة عظيمة منك » فقد علم انه لو قال غير ذلك لكان مجافيا لكل رقة •

- ٢ -

وصل خطاب من كيرت يرجوهما القدوم بالسيارة الى شتوبندورف فى هذا الفصل البديع جدا من السنة وليست لدى كيرت سيارة فلا يسعه ان يقبل على بذخ التنقل السريع هنا وهناك ، الا ان صاحب المقام الرفيع قال له ان القلعة ستكون تحت تصرف ايرما ولانى فى اى وقت يحضران فيه • ولم يكن لانى قد اخبر كيرت بموضوع فريدى ، وفيما هو يناقش اطلاعه عليه او عدم اطلاعه رن جرس التليفون وسمع صوت الملازم الاول فورت فينجلر « يا هر بد يسعدنى ان اخبرك ان الحكومة مستعدة لاطلاق سراح ياهانس » • فدق قلب لانى بشدة وقال « هذا بالتأكيد نبأ طيب يا سيادة الملازم الاول » فسأله (أفى نيتك ان تقله بالسيارة هو واسرته الى بلجيكا ؟) فأجاب لانى « بمجرد ان يتاح لى ذلك » ان اعرف اين هم • او على الاقل اعرف مكانهم جميعا فيما عدا واحدا ، فيؤسفنى ان اقول انى لم اسمع أخبار عن الابن فريدى منذ مدة طويلة » فسأله الضابط « ليست لديك فكرة عن المكان الذى ذهب اليه ؟ فأجابه « ليست عندى أقل فكرة»

فساله « لماذا لم تحطنى علما بذلك ؟ » فاجاب « لقد كنت اظن ان انباء ستصلنى منه حتما • ولم ارد ان اضايقك او ازعج رئيس وزراء بروسيا • وكنت واثقا بأنه لو كان سجينا لدى الحكومة فسوف يطلق سراحه مع أبيه (فقال الضابط) لا أستطيع أن أقول شيئا عن هذا الموضوع لانى لا اعرف الظروف ولابد من اجراء تحقيق • وماذا تريد ان تصنع بالاخرين فى تلك المدة) فقال لانى « اريد ان آخذهم الى خارج البلاد بمجرد السماح لى بذلك وفى استطاعتى ان اعود بفريدى ان عثرتم عليه » فقال الضابط « لا حاجة بك للحضور الا اذا كنت راغبا فى ذلك فسوف نتولى ارساله الى الخارج ان وجدناه » فقال لانى « حسن جدا • هل اتجه الى رئاسة الشرطة لتسلم يوهانس ؟ » فقال الضابط (وهو كذلك) فقال لانى (انت مدرك اننا راغبون جدا فى تجنب مراسل الصحف ولاسيما المراسلين الاجانب • ولهذا السبب من الحكمة ان نرحل باسرع ما يمكن) فقال الضابط (سيسرنا ان نتعاون معك لهذا الغرض • ولدينا جوازات السفر والتصريحات جاهزة) فساله لانى (بما فى ذلك من تاشيرات دخول بلجيكا ؟ فقال الضابط) لقد دبر كل شىء • فهكذا ننجز امورنا فى المانيا فقال لانى « اعرف هذا • فهو من فضائلكم الكبرى » • فقال الضابط استودعك الله » يا هربد وآمل ان يكون لى سرور مقابلتك عندما تزور برلين مرة أخرى فقال لانى وأنا أبادلك هذه المشاعر ياسيادة الملازم أول • وانا شاكر لك مجاملاتك الكثيرة أثناء المسالة العصبية فقال الضابط اطلاقا ياهربد • واسمح لى أن اقول أن معالجتك للمسالة العصيبة فقال مثالية ، وصاحب السعادة يريد منى ان اؤكد لك تقديره الخالص •

وهكذا داهن كل منهما الاخر وصك كعبية وانحنى ينزلف عبر التليفون • وبعد ان وضع لانى السماع التفت الى زوجته وقال ضعى امتعتك فى الحقائب فسوف نرحل ؟ وسارع بطلب منزل والدى راحيل تليفونيا فردت عليه شخصيا فقال لها انباء طيبة الوالد سيطلق سراحه فورا وانا ذاهب لتسلمه فهل الوالدة تقيم بعيدا عنك ؟ فأجابت على مسافة عشر دقائق بالسيارة فقال استدعى سيارة اجرة وخذى الطفل وحقائبك ثم مرى فخذى الوالدة وتعالوا الى فندق ادلون بأسرع ما تستطيعون • وستكون ايرما فى انتظاركم لاننا سنرحل على الفور • وهذا واضح ؟ فقال نعم ولكن ماذا ••• فاسرع بوضع المسماع لانه علم انها ستساله عن فريدى وهو لا يريد ان يبلغها هذا الخبر ، فلتقم الوالدة بهذا الواجب الاليم ! •

- ٣ -

قاد لاني السيارة الى المبنى الكبير المشيد بالطوب الاحمر في ميدان الكسندر • وكثيرون ممن دخلوه لم يخرجوا منه بالسرعة التى تمنوها • اما هو بجواز سفره الامريكى الساحر فسيجرب حظه واكتشف ان النظام الالماني الشهير حقيقة نافذة فالضابط الجـالس الى المكتب كان قد تلقى تعليمات وافية فقال له بأدب لحظة واحدة ياهربد • ارجو ان تتفضـل بالجلوس • واصدر امرا وبعد دقائق قليلة جيء بيوهانس ويبدو انه كان قد احيط علما بما سيحدث فقد حلق لحيته وبدأ مهتما بالحياة مرة أخرى • والمقتنيات الصغيرة المتفرقة التى كانت معه عند دخوله السجن اعيدت اليه فوقع ايصالا بتسلمها وحيا سجانية تحية وداع مهذبة وخرج يمشي بخفة نحو السيارة • وكان على لاني واجب مؤلم هو توجيه ضربة قاضيـة الى سعادته الوليدة فقال « انباء مؤلمة يا صديقى فريدى مفقود منذ اسبوعين ولسنا ندرى ماذا حدث له • » فجلس الاب فى السيارة والدموع تنهمر فوق خديه ولاني يخبره عن آخر مقابلة له مع فريدى وعن الترتيبات التى اتخذت ثم عن الصمت التام الذى خيم عليه • ولم يستطع لانى ان ينظر اليه ، وكانت له ذريعة طيبة فى انهماكه فى قيادة السيارة وسط حركة مرور ناشطة •

وشرح له قراراته ، ورد عليه الاب المرزوء « لقد فعلت افضـل ما يمكن • ولن استطيع التعبير لك عن عرفاني للجميل » واستطرد لاني « انما هو تخمين ، ولكنى اظن جورنج يحتفظ بفريدى ويريد ان يبقيـه عنده الى ان تصير الفضيحة لا موضوع لها بين انباء الصحف • ففرصتنا الوحيدة التزام شروط الاتفاق •و يبدو لى من الحكمة الا نقول للناس اكثر مما ينبغي ، حتى ولا لاسرتنا • فكلما قل ما يعرفونه قل عناؤهم فى كتمان السر • « فوافقه الاخر قائلا » انت على حق (فقال لاني) اظن اننا ينبغى ان نقول لهم ان فريدى لابد ان يكون رهينة • وما دام سيفرج عنه يوما فليس من المعقول ان تساء معاملته • وهذا القول سيجعل من السهل عليهم جميعا ان يتغلبوا على الصدمة » • فقال يوهانس (سأقول لهم انني تلقيت ايعازا يفيد هذا المعنى • وهو كلام قد يهدىء من روع زوجته والا اصرت على البقاء ، فيجب ان ناخذها معنا باى شكل لانها لن تستطيع له شـيئا هنا » •

ولما وصلوا الى الفندق وجدوا الوالدة قد اخبرت راحيل بالنبأ فعلا

واكدته لها ايرما ، وفرغت الزوجة الشابة من نوبة بكائها الاولى ٠ ولم يكن الموقف سيئا جدا لانها كانت قد رتبت ذهنها منذ بضعة ايام على أسوأ الفروض ٠ وحديث حميها عن ذلك الايعاز ساعد قليلا فى محنتها ، وكذلك وعد لانى بمواصلة البحث ٠ ولم تستطع مقـــاومة تصميم الآخرين على اخراجها وطفلها من بلاد النازى ٠

ولم تكن شحنة السيارة التى غادرت فندق ادلون من النوع الانيق الراقى تماما ، فالشخص الذى يرتدى كسوة فاخرة ويفتـــــح ابواب السيارات متعود على رؤية الشبان الامريكيين المستقلى السلوك يقودون سيارتهم بانفسهم ، ولكنه نادرا ما رأى ثلاثة من اليهود ذوى العيون القاتمة ومعهم طفل محتشمين فى المقعد الخلفى لسيارة مرسيدس ليموزين على اهبة الرحيل الى الخارج ٠ ولكن لانى وايرما كانا مصممين على الفراغ من هذه المهنة والا يتركا اصدقاءهما المعرضين للخطر بعيدا عن انظارهما الى ان يبلغاهم مأمنهم ٠ وفى جيب الصدر من حلة لانى الـــكتانية الحمراء القاتمة كدس لانى لاجوازى سفره وسفر زوجتـــه فحسب بل مجمـــوعة كبيرة من الوثائق سلمها اليه رسول من مقر قيادة رئيس الوزارة البروسية جورنج بما فى ذلك اربعة جوازات سفر واربعة تصريحات بالخروج ومع كل منها صورة فوتوغرافية للشخص المقصـــــود ٠ تحقق لانى من ان الحكومة وضعت يدها على جميع الاوراق فى يخت روبن وقصره ، وتذكر وعد جورنج بالركلة فى المؤخرة ولكنه تمنى ان يكون ذلك مبالغة بلغـــة التكنات من جانب قائد السلاح الجوى الالمانى ٠

ولم تكن الاسرة فى وضع غير مريح لاحتشادها فى المقعد الخلفى لان الاشخاص الثلاثة البالغين كانوا قد فقدوا كثيرا من وزنهم فى الاسابيع الماضية ٠ واما الامتعة فكانت عبارة عن الحقـــــائب التى حملوها معهم بعد القبض على يوهانس ٠ وهذا كل ما كانوا يملكونه من متاع الدنيـــــا ٠ واما يوهانس الصغير فلم يكن مصدر عناء كبير ان يتبـــادلوا حمله فى حجورهم ، بل ان كلا منهم كان يسعده ان يستبقيه الوقت كله الى ان يصلوا به الى مكان لايسمعون فيه صيحات « ايها اليهودى القذر » !

- ٤ -

كانت ايرما ولانى ينويان الخروج بسرعة من الحدود كما دخلاها بسرعة ، فيشترى لانى أطعمة جاهزة يأكلانها فى السيارة أثناء سيرها ، ولن يجــازفا بدخول مطعم حيث يجــدان لابس قميص بنى يتنقل ليبيع مطبوعات النازى يقف أمام مائدتهم ليعرض على أنظارهم نسخة من الجسور » وفيها صورة كاريكاتورية تصور اليهود خنازير ذوى انوف بصـــلية منتفخة • فان ابوا شراء الصحيفة بصق فى طعامهم وانصرف وهو يسبهم ويسخر منهم • وقد وقع مثل ذلك فى برلين ، بل وقع ما هو اسوأ منه فحتى بضعة ايام كان باعة هذه المطبوعات يطوفون مسلحين بمسدس آلى وبهراوة من المطاط الصلب • وحدث فى احد المقاهى التى تعود تجار اليهود تناول الطعام بها أن انهال عليهم جماعة من كتائب الهجوم وأذاقوهم مرارة التعبير والتهكم ثم ركلوهم وضربوهم بالهراوات حتى فقدوا الرشد •

قد السيارة بحذر ولكن بسرعة ولا تقف الا عند الضرورة ! وكانت الطرقات جيدة والمسالك مألوفة وفى أمان من الاذان المتلصصة ، ولديهم الكثير يتحدثون فيه ، وقيل لآل روبن انهم يملكون مبلغا من المال لم يستطع النازيون أن يصلوا اليه وهو تلك النقود التى أنفقها يوهانس فى استضافة ايرما بارنز • وسيتم الوفاء بهذه المبالغ على دفعات على حســـب حاجة الاسرة ولن تعتبر قرضا أو هدية وانما هى أجور سفريات واقامة كاملة حل تاريخ استحقاقها منذ زمن بعيد • وقد قالت ايرما هذا الكلام بالحزم القاطع الذى اكتسبته ، فقد تعلمت ان مالها يخولها السلطة للبت فى مصائر الناس ، ووجدت لذة فى ممارسة تلك السلطة لمصلحة الناس دائما بطبيعة الحال •

وهناك ضيعة بيانفيني وليس فيها أحد سوى هانس وبيسى والطفلة فرانس مع حاشــيتها • والأم وراحيل والطفل ســيســتقرون فى المبنى المعروف هناك باسم اللودج وسيتعلمون الاقتصاد فى المعيشة حامدين الله على انعمه • اما يوهانس فقــد يحب التوجه الى نيويورك مع ايرما ولانى فأمامهما مبالة يجب ان تسوى مع روبى ، وقد يكون يوهانس ذا عون لهما فى ذلك • وقدم اليه لانى خطاب روبى ليقرأه ، فبدأت روح هذا التاجر المطبوع تبرز للحياة من جديد • اجل قد تكون لديه افكار عن بيع منتجات بد ، واذا تولى روبى مسئولية الشركة فسيعرض عليه يوهانس ان يتولى منصبه ممثلا اوربيا لها • او ان كان روبى يفضل غير ذلك فيستطيع أن

يجرب نشاطه في التجارة في أمريكا الجنوبية وكان قد باع فيما مضى كافة أنواع السلع هناك بما فيها المعدات العسكرية ، ولديه معلومات كثيرة عن الثورات الماضية منها والحاضرة والمستقبلة ٠

- ٥ -

كانوا مسافرين بطريق هانوفر وكولون ، والطرق ممتازة وقيادة السيارة ثلاثمائة او اربعمائة ميل ليست شيئا لدى لاني ، فوصلوا الى آخنى قبل حلول الليل ، ثم جاءت الحدود واللحظة الحاسمة التى كانت تقيض الذروة ٠ وكان تفتيش الحقائب والاشخاص بحثا عن الاموال المخفاة يتم عادة بصورة غير مستحبة بقدر الامكان بالنسبة لليهود ٠ ولكن لعل ثمة علامات خاصة على تصريحات خروجهم ، او ربما كان السبب انهم مسافرون في سيارة فارهة وتحت رعاية امريكيين منظرهما فخم وعلى كل حال لم تكن الاسئلة شديدة الصرامة ، وصدرت الاشارة بأسرع مما يتوقع اى انسان الى اللاجئين المتلهفين كي يجتازوا خط الحدود ٠ وفحص جوازات السفر على الجانب البلجيكي لن يستغرق اكثر من دقيقة او دقيقتين ٠ وبعد ان تمت الاجراءات الشكلية الاخيرة ومرقت السيارة في الريف الوادع غير النازى انفجرت الام باكية بين ذراعي زوجها ، فلم تكن مصدقة أن ذلك يمكن أن يحدث ٠

وقضوا الليل في مدينة ليبج حيث كان اول واجب على لاني ان يرسل برقيات لأمه وابيه وهانس وزلطان واميل وريك ٠ وفي الصباح استقلوا السيارة الى باريس ٠ ومن هناك اتصل تليفونيا بصديقه الملازم الاول فورت فينجلر ببرلين ما هي الاخبار عن فريدى روبن ؟ ورد الضابط بأن الشاب غير موجود في اى مكان تحت يد السلطات الالمانية ٠ الا اذا كان قد تسمى بأسم مستعار عند القبض عليه ، وهو امر كثيرا ما يحاولونه ولكنه قلما ينجح ٠ وقال لاني انه واثق بأن فريدى لاباعث لديه للاقدام على ذلك ٠ ووعد الملازم الاول بمواصلة البحث ، واذا تمخض البحث عن شيء فيرسل برقية الى لاني في عنوانه الدائم وهو جوان ليه بان بكاب دنتيب ٠ بفرنسا ٠

ووضع لاني المسماع وابلغهم ما سمعه ، وهو لايدل على شيء كثير بطبيعة الحال ٠ فقد عرف لاني منذ زمن طويل ان الدبلوماسيين يكذبون عندما يخدم الكذب اغراض دولهم ، والشرطة والمسئولون الآخرون

ينهجون هذا المنهج بعينه • ولدى النازيين يعتبر الكذب لمصلحة الحزب والنظام الحاكم عملا بطوليا • فما ذكره ياور جورنج يعنى فقط ان جورنج ان كان قد وضع يده على فريدى ففي نيته ان يحتفظ به فان اطلق سراحه في وقت ما قال بلا شك ان خطأ قد وقع لسوء الحظ •

وكانت بيوتى قد ذهبت الى لندن مع زوجها ضيفين على ليدى كيـار فأبرقت إلى لانى كى ياتى ليرى ان كان فى استطاعته الحصول على تلميحات مفيدة عن طريق السيدة • ولما كان الذهاب الى نيويورك من انجلترا سهلا كالذهاب اليها من فرنسا فقد قررا تنفيذ هذه الخطة ، الا أنهما أولا يجب أن يذهبا الى جوان لأن ايرما لا تستطيع أن تعبر المحيط من غير أن تحظى على الاقل بلمحة من ابنتها الصغيرة • وسيكون أيضا شيئا لطيفا ليوهانس وبيتس • وعلى وجه العموم كان لطيفا أن يتنقل الناس هنا وهناك مثـل الطيور الطنانة راشفين شهد البهجة من أيما زهرة تستلفت نظرهم •وفى الصباح التالى تكدس آل روبن الاربعة مرة أخرى فى المقعد الخلفى ، وفى المساء درجت بهم السيارة داخل أبواب ضيعة بيانفينى وسط ضجة من صيحات الابتهاج التى يتميز بها الاطفال ، أما اصوات « الباص » فكانت خافتـــة ، بسبب النعجة الضائعة التى ربما تكون الذئاب قد التهمتهـا الآن •

- ٦ -

ومرة أخـــرى حظى الزوجان بمظاهـرة من العـواطف الوالدية ، واحتضنت ايرما فرانسس الصغيرة مخالفة جميع اللوائح وكلمتها بلثغة الاطفال التى تعوق نضج كلامها ، وقدمت اليها اطعمة غير صحية واسهرتها الى ساعات متأخرة جدا • وقصارى القول انها أشاعت الفوضى فى جميـع أنواع التوقيت وأفسدت روح النظام عندها • بل وتحدثت عن اصطحاب جميع البطانة الى لونج ايلند لأن ذلك من شأنه أن يسر الجـــدة كثيرا • وعارض لانى فى ذلك قائلا ان الطفلة لديها كل ما يمكن لبنت الثالثـة لتحرص عليه حقا ، وهى الآن تستمتع بصحبة روبن الصغير • ولانى وايرما يعتزمان البقاء وقتا قصيرا هناك فلماذا يتكبدان كل هذه النفقات فى وقت لم يعد فيه شىء مضمونا ؟ ولانى يحاول على الدوام الاقتصاد فى ثروة بارنز ، غافلا عن أن المتعة الوحيدة التى تتيحها لك الثروة ألا تكون

مضطرا للاقتصاد · ولكن خطر له الآن انهم قد يضطرون لشراء فريدي واخراجه من المانيا ، فمن الذى يمكن أن يحدس ما الثمن ؟

وهو كذلك ، ستبقى ايرما يوما آخر ثم تنتزع نفسها انتزاعا · وشددت التوصيات على باب سمشت الحارس الجدير بالثقة ، وانتزعت الوعود من الآنسة سفيرا ان تبرق اليها عند اهون بادرة تدل على وعكة « أتدركين كم مليونا تمثلها هذه المخلوقة الصغيرة ؟ » ولم تقل ايرما هذا القول الفج بلفظة ، ولكنه كان المضمون الواضح لكل أمر من أوامرها وللظروف المحيطة بفرانس بامزيد · فالصحف تطلق عليها اسم « طفلة الثلاثة والعشرين مليونا من الدولارات » فطفلة الثلاثة والعشرين مليونا من الدولارات خرجت فى رحلة بحرية على ظهر يخت ، وجميع نفقات اعالة طفلة الثلاثة والعشرين مليونا من الدولارات كان من الممكن أن تجمع من رسم الدخول الذى يدفعه السائحون المتقاطرون لرؤيتها لو ان الترتيبات لذلك قد اتخذت ·

واجتمع رجال الاسرة على هيئة مؤتمر فى استديو لانى ولم يشأ يوهانس أن يخبر السيدات بما حدث له فى ألمانيا ، بيد انه أخبر يوهانس ولانى كيف أخذوه الى تكنات كتائب الهجوم فى بريمنهافن حيث تعرض لسلسلة من الاهانات المذلة التى يراد بها طبعا تحطيم روحه المعنوية ، فسقوه ملينات قوية جدا ، وأمتعوا أنفسهم باجباره على التبرز على سجناء آخرين أصيبوا بمحنته نفسها ، ثم قام الآخرون بتلويثه بدورهم ، الى ان صاروا جميعا غرقى فى نفايات امعاء كل منهم · وفيما هم يفعلون ذلك كان عليهم أن يهتفوا : عاش مستشار الرايخ المحبوب ! وكانت قمة التعذيب ان أكرهوهم على حفر خندق طويل وصفوهم أمامه بحيث يطلق عليهم الرصاص فيسقطون فى الخندق كما قيل لهم · وكان ذلك الاعدام أكذوبة تمثيلية ولكنهم ماتوا فعلا من الناحية النفسية ، وبلغ يوهانس عندئذ من الاعياء والرعب والالم انه رحب بالنهاية ، وقال انه لن يعود رجلا كسالف عهده ، ولكنه سيواصل الحياة من أجل أسرته وأصدقائه · أما لعبة جمع الثروة فلم يعد لها طعمها القديم · قال هذا ولكنه اردف فى حصافة ونظر ثاقب : « الا انها عادة ، وأحسبنى سأواصل السلوك على المنوال نفسه ، الا انى لا أخالنى سأكون سعيدا بذلك طبعا ·

وتحدثوا عن مشكلة المفقود وماذا يجب أن يصنع لأجله · وكان لانى قد وعد الا يذكر اسم هوجوبير ، ولم يذكره فعلا ، الا انه قال ان لديه عميلا سريا يعمل لحسابه وسيراسله على عنوانه بجوان ولذا يجب أن يفض

هانس جميع الرسائل التى يمكن أن ترد من ألمانيا فان وجد فيها شيئا ذا مغزى أبرق بمضمونه • وقال يوهانس ان هانس وبيس يجب أن يتخليا عن لذة عزف الموسيقى فى الاجتماعات الحمراء او القيام بأى عمل يعلن على الملأ مناهضتهما للنازية فهم ما زالوا أسرى جورنج ، وهذا بلا شك ما كان يرمى اليه جورنج •

وكان هانسى مفلسا لأنه وبيس انفقا كل نقودهما على اللاجئين وكان لا بد لهذا أيضا أن يتوقف • ولما كان لا فائدة من الاستسلام للكآبة والحزن فقد قرر هانسى أن يبرق الى وكيله فى نيويورك لتدبير جولة من الحفلات الموسيقية فى الولايات المتحدة فى الخريف • وحتى ذلك الحين ستفتح له ايرما حسابا فى بنكها بمدينة كان • وقالت ايرما مملية ارادتها ولكن تذكر : لا خمر ولا أحاديث حمراء بعد الآن !

وهكذا سويت جميع المشكلات وذات صباح مشرق انطلقت ايرما ولانى ومعهما يوهانس فى المقعد الخلفى وسط صيحات أخرى بالانجليزية والالمانية واللهجة اليهودية الالمانية ولكن الصيحات فى هذه المرة لم تكن لغاية فى السعادة • ووصلوا الى باريس وتناولوا العشاء مع زلطان كرتيزى، وفى الصباح ذهبوا الى ضيعة ليه فوريه وأخبروا اميلى شتروزورث بالقدر المسموح به من القصة ، وبعد الظهر رحلوا الى كاليه وهى المكان الذى تقترن به ذكريات مريرة ، ومن هنا ركبوا المعدية الليلية ودرجت بهم السيارة فى ريف انجلترا وهو فى أبدع شهور السنة ، ووصلوا الى فندق دور شستر فى أبهج المواسم جميعا •

كان السير فينيست كيار - وينطق اسمه على هذا النحو بالطريقة الفرنسية - أحد شركاء زهاروف منذ الايام الاولى عندما اشتريا معا مصانع فيكرز ، وبمضى السنين صار من أغنى رجال انجلترا • ومن العجيب أنه أيضا كان شاعرا ، ولحن أناشيد البراءة للشاعر بليك تلحينا موسيقيا ، وقد ترك كل هذه الاهتمامات لزوجته مع كتلة ضخمة من أسهم مصانع فيكرز • وبذلك حدث ان سيدة مسنة ذات شعر أشيب أقرب الى القصر شاحبة اللون لا يدل مظهرها على شىء صارت بيدها مقاليد السلطة فى لندن وركزت على شخصيتها اهتمام حشد من ذوى الاطوار الغريبة طائفة منهم مثاليون حقيقيون ، ولكن معظمهم نصابون حقيقيون • وكانت قد اشترت كنيسة كبيرة مبنية بالصخر فى شارع وست هلكن وحولتها الى بيت من أغرب البيوت التى تخيلتها المرأة : فالرواق العلوى للكنيسة أكمل بحيث يدور حول بنائها وقسم الى حجرات للنوم وحمامات واحتفظت

بالارغن ولكن عندما يعزف ترتج فواصل جميع الحجرات .. وفى الطابق السفلى قاعة استقبال ضخمة بها كنوز فنية تصلح لمتحف ومن بينها مجموعة فاخرة من الساعات تدق احداها كل ربع ساعة فتفتح واجهة الساعة ويخرج منها طائر من العاج والذهب ويشدو شدوا مطربا . ولدى كايار تجمع أيضا المقصات . وكل من يحضر الى ذلك البيت تقدم له على الفور نسخة من أشعار الزوج الراحل ونسخة أيضا من كتيب من تاليف الليدى عنوانه « السير فنسنت كايار يتحدث من عالم الارواح » . فان استطعت أن تبتكر نوعا جديدا من الاطراء لأحد هذين الكتابين سيكون ذلك بمثابة تذكرة لتناول الطعام بقية أيام حياتك ، أو على الاقل بقية أيام حياة الليدى كايار .

والسيد دنجل وزوجته والسيدة سيزنسكى كانوا متوارين بكل راحة فى بيت الرب السابق ، واتسع أمام بيوتى الوقت لجمع أطراف اللغط اللذيذ فيما يتصل بأحوال ذلك البيت . فلم يتوقف الا لاظهار واجب الاسى على فريدى ثم فتحت أمام ابنها اتجاها مثيرا حقا فى الحديث، فالليدى كيار قد أصبحت مؤمنة بالروحانية وتعيش محاطة تمام الاحاطة بالملائكة وكهنة النعمة على نحو ما كان وليم بليك يعيش فى أشد ساعاته تصوفا . وهى تأوى قطيعا من الوسطاء وقد تولى أحد الارواح الارشاد الى اختراع آلة اسمها « آلة الاتصال » ، وبها يستطيع السير فينسنت — ويسمونه فينى — أن يبعث برسائله الى زوجته المسماة « بيردى » وقد أقيمت هذه الآلة فى « البلفرى » وهو الاسم الذى أطلق على هذا البيت ، وباركها « الارشيدوق ويلبفورس » بقداس حسب الاصول المرعية ، ومنذ ذلك اليوم وحجرة عقد الجلسات المعروفة باسم « القاعة العليا » مخصصة لهذا الغرض وحده . وفى ساعة منتظمة كل مساء أربعاء يبعث السير فينسنت الى زوجته برسالة يوقعها ف . ب . ق . ومعناها « فينى وبيردى وقبلة » وقد تم تجميع هذه الرسائل الآن فى كتاب عنوانه « مفهوم جديد للحب » .

ولكن للاسف لم يستمر الحب مهيمنا بلا منازع على هذا المكان ذى القداسة المزدوجة ، فثمة وسيطة ذات حظوة جديدة بين الوسيطات ، وهى امرأة تكرهها الاخريات جميعا . وانخفض صوت بيوتى الى الهمس وهى تذكر ضخامة المبالغ التى تحصل عليها هذه المرأة . وكيف اقنعت فخامة الليدى أن تهب ثروتها الطائلة لقضية الروحانيات على أن تتولى الارواح ادارتها . ولليدى كيار ابنان يفتقران الى ايمان بالعالم الآخر ويريدان

أموال أبيهما لشخصيهما ، وتشاجرا مع أمهما فطردتهما من بيتها فوكلا المحامين واستنجدوا بسكوتلنديارد بلا جدوى ٠ ونشأ عن ذلك اضطراب فظيع ! ووسط هذا الغليان الشديد من العداوات والتحاسد جاءت مابل بلاكلس التى صارت بيوتى بد ثم صارت السيدة ديتاز ثم صارت السيد دنجل وهى شخصيا موضوع شكوك كثيرة ٠ وجاء أيضا زوجها الذى يحب النـاس ويعلم غـيره محبـة جميـع البشر بمـا فيهم المغامرات والابناء المورووثون ، وجاءت أيضا امرأة وسيطة بولندية لها اسم يستعصى هجاؤه٠ وبطبيعة الحال كان منظورا الى بيوتى على أنها طفيلية دساسة ، وعلى أن حب برسيفال دنجل رياء ، وعلى ان وساطة السيدة جهد تبذله لتحل محـل الاخريات ممن لديهن هذه الموهبة الغامضة ٠ وكانت بيوتى مسرورة جدا بهذا كله وكأنها طفلة تشهد فيلما من نوع الميلودراما وانطلق لســـانها يصيب التفاصيل المثيرة « والحقيقة يا أعزائى لن يدهشنى أن يحاول شخص ما دس السم لنا ! » ودلت لهجتها على أنها حرية أن تجد فى ذلك مغامرة بهيجة ٠

وكان ضيف من هذه الكنيسة العجيبة (سابقا) حامل وسامالليجون دونير من طبقة ضابط عظيم والفارس حامل وسام الحمام من طبقة كومندر ٠ وقد بدأ يظهر عليه التداعى فصار جلده بنيا ضاربا للصفرة وكان نسيجه من الورق ، ويداه ترتجفان بحيث صار يحرص على أبقائهما ملتصـقتين بجزء من جسمه ولا يحاول أن يكتب فى حضور أى انسان ٠ وغدا انحف بكثير من ذى قبل مما أبرز أنفه الشبيه بمنقـار النسر ٠ وكالعـادة نأى زهاروف بنفسه بعيدا عن جميع أنواع المشكلات ولم يتحيز لأحد الجانبين فى هذا الخلاف العائلى ، فاهتمامه محصور فى الحصول على رسائل الدوقة ، فهو قد يجلس بلا كلل فترة طويلة تمتد ما استطاعت الوسيطة الثبات ، بيد أنه لم يقطع برأى حتى الآن ، وقد كاشف لانى بذلك ، بأســـلوب مباشر بالاتجاه العام لأسئلته التى ظل يوجهها الى الشاب ٠

وكان مسموحا للانى ان يذكر أن صديقا شابا من أصدقائه انقطعت اخباره فى ألمانيا ٠ وعندئذ شرعت هذه الخلية من الوسيطات فى العمـل لافراز الشمع والشهد له ٠ واتضح أن معظم ذلك الشهد صناعى وتأكد لدى لانى أن انسانا ذا حيلة قد استطاع أن يخمن أن الشخص المفقود قريب ليوهانس روبى الذى ذكر اسمه فى الصحف منذ عهد قريب على أنه مفقود، ثم اذا به يحضر فجأة مع آل « بد » ٠ ولما كان هانس قد أدلى بتصريحات للصحف فى باريس حول هذا الموضوع ، فلا يمكن أن يكون هو القريب

المفقود ، ولما كان فريدى قد زار لندن فى المرة السـابقة ومعروف لدى جميع اصدقاء آل بد فليس من فرط البراعة واسـاءة معاملة اليهود . وهكذا بدأت الارواح تتدفق بالتفصيلات ، والمعضلة الوحيدة انه ما من روحين اتفقا على شىء له أهمية ، ولم تكن هنا سوى وسيطة واحدة يعرفها لانى ويثق بها وهى السيدة ، ولكن رقيبها الروحى تكومسه كان لم يزل غاضبا من لانى ولا يريد أن يجهد نفسه لأجله . وفى نيويورك كان هـذا الرقيب مستعدا أن يعيد جملا فرنسية مقطعا مقطعا اما الآن فهو يرفض القيام بهذه المهمة عينها بالنسـبة للغة الألمانية قائلا انهـا لغة أقبح مما ينبغى واصواتها لا يستطيع التلفظ بها لسان متحضر ، وناهيك بهـذا الكلام من زعيم احدى قبائل الهنود الحمر ! وقال تكومسه ان فريدى ليس موجودا فى عالم الارواح وان الارواح التى تحاول الكلام عن فريدى لايبدو أنها تعرف شيئا محددا وقد سئم تكومسه هـذا الموضوع حتى أنه كان يقول لجليسه « اأنت مزمع أن تسألنى عن الفتى اليهودى ؟ » مما هـدد بتدمير موهبة الوساطة لدى السيدة وحياتها العملية .

- ٨ -

كانت مرسلين قد دعيت لقضاء الصيف مع آل بوميروى نيلسن على سبيل التعويض عن الرحلة البحرية باليخت التى ضاعت عليها بقسوة . ومرسلين والفى كلاهما فى السادسة عشرة يزدادان طولا على النحو الذى يسميه الانجليز « أبو طويلة » وهى سن الشعور بالذات وعدم الاستقرار فثمة أشياء كثيرة تتغير فجاة فتربك عقلهما اليافع . ومع أصدقاء آخرين من سنهما كانا يلعبان متلهيين برسائل الحب الرقيقة وبلاغاته ويشعران بالجاذبية ثم يجفلان منها ، ويتغاضبان ثم يتصالحان ، ويتحدثان كثيرا عن نفسيهما ، أو يتحدث كل منهما عن الآخر ، ويتأهبان بوسائل شتى لمهمة الزواج الجدية . وقد تحاول مرسلين اغاظة الفى بالاهتمام بغيره من الفتيان . فهذا من حقها ، اليس كذلك ؟ أيجب عليها أن تقع فى الحب على النحو الذى توقعته أسرتها ؟ أى فكرة عتيقة هذه ؟ وبارونيت المستقبل يشعر بالزهو ثم الاسـتياء والغضب ثم التعاظم ، يشق عنان السماء بصيحات الفرح ، ويستولى عليه الحزن حتى الموت !

وحضرت ايرما ولانى بالسيارة لقضاء عطلة الاسبوع وليريا كيف تسير الامور ، فاذا كان هناك مكان عتيق بديع على شاطىء التيمس مريح

جدا بعد أعاصير العالم الراقي وتوتراته ، ولا سيما بعد برلين بأبنيتها العامة الضخمة التي يغلب عليها فساد الذوق ، وتماثيلها الفجة القاسية التي تشيد بالمجد العسكري . اما هنا في « الريتشز » فكل شيء وادع والنهر الصغير العجوز يبدو اليفا ودودا ، ومن المأمون أن يستقل المرء زورقا مسطح القاع فوق أديمه ، وهو انسب مكان للمحبين والشعراء . وهو هنا منذ وقت طويل وسيبقى في حين يظهر جيل بعد جيل من البارونات يشبون عن الطوق ويدرسون في المدارس المناسبة ويرتدون الثياب المريحة اللائقة ويقيمون « مسارح صغيرة» ويكتبون المقالات للصحف والمجلات الاسبوعية في اثبات ان البلاد على شفا البوار .

وكان هناك السير الفريد بقامته الطويلة وغرابة أطواره شيئا ما ، بيد انه انيس يفيض بحب الفكاهة وقد ابيض شعره أما شاربه فظل اسود اللون . وقال ان الضرائب الباهظة دمرته تماما الا انه مستغرق في جمع سجلات للدراما البريطانية في القرن العشرين لمتحف يموله صديق ثري . وها هي زوجته اللطيفة الرقيقة أشد مضيفات الدنيا اهتماما ورعاية . وها هي نينا تساعدها في ادارة ذلك البيت العتيق المبني من الطوب التامي على هواه ، فكل جيل يأتي بعد سابقه يضيف جزءا جديدا على غير هدى ، وفيه مدافيء كثيرة جدا ومداخن بحيث أن الخادمة الوحيدة في مدة الحرب تقضي معظم وقتها في حمل أوعية الفحم الى تلك المدافيء على اختلافها . هنا ثلاثة أطفال بديعو الشكل جدا تملؤهم الحيوية والسعادة الا انهم تربوا بحيث يبدون أهدأ من أي أطفال يمكن أن تجدهم في أمريكا . وثمة أخيرا الطيار السابق الاعرج الذي يعتبره لاني أعقل من الرجال . فهو الوحيد الذي يستطيع أن يتبادل معه الافكار بفهم تام . وريك له الحق في أن يعرف كل شيء عن مغامرة لاني في المانيا . فخرجا يتنزهان على النهر حيث لا يستطيع أحد أن يسمعهما أن تحدثا بصوت منخفض ، وهناك أخبره لاني بالقصة من بدايتها الى نهايتها وقد يكون من الافضل الا تسمعها نينا نفسها ، فثمة اغراء قوي لأي امراة تتحدث الى امراة أخرى ، وهكذا تنتقل القصة من امراة الى أخرى وسرعان ما تصل الى أذني صحفي . ويوهانس بعد كل شيء رجل هام ، وعملية نهب ثروته وسلبها يمكن ان تكون موضوعا نادرا في الصحف اذا ما عولج معالجة مناسبة .

وصدم ريك عندما عرف كيف سمح لاني لصحف برلين أن تنشر عنه أنه باحث عاطف على الاشتراكية الوطنية ، وقال له ان شيئا كهذا يمكن أن ينتشر ويلطخ لاني الى الابد ، ولن يستطيع أن يمحو هذه الوصمة ما عاش

او يستعيد الثقة به • فقال لانى انه لا يبالى ان مكنه ذلك من انقاذ فريدى• ولكن ريك صمم على أن المرء ليس من حقه أن يقدم على مثل هذه التضحية، فليست المسألة مسألة انقاذ فرد بل مسألة قضية ينبغى الدفاع عنهـا • فالاشتراكية يجب النضال فى سبيلها ضد تلك الوحشية البشعة التي سرقت اسمها وتهم ان تغتصب مكانها فى التاريخ • وكان لانى قد فكر فى ذلك ، ولكنه لم يفكر فيه كما يبدو بما فيه الكفاية ، فشعر بالم شـديد وقال : اسمع يا ريك • لا بد من جواسيس فى كل حرب • أليس كذلك ؟ فأجابه : « أظن ذلك » فقال لانى : « فماذا لو انى دخلت المانيـا وصرت صديقا لمن فى القمة هناك وحصلت على كل المعلومات السرية وارسـلتها اليك ؟ » فأجابه : « سيكتشفون الحيلة سريعا يا لانى » فقال : « أليس من الجائز ان أكون فى مثل براعتهم ؟ » فأجاب ريك : « أعتقد انها مهمة سمجة جدا » فقال لانى : « اعلم هذا ولكن كيرت • ثم أنك يجب أن تخدعه • فهل تظن أن هذا فى استطاعتك ؟ » فقـال لانى : بيوتى مصرة على اننى لن استطيع خداعه ، ولكنى أعتقد ، ان انا وجدت متسعا من الوقت كافيا وركزت ذهنى فى ذلك ، مستطيع على الاقل أن أبقيه فى شك من الامر • فلا بد أن أدعه يجادلنى ويقنعنى • وانت تعلم أن لدى مبررا نادر الجودة للذهاب الى هناك ، فانا خبير فى الفنون ، ولدى المانيا الشيء الكثير منها تبيعه • وسييسر لى ذلك مقابلة شتى صنوف الناس فاتمكن من جمـع الادلة على جرائم النازى وفى استطاعتك أن تسجلها فى كتاب » فأجابه : « لقد تحقق هذا بالفعل ، وسيسرك أن تسمع بذلك » • وكاشفه ريك بأن جماعةمن ؟ أنصار الانجليز مشغولون بتجميع المادة لعمل يسمونه الكتاب البنى فى الارهاب الهتلرى ، وهو الآن تحت الطبع وسينشر قريبا وفيـه تفصيلات مصرع مائتين أو ثلاثمائة شخصية بارزة من المثقفين والخصـوم السياسيين لنظام النازى • فقال لانى : « ستكون ثمة امور اخرى تستطيع التسجيل • فان عدت الى المانيا بسبب فريدى فساحصل على ما استطيع من الوقائع وسيكون الراى لك فيما يمكن أن تستخدمها فيه » •

- ٩ -

لم يذكر اسم عميله الالمانى هوجوبير ، ولكنه كان حرا فى الكلام عن حركة الجناح اليسارى فى داخل حزب النازى كان يخالها ذات أهميـة عظيمة لدلالتها على صراع الطبقات فى صورة جديدة غريبة فهى الحرب بين

الواجدين والفاقدين ، تلك الحرب التى ليس فى الامكان اقصاؤها عن أى جزء من المجتمع الحديث • ان الزعيم قد يخون حركة شعبية ، ولكن فى استطاعته ان يجرف معه أتباعه ؟ كثيرون فى المانيا يظنون أن هتلر يستطيع ان يسوق حزبه حيث يشاء ، ولكن لانى يرى خلاف ذلك ، وقال ان هتلر حساس بصورة خارقة لضغط اتباعه ويخف للاحتفاظ بالسبق والصدارة حيثما صمموا على المضى وهو قد حصل على المال من أكبر رجال الصناعة ، ويوهانس يصر على انه رجهلم ، ولكنى اعتقد أنه قد يخدعهم ويثبت فجاة الى اتجاه ليست لديهم عنه فكرة فقال ريك : « أليست هناك قوة ثالثة هى الجيش ؟ أيستطيع أحد فى المانيا أن يصنع شيئا بدون موافقة جيش الرايخ ؟ »

واخبره لانى بحديثه مع اميل ومع شتوبندروف وكلاهما اتفقت كلمتهما على طاعتهما للحكومة بكل ولاء فقال ريك : « أما اميل فنعم لأنه مرءوس • ولكن هل يخبرك شتوبندروف فأفكاره الحقيقية ؟ حدسى انه وجماعته من اليونكر سيخدمون هتلر ما دام هتلر يخدمهم ، أى يعيد تسليح المانيا ويعيد دانزنج والاقاليم المفقودة الى أرض الوطن » فوافقه لانى قائلا : « طبعا فشتوبندروف يفكر أولا فى أملاكه • أما ما سيصنعه بعد ذلك فلا أعلمه » فأصر ريك قائلا : « جميع الالمان يضعون جيشهم أولا• والديموقراطيون الاشتراكيون قاموا بالثورة بمساعدة عامة الجند ، ولكنهم تحولوا على الفور الى أسرى لطائفة الضباط ولم يحدثوا قط تغييرا حقيقيا فى رقابة الجيش • ووزير مالية الجمهورية كان لا بد دائما أن يكون مرضيا عنه من جيش الرايخ • ومهما تحدث السياسيون عن الاصلاحات الاجتماعية فلا يمكن أن ينتقصوا من الميزانية العسكرية » •

واصغى ريك لكل ما قاله صديقه ووجه اليه اسئلة كثيرة ورفض أن يصدق أن هتلر يمكن أن يدفع أو يجر الى اليسار • وقال : « ما من ثورى تحول محافظا وارتد ثوريا بعد ذلك » • واردف بابتسامة كالحة : « فهو قد عرف اليسار معرفة جيدة وجعل لنفسه أعداء أكثر مما ينبغى بين أهل اليسار » فسأله لانى : « الن يرشد الى اليسار ان راى موجة أخرى من التمرد فى الطريق ؟ » فأجابه : « لن يراها لأنها لن تأتى • فموجة واحدة فيها الكفاية لجيل واحد • وشتراسرورهم وصديقك هوجو قد يشقون حناجرهم بالصراخ والهتاف ، ولكن متى طلب اليهم أدولف أن يسكتوا سكتوا • وفى اعتقادى ان أى تأميم يقوم به ادولف فى المانيا لا بد ان يزيد الحزب النازى قوة ويمكنه من تحطيم معاهدة فرساى بسرعة اشد وبصورة مؤكدة •

صار مؤتمر تحديد التسليح فى حكم الميت بعد أكثر من سنة من الجهود العقيمة ولكن الامم لم تستطع أن تتخلى عن وقف الانهيار العام ، فاجتمع الآن ست وستون أمة فى مؤتمر الاقتصاد العالمى • وهو منعقد فى جنوب كنسنجتون بالطنطنة المعتادة عن حل جميع المشكلات وريك الذى يرتاب دائما فيما يسميه السياسة الراسمالية قال ان هذا المؤتمر محاولة من بنك انجلترا للعودة الى قاعدة الذهب بتاييد من الامم المتحدة وفرنسا وسويسرا وهولنده والامم القلائل التى لم تزل محكومة بالطبقات الدائمة• وفيما كان لانى يرقب ذلك الاستعراض ويجدد معرفته القديمة بالصحفيين، أصدر الرئيس روزفلت بيانا يرفض فيه الارتباط بهذا البرنامج الذهبى ، فاطلقوا على تصرفه هذا عملية « نسف » للمؤتمر الذى اقتفى على الفور أثر المؤتمرات الاخرى فى جبانة التاريخ •

وعاد اللورد ويكتورب الى الوطن وكله رغبة فى رد الضيافة التى نعم بها فى باريس ، ولا سيما بعد أن علم ان صديقيه الامريكيين عادا لتوهما من المانيا حيث قابلا نفرا من أقطاب النازى • ودعى الزوجان الشابان لقضاء بضعة أيام فى قلعة ويكتورب وهى من معالم انجلترا ، مبنية بالحجر الرملى البنى ، والجزء الاوسط منها له برجان عظيمان فيهما فتحات وشرفات ويرجع تاريخهما الى أيام أسرة تيودور ، ثم أضيف جناحان ممتدان من الى الخلف على عهد الملكة آن لكن مع المحافظة على وحدة الطراز المعمارى • وأشجار البلوط العتيقة صروح للديمومة الانجليزية والثبات والتماسك ، والاجزاء المزروعة بالعشب تحتفظ بخضرتها بفضل الامطار والضباب الذى يأتيها من بحار عديدة ، وتحتفظ بنعومتها قطعان الاغنام القصيرة المكتنزة • وقد فتن هذا المكان أيرما وسر مضيفها بسذاجة ثنائها ، وعندما سمعت أن الضيعة لابد من تقسيمها وبيعها قطعا لسداد الضرائب عدت ذلك من الكوارث الكبرى التى سببتها الحرب الاخيرة •

والليدى ويكتورب الوالدة تدير البيت لابنها الاعزب وثمة اخ أصغر كان لانى قد قابله عند ريد وقد تزوج فتاة أمريكية عرفتها ايرما فى مجتمع المقهى ، فكانت المجموعة أشبه بمجموعة عائلية يسودها اليسر وعدم التكلف الا أنها تتصف بالوقار والهيبة • واسهل بكثير على المرء أن يدير ضيعة وبيتا فى انجلترا حيث كل شىء أشبه بساعة جدى التى تملؤها فتسير من تلقاء نفسها لثمانية أيام بل ثمانية أعوام أو ثمانية عقود •

ولا وجود لمشكلة الخدم لان أتباعك يولدون ولا يصنعون ، فالابن الكبير لراعي غنمك يتعلم كيف يعني بغنمك ، والابن الاكبر لساقيك يتعلم السقيا · وجميع رحماء الخدم مخلصون يوقرون سادتهم · وهذا على الأقل هو المفروض · فان قصر شيء دون الكمال تم اخفاؤه بعناية · ورأت ايرما ذلك بديعا الى ان اكتشفت أنه ينتظر منها استحمام شخصها الثمين في حوض من التصدير المطلى أحضرته اليها الخادمة ومن ورائها خادمتان اخريان تحملان أوعية كبيرة بها ماء حار وماء بارد · وبعد تمام هذه المراسم سالت زوجها « يالاني · كم تظن أدخال السباكة الحديثة الى مكان كهذا يمكن أن يتكلف ؟ » فاجابها باسما « على غرار اكرز ؟ » مشيرا الى ما في حجرة حمامه هناك من أدوات من الفضة الخالصة والى أدوات حمام أيرما من الذهب الخالص ·

فقالت « بل أعني النحو المعتاد في بارك أفينيو » فسالها « اتفكرين في شراء هذه القلعة ؟ » فردت عليه بسؤال آخر « أتعتقد أنك ستكون سعيدا في انجلترا ؟ » فرد عليها مراوغا بدوره « أخشى أنك لن تستطيعي الحصول عليها ياحبيبتي · فلابد أنها موقوفة » واكد لها بوجه جاد أن كل شيء هنا لابد أن يسلم للورثة سليما لم يمس ، لا الابراج واشجار البلوط ومساحات الحشائش فحسب ، بل وايضا الخدم والغنم ووسائل الاستحمام

- ١١ -

وكان الجيران يأتون للزيارة بين حين وآخر فيصغي لاني لرجال الطبقة العليا وهم يناقشون مشكلات عالمهم وعالمه · ولاسبيل الى اقناعهم باخذ ادولف هتلر وحزبه ماخذ الجد الخالص ، فهو على الرغم من فوزه لم يزل ذلك المهرج العجيني موجه الخطيب الجعجاع الهستيرى على نحو الخطباء الذين تسمعهم في هايدبارك بعد ظهر أى يوم من أيام الأحد · وسماه أحد سادة الريف هؤلاء « مبيض منازل قفز الى السلطة فجأة » آسفين لوجود معارضة فعالة لفرنسا في القارة الاوربية ، فقد كان يضايقهم الى حد كبير أن يروا تلك الجمهورية الرثة من السياسيين تتربع فوق قاعدة الذهب في حين اقصيت عنها بريطانيا بصورة شائنة · وأبدوا اهتماما بوصف لاني لأدولف ، بيد أنهم كانوا أشد اهتماما بوصف جورنج الذى كان طرازا من الرجال يستطيعون فهمه · وبصفته وزيرا للرايخ توجه

الى جنيف وعرض بشـدة حق المانيا فى المساواة فى التسـلح ، وأخذ ويكتورب بشخصيته القوية ، وأثار اهتمامه أن يسمع عن شبل الاسد الذى أخذه من حديقـة حيوانات برلين ، وعن سـتائر المخمل الذهبية الجديدة فى قاعة الاستقبال بالمقر الرسمى لرئيس وزارة بروسيا .

وقال لانى : « المهم أيها السادة أن تتذكروا أن جورنج قائد سرب جوى . وان اعادة التسلح عنده سيكون معناها أساطيل من الطائرات ، وستكون كلها جديدة ومن طراز أدخلت عليه التحسينات » .

وكان أريك فيفيان بوميروى نيلسن الطيار السابق قد ألح كثيرا فى الكلام على هذه المسألة ، ولكن لانى وجد من المستحيل أن يثير بها اهتمام ممثل وزارة الخارجية البريطانية . ففى نظره أن الطائرات شأنها شأن هتلر ، أى أنها شىء على غير أساس ، شىء مبتذل ، مظهرى ، ويدل على ذوق فاسد . ان بريطانيا تسيطر على البحار ، وتعزز سيطرتها ببوارج القتال المهيبة المتينة التى تزن كل منها خمسة وثلاثين ألف طن وتتكلف عشرة أو عشرين مليونا من الجنيهات . وقد كتب اميرال امريكى عن تأثير السيطرة البحرية على التاريخ ، وقرأت الامبرالية البريطانية هذا الكتاب ، وهذا ثناء نادر وجهته الامبرالية البريطانية الى أبناء العمومة الذين برزوا فجأة عبر البحر ، وقد صارت استراتيجيتهم العالمية قائمة على هذا الاساس واذا حاول أحد أن يناقشهم ردوا عليه وكأنهم ينفجرون متغنين بأنشودة « بريطانيا ليست بحاجة الى حصون ولا أبراج على طول المدى ! » .

واصغت ايرما للمناقشات وبعد ذلك تحدثنا بشأنها هى ولانى أثناء عودتهما بالسيارة الى لندن واكتشف لانى أنها متفقة فى الرأى مع مضيفها اكثر من اتفاقها مع زوجها . فقد تأثرت بصورة لا تقاوم بوقار هذه الأمة الجزرية ورسوخها وثقتها بنفسـها ، وأيضـا باللورد ويكتورب باعتباره النمط الكامل للسيد الانجليزى . ولم يكترث لانى لانه تعود أن يخالفه الناس ولا سيما أعضاء أسرته . وعندما ذكر الموضوع عرضا لامه أكترثت جديا وقالت « الا يخطر لك أنك تأخذ الشىء الكثير مأخذ التسـليم ؟ » فسألها « ماذا تعنين أيتها الحبيبة العجوز ؟ » فأجابته (خذ نصيحتى وفكر جديا فى أمر ايرما ، فانت تسبب لها من الشقاء اكثر مما يخطر ببالك) فسألها (أتعنين من أخالطهم من الناس ؟) فقالت (بهؤلاء وبالافكار التى تبديها لجلسائك وجلساء زوجتك) فقال « ولكنها يقينا ياعزيزتى لا يمكن أن تتوقع منى أن أتخلى عن معتقداتى السياسية ثمنا لسعادتها » فقالت « لست أدرى لماذا لا تتوقع ذلك منك على أعتبـار أننـا جميعا نعتمد على

مساعدتها المالية الى حد كبير » فقال لانى « على رسلك ! فى وسعى دائما ان أعود الى بيع الصور » .

فقالت « واها لك يا لانى . انك تقول شيئا فظيعا ! » .

وخطر لها أنها هى التى بدأت الفظاعات . ولكن لا جدوى من مصارحتها بذلك ، فقال « أبشرى أيتها العزيزة العجوز . فسوف آخذ زوجتى الى نيويورك على الفور » فقالت « لا تعول على هذا اكثر مما ينبغى . واياك أن تنسى أنك تملك كنزا ، والكنز يقتضى منك كثيرا من الاهتمام وشيئا من الحراسة » .

الـكتاب الخامس

وهكذا تكون نهاية العالم

الفصل الحادى والعشرون

باسم الصداقة

- ١ -

قدرت ايرما ولانى أن مشاعر فانى بارنز ستصاب بجرح لأنهما لم ياتيا معهما بسميتها الصغيرة لتراها • ولتعويضها على ذلك ابرقا اليهـا انهما سيأتيان الى شوراكرز أولا • وكانت الملكة الوالدة فى انتظار الباخرة ومعهما سيارة كبيرة • وأول ما حرصت على معرفته أنباء حفيدتها العزيزة، وبعد ذلك ماذا كانا بالله يفعلان طيلة هذا الوقت فى المانيا ؟ ان كل انسان يفيض بالاسئلة عن أرض هتلر ، وهذا ما تبين لهما ، فعلى مسافة ثلاثة آلاف ميل كانت المانيا تبدو للناس وكأنهـــا هوليوود ، وما أقل الذين استطاعوا حمل أنفسهم على الاعتقاد بأن ما يقال عنها حق • وكانت الصحف مصممة على معرفة ما حدث لقطب يهودى المانى من أقطاب المال فاستقبلوه على رصيف الميناء ولما رفض الكلام حاولوا الاتصال بكل شخص يعرفه ولكن جهودهم ذهبت سدى •

وفى شور اكرز كانت الأمور ماضية على نهجها المعتاد ، فالمستخدمون فى الضيعة يقومون بأعمالهم نفسها كسابق العهد ولكن بلا أجر • الا أنهم كانوا شاكرين ابقاءهم على قيد الحياة وثمة سبعة عشر مليونا من المتعطلين فى البلاد • أما أصدقاء ايرما فكانوا يضـــــعون الخطط للقيام بالجولات المعتادة الى شاطىء البحر والجبال ، ومن لم تزل تصرف لهم حصص الاسهم يقومون بدور المضـــيف لمن لاتصرف لهم حصص ، وهكذا تمضى الأمور بالنسبة لكل انسان • وكان ثمة اعتقاد عام بأن الأعمال بدأت تنتعش أخيرا • وقد أضيف فضل هذا الانتعاش الى روزفلت • ولم يتحدث عن

الديون التى تكبدتها الحكومة سوى نفر صغير من غلاة المتشددين مثل روبى بد جعلوا يتساءلون متى سيتم الوفاء بها وكيف ، فمعظم النـــاس لا يريدون الوفاء بالديون اطلاقا ويقولون ان هذا ما جر البلاد الى المتاعب. وطريق الخلاص أن تقترض وتنفق ما تقترضه بأسرع ما يمكن . ومن وجوه الانفاق الجعة ، فروزفلت قد سمح للناس بشرائها بدلا من صـــنعها فى أحواض حماماتهم .

وحضر روبى الى المدينة بموعد محدد ، وفى مكتب ادارة املاك بارنز جلست معه ايرما ولانى فى مؤتمر للاشتراك مع العم جـــوزيف بارنز ورجلين آخرين من الأوصياء على ثروتها ، وكانت مع روبى حقيبة أوراق حافلة بالأرقام التى تبين حالة مؤسسة بد لصناعة الأسلحة وقائمة بأعضاء مجلس الادارة الموالين له وانصبة التصويت التى يسيطر عليها والأنصبة الاخرى التى يستطيع شراءها وأثمانها . وقدم الأوصياء قائمة بأقل مالديهم عائدا ، وراحوا يزنونها بأدق الموازين . وبمقتضى الوصية ، من حق الأوصياء أن يقولوا لا ، ولكنهم أدركوا أنهم بصدد مسألة عائلية ، وأنه من المرغوب فيه أن يكون حمو ايرما رئيسا لمؤسسة صناعية كبرى . ثم أن ايرما نمت وصارت سيدة تعرف ما تريد وتعبر عنه بأسلوب العهـد السابق على انشاء الرقابة البرلمانية على خزانة الدولة . فقد قال لهـا عمها جوزيف محذرا : « لا جدوى من الدخول فى العملية ما لم تدخليها بثقل كاف يكفل لك الكسب » فقالت ايرما باقتضاب : « طبعا . ليست لدينا اية فكرة عن عدم الكسب » وهكذا تكون الدولة أنا ! فقال عمها : « ان دفعت أكثر من سعر السوق فى أسهم بد فمعنى ذلك أنك ستخفضين راس مال املاكك ، لأننا سنسجل هذه الأسهم فى حساباتنا بسعرها فى السوق » فقالت ايرما : « سجلوها على أى وجه شئتم . فانى أريد لروبى أن ينتخب » فقال عمها مستر بارنز على استحياء : « ان فى وسعك طبعا أن تعوضى نقص رأس المال بتقليل نفقاتك فترة من الزمن » فوافقت جلالتها قائلة : « وهو كذلك . ولكن على أن يكون أوان ذلك حينما تكفل لى مزيدا من الدخل » .

- ٢ -

توجه يوهانس الى نيوكاســـل لزيارة آل روبى بد . وكان لدى مؤسسة ر . ر مشكلات كثيرة يتحدثان فيها ، وعندما وصـــلت ايرما

ولانى كان الاثنان غارقين في العمل ، لأن روبى يعتبر يوهانس أبرع بائع عرفه في حياته بلا منازع ، وهو مصمم على أن يجعل له مكانا فى مؤسسة بد • فان كسب روبى صار يوهانس الممثل الأوربى للمؤسسة ، وان خسر روبى صار يوهانس مساعدا لروبى على أساس المشاركة بصورة معينة • ولدى روبى عقد مع الشركة لا يزال ولن تنقضى مدته قبل نحو ثلاثة أعوام ومن حقه بمقتضاه أن يتقاضى عمولات على جميع المبيعات فى البلاد الواقعة فى اختصاصه • وقد وضع روبى هذه الأمور أمام صديقه بلا تحفظ • والدافع له الى ذلك طبى نفسى بقدر ما هو مالى ، فهو يريد أن يخرج يوهانس من شعوره بالأسى والكآبة ، وسبيل ذلك أن يدفع به الى غمار العمل •

واردف روبى : « هذا طبعا بشرط أن تبقى لنا بقية من الأعمال » فقد كانت امريكا تعانى من انتفاضة حارقة تعرف باسم « العهد الجديد » فى التعامل ، وهو ما يصفه روبى بأنه « حكومة أساتذة الكليات وتلاميذهم المتخرجين » فراحوا يقلبون البلاد رأسا على عقب •• وأنشئت أسواق جديدة للسلع عن طريق اقتراض المال ممن يملكونه واعطائه لمن لا يملكونه وجانب من العاطلين استخدموا فى تجفيف المستنقعات لزراعة الحاصلات فى الوقت الذى يشتغل فيه جانب آخر منهم بحفر المستنقعات لايواء البط البرى • وهلم جرا طيلة الوقت الذى يجد فيه روبى « بد » انسانا يصغى اليه •

وقد سر جميع من فى نيوكاسل بمرأى الزوجين الشابين مرة أخرى فيما عدا العم لوفورد الذى لم يذهب لرؤيتهما • والمكان الوحيد الذى رأياه فيه من قبل هو الكنيسة ، والآن سيقضى لانى وايرما صباح الأحد فى لعب الجولف او التنس بعد أن أخلى الجد الطريق • ولكن أتراه حقا أخلى الطريق؟ يبدو أنه لا يستطيع الوصول اليهما الآن الا اذا ذهبا الى وسيطة روحية ! وقال لانى : « كم اود أن أجرب النوم فى فراشه ليلة واحدة لارى هل سأسمع دقا » فقالت ايرما : « يا لها من فكرة فظيعة ! » فقد بدأت تعتقد بالأرواح نصف اعتقاد فهذه النظريات العويصة عن العقل اللاواعى لم تؤثر فيها كثيرا لأنها ليست واثقة بأن لديها عقلا لاواعيا •

وبدأت رحلات اللهو وجولاته المعتادة فتوجها بالسيارة الى مين وبعدها الى أديروند اكس فكثيرون جدا من الناس كانوا يريدون رؤيتها • وهؤلاء هم اصدقاء ايرما القدامى من الشبان اللاعبين المراحين ، وقد ألفوا غرابة أطوار زوجها ، فان أراد أن يعزف على البيانو عزفا صاخبا وهم يلعبون

البريدج فلا بأس وسيغلقون الأبواب بينهم وبينه · ولم يعد يتكلم بأسلوب « وردي » كسابق عهده ولذا استقر لديهم أنه بدأ يثوب للرشد · أنهم يمارسون الالعاب ويقودون السـيارات والزوارق الشراعية فيسبحون ويتغازلون قليلا ، وبعض الأزواج يتشاجرون ، وبعضهم الآخر يتبادلون الشركاء على المنوال الذى كان متبعا فى راس المربعات قديما ، الا أنهم جميعا اتفقت كلمتهم على أن يتركوا من هم أسن منهم يقلقون ويحملون الأعباء · « اننى ينبغى ان أقلق ولكننى أترك جورج يقوم عنى بذلك » وهكذا كان شعارهم فالفضيلة التى لا غنى عنها أن يكون لديك مال طائل · أما ان تذهب للعمـل فتلك هى الكارثة التى لا تتصور · وقالت ايرما بعد زيارة أمتعتهما فيها كاتب مسرحى وجيه جدا بحديث متألق « لانى ! ··· ألا تظن انك مستطيع أن تتحمل الاقامة هنا جانبا من الوقت على الأقل ؟ » وكانت تريد أن تضيف الى ذلك « بعد أن أصبحت الآن أكثر تعقلا » فهى لا تعتقد حقا أنه غير معتقداته السياسية ، ولكنها تجد المال أفضل بكثير وأوفق عندما يكتم هذه المعتقدات · فان داوم على ذلك مدة كافية صارت المسألة عادة · وعندما مرا بنيويورك لم يزر مدرسة راند لعلم الاجتماع ولا أى معسكر من تلك المعسكرات الصيفية التى يحتشد فيها عدد كبير صاخب من الناس ومعظمهم عمال من أصل يهودى وكأنهم لكثرتهم نحل فى خلية · وقد كان يخشى أن يكون هؤلاء « الرفاق » قد علموا بما نشر عنه فى الصحف النازية ، وخشى أيضا أن يقوم عملاء النازية فى نيويورك بتبليغ جورنج · فبقى مع زوجته وصنعت هى أقصى ما فى وسعها لتكون كل ما تستطيعه امراة لرجل · وأفلحت هذه السياسة شهرا ، الى أن كان ذات صباح فى شوراكوز على أهبة الاستعداد لرحلة بالسيارة الى معسكر فى « تاوزند ايلندر » فاذا لانى يدعى الى التلفون ليتلقى نص رسالة برقية جاءت من « كان » بتوقيع هانسى وهى خطاب غفل من التوقيع لم يمكن التثبيت من مرسله وعليه ختم بريد برلين ونصه فريدى فى « داخاو » ·

- ٣ -

وكانت أمتعتهما قد أعدت ورتبت فى السيارة المنتظرة أمام واجهة القصر وايرمامنصرفة الى اللمسات الأخيرة فى وجهها حين وقف لانى أمامها وعلى وجهه تقطيب التفكير قائلا : « لست أدرى يا عزيزتى كيف يمكننى أن أمضى فى هذه الرحلة بالسيارة » وكانت تعرفه جيدا بعد أربع سنوات من الزوجية فحاولت الا تظهر خيبة أملها وسألته « وماذا تريد بالضبط

ان تصنع ؟ » فاجابها « أريد ان افكر في كيفية مساعدة فريدي » فسالته « اتظن ان الخطاب من هوجو ؟ » فاجابها « لقد افهمته بوضوح أن يوقع باسم بوكلن ، فاعتقد أن الخطاب لابد أن يكون من أحد رفاق فريدي وهو شخص على علم بأننا ساعدنا يوهانس ، أو لعله شخص غادر « داخاو » » فسالته « الا تظن أنه يمكن أن يكون ملعوبا ؟ » فاجابها « ومن عساه يهدر طابع بريد ليلعب علينا ملعوبا كهذا ؟ » ولم يسعفها ذهنها بجواب فسألته « الم تزل على اعتقادك بأن فريدي أسير جورنج » فاجابها «يقينا · لانه ان كان في معسكر الاعتقال فجورنج يعرف انه هنـاك ، وكان يعرف ذلك عندما اخبرني فورت فنجلر أنه لم يستطع العثور عليه · وقد أمر بارساله الى ذلك المكان البعيد عن برلين كي يصعب علينا العثور عليه » فسألته « اتظن انك مستطيع أن تاخذه من تحت يد جورنج · ان كان جورنج غير راغب في اطلاق سراحه ؟ » فاجابها « ان ما في ذهني هو أننا ينبغي أن نفكر في الف شيء قبل أن نوقن بأحسن وسيلة للعمل » فقالت له « هذه مهمة فظيعة قذرة يا لاني » فقال « أعلم ذلك يا حبيبتي ولكن ماذا نستطيع غير ذلك ؟ ليس في وسعنا أن نمضي في الاستمتاع والتلهي رافضين التفكير في صديقنا · و « داخاو » مكان مرعب أشك في أن له نظيرا في فظاعته في العالم كله اليوم · الا أن يكون ذلك معسكرا آخر من معسكرات النازي· ثكنات متهدمة لا تصلح اطلاقا للسكنى حشر فيها نحو الفين أو ثلاثة آلاف شخص حشرا · وهم لا يبقونهم هناك سجناء فحسب بل يصنعون بهم ما قاله لي جورنج بفمه ، الا وهو استخدام العلم الحديث في تدميرهم جسدا وعقلا وروحا · انهم العقول والقرائح في المانيا وهم بسـبيل تحطيمهم بحيث لا يستطيعون بعد ذلك القيام بأي عمل ضد نظام النازي » فسالته « اتصدق ذلك حقا يا لاني ؟ » فاجابها « اني موقن من ذلك يقيني من أي شيء في أحوال البشر ، فقد لبثت أدرس هتلر وحركته اثنتي عشرة سنة ، وأنا حقيقة أعرف شيئا عن هذه الحركة » فقالت : « ما أكثر الأكاذيب يا لاني ، فالمشتغلون بالسياسة يكرهون أعداءهم ويبـالغون ويختلقون المفتريات » فقال : « أنا لم الفق كتاب كفاحي ، ولا القمصان البنيـة ولا أعمال القتل التي يرتكبونها ليـلة اثر ليلة فيقتحمون بيوت النـاس ويطعنونهم أو يطلقون عليهم الرصاص في فراشهم أمام أعين زوجاتهم وأطفالهم أو يجرونهم الى ثكناتهم ويضربونهم حتى يفقدوا الرشد » فقالت: « لقد سمعت هذه الحكايات الى أن غشيت نفسي · ولكن في الجانب الآخر أيضا رجال بهذا العنف ثم كانت هناك استفزازات على مر السنين والحمر فعلوا هذه الأفاعيل بعينها في روسيا وحاولوا أن يفعلوها في المانيا ·· »

فقال لاني : « ولكن الشيوعيين ليسوا هم الذين يعذبون هناك وحدهم يا عزيزتي ، فهناك أنصار السلام والاحرار بل ورجال الكنيسة • والمثاليون الودعاء وأنت بالتأكيد تعلمين أن فريدى ماكان ليؤذى كائنا حيا » •

- ٤ -

ووضعت ايرما من يدها فرشاة الزينة الا أنها ظلت جالسة على المقعد الصغير المستدير أمام مائدة زينتها ، وكانت لديها أشياء كثيرة أجلت التصريح بها منذ وقت طويل • والآن فيما يبدو حان الوقت لتريح ذهنها من هذه الناحية فشرعت تقول : « فى وسعك أيضا أن تنتهز هذه المهلة لتفهمنى يالانى • فان كنت تنوى الغوص فى أمر كهذا فيجب ان تعرف شعور زوجتك من هذه الجهة » فأجابها بلطف « طبعا يا عزيزتى » فقد استطاع أن يخمن ما ستقوله بعد ذلك • وقالت : « اجلس » فلما اطاعها استدارت لتواجهه وقالت : « تقول ان فريدى مثالى وانك مثالى وهى كلمة اراك شغوفا بها ، وهى كلمة لطيفة جدا ، وكلاكما فتى بديع ولا يمكنكما أن تؤذيا أحدا أو شيئا على وجه الأرض • وانت تصدق ما تريد أن تصدق عن الدنيا ، وما تريد أن تصدقه هو أن الآخرين مثلك طيبون رحماء غير أنانيين ، فهم بأيجاز مثاليون • ولكنهم ليسوا كذلك بل هم أهل حسد وبغضاء وطمع وتلهف على الثار ويريدون القضاء على الملاك ومعاقبتهم على جريمة يسر حياتهم يسرا أكثر ممـــا ينبغى • هذا ما فى قلوبهم ، وهم يترقبون الفرص لتنفيذ مخططاتهم وعندما يلتقون بكم معـاشر المثـاليين يقـولون هؤلاء طعامنا ! ويداجونكم بالحيلة ويعاملونكم معـاملة المغفلين ويأخذون نقودكم لبناء ما يسمونه حركتهم • وأنتم تخدمونهم بمساعدتهم على بث الألغام وتدمير ما تسمونه الراسمالية • وهم يسمونكم الرفاق ما استطاعوا استخدامكم ولكنكم فى أول يوم تجسرون على الوقوف فى طريقهم أو التدخل فى خططهم فسينقلبون عليكم كالذئاب • الا تعلم أن هذا حق يا لانى ؟ » فأجابها : « هذا حق بالنسبة لكثيرين لا شك عندى » فقالت : « وستجده يصدق على كل واحد منهم عندما يحين أوان تكشف النيات الخفية • أنتم واجهتهم وستارهم الخادع• أنت تحدثنى بما سمعته من فم جورنج ، وانا أحدثك بما سمعته من فم الحال جيسى لا مرة واحدة بل مائة مرة ! وهو يقول مازحا ولكنه يعنيه لأنه برنامجه • ان الاشتراكيين سيقومون بثورتهم السلمية وعندئذ ينبرى الشيوعيون ويأخذونهـــا من

أيديهم انتزاعا. وسيكون ذلك سهلا لأن الاشتراكيين ظرفاء رقيقون. انهم مثاليون ! وقد رأيت ذلك يحدث في روسيا ثم فى المجر . ألم أسمع بأذنى كارولى يحدثك بذلك ؟ » فقال « نعم يا عزيزتى .. » فاستطردت « بغمة قال لك ذلك ! ولكن ما قاله لم يكن له وزن كبير لديك لأنه ليس ما تريد أن تعتقد أن كارولى سيد مهذب ذو نفس نبيلة ـ ولست أتهكم ـ فقد حظيت معه بحديث طويل وأنا واثقة بأنه من أسمى العقليات التى عاشت على وجه الأرض .. كان نبيلا يملك الضياع ، فلما رأى الخراب والفاقة بعد الحرب أعطى ضياعه للحكومة وما من انسان يستطيع أكثر من ذلك . وصار رئيس الوزارة الاشتراكية في المجر وحاول أن يحدث تغييرا سلميا، ولكن الشيوعيين ثاروا ضد حكومته ، فمـــاذا صنع ؟ لقد قال لى بالحرف الواحد ، لم استطع أن أطلق الرصاص على العمال . فترك الغوغاء بزعامة الشيوعيين يستولون على الحكومة ، وقام ذلك النظام الفظيع الدموى على يد ذلك اليهودى .. ما اسمه ؟ » فقال بيلاكون فاستطردت : « نعم .. وأنت قلت لى الآن أنك لم تختلق كتاب كفاحى ولم تختلق القمصان البنية وكذلك أنا لم أختلق بيلاكون ولم أختلق ليبكنخت ولا تلك اليهـــــودية الحمراء المسماة روزا التى حاولت أن تصنع ذلك الصنيع بعينه فى ألمانيا ولم أختلق آيسنر الذى صنع ذلك فى بافاريا ، ولا تروتسكى اليهودى الذى ساعد على مثل ذلك في روسيا . وأعتقد أن اليهود عموما لا يشعرون بالانتماء لوطن وهذا ما يحول بينهم وبين الوطنية . ولست أقصد بذلك أن القى عليهم الملام ، ولكننى أعلل اتجاهاتهم الثورية وأواجه الوقائع على نحو ما ظللت دائما تدعونى لمواجهتها » فقال « لقد واجهت أنا منذ زمن طويل واقعا معينا هو كراهيتك لليهود يا ايرما » فأجابت « انى أبغض بعضا منهم بغضا عميقا ، وابغض صفات معينة فيهم جميعا .. ولكنى أحب فريدى وأهتم بآل روبن وان نفرتنى آراء هانس ولقد قابلت يهودا غيرهم احبهم هم ايضا »

- ٥ -

وظلا يتجادلان برهة ولكن بغير طائل . فقد تناقشا فى هذه الأمور مرارا كثيرة من قبل ، ولم يتغير موقف أحد منهما تغيرا كبيرا . فعلى مدى اربعة أعوام اصغت ايرما بكل انتباه لمناظرات زوجها مع شـــتى صنوف الناس ، وما لم يكونوا شيوعيين كانت تلفى نفسهـــا على الدوام تقريبا متفقة فى الرأى مع من يناظرهم . فكأنما شبح ج . باراماونت بارنز

واقف الى جوارها يخبرها بما تعتقد ويقول لها « لقد عملت بجد ولم يكن ذلك هباء . وقد منحتك مكافأة حسنة وأنت يقينا غير راغبة فى تبديدها ! ولم يقل الشبح قط صراحة « وماذا تمسين بغير أموالك ؟ » بل قال « ان الأمور ليست بالسوء الذى يزعمه دعاة الخراب والكوارث . وثمة على كل حال وسائل للعلاج » وحينما يسالها لانى مهتاجا « وما هى وسائل العلاج هذه ؟ » يلوذ شبح ملك المشروعات العامة بالصمت ويغلب الغموض على ايرما وتتحدث عن أشياء من قبيل الزمن والتعليم والاستنارة الروحية .

وقال زوجها « لا جدوى من المضى فى هذا النقـــاش يا عزيزتى . فالمسألة هى ماذا نحن صانعون فى شأن فريدى ؟ » فأجابته ليتك فقط تخبرنى بشىء محدد نستطيعه له ! فقال « ولكن هذا غير ممكن يا عزيزتى . فيجيب اذ أذهب الى هناك وأحاول هذا الشىء وذاك وأبحث عن وقائع جديدة وأستخرج منها نتائج جديدة . فالشىء الوحيد الذى أستطيعه فيما يبدو لى هو ألا أترك فريدى لمصيره فهو ليس صديقا فحسب ، بل هو تلميذ لى على نحو ما . لقد ساعدت فى تعليمه ما يؤمن به الآن وكنت أرسل اليـــه المطبوعات واريه ما يصـــنع ويقوم بتنفيـــذه . فالتزامى نحوه مزدوج . فقالت « وعليك التزام نحو زوجتك وابنتك أيضا » فقال « طبعا . ولوكانتا فى مازق لكانت لهما الأفضلية ، ولكن ابنتى على مايرام . وأما زوجتى فأمل أن ترى الأمور كما أراها » فسالته « أتريد منى ان آتى معك مرة أخرى ؟ » فأجابها « طبعا أريدك . ولكنى أحاول أن أكون منصفا ولا أضغط عليك ، فأنا اريدك ان تصنعى مايبدو لك صوابا » .

وكانت ايرما مغرمة بتنفيذ مشيئتها ولكنها لا تستريح كل الراحة لاستعداد لانى بترك الامر لها ، فذلك أشبه على نحو ما بعدم الاكتراث . وكانت تقول « ان المرأة تريد أن تكون مطلوبة » وناشدها « ولا تكونى سخيفة يا حبيبتى فأنا طبعا أريد مساعدتك لى . وقد احتاج اليه أشد الحاجة فى وقت من الأوقات ، ولكن أيحق لى أن أجرك الى هناك رغم ارادتك بحيث تشعرين أنك مكرهة ؟ » فقالت « يضجرنى جدا أن أقيم فى بلاد لا افهم لغتها » فقال لها « ولماذا اذن لا تتعلمينها ؟ » ان اتفقنا انا وأنت الا نتكلم سوى الألمانية فيما بيننا ستتمكنين من الثرثرة بها بطلاقة بعد اسبوع او اسبوعين » فسالته « وهل هذا ما أصنعه بالانجليزية يا لانى ؟ » فسارع الى معانقتها وتهدئة مشاعرها الثائرة . وهذا هو الأسلوب الذى يسويان به خلافاتهما ، فهما ما زالا متحابين جدا . وعندما يجد نفسه

عاجزا عن حمل نفسه على التفكير على طريقتها فاقل ما يستطيعه ان يغمرها بالقبلات ويقول لها انها أعز امرأة فى الدنيا عليه ·

وانجلت المناقشة عن قرارها بالذهاب معه مرة أخرى ، ولكن من حقها أن تعرف ما سيصنعه قبل أن يشرع فيه فأجابها «طبعا ياحبيبتى · وكيف بغير ذلك أستطيع أن أحصل على عونك ؟ » فقالت « أعنى ان الأمر اذا لم يرضنى فمن حقى أن أقول ذلك وان أرفض المضى فيه » فقال مرة أخرى « الم يكن لك هذا الحق دائما منذ زواجنا ؟ » ·

- ٦ -

استقر يوهانس فى نيويورك حيث كان يقوم بقضاء الأعمال لروبى ويحاول بطريقة عرضية أن يلتقط لنفسه بعض العمليات المالية ، وهو شىء لا يمكن أن يفوته ما عاش · واتصل لانى تليفونيا بأبيه الذى حضر بالسيارة وعقد الأربعة اجتماعا طويلا فى حجرة يوهانس بالفندق وقبلوا المشكلة على جميع وجوهها واتفقوا على شفرة خاصة للتفاهم فيما بينهم · واتفقوا مع لانى على أن فريدى ان كان سجينا لدى الحكومة فرئيس وزارة بروسيا يعرف ذلك ولا يمكن أن تكون هناك جدوى من الاتصال به الا أن كان الغرض التعرض لاستنزاف أموال جديدة · وقال يوهانس « انه يعرف بلا شك مبلغ ما تملكه ايرما من الأموال » ولعله كان من شأن ايرما أن تقول « ويسعدنى أن أنزل عنه بأكمله » ولكنها لم تقل ذلك · وبدلا من هذا قال روبى لابنه « ان أنت تركت أى انسان له صلة بالحكومة يعرف انك هناك بسبب فريدى فمن المؤكد تقريبا أن يضعوك تحت المراقبة مستعدين لحصارك ويسببون المتاعب لكل من يعاونك » فأجاب لانى « ان لى مهنة وفكرتى أن أعمل فيها هناك بجد واتخذها ستارا · فسأبرق الى زلطان وارى هو مستعد لاقامة معرض لأعمال ديتاز فى برلين هذا الخريف · وسوف تترتب على هذا ضجة صحفية تتيح لى مقابلة الناس وفى الوقت نفسه سيعرف أصدقاء فريدى أين وكيف يتصلون بى · وكل هذا سيستغرق وقتا ، ولكنها الوسيلة الوحيدة التى خطرت لى للعمل فى ألمانيا الهتلرية » ·

وهى فكرة يرجى نجاحها وترضى ايرما لانها محترمة · فقد قضت وقتا طيبا جدا فى لندن وعند عرض لوحات مارسيل هناك ، ويقترن ذلك فى ذهنها بأحداث رومانسية مثل الزواج على عجل وكتمان السر عن

أصدقائها ، وشعرت بمتعة الخبث لأنه ما من أحد كان واثقا بأنهما متزوجان حقا . وكذلك معرض نيويورك كان متعة لها وان كان ذعر « وول ستريت» قد بدد هذه المتعة كأنها بالون مثقوب .

وقال لانى أنهما قبل الابحار يجب أن يقضيا فترة من الوقت فى الاحتشاد للعمل ، لانه متى كانت معه دولارات أمريكية لشراء كنوز الفن الألمانية فلن يجد أشد النازيين تعصبا عيباً فيه . وكانت ايرما حتى ذاك الوقت تنظر الى مهنة الاتجار في الصور الفنية وكأنها النداء على عربة يد محملة بالفول السودانى . أما الآن فقد أصبح ذلك جزءا من الميلودراما ، وكأنها ستتنكر فى زى زوجة بائع الفول السودانى ؟ ولكن دون تضحيه حقيقية بهيبتها الاجتماعية ، لأن أغنى الناس وأوجههم لا يمكن أن يساورهم الشك بأن ابنة ج . باراماونت بارنز تتجر في الصور سعيا وراء المال ، بل حبا فى الفنون الجميلة ، وذلك شيء بديع ومحترم . وكلما أرسل لانى برقية الى عميل يخبره بانه وزجته على وشك السفر الى ألمانيا ويحبن القدوم بالسيارة للتناقش مع العميل فى أذواقه ورغباته ، فاقل ما يفعله ذلك الشخص أن يدعوهما للشاى ، وكثيرا ما تكون الدعوة لقضاء الليل فى مكان باذخ فى بارهـــاربر أو نيوبورت ، فى بريشـــايرز وأعـــالى الهادسون .

وهكذا عندما استقل الشابان باخرة الى ساوثهامبتون كان لديهما مبرر ممتاز للاقامة فى بلاد النازى . واختار عابرة محيط ألمانية لأن ايرما شرعت فى تعلم اللغـــة وتريد فرصـــا للثرثرة . ونزلا فى انجلترا لأن سيارتهما كانت مخزنة هناك ، ولأن لانى أراد الاجتماع بريك قبل القفزة النهائية . وكان زلطان يخمن ما براسيهما ، بيد أنه كان كتوما فلم يتفوه بكلمة .

وكانت بيوتى قد عادت الى جوان ، وبطبيعة الحال كان الزوجان الشابان يريدان رؤية فرنسيس الصغيرة والتباحث فى الأمور مع آل روبن واطلاعهم على الشفرة . وفى طريقهما عرجا على أميلى وحصلا على نصحها الحكيم . وذات ليلة مقمرة وصلا الى بيانفينى وسط العبير القوى الفواح من أزهار البرتقال والليمون . أتعرف هذه الارض التى يزهر فيها الليمون ؟ وخيل الى ايرما انهـــا لا تريد شيئا بعد هذا ســـوى البقاء فى هـــذا الفردوس الأرضى .

وظلت ثلاثة أيام فى نشوات حول حبيبتها الصغيرة ، تستلفت نظر لانى الى كل كلمة جديدة تعلمتها. وكان لانى يستجيب الاستجابة الواجبة،

ولكنه يتساءل ماذا عسى أن ترى هذه الصغيرة فى كائنين غامضين أشبه بالآلهة أسمهما ماما وبابا يقتحمان حياتها منقضين فى فترات متباعدة ثم يختفيان وسط ضجة صاخبة من أصوات آلات السيارات وسحب الغبار · ولاحظ ان الطفلة أشد اهتماما بكثير برفيقها الجديد فى اللعب الذى أتاحه لها القدر بغير انقطاع · وكان الطفل فريدى مزدهرا كأنه وردة مخملية داكنة فى شمس ريف فرنسا الحارة التى أهلته لها قرون كثيرة ماضية · وقد نسى الخوف كما نسى أباه · وقالت ايرما فى نفسها « يجب أن أفرق بين هذين قبل أن يصلا الى سن الغرام !؟

- ٧ -

اتخذت جميع التدبيرات والمعدات كأنما هى حملة حربية ، وفى أوائل سبتمبر توجه الزوجان الشابان الى برلين عن طريق ميلانو وفيينا · وكان لانى يعلم بأمر لوحات فنية فى هذه المدينة الأخيرة ، وموضـــوع تجارة اللوحات الفنية سيبدو أشد اقناعا اذا هو توقف هناك · وكان قد كتب رسائل الى عدد من أصدقائه فى ألمانيـا يخبرهم بنيته قضـاء الخريف فى وطنهم · وسيقررون أهدافه لأنه سيأتى الى بلادهم بعملة أجنبية · وبالعملة الأجنبية كان الألمان يحصلون على البن والشكولاته والبرتقال ، فضلا عن أقلام هوليود وبنادق بد الآلية · وكتب الى عقيلة وزير الرايخ جوبلز يذكرها بعرضها الرقيق أن تقدم له النصح واخبرها بمعرض ديتاز المزمع اقامته ، وأرفق رسالته ببضع صور فوتوغرافية وقصاصات صحف احتياطا لما يحتمل أن يكون عمل هذا الرسام لم يبلغ مسامعها · وفى الجزء الخلفى من السيارة كانت طائفة من اشهر أعمال مارسيل ملفوفة بعناية ومرتبة ، وليس من بينها صورة المحارب القديم ولا تلك الرسوم التى يندد فيها بالعسكرية الألمانية ، بل لوحة الخبز ولوحة أخت الرحمة ، بما فيهما من لطافة مؤثرة تناسب شعبا وقع منذ قليل اتفاقية ضد الحرب ، وثمة نماذج لمناظر فى الارض والبحر على ساحل الريفيرا الرومانسى الذى زاره كثير من الألمان واحبوه · أتعرف تلك الارض ·

واثناء اختراق السيارة ايطاليا وهما فى أمان ممن يسترقون السمع ناقشا شتى احتمالات هذه المعركة · هل ينبغى أن يلجأ الى ما عسى أن يكون لدى قائد الطيران الالمانى من معنى الشرف ؟ أينبغى أن يحاولا التودد اليه والحصول منه على خدمة خاصة فى وقت يكون فيه مكتظا بالخمر الجيدة؟

أينبغي أن يعرضا عليه مقابلا نقديا بصراحة ؟ ام ينبغي أن يحاولا الوصول بعد ذلك الى الفوهرر واقناعه بأنهما كانا ضحية حنث بعهد ؟ هل ينبغي أن يتجها الى جناح جوبلز ليجدا هناك شخصا ذا سلطان بحاجة الى المال فيستطيع أن يحرك الخيوط الخفية ؟ أينبغي أن يحاولا الاتصال سرا ببعض الاشتراكيين الشبان عساهم يعدون العدة لاقتحام السجن ؟ وراحا يغربلان هذه الفروض ومشروعات كثيرة غيرها ويقلبانها في ذهنهما وهما يتحسسان طريقهما داخل غابة النازي . وكان شيء واحد فقط محققا أيا كانت الخطة التي يقررانها ففي وسعهما تنفيذها بمزيد من الأمان اذا استقرا في برلين محتلين مكانة بارزة اجتماعيا مرموقة فنيا باعتبارهما الوارثين والمفسرين لأعمال رسام فرنسي عظيم ، والراعيين والصديقين لمؤلف موسيقى ألماني وهلم جرا الى آخر صنوف البريق المتباينة التي يستطيعان اضفاءها على نفسيهما .

ولم يكن من العسير اطلاقا على لاني في فينا أن يستأنف دور خبير الفنون . وفي أحد القصور نصف الميتة على الطريق الدائرى عثر على راس رجل بريشة موبيما (رسام هولندى من القرن السابع عشر) ملاه حماسة فأبرق الى أحد الهواة في توكسيد وبارك وتم البيع في يومين وبذلك ربح تكاليف اقامة طويلة في برلين قبل أن يصل الى هناك . وكان وقع ذلك على ايرما قويا فقالت « عسى أن يسمح لك جورنج ببيع لوحات قصر روبن لحسابه . وبذلك يحصل يوهانس على ابنه في مقابل ما كان يملكه من اعمال فنية !

- ٨ -

وقاما بدورة كي يقضيا يومين في شتوبندورف ، لأن كيرت مايسنر كان أشبه بحصن لابد من اخضاعه قبل أن يتمكن الجيش من التقدم الى ما وراءه ولا شك أن هاينريش كان قد كتب اليه شيئا عن تحول لاني الى العطف على الاشتراكية الوطنية . وليس من المصلحة أن يرد عليه كيرت « احذر منه فهو لا يعني ذلك حقا » فان كان لاني عازما على النجاح في الجاسوسية فها هنا يجب أن يبدأ ، وستكون الخطوة الأولى اشق الخطوات .

وانه لشيء عجيب أن يجدد المرء صداقات قديمة وفي الوقت نفسه يحولها الى شيء آخر ! شيء عجيب أن يصغى لكونشر توكيرت الجديد على

البيانو بنصف عقلة ، وبالنصف الآخر يقول لنفسه « ماذا أقول بحيث يبدو الكلام مناسبا بالضبط وكيف أنتقل منه الى ما أريد أن أحدثه به عن آل روبن ؟ » ٠

أهذا هو السبب فى أن موسيقى كيرت بدت وكأنها فقدت حيويتها ؟ لقد كانت حماسة لانى فى الأيام الخوالى تبدو طلقة غير محتجزة ، فكيانه كله كان يتدفق مع هذه الأنغام التوافقية الكاسحة وقدماه كانتا تمضيان مع هذه الضربات الهادرة ، وكان موقنا يقينا مطلقا بأن هذه أبدع موسيقى فى العصر الحاضر ولكنه الآن يقول لنفسه « لقد ربط كيرت نفسه بهؤلاء المتعصبين السياسيين وصار تفكيره كله ومتكيفا بصيغهم الفكرية ، فهو يحاول أن ينفخ نفسه ليبدو شديد التأثر ولكنه فى الواقع بضاعة عتيقة وقد وصل الى المرحلة التى يتكرر فيها نفسه » ٠

ولكن لانى ينبغى ألايبدو عليه أقل أثر لهذا التفكير، فهو متآمر ومراء يستخدم الفن ونقد الفن ستارا يموه به أيدلوجيته وصيغه الفكرية ٠ فكان لابد أن يقول « هذا شيء خارق ياكيرت ، فالختام أعلى ذروة وصلت اليها قط ، والمقطوعة البطيئة تبكى ما فى العـــالم من ويلات وكم بدت له هذه العبارات التى أفصح بها عن نشوته الموسيقية سخيفة ، وتفوهه بها سخرية بالصداقة تجرد الضيافة من كل سحرها ، بل وتفسد مذاق الطعامالذى أعدته لضيفيها الأم الطيبة العاقلة فراوما يسنر ٠ ولكن الحيلة نجحت ، وامتلأ قلب كيرت بالدفء نحو صديقه وقرر أن الخلافات السياسية ينبغى ألا يسمح لها بأن تحجب عن عين المرء ما فى خصمه من مزيد ٠ وبعد ذلك ذهب لانى للسير فى الغابة تاركا ايرما تتحدث حديثا قلبيا مع كيرت وتحاول معه ربما كان عسيرا على لانى ٠ فمن العجيب أن ايرما كانت بصفة جزئية فحسب فقالت لذلك الموسيقى الألمانى مالم تقله لأى انسان آخر وما لم تكن تظن أنها قائلة قط ، وبذلك أدخلت الطمأنينة عليه وأثرت فيه بطبيعة الحال ٠ شرحت له كيف ان لانى أمين وقد عاملها بأنصاف ، فقد أخبرها بمعتقداته السياسية قبل أن يسمح لها بالاهتمام به ٠ ولكنها كانت جاهلة بأمور الدنيا ولم تدرك معنى أن يكون المرء اشتراكيا أو عاطفا على افكار الاشتراكيين وانما يعنى ذلك مقابلة أبشع الناس وتدخلهم فى شئونهم ٠ ولا تتعرض لذلك كله من المخلصين منهم فحسب ، بل ومن المحتالين والأفاقين الذين تعلموا التشدق بالعبارات المحفوظة كالببغاء ! ولانى عاجز عن التمييز بين هؤلاء وهؤلاء ٠ ومن ذا يستطيع ذلك حقا ؟ فما أشبه هذا بخروجك الى الدنيا مسلوخ الجلد فتستطيع أية حشرة تحط

عليك أن تلدغك على هواها • وقالت الزوجة الشابة « وليس الأمر قاصرا على الاشتراكيين ، بل هناك الشيوعيون وسائر صنوف المشاهدين وصناع القلاقل • وأنت تعرف الحال جيسى ومدى مرارته وأى خطب فظيعة يلقيها» فأجابها كيرت « لدينا ملايين من أمثاله فى ألمانيا فالحمد لله ان هذا الخطر لم يعد له وجود » وقالت « لقد ظللت أناشد لانى واجادله أكثر من أربع سنين وجاءت فترة كنت فيها مستعدة للكف عن ذلك يائسة ولكنى الآن بدأت أعتقد أننى احرزت شيئا من النجاح •وأنت تعرف لانى وكيف يصدق ما يقوله له الناس • ولكنه فى المدة الأخيرة يبدو وكأنما أدرك الطبيعــة الحقيقية لبعض الناس ممن ساعدهم • ولذا اريد أن اطلب اليك أن تكلمه فى ذلك فهو يكن لك اعزازا عميقا وقد تكون قادرا على شرح ما يحدث الآن فى المانيا فتساعده على أن يرى الامور فى ضوئها الصحيح » فقال كيرت « لقد حاولت مرارا كثيرة ، ولكنى لم أوفق اطلاقا » فقالت « حاول مرة اخرى ، فلانى سريع التأثر • وما رآه من نجاح حركتكم هز أفكاره هزا شديدا • واهم ما يريد هو حل مشكلة البطالة • فهل تظن أن الفوهور سيتمكن حقا من حلها ؟ » • فقال « لقد تحدثت اليه وانا اعلم أن لديه خططا عملية وأنه شرع فعلا فى تنفيذها » فقالت « اشرح هذا للانى بحيث يتمكن أثناء وجوده هنا مع صور مارسيل من المراقبة والفهم • وقد يبدو غريبا أن ادعه يبيع صورا ولدى كل هذه الأموال • ولكن عزمى صح على وجوب تركه يزاول عملا ما لأجنبية مذلة العيش على أموال زوجته » فقال الموسيقى وقد تأثر كثيرا بسداد حكم هذه الشابة التى كان يخالها فراشة اجتماعية هو جاء « انت على صواب تماما • ولانى مجدود الطالع اذ وفق الى زوجة تفهم مواطن ضعفه هذا الفهم الحسن • دعيه يتعلق بشىء واحد يا ايرما وامنعيه من الجرى وراء كل سانحة بارقة كالسراب المتنقل تعترض طريقه » •

- ٩ -

وهكذا جدد صديقا الصبا هــذان ما بينهما من ثقة ورغبة فى التكاشف ، وقد لعبت بهما الحياة أفانين عجيبة من الألاعيب تفوق التوقع• فمنذ عشرين سنة بالضبط عندما التقيا فى القرية السكسونية الوادعة قرية « هلراو » وهما يرقصان على موسيقى « أورفيوس » « لجلوك » ، ولو أن أحدا حدثهما عن الحرب العالمية قبل موعدها بسنة وعن قيام كيرت بعدها بخمس سنين فى باريس بدور الجاسوس الالمانى الذى يعطى عشرة

آلاف فرنك فى المرة للخال جيسى لاستخدامهـــا فى اثارة الشـعب بين صفوف العمال الفرنسيين ! أو لو قيل لهما عن الفنان المسكين الفاشل الذى يكسب خبزه وسجقه برسم بطاقات البريد وينام فى الليل بين المتسولين والمتشردين فى فينا ، وقد كتب له أن يغدو بعد عشرين سنة سيد المانيا كلها ، فماذا كانا عساهما قائلين ؟

ولكن ها هو ادولف هتلر الفوهرر الواحد الاوحد لالمانيا والمالك الاوحد لحل المشكلة الاجتماعية وصاحب السلطة فى الوقت نفسه لوضع ذلك الحل موضع التنفيذ • وشرح كيرت ما كان يصنعه آدى وما ينوى أن يصنعه ، واصغى لانى بانفعال عميق ، ثم كان تعليق الرجل الاصفر سنا « هنا الكلام يبدو أجمل من أن يكون حقيقة واقعـــة » • فأجابه المؤلف الموسيقى « سترى بنفسك وعندئذ ستصدق وقال لنفســـه « يا للانى المسكين ! انه طيب ولكنه ضعيف مثل سائر من فى الدنيا يبهره النجاح » ولما كان قد قضى ثمانية أعوام عشيقا لبيوتى فهو يعرف اللغة الامريكية وقال لنفسه « لقد بدأ بالفعل ينضم الى المظاهرة الصاخبة » •

وهكذا عندما غادر الزوجان الشابان شتوبندورف الى برلين تركا كل شيء فيها على النحو الذى يريدان ، فكيرت أرتد صديقهما المستعد لتقبل أى نبأ طيب فيما يتعلق بهما • وفى وسعهما ان يسالاه النصح او تقديمهما الى من يعرفهم عند الحاجة • وفى وسعهما ان يدعواه الى برلين لمشاهدة معرض ديتاز وان يستغلا شهرته الموسيقية لأغراضهما الخاصة • ولم يدع لانى هذه الفكرة تؤرق ضـــميره لأنه يصنع ذلك لأجل فريدى لا لأجل نفسه • وفريدى موسيقى أيضـا ومن ســلالة باخ ، وبيتهوفن وبرامز شانه شأن كيرت تماما • وهذان الالمانيان كثيرا ما عزفا المؤلفات الموسيقية معـا ، وكثيرا ما دل عازف الكلارينيت المؤلف الموســـيقى على وسائل عملية تفيد فى الكتابة لهذه الآلة • وعنـدما ذكر لانى لكيرت أن فريدى منذ شهر مايو قال كيرت « يا للفتى المسكين ؟ » ولكنه لم يزد ، فلم يقل « يجب أن نفحص هذا الامر يا لانى لان الاخطاء كثيرا ما تقع ولا ينبغى أن يترك مثالى رقيق لا ضرر منه يتحمل العقوبة عن أخطاء غيره من ولكن كيرت كان حريا أن يقول ذلك ، الا انه لم يقله لأنه صار نازيا كاملا يحتقر الشيوعيين واليهود وهو غير مســـتعد أن يحرك أصبعا واحدة لمساعدة خير الناس من هؤلاء أو أولئك • ولكن لانى مزمع ان يساعد فريدى ، وسيبيح لنفسه أن يجعل كيرت يقوم بنصيب فى هذه المحاولة •

وفى يوم وصول ايرما ولانى الى فندق آدلون ضرب ضيف آخر وهو أمريكى مسن ضربا قاسيا بيد جماعة من ذوى القمصان البنية لأنه فاته ان يلاحظ مرور استعراض ولم يؤد التحية النازية • وعندما توجه الى مركز الشرطة للشكوى عرض عليه الشرطة ان يعلموه كيف يؤدى التحية النازية • وبتكرار مثل هذا الحادث كاد ينقطع النزر اليسير من السائحين ، وهذا من حسن طالع خبير الفن وزوجته لأنه يضفى عليهما اهمية ويفسح المجال لديتار وأعماله • فكل واحد يريد أن يبين أن جمهور برلين العظيم محب الفن ليس ريفيا فى أذواقه بل هو متفتح لجميع التيارات التى تهب عبر العالم •

وتحدث لانى عن زوج أمه السابق الذى احترق وجهه فى الحرب وقام بأعظم رسومه وهو واضع قناعا من الحرير الابيض • واعماله معروضة فى متحف اللوكسمبورج وفى المتحف الوطنى بلندن وفى متحف المتروبوليتان بنيويورك • ولانى يفكر الآن فى اقامة معرض منفرد له فى برلين وربما دعا الحجة الشهير سلطان كيرتيزى ليتولى الاشراف عليه • وقبل أن يوزع الصور الفوتوغرافية أو يقوم بمزيد من الدعاية حول الموضوع رغب فى استشارة وزير الرايخ الدكتور يوسف جوبلز ليتأكد من ان خططه ترضى عنها الحكومة فهذه هى الطريقة المثلى لمعالجة الأمور حينما تكون الصحافة موجهة • وكانت كياسة الزائر موضع التقدير فلقيت أحاديثه الصحفية مكانا أرحب مما كانت حرية أن تظفر به لو أظهر التلهف •

وكان لانى قد ارسل بالفعل برقية الى ماجدة جوبلز فاتصلت به سكرتيرتها تليفونيا وحددت موعدا لليوم التالى • وبقيت ايرما فى حجراتها تتدرب على اللغة الالمانية مع الخادمات وعاملات المانيكير والحلاقين، وركب لانى السيارة الى المسكن الكائن فى ميدان الرايشستاج وانحنى وقبل يد السيدة الأولى فى المانيا • فالمفروض أن هذه هى مكانتها لأن هتلر اعزب وجوزنج أرمل • وجاء لانى معه بحاجبين من الفندق يحملان لوحات • على نحو ما كان يحدث فى أيام مارى انطوانيت وأيام والدتها ماريا تيريزا امبراطورة النمسا • ووضعت لوحة أخت الرحمة فى ضوء مناسب وظفرت بالاعجاب • وعندما سألته السيدة وزيرة الرايخ من هى لم يخف عليها انها امه وأنها معروفة فى مجتمع برلين •

وشرح لها موقفه ، فقد حظى بتفسير هذه الاعمال العظيمة من فم زوج امه ، وبذلك صار محبا للفن منذ صباه . وقد ساعد في اختيار عدة مجموعات كبرى في الولايات المتحدة ستصبح يوما ما ملكية عامة . وهو مسرور بكسب المال ولكن سروره أشد لأنها فرصة لارضاء ذوقه وميوله الى الأشياء الجميلة . وكان لانى واثقا بأن السيدة وزيرة الرايخ ستفهم ذلك ، وقد قالت له هذا فعلا ، واضاف ان طائفة من صور ديتاز قد تباع ولكن هذا ليس الهدف من المعرض ، وهو لا يريد أن يأخذ المال الى خارج المانيا ، لأن لديه توصيات بشراء أعمال فنية المانية لحساب الامريكيين بمبالغ تفوق بكثير ما ينوى أن يبيعه . واخبرها كيف اشترى أخيرا جدا لوحة بريشة هوبيما بفيينا . وأخبرها على خلاف عادته باسم طرفى الصفقة فكان لذلك وقعه .

وكان النتيجة أن أعلنت ماجدة جويلز ان هذا المعرض المزمع اقامته مشروع ثقافى جليل . وقالت ان الفوهرر له ذوق محدد فى الفن فهو يبغض المذاهب الحديثة المتطرفة التى تعتبر من أعراض الانحلال اليهودى من أثر الديمقراطية التى باطنها سلطان ذوى الجاه والثراء . وقال لانى انه يعلم ذلك وهو من أسباب قدومه الى برلين فأعمال ديتاز بسيطة كمعظم الاعمال الفنية العظيمة ونظيفة ونبيلة الروح . وهو سيكون سعيدا بأخذ نماذج منها ليريها للفوهرر سلفا ، فقالت السيدة وزيرة الرايخ أنه قد يكون من الممكن عمل الترتيب لذلك . وعرض عليها أن يترك اللوحات والصور الفوتوغرافية ليفقدها السيد وزير الرايخ فقبلت العرض . واستأذن فى الانصراف وهو يشعر بالأمل فى أن يغدو مارسيل ديتاز رساما مشهورا بين الالمان . وتساءل ترى هل سمع مارسيل بالنازى فى عالم الأرواح وما رأيه فيهم ؟ وكان لانى يود لو ذهب على الفور لاستشارة السيدة ديزيز ، ولكن من يدرى ماذا عسى أن ينفجر فى حجرة الجلسات الروحية من فم زوج أمه السابق الماجن !

- ١١ -

وكان الواجب الثانى على لانى أن يتصل بالملازم الاول فورت فنجلر ويدعوه وزوجته للعشاء ويبين له رغبته فى عرض اللوحات على صاحب السعادة السيد رئيس الوزارة البروسية الجنرال جورنج . وهذا هو

لقبه الأن ، لأن الصحف أعلنت أخيرا ان رئيس جمهورية الرايخ الفيلد مارشال فون هندنبورج تفضل فعين رئيس الوزارة البروسية جنرالا فى جيش الرايخ • واكد الملازم الاول هذا النبأ واظهر الفخر بهـــذا الشرف فقد كان من المحرج بعض الشيء أن يكون رئيسه نقيبا فحسب وهو رئيس لكثيرين من الجنرالات فى الشرطة البروسية •

وقال لانى انه واثق بان صاحب السعادة لا بد أن يكون من محبى الفن •ففى ظنه أن الرياش الجديدة فى المقر الرسمى ، ومن بينها هـذه المائدة السوداء العظيمة والستائر المخملية الذهبية لا بد أن تمثل ذوق صاحب السعادة ، فاعترف ضابط الحاشية أن الأمر كذلك ووعد بذكر ديتاز لدى الرجل العظيم • وقال لانى أنه خلال الاشهر الثلاثة الأخيرة طاف بلندن وباريس ونيويورك وكان وفيينا • فلم يستطع النازى الشاب الذى لم يبارح المانيا قط أن يغالب التهيب فأراد أن يعرف ماذا يقـــول العالم الخارجى عن الفوهور وانجازاته • فقال لانى انه يخشى ان الناس ليست لديهم صورة منصفة جدا عنه ، ويبدو أن ممثلىالاشتراكية الوطنية فى الخارج لا يخدمون قضيتهم بكفاءة عظيمة • وتحدث عن الاشياء التى سمعها عن اشخاص عديدين ذوى القاب ومناصب مهمة ، وايضا عن الجهود التى بذلها للشرح والتبرير • وكان هذا التبرير فى الحقيقة هو ما سمعه من اللورد ويكتورب • واضاف لانى أن لديه مقترحات يسره أن يعرضها على صاحب السعادة لو استطاع ذلك الرجل المشغول ان يمنحه الوقت الكافى لسماعها • واجاب ضابط الحاشـــية الشاب بأنه واثق بان الأمر سيكون كذلك •

ولم يذكر لانى اسم روبن مرة واحدة لأنه كان يريد أن يرى هل سيذكره الملازم الاول من تلقاء نفسه ، فهذا سيعطيه فكرة عن جورنج وهل كاشف ضابط حاشيته بالسر أم لا • وقرب نهـــاية السهرة حين كانت ايرما منصرفة الى التدريب على اللغة الالمانية مع الســـيدة الريفية الطويلة السمحة عقيلة الملازم الاول • قال الضابط « على فكرة يا هربد : هل سمعت شيئا عن صديقك اليهودى الشاب ؟» فأجابه «ولا كلمة واحدة

يا سيدى الملازم الأول » فقال الضابط « هذه بالتأكيد مسألة غريبة » فقال لاني « كنت آمل الحصول على نتائج من التحريات التى تكرمت فقلت انكم ستجرونها » فقال الضابط « لقد فعلت كل ما خطر بذهنى يا هر بد، ولكن بلا نتيجة » فقال لانى « لقد عن لى أن السجلات ربما لم تكن كاملة الدقة بسبب ما ساد الربيع الماضى من اضطرابات وقيام جماعات شتى بالعمل مستقلة بعضها عن بعض » فقال الضابط « أؤكد لك اننا لا نتصرف على هذا النحو فى المانيا يا هر بد · وفى ادارة بوليس الدولة السرى أرشيف كامل به حالات جميع الاشخاص المقبوض عليهم لأى سبب وبأى تهمة حتى ولو كانت قليلة الصلة بالسياسة · ولا اعتقد أن صديقك يمكن ان يكون مقبوضا عليه لأنه قاد السيارة مثلا وهو سكران فقال لانى « انه لا يسكر ولا يقود السيارات يا سيدى الملازم الاول · فهو يعزف برقة وسحر على الكلارينيت ، ودارس شغوف بالكلاسيكيات الالمانية · فلو ذكرت له مستهل أى نص من جيته لا كمله لك وذكر لك موضعه من مؤلفاته » فقال الضابط « هذا حقيقة أمر بالغ السوء يا هر بد · فهل تقترح على شيئاً ؟ » فقال لانى « لقد خطر لى ان الشاب ربما كان فى احد المعتقلات خارج بروسيا وبذلك لا يظهر اسمه فى ارشيف البطاقات ببوليسكم السرى · هب مثلا أنه فى داخاو ؟ » ·

وكان لانى يرقب زميله على العشاء عن كثب ، ولكن لا بد أنه ممثل بارع جدا ان كان قد أدرك الحيلة · وقال « صديقك لا يمكن أن يكون فى « داخاو » الا اذا كان بافلريا· أما وهو برلينى فلا بد أن يكون فى أورشينبورج أو مكان آخر قريب منها · ومع ذلك ان كانت هذه رغبتك فسأقوم بعمل التحريات عن طريق حكومة الرايخ ونرى ما ستتمخض عنه » فقال لانى « هذا منتهى الكرم منك · وهو أكثر مما كنت اطمع فى طلبه فى وقت كهذا لديك انت وزملائك مهام كثيرة فيه · وأسمح لى أن اقول أن اسم الشاب الحقيقى فريدى ، ولكن احد الموظفين ربما ظن أنه فريد ريش ، أو ربما كتبوا باسمه فرينز · ومن الجائز ايضا أن يكون احدهم قد سجله تحت اسم رابينوفتش وهو الاسم الذى كان أبوه يحمله فى مدينة لودز » ·

وأخرج الضابط دفتر مذكراته وسجل هذه المعلومات بدقة وقال « أعدك ان أبذل غاية جهدى يا هر بد » فقال الزائر الامريكى « قد يكون من الافضل الا تزعج صاحب السعادة بهذا الموضوع · فانا أعلم أنه أكثر الناس شغلا فى الدنيا ، وانا لا أريد له أن يظن أننى جئت الى برلين

لأزعجه بمشكلاتي الشخصية » • فقال الضابط « انه من أولئك العظماء الذين يعرفون كيف يخولون سلطاتهم لغيرهم ولا يثقل نفسه في التفصيلات • ولديه متسع من الوقت للحياة الاجتماعية • وانا واثق بانه سيهتم بسماع ما ترويه له عن العالم الخارجي » فقال الدبلوماسي المتنكر « ولدى معلومات عن رد الفعل الذى أحدثته خطبة صاحب السعادة في جنيف لدى وزارة الخارجية البريطانية • فان اللورد ويكثورب قد ذهل منها ذهولا حقيقيا • وأنت تعرف أن البريطانيين قد تعودوا في السنوات الاخيرة أن تكون ارادتهم هى النافذة • وبسهولة أكثر مما ينبغي ، يا سيدى الملازم الاول ، واشك في أن الامور ستظل بهذه السهولة نفسها بالنسبة لهم فى المستقبل ! » •

الفصل الثاني والعشرون

اكسب نقودا اكثر ، يا فتى !

- ١ -

كان امل لانى ان يتلقى بمجرد اعلان وصوله فى الصحف اتصالا من نوع ما من جـانب ذلك الشخص الذى تجشم الكتـابة اليه قائلا ان فريدى فى داخاو . وكان حريصا فى احاديثه الصحفية على الاعلان عن نفسه بانه شخص غير سياسى ، راجيا ان يفهم هذه الاشارة بعض معارفه السابقين بين صفوف الديموقراطيين السياسيين . ولكن الايام مرت ولم تصله رسالة او حديث تليفونى . وكان لانى قد حصل من راحيل على قائمة برفاق فريدى السابقين ومن المحتمل ان يحاول مقابلة احد منهم بدا له انه من الحكمة أن يجرب اتصالاته النازية ، فمن العسير أن يجمع بين هذين النوعين من الاتصالات .

وتوجه لزيارة هاينريش يونج الذى انفجر كالعادة فى بيان جار عن وجوه نشاطه . وكان قد عاد اخيرا من « يوم الحزب » فى نورنبورج ، وكان ذلك اليوم اروع ايام الحزب كلها فاستمر خمسة ايام لا يوما واحدا ، وكانت كل ساعة من الساعات المائة والعشرين قمة جديدة وكشفا جديدا من كشوف الاعجاز والجمال والنصر الكامنة فى روح الاشتراكية الوطنية « وبصدق يا لانى تأثر أشد النـاس تشككا واسـتهانة حتى لقد دمعت عيونهم لما رأوا ! » ولم يستطع لانى ان يذرف الدموع ولكنه استطاع ان يرسم الابتسـامات على شفتيه ، ولعله أيضـا افلح فى دفع التوهج الى وجنتيه .

وساله هاينريش « أتعرف نورنبورج ؟ » وكان لانى قد زار تلك المدينة العتيقة التى يحيط بها خندق . وبيوتها ذوات أسقف هرمية حادة لا حصر لها تتزاحم على جانبى شـوارع ضيقة من النـادر ان تمضى على استقامتها مدى مربعين متواليين من البنـاء . فهى مكان لا يبـدو صالحا لمؤتمر حزب سياسى كبير ، ولكن النازى اختاروها لما تقترن به من ذكريات تاريخية تتصل بالمانيا القديمة التى يريدون بعثها الى الحياة . اما الصعوبات

العملية فلم تكن سوى تحد لقدراتهم على التنظيم فسيرى العالم كيف يدبرون أمور مليون زائر لمدينة تعدادها اقل من نصف هذا العدد ، ونصبت ضواحي كاملة من الخيام حول ارباض المدينة ، ونام جنود العاصفة وشبيبة هتلر على القش بمعدل ستمائة فى كل خيمة كبيرة وغطاءين لكل فرد · وجيء بصفوف كاملة من مطابخ الميدان ذوات الميازيب المصنوعة من الالمونيوم تتدفق منها القهوة أو الجلاش · واعلن هاينريش ان ستين الفا من شبيبة هتلر تناولوا طعامهم فى نصف ساعة· فاستغرقت عملية الاطعام ثلاث فترات كل منها نصف ساعة كل يوم من الايام الخمسة !

وهؤلاء الشبان منتخبون بعناية خاصة من بين من عملوا بهمة ونشاط طول السنة للحصول على هذه الجائزة · وقد احضروا فى قطارات خاصة وبسيارات نقل ، ثم دخلوا المدينة بفرقهم الموسيقية يهزون الهواء باناشيدهم ويهزون مرج زبلن الكبير بوقع احذيتهم · وظلوا خمسة ايام والجانب الاكبر من خمس ليال يصيحون وينشدون الى ان بحت اصواتهم ليعوضوا بنشاطهم هذا خمول الأحزاب السياسية الاربعة التى محوها من الوجود فى المانيا · فلا يوجد الآن الا حزب واحد وقانون واحد وايمان واحد وتعميد واحد ! واقيمت قاعة مؤقتة تتسع لجزء صغير من المائة والستين الف مندوب رسمى · أما الآخرون فاصغوا الى مكبرات الصوت المنتشرة فى الحقول ، والنتيجة واحدة على كل حال لانه لم يحدث تصويت، فكل شيء يقرره الفوهرر ، وما على المليون الآخرين الا ان يسمعوا الخطب ويصيحوا بالموافقة ·

وكان هاينريش ــ الذى صار الآن من كبار المسئولين فى شبيبة هتلر ــ من بين من سمح لهم بحضور مراسم الافتتاح ، وقد اعوزته اللغة المناسبة لوصف تلك الاعاجيب فراح يلوح بذراعيه ويرفع صوته · والاستقبال الحماسى الجنونى عندما دخل الفوهرر على نغمات مارش بادنفيلر ــ أيعرف لانى هذا المارش ؟ أجل يعرفه لانى بيد ان هاينريش اخذ يدندن جملا منه مع هذا · وبعد ان وصل هتلر الى المنصة دخلت الاعلام وتم تقديس الرايات بمسها راية الدم التى كانت مرفوعة فى معركة ميونخ الاهلية · وكان هاينريش وهو يتحدث عن ذلك اشبه بكاثوليكى صالح يشهد اسرار القربان المقدس · واخبره كيف تلا ارنست روهم قائمة أولئك الشهداء الثمانية عشر ، وقائمة المائتين او الثلاثمائة الآخرين الذين ماتوا اثناء كفاح الحزب الطويل للحصول على السلطة · وكانت الطبول تدق دقا خافتا مكتوما ، وفى النهاية اعلن رئيس اركان حرب كتائب الهجوم « ان هؤلاء يزحفون معنا بالروح بين صفوفنا » ·

خمسة ايام من الخطابة والهتافات والمسيرات والاناشيد التى يشترك فيها مليون من اكفأ رجال المانيا وانشطهم وكلهم تقريبا شبان . وقال هايرنيش « لو انك رأيتهم يا لانى لعرفت ان حركتنا انتصرت وان ارض آبائنا ستكون على نحو ما تصنعها » فقال لانى « لقد تحدثت حديثا طويلا مع كيرت فاقنعنى بانكما كنتما على صواب » فابتهج المسئول الشاب بذلك القول حتى انه قبض على يد صديقه وعصرها عصرا . فها هو نصر هتلرى آخر . يحيا النصر !

- ٢ -

لم تكن اغلبية معارف ويرما الراقيات قد عدن بعد الى المدينة ، ولذا استغلت وقت فراغها فى تعويد اذنيها على اللغة الالمانية وعقدت أواصر المعرفة مع عاملة الاظافر فى الفندق وهى شقراء طبيعية تزيد نفسها شقرة بوسائل صناعية . وهى حصيفة مجربة بحكم مهنتها ولكنها فى باطنها ساذجة كجميع الالمانيات فى نظر ايرما . والطريقة المثلى لدى وارثة لاكتساب المعلومات هى ان تستأجر شخصا يضع المعلومات فى ذهنها بغير الم . ومن الذى يقدر على ذلك بصورة الطف من شابة عالجت ايدى عدد كبير من اصحاب الملايين والمشاهير من جميع انحاء الدنيا تثرثر وتشجعهم على الثرثرة ؟ والآنسة الزابورج قد ابهجها ان تبيع ساعات فراغها لفراو بد ابنة بارنز ، وان تعلمها اللهجة البرلينية فى اشيع مصطلحاتها المستعملة فى اللغط . واخذت ايرما تتدرب بجد على اصوات السعال والنحنحة والعطس التى وجدها تكومسة همجية اكثر مما ينبغى بالنسبة له وقالت لزوجها : « ان طريقتهم فى الحقيقة اشد الطرق جنونا للصق الكلمات بعضها ببعض وترتيبها فيما بينها !

« انا سوف الحقيبة الزرقاء ذات السيور البيضاء الى حجرة الفندق على الفور احضر . انا سوف البيض بدون قشر احصل على . وهذا ما يجعلنى اشعر طول الوقت وكأن هذه اللغة من اختراع اطفال » . ولكن ما من احد يستطيع ان يناقش حق الالمان بواسطة الاطفال جملهم ان يتركوها تصاغ ، وايرما مصممة على ان تتكلم هذه اللغة كما يجب ان كانت ستتكلمها اطلاقا ، ولا يمكن ان تسمح بان يسمعها اى انسان تتكلم على نحو ما كانت تسمع الام روبن . وبذلك كانت هى وعاملة الاظافر تتحدثان ساعات متوالية عن احداث اليوم ، وعندما ذكرت ايرما يوم الحزب قالت الزا نعم ، ان كنزها المحبوب كان هناك . وهذا الكنز زعيم

القطاع فى حيه وعامل متحمس من عمال الحزب ولذا كوفىء بشارة وتصريح بمغادرة عمله ونقل الى هناك حيث نام على القش وتغطى ببطانيتين وتناول الجلاش والقهوة ، وهذا كله بالمجان . ووجهت اليها ايرما اسئلة كثيرة ، لتتأكد من واجبات قائد القطاع ، فعرفت أن له مرءوسا فى عمارة سكنية ويتلقى تقارير مباشرة فورية عن اى شخص جديد يظهر فيها وعن اى شخص تثير اعماله الشبهات او تخلف عن الاكتتاب فى صناديق التبرعات المتباينة التى يستخدمها الحزب وما الى ذلك . وهذا كله مما يهم لانى معرفته ، وربما استخدم قائد قطاع للحصول على معلومات بحيث يتمكن من خديعة قائد آخر عند اللزوم .

وكنز الزا فرصة مواتية لمراجعة مزاعم هاينريش واختبار كفاءة الجهاز النازى . وكنز الزا اسمه كارل وهو احد مائة من صغار الكتاب فى مكتب كبير للتامين وهو يتقاضى اجرا هزيلا ، ولولا حبيبته الصغيرة لاضطر للاقامة فى حجرة مفروشة . ومع هذا ، فهو يمشى فى الهواء اختيالا بحزبه وانجازاته . ويعمل فى الليل وايام الاحد للقيام بمهام تطوعية شتى ، ولم يتلق قط بنسا واحدا على سبيل المكافاة ، اللهم الا اذا اعتبرت من هذا القبيل مهرجانات الحزب المتباينة وما يملكه الحزب من السلطة لاجبار مخدوميه على منحه اجازة اسبوعا لحضور احتفالات يوم الحزب . وهو والزا كلاهما منتفخ الاوداج فخرا بهذه السلطة ، وكلمة اطراء واحدة من رئيسه فى الحزب كافية لاسعاد كارل شهورا . وهو يرى الفوهرر شبه اله ، وكان فخورا بوجوده على قيد اقدام قليلة منه وان كان لم يره . فقد كان الكنز واحدا من الوف عديدة من ذوى القمصان البنية واصطفوا فى نورنبرج على جانبى الشارع الذى دخل منه الفوهرر دخول الفاتحين وكانت مهمة كارل ان يصد تجمعات الناس ، فكان وجهه اليهم متيقظا حتى لا يحاول احد الاعداء المتعصبين ايقاع الاذى بالزعيم المقدس .

واخبرتها الزا كيف راى كارل رئيس الوزارة البروسية الجنرال جورنج راكبا سيارة مفتوحة وقد وضع وشاحا اخضر اللون بديعا بعرض صدره فوق كسوة الحزب البنية . وسمع الكلمات المهيبة التى فاه بها رودولف هيس مندوب الفوهرر « افتتح مؤتمر النصر ! » وكان قد سمع اعلان هتلر نفسه المزهو : « سوف نلتقى هنا بعد عام من الآن ، وسوف نلتقى هنا بعد عشرة اعوام من الآن ، وبعد مائة ، بل وبعد الف ! » وسمع ايضا وزير الرايخ جوبلز يسلق بلسانه اليهود الاجانب الذين يدأبون على تدنيس أرض الوطن . وقال زوج ماجده « ما من شعرة فى رأس يهودى مسسناها بغير سبب » . ولما قالت ايرما للانى ذلك الكلام فكر فى شعر

راس فريدى وتمنى ان يكون هذا الكلام صحيحا . وتساءل هل هذه الاحتفالات الحزبية الحماسية الفوارة كان الانفاق عليها من الاموال التى يسرها لهم يوهانس . فلا شك ان هذه الاموال كانت سببا كافيا لمس شعر راس يوهانس !.

- ٣ -

اخذ لانى هوجوبير للنزهة بالسيارة وهى الوسيلة الوحيدة للكلام بحرية . ولم يساله لانى « هل كتبت الى ذلك الخطاب ؟ » كلا فهو قد تعلم بالممارسة مهنة الجاسوس فترك الشخص الآخر يقوم بالكلام . وعلى الفور فاتحه قائد الرياضة قائلا : « انى فى ضيق شديد لانى لم استطع ان اقوم لك باى خدمة يا لانى » فساله « الم تستطع أن تعرف شيئا ؟ » فأجابه : « لو عرفت لكتبت اليك . وقد دفعت اكثر من نصف النقود لاشخاص قبلوا القيام بتحريات فى سجون برلين وايضا فى اورانيبن بورج وسونين بورج ، وشباند اوا . وقالوا جميعا انه لا وجود لسجين كهذا ، ولا يمكن ان اتأكد من انهم نفذوا وعدهم ولكنى اعتقد ان هذا ما حدث . واريد ان ارد اليك بقية المبلغ » . فأجابه لانى « هراء لقد منحتنى وقتك وفكرك وهذا كل ما طلبته منك . فهل تظن انه من الممكن ان يكون فريدى فى معسكر خارج بروسيا ؟ » فقال هوجو « لا بد فى هذه الحالة من سبب خاص لذلك » فقال لانى : « ان من نقله ربما كان يتوقع منى ان اقوم بهذا التحرى . فلنفرض انهم نقلوه الى داخاو فهل من سبيل لمعرفة ذلك ؟ » فقال « لى اصدقاء فى ميونيخ ، ولكن لا بد ان اذهب الى هناك واتحدث اليهم لانى لا أستطيع الكتابة » فقال لانى : « بالطبع لا . فهل تظن انك تستطيع الحصول على اجازة للسفر ؟ » فأجابه « ربما استطعت ان افكر فى مهمة للحزب » فقال لانى « سيسرنى كثيرا ان ادفع لك نفقاتك والف مارك اخرى لتعبك . وكل ما قلته لك عن هذا الموضوع سارى المفعول الآن بصورة اشد ، فكلما طال فقد فريدى ازداد شقاء ابيه ، وازداد الضغط على كى اصنع شيئا . فان ثبت نجاح معرض ديتاز فى برلين قد انقله الى ميونيخ . وفى هذه الاثناء ان استطعت الحصول على معلومات سيكون فى وسعى ان ارسم الخطط المناسبة » فقال هوجو « اثمة سبب دعاك للتفكير فى داخاو بصفة خاصة ؟ » فقال لانى « ساقول لك الموضوع بصراحة . وقد يبدو ذلك سخيفا ، ولكن اثناء الحرب العالمية الاولى كان لى صديق انجليزى يعمل طيارا فى فرنسا ، وكنت انا فى بيت ابى بولاية

كونيكتيكت الامريكية . وعند الفجر بالضبط ايقظني شعور غريب ورأيت صديقي واقفا عند اقدام فراشي بصورة شبحية وقد شجت جبهته . وقد اتضح فيما بعد ان هذه الرؤيا حدثت مباشرة على اثر سقوط صديقي بالطيارة وكان ملقي جريحا في حقل » فقال الآخر : « كثيرا ما يسمع المرء مثل هذه القصة ولكنه لا يدرى هل يصدقها ام لا » فقال لانى « انا طبعا اصدق هذه القصة ، ولم تتكرر هذه التجربة الا منذ ليال فقد استيقظت لا ادرى كيف وسمعت وانا راقد في الظلام صوتا يقول بوضوح ان فريدى في داخاو وانتظرت فترة طويلة ظنا منى انه قد يظهر أو انى قد أسمع المزيد ولكن بلا طائل . ولم يكن لدى مبرر للتفكير في داخاو ، فهى مكان بعيد عن الذهن جدا . ولذا تجدنى مهتما طبعا بتتبع هذا الخيط لاعرف هل انا حقيقة ما يسمونه صاحب قوة نفسية » ووافقه هوجو أيضا على ان ذلك يهمه فعلا ، وزاد اهتمامه عند ما دس لانى عدد أوراق من ذات المائة مارك في جيبه قائلا وهو يضحك « ان أمى وزوج أمى دفعا أكثر من هذا بكثير لوسيطات روحيات عسى أن يحصلا على نبأ عن صديقنا » .

- ٤ -

وكان هوجو ايضا قد حضر الاحتفال بيوم الحزب . ولم يكن ذلك الاحتفال في نظره مجرد اظهار رائع للولاء بل هو كذلك نداء موجه الى كل رفيق في الحزب كي يرى ان الولاء لم يذهب سدى فهذا المليون من العمال المخلصين قاموا بخدماتهم دون اجر لانهم وعدوا بمكافأة جماعية عظيمة هى تحسين حال الرجل العادى في المانيا ،. ولكن هؤلاء لم يحصلوا على شيء بعد فما من اصلاح من الاصلاحات الاقتصادية الموعودة وضعت موضع التنفيذ ، بل ان اجراءات كثيرة مما اتخذ كانت رجعية بحيث امست الاصلاحات المنشودة أبعد منالا وأصعب تنفيذا . فكبار المخدومين حصلوا على مناصب قيادية في الرقابة على مجالس ادارات المتاجر الجديدة ، وذلك يعنى ببساطة ان الاجور ستتجمد على ما هى عليه وان العمال حرموا من جميع الوسائل ذات التاثير في احوالهم . ويصدق هذا ايضا على الفلاحين لان الاسعار ثبتت . وقال هوجو « واذا استمر الحال على هذا المنوال فسينتهى الى نظام عبودى فحسب » .

وخيل الى لانى ان قائد الرياضة الشاب يتكلم على نحو ما يتكلم الديموقراطى الاشتراكى بالضبط ، فهو لم يغير شيئا سوى العنوان . وهو مصر على ان الضباط والجنود في الحزب على رأيه وتفكيره ، وان

ما يسميه « الثورة الثانية » لا يمكن ان تتاخر اكثر من بضعة اسابيع ٠ وهو يعلق آماله على ارنست رهم رئيس اركان الحرب والقائد الاعلى لكتائب الهجوم ، وكان احد الرجال العشرة الذين حوكموا بتهمة الخيانة وسجنوا بعد انقلاب حانة البيرة الفشل ، وكان طيلة حياته جنديا محاربا ، وقد اصبح بطلا فى نظر اولئك الذين يريدون لحزب العمال الالمان الاشتراكى الوطنى ان يظل على العهد به وان ينجـز ما وعـد ٠ والفوهرر يجب ان يقتنع ، وعند اللزوم يجب ان يدفع دفعا ، فهكذا تمضى الامور فى السياسة٠ فالمسألة ليست من مسـائل حجرة الاسـتقبال وانما هى حرب كلمات وافكار ، وعند الحاجةستكونحرب مظاهرات فى الشـوارع ومسـيرات وتهديدات وما من احد يدرى ذلك خيرا مما يدريه هتلر نفسه ٠

وقال لانى فى نفسه « ان هوجو يخدع نفسه فى رئيس الاركان كما خدع نفســه من قبل فى الفوهرر » فارنست رهم لوطى اعترف علنـا بعاداته هذه ، وهو مخلوق جاهل فظ نادرا ما تظاهر بالمثالية الاشتراكية٠ وحينما يندد بالرجعيين الذين ما زالوا اعضاء فى الوزارة فهو انما يفعل ذلك لانه يريد مزيدا من السلطة لقمصانه البنية وقائدهم ٠ ولكن ليس من شأن لانى ان يلمح الى ذلك ، بل يجب ان يعرف من هم الساخطون ، وان يعرف على الخصوص هل منهم احد من ذوى السلطان فى داخاو ٠ ومثل هؤلاء الرجال يريدون نقودا لملذاتهم ، وان كانوا بصدد صراع على السلطة فهم بحاجة الى النقود لهذا الغرض ٠ وقد تكون هناك فرصة طيبة للعثـور على شخص منهم تمكن رشـوته ليـدع سجينـا يفلت من بين القضبان ٠

وكان تشـاورهما طويلا ، فامضت بهما النزهة فى السـيارة الى الريف ، وهوريف جميل مستو ٠ وكل قدم مربعة منه معتنى بها كأنها حجرة جلوس فى بيت انسان ، فلا مكان لعود واحد من الاعشاب الطفيلية فى ارض الوطن كلها ٠ والغابات مزروعة فى صفوف كالبساتين ومعنى بها على هذا النحو ايضا ٠ وكان ذلك بعد ظهر يوم السبت والبحيرات التى لا حصر لها حول برلين بهيجة بما فيها من زوارق شراعية صغيرة ، وشواطئها تحف بها الاكواخ وبيوت الاستحمام والدروب المتفـرعة عن الطرق تحف بها الاشجار وهى غاصة بالطيور الرحل ! وهم الجوالة فى حركة الشباب الالمانى) وبشبان يرتاضون سيرا على الاقدام ، وكلهم فى مظهر عسكرى ، يرتدون ازياء فرق الهجوم وتفيض اغانيهم بالتحدى ٠ وساحات التدريب منتشرة فى كل مكان والهواء يتجاوب بصيحات حادة آمرة وسط سحائب الغبار الذى يثيره وقع الاقدام ٠ ان المانيا تتاهب

لشيء ما • فان سألت ما هو قالوا « الدفاع » ، ولكنهم لا يحددون بوضوح من الذى يرغب فى الهجوم عليهم غداة توقيع اتفاقية جدية ضد استخدام القوة فى اوربا • وثمة وجه آخر للشبه بين هوجو والديموقراطيين الاشتراكيين اكثر من شبهه بالنازى ، الا وهو كراهيته للروح العسكرية• قال : « هناك طريقان يستطيع بهما الفوهرر أن يحل مشكلة البطالة •• احدهما أن يرغم الكسالى على العمل وبذلك يتيحون الرخاء للجميع بما فى ذلك أشخاصهم ، والطريق الآخر أن يحولهم الى جيش يدربهم ثم يرسله للاستيلاء على أراضى الشعوب الأخرى ومصادر ثروتها • وهذه المسألة التى تتقرر فى الوقت الحاضر فى دوائر الحزب الداخلية » فقال لانى : « خسارة انك لا يمكن أن تكون فى تلك الدوائر ! » فكشف صديقه الشاب عما فى أعماق نفسه بقوله : « قد يتم هذا يوما ما » •

- ٥ -

سر صاحب السعادة رئيس وزارة بروسيا الجنرال جورنج بدعوة السيد لانى بد وزوجته للغداء فى مقره الرسمى • ولم يطلب منهما احضار اللوحات ، ولم يأسف لانى على ذلك لانه لم يستطع أن يتصور أخت الرحمة فى مكان واحد مع شبل أسد • وشك كثيرا جدا فى أن يكون صاحب السعادة مخدوعا فى السبب الحقيقى لحضور لانى الى برلين • ومهما يكن من شيء فقائد سلاح الطيران الألمانى كان يشرف على ايجاد فنه الخاص به وحسب أوامره ، فى صورة تمثال عار تماما لزوجته المتوفاة من واقع الصور الفوتوغرافية ، ثم صب ذلك التمثال من الذهب الخالص !

وهذا على الأقل ماروته الأميرة دونرشتاين لايرما ، فلا سبيل الى كشف السن لاولئك السيدات الأنيقات ، وقد تدفقت الأميرة بالأسرار القذرة فجمعتها ايرما وعادت بها الىالبيت • وكان الطيار الأشقر الوسيم جورنج قد هرب بعد أن أصيببجرح فىانقلاب حانة البيرة الفاشلوتسلل الى الخارجوتزوج بارونة سويدية•وكانت السيدة مصابة بالصرعوزوجها مدمن مورفين • ولا محل للشك فى هاتين الحقيقتين لانهما ثبتتا أمام المحكمة عندما حرمت البارونة من حضانة ابنها من زواج سابق • وقد ماتت السيدة فيما بعد بالسل وعاد جورنج الى ألمانيا وتخير لمخادنته تسن وولى العهد السابق ، واختار أخت ملك الصلب « سكرتيرة » له • وهذا المعنى الخاص لكلمة السكرتيرة دلت عليه لهجة الاميرة وهى تنطق بها • وكان المفروض أن يتزوج انيتا تسن هذه ولكن ذلك لم يحدث ، ولعل

السبب انه أصبح اعظم مما ينبغي ، أو أسمن مما ينبغي ! ففي الوقت الحاضر شطب اسم انيتا ورشحت بدلا منها ايمي سونمان وهي شقراء مثل جنيات الفالكيري في الاساطير الشمالية وتمثل في مسرح الدولة وفي وسعها أن تحصل على أي دور تختاره • وأردفت الاميرة دونرشتاين ، بلسانها الذي يشبه لسان الحية ، ولكن هذا لا ينفي وجـــود سيدات اخريات في حياته • فخذي حذرك يا فراو بد ! » •

وهكذا تعلمت ايرما كلمة المانية جديدة : « خذي حذرك » •

- ٦ -

قضت بنت ملك المشروعات العامة معظم حياتها في الابهاء الرخامية ، وما كان يرهبها منظر اكسية حجـاب جونرج أو ازيائه العسكرية هو وبطانته • ويبدو أن شبل الأسد لم يكن معدا لاستقبال السيدات ، ولم تفتقد ايرما وجوده • اما المائدة الكبيرة من خشب الأبنوس ومن خلفها الستائر الذهبية فكانت شيئا مذهلا حقا ، جعل ايرما تفكر في لوحات ديك اوكسنرد ، ولم تستطع أن تتصور لماذا سخر منها لاني • والحجاب يرتدون سترات وردية وسراويل ضيقة وجوارب من الحرير الأبيض ، ولكن هذا لا يكاد يناسب وقت النهار • وأوسمة الجنرال بدت لها ملائمة لحفلة عشاء رسمية أكثر منها لحفلة غداء خاص • ومع هذا كان الطيار السابق حسن الصحبة جدا ، فهو يتكلم الانجليزية جيدا ولعله أراد أن يثبت ذلك لها ، وقد قام بمعظم الحديث وضحك بابتهاج من نكاته الخاصة • ولم يكن حاضرا سوى فورت فينجلر وضابط آخر من حاشيته ، وغني عن البيان انهما ضحكا من هذه النكات ولم يرويا شيئا من نكاتهما • فكان الغداء في مظهره مسالة اجتماعية محض ، فلا كلمة واحدة عن الديات أو الرهائن أو اليهود أو معسكرات الاعتقال • ولم تكن بلاني في حاجة الى أن يقول : « أرجو أن تكون قد لاحظت ياصاحب السعادة انى نفذت اتفاقي معك» • فان وجوده هنا وتقديم بيض طائر القطقاط المخزون في الثلاجات وفرخ حمام سمين اليه دليل كاف على انه حافظ على كلمته وان مضيفه لاحظ ذلك •

وكان المظهر يدل على ان هذا الرجل الذي يشغل ثمانية مناصب أو عشرة من اشد المنـاصب مســئولية في الرايخ الثالث لا يستمتع بشيء استمتاعه باحتساء البراندي والثرثرة مع ثريين امريكيين فارغين من كل عمل • وصار الأمر متروكا للاني كي يقوم بدوره ويجعل الأمر يبدو وكأنه

محض الصدفة حين يذكر انه وزوجته زارا لوزان فى أوائل أيام مؤتمر تحديد التسليح ، ثم يذكر الأقاصيص الداخلية عن الشخصيات البارزة هناك بما فيهم الألمان . ثم يقوده ذلك الى ذكر وجوده ضمن هيئة معاونى الوفد الامريكى في باريس حيث التقى برجال كثيرين وساعد جاسوسا ألمانيا على الهرب الى أسبانيا . وهو يعرف عددا من الأعضاء القياديين فى عدد من الأحزاب الفرنسية منهم دلاديه رئيس الوزراء ، كما زار فى بيوتهم نفرا من رجال وزارة الخارجية البريطانية . أجل ، ليس من شك فى انه شاب أمامه فرص استثنائية ويمكن أن يكون مفيدا جدا لوزير الرايخ بدون وزارة وقد كان مستعدا لذلك . ولم تقل كلمة واحدة ولكن كانت ترفرف فى الجو هذه الفكرة « لماذا لا تنتهز الفرصة يا صاحب السعادة وتطلق سراح صديقى ابن المستغل اليهودى ؟ » .

- ٧ -

كان السيد وزير الرايخ يوسف جوبلز من الرقة بحيث صرح بانه يرى عمل مارسيل ديتاز مناسبا للعرض فى ألمانيا ، ففنه لا ضرر منه وان لم يكن ممتازا بصورة خاصة . وفهم لانى انه لا يمكن أن يتوقع أكثر من ذلك لرسام من أمة يصفها الفوهرر بأنها ذات دماء زنجية . وكان ذلك كافيا فأبرق الى زلطان كى يحضر الى برلين .

وماذا يصنع المرء ليحصل على الدعاية لدى صحافة متماثلة الشكل ذات طابع موحد ؟ وقد اكتشف لانى مايجب أن يصنعه قبل وصول صديقه، فقد جاء لزيارته سيد مهذب لم يزل شابا تلوح عليه سيما رجل الأعمال الى أقصى حد ، فهو من سكان برلين الذين يرتدون قبعة من نوع دربى ولهم فى سترتهم مشبك يعلقون به القبعة فى اليوم الشديد الحر ، وبذلك يجمعون بين وسيلة للراحة واحترام المظهر . وبطاقة زيارته تعرف به على النحو التالى : فهو الهر الوزيوس فنكلر تزوشتورمشاتن المدرس الجامعى الخاص والدكتور فى الفلسفة . وبصوت فلسفى مهذب أخبر لانى انه فى موقف يسمح له برفع سمعة ديتاز ، أو العكس . وكان المدرس الجامعى الخاص يتحدث بلهجة من يملك السلطة والتصميم معا ، فلم يراوغ ولم يخفض بصره بل قال : « انت رجل خبير بأحوال الدنيا يا هر بد . وتعلم ان فى المستطاع كسب مبلغ طائل من المال من بيع هذه اللوحات اذا ما قدمت للناس بالطريقة اللائقة . والواقع اننى عضو فى الحزب منذ أيامه الأولى وصديق حميم لأشخاص لهم نفوذ كبير . وفى الأيام الماضية قدمت لهم

خدمات وبادلونى مثلها • وأنت تدرى كيف تسير هذه الأمور » فقال لانى انه يدرى ذلك ، ولكن هذا المعرض ليس مشروعا تجاريا خالصا ، وانما هو مهتم بالتعريف بعمل رجل كان يحبه وهو على قيد الحياة ولم يزل يعجب به • فقال الغريب وصوته الناعم أشبه بخرير سيارة غالية الثمن : « نعم نعم •• بالطبع •• أنا فاهم ماذا تريد وأنا فى وضع يسمح لى باتاحته لك • ففى مقابل مبلغ عشرين ألف مارك استطيع أن أجعل من مارسيل ديتاز رساما شهيرا • وبمبلغ خمسين الف مارك استطيع ان اجعله رائد حقبة جديدة فى فن التصوير » فقال لانى : « هذا شىء بديع ان تم •• ولكن كيف أعرف أنك قادر عليه ؟ » فقال : بمبلغ ألفى مارك أستطيع أن أصل الى نشر مقال نقدى ممتاز عن ديتاز مع صورتين لعلمين من اعماله فى أى صحيفة يومية ببرلين يقع عليها اختيارك • وسيكون هذا كما تعلم اختبارا ولن تدفع شيئا الى أن يظهر المقال• ولكن يجب أن يكون مفهوما اننى اذا نشرت مقالا كهذا فانت مرتبط بالمعنى فى المشروعات الكبيرة التى اقترحتها عليك ، فأنا لست شخصا رخيصا ، ولا أهتم بما تسمونه معاشر الامريكيين البطاطس الصغيرة • وذلك أن تكتب المقال بنفسك ، ولكن الأحجى أن تزودنى بالمادة وتتركنى أعد المقال لانى أعرف جمهور برلين وأستطيع أن اقدم له شيئا اليق أن يعينك على بلوغ هدفك » •

وهكذا امكن فى الصباح الذى وصل فيه زلطان كرتيزى الى الفندق ان يضع لانى بين يديه صحيفة يومية حديثة الصدور وبها مقال على ديتاز يمتاز بالكفاءة النقدية وبالحيوية الصحفية فى آن واحد • وجرت عينا زلطان فوق السطور ثم هتف « كيف استطعت بالله أن تصنع هذا ؟ » فقال لانى : «لقد عثرت على وكيل كفء للشئون الصحفية» وكان يعلم ان زلطان متحرج، فى حين أن شريك زلطان كان قد ترك تحرجه فى المدينة النمساوية التى اجتاز منها الحدود الى أرض النازى •

وفى ساعة متأخرة من ذلك الصباح حضر السيد المدرس الجامعى الخاص واخذ لانى فى جولة بالسيارة وقال له ربيب ديتاز انه يريد لزوج أمه أن يصبح رائدا لحقبة جديدة فى فن التصوير ، وعرض عليه مبلغ عشرة آلاف مارك فى الأسبوع لمدة أسبوع واحد قبل المعرض وأسبوعين خلاله بشرط ظهور الدعاية بكميات وفيرة وعلى أساس مستوى العينة • وقبل السيد المدرس الجامعى الخاص وعاد الى الفندق حيث يوجد زلطان • ولعله لم يكن بريئا جدا كما يبدو عليه فقد جلس معهما لرسم خطة الحملة •

لقد تم استئجار حجرات مناسبة للعرض ، وقام جيرى بندلتون الذى يمكن الاعتماد عليه دائما للاشراف على حزم اللوحات فى بيانفينى واستأجر سيارة نقل وتناوب قيادتها مع سائقها وكان ينام بداخلها ، وحضر مباشرة الى برلين بشحنته الثمينة • وجاءت بيوتى وزوجها بالقطار ، فلم تكن هناك وسيلة لابقائها بعيدا ، وهى على كل حال يساوى حضورها مايبذل فيه من نفقات باعتبارها معرضا مساعدا • وكانت فى منتصف العقد السادس من عمرها ، ولا سبيل لها الى انكار ذلك ولانى الى جوارها بيد انها لم تزل وردة مزدهرة • وان شككت فيما كانت عليه يوما ما فهناك لوحتان من أجمل ما يمكن لاثبات دعواها • وما من شىء يمكن أن يبلبل عقول الناس المحتشدين فى المعرض كأن يروها واقفة بقرب الصورتين بحيث يتسنى لهم القيام بالمقارنة • فهى أرملة ذلك الرائد لحقبة جديدة ، وها هو ابنها ــ ولكنه ليس ابن الرسام ــ كلا •• فهذه السلالات شبه الزنجية تجنح الى التخليط فى صلاتها • فأما الامريكيون فالطلاق عندهم أضحوكة ، ولديهم مدينة خاصة فى ذلك الغرب الفطرى من بلادهم تلجأ اليها ذوات القلوب المحطمة من السيدات المرموقات فتقمن بها بضعة اسابيع للحصول على الطلاق ، ويجدون فى هذه الفترة العزاء والسلوان لدى رعاة البقر والرجال من الهنود الحمر !

وبالنسبة للجميلة المحترفة كانت هذه الرحلة نوعا من الاستقبال العام بعد الظهر وفى المساء لمدة أسبوعين ولم تفتها دقيقة واحدة منها • وانه لشىء بديع مبهج أن تكون قادرة على دعوة أصدقائها لمشاهدة معرض هى جانب فريد فيه : فهى المضيفة وكاتبة السيرة والمؤرخة والمستشارة والمرشدة ، وعند الحاجة مساعدة فى البيع ! وهى على الدوام أنيسة ورشيقة ساحرة وعلى علاقة وثيقة بذلك الرجل العظيم المحب للفنون الجميلة • وقد أثنى عليها زلطان ثناء بارزا حين قال : « يا عزيزتى بيوتى بد ، كان ينبغى أن أطلب اليك أن تتزوجينى وتسافرى معى حول العالم نبيع الصور » فأجابته بيوتى بأحسن ابتساماتها التى تبرز أنوثتها : « ولماذا لم تفعل ؟ » (وكان السيد دنجل غائبا فى زيارة لاحدى الوسيطات يحاول الوصول الى شىء فى موضوع فريدى بيد انه بدلا من ذلك كان يحصل على رسائل مطولة من أبيه الذى كان سعيدا جدا فى عالم الأرواح • ويؤكد لابنه انه أحرز تقدما كبيرا من الوجهة الأخلاقية عما كان عليه فى الدنيا) •

ولم يزل فى المانيا أثرياء ، فأقطاب الفولاذ فى الرور وبناة القوى

الكهربائية أو أصحاب المصانع التي تنتج وسائل الدفاع ، كل أولئك كانوا متربعين فوق قمة المانيا ، وبعد أن أزالوا من الوجود نقابات العمال صار في مقدورهم أن يدفعوا أجورا منخفضة من غير أن يخشوا الاضرابات ، وبذلك صاروا يعولون على أرباح تتدفق عليهم في فيضانات متزايدة . وكانوا يتلفتون حولهم باحثين عن استثمارات متينة وكانوا قد تعلموا منذ عشر سنين ان الشيء الوحيد الذى فى أمان من التضخم هو الماس أولا ثم أعمال الأساتذة الأقدمين . وللقاعدة العامة أن أمراء المال ليست لديهم ثقافة كثيرة ولكنهم يعرفون كيف يقرأون . فلما رأوا فى الصحف الواحدة ، بعد الأخرى ان مدرسة جديدة فى فن التصوير قد برزت الى المقدمة قرروا أن يحصلوا على الأقل على عينه من هذا الأسلوب فى مجموعاتهم . فان كانوا مسنين متقاعدين حضروا الى المعرض ، وان كانوا فى منتصف العمر مشغولين بأعمالهم ارسلوا اليه زوجاتهم وبناتهم . ولم يفزعهم ان يكون ثمن المنظر الطبيعى عشرين أو ثلاثين الف مارك . بل بالعكس كان من شأن ذلك أن يجعل ديتاز موضوعا للتباهى .

وهكذا جاءت ارباح لانى ووالدته واخته غير الشقيقة ـ فعمولة زلطان اقل من عشرة فى المائة تزيد عشرين ضعفا على ما دفعه الى المدرس الجامعى الخاص الكفء . واقترح زلطان استمرار دفع مرتب هـــذا المروج القدير ومواصلة طنطنة المجد اسبوعا آخر . وحتى ايرما نفسها وقع لديها ذلك النجاح وقعا كبيرا وبدأت تنظر الى هـــذه الصور المألوفة بعين جديدة ، وتساءلت : « أليس من الأفضل أن تحتفظ بها كلها للقصر الذى تنوى أن تقتنيه يوما ما فى انجلترا أو فرنسا مع تزويده بأعمال السباكة العصرية . وقالت لزوجها : « ها أنت ذا ترى كيف تتحسن الأحوال من جميع الوجوه عندما تستقر وتكف عن الكلام كالحمر ! » .

- ٩ -

وقد اتفق وقت معرض ديتاز مع وقت مشهد من أغرب المشاهد العامة التى شهدها التاريخ . وكان النازيون قد ألقوا جريرة محاولة احراق الرايشتاج على الشيوعيين . فى حين قال أعداء النازية ان هذا الحريق مؤامرة من جانب الهتلريين كى يتاح لهم الاستيلاء على السلطة. وقد وصل الخلاف الى الذروة عندما نشر فى برلين الكتاب البنى فى الارهاب الهتلرى الذى اتهم مدير البوليس النازى فى برسلاو وهو من أسوأ الارهابيين بأنه قاد جماعة من كتائب الهجوم عن طريق نفق من مقر جورنج الى مبنى

الرايشتاج حيث نثروا أحمالا من المواد الحارقة في جميع أرجاء المكان ، في حين قام فريق آخر منهم باحضار أفاق هولندى معتوه الى البناء عن طريق نافذة فيه وجعلوه يشعل النيران بواسطة مشعل بيتى • وهذا ما كان العالم أجمع مزمعا أن يصدقه ، فلم يستطع النازيون التنصل من العاقبة وراحوا مدة ستة شهور أو سبعة يعدون الأدلة والقرائن . وفي شهر سبتمبر بدأوا اجراءات محاكمة علنية • واتهموا ذلك الهولندى باقتراف الجريمة وبأن مساعديه فيها ثلاثة من الشيوعيين البلغاريين وألمانى واحد• ونشبت الدعاية حول هذا الموضوع ثلاثة أشهر لا في ألمانيا وحدها بل في كل مكان تقرأ فيه الأنباء وتناقش فيه المسائل العامة • ودونت أقوال الشهود في عشرة آلاف صفحة وسجلت سبعة آلاف فقرة بالكهرباء من هذه الأقوال لاذاعتها •

وكانت الهيئة التى تتولى المحاكمة هى الدائرة الجنائية الرابعة من المحكمة العليا الألمانية في لايبزج • ومن العجيب ان هذه المحكمة هى بعينها التى وقف أمامها أدولف هتلر قبل ذلك بثلاث سنين معلنا أن رءوسا ستتدحرج فوق الرمال • أما الآن فسينفذ وعيده ولسوء الحظ كان قد أغفل « تنسيق » سائر الأعضاء الخمسة في المحكمة ولعله لم يجسر على ذلك بسبب الرأى العام العـالمى • وكان ثمة شيء من الاذعان للاجراءات القضائية المقررة • وكانت النتيجة عملية فاشلة حتى ان النازى تلقنوه درسا ولم يسمحوا بعدها مطلقا للمشبوهين السياسيين بالمثول امام الجمهور ومناقشة من يتهمونهم •

وفي اكتوبر ونوفمبر حضرت المحكمة الى برلين ، وكان حضورها مشهدا مجانيا لمن لديهم وقت فراغ ، ولا سيما أولئك الذين يسرون في أعماق قلوبهم برؤية النازى مستذلين وكان المتهمون الخمسة قد كبلوا بالأغلال سبعة أشهر وظلوا مكبلين بها في قاعة المحكمة طوال مدة المحاكمة• وكانت المأساة في هذا المشهد من نصيب الهولندى « فان دير لوبى » وهو نصف أعمى ونصف مخبول يسيل المخاط من فمه وأنفه ويضحك ويبتسم بأصوات وحركات عصبية ويدلى باجابات غامضة ويجلس في حالة شرود اذا ترك وشأنه • أما الميلودراما فكانت من نصيب البلغارى ديمتروف الذى سرق « الكاميرا » .فهو عالم ورجل خبير بالدنيا سريع البديهة فطن له شجاعة أسد ، فحول المحاكمة الى دعاية ضد النازى متحديا مضطهديه ساخرا بهم مثيرا لغضبهم الى حد الجنون • وقد أخرجوه من القاعة ثلاث مرات ولكنهم كانـوا يضطرون لاعادته ومن جديد ينســاب التهـــكم والتحدى وتعرية الاهداف الثورية •

وسرعان ما اتضح انه لا ديمتروف ولا المتهمون الآخرون عرفوا قط « فان دير لوبي » او كانت لهم أية صلة بحريق الرايشستاج وقد جاء الخطأ من أن موظفا فى الارشيف البرلمانى فى مبنى الرايشستاج يشبه المعتوه الهولندى ، وقد شوهد الشيوعى تورجلر يتحدث اليه • وتدريجا تحولت الاجراءات الى محاكمة للكتاب البنى ، محاكمة كانت اللجنة البريطانية غير المنظورة تمثل الاتهام وكان النازى يمثلون الدفاع • وحضر جوبلز ونكد بذلك الكتاب ، فسخر منه ديمتروف وجعله عبرة • ثم جاء رئيس الدولة البروسية البدين ، وكانت المسالة جدية بالنسبة اليه ، لان المواد الحارقة جاءت من مقره ومن الصعب حقا أن يتخيل المرء انه كان يجهل ما يجرى هناك • وتحت وطأة اتهامات البلغارى اللاذعة فقد جورنج اعصابه تماما وتحتم على القاضى رئيس الهيئة أن يخف لانقاذه فأمر بجر « ديمتروف » الى الخارج ، فى حين صاح جورنج وراءه : « أنا لست خائفا منك أيها الوغد •• أنا لست هنا كى تستجوبنى أنت أيها الشرير ضالة المشانق ! ستندم كثيرا ان وقعت فى يدى عند خروجك من السجن ! » ولم يكن ذلك السلوك بالغ الوقار من رئيس وزارة بروسيا ووزير الرايخ لسائر المانيا !

- ١٠ -

وأثناء هذه الأحداث المسلية وصلت الى لانى بد فى فندقه رسالتان • وكانت الاولى منهما مؤلمة حقيقة ، فهى رسالة برقية من أبيه يقول ان أعضاء مجلس الادارة المنتخبين حديثا فى مؤسسة بد لصنع الاسلحة قد اجتمعوا ، وان روبى وأخاه كليهما خابت آمالهما • فان لوفورد عندما رأى أخاه الاصغر يوشك أن ينتصر ذهب الى جماعة فى وول ستريت ظهروا على المسرح على غير انتظار ، تؤيدهم شركة التامين التى تملك سندات بد• ووقع الامر الذى كان الجد صمويل يخشاه ويحذر منه طول حياته : فقد خرجت مؤسسة بد من يد الاسرة !

وهتفت ايرما « ما افظع هذا يا لانى • كان ينبغى ان نكون هناك لنهتم بالموضوع » فأجابها « أشك فى اننا كنا مستطيعين أن نصنع شيئا• ولو كان هذا رأى روبى لكان أبرق به الينا بالتأكيد » فقالت « ان ما صنعه العم لوفورد انما هو خيانة للأسرة ! » فأجابها « انه طراز خائن من الرجال• من تلك النفوس المظلمة التى ترتكب الجرائم • وكثيرا ما خطر لى انه ربما أطلق الرصاص على روبى حتى لا يدعه يحصل على الجائزة التى ظل كلاهما متلهف عليها طول حياته » فسألته « وعلام يحصل من هذه التسوية ؟ »

فاجابها « يحصل على الرضا بمنع روبى من الانتصار وبطبيعة الحال ربما كان جماعة وول ستريت قد نقدوه شيئا · ومهما يكن من شيء فروبى لديه عقد عمله ولا يستطيعون فصله » فهتفت الزوجة الشابة « لقد ابتعت كل هذه الاسهم للاشيء ! فاجابها ليس للاشيء بل بثمن مرتفع فيما أخشى · والافضل ان تبرقي الى العم جوزيف كي ينظر في هذا الامر بامعان وينصحك هل تبيعين هذه الاسهم أو تحتفظين بها · ولا شك في ان روبى سيكتب الينا بالتفصيلات » ·

اما الرسالة الاخرى فكانت مختلفة جدا · فهي خطاب موجه الى لانى بخط يده شخصيا وقد خفق قلبه عندما رآه لانه كان قد أعطى ذلك المظروف لهو جوبير وهو يحمل خاتم بريد ميونيخ ففضه لانى بسرعة فتبين ان هوجو قص ستة أحرف من احدى الصحف والصقها فوق ورقة · وهي طريقة تتبع لدى الخطافين والمتآمرين كي تكون معرفة المرسل مستحيلة · والكلمة التي تكونها هذه الحروف الستة قد تكتب جزءا واحدا أو جزئين بترك مسافة بعد الحرفين الاول والثاني · وهكذا الصقها هوجو في جزئين متباعدين فادرك لانى ان فريدى في « داخاو » وأنه بخير ·

ونسى الفتى الامريكي اللاهي آمال أبيه الضائعة وميراثه الضائع شخصيا فقد أزيح عن ذهنه عبء ثقيل وارسل برقيتين احداهما الى السيدة دنجل في جوان — وكان الاتفاق ان يفتح آل روبى مثل هذه الرسائل ، والبرقية الاخرى الى روبى في نيوكاسل نفسها حسب الشفرة موسيقى الكلارينت ممتازة » وأضاف الابن العارف بالواجب الى الرسالة الاخيرة « عواطفنا المخلصة لا تأسف كثيرا فما زلنا نحبك » وسوف يتقبل روبى هذه العبارة بابتسامة ·

ومزقت ايرما ولانى رسالة هوجو الى قطع صغيرة وبعثتا بها الى حال سبيلها في مجارى برلين الواسعة ، ومازالت لديهما آمال في الحصول على حكرمة من رئيس الحكومة البروسية ، فقد يظهر لهما الملازم الاول فورت فينجلر في أية لحظة معلنا لهما « لقد عثرنا على صديقكما » والى أن يحين ذلك لا يستطيع لانى الا أن ينتظر · فعندما يحاول المرء تنمية صلاته بالمجتمع الراقى لا يقول لأولئك الناس « لقد تأكد عندى انك كنت تكذب على ، واقترح الآن أن نبدأ في المفاوضة على هذا الاساس » · كلا · بل لا يستطيع لانى أن يقول « لدى شكوك » لان الملازم الاول كان حريا ان يبدى الدهشة على الفور ويسال « على أى أساس ؟ » ولا يستطيع لانى ان يقول « انى أستحثك على مضاعفة الجهد » لان المفروض في الاشخاص المهمين ان يكونوا مشغولين جدا ·

اودع مبلغ الأربعمائة مارك التى حصلوا عليها ثمنا للوحات ديتاز أو ما هو أكثر من ذلك قليلا فى بنوك برلين وفى يد لانى وزلطان أن يستخدما هذه الماركات فى شراء أعمال فنية لعملائهم الامريكيين الذين سيسددون الحساب فى نيويورك ، وبذلك لا يكون هذان الرجلان بحاجة الى طلب مكرمة من النازى • وكان لانى قد حصل على معلومات من قائمة عملائه فى أمريكا ، ولدى زلطان قائمة ظل يضيف اليها على مدى السنين الطويلة وبذلك لن تكون هناك صعوبة فى القيام بقدر كاف من الصفقات • وكانا قد اتفقا على اقتسام الارباح مناصفة فى جميع العمليات •

واقترح لانى نقل المعرض الى ميونيخ مدة أسبوع فوافق صديقه • فهناك جمهور عظيم محب للفنون والبيع مؤكد • يضاف الى هذا ان بيوتى تستمتع بالمعرض ، ولانى يعرف هناك لوحات يمكن ابتياعها • ويتولى جيرى بندلتون ـ الذى بقى فى برلين ليعود بلوحات ديتاز التى لم يتم بيعها الى فرنسا ـ حزم ونقل هذه اللوحات الى ميونيخ • وأكد لهما السيد المدرس الجامعى الخاص انه يتمتع فى المدينة البافارية بنفوذ أكبر من نفوذه فى برلين ، لانها مهد الاشتراكية الوطنية • واتعابه خمسة عشر الف مارك أخرى علاوة على نفقاته أسبوعين ، فهو معتزم ان يعيش فى مستوى عال •

وعاد هوجو بير الى برلين فقال انه اتصل بأحد معارفه القدامى فى الحزب وهو الآن أحد حراس فرق الهجوم فى معسكر داخاو • وقال هوجو لذلك الرجل ان لديه صديقا يستحق له مبلغ من المال لدى يهودى شاب • وهو يتساءل ان كان المدين لم يزل على قيد الحياة وكان هناك أمل فى خروجه • وجاءه الرد بأن فريدى روبى قضى فى المعسكر أربعة شهور أو خمسة ، وانه عومل معاملة خشنة قبل قدومه الى هناك وهو الآن محبوس بمفرده ولا يدرى جندى فرق الهجوم سبب ذلك • وما عناه فريدى بكلمة بخير انه على قيد الحياة ولا يعذب على مبلغ علمه • وان كان لا يوجد انسان سعيد فى داخاو • واضاف هوجو « ربما استطعنا أن نثق بهذا الشخص ، لاننى تحدثت اليه طويلا ، وشعوره ازاء الاحداث يشبه شعورى كثيرا ، وهو شديد الضيق بعمله الذى يختلف عما وعد به ويقول ان كثيرين غيره يشاركونه شعوره وان كانوا لا يتحدثون دائما • وانت تعلم يالانى ان الالمان ليسوا شعبا قاسيا بطبعة وهم لا يحبون أن ينتقى أشد الناس ضراوة وشغبا ليعهد اليهم بالمناصب الرئيسية » • فسأله لانى « هل قال هذا ؟ » فأجابه بل قال ما هو أكثر منه • وقلت له ان

الحزب في رأيي قد أسيئت قيادته وان من واجب ضباطه وجنوده أن يقوموا سبيله . وقد اهتم بما قلت ، وربما قام بتنظيم جماعة من المناصرين في داخاو . » فعلق الامريكي على ذلك بقوله « هذا بديع . وأنا مدين لك بالشيء الكثير . وسأذهب الى ميونخ قريبا جدا ولعلك تستطيع أيضا أن تأتي ، وستكون لدى رسالة أخرى لصديقك » وفي الوقت نفسه أخرج حزمة صغيرة من الاوراق ذوات المائة مارك من جيبه ودسها في جيب صديقه ، وهي مسافة لا تتجاوز بضع بوصات لانهما كانا متجاورين في السيارة .

- ١٢ -

وقال لاني لزوجته « ربما كان من الممكن اخراج فريدى من غير ان ننتظر تعطف الجنرال البدين الى الابد » فهتفت ايرما « خذ حذرك ! فقد تكون في ذلك مخاطرة مخيفة ! » فقال « سنلجأ الى هذا كملاذ اخير . ولكنني اعتقد حقيقة ان جورنج قد اتسع امامه الوقت للبحث في جميع معسكرات الاعتقال في الرايخ . »

وقرر أن يطلب الملازم الاول فورت فينجلر تليفونيا ويسأله فيما يتعلق بالتحرى الموعود بيد أنه أجل ذلك الاتصال الى الصباح التالى ، وقبل أن ينشط لتنفيذ قراره اعلن مقدم الضابط الشاب وأدخل الى الجناح فقال :«ياهر بد ،الديك فراغ لمدة اليومين أو الثلاثة أيام التالية؟» فأجابه « في وسعى أن أخلي وقتي » فقال الشاب « ان صاحب السعادة يرى أنه قد استحق عطلة بعد ارهاق جلسات المحكمة » وقال الضابط الشاب الجاد هذه العبارة من غير أن تظهر على محياه اى بادرة ابتسام ، وأقره لاني بايماءة جادة من رأسه فاستطرد « وصاحب السعادة ماض في رحلة للصيد الى ضيعة الأمير شفارتزيروبر في شورفها يدى وسوف يسره أن تتفضل بصحبته » فأجاب الامريكي بحرارة مناسبة « هذا كرم عظيم منه حقا ، وأقدر هذا الشرف وسأنتهز الفرصة لأعرف الجنرال معرفة افضل فقال الآخر « ولسوء الحظ أن الرحلة مما تسمونه أيها الامريكيون فيما أعتقد رحلة رجالي » فابتسم لاني الذى كان يعرف شيئا عن الصيد في الغابات الالمانية قال « زوجتي لن تعارض ففي بقائها هنا ، فلها صديقات يستطعن تسليتها » فأجاب الملازم الاول « وهو كذلك اذن سنحضر السيارة لتقلك في الساعة الخامسة عشرة غدا ! . »

وخرج الزوجان الشابان بعد ذلك فى السيارة وتحدثا عن الموقف فقال الزوج « انه يريد شيئا • واظنني ساعرف الآن ما هو » فحذرته ايرما قائلة « دعه يقوم بالحديث • فقد رأيت كيف يتوقـــع ذلك من الناس » وكانت اصغر من زوجها بتسع سنين ولم تقابل الجنرال الا مرة واحدة ولكنها عرفت كل شيء عن حبه للتفاخر وفرحه باستعراض نفسه بدنيا وعقليا « فلابد له ان يثبت انه أعظم رجل فى المجموعة واعظم رجل فى الحكومة ، وربما أيضا اعظم رجل فى العالم • وسيصنع لك ماشئت ان انت أقنعته بأنك تعتقد ذلك » •

وكانت والدة لانى تمده بمثل هذه التعـاليم طول حياته فتساءل هل تعلمت ايرما هذه الامور من بيوتى أم من حواء امهن العظمى جميعا ؟

الفصل الثالث والعشرون

جميع ممالك الدنيا

- ١ -

أتيح للاني أن يرى النظام الاقطاعي نافذا وهو صبي في شتويندروف فوجده نظاما ابويا لطيفا ، ولذا استطاع أن يفهم كيف اكتشف النازى هذه الحقيقة . وكانت الجماعة متجهة الى أرض مخصصة للصيد يملكها احد التجار ملاك الاراضى الذين كانوا أصدقاء النقيب جورنج أيام كان طيارا بارزا وخليفة لفون ريشتوفن في قيادة ذلك السرب الشهير . وهؤلاء اليونكر الثراه ربطوا أنفسهم بحزب هتلر على أساس تأكيد جورنج بأنهم سيكونون محل رعاية ، وجورنج الآن قائم على البر بهذا العهد . فلن تكون ثمة « ثورة ثانية » في بروسيا ما استطاع رئيس حكومتها الحيلولة دونها ، وفي اعتقاده انه قادر على ذلك .

وكان سفر الجماعة في تلك السيارة المرسيدس ذات العجلات الست التي درج لاني على تسميتها « المدرعة » . والسائق والحارس الراكب بجواره من كتائب الامن ذوى الكسوة السوداء وكلاهما مدجج بالسلاح . وكان الجنرال بقامته الفائقة الضخامة مسترخيا في المقعد الخلفي ، ولاني في مكان الشرف الى جواره ، وقد جلس في المقعدين المطويين العقيد سيمنس وهو ضابط في جيش الرايخ كان صديقا منذ الحرب العالمية للجنرال ، والنقيب آينشتوس من رجال فرق الهجوم وكان قد صحب جورنج عند فراره الى سويسرا بعد انقلاب حانة البيرة الفاشل . وفي سيارة أخرى من ورائهم ركب فورت فينجلر وضابط آخر من الياوران وسكرتير وعامل تليفون وخادم خاص . وكان ركاب المدرعة يتحدثون عن المحاكمة ، وتمنى لاني لو سمع ما كانوا حريين أن يقولوا لو لم يكن موجودا معهم ، ولكن ذلك مستحيل المنال . وكان حديثهم على أساس ان السجناء الخمسة من سلالة الشيطان وان الجنرال نسف ديمتروف نسفا كاملا . وسألوا لاني ماذا عسى أن يكون رأى العالم الخارجي فأجاب

ان الناس جميعا ميالون الى تصديق ما فى مصلحتهم أن يصدقوه ، وان العالم الخارجي يخشى النازى لأنهم يشكون فى عزمهم على اعادة تسليح المانيا . وهذا كلام ان قيل بحرص يجنب قائله الكذب وفي الوقت نفسه يجنبه الاساءة .

وكانت قيادة السيارة بسرعة كبيرة ، والنفير القوى ينذر العالم أجمع كى يخلى الطريق . وقرب الفسق تركوا الطريق الحلوى الكبير ودخلوا غابة كثيفة قطعوا فيها أميالا كثيرة فى طريق خاصة قبل أن يصلوا الى بيت الصيد الذى كان مضاء اضاءة حسنة لاستقبالهم وبهو بيت الصيد فسيح وعلى أرضه جلود الدببة وعلى جدرانه تذكارات الصيد من رءوس وغيرها . وثمة صف من البنادق فى صندوق زجاجي كبير فى أحد طرفى البهو ، وفي الطرف الآخر مائدة للمآدب ومدفأة عظيمة مبنية بالحجارة وفيها كتل متوهجة من الاخشاب . ولم يكن هناك مضيف فقد وضع المكان تحت تصرف الجنرال ، وقام الخدم فى اردية الحطابين الخضراء باحضار المشروبات . وعندما طلب صاحب السعادة العشاء دخل موكب منهم وكل يحمل صحفة كبيرة من الفضة ، وفى الصحفة الأولى رأس خنزير برى ضخم مشوى يتصاعد منها البخار الحار . وفى الصحفة الثانية فخذ من لحم الغزال . وفى الصحفة الثالثة عدد من أفراخ القطا الاوربى الضخم أكبر حجما من أى نوع من الدجاج المعروف ، وفى الصحفة الرابعة عدد من الارانب الجبلية مطبوخة باليخنى ومحمرة . ولم يسع لانى وهو يتمشى فى ظل النظام الاقطاعى الا أن يضحك ويلتمس الرحمة . ولما كان المضيف الجنرال فخورا باقدامه العظيم فى ميدان الالتهام لم يسؤه أن يرى سواه يظهرون قصورهم عن مجاراته . وكذلك كان الحال بالنسبة للشراب ، فهناك البانش الحار ونبيذ الموزيل البارد واخلاط من البراندى الحارق ، وأنواع من الكوكتيل والجعة . ويظهر انه لا وجود لترتيب مرسوم محدد لتناول المشروبات ، وكان قائد سلاح الطيران المقدام يشرب كل ماتقع عليه عينه ويطلب المزيد. وكانت الموسيقى هى الوسيلة لانقاذ لانى ، فعندما شرعوا يغنون أخذ كاس البانش واتجه الى البيانو وعزف لهم وغنى « دلونى على الطريق الى البيت يا فتيان » . وأغان أخرى مما ينشده الطلبة كان قد تعلمها من أبيه وهو غلام . وسر الجنرال بذلك ، فواصل لانى تسليته بصنوف شتى من الفكاهة الامريكية: « اليانكى العبيط » و « على الارض هوى مكجينى » و « ستكون الواقعة حارة فى المدينة القديمة هذه الليلة » ولم يكن مهما هل يعرفون اللغة

او لا يعرفونها ، لأنهم سرعان ما باتو فى حالة يجهلون فيها ما كانوا يعرفون · وعزف لهم « وطنى القديم كنتوكى » فبكوا · وعزف « الرحالة من اركانسس » و « ديك رومى بين القش » فحاولوا أن يرقصوا وكف لانى عن التوائب بأصـــابعه فوق مفـــاتيح البيانو فوجد رئيـس الدولة البروسية راضيا عنه بحرارة شديدة حتى انه لم يسمح لخادمه الخـاص بمساعدته على صعود السلم بل أصر على وجود الشاب الامريكى عن أحد جانبيه وفتاة زرقاء العينين فلاحة سلافية من شرق المانيا عن جانبه الآخر ·

وهذا وجه آخر من أوجه النظام الاقطاعى الذى سمع لانى كلاما عنه ورآه الآن نافذا · فالخدم من الرجال الذين أحضروا الاطباق الثقيلة اختفوا وقام بتقديم الحلوى والفاكهة والقهوة والمشروبات المتباينة شابات فى ثياب الفلاحات وشعرهن الكتانى يتدلى فى جدائل ثقيلة على ظهورهن· وهن لسن فى البغايا ، وانما هن بنات الخدم والمستأجرين · وكن ينحنين احتراما لهؤلاء السادة ذوى النسب الرفيع والاكسية الرسمية ويرقصن معهم عندما يدعونهن ، وهن مستعدات لتقبل شرف أى نوع آخر يبدونه من الاهتمام بهن· ولا حاجة الى غزل كثير أو تقرب اليهم لأنهن مستعدات لاطاعة الأوامر · ولحسن حظ لانى لم يكن عددهن كافيا لجميع الرجال الموجودين فكان تنازله عن نصيبه فيهن موضع تقدير ·

ونهضت الجماعة من نومها متأخرة فى اليوم التالى ، ولم يكن ثمة وجه للعجلة لأن هذا النوع من الصيد يتم حسب مراد الصيادين لا على حسب عادات الفرائس · وبعد افطار من اللحوم خرجوا ليتخذوا مواقفهم فى الغابات واخذ خدم الصيد يدفعون الايائل والجاموس البرى والخنازير البرية للخروج من الاحراش الى الأماكن المكشـــوفة · ونال لانى شرف الوجود فى وضع واحد مع «الجنرال» ، وانتظر بادب ريما أطلق الرجل العظيم بندقيته ، فلما قيل له ان هذا دوره حافظ على سمعة مؤسسه بد لصنع البنادق · وكان ذلك منه جهدا يستحق العزاء لأنه قدر ان الوقت لن يطول قبل أن يستفيد روبى من هذه العلاقات الثمينة ·

- ٢ -

وبعد ان حصل صاحب السعادة على الترويح والرياضة عن طريق جذب زناد بندقية عاد الى بيت الصيد وامسك بأزمة الحكم ويبدو انه كان

قد أمر بانشاء خط تليفونى خاص فى هذه الضيعة فقضى ساعتين يستمع للتقارير ويصدر الاوامر • وكان يبدو غاضبا معظم الوقت ، أم لعل هذه طريقته فى الحكم ؟ فكأنما كان يحاول الاتصال ببرلين عن طريق الهواء لا عن طريق سلك من النحاس • فكان خواره يتردد صـــداه فى أرجاء البيت ، وكان لانى متلهفا على الا يسمع شيئا فذهب الى قاعة البليارد وراقب الضابطين الصغيرين وكل منهما يربح من الآخر مبلغا صغيرا • وبين الحين والحين عندما ترتفع طبقة الصوت بصورة خارقة ينظران الى لانى ويبتسمان فيجزى ابتسامهما بالابتسام ، وهـــذا امتيـــاز خاص بالمرءوسين •

وكان الضيف يود لو تمشى على قدميـه فى هـــذه الغابة الكثيفة البديعة ، ولكنه آثر ان يظل تحت تصرف مضيفه • وفعلا بعد أن تلقت دولة بروسيا أوامر السير لذلك الصباح دعى لانى للمثول ، وعندئذ عرف لماذا جاء فى رحلة الصيد ، وكان قائد ســلاح الطيران الالمانى البدين مسترخيا على سجيته فى روب منزلى من الحرير الازرق السماوى المزين بقطع من فراء القاقم ، وقد وجه الحديث الى الموضوعات الدولية وشرع يبين الصعوبات التى يجدها فى الحصول على معلومات حقيقية حول موقف الدوائر الحاكمة فى العواصم الأوروبية • ان له عملاء كثيرى العدد ، ولكن لهم مرتبات سخية ويسمح لهم بالمبالغة فى حسابات نفقاتهم ، ولكن أشدهم اخلاصا هم أقلهم اتصالات • أما أصحاب الاتصالات الحقيقية فلديهم استعداد متكافىء للعمل لحساب الجانب الآخر •

وكان قد وصل الى مرحلة رفع التكليف فقال « افهمنى يا بد • أنا لست من البلاهة بحيث اتخيل ان فى امكانى استخدامك ، فأنا أعلم انك ذو مهنة تدر عليك الكثير ، بصرف النظر عن ثراء زوجتك • فقد كانت لى أنا أيضا زوجة غنية واكتشفت ان مثل هذه الزوجة تتوقع الاهتمام والعناية ولا تترك المرء على حريته تماما • ولكن الواقع انك تنتقل كثيرا وتتجمع لديك معلومات ، ولا شك انك تدرى متى تكون هذه المعلومات مهمة • » فقال لانى مظهرا التجاوب ولكن بغير اسراف « أظن ان هذا حدث فعلا بين الحين والحين » فقال جورنج : « ان ما أريده ليس عميلا بل صديقا ، يكون سيدا مهذبا أستطيع الثقة بشرفه ، ولا يكون عديم الاكتراث بخطورة مهمتنا فى احباط الخطر الاحمر فى المانيا وربما استطعنا بعد ذلك أن نمحو من الوجود ذلك الوكر الذى تفرخ فيـه هـــذه الافاعى • وبالتأكيد ليس من الضرورى أن يكون المرء المانيا كى يقر هدفا كهذا » فقال لانى « انى متفق معك فى الرأى يا صاحب السعادة » فقال الرجل

العظيم » نادنى باسم جورنج ٠ ولعلك مدرك كيف يمل المرء من طول التعامل مع الاتباع والمتملقين ، فانت رجل يقول ما يعتقد ، وعندما انازلك اشعر بشيء من المباراة » فقالا لانى « أشكرك يا صا ٠٠٠ يا جورنج » فقال جورنج « أنا واثق انك مدرك اننا نحن النازيين لاننشد غايات صغيرة ٠ فانت من القلة الذين يتوفر لديهم الخيال لادراك انك متى صرت صديقى استطعت أن تحصل على أى شيء تحب أن تطلبه منى وانا مزمع ان أكون من أغنى رجال العالم لا لأنى طامع فى المال ، بل لأن أمامى مهمة اقوم بها ، والمال بعض وسائلها ٠ سنشيد صـــناعة ضـــخمة تصبح ميراثا للمستقبل ٠ ويقينا اننا لن نتركها في يد اليهـــود أو غيرهم من عملاء البلشفية ٠ وان عاجلا أو آجلا سنستولى على الصناعة الروسية ونطورها كى تصبح متمشية مع الطرق العصرية فى الانتاج ونحن بحاجة كى نحقق هذا كله الى العقول والكفاية ٠ وانا شخصيا بحاجة الى رجال يلتقون معى فى وجهات النظر ، وأنا مستعد أن أدفع لهم على مستوى ملكى ٠ فلا حدود لما يمكن أن أصنعه لرجل يصبح شريكا حقيقيا لى ٠ فقال لانى « انى أقدر هذا الاطراء يا عزيزى جورنج ، ولكنى اشك فى كفاءتى لمثل هذا الدور ٠ فلا بد ان لديك يقينا بين الالمان من تلقى تدريبا خاصا ٠٠ » فقال « ما من المانى يستطيع أن يقوم بما اقترحه عليك ٠ بل لا بد أن يكون امريكيا من المفروض انه فوق المعركة ففى استطاعتك أن تذهب الى فرنسا أو انجلترا وتقابل من تشاء وتنجز مهاما على أعلى درجة من الدقة من غير أن تضيع وقتا أو تضحى بمتعتك أو متعة زوجتك ٠ ولن اطلب اليك أن تقوم بعمل يناقض الشرف أو أن تخون ثقة احد ٠ فان انت مثلا قابلت بعض الاشخاص المعينين فى تلك البلاد وتحادثت معهم فى السياسة وأبلغتنى بمواقفهم الحقيقية لأمكن أن أعرف من منهم يريد حقا هزيمة الحمر ومن منهم يفضل ان يرى هؤلاء الشياطين يحصـــنون انفسهم على أن يرى المانيا ناهضة على قدميها ٠ وستكون هذه المعلومات ذات قيمة عندى لا تقدر بثمن ٠ وصدقنى انك لن تحتاج الى أكثر من تلميح خفى لرغباتك ٠ وان استطعت القدوم بين حين وآخر فى بعثـة لشراء اللوحات الفنية من برلين وزرتنى فى مكان منعزل هادىء كهـذا ستكون المعلومات التى تزودنى بهـا ذات فائدة من غير مظهـــر يلفت الأنظار ، واعدك بشرفى الا أذكر اسمك لانسان » ٠

- ٣ -

وخيل الى لانى انه تلقى عرضا ممتازا جدا ، وأسف لحظة لأنه لا يحب النازى ، وشعر بان ايرما كانت تحب له ان يقول نعم ، وكان يسعدها أن تعينه فى مثل هذه المهام الدولية ولا شك فى ان الجنرال دعاها للغداء كي يتسنى له وزنها من هذه الجهة .

وقال زوج ايرما « يا عزيزى جورنج ، انك تقدم لى تحيـــة طيبة واتمنى لو استطعت أن أصدق جدارتى بها . ومن المؤكد انى التقى احيانا بشخصيات هامة وأسمعهم يتحدثون بغير احتياط واعتقد اننى حرى أن أحظى بمزيد من هذه الفرص لو اننى سعيت اليها . وكذلك اجد برلين مدينة تستحب زيارتها ، فان آتيه بين الحين والحين لأرقب عملكم المثير للاهتمام سيكون من الطبيعى لك ان توجه الى أسئلة ومن الطبيعى لى أن أجيب عنها واخبرك بما سمعته . اما حينما تعرض على أن تاجرنى عليها فهذا موضوع آخر لأننى عندئذ ساشعر بوقوعى تحت التزام . وقد كنت دائما شخصا لا يصلح لشىء ولا يرتبط بشىء وحتى قبل أن اتخذ لنفسى زوجة غنيـــة كنت أحب التنقل من مكان الى آخر للتطلع الى الصور والاصغاء للموسيقى الجيدة أو لعزفها فى مستوى غير جيد ، وللثرثرة مع أصدقائى وامتاع نفسى بمراقبة مشـهد البشرية . وحدث فعلا اننى جمعت بعض الثروة ولكنى لم أشعر قط بأنى ربحتهـا بعملى وجهدى ، فهذا شعور لا أحبه لنفسى . » وهو نوع الجواب الذى يدلى به رجل يريد أن يرفع ثمنه . وكيف يستطيع من يريد استخدامه أن يعرف الحقيقة ؟ ولذا قال الجنرال بأسـلوبه الحذر بعينه « ياعزيزى بد . ان آخر ما دار بذهنى أن أجعلك تحت الاحساس بالالتزام أو أن أتدخل فى مباهجك . بل ان أسلوبك فى الحياة هو الذى يجعلك قادرا على مساعدتى » . فقال لانى : « انه ليسرنى حقا يا صاحب السعادة انى اكتشف ان مواطن ضعفى قد تحولت الى مزايا » فابتسم الرجل العظيم ، بيد انه استمر فى محاولة الحصول على ما يريد فقـال « لنفرض انك استطعت ان تؤدى لى هذه الخدمات التى تتفق مع هواك ، والتى لا تحتاج الى تضحية من جانبك أكثر من ركوب السيارة الى برلين مرتين أو ثلاث مرات فى السنة . ولنفرض اننى يوما ما بدافع من الصـداقة الخالصة احببت ان اهديك ارضا مخصصة للصيد مثل هـذه مساحتها مائة او مائتا كيلو متر مربع ، فمن المؤكد انك لن تعتبر هذا مصـدر اذلال أو شيئا منافيا للكرامة » فهتف الفتى اللاهى « حاشا لله ! فلو كنت أملك

ضيعة كهذه فلابد ان ادفع عنها ضرائب ونفقات صيانة ، واصبح على الفور واقعا تحت الزام دبى بالاستفادة منها « فقال جورنج » الا تستطيع ان تفكر فى شىء اصنعه لك ؟ وادرك لانى انه يعامل على مستوى عال جدا من الدبلوماسية . فالجنرال لا يقول له « انت تعلم ان تحت يدى رهينة لك . وهذه هى الطريقة التى يمكن ان تفرينى باطلاق سراحه ! » وهو لم يرغم لانى على ان يقول له » انت تعلم ان تحت يدك رهينة لى وانك لم تبر بوعدك ! »بل هو حريص على أن يجعل الامور ميسرة لكليهما. وبالتاكيد لن يدع لانى هذه الفرصة تفوته ! فقال بسرعة « بلى ياجورنج ثمة شىء واحد ، ان تجعل آلة حكومتك القوية تبذل جهدا خاصا للعثور على الابن الاصغر ليوهانس روين . » فسأله « أما زلت قلقا بشأن هذا اليهودى ؟ » فاجابه لانى « وماحيلتى ؟» انه قريب لى على نحو ما ، فاختى غير الشقيقة متزوجة من اخيه . وبطبيعة الحال تشعر الأسرة بالاسى . وعندما حضرت الى برلين لاعرض لوحات ديتاز وعدت ان ابذل كل ما فى وسعى للعثور عليه . وقد ترددت فى ازعاجك مرة أخرى لعلمى بالمسئوليات الهائلة التى تحملها ... « فقال جورنج » لقد قلت لك من قبل اعزيزى بد انى حاولت العثور على الرجل فلم اوفق « فقال لانى « نعم . ولكنى اعلم مبلغ الارتباك العظيم الذى ساد الشهور القلائل الاخيرة . وأعرف حالات خول فيها بعض الافراد والجماعات لانفسهم السلطات غير المخولة لهم قانونا . فان اردت ان تقدم لى مكرمة لن انساها قط فمر أحد رجال مكتبك ان يقوم بتحريات دقيقة لا فى برلين وحدها بل فى سائر انحاء الرايخ لتتيح لى أن أريح ضميرى تماما من جهة هذا الشاب الذى لا ضرر منه اطلاقا . « فقال رئيس الوزارة البروسية ، وهو كذلك . ان كانت هذه أمنية قلبك فسأحاول ان احققها . ولكن تذكر ان الامر قد يكون فوق طاقتى ، فليس فى استطاعتى ان أرد الموتى الى الحياة » .

- ٤ -

ولما عاد لانى الى برلين اخذ زوجته لنزهة بالسيارة وتحدثا عن هذا التطور الجديد ، وقل لها « فأما أنه لا يشق بى أولا أن تأتينى منه أبناء فى وقت قريب جدا » فقالت ايرما « ولكنه يجب ان يتظاهر بالقيام بالتحريات » فاجاب « لا يحتاج الامر الى وقت طويل كى تكتشف هفوة . وفى وسعه ان يقول » يؤسفنى ان اكتشف أن تنظيمى المفروض

انه تام الكفاية . قد زلت قدمه . فصديقك كان فى داخاو طيلة الوقت وقد أمرت باحضاره الى برلين . فان لم يصنع ذلك فمعناه انه غير راض عن وعودى » فقالت « لعله يعرف عنك أكثر مما يجب يالانى » فقال هذا جائز . لكنه لم يشر الى هــذا اطلاقا ولو تلميحا » فقالت « وهل يفعل شيئا كهذا الا ان كان يناسب اغراضه ؟ ان فريدى وسـيلته الوحيدة للضغط عليك ، وهو يعلم هذا وربما كان يظن انك قد تغادر المانيا على الفور وتذيع قصة يوهانس » فاجابها « ان هذه القصـة صارت الآن عتيقة . ويوهانس صار انســانا مغلوبا على أمره لا قيام له من كبوته ، ولاشك ان أى انسان يمكن ان يهتم كثيرا بأمره . وقد نشر الكتاب البنى ولم يرد فيه ذكر له فقالت زوجته « اسمع هذا سؤال ظل يؤرق ذهنى : ألا يجوز أن فريدى اقترف شيئا خطيرا ، وان جورنج يعلم هذا ويفترض انك تعلمه ؟ » فاجابها « هذا يتوقف على ما تعنيه بكلمة خطير . ففريدى اعان تمويل وادارة مدرسة اشتراكية . وحاول ان يعلم العمال مجموعة من النظريات الديمقراطية والتحررية وهذه جريمة فى نظر هذا النظام الحاكم ، ومن تثبت عليهم هذه التهمة اسعد لهم أن يموتوا . » فقالت « لست اعنى هذا يالانى . وانما اعنى مؤامرة من نوع ما أو مكيدة أو محاولة لقلب الحكومة » فاجابها « انت تعلمين أن فريدى لم يكن يؤمن بشىء من هــذا القبيل وقد سمعته يقول ألف مرة انه يؤمن بان يكون الحكم عن طريق الموافقة الشعبية كما هو الحال عندنا فى امريكا ، وكمـــا حاولت جمهورية فيمر ، أو كما كان المفروض ان تكون على كل حال . » فقالت « ولكن اليس من الجائز ان فريدى ربما غير رأيه بعد حريق الرايشستاج وبعد ان رأى ماصنع برفاقه ؟ فليست جمهورية فيمر التى يحاول قلبها ، بل . هتلر أليس من الجائز انه والكثيرين من رفاقه قد غيروا تفكيرهم ولكن من غير المحتمل ان يكون فريدى منهم فأى فائدة ترجى منه وهو يغلق عينيه عندما يصوب مسدسا ؟ » فقالت « هناك كثيرون غيره يقومون باطلاق النار . أما فريدى فلديه المال ، لديه أكداس منه يستطيع الحصول عليها من أبيه . وفى شهرى مارس وابريل ماذا تعرف عما كان يصنعه أو ما كان يدبره رفاقه واستدرجوه الى المشاركة فيه ؟ » فقال لانى « اعتقد أنه كان حريا أن يخبرنا بذلك يا ايرما لأنه كان سيشعر أن الشرف يقتضى منه ذلك » فقالت « ربما شعر بأنه مرتبط بشرفه ازاء الطرف الآخر فلا يملك أن يتحدث عن أسرار رفاقه هؤلاء . ومن الجائز أيضا أنه لم يكن يعلم ما يجرى وأن الآخرين كانوا يستخدمونه . وبعض

هؤلاء الأشخاص قابلتهم فى المدرسة ، وهم رجال أعلم أنهم ما كانوا ليترددوا فى الرد على العنف بالعنف . فمثلا لودى شولتز : اتتخيل انه يمكن ان يرقد على الارض ويترك آلة النازى تمر من فوقه ؟ الم يكن حريا أن يثير العمال ليقوموا بما يسمونه عملا جماهيريا ؟ وألم تكن زوجته حرية ان تساعده ؟ وفوق هذا لنفرض انه كان يوجد بينهم جاسوس نازى يحاول استدراجهم الى فخ كى يقبض عليهم متلبسين بعمل عنيف ؟ » فأجابها « ان النازى ليسوا بحاجة الى مبررات يا ايرما . فهم يقبضون على الناس اعتباطا » . فقالت « انى اتكلم عن جواز جرم حقيقى أو على الاقل وجود تهمة موجهة الى فريدى مما يجعل جورنج يعتبره خطرا ويحتجزه » فقال لانى « ان الأشخاص الموجودين فى معسكرات الاعتقال ليسوا ممن توجد ضدهم اتهامات جنائية . لأن هؤلاء يودعون السجون ويعذبهم النازى ليحملوهم على الوشاية بشركائهم ثم يطلقون عليهم الرصاص من أقفيتهم ويحرقون جثثهم . أما نزلاء داخاو فهم ساسة اشتراكيون ومحررو صحف وزعماء عمال ، ومثقفون من جميع الطوائف التى تدافع عن الحرية والعدالة والسلام » فقالت « اتعنى أنهم هناك من غير أن توجه اليهم تهمه ؟ » بالضبط . فهم لم يحاكموا ولا يعرفون لماذا هم هناك ولا كم من الزمن سيمكثون . وهم الفان أو ثلاثة الآلاف من صفوة الناس فى بافاريا ، وأكد ظنى ان فريدى لم يقترف شيئا مما اقترفه أى واحد منهم » .

ولم تقل ايرما شيئا بعد هذا ، وكان زوجها يعرف السبب الاوانها لم تستطع ان تصدق ما قال فهو افظع من أن يكون صحيحا . وكان الناس فى جميع انحاء العالم يقولون ذلك ، وسيظلون يقولونه وهذا ما يثير حنق لانى الشديد .

- ٥ -

ومرت الايام وحان موعد الافتتاح بميونيخ ولم يتصل به احد ليعترف بهفوة من جانب الجهاز الحكومى المعصوم من الخطا . وكان لانى يديم التفكير فى هذه المشكلة فهل كان الجنرال الذين يتوقع منه أن يمضى فيسلم البضاعة على النسيئة ثقة منه به ومن غير أن يقدم اليه فاتورة من أى نوع ؟ وقال لانى لنفسه « له ان يذهب الى الجحيم ! وليكن ذلك سريعا ! » .

وبدا الاشتراكى المتنكر يفكر وهو فى ضـيقه فى أولئك الرفاق الذين كان قد التقى بهم فى حفلات الاستقبال بالمدرسة . وكانت راحيل قد اعطته عناوين بعض منهم فراح فى ساعات فراغه يذهب الى موضع منها فى اثر موضع حريصا فى كل مرة على ان يترك سيارته على مسافة غير قليلة وان يتاكد من ان أحدا لا يتبعه . ولم يستطع ولا فى مرة واحدة العثور على أولئك الاشخاص أو على أى انسان يعترف بأنه يعرف شيئا عن مظان وجودهم .

وفى معظم الحالات كان الناس لايقرون حتى بسماعهم بهم . فقد تلاشوا من وجه الارض فى المانيا . فهل عليه ان يفترض وجودهم جميعا فى السجون ومعسكرات الاعتقال ؟ أو ان بعضهم قد اختفوا « تحت الارض ؟ » ومرة اخرى راح يتساءل كيف يمكنه ان يجد طريقة الى تلك المنطقة السفلية بحيث يتمكن دائما من العودة الى فندق آدلون فى وقت مناسب لتلقى رسالة من الرجل الثانى فى حكومة النازى ! .

وتوجهت ايرما الى حفل الشاى الراقص فى السفارة الامريكية وذهب لانى ليرى بضع لوحات فى قصر قريب ولكنه لم يجد هناك شيئا يغريه بتزكيته لدى عملائه ، وكانت الأثمان تبدو مرتفعة ولم تكن به رغبة فى الرقص وهو واثق ان زوجته وجدت شركاء آخرين فاتجهت افكاره الى شاب جاد العقل يعمل رساما تجاريا ويلبس نظارة كبيرة ذات اطار من الباغة ويكره عمله وهو عمل رسوم لسيدات آريات نحيفات بصورة غير طبيعية يرتدين ثيابا داخلية وجوارب وقمصانا وقبعات غريبة الاشكال . وفكر لانى ايضا فى زوجة ذلك الشاب وهى ذات نفس مخلصة لمبادئها وتدرس الفن بموهبة حقيقة . وهذان الزوجان هما لوديج وجرترود شولتز وهما اسمان ليست فيهما غرابة ملفتة للنظر اما لودى وترودى فاسمان أشبه باثنين يعملان فى الفودفيل أو فى شريط فكاهى .

وكان لانى قد اتصل تليفونيا بالمؤسسة الاعلانية فقيل له ان الشاب لم يعد مستخدما هناك واتصل تليفونيا بمدرسة الفن فعلم ان الطالبة المذكورة لم تعد تدرس هناك . ولم يسمع فى أى من المكانين لهجة تدل على المودة ولا وجد تطوعا للادلاء بمعلومات . وقدر ان الزوجين الشابين لو أنهما فرا الى الخارج لكانا بالتأكيد بعثا برسالة الى بيانفينى . وأن

كانا هائمين يغيران مكان نومهما كل ليلة فى المانيا فماذا عساهما يصنعان؟ هل يخرجان فى الليل فقط أم انهما يتخذان وسيلة التنكر ؟ وغلب على ظنه انهما لابد يعيشان بين العمال ، لانهما لم يكونا من ذوى المال فى اى وقت اما وهما بلا عمل فلابد ان يعتمدا على رفاقهما من العمال .

- ٦ -

كيف السبيل الى العالم السفلى تحت الارض ؟ ان لانى يستطيع ان يترك سيارته بعيدا ولكنه لا يستطيع ان يترك لهجته فى الكلام وطريقته فى السلوك وشاربه البنى الصغير وفق آخر طراز ولا يستطيع فوق هذا كله ان يتخلى عن ثيابه ! فليست لديه ثياب قديمة وان اشترى شيئا منها فى محل للاشياء المستعملة فكيف عساه يبدو حين يدخل فندقا فاخرا ؟ ان تحوله الى ساكن كوخ حقير يكاد يضاهى فى صعوبة تحول ساكن كوخ حقير الى فتى لاه مليونير .

ومر بسيارته أمام المبنى الذى كانت به مدرسة العمال فوجد الان هناك علما كبيرا عليه الصليب المعقوف يتدلى من سارية فوق الباب فقد اتخذ النازى ذلك المبنى مقرا لقيادة القطاع . ولا يمكن الحصول هناك على معلومات ، ولذا مضى لانى بالسيارة الى المنطقة التى كان آل شولتز يقيمان بها فاذا أبنية سكنية ذات ستة طوابق ، فهذا الحى اقل أحياء الطبقة العاملة حقارة وقذاره بين كل ما شاهده فى أوربا . والناس مازالوا يلزمون دورهم ما استطاعو ، وقد حل الصقيع فادخلت اصص الازهار من النوافذ . ومر بالسيارة متجاوزا البيت الذى كان قد زار فيه آل شولتز ولا شيء يميزه عن اى بيت آخر سوى الرقم ودار حول البناء وعاد مرة اخرى . وبدافع مفاجيء اوقف السيارة ونزل منها ودق جرس البواب . وكان قد قام بمحاولة قبل هذه للحصول على معلومات ولكن لعله لم يجتهد اجتهادا كافيا . وفى هذه المرة طلب الاذن بالدخول والتحدث الى زوجة وكيل العمارة فاجيب الى طلبه على مضض واجلس على مقعد خشبى بغير ظهر فى مطبخ نظيف جدا ولكن تفوح منه رائحة قوية للحم الخنزير والكرنب . وراح يبذل جهده لعقد صداقة مع امراة مربية من نساء الشعب ، فقال انه تاجر اعمال فنية امريكى وانه كان قد التقى بفنانه موهوبه واخذ طائفة من اعمالها وتمكن من بيعها وهو

الآن مدين لها بمبلغ من المال ويزعجه عجزه عن العثور عليها . وهو يعلم ان ترودى شولتز كانت اشتراكية نشطه ولعلها لهذا السبب لا تريد ان يعرف احد مكانها شخص غير سياسى اطلاقا ولاترودى ولا أصدقاؤها لديهم داع للخوف منه . واستخدم كل ما لديه من معرفه بعلم النفس فى مجهود لكسب ثقة المرأة ولكن عبثا فهى لا تعلم أين ذهب آل شولتز ولا تعرف احدا يمكن ان يعرف مكانهما . ومسكنهما الان يشغله عامل واسرته المكونه من بضعه اطفال . وكان ما خرج به منها « لا .. لا ياسيدى » .

ويشس لانى وسمع باب البوابه يغلق خلفه وعندئذ رأى فتاة فى الثامنة أو العاشرة تهبط سلم العمارة فى ثوب مرقع وحول رأسها وكتفيها شال أسود من الصوف . وبدافع مفاجىء قال لها بسرعة من فضلك اين تسكن فراو ترودى شولتز ؟ » فوقفت الطفلة وحملقت فيه وكانت لها عينان واسعتان سوداوان ووجه شاحب يدل على نقص فى التغذية فظنها يهودية ، ولعل هذا يفسر نظرة الاجفال . أو لعل السبب انها لم تر شخصا من هذا القبيل فى بيتها أو قريبا منه فاستطرد مواصلا هجومه « أنا صديق قديم لفراو شولتز » فغمغمت الطفلة « أنا لا ادرى أين تسكن » فقال لها : « تستطيعين التفكير فى احد يعرف مكانها ؟ فأنا مدين لها بمبلغ من النقود ولابد انه سيسعدها الحصول عليه » واضاف بدافع من الالهام « أنا رفيق » فأجابت الصغيرة « أنا أعرف أين تذهب . أنها تذهب الى دكان الخياط ارونسن فى هذا الشارع ، فى المبنى التالى لنا » فقال لانى « شكرا جزيلا » ووضع قطعة من النقود الصغيرة فى اليد الهزيلة لتلك الفتاة الصغيرة التى يدل منظرها على الجوع .

وترك سيارته حيث هى وعثر على دكان الخياط وكانت تعلوه لافتة للهجة العبرية الالمانية وباللغة الألمانية معا . فمر من أمامه ملتزما الجانب الاخر من الشارع ومرة اخرى اسف لثيابه التى تلفت النظر كثيرا فى هذا الجوار وقد يكون ارونسن اشتراكيا ولكنه ايضا قد لا يكون اشتراكيا . ودخول لانى وسؤاله عن ترودى قد يجر سلسلة من الاحداث التى لا يمكنه تخيلها . ومن جهة اخرى لا يسعه ان يتمشى جيئة وذهابا أمام ذلك المكان من غير ان يلفت النظر . ومن بداخل الدكان لديهم ولا شك أسباب للحذر والمراقبة . واخيرا اتجه الى حانوت عند رأس الشارع اشترى كيس حلوى رخيصة وعاد فجلس على احدى درجات سلم مواجه لدكان الخياطة ولكن على مبعدة نوعا ما بحيث

يخفيه السياج الى حد ما . وجلوسه قلل من طوله وامساكه بكيس حلوى يأكل منه ببطء جعل ظهره بالتأكيد اقل رقيا مما هو وفى الوقت نفسه جعله مثار اهتمام لدى ثلاثة أطفال من سكان ذلك البناء حين اشركهم فى كنزه وفرحوا بوجوده معهم . ولما سألهم عن أسمائهم والى أى مدرسة يذهبون واى العاب يلعبون اجابوه على استحياء وفى الوقت نفسه ظل بصره معلقا بباب دكان الخياط ارونسن . وبعد قليل خاطر بسؤال اصدقائه البروليتاريين الثلاثة . هل يعرفون ترودى شولتز فقالوا انهم لم يسمعوا بها مطلقا ، وتساءل اتراه قد غرر به . ولعل من الاوفق ان ينصرف ويكتب رقعة صغيرة لا يذكر فيها اسمه صراحة بل على سبيل الكناية « الصديق الذى باع رسومك فى باريس » ويضيف الى ذلك « اذهبى للسير على قدميك أمام التمثال الهائل الرخامى الابيض الذى يمثل كارل البدين فى ممشى النصر فى الساعة الثانية والعشرين يوم الاحد » وجعل يناقش هذا البرنامج بثلث عقله وبالثلث منه راح يوزع الحلوى على سرب متزايد العدد من الصغار ، وبالثلث الثالث ظل يرقب باب « ارونسن للتفصيل والحياكة واصلاح ثياب ».

- ٧ -

وفتح الباب فجأة وخطت الى الخارج امرأة شابه تحمل لفافه كبيرة من الورق فوثب قلب لانى وسلم الكيس الذى كاد يفرغ مما به الى احد اصدقائه الصغار ومشى فى نفس اتجاه هذه المرأة . وكانت نحيفه ليست فى طول لانى وعليها معطف بنى بادى الفقر ناحل اللون بصورة سيئة وعلى رأسها وكتفيها شال . فلم يستطع ان يرى شعرها . ولانه كان يمشى وراءها لم يستطع ان يرى وجهها ولكن خيل اليه انه عرف مشيتها وظل يتبعها مقدار مربع من مربعات الأبنية ثم عبر الشارع وجاء من خلفها ثم الى جانبها ووجد وجهها اشد شحوبا ونحولا من آخر مرة رآها فبدت اكبر سنا . ولكن لا محل للخطأ فى هذه الملامح الحماسة الدقيقة التى اثرت فى نفسه حين رآها بما نمت عليه من ذكاء وقوة طبع. وقال لها « كيف حالك ياترودى ؟ » فاجفلت اجفالا عنيفا ورمقته بنظرة واحدة ثم حولت وجهها الى الامام ومشت بخطى طفيفة وقالت « أنا آسفه يا سيدى انك مخطىء » فهتف « ولكن ياترودى أنا لانى بد » فقالت « اسمى ليس ترودى وأنا لا اعرفك يا سيدى » ولو كان لدى لانى أى شك فى صدد وجهها فما كان يخالجه الشك فى صوتها . وكانت

نغماته عميقة توحي بشده الاحساس الذى كانت ملامحها الهادئة تحاول كبحة . أنها بالتأكيد ترودى شولتز ولكنها لا تريد أن تعرفه أولا تريد ان تعرف .

وكانت هذه أول مرة يقابل فيها شخصا اشتراكيا منذ شرع فى انقاذ آل روبن قد حرص على الابعاد عن الاشتراكيين عمدا . وكان ريك قد حذره مما يعرض له سمعته الخاصة وها هو يرى مصداق ذلك ! وسار بجانب هذه الرفيقة المخلصة وتكلم بسرعة لانها قد تصل الى وجهتها وتصفق الباب فى وجهه او تستدير نحوه وتحرم عليه ان يتبعها : « ترودى . ارجو ان تسمعى ما يجب أن اقوله لك . لقد حضرت الى المانيا لأحاول انقاذ آل روبن . وقد أخرجت يوهانسى من السجن أولا واخذته هو وزوجته وراحيل والطفل الى فرنسا . والان عدت لاحاول العثور على فريدى واطلاق سراحه » . فكررت الشابة قولها « انت مخطىء يا سيدى . فانا لست الشخص الذى تظن » فقال « يجب ان تفهمى انه لا مناص لى من التعامل مع اشخاص من ذوى السلطات هنا وما كنت لاستطيع ذلك ما لم اتخذ موقفا مقبولا لديهم وليس لى الحق فى الحديث عن ذلك ولكنى أثق بك ، ويجب ان تثقى بى لانى قد أكون بحاجة لمساعدتك . فما زلت بعيدا عن التوفيق فى موضوع فريدى . وقد حاولت جهدى ان اعثر على احد من اصدقائه القدامى ولكن لم أستطع الاتصال بأحد فى أى مكان . وانت يقينا تدركين اننى ما كنت لأهمل شئونى الخاصة وآتى الى هنا ما لم اكن مخلصا له ولقضيته . ويجب ان اثق باحد وأنا اعتمد على شرفك الا تذكرى لاحد ما أخبرك به . لقد علمت أخيرا ان فريدى فى داخاو » .. فكفت عن السير ولهثت قائلة « فى داخاو ! » فقال « لقد مضى هناك عدة أشهر » فسألته « كيف عرفت ؟ » فاجابها : « ليست لى حرية الاجابة عن هذا السؤال ولكنى واثق تماما » فشرعت تسير مرة اخرى ولكن خيل اليه انها تمشى بخطى غير ثابتة وقالت « لهذا الكلام معنى كبير عندى لان لودى وفريدى قبض عليهما معا » فقال لها « لم اكن اعلم ان لودى مقبوض عليه . وماذا حدث له ؟ » فاجابت « لم اسمع شيئا من طرفه أو بخصوصه منذ حضر النازى وانتزعوهما معا من بيتنا » . فسألها « وماذا كان فريدى يصنع هناك ؟ » فاجابته « جاء الينا لانه كان قد مرض ولابد له من مكان يرقد فيه . وكنت أعلم أن وجوده عندنا خطرا ولكنى لم أستطع ان ابعده » فسألها « وهل كان النازى يبحثون عن لودى ؟ » فاجابته « كنا قد توارينا وشرعنا فى عمل غير مشروع . واتفق اننى كنت بعيدة

من البيت فى ذلك الوقت واتلدرنى احد الجيران فظللت بعيده . وقد مزق النازى كل شىء فى المكان اربا كأنهم مجانين . لماذا تظنهم اخذوا فريدى الى داخاوا ؟ » فقال « انها قصة طويلة . ففريدى له حالة خاصة لانه ابن رجل غنى » .

وخيل الى لانى ان المراة الشابة شعرت بوهن ، وربما كان ذلك من اثر الصدمه أو لعل السبب قلقها وخوفها وانها لا تتناول كفايتها من الطعام . ولم يكن فى وسعه ان يقترح عليها الجلوس على درجات سلم لان ذلك سيلفت اليهما الانظار فقال لها « دعينى احمل هذه اللفافة » فاجابته : « لا . لا . أنا على ما يرام » ولكنه كان يعلم ان ذلك غير صحيح وفى ارض ابائه لا يترك الرجال والنساء يحملن الاثقال فقال « انا مصر » وخيل اليه انه كان مهذبا عندما اخذ اللفافه من بين ذراعيها. ولكنه على الفور عرف لماذا لم ترد ان يحملها عنها ، فهى اشبه بلفافة ثياب ، وفى نعومة لفافه الثياب ولكن ثقلها ارجح من أى ثياب صنعها البشرى . وحاول أن يخمن : هل فى اللفافة أسلحة من نوع ما ، أو انها ما يسميه الرفاق « مطبوعات ؟ » وكان الاحتمال الاخير اقرب الى طبيعة ترودى ، ولكن ايرما كان من رأيها ان المرء لا يستطيع الاعتماد على ذلك الظن فكمية صغيرة من الاسلحة قد يكون وزنها مماثلا لوزن كمية كبيرة من المطبوعات ، وكلاهما سواء فى الخطر فى هذه الاوقات وها هو لانى ملء ذراعيه هذا أو ذاك او كليهما ! »

- ٨ -

وكان لابد ان يواصلا السير ويواصلا الكلام فسألها « الى اين يجب ان تذهبى ؟ » فاجابته « مدى ابنية كثيرة » فقال لها « عندى سيارة واستطيع احضارها لتوصيلك » فقالت : « السيارة ينبغى الا تقف هناك ، وكذلك لا استطيع ان اتركك تصل الى هذا المكان » فقال « ولكن يجب ان نتحدث . هل تسمحين لايرما ولى ان نقابلك فى مكان ، وناخذك لنزهة فى السيارة ؟ بهذه الطريقة نستطيع ان نتكلم بأمان » فمشت مسافة من غير ان تتكلم ثم قالت « زوجتك لا تعطف على أفكارنا ايها الرفيق بد » فوافقها قائلا « انها لا تتفق معنا تمام الاتفاق ولكنها مخلصة لى ولآل روبن » فقالت « ما من احد يمكن ان يكون مخلصا فى وقت كهذا الا من يؤمنون بصراع الطبقات » وسارا فى صمت مرة اخرى ثم استطردت الفنانة الشابة « من العسير على ان اقطع برأى . فليست

حياتي وحدها في كفة الميزان ، بل كذلك حياة من ارتبط بهم . فلابد أن أطلعهم على الموقف وانا واثقة انهم لن يوافقوا على مقابلتي لزوجتك أو على معرفتها احوالنا » .

وصدمه قليلا أن يكتشف أن الرفاق وضعوا زواجه في الاعتبار ، ولم يستطع أن ينكر حق ترودي في البت في هذا الموضوع فقال « وهو كذلك . لن اذكرك . وعليك الا تذكرى اسمى فقد يكون في مجموعتكم جاسوس » فاجابت « ليس هذا مرجحا لأن اعداءنا لا ينتظرون طويلا عندما يحصلون على معلومات ، فهم اكفاء ولا يتركون شيئا للمصادفات . ومن الخطر عليك أن تسير معي » فقال لها : « أشك ان يكون ذلك مصدر متاعب جدية لامريكي ، ولكنه قد يكلفني فرصتي في انقاذ فريدي اذا ما عرف انني على اتصال بالاشتراكيين » فقالت « مما لا شك فيه ان تقابلنا خال من الحكمة » فقال « هذا يتوقف على ما يمكن ان يحدث . فكيف نستطيع ان يجد كل منا الآخر عند الحاجة ؟ » فاجابته » لا يجدى أن تأتى انت الى مكانى وان احتجت اليك سابعث برقعة غفل من التوقيع وقد طالعت في الصحف انك مقيم في فندق آدلون » فقال « نعم ولكنى سأغادره غدا أو بعد غد الى ميونيخ حيث انزل في فندق الفصول الاربعة . وسيحول بريدى الى هناك على كل حال » . فهتفت بصوت اجش » خبرنى ايها الرفيق لانى . اتعتقد ان هناك أى فرصة كي تعرف لى هل لودى في داخاو ؟ » فاجابها : « لا أستطيع التفكير الآن في طريقة لذلك . ولكن قد تسنح فرصة . فلا بد أن تكون هناك طريقة لوصول رسائلي اليه » فقالت « ارقب هذا الركن الذى أمامنا وتذكره . فان كانت لديك انباء لى سر من هنا يوم الاحد عند الظهر تماما . وسأترقبك واتبعك الى سيارتك . ولكن لا تحضر الا اذا كان لديك أمر عاجل » فسألها « اتعنين انك ستأتين الى هذا الركن كل يوم احد ؟ » فقالت : « طالما كانت هناك فرصة لحضورك . فاذا غادرت المانيا ففي وسعي ان أكتب اليك على عنوان جوان ليه بأن » « فقال « وهو كذلك » ثم خطرت له خاطره فجأة فقال » ابحاجة انت الى نقود ؟ » فاجابت « ان أمورى سائرة ما يرام » ولكنه كان يعلم ان المشتغلين بالدعاية يستطيعون دائما الانتفاع بالنقود . ولم يخرج حافظة نقوده لأن ذلك من شانه ان يلفت النظر ، بل مد يده تحت سترته وطوى بضعة أوراق مالية ثم دسها في جيب ذلك المعطف البني البالى وكان قد أصبح خبيرا في فن توزيع الاكتتابات السرية . وما اعطاها اياه يمكن ان يكون ثروة في نظر أى ديموقراطى اشتراكى تحت الارض

او فوقها . وسيترك لها مهمة تفسير حصولها على هذا المبلغ . ولما رجع الى الفندق سألته ايرما « لابد انك وجدت لوحات اثارت اهتمامك ؟ » فاجابها « وجدت لوحتين بريشة مينزل اظنهما تستحقان ان يلقى عليهما زلطان نظره . اما الاعمال الأخرى بريشة الأخوين ماريس فكانت مصدر خيبة أمل لى » .

- ٩ -

كانت فترة معرض ديتاز فى برلين توافق وقت حملة انتخابية فى سائر انحاء الرايخ الالمانى ، وهى بلا شك اغرب حملة انتخابية منذ ابتدع العقل البشرى هذه الوسيلة . فهتلر قد قضى على وجود جميع الأحزاب السياسية الأخرى وعلى الهيئات التشريعية فى اثنتين وعشرين ولاية المانية ، وبطريقته فى القتل والزج فى السجون قضى على الديموقراطية والحكم النيابى وعلى التسامح الدينى وعلى الحقوق المدنية ، بيد انه لم يزل فريسة لعقده الاجراءات المشروعة فاصر على أن يصدر الشعب الألمانى تأييدا لكل ما صنعه . ومن ثمة لا بد من انتخاب يقرر أن الانتخابات لا معنى لها ! ولا بد من رايشستاج يعلن أن الرايشستاج لا سلطان له ! ولا بد من نبذ ديموقراطى للديموقراطية ! وقال لانى فى نفسه هل عرفت الدنيا منذ خلقت رجلا بهذا الجنون ؟ هل حدث من قبل أن أمة باسرها اصابها الخبال ؟ » .

ولما كان لانى بد يعيش وسط هذه المستشفى الضخمة للمجاذيب فقد حاول الاحتفاظ بتوازنه حتى لا يقف باستمرار على رأسه . وان كان ثمة شىء يعجز عن فهمه فاصدقاؤه النازى متلهفون على تفسيره ، ولكن ما من المانى واحد يسعه ان يسمع منه كلمة واحدة معقولة . وحتى هوجوبير واصحابه الذين يخططون للثورة الثانية كانوا هتلريين مخلصين بتعاونون فيما يعتبرونه اظهارا رائعا للحماسة الوطنية ، واعضاء المجتمع الأنيق لا يجرون على اظهار علامة واحدة على العقل اكثر من ابتسامة واهية أو انتفاضة هدب خفيفة جدا بحيث لا نستطيع أن تجزم بأنك رايتها ، فثمة خطر حقيقى حتى على الاشخاص المهمين . فبعد بضعة أيام سيرون الدوق فيليب البرت دون فورتنبرج يزج به فى السجن لتخلفه عن الادلاء بصوته فى الاستفتاء الوطنى العظيم .

وكان هتلر قد احتج فى منتصف أكتوبر عندما جر الانجليز فى

جنيف على اقتراح فترة تجريبية مدتها أربع سنوات قبل السماح لالمانيا باعادة التسلح وكان رد الفوهرر على ذلك ان سحب المفوضين الالمان من عصبة الامم ومن مؤتمر تحديد التسلح معا . وحين فعل ذلك اذاع على الشعب الالمانى منشورا من منشوراته البليغة التى كان يبهجه ان يحررها ، فاخبرهم فيه كيف يحب السلام ومدى تلهفه على نزع السلاح متى رضيت الامم الاخرى بنزعة . وحدثهم عن الشرف ــ وهو مؤلف كفاحى ــ فصدقوه . واقاموا بذلك الدليل على انهم كما نعتهم بالضبط . فهو ينادى بأن الشعب الالمانى يريد المساواة فى الحقوق . ولماكان قد حرمهم من جميع الحقوق فهو يوجه اليهم باسم الحكومة هذا السؤال الخطير « هل الشعب الالمانى قابل لسياسة وزارته الوطنية المعلنة هنا وهل هو مستعد لاعلان ان هذه السياسة تعبر عن رأيه وارادته وانه يمنحها تأييده المقدس ؟ » .

هذا هو « الاستفتاء » الذى سيجرى الاقتراع عليه بعد شهر . وفضلا عن هذا ستجرى انتخابات جديدة للرايشستاج فيها قائمة واحدة من المرشحين عددهم ٦٨٦ اختارهم الفوهرر جميعا وعلى رأسهم قادة النازى : هتلر وجورنج وجوبلز وهيس ورهم وهلم جرا. حزب واحد وقائمة واحدة ، دائرة واحدة ترسم داخلها صليبا معناه نعم . ولا يوجد مكان للتعبير عن « لا » وتذاكر الاقتراع البيضاء تعتبر باطلة .

وتمهيدا لهذا القبيل من « الانتخاب » ظلت المانيا فى دوامة مدة اربعة أسابيع ، وانفقت أموالا تزيد على ما كان ينفق من الاحزاب الخمسة والاربعين فى أى انتخابات سلفت للريشستاج فالمعارض والمشاهد والمسيرات والأناشيد ، وحمل أعلام الدم « والاحتفالات لتكريم شهداء النازى ، واعلانات الحوائط ولنداءات ، ومواكب المشاعل . والوقوف وقفة لانتباه واداء التحية النازية وخطب الراديو وقد تجمع فى الميادين العامة لسماعها من مكبرات الصوت ، وارسال نفر من الناس الى معسكرات الاعتقال لتخلفهم عن الاصغاء . وقبل ذلك اعتبر الوقوف فى صمت اجراء خاصا بتكريم قتلى الحرب دون غيرهم ، اما الآن ففى سائر انحاء المانيا تتوقف حركة المرور ويقف الناس صامتين ليصغوا الى صوت ادولف هتلر وهو يتحدث فى بهو الدينامو فى مصانع سيمنس شوكرت الكهربائية فى برلين وعليهم بعد ذلك ان يبقوا للعمل ساعة اضافية بحيث تكون امجاد التضحية فى سبيل الوطن من نصيبهم لا من نصيب مخدوميهم ! .

وذات يوم احد لطيف مشرق فى منتصف نوفمبر وقفت جماهير غفيرة من الشعب الالمانى صفوفا أمام مراكز الاقتراع فى جميع انحاء البلاد بل وفى انبلاد الاجنبية ، بل وعلى السفن فى اعالى البحار . وادلى باصواتهم ايضا من فى السجن ومعسكرات الاعتقال . وفى ساعة متاخرة من النهار قام رجال فرق الهجوم بتجميع الكسالى والمهملين ، وبذلك تجمعت أكثر من ثلاث واربعين تذكرة انتخاب ، ووافق أكثر من ٩٥ ٪ على رايشستاج هتلر وعلى الاستفتاء الخطير لصالح سلامهم وحريتهم. وقرأت ايرما فى الصحف عن ذلك الانتخاب فى اليوم التالى وما بعده من الأيام فكان وقعة فى نفسها هائلا وقالت « ها أنت ترى يالانى أن الألمان يؤمنون حقيقة بهتلر . انهم يريدونه » وعندما قرأت ان المعتقلين فى داخاو قد اقترعوا بنسبة عشرين الى واحد لصالح الرجل الذى احتجزهم هناك قالت » هذا يدل فيما يلوح على ان الامور هناك ليست سيئة جدا . » فأجاب الزوج « هذا يدل فيما يلوح لى على أن حالهم اسوأ مما نظن بكثير » .

ولكنه كان يعلم انه لا جدوى من محاولة الشرح ، فلن يؤدى ذلك الا الى اثارة جدل وكان قد شرع يتعلم أن يكتم شقاءه فى اعماق نفسه. وزوجته تقضى وقتا طيبا جدا فى برلين حيث تقابل شخصيات مرموقة لامعة ، ولانى يتجول هنا وهناك معذبا نفسه بالنشاط الذى تمارسه جماعة صغيرة من المتآمرين السريين فى حى حقير ببرلين وبما يمكن ان ينتهى اليه مصيرهم ! .

فى مقدوره ان يتصور ما يصنعون فهو يتخيل مطبعة يدوية صغيرة فى مؤخرة دكان الخياط حيث يطبعون نشرات لعلها عن الكتاب البنى وما تضمنه من حقائق عن حريق الريشستاج أو ربما تضمن مقتبسات من آراء العالم الخارجى للابقاء على شجاعة الرفاق فى هذا الوقت العصيب . ولعل ترودى كانت تحمل شيئا من هذه المطبوعات الى أخرين يتولون توزيعها . وجميعهم يعملون فى خطر دائم على حياتهم . فقال لانى فى نفسه « كان ينبغى أن أعاونهم . فانا الذى أستطيع أن أفعل شيئا حقا ، لأن فى مقدورى الحصول على المال واحضار المعلومات اليهم من الخارج وحمل رسائلهم الى رفاقهم فى فرنسا وانجلترا . » ثم يعود فيقول لنفسه » ان فعلت ذلك قضيت على سعادة أمى وزوجتى ومعظم اصدقائى . وفى نهاية الامر ربما حطم تزواجى . »

الفصل الرابع والعشرون

اليهود رجس

- ١ -

أمر مستحب أن يغادر المرء منبسطا كثير الرياح فى بروسيا فى أوائل الشتاء وينطلق بالسيارة الى الغابات والاودية اللطيفة المكنونة فى جنوب المانيا • ومن المستحب أيضا أن يصل المرء الى مدينه جميلة وعصرية نسبيا فيجد فى انتظاره استقبالا حارا فى المؤسسة المعروفة باسم «فصول السنة الأربعة • اشعارا لك بان المكان على أهبة دائمة لاستقبالك • وميونخ مدينة فصول السنة الاربعة حقا ، وحياتها سلسلة من المهرجانات ، وشرب البيرة من الاقداح الكبيرة ، التى يسع الواحد منها لترا ، واجب مدنى • وكان زلطان المخلص قد حضرسلفا وأعد كل الترتيبات للمعرض • والسيد المدرس الجامعى الخاص الدكتور فى الفلسفة الوزيوس ونيكلرتزو شتورمشاتن استخدم كل فنونه فعرف منقفى ميونيخ بمزايا المدرسة الجديدة فى الرسم التمثيلى ، وعرفهم كذلك بالجاه الاجتماعى للزوجين الشابين اللذين سيتكرمان عليهم بهذا الفضل •

وفى الصباح حضر مندوبو الصحف على حسب موعد سابق • وكانوا قد زودوا بمقتطفات مما كانت صحافة برلين قد نشرته عن ديتاز مع معلومات عن ثروة بارتز واهمية مصانع بد للاسلحة ، مع الاشارة الى أن لانى كان مدعوا لرحلة صيد مع الجنرال جورنج ، الى تناوله الشاى ذات مرة مع الفوهرر • واظهر الزوجان الشابان الدمائة المنتظرة من بلاد رعاة البقر والأفلام السينمائية ، فقال لانى انه يعرف ميونيخ جيدا ، فقد سبق له أن اشترى عددا من لوحات الاساتذة الاقدمين هنا ، وذكر أسماءهم • وذكر المجموعات التى وجدت فيها هذه اللوحات ملاذا لها فى العالم الجديد • وكذلك أنه كان موجودا بالصدفة فى المدينة ذات يوم تاريخى منذ عشر سنين وشهد فيها أمورا ستجعل اسم ميونيخ شهيرا الى الابد • واشعلت أضواء آلة التصوير وهو يتكلم فذكره ذلك بمناظر اطلاق الرصاص على شهداء النازى فى ساحة مارين •

وظهرت هذه الاحاديث فى أوقاتهـا المناسبة ، فلمـا فتح المعرض أبوابه بعد ظهر اليوم التـالى جاءت جموع الناس • ولئن كانت القصـة قديمة فان الناس كانوا جددا ، ومن يحبون العظمة والمجد لن يملوا من مقـابلة دوق ودوقة أى مكان وأمير واميرة كذا وكيت • وانه لشيء عظيم بالنسبة للفن عندما تقف السيدات من ذوات المكانة الرفيعة فى المجتمع فى معرض عام لأداء تحيـة التـكريم لعبقرى ولو كان ميتا • وفى حـين أنصرف برسيفال دنجـل ليسأل روح الرسـام المتوفى هل هو مسرور بالمعرض ، وفى حين ذهب لانى ليتفقد لوحات الاساتذة القدامى ويتناقش فى الاسعار ، كانت بيوتى بد وزوجة ابنها التى لا نظير لها تقدمان الى الشخصيات الهامة وتقبلان الدعوات لآدب الغداء والعشـاء وتجمعان النوادر التى ترويانها فيما بعد لزوجيهما ثم لاقاربهما واصدقائهما •

وثمة شيء واحد على غير ما يرام بين هاتين السيدتين ، الا وهو أن مارسيل ديتاز مات وايرما طفـلة فلم تسنح له الفرصـة قط كى يرسم صورة لها ، وبذلك حصلت بيوتى على أكثر من نصـيبها العادل من المجد ، ولم يكن ثمة سبيل لاعادة التوزيع من هذه الجهة • وتحاول الحماة أن تبدو متواضعة فلا تتكلم عن نفسها وعن صورتيهما عندما تكون ايرما واقفة عن كثب منها ، بيد أن بعض الناس يصرون على ذلك فيكون الموقف خطرا • وقالت بيوتى لابنها « من أحسن مصور أشخاص على قيـد الحياة فسألها متعجبا « لماذا ؟ » فأجابت « لانك ينبغى أن تجعـله يرسم أيرما فورا ، وسوف يحدث هذا الرسم ضجة ويساعد على استبقاء اهتمامها » فضحك لانى قائلا « لسوء الحظ أن سارجنت مات ! » فألحت أمه قائلة « لا تحول المسألة الى نكتة، فمما لايغتفر أن تحضر حشود الناس لتنظر الى صورتين لعجوز ذابلة لا أهمية لها بدلا من امرأة فى ريعـان حسنها » فقال الفتى الذى لا صلاح لحاله « الفن يبقى والعقد تزول » •

- ٢ -

وجاء الى ميونيخ حدث أعظم بكثير من معرض ديتاز ، جعل المدينة تتفجر بالرايات، فمستشار الرايخ فوهرر حزب العمال الالمان الاشتراكى الوطنى كان يستخدم السـيارة والطيارة فى المرور بجميـع انحاء البلاد لالقاء خطب الحمـلة الانتخابية ، وبعد انتصاره السـاحق قرر العودة الى مكان اعتكافه الجبلى كى يفـكر ويدبر خططا سياسية جديدة • ولما تم له

الآن الانتعاش وتجديد الوحي جاء الى المدينة المفضلة التى نشأت فيها حركته وكسب فيها اكليل شهادته • فهنا عاش يوما ما أفاقا فقيرا ، فهكذا كانوا ينعتون رجلا لا يعرفون مصدر تعيشه هي أراض وعقارات • يلقى خطبا جامحة نصف جنونية ويأتى الناس لسماعه لانه مضحك أو ما يسمونه بالانجليزية « ملحوس » وقد شهدته ميونيخ يطوف أرجاء المدينة فى حالة اكتئاب شديدة سيء الهندام فى معطف المطر الرث الذى علاه الصدأ حاملا فى يده سوطا من سياط الكلاب اكبر من الحجم المألوف لخوفه من أعدائه الذين كانوا مع هذا لا يكترثون به • ولكنه الآن انتصر عليهم جميعا • انه الآن سيد المانيا وقد احتفلت ميونيخ بوصوله رافعة أعلامها• وهنا فى البيت البنى مقر القيادة المركزية للحزب ، وهو بناء فخم قام أدولف هتلر بتعديلات فيه لتغيير طرازه وزينه على حسب ذوقه • فهو المهندس المعمارى الفاشل الذى استطاع أن يصنع شيئا بديعا جعل أتباعه ينتشون سرورا عند دخوله ويقطعون على أنفسهم عهدا جديدا للولاء لقائدهم ، ولحمه ، يقهر كل شيء •

وكانت مابل بلاكلس التى صارت بيوتى بد ثم صارت مدام لديتاز قد حققت انتصارات وغزوات فى زمنها ولم تزل قادرة على الاسترسال فى الأحلام • فهتفت بابنها لانى ! أتظنك مستطيعا ان تجعله يأتى الى المعرض ؟ ان ذلك يساوى بالنسبة لنا مليون دولار ؟ » فوافقها ابنها قائلا « المسالة تستحق التفكير بالتأكيد » فقالت « لا تتوان ! اتصل تليفونيا بهاينريش يونج واطلب منه الحضور ، وادفع له كل ما يريده ، وسيدفع كل منا نصيبه » فقال « لن يطلب الكثير ، فهو ليس طماعا » •

وذهل المسئول النازى الشاب لهذا الاقتراح ، وخشى أن يكون بعيد المنال فوق طاقته بيد أن لانى حثه على النهوض الى مستوى المناسبة الكبرى ، فهو قد بذل جهدا شاقا فى الحملة الانتخابية ومن حقه بلا شك أن يحظى ببضعة ايام من العطلة • واى وسيلة أفضل لذلك من أن يقدم التهانى الى الفوهرر ثم يأخذه ليشاهد لوحات من النوع الخاص الذى يقره ؟ وقال لانى « وفى وسعك أن تأخذ اللوحات اليه ان كان يفضل ذلك ، فنغلق المعرض يوما وننتقى أحسن اللوحات ونأخذها اليه فى أى وقت يشاء » وكان يتكلم بحماسة ولهفة وهو يخفى نفسه مشروعا آخر• فلم يكن يفكر فى رفع اثمان مقتنيات أسرته فحسب • وقال له أيضا « ان استطعت فاذهب الآن فورا مستقلا طائرة• فليس أمامنا وقت نضيعه» فهتف ملاحظ الغابات السابق « يا الهى ! » فقد بلغت بهجته عنان السماء •

وبعد ذلك اتصل لاني تليفونيا اتصالا بعيد المدى بكيرت مايسنر في شتوبندورف وكان كيرت قد رفض الدعوة الى برلين لانه غير قادر على نفقات هذا البذخ ولا يريد أن يكون مدينا لاحد بمكرمه . أما الآن ففى مقدور لانى أن يقول « هذه مسالة عمل . فانت ستؤدى لنا خدمة وتؤدى في الوقت نفسه خدمة للفوهرر ففى وسعك أن تعرف مؤلفاتك الجديدة له وهذا مهم بالنسبة لعملك . وهاينريش قادم ، وسنصبغ المدينة باللون البنى » وفى ظنه أن هذه هى الصيغة الاشتراكية الوطنية المناسبة !

وتناولت ايرما التليفون وأضافت « تعال يا كيرت . سيكون هذا فى مصلحة لانى . فانا أريد له أن يفهم حركتكم ويتعلم كيف يحسن السلوك » وهو نداء يستحيل على رسولورجل دعاية أن يقاومه. واردفت ايرما ، استقل طيارة من برسلاو ان كان ذلك أسرع . وسنحجز لك حجرة » .

- ٣ -

وان فى ذلك لشيئا من المغامرة بالنسبة لبيوتى بد ، فمنذ ست سنوات رحل كيرت عن بيانفيني ولم يعد ووجد لنفسه زوجة ووجدت لنفسها زوجا . والآن يستطيعان ان يلتقيا صديقين قديمين يسر كل منهما أن يرى الآخر ولكن بمودة مقدرة بعناية ، فذكرياتهما يمكن ان تكون مثل لوحات مارسيل المعلقة على الجدران ، بيد أنها ليست للعرض العام .

وبرسيفال دنجل هنا ، وهو قد سمع الكثير عن المؤلف الموسيقى الالمانى الرائع الذى عاش أمدا طويلا مع آل بد . ولم يخبره أحد ان كيرت لبث عشيق بيوتى ثمانى سنوات متصلة ، الا انه ما كان ليفوته معرفة ذلك بالتخمين ، فهو لا يلقى أسئلة على الاطلاق لأن ذلك ضد فلسفته . وهو سيد حكيم كتوم ذو شعر أشيب وجد لنفسه عشا مريحا بصورة خارقة فلاءم بين نفسه وبين هذا العش بعناية ، حريصا على الا يحتل أكثر من نصيبه المناسب فيه ، وراح يرعى روحه وينميها مستمتعا بذلك غير طالب من الحياة أكثر منه . فان أراد موسيقى المانى ممن قرءوا هيجل وفيخته وغيرهما من فلاسفة وطنه أن يوجه أسئلة عن الحياة الباطنة فسوف يسر برسيفال أن يجيبه عنه ، والا فسوف يصغى لكيرت وهو يعزف البيانو فى جناحهما ويسبغ على الموسيقى معانيه الخاصة . والصداقة لدى لانى بد كانت على الدوام من أثمن منح الحياة . فهو الآن

سعيد بان يكون مع كيرت وهاينريش مرة أخرى • ومع هذا فهو ممزق النفس لانه في الحقيقة لم يكن معهما بل كان يكذب عليهما فما أغرب أن يستخدم عواطف الاعزاز ستارا للتمويه ، وان يشعر بالتعاطف والاندماج وهو مع ذلك لايشعر بهما حقيقة ويعمل ضدهما طول الوقت ! ان صداقة لانى موجهــة الى فريدى ، وفريدى وهذان أعداء • ان لانى يحب ثلاثتهم بنوع غريب من الشــخصية المنقسمة ، وصداقته لـكيرت وهاينريش لم تزل شيئا حيا ، وهو يعود بمشاعره الى الايام الخوالى فى شتوبندروف منذ اثنتى عشرة سنة عندما قابل لأول مرة ابن مراقب الغابات • ولاشك فى ان هاينريش كان نازيا حتى فى ذلك الوقت ، بيــد أن لانى لم يدرك ما معنى النازية ، بل ولا كان هاينريش يدرك ذلك على حقيقته الراهنة • فقــد كانت الفـكرة عبارة عن رؤيا للتقــدم الألمـانى من غير خســارة للاشتراكيين أو الديمقراطيين أو أنصــار السلام أو اليهود ، وسائر من يحتجزهم النازيون الآن فى أماكن التعذيب •

وتحــدث ثلاثتهم عن الايام الخــوالى والتــأم شملهم وتحــدثوا عن موسيقى كيرت فالتــأم شملهم أيضــا • ولكن هاينريش شرع بعــد ذلك يتحدث عن عمــله وعن التقــدم الذى أحرزه أخيرا فى الشئون الوطنيــة والحزبيــة وعلى الفوهرر فوجب على لانى أن يشرع فى الـكذب • لم يكن كافيا الآن أن يلزم الصمت والسكون كمــا كان يفعل من قبــل • كلا • فالآن عندما ينطلق المسئول الحزبى الشاب فى حماساته ونشواته حول ذلك النصر الانتخــابى الرائع يرد عليــه لانى كرجع الصدى « جبار ! » وعندما يعلن كيرت أن انتصار الفوهرر للسلام والمساواة بين الأمم عمل سياسى عظيــم ، يقول لانى « يا لها من بطولة » ، وهــو يتساءل فى نفسه طول الوقت « من منا المجنون ؟ »

ولم يكن أمرا سهلا أن يتشبث المرء باعتقاده أن وجهة نظره سديدة وأن جميع من حوله من الناس مخطئون • وهذا الاسلوب ليس وقفا على رواد الفكر والابطال القديسين والشهداء فحسب ، بل هو أيضا أسلوب المخبولين والمختلين الذين يوجد منهــم ملايين على وجه الارض • وحينمــا يفلح أحد المختلين فى اقناع الجانب الأكبر من أمة عظيمة أنه على صواب • ينبغى أن يقف الخمسة فى المائة ليسألوا أنفسهم « كيف هذا ؟ » ، وهــذا صحيح على الخصوص بالنسبة لشخص مثل لانى بد ليس رائدا ولا بطلا ولا قديسا ولا يريد بالتأكيد أن يكون شهيدا • فكل ما يريده الا يتشاجر أصدقاؤه فيتحتم عليه أن يختار بينهم • وقد ظل كيرت وريك يتشاجران منذ يولية سنة ١٩١٤ وظل لانى طول الوقت يحاول اصلاح ذات بينهما •

ولم يبد أقل توفيقا على الاطلاق مما هو الآن · وهو يحاول أن يكون عميلا سريا لريك وفريدى والجنرال جورنج جميعا فى آن واحد !

وتحدثوا عن مشكلة الاتصال بمستشار المانيا · واتفقوا على ان كيرت هو الذى يصلح لذلك باعتباره الأكبر سـنا والوحيد من بينهم الذى له نصيب من العظمة · واتصل كيرت تليفونيا بسكرتير الفوهرر فى البيت البنى وقال أنه لا يرغب فقط فى العزف على البيانو لزعيمه المحبوب بل يرغب أيضا فى احضار صديق الفوهرر القديم هاينريش يونج والامريكى الشاب لانى بد الذى يقام له الآن معرض منفرد أثنت عليه الصحافة ثناء حارا · ووعد السكرتير ان يضع الأمر أمام المستشار شخصيا ، فاخبره المؤلف الموسيقى أين يستطيع الاتصال به · وغنى عن القول أنه مما زاد فى أهميته أنه ينزل فى أرقى فنادق ميونيخ المسماه بالاسم الذى يداعب الخيال ! « الفصول الاربعة » ·

- ٤ -

دعت ايرما كيرت الى حجرة زينتها لمحادثة خاصة ، فهى فى مؤامرة معه ضد زوجها ، ولمصلحة زوجها بالطبع ، وكيرت الذى كان قد تلقى تدريبا مهنيا فى الدسائس أطربه هذا الموقف · وبالها من زوجة شابة عاقلة قد تكون سببا فى انقاذ لانى اذا أمكن اقناعه باتباع نصحها · وقالت له ايرما « ان لانى تصرف بعقل فى هذه الرحلة وانه ناجح جدا فى مهنة تجارة الصور التى يبدو أنها تثير اهتمامه اكثر من أى شىء عداها ، بيد أن موضوع فريدى لم يزل يؤرق ضميره · وهو مقتنع ان فريدى لم يرتكب سوءا · وقالت ايرما أيضا « أنا لا أستطيع أن أستدرجه للكلام عن هذا الموضوع ، ولكنى أعتقد أن شخصا ما اخبره أن فريدى سجين فى معسكر اعتقال · وقد استولت هذه المسألة على عقله » فقال المؤلف الموسيقى « انه مخلص لأصدقائه · وهذه صفة عظيمة · وهو بطبيعة الحال لا يفهم حقيقيا ما صنعه اليهود بالمانيا وما كان لهم من تأثير مفسد فى حياتنا القومية » · فقالت ايرما « ما أخشاه أن تراوده نفسه على مفاتحة الفوهرر فى الموضوع · أتظن ذلك يمكن ان يكون وخيم العاقبة ؟ » فأجابها « انه قد يكون وخيم العاقبة بالنسبة لى ، فلو اعتقد الفوهرر أننى أحضرت لانى لهذا الغرض فقد يستحيل أن أقابله بعد ذلك » فقالت « هذا ما كنت أخشاه وقد يكون من الحكمة ان تحدث لانى

فى هذا الأمر وتحذره من الاقدام عليه • ولا تخبره طبعا أننى تحدثت اليك فيه » كلا بالطبع • ولك أن تعتمدى دائما على كتمانى • وسيكون من السهل على أن أفتح الموضوع لأن لانى حدثنى عن فريدى فى شتوبندروف » •

وهكذا حدث أن لانى تكلم مع كيرت فى هذا الصدد من غير أن يضطر لفتح الموضوع مما قد يجعل كيرت يظن أن هذا هو السبب فى دعوته الى ميونيخ • وأكد لانى لصديقه القديم أن التفكير لم يراوده فى مفاتحة الفوهرر فى هذا الموضوع لأنه يعلم أن ذلك خرق خطير للأصول واللياقة ، الا أن لانى لا يستطيع مغالبة شعوره بالقلق على صديقه اليهودى ، وينبغى أن يشعر كيرت بالقلق عليه أيضا وهو الذى عزف معه ثنائيات كثيرة جدا ويعلم أى موسيقى حساس هو • وقال لانى أيضا « لقد قابلت أحد شركاء فريدى القدامى وعرفت منه أنه مقبوض عليه ولا يمكن أن احترم نفسى ما لم أحاول الاقدام على شيء لمساعدته » •

وهكذا استعاد الاثنان صلتهما الحميمة القديمة • وكيرت هو الأكبر سنا بعام واحد تقريبا ، ولم يزل يقوم بدور الناصح المرشد ولانى المتواضع الخجول يقوم بدور التلميذ • وشرح له كيرت طبيعة اليهود المنحلة المناهضة للمجتمع وتركه لانى يقنعه • وشرح كيرت الاغاليط الأساسية للديمقراطية الاشتراكية وهى احدى انحرافات اليهود الفكرية ، وكيف غدت ستارا للبلشفية ، حتى عندما يكون أنصارها - كما هى الحال بالنسبة لفريدى - جاهلين بالأغراض الوضيعة التى يخدمونها • وأصغى لانى بانتباه وازداد تسليمه بما يسمع زيادة مطردة ، وكيرت يزداد تبعا لذلك مودة وحرارة • وفى نهاية الحديث وعد كيرت بأنه اذا واتاه الحظ واستقبله الفوهرر سيدرس حالة الرجل العظيم ومزاجه واذا أمكن الاقدام بدون اساءة سيثير موضوع قريب لانى وطلب من الفوهرر التكرم بالامر باطلاق سراحه على أساس وعد لانى باخراجه من المانيا وتعهده أن يتولى منعه من الكتابة أو الكلام ضد الوطن الالمانى ثم حذره كيرت قائلا « ولكن لا تثر أنت الموضوع » فوعده لانى وعدا جديا أنه لا يمكن أن يحلم بارتكاب هذا الخرق لقواعد اللياقة •

- ٥ -

وانتظروا فى الفندق الى أن جاءت الرسالة وهى أن الفوهرر سيسره ان يستقبلهم فى البيت البنى فى صـــباح اليوم التالى ولكن تأكد انهم سيكونون هناك فى الموعد !

وكان ذلك اليوم من أيام أوائل الشـتاء التى تكون فيها الشمس مشرقة والهواء مسكرا ، فكانوا يودون الذهاب الى موعدهم سـيرا على الاقدام ، لولا أنهم سيأخذون معهم صورة « أخت الرحمة » ولذا لابد أن يتولى لانى قيادة السيارة ٠ وعرض هاينريش الذى كان قد تعلم وهو يافع العمل بيديه أن يحمل اللوحة الى داخل البيت البنى ، ولكن بيوتى أصرت على أن الأمور يجب أن تؤدى بصورة لائقة فيتولى حمل اللوحه تابع من الفندق فى كسوة رسمية ٠ واتصلت شخصيا بالادارة لترتيب الأمور ٠ فأبدوا لهفة على الخدمة والارضاء ٠ وبلا أجر يافراو بد ٠ وفى سيارة منفصلة ان أردت ٠ فأين هو الفندق الألمانى الذى لا يشرفه أن ينقل لوحة الى الفوهرر ؟ وسرى النبأ كالسنة النيران فى المؤسسة ، فأصبح الشبان الثلاثة مطمح جميع الأبصـــار ٠ وعلموا أن الفوهرر شخصية مألوفة فى هذا الفندق الراقى ، فقد ظل سنوات طويلة يتمتع بالضيافة هنا من قبل اثنين من أنصاره الأغنياء أحدهما صاحب مصانع للبيانو ، والآخر جراف بروسى وزوجته وهى معـــروفة جدا لصداقتها المسرفة مع الغلمان السعاة فى الفندق ٠ وكانت ايرما تعرف كل شىء عن هذه المسائل بسـبب تمريناتها على اللغـة الالمانيـة مع احدى موظفات المؤسسة ولا يمكن أن يفتقد المرء أن يفتقد المرء اللفظ فى فندق كبير بأوربا

والبيت البنى فى شارع بريلز المشهور بأنه من أجمل الشوارع فى الدولة والكنيسة ٠ وفى الواقع كان قصر القاصد الرسولى عبر الشارع مباشرة ، وهكذا كان ممثلا العقيدتين المتنافستين فى ميونيخ يرقب كل منهما الآخر من نوافذه ٠ فالمبعوث الشبيه بالأمراء من قبل المسيح يطل فاذا فى مواجهته بناء ذو واجهة مربعة وهو من ثلاث طوابق بعيد عن الشارع بمسافة كبيرة ويحيط به سياج حديدى مرتفع ٠ وفوق قمته علم كبير عليه الصليب المعقوف يخفق فى النسيم الذى يهب من جبال الألب المغطاة بالجليد ٠ وامام البوابة الجميلة يقف ليلَ نهار اثنان من جنود كتائب الهجوم المسلحين ٠ فلو اتفق أن أمير الكنيسة الكاثوليكى كان يرقب الطريق ذلك الصباح لرأى سيارة مرسيدس فارهة تقف أمام مبنى النازى وينزل منها مسئول نازى شاب أشقر أزرق العينين فى كسوة

رسمية ، ونقيب سابق في المدفعية بروسي طويل القامة ذو وجه طويل قاس بعض الشيء ، وامريكي شاب ثيابه على آخر طراز بني الشعر قصير الشارب · وكذلك نزل منها أحد أتباع الفندق في كسوة رسمية رمادية وأزرار نحاسية حاملا لوحة ذات اطار كبير ملفوفه في قطعه من القماش وسار الأربعة في الممشى وأدوا جميعا التحية النازية فيما عدا حامل الصورة · كانت كسوة هاينرش لها سلطانها فدخلوا الى البهو المعلقة فيه اعلام الصليب المعقوف مابين كبيرة وصغيرة مدلاة من السقف والنوافذ ومقابض الأبواب ، وكوات المصابيح ، واشغال الحديد وكانوا مبكرين عن موعدهم قليلا ولذا قادهم هاينريش فصعدوا السلم المهيب وأراهم قاعة الاقطاب وبها لوحات تذكارية لشهداء النازى خارج أبوابها · اما في الداخل فأربعون علما ذات نسور من البرونز ومقاعد وثيرة جميلة من الجلد الاحمر للأقطاب او الشيوخ · وأيا كان شأنهم فهم لا يمكن أن يكونوا قد اجتمعوا مرات كثيرة لان الفوهرر يتولى اصدار جميع الاوامر · وكان تعليق هاينريش وكيرت « عظيم ! » أما لانى فخامرته فكرة خائنة « كل هذا من ثمرات الاتفاق مع تيسن وملوك الصلب الآخرين ! » ·

ومكاتب هتلر واعضاء مكتبه في ذلك الطابق نفسه · وفجأة وفي الموعد المحدد أدخلوا الى مكتب بسيط الزينة به زعيم النازى ، فادوا التحية ونهض فرحب بهم بمودة ، وتذكر لانى وشد على يده قائلا « مرحبا بك ياهربد · كم سنة مرت منذ التقينا · أكثر من ثلاث سنين ؟ وما أسرع مرور الوقت ! ولا فرصة لدى لملاحظة مروره ، فما بالك بالتمتع به » ·

ومرة اخرى أحس لانى تلك اليد الرطبة الناعمة ، ومرة أخرى أطل في هاتين العينين الرماديتين الزرقاوين المركبتين في وجه عجيني شاحب وقد أصبح الآن قصيرا بدينا ، لان آدى يزداد وزنه بالرغم من اضطراب حوصلته المرارية ، أو بسبب ذلك الاضطراب · ولما نظر اليه لانى جال بفكره مرة أخرى انه أعظم لغز في العالم · فقد تفتش في انحاء أوربا كلها ولا تجد رجلا ذا مظهر عادى أشد منه · ففوهرر الوطن الالمانى فيه كل عناصر التفاهة · فهو أقصر من اى واحد من زواره الثلاثة ويبدو الآن في الثوب المدنى البسيط بياقته البيضاء ورباطة عنقه الاسود أشبه بمساعد بقال أو بائع متجول يروج لمستحضر مقو للشعر · فهو لا يخرج للرياضة، وقامته رخوة وكتفاه ضيقتان وردفاه كردفى امرأة ، ورمز النقاء والاصالة الآرية هجين أشد ما تكون الهجنة ، فله شعر مستقيم غزير اسود ، يترك خصلة منه طويلة على نحو ما كان يصنع لانى وهو غلام · ويبدو ان

الشيء الوحيد الذى يرعاه بعناية شاربه السخيف المضحك على غرار شارلى شابلن ·

وكان لانى حين راقبه فى مسكنه ببرلين قد قال لنفسه « هذا حلم وسيصحو الشعب الالمانى منه ، أما الآن فرءوسهم اشد دورانا به ، ولانى يحاول أن يحل هذه المعضلة فيقول أنه البرجوازى الصغير مجسدا · وانه الالمانى العادى ، الرجل الصغير ، رجل الشارع وملايين من هؤلاء الرجال الفاشلين والمكبوتين وجدوا صورتهم فى آدى شكاجروبر وفهموه وصدقوا وعوده · أما وجوه اختلافه عنهم مثل عدم أكله اللحم وعدم سكره كلما استطاع ، فتجعله فى نظرهم رومانتيكيا وملهما وروحا عظيما ·

- ٦ -

وكان تابع الفندق واقفا عند الباب وقد وضع اللوحة على الارض ليسندها بيده اليسرى فى حين رفع ذراعه ممدودة مبسوطة الكف الى الامام مع اتجاه قليل الى أعلى فى تحية نازية مستمرة · ولاحظ الفوهرر وجوده فسأل « ما هذا الذى أتيتمونى به ؟ » فأخبره لانى ، ثم وضعوا اللوحة فوق مقعد ووقف التابع من ورائها بعيدا عن الانظار ليسندها بثبات ووقف هتلر على مسافة مناسبة ورفع لانى الغطاء بصورة احتفالية · ووقف الجميع ملتزمين السكون والصمت الى أن حظى الرجل العظيم بالنظر كما يريد ثم هتف « شيء جميل ! هذه هى فكرتى عن العمل الفنى · أتقول انه فرنسى ؟ ثق ان له جدادا من الألمان · من المرأة ؟ » فأجابه لانى « انها أمى » وكان قد أدلى بهذه الحقيقة مئات المرات فى حياته ، ذلك ان ميونيخ هى خامس مدينة كبيرة يشترك فيها فى معرض · فقال هتلر « امرأة جميلة ويجب أن تكون فخورا بها » فقال لانى « وأنا بها فخور » ثم أردف « اللوحة اسمها أخت الرحمة · فقد جرح الرسام جرحا بليغا فى الحرب ، ثم قتل بعد ذلك · وتستطيع أن ترى انه كان يشعر بما يرسم » · فهتف آدى « نعم ! وأنا أيضا جرحت واعرف كيف يكون شعور الجندى نحو النساء اللواتى يمرضنه · وانه ليبدو وكأن الفن العظيم لا يأتى الا من الألم والعذاب » فقال لانى « هذا ما يقوله لنا شاعركم العظيم جيته يا سيادة مستشار الرايخ » ·

وساد الصمت وقد انصرف هتلر الى دراسة الرسم مرة أخرى ، ثم علق قائلا « نمط آرى نقى · للنمط الروحى الذى ينصرف بكليته الى المثالية » ونظر الى الرسم فترة أطول ثم قال « الرحمة من الفضائل

الآرية . وأشك في أن السلالات الأحط يمكن أن تشعر بالرحمة شعورا عميقا جدا » .

واستمرت الحال برهة طويلة ، والفوهرر ينظر ثم يدلى بملاحظة وما من أحد يجازف بالكلام ما لم يكن ردا على السؤال « هذا النوع من الفن يقول لنا ان الحياة ملآنة بالعذاب ، فينبغى أن تكون المهمة العظمى للجنس البشرى تقليل العذاب ما أمكن . أتتفق معى فى ذلك يا هر بد؟ » فاجابه « انى موافق على ذلك فعـلا . وأعلم ان هذه هى الفكرة الاساسية فى حياة ديتاز » فقـال هتلر « انها مهمة الجنس السـيد . فهؤلاء وحدهم غير ان يشتبك فى جدل . ولكن الفوهرر لم يسأله بل واصل الكلام قائلا « ينبغى ان تكون هذه هى الفكرة التى توجهنا فى حياتنا . ولدينا هنا فى هذه الحجرة ثلاث من اعظم قوميات العالم ممثلة، واعنى الالمان والفرنسيين والامريكيين . ويا له من كسب لو ان هذه الامم اتحدت لصيانة نقائها الآرى وضمان سيادة القانون فى أنحاء العالم !! ترى أدنى أمل فى ذلك فى زماننا ؟ » فاجاب انها غاية نسعى اليها يا سيادة مستشار الرايخ . ويجب أن يعمـل كل منا ما يستطيعه » فاجابه هتلر « ثق اننى ساصنع ما استطيع يا هربد . وقل ذلك لكل من تعرفهم » .

وعاد سيد المانيا الى مقعده امام المكتب قائلا «انا شاكر لك لاحضارك هذه الصورة الى . وقد فهمت انك اقمت معرضا ؟ » فأجاب لانى « نعم يا سيادة مستشار الرايخ . وسوف يشرفنا لو تكرمت بالحضور . أو ان احضر نماذج أخرى من عمله أن كنت تفضل ذلك » فقال هتلر « أتمنى لو استطعت تدبير هذا . وانا أيضا » والتفت الى كيرت « كنت آمل أن تأتوا الى جنـاحى الخـاص حيث يوجد البيـانو ، ولكنى أخشى أن أكون مضطرا للرحيل الى برلين . لقد كنت أسعد حالا عندما كنت أدير حزبا سياسيا فحسب ، أما الآن فللأسف على أن أدير الحكومة أيضـا . ولذا تجد محب الموسيقى والفن مضـطرا لتخصيص وقته كله واهتمامه كله لمنافسات صغار الرجال وتحاسدهم » .

وكان قد انتهى عرض الصـورة فحملها التـابع الى الخارج منصرفا بظهره ومنحنيا مع كل خطـوة والتفت الفـوهرر الى كيرت وسـأله عن موسيقاه ، ورفع المؤلف الموسيقى الى السماء السابعة بقوله ان كيرت أدى خدمة حقيقية للقضية ، لاننا يجب أن نرى العالم ان الاشتراكيين الوطنيين يستطيعون انجـاب الموهبة ، بل والعبقرية التى تضارع أفضل عبقريات الماضى . والعلم يجب أن يعمل على تقوية الالهـام بحيث يرتفع الشعب

السيد الى مستويات عالية جديدة واذا أمكن يرفع السلالات الادنى من بعده •

والتفت الى هاينريش ، وكان يريد أن يسمع كل ما يستطيع المسئول الشاب أن يخبره بخصوص شبيبة هتلر وتقدمها • فالرئيس الكفء للتنظيم العظيم يحصل من هذا الطريق على معلومات عن الشخصيات والاجراءات التي يهيمن عليها • وجعل يوجه اليه أسئلة لسبرغوره وهو يرقب محدثه بعينين نصف مقفلتين لانه يريد أن يتأكد من ان هذا المسئول يقول له الحقيقة ، ولكن لا باس أن تكون ملونة بطبيعة الشاب الحماسية• ولم يكن هاينريش الشخص الذى يتحدث عن دسائس القمصان السود وخياناتهم • وقال مستشار الرايخ بدهاء « أتمنى لو كان عندى المزيد من الشبان أمثالك » • فقال مراقب الغابات النشوان « لديك ألوف منهم يا زعيمى ، ولكن لم تسنح لك الفرصة قط لمقابلتهم فقال آدى « ان بطانتى تحاول أن تعزلنى عن الناس كأننى طاغية شرقى ويحدثوننى عن الاخطار البدنية ولكنى أعلم ان قدرى يريد لى أن أعيش وأتم عملى » •

- ٧ -

يا له من حديث ، وكان لانى يتغلب على الشكوك خوفا من نهوض الرجل العظيم قائلا « آسف• ولكن وقتى محدود » ولم يكن فى المستطاع تصور انسان فى مزاج أفضل من هذا ، ونظر لانى الى كيرت وكان حريا أن يغمز له بعينه لولا أن كيرت ظل مثبتا عينيه على معلمه ومرشده • ولجأ لانى الى التركيز ومحاولة نقل الافكار فأخذ يجرب وهو يفكر بأشد ما فى استطاعته « الآن ! الآن ! »

وقال كيرت « يا زعيمى • قبل أن ننصرف ثمة شيء يظن صديقى بد أننى ينبغى أن أخبرك به » فسأله هتلر « وما هو ؟ » فجابه كيرت « كارثة كبرى ، ولكن لا ذنب له فيها • فان أخته غيرالشقيقة متزوجة من يهودى » فهتف أدولف « يا للصواعق ! يا له من نبأ جلل ! » فقال كيرت « ينبغى ان اقول أيضا أن الزوج عازف فيولينة ممتاز » فقال هتلر « لدينا عدد كبير من الفنانين الآريين فلا حاجة بنا الى التماس شيء من هذه السلالة الدنسة • ما اسم هذا الرجل ؟ » فقال كيرت « هانسى روبن » فقال هتلر « روبن؟ روبن؟ أليس ابن ذلك المستغل السيء السمعة المشهر يوهانسى؟» فأجابه « بلى يا زعيمى » فانقض الرجل العظيم على لانى قائلا « ينبغى أن

تطلقه وما كان ينبغي يا صديقي الشاب أن تسمح بشيء كهذا أن يستمر. يجب ان تستخدم سلطتك وسلطة أبيك وسائر من في الاسرة من الرجال لهذا الغرض » فقال لاني « ولكن الواقع أن هذين الزوجين كل منهما متعلق بالآخر ياسيادة مستشار الرايخ. وهي أيضا تصاحبه في العزف، وتعزف معه الآن في جولة بالولايات المتحدة، فقال هتلر « ولكن يا هر بد، انه لشيء حقير وشائن أن تقيم وزنا للاعتبارات الدنيوية في موضوع كهذا. أختك شقراء نوردية مثلك ؟ » فاجاب « بل أشد شقرة مني » فقال الفوهرر « ومع هذا تظهر فوق المنابر العامة وتعلن عارها على الملا ! وفكر فيما تقترفه ضد المستقبل ، في الجرائم التي تقترفها ضد أطفالها ! » فقال لاني « لا أطفال لديهما يا سيدي مستشار الرايخ ، فهما قد وقفا حياتهما على الفن » فقال هتلر « هذا لا يقلل من أننا بازاء جريمة تدنيس السلالة وسواء رزقت بأطفال أم لا فهي تدنس جسدها . ألست متنبها الى أن سائل الذكر المنوى تمتصه الأنثى وبذلك تتسمم الأوعية الدموية لديها بهذه النطفات اليهودية النجسة المنحطة ؟ وهذا شيء في منتهى الفظاظة لو فكرنا فيه ، ولو كانت هذه أختي لآثرت أن أراها ميتة أمام عيني . بل انني كنت حريا ان أصرعها قتيلا لو علمت أنها تنوى اقتراف مثل هذه الخيانة لسلالتها » فقال لاني « آسف يا سيدي مستشار الرايخ، ولكننا في أمريكا نترك النساء يخترن أزواجهن بأنفسهن » فقال هتلر « وما النتيجة؟ ان لديكم سلالة هجينة مختلطة تفعل فيها مختلف التأثيرات الدنسة والمنحطة بحرية ، وتزدهر فيها جميع ألوان الاسفاف البدني والفكرى والخلقي بغير رادع . ولكم أن تسلكوا هذا الطريق العريض الى الجحيم ان شئتم ، ولكن ثقوا أننا نحن الالمان عازمون على المحافظة على نقاء دمنا . ولسنا عازمين على ترك أنفسنا نخدع بكلمات غرارة عن الحرية والتسامح والنزعة الانسانية والحب الاخوى وما الى ذلك . فلن يكون أي مسيخ يهودي أخا لي . واذا عثرت بواحد منهم يحاول مضاجعه امرأة آرية حطمت جمجمته على نحو ما تطالب بذلك أنشودة من أناشيد كتائب الهجوم . « حطموا جماجم طغمة اليهود ! ولا تؤاخذني ان كنت أتكلم بوضوح ، فهذه عادة حياتي وهذا هو الواجب الذى أرسلت الى هذا العالم لا قوم به . فهل قرات كفاحي ؟ » فأجابه لاني « نعم يا سيادة مستشار الرايخ فقال هتلر « أنت تعرف ماذا قلت فيه : ان اليهود أكبر المحرضين على خراب المانيا . فهم كما سميتهم : شياطين حقيقيون لهم عقل وحش مسخ لا عقل انسان . انهم عصابة لصوص حقيقية . لصوص وقتلة . وثمة كتاب من تأليف هرمان جاوخ اسمه: أساس جديد لدراسة السلالة،

وهو مقرر الآن فى مدارسنا وجامعاتنا ، وفيه الحقائق الدامغة عن هـذه السلالة البغيضة على أساس علمى • فعالمنا الفاضل يقسم الحيوانات الثديية قسمين ، القسم الأول الآريون والقسم الثانى غير الاريين بما فيهم بقية المملكة الحيوانية كلها • فهل رأيت هذا الكتاب ؟ » فأجابه لانى « لقد سمعت مناقشات حوله يا سيادة مستشار الرايخ » فسأله هتلر « ألا تقبل حجته العلمية ؟ » فأجابه « أنا لست عالما وقبولى أو رفضى لا وزن لهما • وقد سمعت اعتراضا يثار مؤداه ان اليهود لا بد أن يكونوا من البشر لأنهم يستطيعون الانسال من الاريين والنوريين ولا يستطيعون الانسال مع الحيوانات غير الآدمية » فقال هتلر « يقول الدكتور جاوخ انه لم يثبت بأى وسيلة من الوسائل أن اليهود لا يستطيعون الانسال مع القرود والحيوانات الاخرى من عائلة الاورانج أوتان وأنا اقترح هـذا الاسهام المهم فى جانب العلم الالمانى بأن نجرب المزاوجة بين عدد من ذكور اليهود واناثهم مع اناث وذكور من القردة ، وبذلك نبرهن للعالم على صدق ما نادت به الاشتراكية الوطنية منذ سنوات كثيرة » •

- ٨ -

لقد اندفع سيد المانيا فى أحد موضوعية المفضلين ، أما الموضوع الآخر فهو البلشفية • ومرة أخرى لاحظ لانى أن ثلاثة من السامعين حسابهم عنده كثلاثة ملايين ، وزايلت عينى المتكلم النظرة الناعسة وثبتهما على المذنب المسكين فى تحديق مغناطيسى ، وارتفع الصوت الهادىء فصار نشازا حادا وبدت فى الرجل سيماء جديدة شيطانية مفزعة حقا ، واصبعه المشرعة كانما هى مطرقة ينهال بها على عقل لانى • فلا بد للفتى الامريكى اللاهى من أن يدرك الطبيعة الوحشية الممسوخة للخيانة التى يرتكبها باعضائه عما ترتكبه أخته من تدنيس للدم الآرى المقدس فلا بد على نحو ما من القضاء على هذا الشر فورا ، والرجل الذى أرسله القدر لانقاذ العالم يجب أن يثبت سلطانه هنا والآن ، باعادة هذه النعجة الضالة الى حظيرة النوردية • وصرح فوهرر النازيين « السم ! السم ! »

أجل ان اليهود ملومون بمعنى الكلمة على كل شىء ، وقد تلا هتلر قائمة جرائمهم للمرة العشرة آلاف ، فانهم هم الذين علموا المانيا التمرد وبثوا الالغام فى وطنيتها وحبها للنظام • وفى ساعة الخطر الاعظم طعنوها فى ظهرها • واليهود هم الذين ساعدوا على تكبيلها بمعاهدة فرساى القاسية المملاة عليها ، ثم شرعوا يثبتون بمسامير أغلال الفاقة حول

اطرافها · فهم الذين صنعوا التضخم وهم الذين ابتكروا مشروع رواس ومشروع يانج وأنظمة الربا وعبودية التعويضات · كل ذلك صنعه أصحاب البنوك اليهود متحالفين مع البلاشفة اليهود ! هم الذين نصبوا شراك الغواية للثقافة الالمانية في المسرح وفي الأدب وفي الموسيقى وفي الصحافة · وهم الذين تسللوا الى المهن والحرف والعلوم والمدارس والجامعات ، وكالعهد بهم دائما دنسوا كل ما لمسوه وحطوا من شانه · واليهود رجس وهم أس بلائنا !

واستمر الكلام على هذا المنوال نصف ساعة على الاقل لم يستطع فيها احد منهم أن يدلي بكلمة واحدة فقذائف الرجل كانت تتدفق بسرعة عظيمة حتى أن عباراته كانت تتعثر بعضها ببعض ، فكان ينسى ان يتم ، ونسي قواعد النحو بل نسي أبسط قواعد اللياقة واستعمل كلمات من مسابخ فينا حيث جمع منها افكاره · وجعل العرق يتفصد من جبينه وبدأت بنيقته البيضاء النظيفة ترشح به · وقصارى القول انه كان على نحو ما شهده لانى في انقلاب حانة البيرة بميونيخ قبل عقد من الزمن · ولكن ذاك المكان كان قاعة هائلة لشرب البيرة احتشد فيها الفان او ثلاثة آلاف أما هنا فكأنما هو محبوس في حجرة صغيرة مع أوركسترا به مائة آلة من بينها ثمانية ترومبونات واربعة أبواق باص تعزف افتتاحية الهولندى الطائر ·

وفجأة توقف الخطيب ، ولم يقل « هل اقنعتك ؟ » لما ينطوى عليه هذا السؤال من شك لا يمكن أن يعترف به مبشر مرسل من السماء ، بل قال « والآن ياهر بد اذهب وأد واجبك ، ضع قاعدة بسيطة حافظت عليها منذ أسست هذه الحركة : لاتتحدث مطلقا الى يهودى حتى ولا بالتليفون » ثم قال باقتضاب « لدى ارتباطات أخرى ويجب أن تعذرونى » « فالقى الثلاثة تحية الوداع بسرعة · ولما صاروا في الخارج قال لانى باعتباره عميلا سريا « لاعجب أنه يهز سامعيه » ولما عاد الى الفندق لزوجه وامه صاح عرفت الآن لماذا يحافظ جورنج على فريدى · فقالتا معاوهما في لهفة لماذا قال لانى في غضب بارد انه يريد ان يجرب في استخراج نسل له من قردة !

- ٩ -

وكان لابد للانى أن يقول باللعبة على حسب قواعدها ، فينبغى الا يدع احد هذين الصديقين يكتشف أنه أحضرهما الى هنا على أمل اقناع

هتلر ان يطلق سراح السجين اليهودي فحسب ، بل كان حضورهما لاجل الصداقة والمؤانسة والموسيقى والفن ، فلا بد ان يعزف لاني وكيرت ثنائيات البيانو كما كانا يصنعان في الزمن الخالي • ويجب على زلطان ان ياخذهم الى فيناكوتك ويجعلهم يستفيدون من معلوماته الفنية • وبيوتي وأيرما يجب ان ترتديا أفضل ملابسهما الفاخرة وتصحباهم الى المسرح القومي لمشاهدة اوبرا مايسترزنجر والى مسرح الامير الوصي على العرش لمشاهدة « اجمونت » من تأليف جوته • ولابد من اقامة حفل عشاء تدعى اليه الشخصيات المرموقة في عالم الموسيقى لمقابلة المؤلف الموسيقى البارز وبعد حفل سيمفوني تونهال أصغى لاني لتعليقات كيرت الفنية العالية على قائد الفرقة والأنغام • فطبقة النغم كانت جامدة باردة لامعة تفتقر الى « التجسيد » ويعنى كيرت بهذا النسبة الملائمة بين الطبقات المنخفضة والمتوسطة والعالية • واتهم قائد الفرقة الموسيقية بأسرافه في الحماسة حتى لقد بالغ في مد الاصوات وتضخيمها وأكثر من الحركة القلقة كانه دجاجة عجوز لديها نسل من الافراخ أكبر من طاقتها ، وهو سلوك غير وقور يقينا ولا يمكن أن يكون مناسبا على الاطلاق لاداء معزوفة بيتهوفن « البطولة » • اما لاني فبدا له أن الاهم من ذلك محاولة فهم ما كان مؤلف هذه السيموفنية النبيلة يحاول أن يقول له ، فهذا أولى من الانزعاج حول تفصيلات أداء شخصي ما لهذه السموفنية •

وهل من الممكن ان يتصور المرء بيتهوفن وقد فاته أن يكره النازى ويتحداهم ؟ لقد اهدى سيموفنية الى نابليون لانه أعتقد أن نابليون يمثل قوى التحرير المنبثقة من الثورة الفرنسية ، ثم مزق صفحة العنوان من نوتته الموسيقية عند ما علم أن نابليون توج نفسه أمبراطورا لفرنسا • وهو قد تبنى قصيدة شيلر « ترنيمة الفرح » مرسلا بها قبلة الى العالم اجمع ومعلنا أن جميع البشر يغدون أخوه حيثما يستقر جناح الفرح اللطيف •

هذا ما تنادى به تلك الموسيقى • وهذا ما يجعل لها ذلك التأثير • ان روح بيتهوفن تدافع عن نفسها ، وتدافع عن كل شيء الماني ضد من يريدون تدنيسه •••

ان مارش بيتهوفن الجليل المؤثر يسرى بين معسكرات الاعتقال النازيه ، على نحو ما سرى هناك لانى مرارا كثيرة بخياله • ففى هذه المعسكرات أحزان وعذاب خمسين أو مائة من أرقى وأفضل العقول المستنيرة في المانيا • وبيتهوفن يحزن لحزنهم ويقول لهم أن أسوا مأساة

يمكن ان تتحول الى جمال بما للروح من قوى غير محدودة • وختام السيمفنية انتصار ، ولكن هذا الانتصار لم يزل بعيدا ولم يستطع لاني ان يتخيل كيف يمكن ان ياتي • وكل ما في مقدوره أن يتشبث بيد ذلك الاستاذ العظيم كما يتشبث الطفل الصغير بأبيه • وبعد سماع هذه المعزوفة كان على لاني أن يواجه الحقيقة ، الا وهي أن حبه لكيرت وهاينريش قد انتهى ، فوجد مشقة في أن يبدو مهذبا لصديقيه القديمين ، وايقن ان الجاسوسية أو العمالة السرية او ما شئت ان تسميها مهمة مسئمة لعينة جدا فاعظم امتياز في هذه الحياة أن تقول ما تعتقد ، وأن يكون أصدقاؤك اناسا يستطيعون على الاقل ان يقدروا أفكارك تقديرا لائقا ، وسر لاني عندما استقل كل من كيرت وهاينريش قطارا منفصلا الى غايته • لقد شكرهما لما قاما به واكد لهما ان العرض كان طيبا ولكنه في نفسه كان يقول لاطلق سراح فريدى واخرج من هذا الجحيم ثم أخرج نفسي منه ولن أعود اليه •

- ١٠ -

ظل لاني اسبوعا يعيش على اتصال وثيق بتلك الكتلة من الشقاء البشرى المعروفة باسم داخاو ، وقد تظاهر بعدم الاكتراث بها ولم يتكلم عنها الا وهو مع ايرما على انفراد في سياراتهما • وداخاو بلدة صغيرة تعتبر سوقا تجارية على بعد تسعة أميال شمال غربي المدينة ويفضى اليها طريق زراعى جيدة الرصف • فلا مناص من اتجاه أفكارهما الى هناك ، ومن حمل السيارة اياهما اليها في أول فرصة • ولم يصنعا ما كان يصنعه معظم السائحين من تفقد القلعة المشرفة عليها ، بل بحثا عن معسكر الاعتقال الذى لم يكن من الصعب العثور عليه لانه يشغل ميلا مربعا من الارض ، وكان من قبل ثكنة ومعسكر تدريب أيام الحرب العالمية ثم بطل استخدامه منذ السلم ، وتحيط بالمعسكر أسوار من الاسمنت المسلح ارتفاعها سبعة أقدام تعلوها أسلاك شائكة غزيرة لابد انها مكهربة • وفكر لاني في محاولة بعضهم تسلق الجدار • وبدا له ذلك أقل احتمالا عندما جاء في الليل ورأى وهج الانوار الكاشفة البيضاء المركبة في الابراج وهو يتحرك باستمرار على امتداد الاسوار •

وكان ما نشر في الصحف من أن الفوهرر شاهد اللوحة « أخت الرحمة » قد أثار لدى الوف من البافاريين الرغبة في مشاهدتها فتقرر مد

المعرض اسبوعا آخر • بيد أن لانى كان قد سئم أخبار الناس عنها وسئم ما كانوا يقولونه • بل انه فى الواقع كان قد سئم ما يقوله جميع الناس فى المانيا النازية فان قالوا ما يقولون لانهم يريدون قوله كرههم وان قالوه لانهم يجب أن يقولوه رثى لحالهم ، ولكنه فى جميع الاحوال لم يكن يهتم بما يقولون •

ولما كان قد قرر أن يأخذ الثور بقرنيه فقد أنتقى صباحا مشمسا يرجح ان يكون نزلاء داخاو فى الفناء ، أو على الاقل المسموح لهم بذلك منهم • ووضع فى جيبه قصاصات من الصحف عن مشاهدة الفوهرر لرسم ديتاز واقراره اياه ، وبضعة أحاديث معه ومع ايرما بها صورته وأشارة الى أنه كان ضيفا على جورنج ، وهذه الاشياء تعادل تذكرة الدخول الى اى مكان فى بلاد النازى • وغادر ايرما تقوم بشراء مايلزمها من المتاجر وركب السيارة على طريق داخاو وبدلا من أيقافها كأى نكرة متواضع أتجه بها الى البوابة الرئيسية وأعلن عن رغبته فى مقابلة قائد المعسكر ، ونظروا الى سيارته ثم الى ثيابه ووجهه الارى والى بطاقة زيارته المطبوعة بحروف بارزة التى قدمها اليهم ، وقالوا فى أنفسهم أن السيد لاننج بريسكوت بد قد يكون شخصا بالغ الاهمية حتى أنه لم يهتم بوضع القابه ورتب الشرف على بطاقته كما هى العادة عند الالمان ، وأدخلوه من البوابات الفولاذية ووقف أثنان من جنود كتائب الهجوم للحراسة فى حين دخل ثالث ببطاقته الى المكتب • وكان أمامه فناء للتدريب • وفى أحد الجوانب صوت مطارق ، فهم يقيمون ابنية جديدة يشيدها السجناء بلا شك • وكان جنود كتائب الهجوم فى كل مكان بهراواتهم المصنوعة من المطاط ومسدساتهم الآلية ويبلغ عدد هؤلاء نصف مليون فى الوقت الحاضر كلهم من الرجال المقاتلين الذين يجب تدبير أعمال لهم •

- ١١ -

ووافق القائد على مقابلة الهر بد فاقتيد الى المكتب الخاص لشاب من أهالى جنوب المانيا خشن الهيئة تكثر فى وجهه الندوب وله رأس مستدير يعلوه شعر أسود قصير جدا • ولما كان لانى قد قابل جورنج فقد أعتقد أنه لم يعد أمامه ما يتعلمه عن الخشونة ، فجلس وطرق الموضوع مباشرة قائلا « يا سيادة القائد ، أنا أمريكى محبذ جئت الى ميونيخ بالصدفة لاهتمامى بمعرض فنى فيها • وقد تكون قرأتعنه شيئا ، وربما أيضا تكون قد قرأت عنى • وقد شرفت بقضاء صباح يوم مع الفوهرر فى

البيت البنى منذ بضعة ايام ، وأنا صديق لرئيس الوزراء البروسية الجنرال جورنج ، وقد اسعدنى أن أصحبه فى رحلة للصيد فى الشهر الماضى . وأنا أعيش فى فرنسا وأكثر من زيارة أشخاص فى انجلترا وامريكا حيث اسمع مقدارا كبيرا من الدعاية ضد نظامكم الحاكم . وأنت تعلم بلا شك شيئا عن اتهامات القسوة والتعذيب التى تنتشر هناك على نطاق واسع . وقد خطر لى أنه ربما كان من المفيد لو استطعت أن اقول : لقد زرت معسكرا من معسكرات الاعتقال الكبيرة ورأيت الأحوال هناك بعينى رأسى وأنا اقدر انكم من العسير أن تجيبوا هذا الرجاء لرجل غريب عنكم . ولكن معى قصاصات من الصحف الصادرة فى ميونيخ تعرفك من أنا . وفيها بالصدفة صور تمثلنى كى تتأكد اننى لست شخصا آخر » ومد الزائر الباسم يده بقصاصات الصحف فدرسها النازى الخشن وتبخرت خشونته كأنها صقيع الصباح الباكر حين تشرق الشمس . ان هذا الاجنبى الغنى الانيق قد حظى فعلا بأعلى امتياز يمكن لاى عضو صالح فى كتائب الهجوم أن يتخيله ، الا وهو دخول مكتب الفوهرر الخاص والتناقش معه فى الفن ! وقال القائد « يقينا يا هربد انه يسرنا دائما أن نطلع على معسكرنا الاشخاص الموثوق بهم . وقد سمحنا لعدد من الصحفيين الاجانب بتفقده فى الشهر أو الشهرين الماضيين » ونهض القائد متأهبا لتولى هذا الشرف بنفسه فلعله يستطيع أن يعرف السر فى اكتساب صداقة الفوهرر !

وهكذا تجول لانى فى أنحاء المعسكر ورأى ما بداخل هذه الاسوار من الاسمنت المسلح ذات الاسلاك الشائكة المكهربة بشدة . وشرح له الضابط روتين المعسكر وقاد الزائر الى الركن الذى به الثكنات ، وهى مسورة بسور يعزلها عن بقية الساحات والاراضى بحقول متشابكة من الاسلاك الشائكة . وهذه الثكنات حقيرة قذرة غير مطلية وأبنيتها نصف نخرة شيدت بمواد خرعة هزيلة فى زمن الحرب ثم أهملت منذ ذلك الحين وثمة صدوع كثيرة فى جدران الفواصل الخشبية وبعض النوافذ ينقصها الزجاج . وعدد أبنية الثكنات ثلاثة عشر بناء كل منها من طابق واحد وبه خمس حجر متصلة وفى كل حجرة خمسون فراشا صغيرا أو أكثر مرتبة على ثلاث طبقات كأنها الرفوف . والارض من الخرسانة والحشايا اكياس محشوة بالقش . وفى كل حجرة حوض واحد للغسيل .

وكان كثيرون من النزلاء خارج المعسكر يعملون فى تعبيد الطرق تحت حراسة شديدة . وكان غيرهم فى الورش أو يعملون فى بناء الثكنات الجديدة ! أو فى المطبخ والمسنون والمرضى يستفيدون من حرارة الشمس .

وهى النعمة الطبيعية الوحيدة التى لم تزل متاحة لهم • فجلسو متكئين على جوانب الابنية أو راحوا يمشون ببطء • وكان واضحا أن الحديث ممنوع فيما بينهم أو على الاقل لم يكونوا يتحدثون فيما بينهم • وقد نظروا الى لانى بغباء فاخجله أن تلتقى عينه بعيونهم • ولحسن حظه لم يكن له معارف بين الحمر والورديين من أهل بارفاريا فلم يشعر فى روحه بجراح •

وكان منظر السجناء قذرا قابضا للنفس • فرءوسهم حليقة وعليهم الثياب التى قبض عليهم فيها • وكان ذلك منذ شهور تصل فى كثير من الحالات الى سنة ، ولا شك فى أنهم كانوا ينامون بثيابهم تلك فى تلك الليالى القريبة من الشتاء • ومثقفو بافاريا لم يكونوا شديدى الشغف بالرياضة الحلوية فبعضهم نحاف الاجسام أكتافهم منحنية ، وبعضهم الاخر مترهلون من ذوى الكروش وكثيرون منهم بيض الشعر فى سن أجداد حراسهم ، بيد أن ذلك لم يك يكسبهم اعتبارا خاصا • وسوء الصحة وهبوط الهمة مكتوبان على سحنهم جميعا فهم لا يعرفون لماذا هم هنا • ولا كم من الزمن ينبغى أن يمكثوا وهم الذين كانوا رجالا أحرارا ومفكرين أحرارا وأفضل من فى البلاد من المثقفين • لقد كانوا يحلمون بعالم اسعد أوفر نصيبا من النظام ، وهذه هى العقوبة التى تتكافأ مع جرمهم • وقال قائد المعسكر « نحن لا ندير مصحة »

وظل لانى سائرا ما بقى أمامه شىء يرى فشاهد خمسا وستين حجرة كعنابر السفن وبضع قاعات جماعية للطعام واثنتى عشرة ورشة وابنية متبانية فى الأرض الفضاء • وحيثما ذهب كان يتفرس فى الوجوه بحثا عن وجه شقيق أخته او وجه زوج ترودى شولتز فلم ير منهما أحدا وبعد أن طاف جميع أرجاء المعسكر من غير أن يعثر عليهما جازف بتوجيه السؤال التالى « الديكم هنا يهود ؟ » فرد عليه مضيفه « نعم • نحو أربعين ولكننا نحتفظ بهم بمعزل رعاية للآخرين « فسأله لانى « وهم يعملون فيما أعتقد ؟ » فأجابه « يعملون بجد وعناء ، ثق بهذا «فسأله» أأستطيع أن أراهم ؟ « فأجابه » يؤسفنى ان أقول أن هذا مخالف للتعليمات •

ولم يتطوع الرجل باكثر من ذلك ، ولما كان لانى قد وجه كل ما تجاسر عليه من الاسئلة فقد تركه يقوده عائدا الى سيارته ، ثم قال « أشكرك ياسيادة القائد وسيكون فى مقدورى أن أقول لمراسلى الصحف انى لم أر أحدا من النزلاء مرضوضا أو داميا ، ولم أر سياطا من الاسلاك أو خراطيم المطاط لضربهم فأجابه النازى الخشن : وكان من الممكن أن

تنقب أكثر مما فعلت فلا ترى شيئا من ذلك وهى ملاحظة تتسع لأكثر من تاويل . وقال لانى فى نفسه « لعله مثلى يفضـــل الا يكذب ان استطاع ! » .

- ١٢ -

قاد المحقق الهاوى سيارته عائدا الى المدينة ، وهو يتساءل كيف يتحمل فريدى ذلك المعتقل وكان فريدى نفسه قد تساءل من قبل الديه الشجاعة المطلوبة ؟ وهل يستطيع أن يجد فى نفسه الينابيع الروحية ؟ ولما كان لانى ذا مزاج خيالى فقد وجه هذه الأسئلة بعينها الى نفسه وعاش فى تلك الجحور الحقيرة القذرة وأحس على ظهره وقع تلك السياط التى لم ترها عينه . ثم بدأ ذهنه الناشط يخترع قصة صغيرة ، فتوجه لمقابلة القائد النازى الخشن ودعاه لمشاهدة العرض ، ثم دعاه بعد ذلك لنزهة معه بالسيارة فلما صارا فى الخلاء وسط الريف خاطبه لانى قائلا « يا سيادة القائد ، ان أحد اليهود الذين تعهد اليهم بقدر كبير من الأشغال الشاقة قريب لى على نحو ما ، وهو شاب لا ضرر منه ، ولو اخذته الى بيتى فى فرنسا سيقنع بعزف الكلارينيت بقية ايام حياته ولن يتسبب فى اذى لحركتكم المجيدة . وانا قد بعت عددا من اللوحات هنا ولدى نقود سائلة فى بنك بميونيخ . فلنفرض اننى اعطيتك لنقل مثلا خمسة وعشرين ألف مارك . بأى صورة وبأى طريقة تختارها ، وفى مقابل ذلك تدبر لى طريقة لالتقاط هذا السجين فى سيارتى حيث أمضى به الى الجبال وعبر الحدود النمسوية ، فهل يروقك ذلك وتعتبره صفقة طيبة عقدتهـــا فى ليلتك هذه ؟ » .

وتصورت مخيلة لانى عدة حلول ختامية لهذه القصة . وهو يعلم أن جهاز النازى به حروق كثيرة ومنافذ للفساد ، وكان يوهانس روبن قد روى حكايات كثيرة عن رجال أعمال آريين انقياء حصلوا على ما يريدون بمثل هذه الوسائل القديمة قدم الطغيـــان الاول . ومن جهـــة أخرى قد يكون هذا النازى الخشن بالذات متعصبا مخلصا ، فمن المستحيل تميز هذا من ذاك . وكان لانى واثقا لو أن هوجوبير هو المسئول عن المعسكر

لقبل تلك النقود . اما هاينريش يونج فربما كان يرفع أمره الى الجستابو الصارمين . وماذا يمكن ان يحدث عندئذ ؟ ليس فى وسعهم أن يفعلوا به أسوا من حراسته حتى الحدود ، على نحو ما فعل رجال القائد العام « باليو » فى روما قبل ذلك بعشر سنين تقريبا . ولكن الامر الوحيد الذى أوقف لانى عند حده ان القائد ان كان نازيا عفيفا حقا فهو حرى أن يعود الى المعسكر ويجعل من المستحيل على لانى أن يرشو أى رجل ضعيف من رجاله ، وذلك بأن يأخذ فريدى روبن ببساطة ويضربه حتى الموت ثم يحرق جثته . وقال الفتى اللاهى الذى شب عن الطوق لنفسه « يجب ان افكر فيما هو افضل من هذا » .

الكتاب السادس

لقد اريق الدم

الفصل الخامس والعشرون

التعلق بالهواء

- ١ -

كان عيد الميلاد يقترب وقد قضت ايرما اكثر من ثلاثة اشهر بعيدة عن عزيزتها الصغيرة فمن غير المعقول ان تمكث اطول من هذه المدة . وماذا كان لانى ينجز ؟ وماذا كان يرجو أن ينجز ؟ ان جورنج يلهو به ، ويحاول ان يحصل منه على شيء وبلا مقابل . وهو يبقيهما ساكنين ويغلق لهما فميهما . ولم تكن ايرما تبالى كثيرا جدا أن يغلق فم زوجها ، لو أنه كف عن القلق وحشود ذهنه بالفظاعات حتى انه يفزع مستيقظا من منامه !

لقد انتهى معرض ديتاز وتمت خطوة موفقة فقد طلب متحف من اكبر المتاحف فى دريسون ان يحظى بهذه اللوحات فترة من الزمن فيعاملونها معاملة ممتازة ويفردون لها حجرة خاصة . وسيأتى محبو الفنون فى مدينة الأبهة والبذخ تلك ليعجبوا بها ويستفسروا عنها ، وهذا شيء طيب مفيد من حيث الفن ومن حيث النقود وسوف يغدو زلطان ويروح ، والمشترون المستفسرون يتوجهون اليه وهذا افضل من تكديس اللوحات فى حجرة المخزن باحدى الضياع الخاصة !

وبيوتى وبرسيفال سيذهبان الى لندن بسبب اعجب تطور يمكن ان يتصوره العقل ، فقد أرسلت ليدى كايار صديقة عزيزة كل تلك المسافة الى ميونيخ لتقنع الزوجين الامريكيين بالقدوم مرة اخرى ضيفين عليها لأنها تشعر باحساس غريب استولى عليها مؤداه انها ستنضم قريبا الى حبيبها فينى فى عالم الأرواح ، وهى تريد من زوج بيوتى رجل الحب العزيز ان يكون فى بيتها فى ذلك الوقت كى يفحص لها عينيها ويتولى امر جنازتها

التى لن يكون لها شبيه بين جنائز العصر الحديث فهى مناسبة حبور لا مناسبة حداد ، والضيوف سيرتدون البياض ، والموسيقى ستصدح بالمعزوفات السارة وتولم المآدب تحت شارة « ف·ب·ق » اى فينى وبردى وقبلة · وقالت بيوتى « ولعلها ستبعث الينا بكلمة عن فريدى » ثم خطرت لها فكرة بشعة « ولعلها ستترك لنا جانبا من اموالها » ·

ولما كان متحف دريسون يتولى امر اللوحات فقد صار جيرى بندلتون خاليا من العمل فاخذته ايرما ولانى معهما الى رحلة عبروا بها الجبال المغطاة بالثلوج التى تحيط بميونخ وتقيم من حولها ما يشبه الستار المسدل ، ثم اجتازوا الحزام الضيق الذى تركته معاهدة فرساى المملاة للنمسا واخترقوا ممر برينر الذى دخل فى نصيب ايطاليا من الغنيمة · وفى هذه المنطقة كان ذوو القمصان السود من رجال موسولينى منهمكين فى تحويل الآريين الى جنسية البحر الابيض المتوسط عن طريق حراوات المطاط وسياط الكلاب· وكان هذا مثار سوء تفاهم شديد بين الفاشية ووليدتها الجديدة فى الشمال· وكان للدكتور جوبلز مهيجون يتقاضون اعانات كبيرة ويعملون فى كل مكان بالنمسا ، وغير قليل منهم زج بهم فى غياهب السجون الايطالية · فكان المتفائلون من الشبان الورديين يتطلعون الى رؤية الفاشيين والنازى يلتهم كل فريق منهما الآخر مثل قطتى كاكنى (اللتين تقول الأسطورة انهما تصارعتا حتى لم يبق منهما الا ذيلاهما !) ·

وبيتنا ـ يا بيتى الحبيب ! ـ لا بد ان يبدو متواضعا جدا بعد اقامات وزيارات بين القصور ، بيد ان الورود كانت مزدهرة الى جوار البوابة ، وعلى الممر العريض اقبل كنز لا يقدر بثمن فى صورة مخلوقة صغيرة ترتدى ثوبا صغيرا ازرق اللون ولها شعر بنى داكن منسدل وعينان بنيتان داكنتان لامعتان · وكان قد قيل لها قبل يومين ان امها واباها فى الطريق ، فظلت تثرثر وتلقى الاسئلة عنهما منذ ذلك الوقت · وهى الآن قد جاوزت منتصف عامها الرابع ، وما اسرع ما ينمو الاطفال حتى انك تعود بعد ثلاثة أشهر أو أربعة فاذا كائن جديد يواجهك فلا تملك كتمان صيحات السرور ، وعلى الخبيرة اليقظة ان تكبح جماح حماستك حتى لا تربى فى الطفلة الصفة الذميمة صفة الشعور بالذات · وقد وجدت ايرما بارنز التى نشأت شخصيا فى عالم لاه ، عناء شديدا فى ادراك ان الطفلة شىء اكثر من ملهاة لابوين مسرورين · وهكذا اضطرت ايرما بارنز التى كانت تحصل دائما على ما تريد ان تتعلم كيف تخضع للنظام باسم ذلك العلم الجديد الصارم كل الصرامة الذى يسمونه « دراسة الطفولة » ·

نعم حقا ، فلا بد حتى لطفلة سترث ثلاثة وعشرين مليونا من الدولارات ان تتعلم كيف تستخدم يديها ، وكيف يمكن ان تتعلم ذلك اذا قام الآخرون لها بكل شيء ولم يتركوها تبذل اى مجهود ؟ وكيف يمكن ان تتعلم النظام اذا حصلت دائما على ما تريد واذا استقر فى ذهنها انها محور الاهتمام وانها اهم من اى شخص ممن تتعامل معهم ؟ واصرت الآنسة سيفرن الصارمة على وجوب احترام سلطتها المهنية ، وكذلك الآنسة ادنجتون ذات الضمير اليقظ التى لم تعد هناك حاجة اليها باعتبارها مؤدبة لمرسلين فبقيت فى منزلة بين النزيلة وبين صديقة للأسرة التى تضطلع بتاديب فرانسيس . فهاتان السيدتان التابعتان لكنيسة انجلترا كانتا تتآمران معا ، وقد استعانتا بلانى ضد ام مشغوفة وجدتين متنافستين وطاهية من ريف فرنسا وكبير للخدم ، هذا اذا اخرجنا سنتا كلوز ايضا من الاعتبار .

- ٢ -

عيد ميلاد بهيج ، الا انه ليس بالغ البهجة بسبب ظلال الحزن المخيمة على البيت ، فلم يستطع احد ان ينسى المرأتين المحزونتين اللتين بذلتا غاية جهدهما فى كبح أساهما وعدم فرض عذابهما على اصدقائهما . الا ان كل انسان كان يعرف فيم تفكران . والحقيقة ان الحزن كان خليقا ان يكون اقل من هذا لو ان فريدى كان قد مات وورى التراب ، لأنهما فى هذه الحالة على الأقل كانتا ستشعران انه لا يتعذب أما والأمر هكذا وهذا ما يطارد كل فكرة فى راسيهما وهما تقيمتان وحدهما فى « اللودج » . وعزيزهما المفقود فى مؤخرة رأسيهما باستمرار ، بل فى مقدمة رأسيهما فى معظم الأحيان ، وهما تشعران بعرفان الجميل بسبب كل ما اسدى اليهما ، الا ان ثمة شيئا تنطلق به نظراتهما وان احتبست به شفاهما . أى لانى أى ايرما ! الا تستطيعان التفكير فى شيء تصنعانه للمسكين فريدى ؟

ان هانس وبيس فى ولايات الغرب الوسطى يقدمان الحفلات الموسيقية بضع مرات كل اسبوع . وقد ارسلا نقودا بالتلغراف بعد اول حفلة فلم تعد الأم والزوجة بحاجة الى انفاق نقود ايرما فى شراء طعامهما ، وعرضتا استئجار مكان صغير لنفسيهما الا ان بيوتى رفضت لما فى ذلك من مجافاة للرقة . وكان هذا رأى ايرما ايضا ولكنها فى سريرتها لم تستطع ان تخمد ما خامرها من تفضيل ذلك لو انهما اصرتا عليه ، فهى تشعر

بسحابة رعدية مخيمة فوق المكان ، وتريد من صميمها ان تبعد لانى عن هذه السحابة ، وهي قلقة من جهة ما يدور بذهنه ولا ترى مبررا للتخلى عن كل حياة اجتماعية بسبب مأساة لا يستطيعون تحاشيها • ان ايرما تريد ان تقيم الحفلات الحقيقية التى تترك اثرا اجتماعيا قويا • وهى مستعدة لتقديم المال ثم تقوم بيوتى وفيندرس ببقية العمل وكلتاهما سعيدة بذلك لأنهما تؤمنان بالحفلات ، فالحفلات هى التى تميز بينك وبين القطيع العام من الناس الذين لا يقدرون على اعباء الحفلات ، او على الاقل لا يقدرون على هذا المستوى من الاناقة والبذخ •

ثم هناك ايضا مسالة الطفلين الصغيرين ، فهما متلازمان طول الوقت تقريبا و لاسبيل للحيلولة دون هذا ، فهما يطلبان بذلك ويأخذانه مأخذ التسليم ، وعلم دراسة الطفولة فى صفهما ، لأنه من المستحيل ان تربى طفلا كما ينبغى وهو وحيد ، فالطفل مخلوق اجتماعى بطبعه كما تقول الكتب المعتمدة • فلو لم يكن يوهانس الصغير فى متناول اليد لكان من الضرورى احضار احد ابناء السماكين من اهل البروفانس او اهل ليجوريا او ما اليها • وايرما لا تجد فى روبن الصغير عيبا فهو اسمر كأنه الحلم وهو لطيف ورقيق مثل ابيه : بيد انه يهودى ، وايرما لا تستطيع ان تطمئن الى فكرة اهتمام حبيبتها فرانسس بهذا الطفل اليهودى اكثر من اهتمامها بسائر البشر ، بدون استثناء لها شخصيا ، وهما بطبيعة الحال صغيران جدا ومن السخافة ان تفرط فى القلق ، الا ان الكتب والخبراء يجمعون على ان هذه هى السن التى تتكون فيها انطباعات لا يزول اثرها ، فهل من الحكمة أن تترك طفلة آربة ينطبع فى ذهنها ان هذا النمط السامى أشد ما يكون فتنة لها على وجه الأرض ؟ واخذت ايرما تتخيل نوعا من القهر او الارغام المأسوى ينمو من هذه البذرة لدى طفلتها فيما يستقبل من العمر •

ووجود هذا الطفل معناه أن شبح فريدى يسيطر على بيانفينى ، فهو يشبه اباه فى المنظر ، والحركات مما يذكر به كل انسان حتى الزائرين والضيوف• وكان الجميع قد سمعوا الشائعات عن تجريد النازى ليوهانس روبن من ثروته وان حفيده هنا لاجىء نزيل ، فالكل يسالون عنه ثم يشرعون في الكلام عن الأب ! اين هو ؟ وما تظنون ؟ وماذا انتم صانعون ؟ ان مصير فريدى روبن يطغى على هذا النحو فيحجب اهمية ثروة بارنز ، بل والطفلة التى سترث ثلاثة وعشرين مليونا من الدولارات وبذلك تتحول ضيعة بيانفينى الى مكان مملوء بالاشباح يسوده الجد والكآبة يتحدث فيه الناس عن السياسة ، فلا يشعر من يحبون اللهو انهم فى دارهم • ولم يكن فى نية ايرما بارنز قطعا ان تختار لنفسها مثل هذا الجو !

- ٣ -

لم تكن الليدى كايار تشكو من شيء محدد على حد ما استطاع اى طبيب ممن فحصوها ان يعرف ، بيد انها كانت قد رتبت ذهنها تمام الترتيب على انها ستلحق بحبيبها فينى فى عالم الارواح وبالفعل انتقلت « فى شهر يناير » واقيمت الجنازة ثم تليت وصيتها فاذا بها قد تركت لصديقتها السيدة برسيفال دنجل ساعة الحائط الكبيرة ذات الطائر المفرد المصنوع من الذهب والعاج ، تذكارا لطيفا لصديقتها « بردى » (ومعناها العصفور) وانه لتذكار لن يثور حوله نزاع · اما الوسيطة التى كانت قدوعدتها باسهم مصانع فيكرز فلم تظفر منها الا بصداع ، لأن مديرى المؤسسة الضخمة صمموا على حماية حقوق ابن وبنت السير فنسنت وقاموا ببعض الالاعيب فيما يختص بهذه الاسهم ، فعرضوا هذه الاسهم للاستهلاك ، ولما كانت التركة لا تملك المبلغ المطلوب فقد استولت الشركة على الاسهم وحصل الوارثان الشرعيان فى النهاية عليها · وثارت ضجة كبيرة حول هذا الموضوع فى الصحف وسر لانى لان امه وزوجها لم تكن لهما صلة بهذا الموضوع ·

ومع اطراد النجاح المسرحى حصلت نيناوريك على سيارة صغيرة ، ولم يكن فى وسع ريك قيادتها بسبب ركبته فكانت زوجته تقودها ، وقام باحضار دنجل الى الريفيرا واقاما مدة ضيفين فى الفيلا واستخدم ريك استديو كيرت القديم للعمل فى مسرحية معادية للنازى مستمدة من الكتاب البنى ومن القصص التى رواها له لانى والمطبوعات التى ظل كيرت وهاينريش يبعثانها اليه على مدى السنين · وقال ريك ان هذه المسرحية يمكن ان تسمى مليودراما لان الانجليزى العادى يأبى ان يصدق امكان وجود قوم مثل النازيين او ان امورا من هذا القبيل يمكن ان تحدث فى أوربا فى بداية سنة ١٩٣٤ · وقال ريك فوق هذا ان اخراج المسرحية يترتب عليه توقف لانى عن القيام بدور المناصر الرحالة للهتلريين لانهم سيعرفون بالتأكيد أين كتبت هذه المسرحية ·

وسر لانى بوجود صديقه القديم بقربه وهو الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يكاشفه بما فى قلبه · وكان لانى بعد ادامة التفكير فى معضلة فريدى روبن ليل نهار قد استقر رأيه تقريبا على الذهاب الى برلين وطلب مقابلة اخرى مع الجنرال جورنج يضع فيها اوراقه على المائدة قائلا ياصاحب السعادة لقد علمت ان شقيق زوج اختى سجين فى داخاو واحب كثيرا ان اخرجه من المانيا وعندى نحو مائتى الف مارك فى بنك ببرلين حصلت

عليها من بيع لوحات زوج امي ولدى مبلغ مماثل في بنك بنيويورك ربحته من عمولة بيع لوحات الأساتذة القدامى التي حصلت عليها في بلادكم ويسرني ان اعيد هذه المبالغ اليك لتستخدمها في دعايتك في مقابل اطلاق سراح صديقي فقال ريك « ولكنك لا تستطيع ان تصنع شيئا كهذا يالاني فهو شيء فظيع » فسأله « أتعني انه لن ياخذ النقود ؟ » فأجابه « ليس عندي ادنى شك في انه سياخذها ولكنك بذلك ستكون قد ساعدت قضية النازي » فقال لاني لا اعتقد انه سيستخدم النقود لهذا الغرض . وانما ساقول له ذلك لأجعل الامر يبدو محترما في الظاهر . ولكنه في الحقيقة سيستثمر المبالغ المودعة في نيويورك بأمان حيث هي . واما المبلغ الموجود في المانيا فسينفقه على آخر فتاة يصادقها » فرد عليه ريك قائلا « انت تقول هذا لتجعل الأمر يبدو محترما في نظرك انت ، وانت لا تعرف فيم سينفق النقود ولن تستطيع الفكاك من احتمال مساعدتك في تقوية الدعاية النازية . وهذا عمل يضاهي في فظاعته فكرتك عن اعطاء جورنج معلومات عن الرجال العموميين في بريطانيا وفرنسا » فقال لاني « لن أعطيه معلومات حقيقية يا ريك ، بل ساخبره فقط بالاشياء المعروفة لامثالنا فقال ريك « جورنج ليس مغفلا ولن تجعله انت مغفلا . فاما ان تعطيه شيئا يريده ، او لن تحصل على ما تريد . لقد أوضح لك ذلك تمام الايضاح ، وهذا هو السبب في ابقاء فريدى في داخاو ، ان كان موجودا هناك » فسأله لاني « اتظن انه ينبغي ان اتركه هناك ؟ » فأجابه « ستتركه هناك ما لم تدبر حيلة لاقتحام السجن » فقال لاني وفي هذه الحالة يجب ان ادفع نقودا يا ريك ولو لسجان » فقال ريك « لن يكون ثمة ضرر في اعطاء نقود لسجان لأن المبلغ سيكون صغيرا وسيترتب عليه افساد لنظام النازي الدقيق . وكل سجين يهرب يساعد في ذلك الافساد » فقال لاني « أتعتقد انني أخطأت في مساعدة يوهانس في الخروج من المانيا ؟ » فأجابه ريك « لا اعتقد ان تصرفك ترتب عليه فارق يذكر لان يوهانس كان سيخضع لمطالبهم على كل حال ، فهو من طراز الرجال الذين يفكرون في انفسهم ولا يفكرون في قضية عامة » فسأله لاني « اما كنت تفعل ذلك لو كنت مكاني ؟ » فاجابه « من الصعب الاجابة عن هذا السؤال لانني لم اعذب من قبل ولا استطيع ان اجزم بما سيكون عليه موقفي من التعذيب ولكني اعرف ما كان ينبغي ان افعل معرفة واضحة ، وهو ان اشنق نفسي في زنزانتي او افتح شراييني أولى من أن أدع جورنج يستولى على عملتي الاجنبية ليستخدمها في الانفاق على جواسيسه وحثالته » .

وتحدث ريك بما يفيد هذا المعنى الى ام فريدى وزوجته ، فقد كان الوحيد الذى يملك الجرأة على ذلك · تحدث اليهما بلطف وباشفاق على دموعهما · ولكنه اخبرهما ان الوسيلة الوحيدة التى يعرفها لمساعدة فريدى هى ان يكتب مسرحية معادية للنازى ، وطلب اليهما أن تسألا نفسيهما وماذا عسى ان يريد فريدى منهما ان تصنعا · ولم يكن ثمة شك فى الجواب ، لان فريدى اشتراكى مخلص ويفضل الموت على تقديم العون الى اعداء قضيته · وتبينت زوجته ذلك واعترفت به · وتبينته امه ايضا ولكنها لم تستطع ان تحمل نفسها على الاعتراف بذلك · والح ريك قائلا « ضعا هذا الاعتبار · لنفرض ان ما يريده جورنج من فريدى ان يشى بطائفة من رفاقه · وقد يكون هذا هو الحاصل فعلا · فهل يرضى ان يدفع هذا الثمن لحريته !! » فقالت الزوجة « لن يرضى بذلك طبعا » فقال « وهذا هو الوضع بعينه بالنسبة للنقود ، فالنازيون بحاجة الى عملة اجنبية ليتمكنوا من شراء الاسلحة او الوسائل التى يصنعون بها الاسلحة. يريدون هذه العملة الاجنبية ليتمكنوا من دفع مرتبات جواسيسهم وعملائهم والمضى فى دعايتهم فى البلاد الاجنبية · ويتمخض هذا فى النهاية عن ازدياد قوة النازية وزيادة العذاب للاشتراكيين وغيرهم · ان الهتلريين لم ينته امرهم ، ولن ينتهى ما عاشوا لان نظامهم يقوم على الافتراس ويزدهر بالعنف ، ويتلاشى بغير ذلك النهج · فلا بد له دائما من مزيد من الضحايا · فان حصلوا على نقود منك استخدموها فى الحصول على مزيد من النقود من سواك · فكل الموارد التى تستطيع الحصول عليها يجب ان تخصص لمحاربتهم ولتفهيم الشعوب الاخرى ما هى النازية واى خطر يمثله هذا على كل ما تعتزان به واعتز انا وفريدى به ايضا » ·

تكلم ريك بطلاقة تزيد على ما كان يسمح لنفسه به عادة · والسبب فى ذلك ان هذه العبارات وردت فى احد مناظر مسرحيته ، وهى تدور حول اشخاص عليهم ان يواجهوا قرارا قاسيا من هذا النوع ولم يقل : « هيا بنا نضع كل نقودنا ونجند كل جهودنا لاخراج مسرحية معادية للنازية ثم تستخدم ايراداتها فى انشاء صحيفة تعارض النازى » ولكن هذا ما كان فى ذهنه ، وكانت راحيل تعلم ان زوجها لو استطاع ان يخاطبها لقال لها « ان ريك على حق » ·

ولكن امه لم تكن اشتراكية ، فلزمت الصمت وقد رأت أن ريك اقنع راحيل ولانى · بيد ان ما زودها بشىء من الأمل ورود خطاب من يوهانس

يخبرها بقرب ابحاره الى ريو دى جانيرو لانجاز بعض اعمال لمصانع بد لانتاج الاسلحة » وساحصل على المال مرة اخرى وعندئذ ساجد وسيلة لاخراج فريدى من هناك » ٠

— ٥ —

كانت الريفييرا مملوءة باللاجئين من المانيا ، بل ان فرنسا كانت كلها على هذه الحال ٠ وحاول الكثيرون من هؤلاء المنكودين الاتصال بلانى بد ولكنه كان يخشى حتى من الرد على رسائلهم لانه لم يزل متعلقا باحتمال قيام جورنج باطلاق سراح فريدى ٠ وان لم يفعل فسيعود لانى ليبذل جهدا آخر ، ولذا يجب عليه ان يكون حذرا ٠ ومحاولة القيام بدور الجاسوس تجعل المرء حساسا من جهة الجواسيس ، فمن اين له ان يتيقن بأن اى لاجىء يلتمس منه العون ليس موفدا من قبل جورنج ليختبر سلوكه ويعرف هل هو شخص يعتمد عليه ام لا ؟

وهذا كله كان على مدام ايرما تماما ٠ ولم تكن تبالى بالسبب ما دام زوجها بعيدا عن الخطر ومثيرى المتاعب ٠ وتشاورت مع بيوتى واميلى وصوق فتآمرن على ابقائه مشغولا راضيا عن طريق امداده بالموسيقى والرقص وانواع الرياضة والاشخاص الذين يجد لذة فى التحدث اليهم ، على ان يقوم جيرى بندلتون والمخلص بب سميث بمصاحبته فى صيد الاسماك ٠ وخير من اعتمدن عليهم الصغيرة فرانس فاشترت ايرما كتابا فى علم نفس الطفل وقرأت فعلا كل حرف فيه كى يتسنى لها ابداء ملاحظات ذكية تساعد على ابقاء لانى مهتما بما يقدمه له بيته ٠ وجعلت تتعقبه بحبها فى الحاح وانتظام ، وكان بطبيعة الحال يدرك دوافعها ويشعر بالتأثر لها ، بيد انه كان يأخذ « داخاو » معه حيثما ذهب ٠ وفى احدى سهرات اميلى الموسيقية دفعت احدى المعزوفات الحزينة بالدموع الى عينيه٠ ثم بدرت من احدى سيدات الطبقة العليا كلمة فى تحبيذ النازية فدفعت بالدم حارا فى نفسه وافسدت شهيته للاطعمة اللذيذة الفاخرة ٠

وفى أوائل فبراير وصل روبى الى باريس فى رحلة من رحلات الأعمال ، وخطر لايرما ان تغيير المنظر قد تكون له فائدة ، وكانت تعلم ان الأب سوف يؤيد وجهة نظرها فوضعت الحقائب فى السيارة ووصلا الى كريون قبل موعد وصول روبى بليلة ٠ وانه لشىء يستحب ان يرى المرء رجل الاعمال ذاك سليما متينا وان كان اميل الى الاستدارة بعض الشىء

وردى اللون ، وقد واجه خسارته لمنصب رئاسة الشركة مأخذا سهلا ، وما لا يمكن تداركه فلا بد للمرء من تحمله ، ولذا كان روبى ماضيا فى عمله على ما يرام مع الرئيس الجديد • فهو رجل عصامى حسن الدراية بالاحوال المالية وقد اكتسب احترام الجميع ، ولم يحاول ان يرشد روبى الى كيفية بيع السلع فى اوربا ، بل تقبل رأى روبى فى كفاءات يوهانس روبن • وهكذا مضت الأمور فى مجراها على نحو ما كان فى الايام الماضية

وأراد روبى ان يعرف جميع التفصيلات عما حدث فى المانيا • فقد كان من المهم لديه ان يفهم النازيين لأنهم كانوا يحاولون الحصول على ائتمان من شركة بد ومن مجموعة البنوك التى تشرف الآن على شركة بد • ولم تكن للاعتبارات الاخلاقية قيمة فى هذه الرغبة الا من حيث دلالتها على قيام الرايخ الثالث بأداء التزاماته فى حينه •

وناقش روبى مع الزوجين الشابين مشكلة فريدى من جميع وجهات النظر ثم اقر ما حدث • ولم يقل شيئا بعد ذلك فى حضرة ابنه ، حتى اذا انفرد بايرما أيد رأيها فى ان الحمر والورديين الالمان قد جلبوا هذه المتاعب على انفسهم • ولم يكن قلقا من جهة هتلر ، وقال ان كل ما يجب ان تصنعه بريطانيا وفرنسا هو الوقوف جنبا الى جنب بثبات ثم يتركان النازى يوجهون جهودهم الى احباط التهديد الأحمر فى شرق اوربا ووسطها • وبطبيعة الحال من سوء الحظ ان احد ضحايا هذه المشكلة فريدى ، فيجب ان يساعدوا هذا المسكين ولو لراحة بال الأسرة • ولما كان روبى يفكر عادة فى النقود اولا فقد حدث ان اعتقال فريدى فى « داخاو » سببه ما تملكه ايرما من اسهم وسندات والشائعات دائما تضاعف ثروة أى غنى ثلاث مرات او اربعا ، وفى بعض الاحيان عشرا او عشرين، ولاشك فى ان الجنرال البدين يتوقع الحصول على ملايين كثيرة فدية لفريدى • وقال روبن انه مستعد شخصيا ان يعرض توجهه الى المانيا ليرى ماذا يمكن عمله ، ولكنه لا يرضى ان يرى ايرما تسلب وتنهب اموالها ، ولذا فالافضل ان ينتظروا الى ان يكشف جورنج عن اهدافه ان كان مزمعا ان يكشف عنها • وقدرت ايرما منه هذا الموقف وتساءلت لماذا لا يستطيع لانى ان يكون معقولا على هذا النحو •

وقال روبى ان ثمة شيئا واحدا يعجز عن فهمه وهو عدم تلقيهم سطرا واحدا بخط فريدى فى مدة تزيد على ثمانية اشهر ، فمن المؤكد ان أى سجين لا بد أن يسمح له بالاتصال باقاربه فى وقت ما ! وقال له لانى انه علم من قائد معسكر داخاو ان النزلاء مسموح لهم بكتابة اسطر قليلة مرة فى الاسبوع الى اقرب اقاربهم ، ولكن هذا الامتياز لا يسرى مفعوله

فى حالات خاصة • فقال روبى « وحتى على هذا الاساس لا بد ان توجد وسائل لتهريب الرسائل • ولا بد بالتأكيد من وجود سجناء يفرج عنهم بين الحين والحين • فلا بد ان يحصـل احدهم على عنوانك ويرسل اليك كلمـة عن الموقف • ويخيل الى ان فريدى ربما يكون قد مات • ولكننى لا استطيع ان اصارح بذلك آل روبن » •

- ٦ -

كانت الاوقات العصيبة تثمر فى فرنسا ما اثمرته من قبل فى المانيا ، فاذا بقدر السياسة يشتد غليـانه محـدثا ارتياكات قذرة ، وظهرت فى الوجود قضية ستافسكى ومحورها نصـاب من اصل روسى يهـودى • وقالت ايرما « اسوأ ما فى الامر انه يهودى ! » فلم يرد لانى هل قالت ذلك على سبيل العطف او على سبيل التهكم • وكان « آليكس الوسيم » كما يسمونه قد ارتكب سلسلة من الاحتيالات الماليه الواحدة منها بعد الاخرى وكانت ذروتها عملية ضخمة اشبه بالاوبرا كوميك فقد روج كمية هائلة من السندات لدى مؤسسات الرهونات بمدينة بايون ! وبلغ جملة ما سرقه من الجمهور الفرنسى نحو بليون فرنك • ثم اكتشف انه اتهم بالنصب قبل ذلك بثمانى سنوات او تسع ، ونجح فى تأجيل المحاكمة لا اقل من تسع عشرة مرة ، وهذا يعنى قطعا وجود تواطؤ مع الشرطة ورجال السياسة ، فاما انه كان يرشوهم بالمال او كان فى وضع يسمح له بارغامهم وتهـديدهم • ولما قرأ روبى التفصيلات قال انهـا تشـبه بالضبط ما يحدث فى شيكاغو او فيلادلفيا • وكان ستافسكى قد اختفى مع عشيقته فلما جاء الشرطة للقبض عليه اطلق الرصاص على نفسه • او هذا على الاقل ما قالته الشرطة الا ان القرائن كانت تدل على ان رجال الشرطة هم الذين أخرسوه بقتله • وصحف باريس ــ وهى أشد صحف العالم فسادا ــ كانت تنشر كل يـوم ما تصل اليه مضروبا فى عشرين ضعفا • وهناك فريقان من مصلحتهما استغلال هذه الفضـائح ، اولهما فريق احزاب اقصى اليمين وهم الملكيون والفاشيون الذين يريدون القضاء على الجمهورية واقامة نظامهم الدكتاتورى • والفريق الآخر هم الشيوعيون الذين يريدون دكتاتورية من نوع مختلف • وهكذا التقى النقيضان رغم ما بينهما من عداوة قاتلة ليحاربا معا نظام الحكم البرلمانى •

ولم يكن فى وسع لانى ان يزور خاله الأحمر ، ولكنه دعا دنيس دى بروين للعشاء ، واستمع الى آل بد الثلاثة الى القصة من وجهة النظر الوطنية الفرنسية • والموقف فى اسرة روبن شبيه شبها غريبا بالموقف

بين روبى ولديه • فدنيس ينتمى الى حزب محترم يؤيد القانون والنظام ، وقد ساءه ان يرى ابنه الاصغر ينضم الى الصليب النازى ، وهو انشط الجماعات الفاشية الفرنسية • وشارلو الآن بعيد عن البيت فى مكان ما مع رفاقه يتآمرون على التغلب على الشرطة والاستيلاء على ازمة البلاد • ومن الممكن فى اية لحظة ان يخرج مع منظمته الى الشوارع ويحدث تبادل اطلاق النار بين الفريقين ولم يستطع الأب المنكود ان يستمتع بعشائه وطلب من لانى ان يبحث عن الفتى المجنون ويحاول رده الى الصواب • وهذه هى الواجبات التى تتورط فيها لانك اخترت سيدة فرنسية جميلة لتصادقها !

وقال لانى لا ، فهو قد جرب التأثير على الشابين وفشل • وهو الآن قد اعتزل السياسة بعد أن وعد زوجته بذلك • واصغى لأعمق الاسرار الداخلية للجمهورية الفرنسية مستقاة من مصادرها المباشرة • فعرف شيئا عن دلادييه ابن الخباز الذى أصبح رئيسا للوزارة ، وهو رابع رئيس فى مدى سنة وعرف الجهات التى ساعدته ماليا فى شق طريقه ومن هى السيدة النبيلة التى اصبحت عشيقته • وعرف شيئا عن شاب مدير شرطة باريس وهو كورسيكى « معروف باسم نابليون الصغير » فهو لا يزيد طوله عن ١٥٧ سنتى مترا ، وقد فصل اخيرا من الخدمة لصداقته الحميمة جدا بستافسكى ، وكان ايضا على صلة بجميع الاوغاد الكبار ومبتزى الاموال بالتهديد والمتجنسين المنحدرين من اصل يهودى فى فرنسا ، وكان يفضى باسرارهم الى زوج ابنته الذى يصدر احدى الصحف الصفراء الكبرى فى باريس •

ولاحظ لانى ان الافراد الذين يثيرون غضب دنيس دى بروين واشمئزازه هم المتسلقون الذين يناضلون فى سبيل الثراء والسلطة من غير ان يكون لهم فيها حق مشروع • ولكنه قلما يجد عيبا جديا فى « جدار الذهب » الذى يتكون من اعضاء مائتى اسرة احرزت الثراء والسلطة منذ زمن طويل • وصار عليهم ان يدفعوا مبالغ طائلة من المال فى هذه الايام السيئة • ومصدر شكوى « دنيس » ليس الفساد بل الثمن المتزايد له • فالساسة يطلبون اكتتاب اكبر للمعارك والحملات وفى الوقت نفسه يزيدون الضرائب • وفكروا على سبيل الاقتصاد ان يخفضوا مرتبات الموظفين المدنيين وقد اكتشف دنيس ان ذلك يضر بمصلحة سيارات الاجرة • واسوأ من هذا فان سائقى سيارات الاجرة اعلنوا الاضراب ! واصغى روبى بعطف حتى اذ فرغ صديقه من الانحاء على دلادييه ، صب روبى جام غضبه على روزفلت •

وفى اليوم التالى رافق لانى زوجته الى معرض ازياء الصيف ، ولم يكن معرضا علنيا عاما بل كان لأهل الصناعة فحسب تعرض فيه النماذج الجديدة التى ينوى الصناع انتاجها قريبا • وقد وجهت الدعوة كنوع من التكريم الخاص الى ايرما من فنـــان الازياء الذى تعهد اليه بمصيرها الاجتماعى • وذهب معها لانى لانها ما دامت تجتهد فى الاهتمام بأموره فمن الانصاف ان يعاملها بالمثل ، وجلسا فى بهو به عدد كبير من النخيل المغروس فى آنية يحدقان فى منصة طويلة من خلفها ستائر زرقاء داكنة • وعلى امتداد هذا المنبر الطويل تهادت شابات حسان أنيقات مرتديات أزياء الصيف التى تفوح منها نكهة يابانية قوية ، أو لعلها نغمة يابانية ، أو جوها ، فقد كان الصحفيون يتلمسون الاستعارة المناسبة والأزرار مصنوعة من الخيرزان والقبعات أشبه بما يرتديه الخدم الهنود ، وأثواب السيدات لها ذيول كالمراوح تشبه السمك اليابانى الذهبى ، وثياب بعد الظهر مقصوصة الأكمام مثل الكيمونو ، ودثارات المساء ذات رسوم تشبه الأزهار اليابانية •

وبين الضيوف المحظوظين فى هذا العرض صديقة قديمة من صديقات لانى هى أوليفى هلشتاين التى صارت الآن السيدة دى بروساى ، وهى يهودية حسناء كانت اميل قد اختارتها لتكون عروسا ملائمة للانى منذ ثمانى سنوات تقريبا • أما الآن فلدى أوليفى ثلاثة أطفال أو أربعة وقد أصبحت النمط الذى يسمونه « الأمومة » لأنها كلمة أرق من امتلاء القامة• فالألفاظ ذات المدلول غير المستحب تتغير عادة فى المجتمع الراقى حيث يجتهد الناس ألا يجرحوا شعور بعضهم البعض • وأوليفى امرأة من نوع ايرما تميل الى سمرة مع حمرة شديدة ، ومزاجها أقرب الى الرزانة ، وأسلوبها رصين فى الحركات والسلوك وقد تبادلتا الزيارات والأحاديث بما أرضى فضولهما • وهما الآن تتحدثان عن اضطرارهما لارتداء أزياء صيفية ذات مسحة يابانية قوية ، أو لعلها نغمة يابانية أو جو فقط • فهما بطبيعة الحال لا يمكن أن يخطر لهما التمرد على ما قرره مبتكر الأزياء• وأراد لانى أن يكون مهذبا فقال : « كنا نتحدث عن أسرتك بالأمس مساء ، فسوف يجتمع والدى بوالدك » فسألته أوليفى : « بخصوص العمل ؟ » فأجاب : « أبى سيحاول اقناع أبيك انه يستطيع تسليم معدات للسكة الحديدية فى برست بثمن أقل من تكاليف صنعها فى فرنسا » فأجابت الأم الشابة : « سيكون من المستحب أن يتشاركا فى الأعمال ، لأن أبى

يكن اعجابا عظيما لوسائل الانتاج الامريكية ويتمنى لو تم استيراد هذه الوسائل الى فرنسا » .

وكان بيير هلشتاين مديرا فى سكة حديد الشمال ويسيطر على بنك من أكبر بنوك فرنسا . وكان روبى قد سأل دنيس عنه وتناقشا فى أمر هذه الأسرة اليهودية الثرية الواسعة الانتشار فى أوربا ، كما ناقشا مركز سكة الحديد الذى يقال انه مضعضع ومثقل بالسندات ولكن آل هلشتاين غير قلقين لان الحكومة تغطى العجز . وقد أثير انتقاد لهذه السياسة فى مجلس النواب وقيل ان الجمهورية الفرنسية تتعرض للافلاس فى سبيل حماية حملة سندات سكة الحديد . وكان دنيس بروين يملك جانبا من هذه السندات فاستاء من هذه الانتقادات واعتبرها غير منطوية على احساس بالمسئولية وديماجوجية . أما أوليفى الجميلة الهادئة الرائعة فى معطفها الطويل المصنوع من فراء السمور ، فكانت دليلا كاملا على الحكمة المقصودة فى ضمان دخول كبيرة بعدد صغير مختار من الأفراد كى يتسنى لهم حضور معارض الأزياء وتنصيب أنفسهم نماذج للأناقة والترف .

- ٨ -

وقالت اليهودية فجأة : « بهذه المناسبة ، لقد قيل لى انك كنت فى المانيا منذ وقت غير طويل » فأجاب لانى : « قبل عيد الميلاد مباشرة » فقالت : « أتمنى أن تحدثنى عن المانيا .. فلابد ان الحالة هناك فظيعة » فأجابها : « من بعض الوجوه ، وبالنسبة لبعض الناس . أما الآخرون فلا يكادون يلحظون شيئا » فقالت أوليفى وهى تخفض صوتها : « أوه يا مستر بد .. هل أقول لك شيئا بحيث لا يتعدانا ؟ الحقيقة انه ليس مفروضا أن أتكلم فى الموضوع ولكننا جميعا قلقون جدا » فقال لانى : « ثقى اننى وزوجتى سنحترم سرك يا سيدتى » فقالت : « لقد سمعنا منذ قليل ان النازى قبضوا على عم سليمان .. لعلك تعرفه ؟ » فقال : « لقد حظيت بمقابلته فى بيت يوهانس روبن . ثم اننى أحد المودعين لديه فى برلين » فقالت . لقد لفقوا ضده تهمة اخراج الأموال من المانيا . وانت تعرف طبعا ان صاحب البنك لا يمكن أن يستغنى عن ذلك ، ولاسيما اذا كان من أسرة كأسرتنا تمارس الأعمال فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلاد أخرى كثيرة فقال : « طبعا ياسيدتى » فقالت : « اننا نسمع أبشع الحكايات .. والحقيقة ان هذا شىء مضن » فقال : « يؤسفنى ان أقول ان الكثير من هذه الحكايات صحيح .. ويقولون ان مثل هذه الأمور

تحدث فى الانقلابات الاجتماعية العنيفة ولكننى أشك فى أن النازى يمكن أن يصيبوا رجلا مثل عمك بأذى بدنى ، والأقرب الى الاحتمال أن يفرضوا عليه غرامة كبيرة جدا » فقالت : « هذا شىء مذهل للغاية يا سيد بد .. والحقيقة ان أبى ليس واثقا بانه من المأمون ذهابه الى المانيا لاستقصاء الأمر » فقال لانى : « سادلى باقتراح ياسيدتى ان لم يكن لديك مانع ؟ » فقالت : « هذا ما كنت أمل فيه » فقال : « وأرجو منك أن تعتبرى ما ساقوله سرا ، كما طلبت منى أن أعتبر ماقلته سرا .. اخبرى به أباك وأمك ، ولكن لاتخبرى أحد أسواهما فقالت : « بالتأكد يا سيد بد » فقال : « أقترح أن يرسلا أحدا لمقابلة الجنرال جورنج فهو ذو نفوذ عظيم ويبدو انه يفهم هذه الأمور » فهتفت أوليفى هلشتاين : « شكرا لك أنا مسرورة لأنى فكرت فى ان أسالك » وقالت ايرما : « ارسلو شخصا محترما مهيب المنظر وقولو له أن يرتدى أفضل الثياب والاينسى شيئا من ألقاب الجنرال رئيس الوزارة البروسية » .

- ٩ -

وقياما بالواجب نحو ذكرى مارى دى بروين بذل لانى مجهودا لمقابلة ابنها الأصغر ولكنه وجد ذلك مستحيلا ، فشارلو مجتمع فى مكان ما بزعماء جماعته واستفسارات الغرباء لا تلقى ترحيبا • ويوم الثلاثاء السادس من فبراير كان محددا كى يكون الليلة العظيمة التى تخرج فيها جميع منظمات اليمين فى فرنسا للتظاهر ضد الحكومة • وأوامر الزحف نشرت فى جميع صحف المعارضة تحت شعار « فليسقط اللصوص ! » ، وعند الغسق سيبرز شارلو من مكمنه مرتديا فوق ذراعه شريطا مثلث الألوان عليه هذه الحروف أ • ص • ن ومعناها ابن الصليب النارى • وسينشر المارسييز ، وهو ظاهرة عجيبة لانه كان نشيد المعركة فى ثورة ثم صار نشيد الثورة على تلك الثورة ! وفيما بين الانشاد سيصبح شارلو وجماعته من الشبان الوطنيين بكلمة « الاستقالة ! » ، طالبين سقوط حكومة دلادييه واذا كانوا أقل تهذيبا صاحوا : « الى الوتد يا دلادييه ! » معربين عن رغبتهم فى شده الى الوتد لاحراقه حيا •

وقاد لانى السيارة وفيها زوجته الى مجلس النواب من مسالك دائرية ملتفة لان قنطرة الكونكورد كانت مسدودة برجال الشرطة • وظل الزوجان جالسين فى شرفة الجمهور يصغيان لضجيج ذكر لانى بما كان قد سمعه فى قاعة سوق الأسهم فى بورصة الأوراق المالية عندما بلغ الذعر لذروته•

وعجز دلادييه عن الخطابة ، وكان أعداؤه السياسيون يصيحون فى وجهه باقذع السباب الذى تتضمنه اللغة الفرنسية الغنية بهذه الألفاظ ، فى حين كان الشيوعيون ينشدون النشيد العالمى « الانترناسيونال » .

ولما صار المشهد متشابها رتيبا خرج الأمريكيان لالقاء نظرة على الشوارع فلم يستطيعا أن يشهدا الشيء الكثير من السيارة خوفا من احتباسهما وسط مشاجرة أو معركة ، وقررا أن أفضل مكان يشاهدان منه مظاهرة باريسية هو نوافذ جناحهما بالفندق . وكان روبى الحصيف فى حجراته هناك يتحدث فى العمل مع رئيس مؤسسة فرنسية للبناء يشترى المصاعد فى بعض الأحيان . ووقف الزوجان الشابان فى شرفة حجرة جلوسهما التى تطل على ميدان الكونكورد العظيم وقد أضيء اضاءة باهرة وفى وسطه مسلة فرعونية سلطت عليها الأضواء الكشافة وعبر الميدان مباشرة ! قنطرة فوق السين تفضى الى قصر بوربون حيث يجتمع النواب ، وهو بناء على الطراز الرومانى ذو أعمدة كثيرة عالية شديدة اللمعان .

ولابد ان الميدان كان به مائة ألف شخص ، يتدفق عليهم المزيد من جميع الشوارع ، وكانوا يحاولون عبور القنطرة بيد ان الشرطة وكتائب الجند سدوها بسيارات الدورية الكبيرة . وشرع الغوغاء يقذفون الشرطة بما تصل اليه أيديهم ، وسرعان ما نشبت معركة حامية استمر فيهما الهجوم والهجوم المضاد معظم الليل . لقد كان الفاشيون يقذفون بكل شيء يستطيعون الوصول اليه فانتزعوا الأحجار من أرصفة الشوارع وأرضيتها ، وانتزعوا السقالات من السفارة الامريكية التى كان يجرى ترميمها . وأسوار حدائق التويلرى زودتهم بقذائف حديدية على شكل الحراب الاسترالية القديمة من المستحيل رؤيتها فى الظلام . وعندما حاول الحرس الجمهورى الراكب أن يبعدهم عن القنطرة هاجمين على المتظاهرين ليضربوهم بعرض السيف ، قابل الغوغاء الهجوم بالعصى التى ثبتوا فى أطرافها أمواس الحلاقة كى يبقروا بها بطون الجياد وفى الهجمات المتوالية تباعا عطلوا عددا كبيرا من الشرطة والحرس الجمهورى حتى أوشكوا بالفعل أن يعبروا القنطرة الى مجلس النواب .

وأخيرا بدأ اطلاق النار ، وتحطمت مصابيح الشوارع وأطفئت الأنوار الكشافة المسلطة على المسلة فلم يعد مستطاعا أن يريا الشيء الكثير وكانت سيارة عامة قد قلبت واشتعلت فيها النيران قرب القنطرة الا ان ذلك الحريق تصاعد منه دخان حجب الضوء وسرعان ما أتت النار على السيارة كلها وكان آخر ما رآه لانى فصيلة من فرسان السباهى وهم فرسان

افريقيون في أزياء الصحراء البيضاء أشبه بجماعة الكوكلوكس ينهبون الشانزليزية بخيولهم ويدوسون الغوغاء بسنابكهم وتصاعدت صرخات تحت شرفة ايرما ولانى مباشرة فقد أصيبت احدى خادمات الفندق برصاصة قتلتها وهى تطل من شرفة أسفلهما ، فأسرع النزلاء يتدافعون الى الدخول وقد قرروا انهم راوا ما فيه الكفاية من حرب الطبقات في فرنسا ٠

وسألت ايرما زوجها : « أتظنهم سيهاجمون الفندق ؟ » ولكن لانى أكد لها ان هؤلاء الرعاع من النوع المحترم وانهم لا يقصدون بعدائهم الا الساسة واويا الى فراشهما ٠

- ١٠ -

اطلقوا على يوم الثلاثاء ذلك « الثلاثاء الدامى » وشرعت الصحف الفاشية تصوره بصورة انقلاب حانة البيرة : الفرنسى « ومن ذلك اليوم لم تطلق هذه الصحف على دلادبية اسما سوى اسم القاتل » وأخذوا يصيحون مطالبين باستقالته وقبل نهاية اليوم التالى ظفروا بها ، وسرى التهامس بأنه لم يعد في استطاعته الاعتماد على الشرطة والحرس الجمهورى فقد كان من هؤلاء في المستشفى أكثر من مائتين فبدأ الامر وكانه ثورة في طريقها الى الانفجار ، فالتحطيم قد شمل جميع أنحاء باريس وأحرق جانب من وزارة البحرية وأصيب شارلو بضربة سوط على جبينه وسيظل ما عاش يحمل أثرها بزهو ، ويقول مشيرا الى موقعة القنطرة « أصبت بهذا يوم الكونكورد » فتغدو الكلمة شعارا له وربما كانت يوما ما كلمة السر الى السلطة ٠

وفى مساء الاربعاء كانت الحالة أسوأ ، لان الشرطة كانت حالتهم المعنوية منحطة فظهر الأوباش والحثالة وحطموا واجهات المتاجر في شارع ريفولى وغيره من الشوارع الراقية ونهبوا كل ما وقع عليه بصرهم فلم يكن الوقت مستحبا لزوار باريس ولما كان روبى مزمعا ان يذهب الى أمستردام لانجاز اعماله فقد استقلت ايرما ولانى سيارتهما وأسرعا الى دارهما ٠ ولكن لا سبيل الى الابتعاد عن حرب الطبقات في فرنسا ٠ فقد نظمت شتى الجماعات الرجعية في أنحاء جنوب وسط فرنسا ، وكانوا قد تلقوا أيضا أوامر الزحف وظفروا بعطف جاليات أجنبية كثيرة متباينة ترحب بأى شىء يكثر شوكة الحمر ٠ وقال ريك بعد أن سمع القصة من فم لانى ان الوطن الفرنسى لا ينتظر الا شيئا واحدا هو الزعيم الذى تتوفر لديه الحصافة لكسب « الرجل الصغير » فجميع الطوائف الفاشية حتى الآن

رجعية بصورة واضحة ،ولابد من برنامج يسارى لكسب الموقف • واعرب لانى عن اعتقاده بان رجل الشارع الفرنسى أحصف من الالمانى ، فليس من السهل خداعه •

واستونفت الحياة فى بيانفينى ، فريك يعمل فى مسرحيته ولانى يطالع المخطوط ويشجعه ويمده باللون المحلى • وفى خلوة مخدعهما قالت ايرما « الواقع انك شريك فى التأليف وينبغى ان يذكر اسمك » وتعجبت لماذا لم يكتب لانى قط مسرحية مستقلا بنفسه واستقر لديها ان ما يفتقر اليه لانى هو دفعة من تأكيد الذات والأنية القوية التى تؤمن بانها لازمة لخير البشرية • وهذه الانية القوية تتوفر للخال جيسى ولكيرت ولريك • وقد حاولت بيوتى عبثـا أن توقظهـا فى ابنها والآن تحـاول ايرما دون توفيق • فكل ما استطاعت ان تظفر به منه « ريك يستطيع ان يكتبها خيرا منى » •

وكانت ايرما قد شرعت تستاء قليلا من هذا الانجليزى الاعرج ، فهى قد شغفت لانى الى درجة كبيرة من ورديته ، بيد أن ريك يؤجج الآن كوامن الجمر ويذكى النـار • وحدثت سلسلة رهيبـة من الامـور فى النمسا ، ويبدو أن الفاشية تزمع أن تنتشر من قطر الى قطر الى أن تشمل أوربا كلها فقد كان للنمسا مستشار كاثوليكى اسمه دلفوس ، وجيش كاثوليكى وجيش الدفاع القومى المكون أساسا من فتيان الفلاحين ويقوده أمير شاب داعر • وهذه الحكومة تزج فى السجون أو تخرج من البلاد الهتلريين ، الا أنها بمساعدة موسولينى كانت تتخذ لونهـا الخاص من الفاشية ، والآن شرعت هذه الحكومة فى القضاء على الحركة الاشتراكية فى مدينة فيينا • فبيوت العمال الجميلة وهى عمارات سكنية ضخمة كان لانى قد تفقدها بسرور عظيم ، جاء جيش الدفاع القومى بمدفعيته الآلية ونسفها حتى صارت انقاضا وقتل بذلك العمل نحـو الـف من الرجال والنساء والاطفال • وأسوأ من هذا انهم قتلوا حركة العمال التى اشترك فى بنائها جيلان منهم • فياله من عهد رهيب ذلك الذى يعيش فيه المرء • ولم يعد فى استطاعة لانى أو ريك أن يأكلا أو ينـاما تقريبـا ، بل هما حزينان يطيلان التفكير فى مأساة الزمن الذى كتب عليهما أن يولدا فيه والواقع ان العمل فى سبيل أى غرض طيب بدا عقيما ، ولا جدوى من أن يحلم المرء بالسلام والنظام أو العدل ، أو حتى الرحمة • ان هذه المذابح العشوائية للعمال تقترف باسم المسيح الوديع المتواضع وهو الفقير الذى كان ثائرا اجتماعيا حاكموه وأدانوه لانه يثير الجماهير والذى أمر بهذه الجريمة رئيس وزراء كاثوليكى تقى، والذين اقترفوها ضباط كاثوليكيون

أتقياء ، حضروا قداسا قبل الجريمة وبعدها • وليست هذه هي أول مرة ولا آخر مرة في أوربا المنكودة • فقد ذكر ريك صديقه بذلك الكاردينال في فرنســا الذى أمر بمذبحــة القديس برتليمى قائلا اقتلوهم جميعا • فالرب سيتمكن بذلك من اصطفاء مسيحييه الحقيقيين »

- ١١ -

أقبل الجو الحار الى الريفييرا فغادرها من كانت تعتبرهم ايرما أشخاصا هامين أما الفقراء مثل آل روبى فيبقون فيها ويتعلمون نوم القيلولة• ولكن نينا وريك عادا الى انجلترا ، واميلى شترزورت نقلت خدمها الى«ليه فورية» ودعت ايرما ولانى لزيارتها ومشاهدة صالون الربيع والمسرحيات الجديدة• وكانت هذه فكرة ايرما كى يظل تفكير زوجها بعيدا عن متاعب العالم وذهبا الى هناك وبعد ان لهوا أسبوعين تلقت ايرما خطابا من أمها ترجوها القدوم الى شور أكرز واحضار الطفلة فرانس لقضاء الصيف•وانها لجريمة حقا ان يكون لديها هذا المكان الفاخر ولا تستخدمه اطلاقا ، ثم انه من الغبن الفاحش ان تحظى احدى الجدتين بحبيبة قلبها وطول الوقت ولاتحظى الاخرى بها مطلقا وكتبت الملكة الام تقول : « ولا أعتقد ان بيوتى يقارب حبها للطفلة حبى انا وهى عبارة أسقطتها ايرما عندما قرات الخطاب بصوت مرتفع •

وتحدث الزوجان فى هذه المشكلة ، فايرما غير مستريحة الى أخذ عزيزتها الغالية الى هناك على ظهر باخرة فهى لم تتخلص بعد من ذكريات اختطاف ابن لندبريج وفى اعتقادها ان عابرة المحيط مكان مثالى لعصابة من المجرمين تدرس عادات طفلة سترث ثلاثة وعشرين مليونا من الدولارات كما تدرس بطانتها التى تصحبها فمن الافضل قضاء الصــيف فى بلاد انجلترا الخضراء اللطيفة التى لايوجد بها خطافون ولتقم أمها بتحدى أمواج المحيط • ولم تكن ايرما قد انفقت مالا يذكر فى العام الماضى• والآن أخذت فوائد السندات تدفع وهناك أمل فى الحصول على حصص من الاسهم ، فقالت : « هيا بنا نتجول بالسيارة فى أنحاء انجلترا على نحو ما صنعنا فى شهر العسل وسنرى هل يمكن العثور على مكان مناسب نستأجره » •

وليس هنا ما هو أبهج من استعادة حياة الانسان منا لاحداث شهر العسل ، ان كان قد استطاع أن يستبقى شيئا من احساسات شهر العسل حية بعد خمس سنين • وقالت : الزوجة الشابة « ان فى انجلترا كثيرا من الاشخاص الظرفاء المحترمين » ووافقها لانى وان كان حريا ألا يذكر

تحت هذا الوصف اسماء من يمكن ان تذكرهم هي . وكان يعلم ان مسرحية ربك قاربت التمام ، فأراد ان يدلى باقتراحات عن الفصل الاخير . وبعد ذلك تبقى مسألة عرضها على مديرى المسارح ، ولانى يحب أن يسمع انباء ذلك . وقد يكون من الضرورى اعداد المال اللازم ولن يكون هذا سهلا فهى مسرحية متجهمة عنيفة مرة كعصارة الصفراء وحرية أن تصدم السيدات الراقيات . ولكن لانى كان ينوى ان يخصص لذلك كل المال الذى ربحه فى المانيا ان اقتضى الامر ولا يريد ازعاج ايرما فى هذا الصدد وهما يتبعان خطة حفظ السلام بينهما بتناولات متبادلة وبمقادير متساوية .

وعبرا المانش ونزلا فى فندق دورشستر . ولما أعلنت الصحف وصولهما كعادتها دائما كان من أوائل الاشخاص الذين اتصلوا بهما تليفونيا لورد ويكتورب « هلا اتيتما لقضاء عطلة آخر الأسبوع » فأجابه لانى « طبعا ونحن نبحث عن مكان صغير نستأجره هذا الصيف . فلعلك تقدم الينا النصح فى هذا » وهو حين قال كلمة « صغير » انما رمى الى حسن التعبير ، ولكن المقصود بطبيعة الحال الا يكون المكان صغيرا حقا . ورد فخامة اللورد « هناك مكان قريب ساريكما اياه ان لم يكن لديكما مانع » فقال لانى : « وهو كذلك مستخدما فى ذلك اللهجة الانجليزية . ولما نقل الحديث الى ايرما قالت باللهجة الامريكية » ياللجحيم ! ترى هل أحواض الاستحمام هناك من الصفيح ؟

- ١٢ -

ولكن أحواض الاستحمام لم تكن من الصفيح فهى فيلا عصرية بها ثلاثة حمامات وكثير من الضوء والهواء وأرض مزروعة بالعشب من ذلك الطراز الانجليزى الناعم كانه مائدة البلياردو وتستخدم هذه الأرض المعشبة لممارسة الألعاب ويحيط بالمكان سياج مرتفع من النباتات وكل شيء هناك بديع وتشغل هذه الفيلا عمة ويكتورب التى ستغادرها فى رحلة بحرية صيفية مع نفر من الأصدقاء . وبها مجموعة من الخدم الحسنى التدريب يمكن استبقاؤهم اذا طلب لهم ذلك . وهتفت الوارثة : « أظن هذا المكان مدهشا » ودفعت الثمن المحدد لوكيل أعمال فخامة اللورد فى ذلك اليوم نفسه ووافقت العمة على مبارحة الفيلا واعداد كل شيء فى نهاية الأسبوع التالى وأبرقت ايرما الى أمها وكتبت الى كيب سميث وفيذرس لاعداد كل شيء واحضار الطفلة والآنسة سيفرن والخادمة فى

تاريخ معين . وسيتولى جيرى بندلتون أمر تذاكر السفر ، وسيكون بد مسئولا عن الرحلة لان فيدرس طائشة العقل .

وهكذا صار هناك بيت جديد كل شيء فيه مريح دون عناء سوى كتابة عدد من الشيكات واصدار قليل من الأوامر . والجو بديع والناس بديعون وهناك ملعب تنس ويوجد دائما من يشترك فى اللعب وهناك بيانو جيد وأناس يحبون الموسيقى والفيلا على قيد دقائق قليلة بالسيارة من القلعة القديمة حيث يعامل لانى وزوجته كانهم من أفراد الاسرة فيستدعيان على عجل لمقابلة هذا أو ذاك . ومرة أخرى سمع لانى رجال السياسة يناقشون مشكلات العالم . ومرة أخرى استمعوا الى ما يحدثهم به عن الحركة الجديدة الغريبة الرهيبة فى ألمانيا وعن جهودها للانتشار فى البلاد المجاورة وتحدث الانجليز من ذوى المكانة والسلطان عن شئون امبراطوريتهم وقالوا ما يمكن أن يصنعوا اذا طرأ هذا الأمر أو ذاك وبين الحين والحين كان لانى يلقى نفسه يفكر « ماذا عسى أن يدفع جورنج فى هذا ! » .

وكان زلطان فى باريس فحضر الآن الى لندن حيث الموسم الذى تقام فيه المعارض وتسنح الفرص للبيع . وخبير الفنون كان صاحب مهنة أخرى يجب أن يصغى للغط المجتمع الذى يعيش فيه وهو مجتمع يدخله أشخاص جدد ويخرج منه أشخاص قدامى ، وتتقلب فيه الأسعار كتقلبها فى سوق الأوراق المالية بالضبط . ولم تزل للانى وشريكه أموال فى بلاد النازى ، ولديهما قوائم باللوحات التى يمكن الحصول عليها من تلك البلاد وعن هذا الطريق يتوقعان اخراج أموالهما . وهناك أيضا مسرح لندن حيث يذهب ريك معهم لمشاهدة المسرحيات ويقص عليهما أنباء العالم . وهناك المجتمع الوجيه الصاخب الذى لا نهاية لرقصاته وحفلاته . وصناع الازياء وغيرهم يطالبون بامداد ايرما بالأثواب التى توافق مكانتها ، ويحضرون هذه الأثواب الى الريف لتراها أى ساعة بالليل أو النهار تختارها .

ومارجى بيترز الطيبة العجوز وهى ليدى ايفرشام وطسن الوالدة كانت قد فتحت بيتها بالمدينة فرجت الزوجين الشابين أن يجعلاه مركز قيادتهما العامة كلما حضرا الى المدينة ، وأبرقت الى بيوتى وصوفى لتحضرا زوجيهما فيأتون جميعا ليحظوا معا باقامة بهيجة على الطراز القديم . ولما حضرت السيدة بالز أنزلت فى ذلك البيت أيضا ، فهذه هى العادة المتبعة فى كنتوكى ولم تزل مارجى تلقب نفسها ابنة بلاد العشب الازرق حتى وهى فى سن الخامسة والخمسين .

وهكذا صار الحال شبيها بالحال في بيانفيني في ذروة الشتاء ٠ وما أكثر الأشياء الجميلة حتى ان المرء يجد صعوبة في الاختيار ، فيندفع من حدث اجتماعي الى الذي يليه ولا يكاد يتسع أمامه الوقت لالتقاط أنفاسه ٠ وصار من العسير جدا على لاني أن يجد وقتا للتفكير في مصير العالم ، وهذا ما رمت اليه زوجته ورأت خطتها نجحت فأسعدها ذلك واعتزت بفطنتها الى أن وصلا ظهر يوم سبت الى فيلتهما لقضاء نهاية الأسبوع فوجد لاني برقية من بيانفيني بتوقيع راحيل نصها : « خطاب من كلارينيت في الوضع الذي زرته ٠٠ الظروف عصيبة جدا وهو يتضرع طالبا العون ٠٠ التفصيلات بالبريد ٠

(الفصل السادس والعشرون)

« خارج هذا السور الشائك يكمن الخطر »

- ١ -

بدأت المحاولة بمجرد أن تلت ايرما البرقية واتضح لديها معناها فقد كانت تعرف بالضبط ما سيدور بذهن زوجها ، وهو ما لبثت تفكر فيه أكثر من سنة راقبته فيها متوقعة هذه اللحظة بحيث عاشت هذا المشهد كثيرا . وكانت تعلم انه هكذا كانت حاله أيضا . وكثيرا ما تكلما فى هذا الموضوع الا انها لم تفصح من قبل عن كل أفكارها ، ولا هو أفصح عن كل أفكاره ، لانهما اشفقا من هذه المحنة واجفلا مما يمكن أن يقال . وكانت تعلم ان هذا يصدق عليها ، وحدست انه يصدق عليه ايضا ، وحدست انه حدس حالتها ، وهكذا دواليك من التعقيدات التى تتكون عند ما تكتشف نفسان بشريتان مرتبطتان معا بحب عنيف صداما أساسيا جوهريا بين مزاجيهما فتحاول كل منهما اخفاء ذلك عن الاخرى ، بل وعن نفسها .

قالت ايرما « لن تستطيع ذلك يا لانى ! لن تستطيع . لن تستطيع ! » فأجابها « بل لابد لى من هذا يا حبيبتى ! فان لم أفعل ذلك لن أستطيع تحمل الحياة ! » .

وقد قيل الكثير فعلا فى هذا الامر فلم يعد هناك غناء فى العودة اليه ولكن هكذا الحال دائما فى خصام العاشقين ، فكل يظن أنه ان كرر القول مرة أخرى تغلغلت الفكرة واحدثت الاثر الذى ينبغى بداهة أن تحدثه ، والذى أخفقت اخفاقا غير مفهوم على نحو ما فى أحداثه فى المرات السابقة . واحتجت ايرما قائلة « ازوجتك وطفلتك لا تعنيان لديك شيئا ؟ » فاجابها لانى « تعلمين انهما تعنيان عندى الكثير يا عزيزتى . وقد حاولت بامانة أن اكون زوجا صالحا وأبا صالحا ، وتخيلت عن أمور كثيرة كنت أحسبها صوابا فى نظرى عند ماوجدتها ليست صوابا بالنسبة اليك . ولكنى لن اتخلى عن فريدى للنازى » فقالت « من حق أى رجل

ان يعتنق رايا كهذا ، فهل تصبح جميع واجباته العائلية عدما ؟ » فقال « يعتنق الرجل رايا كهذا عند ما تتوقف عليه قضية عامة ، وهي شيء أثمن لديه من حياته نفسها» فقالت « انك مزمع أن تضحي بفرنسيس وبي في سبيل فريدي ! » فاجاب « هــــذه مبالغــــة يا حبيبتي فانت وفرانسيس تستطيعان البقاء هنا بكل راحة في حين أمضي أنا الى هناك وافعل ما أستطيع فسألته « الست تريد مني ان اذهب معك ؟ » فاجاب « هذه مهمة شخص يؤمن بها ، وليست بالتأكيد مهمة أي شخص يشعر على نحو ما تشعرين · فليس من حقي ان اطلب اليك السفر ، ولذا لست اطلبه اليك » فقالت « وماذا تظن حالتي العقلية ستكون وانت هناك تخاطر بحياتك مع هؤلاء الفظعاء ؟ » فقال من الخطأ ان نجسم الخطر · فلست اظن انهم يتعرضون بالاذى الجدى لامريكى » فقالت « ولكنك تعلم انهم فعلوا اشياء مفزعة بامريكيين · وكثيرا ما تحدثت عن هذا » فقال « ان ما حدث في تلك الحالات كان عرضيا نتيجة احتكاك بالغوغاء في الشوارع وفي الاماكن العامة · اما انت وانا فلنا اتصالات في المانيا ، ولا اظن السلطات تتعرض لى بالاذى عمدا » فسألته « حتى ان ضبطوك تخرق قوانينهم ؟ » فأجاب « اظنهم في هذه الحالة سيفزعونني فزعـا شديدا ثم يطلقون سراحي » · فقالت « انت تعلم انك لا تؤمن بهــذا الذى تقول يالاني ! دائما انت تحاول تهدئتي فحسب · ستكون في خطر شديد محيق ، وسأكون هنا في عذاب » ·

وانهارت فاخذت تبكي · وهي اول مرة يراها تفعل هذا ، وهو رجل رقيق القلب ، الا انه لبث سنة يفكر في هذا الامر ، واستقر رأيه على أن هذا الموقف سيكون امتحانا لروحه « فان نكصت فلا خير في · واني اذن ذلك المتلاف العالة · كما كانوا ينعتونني دائما » ·

فلم تكن هناك وسيلة لانهاء المجادلة لانه عجز عن اقناعها باهمية الموضوع لديه ، وبالواجب عليه نحو ما يسميه « القضية » فهو قد حول فريدى روبن الى اشتراكى وعلمه المثل الاعلى القائم على الاخاء البشرى والمساواة بين البشر وما كان يسميه « العدالة الاجتماعية » بيد ان ايرما كانت تكره هذه الكلمات الرنانة كلها لانها سمعتها تقال مرارا كثيرة على لسان أشخاص مستهجنين ، وكان معظمهم يحاولون الحصول على المال فاصبحت تلك الكلمات سما لديها · وهي لا تؤمن بهذه « القضية »وتعتقد أن الاخاء شيء منفر وان المساواة اسم آخر للحسد،وان العدالة الاجتماعية تبرير لضرائب الدخل والتركات الفاحشة ، ولذا جفت دموعها بسرعة

وسخطت على نفسها لانها ذرفتها ، وسخطت عليه لانه جعلها تذرف هذه الدموع . وقالت « اني أحذرك يا لاني ، فانت تهدم حبنا . وتصنع شيئا لن أستطيع غفرانه لك » وكان كل ما استطاع أن يجيبها به « هو اني آسف يا حبيبتي ، ولكنك أن جعلتني أتخلى عما أعتقد أنه واجبي فلن اغفر ذلك لنفسي ولن أغفره لك » .

- ٢ -

وصل الخطاب من بلدة جوان بالبريد الجوي . وكانت رسالة فريدي مكتوبة بقلم الرصاص على قطعة صغيرة من ورق شفاف وقد تكسرت كانما كان احد قد اخفاها في فمه أو في تجويف آخر من تجويفات جسده وقد حال لونها بيد أن راحيل بسطت القصاصة والصقت اركانها بورقة بيضاء كي تتسنى قراءتها فاذا هي موجهة الى لاني ومكتوبة باللغة الانجليزية « حالتي سيئة » كتبت اليك ولم أتلق ردا . ويحاولون ارغامي على الوشاية بأشخاص آخرين ولكني لن اشي بهم . ولم اعد أطيق أكثر من هذا . اصنع شيئا واحد لاجلي : حاول ان توصل الى شيئا من السم. لا تصدق ما يقولونه عني . اخبر أصدقاءنا اني كنت مخلصا » ولم يكن هناك توقيع ، ففريدي يعرف أن لاني يعرف خط يده رغم ما به من اهتزاز وعدم ثبات . وكان المظروف عاديا وقد أودع بالبريد في ميونيخ ، والخط الذي كتب به العنوان غير معروف للاني ، وذكرت راحيل في خطابها أنها لا تعرف ذلك الخط أيضا .

هذا هو الموقف اذن . وقد انهارت ايرما مرة أخرى لانها وجدت المسالة أسوأ مما تخيلت وأدركت الآن انها لن تستطيع منع لاني من الذهاب . وكفت عن مناقشته في الامور السياسية وقصرت جهودها على اقناعه بعقم جميع الجهود التي يمكن أن يبذلها . فالنازي يملكون المانيا ، ومن العته أن يتخيل نفسه قادرا على احباط ارادتهم داخل بلادهم . وعرضت عليه أن تقدم المال ، أي مبلغ من المال حتى ولو ترتب على ذلك انسحابها من الحياة الاجتماعية وناشدته قائلة « اذهب وقابل جورنج واعرض عليه النقود بلا مواربة » بيد ان ريك - وما أشد ماكرهته فجأة ! - كان قد اقنعه بأن ذلك شيء لا يجوز ، فقرر لاني الا يقترب من جورنج او أي نازي آخر ، حتى ولا كيرت ، حتى ولا هاينريش ، فهما لن يساعداه وقد يبلغان السلطات عنه فيوضع تحت المراقبة . وجورنج أو جوبلز من المؤكد أن يتخذا مثل هذه الاجراءات . وقال لاني بصراحة

« انى مزمع أن أساعد فريدى على الهرب من داخاو » فسألته ايرما بمرارة « عن طريق الطيران فوق الاسوار فيما أظن ؟ » فأجابها « هناك طرق كثيرة للخروج من السجن ويوجد فى فرنسا فى الوقت الحاضر أناس تمكنوا من ذلك · فهم احيانا يحفرون تحت الاسوار ، واحيانا أخرى يختفون داخل عربات تسليم المؤن أو يخرجون محمولين فى توابيت · وسأعثر على شخص يساعدنى مقابل أجر » فسألته « هل ستعترض شخصا فى الشوارع وتقول له « كم تطلب منى نظير مساعدتى فى اخراج صديق من داخاو ؟ » فاجابها « لا جدوى من الشجار يا عزيزتى ، فلابد لى من تركيز ذهنى فيما أنوى أن أصنع · ولا أريد أن أتأخر ، لاننى ان تأخرت فقد يموت فريدى فى هذه الاثناء ، وعندئذ ألوم نفسى على ذلك الى أن أموت » ·

ولذا كان على ايرما أن تنفض يدها من المعارضة · فهى قد أخبرته بما فى قلبها ، وحتى لو انهارت وبكت فلن يتغير ما فى نفسها بل على العكس ستحقد عليه لانه جعلها تسلك هذا السلوك الذى يتنافى مع الوقار والكرامة · وكانت فى أعماق قلبها تعلم انها تبغض آل روبن جميعا ، فهم بعيدون عنها غرباء عن روحها ، ولو تركت لنفسها لما اختلطت بهم عن قرب وآثرت أن يكون لها يختها الخاص وقصرها الخاص والنوع المناسب من الاصدقاء فى هذا القصر ، ولكن المسألة الاشتراكية هذه جعلت لانى يختلط بالناس من غير تمييز ، فهو مستعد لمقابلة أى انسان، وهو فريسة سهلة لاى مدع ، وأى « مثالى » محتال يجيد التشكى · فكم تبغض كلمة المثالى هذه ! لقد أكرهت على تصنع التهذيب ، ولكن هذه « القضية » الزائفة توشك الآن أن تحرمها من زوجها وسعادتها ، فاصبحت تكرهها من كل قلبها · ولم يكن ذلك عن مجرد حبها لنفسها ، بل عن حب للانى ايضا · فقد كانت تريد مساعدته والعناية به ، الا أن هذا الصراع الطبقى تدخل بينهما وجعل ذلك مستحيلا وانتزعه منها الى حيث يواجه الخطر والتشويه والموت ، وهى أمور من المفروض أن ايرما وطبقاتها محصنتان ضدها ! هذا ما يعنيه الثراء ، فهل يكفل لصاحبه الامان ويحيط بالامتياز والضمان، ولكن لانى يريد أن يتخلص منه بأكمله، فلديه اعتقاد جنونى ان المرء ليس له حق فى الثراء ، وما دام حاصلا عليه فيجب ان ينظر اليه باحتقار وازدراء ويعمل على احباط الغايات التى من اجلها وجد المال ، والاسباب التى دفعت الاباء والاجداد للعمل بجد واجتهاد لتحصيل الثروة ! فان لم يكن ذلك عندنا وعنها فأى شىء اذن يستحق هذا الاسم ؟ ·

كان لا بد من الغاء جميع الارتباطات الاجتماعية أثناء تصفية هذه المبارزة ، فكانت ايرما تقول انها مصابة بصداع ، الا ان هذه الآفة لم يكن من المعروف انها أصابتها قبل ذلك ، فانتشرت الشائعات بأن ايرما بارنز تتشاجر مع زوجها ، وحاول كل انسان أن يخمن مدارها ، ولكن لا أحد نجح فى ذلك ولم يطلع على السر الا ثلاثة أشخاص هم ريك ووالدتا الطرفين المتنازعين • وقال ريك «كان بودى أن أساعدك أيها الصديق العزيز ولكنك تعلم انني موصوم فى المانيا بما كتبته من مقالات » فقال لانى « بالطبع » •

أما فانى بارنز فاعتبرت الواجب يقضى عليها أن تلقى على لانى محاضرة فى خطأ هجرة أسرته فى سبيل أى يهودى ، أو فى سبيل اليهود أجمعين • ورأى لانى من واجبه أن يصغى بتهذيب لكل ما تريد حماته أن تقوله ، وكان يعلم أنه لا جدوى من الكلام معها عن « القضـــايا » فاكتفى بأن قال «انى آسف يا أماه ولكنى أشعر انني مرتبط بالتزامات يجب أن أفي بها » وكانت المناسبة خطيرة حقا ، لأنه قد لا يعود ، وخامره شعور بأن حماته قد تجد فى ذلك حلا لا بأس به للمشكلة • أما بيوتى فلم تصلح لشىء كثير فى هذه الازمة لان بشاعة الموقف شلت ارادتها كما يبدو • فهى تعرف شعور ولدها نحو ولدى روبن وأنه لا يمكن التغلب عليه • وكانت تـعلم أيضا أنه يشبه فى اهتمامها بسعادة ايرما ويراه اهتماما غير صاف تماما ، فلم تجرؤ الأم على التصريح بما فى أعماق قلبها ، ألا وهو خوفها من فقدان لانى لزوجته ذات القيمة الفائقة ان هو أهملها وعارضـــها هذه المعارضـــة الرعناء • وكيف يمكن أن يختار من دون الأماكن لمفارقتها عتبة باب لورد ويكثورب ! واصيبت بيوتى بأزمة عصبية صاحبها صداع حقيقى ، فلم يقلل ذلك من اللغط والتخمينات •

وفى هذه الأثناء مضى لانى قدما فى اعداد معداته • فكتب الى راحيل كى تقوم بتصغير صورة من صور فريدى الى الحجم المستخدم فى جوازات السفر وأن ترسلها اليه بالبريد الجوى فورا ، ولديه دافع لهذا الطلب لها مطلق الحرية فى تخمينـــه • وكتب الى جـيرى بندلتون كى يقف على قدم الاستعداد فتى وصله أمر تليفونى باحضار سيارة نقل الى المانيا كى يعود بلوحات ديتاز الى بيتها • ولن يكون هذا عسيرا لان موسم السياحة انتهى وتستطيع سيريز (زوجة جيرى) ادارة المكتب •

وحرر لانى لصديقه زلطان شيكا يستغرق جانبا كبيرا من الأموال

المودعة باسمه في بنوك هلشتاين ببرلين وميونيخ كي ينقلها زلطان الى حسابه الخاص فلا يستطيع النازى مصادرتها · وفى حالة احتياج لانى الى هذا المال يستطيع الابراق الى زلطان كى يرسل اليه بالبريد الجوى شيكا· ولم يسأله الصديق الكتوم دائما توضيحا ، وبذلك يستطيع أن يقول انه لا يعرف شيئا عن هذا الموضوع · وتحدث لانى عن صفقة لوحات خطر له انجازها في ميونيخ وقدم له زلطان النصح فى شأنها · ولما كان لانى قد استغرق أكثر من سنة فى التفكير فى هذه الامور ، فهو متأهب تماما تمام التأهب لها ·

وعندما حان الرحيل انهارت زوجة لانى الشابة وأمه المفروض انها شابة ، وعرضت عليه كلتاهما أن تذهبا معه ، الا أنه قال لا · فكلتاهما لا تقران مهمته ، ولن يكون قلباهما خالصين فى انجازها · ولم تذهبا معه ، ولم يصارحهما بالحقيقة ، وهى أنه سئم المجادلات واثارة الاعصاب فمن الحقائق المؤلمة عن الخلافات الزوجية أنها تسبب للطرفين المتنازعين السأم من صوت الطرف الآخر ، بحيث يغدو الهدوء وتمكن المرء من تنفيذ هواه أعظم نعم الدنيا · وكان لانى يعتقد أنه يستطيع انجاز هذه المهمة بنفسه ، وانه سيحسن التفكير ما لم يجابه بمعارضة ، فقال « لا يا عزيزتى · لا يا حبيبتى · سأكون حريصا حذرا جدا ، ولن أغيب طويلا » ·

- ٤ -

وهكذا فى بكرة صباح مشرق أودع خدم مارجي بتريز حقائبه سيارته، ولم تخل عيناه من قطرات خضلتهما ، ولم تخل أعماقه من اكتئاب وهو ينطلق نحو السفينة التى تعبر به البحر الى كاليه التى قالت الملكة من طريق مينز وستراسبورج ، فكلما قلت الدول التى يدخلها المرء فى أوربا المنكودة قلت مضايقاته بتأشيرات السفر واجراءات الجمارك · وما كان أبهى الريف فى الأيام الأخيرة من شهر يونيو ، وما أتعس الفارق بينه وبين تلك الطبيعة المنحطة التى نمت لديها الفصوص الأمامية من المخ نموا هائلا كى تبتكر المزيد بعد المزيد من الوسائل الفظيعة لابادة الملايين من الأعضاء الآخرين في نوعها نفسه ! فابن الطبيعة العاق المتمرد قد نبذ حلل الزرد والقى عنه الرماح وفئوس القتال لا لشىء الا لينتضى الطائرات قاذفة القنابل والدعاية النازية ·

ان الملايين من الفرنسيين والألمان قد أخصبت دماؤهم هذا الثرى

فجعلته اخضر يانعا مستحبا في عيني لاني · وكان يعلم أن كل هذه الآجام والوديان توارى فيما بينها الأسرار الفظيعة المريعة لخط ماجينو ، وهو تلك السلسلة من التحصينات المعقدة الباهظة التكاليف التى أعتمدت عليها فرنسا لمنع غزو الماني آخر · ومن وراء هذه المتاريس يستطيع الفرنسيون آمنين أن يستخدموا أوقات فراغهم في اعطاب فرنسيين آخرين بالاعواد الحديدية المنتزعة من أسوار حديقة جميلة وتشويههم · ومن حيث عبر لاني الراين عبرت من قبله الطفلة مارى أنطوانيت قادمة الى فرنسا مع حاشية من مائتين أو ثلاثمائة مركبة في رحلتها الطويلة من فينا لتقترن بولى عهد فرنسا · وحول هذه المنطقة شتى صنوف التاريخ ، ولكن رحالتنا لم يكن لديه وقت للتفكير فيها لأن ذهنه كان مشغولا بالتاريخ الذى يزمع أن يصنعه شخصيا · وواكب حافة جبال الألب التى تبدو للانظار دائما مجللة القمم بالثلوج فوصل الى مدينة ميونيخ القائمة على نهرها الصغير المسمى ايزار ، ونزل في فندق من الدرجة الثانية لأنه لا يريد أن يلاحقه مندوبو الصحف وكان يريد أن يتسنى له ارتداء حلة من الثياب القديم كان قد أحضرها ليتجول بها فى المدينة ، وربما أيضا فى بلدة داخاو من غير أن يثير انتباها خاصا · وفى ادارة الشرطة أبلغ عن نفسه انه قادم بقصد شراء أعمال فنية · وأول ما صنعه بعد ذلك قيامه بزيارة من يدعى البارون فون زنزولين كان قد التقى به في معرض ديتاز ولديه لوحات كثيرة فى بيته · وهذا السيد نصير معروف للنازى ، فكان فى خطة لانى أن يستخدمه ليكون « الرنجة البنية » كما يقولون · ففى حالة افتضاح أمره قد تلقى هذه الصلة الشكوك والاضطراب فى أذهان النازى ، وهذا فى حد ذاته كسب · وتوجه لانى الى البيت البديع الذى يسكنه هذا الراعى من رعاة الفن واطلع على مجموعته وفاتحه بطريقته اللبقة فى امكان شراء أى عمل من هذه الأعمال ثم أظهر له ضمنا أن الأثمان التى يطلبها مرتفعة جدا ولكنه وعده بالابراق الى الخارج ليرى ماذا يستطيع أن يصنع · وأبرق الى زلطان والى عميلين له فى أمريكا وستكون هذه الرسائل البرقية جزءا من دفاعه فى حالة حدوث المتاعب · وخلال مدة اقامته فى ميونيخ سيكون مثار آمال ذلك الارستقراطى الألمانى الذى أصابه الفقر بعض الشىء ويقلل بذلك من أثمان لوحاته الجيدة ·

- ٥ -

وبمجرد دخول المتآمر الى المانيا كان قد اتصل تليفونيا بهوجوبير

في برلين ودعا ذلك النازى الشاب الى أن يستقل قطار الليل الى ميونيخ ، وقال له انه حضر بقصد شراء صور ويريد أن يطلع صـديقه على نماذج بديعة منها ، ففهم هوجو ، ولم تكن به حاجة الى أن يقول « وسـاتحمل النفقات » وما من شك فى ان قائد الرياضة الشاب كان قد وجد أوجها لاستخدام المال الذى أعطاه لانى اياه ، وسوف يسره أن يؤدى مزيدا من الخدمات له ٠

ووصل فى الصباح التالى فاتجه الى فندق مختلف كما أرشده لانى واتصل تليفونيا فركب لانى سيارته والتقطه من الشارع ٠ وهوجو يعتبر اعلانا يسير على قدمين عن المثل الأعلى النوردى النقى ، فهو شاب بوميرانى وسيم يقظ يسير بخطوات متوثبة، تفاحي الوجنتين، ذهبى الشعر متموجة٠ وكان يتلقى ، وهو فى كسوة القمصان البنية الأنيقة تعلوها شارة وظيفته المهمـة ، التحية من جميع النـازيين الآخرين ، ومن كثيرين من المدنيين الراغبين فى التزام جانب الأمان ٠ ومن المطمئن جدا أن يـكون المرء فى صحبة رجل كهذا فى ألمانيا ، وان كانت صيحات التحية « هايل هتلر » قد غدت رتيبة بعض الشىء بعد فترة ما ٠

وقاد لانى ضيفه الى الريف حيث يستمتعـان بالهـدوء ويتكلمان بحرية ، وشجع الضيف على الظن بان هذه الدعوة بدافع الصداقة الخاصة، والأغنياء يستطيعون ارضاء نزواتهم على هـذا المنوال ، ويصـنعون ذلك فعلا وكان لانى شديد الاهتمام بمعرفة مدى تقدم حركة هوجو لاصلاح الحزب النازى ، فمضت بهما السيارة وقتا طويلا فى وديان سفوح الألب، وكانت الأشجار فى أبهتهـا الكاملة ، لم يصـبها شىء من آثار الاعياء ٠ يا لها من أرض جميلة ملأت رأس لانى بالشعر : « افتح النافذة وافتح قلبك ! اسرع ٠ أسرع ! » ولكن خواطر هوجو لم يكن فيها أثر للطرب الشاعرى ٠ فقامته التى تشبه هرمز الشاب مضعضعة فوق كرسى السيارة ولهجته تفيض مرارة وهو يقول ثورتنا النازية ضاعت ٠ فنحن لم نحقق شيئا ٠ والفوهرر جعل نفسه ألعوبة فى يد الرجعيين تماما ، فهميقولون له ماذا يصنع ٠ ولم يعد مقطوعا به أنه يستطيع تنفيذ برنامجه الخاص ، حتى لو أراد ذلك ٠ انه لم يعد يقابل أصدقاءه القدامى ولا يثق بهم وزمرة جيش الرايخ يتآمرون للتخلص من كتائب الهجوم بالكلية ٠ فقال لانى فى غم شديد انك لاتعنى هذا كله حقا يا هوجو ! فسأله هوجو ألم تسمع عن عطلتنا ؟ فاجابه لقـد دخلت ألمانيا بالامس فقط فقـال جميع أفراد فرق الهجوم صدرت اليهم الأوامر بأخذ عطلة خلال شهر يولية ٠ وهم يقولون

لنا أننا أرهقنا بالعمل ونستحق راحة ، وهو كلام يبدو بديعا ، ولكننا غير مسموح لنا بارتداء أزيائنا الرسمية أو حمل أسلحتنا • وماذا سيصنعون فى فترة تجريدنا من السلاح ؟ وماذا سنجد عند عودتنا ؟ فقال لانى « هذا أمر خطير على مايبدو • أعترف بهذا » فقال هوجو « يبدو لى أن المعنى واضح ، فنحن الضباط والجنود قد انتهت مهمتنا وفرغت حاجتهم الينا • وكنا جميعاً نرجو أن يدخلونا جيش الرايخ ، ولكن لا فنحن لا نصلح لهذا • فأولئك الضباط من اليونكر ، وهم سادة حقيقيون ، أما نحن فقاذورات من العامة وعددنا كبير جدا ، نحـــو مليونين ، وليس فى وسعهم أن يطعمونا أو يدربونا ، فلا بد من تسريحنا ، ولعلنا سنضطر للاستجداء فى الشوارع » فقال لانى « انت تعلم يا هوجو ان المانيا من المفروض ان يتكون جيشها النظامى من مائة ألف فقط • اليس من الجائز ان الفوهرر يشعر بانه ليس من القوة بحيث يتحدى فرنسا وبريطانيا فى هذا الصدد ؟ » فقال « وفيم كانت ثورتنا ان لم تكن لتحريرنا من سيطرتهما ؟ فنحن الذين رفعنا اولئك القادة الى الحكم ، وهم الآن يقتنون لانفسهم الفيلات الفاخرة والسيارات الكبيرة ، ويخشون ان يسمحوا لنا نحن الضباط والجنود بارتداء أزيائنا الرسمية ! ويتحدثون عن تسريحنا لأن الرايخ لا يستطيع ان يتحمل مرتباتنا الباذخة وهى اثنان واربعـون بفينج فى اليوم » فساله لانى « اهذا ما تحصلون عليه ؟ » فأجابه « هذا ما يحصل عليه الضباط والجنود • فكم يساوى هذا بعملتكم ؟ » فقال لانى « نحو عشرة سنتات » فساله هوجو « أيبدو هذا اسرافا شديدا ؟ » فقال « ان رجال جيشنا الامريكى يحصلون على عشرة أمثال هذا المبلغ تقريبا • ولكن الفريقين بطبيعة الحال يتمتعان بالطعام والمسكن مجانا » فقال هوجو « ياله من طعام حقير لكتائب الهجوم ! » ثم هناك شـــئ الضرائب التى تستأثر بنصف ما يكسبه أى انسان • وكان فتياننا قد امتلئوا بالآمال العريضة أما الآن فالحديث كله عن فقر الرايخ • وبدات الدعاية فى الهجوم ، فالهر دكتور جوبلز يجوب انحاء البلاد منددا بكل ناقد هدام ، وبدعاة الهزيمة وبالساخطين والمطالبين بالكمال المطلق •••• « وراح هوجو يسرد قائمة طويلة لفئات الساقطين الذين تجاسروا على الظن بان نظام الحكم النازى يفتقر الى أى عنصر من عناصر الكمال • » وفى الايام الخالية كان يقال لنا ان الخير سيكون عميما لاننا سننتزع الآلات من أيدى المستغلين ونجعلها تعمل لخدمة عامة الشعب أما الآن فالفلاحون قد انقلبوا الى عبيد للارض والعمال الذين يطالبون بأجور أعلى أو يحاولون تغيير اعمالهم يعاملون معاملة المجرمين •ان الاسعار ترتفع والاجور تنخفض

فماذا سيصنع الناس ؟ لا أحد يستطيع الدنو من الفوهرر • فقد استولى جورنج على عقله ،جورنج الارستقراطي صديق الامراء والاقطاعيين اليونكر وسادة احتكارات الصلب ، وهؤلاء يكدسون الآن ثروات أكبر من اى وقت مضى • وقد قيل لى أن جورنج يصنع مثل ذلك ويرسل الاموال الى الخارج حيث تكون في مأمن « فوافقه لانى قائلا » لقد سمعت شيئا عن ذلك فى باريس ولندن ومن دوائر موثوق بها جدا • فرجال المال يعرفون ما يجرى من الامور »•

- ٦ -

وكانا قد أوغلا مصـــعدين فى سفوح الجبال بالقرب من الحدود النمساوية • « سوف أتسلق الجبل حيث تنمو غابات الصنوبر الكثيفة الى ارتفاع شاهق ! » وكان الهواء صافيا كالبلور رطبا مبهجا بيد أن لانى لم يحضر الى هنا طلبا للهواء ولا للتغنى بأبيات هاينى فى قصيدته « رحلة الصنوبر » وجلسا فوق الشرفة الخارجية من خان صغير يطل على وادى جبل ، وكان هذا الجبل هو النمســـا • ورأى لانى ان المنحدرات ليست شديدة الخطر ،كما أن مجرى الماء فى الوادى ليس شديد العمق• فقال لمرافقه « لعل هناك تجارة غير مشروعة عبر هذه المسالك الجبلية » فكان الرد « ليس بالكثرة التى قد تخطر على بالك • فأنت لا ترى الحراس ولـكنهم قائمون بالمراقبة ، وهم يطلقون النـار أولا ثم يوجهون الاسئلة بعد ذلك » فقال لانى « ولكنهم لا يستطيعون اطـلاق الرصاص باحكام فى ليلة عاصفة «فقال هوجو انهم يعرفون مواضع المسالك ويقومون على حراستها عن كثب • ولكنى واثق بأن بعض سكان الجبال يتقاضون الرشوة ويقتسمونها معهم • فاليهود يخرجون الاموال من المانيا بكل وسيلة يمكن أن تخطر على بالهم • أنهم يريدون استنزاف دماء البلاد حتى الموت » •

ولم يبد هذا الكلام مبشرا بالخير للانى ، أنه لابد أن يعمد الى المجازفة فى موضع ما من خطته • فلما عادا الى السيارة وصارا بعيدين عن الآذان المتلصصة قال أنك شديد الحنق على اليهود يا هوجو ، ومع هذا فحينما أسمعك تتحدث عن المثل العليا للاشتراكية الوطنية يخيل الى أن ما أسمعه منك شبيه تماما بكلام صـــديقى فريدى روبن الذى حدثتك عنه فقال هوجو « أنا لا أنكر أن بين اليهود أشـخاصا صـالحين « فقال لانى » ان

فريدى أحسن الشخصيات التى عرفتها ، فهو حساس رقيق مهذب وانا واثق بأنه لم يقترف اثما فهو يخصص كل وقته وتفكيره لقضية العدالة الاجتماعية على نحو ما تؤمن بها أنت وكما شرحتها لى اليوم «فسأله هوجو» أهو لم يزل فى داخاو ؟ « أريد أن أتحدث أليك عنه يا هوجو ٠ وهذا أمر هام جدا بالنسبة الى ٠ فلن يهدأ بالى والموقف على ما هو عليه ٠ وكذلك لن يهدأ بال أى شخص يعرف فريدى ٠ وأحب ان اطلعك على سرى وان احصل على وعد منك الا تذكره لاحد الا بعد اتفاق على ذلك معى » فقال هوجو « لا أظن من الممكن ان تجعلنى أهتم بأمور أى يهودى يا لانى بل ولا يهمنى أن اعرف شيئا عنه ما لم تعدنى بأنك لن تخبر أحدا بأنك حدثتنى عنه ؟ » فقال اعدك بذلك قطعا يا هوجو ٠ فانا لم اذكر أسمك لاحد سوى زوجتى ٠ وهذه المرة أنا لم أخبرها أن فى نيتى مقابلتك فقد قلت لكل انسان اننى قادم لشراء بعض اللوحات من البـارون فون زنزولرن » ٠

وعلى هذا الاساس وافق الرياضى الآرى الشاب على المجازفة بتلويث عقله ، وقال له لانى ان لديه معلومات مؤكدة بأن فريدى يقع تحت طائلة التعذيب فى داخاو ولمح لانى الى أن هذه الانباء وصلت اليه من مصادر نازية عليا ،وتقبل هوجو هذا التلميح لعلمه أن الامريكى الثرى على اتصال فى هذا المستوى ٠ ورسم لانى صورة مفزعة مسـتخدما التفصيلات التى زوده بهـا جورنج ٠ ولـمـا كان هوجو فى جوهره فتى دمثا فقد قال ان هذا مخجل وماذا يتوقعون أن يصلوا اليه عن هذا الطريق ؟ وأجابه لانى ان بعض كبار النازى علموا أن زوجة لانى تملك ثروة طائلة جدا ، فتمنوا الحصول على جانب كبير منها ، كى يخفوا تلك الاموال فى نيويورك فتكون تحت تصرفهم فى حالة اضطرارهم للهرب على متن طائرة من المانيا ٠ وكانت ايرما على وشك دفع المبلغ لولا أن ريك صديق لانى الانجليزى قال لا ، لان هؤلاء الناس يخونون حركة الاشتراكية فى العالم ، فينبغى الا يمدهم أحد بالأموال ٠ وخطر للانى أنه قد يكون من الافضل أن يدفع النقود لبعض المخلصين فى الحركة ممن يأخذون النصف الأول من اسم الحزب (الحزب الاشتراكى الوطنى) مأخذ الجد ويحاولون فعلا تحسين حال الرجل العادى ٠

وبايجاز ، ان قبل هوجوبير قضـــاء عطلته فى المسـاعدةعلى اخراج فريدى من داخاو فسيعطيه لانى خمسة الاف مارك فى البداية ٠ حتى اذا نجح اعطاه خمسة آلاف أخرى فى أى صورة وبأى طريقة يريدها وفى استطاعة هوجو أن يســتخدم هذا المال فى الحركة التى يقوم ببنائها ،

وبذلك يظل ضميره مستريحا . وسيسر لانى أن يقدم اى مبالغ اضافيه قد يجد هوجو من الضرورى أنفاقها باثارة أهتمام بعض رجال فرق الهجوم البروليتاريين العاملين فى داخاوكى يساعد فى هرب رفيق من سؤ حظه أن ولد يهوديا وفى وسع هؤلاء أيضـا أن يسـتخدموا تلك النقود لانقاذ الاشتراكية الوطنية . وهتف مدير الرياضة الشاب « أوه يا لانى ! هذه الانباء عن التعذيب جعلتنى اقطع برأى ، فانا لا أستطيع ان اتحمل الوقوف ساكنا ومستعد للاقدام على اى مخاطرة لابد منها . لان هذا التعذيب يجب ان يوقف يا هوجو وكل نازى امين يجب أن يساعدنى على المحافظة على سمعة الحزب . فهل ذلك الحارس الذى حدثتنى عنه لم يزل موجودا هناك ؟ » فقال هوجو « لابد أن اتأكد من هذا » «فقال لانى» لست أطلب منك ان تخبرنى بشىء مما تصنع أو تفكر فى صنعه فلى كل الثقة بصواب حكمك .ولك أن تعقد صداقات مع رجال المعسكر وتقرر من منهم الجديرون بالثقة . ولا تذكرنى لهم ولن أذكرك أنا لأحد الآن ولا فيما بعد وسنحمل معنا هذا السر الى القبر » فقال هوجو امامك مسـألة اجتياز الحدود بصاحبك » فقال لانى « لا تقلق بالك بشـأن هذا الجو من الخطة فكل ما أطلبه منك أن تسـلمنى فريدى فى ليلة مظلمة فى مكان متفق عليه من غير أن يوقفنى احد او يتعقبنى أحد . ولا أريد أن أتعجلك . خذ وقتك وفكر فى الامر ووجه الاسئلة التى تريدها . ليكن تفاهمنا تاما بحيث يعرف كل منا بالضبط ما يأخذه على عاتقه من العهد » .

- ٧ -

وتم هوجو تفكيره على الفور وهو فى السيارة ، فابرم الاتفاق ، ولكن عندما ساله لانى كم يريد ــ دفعـه أولى خاف أن يأخذ النقـود وقال انه لا يجسر على حمل مبلغ كهذا معه وليس لديه مكان يخفيه فيه ، فهو رجل فقير وليس له الحق فى اقتناء المـال ، أما لانى فرجل غنى له الحق فى اقتناء المال ، فليحتفظ له بالنقود الى أن تنتهى المهمة ويزول الخطر فقال لانى « لقد مست قلبى ثقتك » .

ودرسا جميع الترتيبات تفصيلا ، فلن يقوم أحد منهما بزيارة فندق الاخر . وحينما يريد هوجو لانى عليه عليه أن يتصل به تليفونيا ويستخدم دائما الاسم المتفق عليه وهو بوكلن . واتفقا على بقعة معينة من شارع كثير الحركة . فكلما وجب التقاؤهما وقف لانى عند تلك البقعة بالسيارة

ثم يأتى هوجو فيركبها • وجميع أحاديثهما استجرى فى السيارة حتى يكونا بمأمن من استراق السمع • وبعد أن تم الاتفاق على هذا كله اتجه لانى بالسيارة الى داخاو وترك زميله فى المؤامرة قرب معسكر الاعتقال كى يشرع فى الاتصال باصدقائه •

واتصل خبير الفن تليفونيا بالقنصل الامريكى فى ميونيخ • وكان قد اتخذ الحيطة فقابل ذلك السيد فى زيارته السابقة ودعاه الى معرض ديتاز • وفى هذه المرة أخذه للعشاء ، وعلى زجاجة من النبيذ الجيد راحا يتحدثان عن شئون المانيا والعالم الخارجى • وأدلى لانى بوصف تفصيلى لحوادث الشغب فى باريس • وقال القنصل أن مثل ذلك يثبت الحاجة الى حكومة قوية على غرار ما يوفره هتلر للشعب الآلمانى • وكان هذا المسئول واثقا بأن الاعمال المتطرفة لهذا النظام الحاكم ليست ذات مغزى كبير ، فالاشتراكية الوطنية حرية أن تستقر سريعا على أساس يتيح لها التعايش مع بقية أوربا • ووجد لانى هذا الرأى معقولا ، ولم تنم أحاديثه على أهون أثر للآراء الوردية • وبطريقة عرضية ذكر أنه حضر الى ميونيخ لعقد صفقة شراء لوحات من البارون فون زنزولين وتساءل هل يعرف القنصل شيئا عن ذلك السيد وعن سمعته فى المجتمع ، فكان الرد أن هذا البارون يتمتع بسمعة ممتازة ، الا أن القنصل بطبيعة الحال لايستطيع الجزم بمركزه المالى • فقال لانى باسما « انه البائع وليس المشترى » وكان يعلم أن القنصل سيعتبر هذا الاستفسار هو الهدف الذى جعله يدعوه للعشاء • وهو هدف لا غبار عليه ، فمن واجب القناصل أن يساعدوا مواطنيهم بالمعلومات • وافترقا صديقين ، وقد أقتنع هذا المسئول بأن لانى بد موجود فى ميونيخ لاسباب مشروعة فان وقع لانى فيما بعد فى مازق فسيكون لدى ممثلى بلاده كل مبرر ممكن لمساعدته وكفالته •

ولزم لانى حجرته بقية المساء وقرأ صحيفة « آخر أنباء ميونيخ » من الصفحة الاولى حتى النهاية وتعرف على جانب صغير مما يحدث فى ألمانيا ، والى جانب أكبر مما يريد النازى للالمان أن يعتقدوا بحدوثه • عرف أن زعيم الرايخ موجود فى بلاد الراين يحضر زفاف أحد حكامه السياسيين الذين عينهم على مناطق المانيا ، وأنه نزل بفندق الراين فى اسن ، وانه زار مصانع كروب وعقد اجتماعات مع عدد من أقطاب صناعة الفولاذ • وهذا يتفق مع ما قاله له هوجو ، ويتفق معه أيضا أن رئيس الوزارة البروسية الجنرال جورنج يصحبه فى هذه الرحلة • والطيران معا فى القمرة الخلفية من ا لطائرة أحسن فرصة كى يهمس رجل فى أذن

رجل آخر • فماذا كان جورنج يقول لآدى عن المؤامرات ضده ، وعن الحاجة العاجلة الى تسريح كتائب ا لهجوم وتجنب « الثورة الثانية » ؟ وحث لانى مخيلته على العمل ، لان جانبا من مهمته أن يبرز هذه الامور لهوجو وأن يجعله ينقلها الى أعضاء كتائب الهجوم الساخطين فى داخاو • ومن المقالة الافتتاحية فى هذه الصحيفة تتبع لانى الحملة الناشبة الان ضد أولئك الاشرار الذين يصفهم الالمان بانهم ساخطون متصيدون للاخطاء حانقون جامعو قاذورات وجبناء مثبطون للهمم •

- ٨ -

وفى ساعة متاخرة من الليل دعى لانى الى التليفون ، ولم يكن فى حجرته جهاز فهبط السلم الى حيث جهاز التليفون فسمع صوت «بوكلن» « يقول » هل يمكننى ان اراك ؟ « فاجابه لانى « طبعا ! » واستل سيارته والتقط صديقه فى المكان المتفق عليه • وقال هوجو اعتقد ان المسالة من المستطاع تدبيرها فهتف لانى « عظيم ! » فقال هوجو « لقد وعدت الا اذكر الاسماء ، ولا حاجة بك لمعرفة التفصيلات فيما اظن « فقال لانى » اطلاقا • كل ما اريد معرفته هو ان من الممكن القدوم الى موضع معين لالتقط صديقى « فقال هوجو » هناك صعوبة واحدة ، وهى اننى اخشى ان العملية ستتكلف مبلغا كبيرا من المال • فليس من الممكن ان يقوم بها حارس عادى • ولا بد لشخص فى مستوى اعلى ان يوافق على انجازها « فساله لانى » كم تظن أنها ستتكلف ؟ « فاجابه » نحو عشرين الف مارك • بل ولست واثقا بالمبلغ الذى سيطلب ، فقد يكون خمسة وعشرين او ثلاثين الفا قبل أن ننتهى من العملية « فقال لانى » وهو كذلك يا هوجو• استطيع دفع هذا المبلغ • وساحصل عليه نقدا واعطيه لك متى شئت « فقال هوجو » يجب أن تتم العملية بمجرد الاتفاق عليها ، فكلما طال الانتظار زادت الفرصة لافضاء أحد بالسر « فقال لانى » فعلا ساقوم بترتيبات معينة ، ومن العسير ان اعرف بالضبط كم ستستغرق من الوقت ولكنى واثق بأنى ساكون متاهبا يوم الجمعة مساء • فهل يوافقك هذا الموعد ؟ « فقال هوجو » على قدر تصورى « فقال لانى » وان صادفت خطتى عقبات فقد أرجىء الموعد الى يوم السبت • ويجب عندما تكون مستعدا لتسلم النقود أن تخبرنى قبل أن تغلق البنوك أبوابها » •

ووافق على ذلك كله • وبعد أن أنزل صديقه فى شارع هادىء

انطلق لانى الى أحد الفنادق الكبرى التى يمكن أن يجد فيها قمرة للتليفون وهناك طلب الاتصـــال بجيرى بندلتون فى نزل فلافان بمدينة كان . ويستغرق اتمام هذا الاجراء بعض الوقت فى أوربا ، بيد أنه قضى فترة الانتظار بصبر ، وأخيرا سمع صوت صديقه مثقلا بالنعاس ، فقال لانى لوحات ديتاز تم اعدادها ، وانا فى انتظار بميونيخ . وسأشترى لوحات أخرى وأريد اتمام الصـفقة ونقل هذه اللوحات يوم الأحد . أتظن فى استطاعتك الوصول الى هنا فى هذا الموعد ؟ » فقال جيرى « بحق الجحيم! » فقد كان الوقت منتصف الليـــل من يوم الاربعاء وفجأة ظهرت علائم اليقظة على صوته وهو يستطرد لانى « تســـتطيع أن تتصيد القنصل الليلة وتعطيه مبلغا اضافيا » فقال جيرى « يجب أولا أن اذهب واستوثق من سيبريان وسيبريان ابن أخت ليز ويقوم بقيادة سيارة النقل فى ضيعة بيانفينى . فقال لانى وهو كذلك ، أحصل عليه أو على سواه . ودون عنوانى واتصل بى تليفونيا ظهر الغد ، ثم مرة أخرى فى ساعة متاخرة من المساء كى أعرف باستمرار أين أنت . وتعال بطريق فيرونا وممر برينر ولا تدع شيئا يثنيك عن الوصول الى هنا ، فان أصابك انهيار دع سـيبريان يأتى بسـيارة النقل واركب أنت القطار . اركب طيارة ان كان لابد من ذلك . ولدى هنا شخص أريد منك أن تقابله يوم الجمعة . فقال المؤدب السابق والجندى السابق « وهو كذلك » بلهجة أشبه بالغناء ، مع التشديد على المقطع الاول ، فكأنما هو توقيع بامضائه عن طريق التليفون .

- ٩ -

كان البارون فون ريتزولين يملك لوحة من ريشة أنطون موفى (الرســام الهولندى المشـــهور بلوحاته التى تمثل المناظر الطبيعية والحيوانات) كبيرة الحجم سخية الالوان لراعى غنم بقطيعة فى غسق لؤلؤى الضوء ضارب الى الخضرة ، فخيل للانى أنها نموذج بديع لمشاعر هذا الرسام الشاعرية الجادة ، واستطاع أن يهبط بثمنها الى ثلاثين الف مارك ، وابرق الى زلطان أنه قرر شراءها على سبيل المقامرة ، فهل يحب صديقه أن يشاركه مناصفة ؟ وجاء رد صـديقه بالموافقة فذهب ذلك الصباح واشترى اللوحة ودفع الفى مارك واتفق على دفع الباقى فى مدى اسبوع ، مما اقتضى التوقيع على أوراق يحملها لانى فى جيبه . ثم أنه ضـمن بذلك أن نصيرا للنازى ذا نفوذ صارت له مصلحة فى الشهادة بأنه

خبير في الفن حقا · وفي الوقت نفسه صارت هناك ذريعة لذهاب لاني الى فرع بنك هلشتاين بميونيخ لسحب ثلاثين ألف مارك من عملة النازى الورقية · وعند الظهر أتصل جيرى الجديد بالركون اليه تليفونيا ، وقال انه وسبريان وسيارة النقل قد تجاوزوا جنوا ، وانهما سيأكلان وينامان مع استمرار السيارة في الحركة · وطلب منه لاني أن يتصل به تليفونيا في نحو العاشرة مســـاء حيثما كان ، فقال جيرى بلهجة غنائية « وهو كذلك » ·

وبعد قليل حدث اتصال تليفوني من « بوكلن » وذهب لاني فاخذه لنزهة في السيارة · وقال هوجو « تم تحديد كل شيء · وعليك أن تدفع ثلاثة وعشرين ألف مارك ، وسيتم تسليم صاحبك اليك في أى مكان بداخاو في الساعة الثانية والعشرين من مســاء الغد · فهل ســـتكون مســـتعدا ؟ » فقال لاني « انا واثق جدا بذلك · هاك نقودك » واخرج حافظة نقوده واعطاها الى صـديقه الجالس بجواره قائلا « خذ ما تشاء بنفسك » ومن غير المحتمل أن يكون هوجو بير أبن موظف الشحن البحرى قد أمسك بيده في أى وقت مثل هذا المبلغ الكبير من قبل · فأرتجفت يداه وهو يخرج حزمة ورق النقد الجديد القشيب ، وكل منهما قيمتها الف مارك فيعد منها ثلاثا وعشرين ورقة ، وفي حين واصل لاني قيادة الســـيارة من غير أن يبدو عليه أهتمام خاص · وعد هوجو الاوراق مرة أخرى بصوت مرتفع · ثم قال الثرى المترفع « يحسن أن تأخذ نقودك انت أيضا · فقد أتعرض لشيء من المتاعب كما تعلم » فقال الاخر « ان تعرضت للمتاعب فمن الافضل ان أستطيع القول بأنك لم تعطنى شيئا وأننى قمت بذلك العمل اكراما للصداقة ولأنك صديق لهاينريش وكيرت » فضحك لاني وقال « ركز عليهما ما استطعت ! قل ان هاينريش أخبرك كيف اخذ كيرت وأخذنى لزيارة الفوهرر في الشـــتاء الماضى · واننى حدثتك أيضا عن رحلة الصيد مع جورنج ، ولذا كنت واثقا بأننى حتما على ما يرام ·

وكان هوجو قد حصل على أنباء عن فريدى سمعها لاني بسرور · فقال ان كلام لاني عن ذلك السجين يبدو صحيحا لأنه كسب احترام من كانوا يريدون سحقه · ولسوء الحظ أنه بين يدى الجستابو الذين يحتفظون به بمعزل عن النزلاء العاديين ، فهناك سجن داخل السجن على ما يبدو ! وتقول الاشـــاعة انهم حاولوا ارغام فريدى على البوح بأسماء أشـخاص معينين من الديمقراطيين الاشتراكيين كانوا يديرون مطبعة سرية في برلين،

ولكنه اصر على أنه لا يعرف شيئا عنها • وقال لانى « لا يمكن ان يكون على علم بها » وقال لنفسه « ترودى شولتز ! » وكان فى نيته أن يدلى بملاحظة عرضية لصديقه « بهذه المناسبة اتساءل هل من الممكن أن تعرف لى شيئا عن وجود رجل فى داخاو واسمه لودفيج شولتز » بيد أنه تحقق لديه الآن أن الامر ليس من البساطة كما كان يظن • وأن اخبر هوجو انه يحاول مساعدة شخص آخر من الماركسيين الفظعاء فقد يقلب أحساسه نحو العملية كلها • واذا أخبر هوجو أصدقاءه فى معسكر الاعتقال بذلك قد يحدث لديهم نفس الاثر • فليس فى استطاعة لانى أن يصنع شيئا للمسكين ترودى ، على الاقل فى هذه الرحلة •

- ١٠ -

وقاد السيارة الى داخاو وراحا يجوبان بها الشوارع ليقررا أختيار بقعة مظلمة هادئة ودرسا الوصف الدقيق لهذا الموضوع حتى يتسنى لهوجو أن يخبر به الرجال الذين سيحضرون فريدى • وقال هوجو انه على موعد لدفع النقود لرجل فى ميونيخ فى الساعة العشرين اى فى الثامنة مساء • وكان هوجو عصبيا جدا لاضطراره للتجول وفى جيبه مثل هذا المبلغ غير المعقول ، فأخذه لانى بالسيارة الى الجبال حيث راحا ينظران الى المشهد الجميل • وتمثل الامريكى قائلا « حيث كل منظر يروق المرء وحيث الانسان وحده دنىء » ولكنه لم يترجم هذا الاقتباس لصديقه الالمانى •

وكان هوجو قد تبادل الحديث مع بعض رفاق حزبه فى ميونيخ ، حيث ولدت الحركة ، والتقط منهم أنباء لا تنشر فى الصحافة المتماثلة الراى • ففى الحزب حالة توتر فظيعة ، وكأنما كل شخص هناك فى نزاع من الآخرين • جورنج وجوبلز فى عداء شديد حول مسألة سياسة السيطرة ، التى فهم لانى أنها تعنى السيطرة على تفكير هتلر • وكان جوبلز قد أعلن برنامجا لارغام رجال الصناعة على أقتسام الارباح مع العمال ، وهذا بطبيعة الحال اجرام فى نظر جورنج وأصدقائه رجال الصناعة • ومنذ عهد قريب ألقى فون بابن — الذى لم يزل وزيرا من وزراء الرايخ — خطبة طالب فيها بحرية الصحافة فى مناقشة جميع المسائل العامة ، فتدخل جورنج ومنع نشر هذه الخطبة • ومنذ يوم أو يومين ألقى القبض فى ميونيخ على الرجل الذى قيل انه كتب هذه الخطبة له ، والمدينة تموج باللغط حول هذا النزاع • وسرت اشاعات تقول ان مائة وخمسين

من حرس جوبلز الشخصي تمردوا وأرسلوا الى معسكر للاعتقال · وما أكثر الحكايات الغريبة من هذا النوع ، فمن يدرى ماذا يصدق ؟ ·

ووصلا الى بحيرة تجيرون ، وهى بحيرة جميلة جبلية ، فوجدا هناك علامة من علامات الطرق مكتوب عليها « بادفييس ٧ ك · م · فقال هوجو « تقول الصحف أن رهم يقضى عطلته هناك ، وقيل لى أنه اجتمع عدة مرات بالفوهرر فى الاسبوع أو الاسبوعين الماضيين ، وأن مشاجرات رهيبة نشبت بينهما » فسأله الزائر الجائع الى اللغط وما المشكلة بينهما ؟ فأجاب هوجو أنها القصة القديمة بعينها · فرهم وأصحابه يريدون تنفيذ برنامج الحزب الاصلى · وهو الان بطبيعة الحال يكاد يجن لرغبتهم فى تسريح جنوده من كتائب الهجوم « وكان فى وسع لانى أن يثق بالدافع الاخير أن لم يثق بالدافع الاول · وكان قد سمع رئيس الاركان ذا الشعر الاحمر يتحدث فى أحد اجتماعات النازى وكان انطباعه عنه أنه مغامر عسكرى مفرط الخشونة لا تقضه المثل العليا الاشتراكية ، ولعل هذا راجع جزئيا الى ندوب المعارك التى أصيب بها ، فالجزء الاعلى من أنفه ذهبت به رصاصة ! ورهم يريد زيادة سلطات قمصانة البنية ، وطبيعى أن يناضل نضال المستميت ضد القضاء عليهم ·

والكيلو مترات السبعة ليست شيئا مذكورا ، فدار لانى بسيارته فى الاتجاه الذى حددته اللافتة فاذا قرية صغيرة بديعة ذات شوارع ظليلة بها أكواخ جميلة على ضفة البحيرة · وأمام كوخ من أكبر هذه الاكواخ ، وايضا أمام « حانة المزارع » وقف عدد كبير من السيارات الفارهة · وقال هوجو « لا بد أنهم يعقدون الآن مؤتمرا · فزعماؤنا وحدهم الذين يستطيعون اقتناء سيارات كهذه » ودلت لهجة المرارة فى صوته على أنه لا يولى الفوهرر الجديد من الثقة أكثر مما يولى الفوهرر القديم ، فسأله لانى « اتعرفه » ؟ فقال « اعرف أحد رجال مكتبه فى برلين وقد أخبر الرئيس اننى أعمل فى صفه » فسأله لانى « أتحب أن تدخل وتقابله ؟ » فرد عليه هوجو مجفلا « اتعرفه أنت ؟ » لا · ولكنى ظننته ربما أهتم بمقابلة خبير امريكى فى الفن » فهتف مدير الرياضة الشاب الذى لم تكن حاسة الفكاهة أقوى خصائصه « ولكن يا لانى لا أعتقد فى الحقيقة أن لديه وقتا للتفكير فى الفن فى الوقت الحاضر ! » فقال لانى « ربما راق فى عينيه شاب رياضى رائع مثلك يا هوجو » فكان الرد « لا قدر الله ! » ·

وبدا أشبه شئ بالسباب أن يتحدثا فى هذا الموضوع وهما فى ظلال رهم وبطانته ، ولكن عندما سأله الامريكى صراحة ، أعترف هوجو أنه

سمع بما يقال عن عادات رئيس أركان حرب كتائب الهجوم (او جيش العاصفة) وكل انسان فى المانيا كان يعلم هذا ، لان النقيب رهم عندما كان يعمل مدربا عسكريا فى بوليفيا كتب سلسلة من الرسائل الى الوطن يعترف فيها بميوله الشاذة ، وقد نشرت هذه الرسائل فى الصحافة الالمانية وقال هوجو أن أعداءه فى الوقت الحاضر يجعلون من ذلك سببا لعدم قبوله هو ورجال مكتبه فى الجيش النظامى • ثم هتف عضو كتائب الهجوم « كانما ضباط جيش للرايخ قديسون فى طهارة الزنابق البيضاء !»

- ١١ -

وبعد العودة الى المدينة قام لانى بنزهة طويلة على قدميه فى الحديقة الانجليزية راجع فيها خططه محاولا تجنب الوقوع فى الاخطاء المكنة سلفا ، ثم عاد الى حجرته وطالع الصحف المنظمة والتقط منها تلميحات عن الصراع الدائر ، ففى وسعك أن تعثر على هذه التلميحات ان كنت من المنتمين • وبدا كان حزب العمال الالمان الاشتراكى الوطنى يوشك ان ينقسم على نفسه شيعا • وراودت لانى فكرة مؤداها انه ان انتظر بضعة أيام فقد يخرج فريدى روبن من داخاو تتقدمه فرقة الموسيقى النحاسية •

وفى الساعة المحددة اتصل جيرى تليفونيا • انه فى الطريق وكل شىء على ما يرام • والتقدم بطىء فى الطرق الجبلية ولكنه يعتقد انه يستطيع أن يصل ظهر اليوم التالى • ثم سأل « ما هو آخر وقت ممكن ؟ » فاجابه لانى « الساعة الثانية » فقال جيرى بنغمة الغناء « وهو كذلك » واستلقى لانى وحاول أن ينام ولكنه وجد ذلك عسيرا لأنه ظل يتخيل نفسه بين أيدى الجستابو الذين يملكون سجونا داخل السجون • وما عساه يقول ؟ والأهم من هذا ماذا عساهم صانعين به ؟

وفى صباح اليوم التالى تلقى المتآمر اتصالا تليفونيا من « الهر بوكلن» وركب السيارة ليقابل صديقه ويتلقى نبأ سيئا • فأحد الرجال المعينين بالموضوع طلب مزيدا من النقود لأن المسألة خطيرة جدا • فسأله لانى كم يريد ، وكان الجواب خمسة آلاف مارك أخرى • فقال لانى وهو كذلك وانه سيدفعها فورا • ولكن هوجو أراد أن يغير الاتفاق • فهو لم يدفع المبلغ ويريد أن يرفض دفع أكثر من النصف الى أن يتم تسليم السجين فعلا • وكانت الفكرة الآن أن يذهبا بالسيارة الى داخاو فى الوقت المحدد ويرقبا الموقف • فان ظهر فريدى وبدا كل شىء على ما يرام برز هوجو ودفع بقية المبلغ • فقال لانى « هذا أخطر بكثير بالنسبة لك يا هوجو »

فكان الرد « ليس كثيرا جدا • فأنا واثق ان الامر ليست فيه مكيدة • ولكن ان كانت فيه مكيدة فسيقضون على كل حال • وما أريده هو أن اوفر عليك دفع المبلغ من غير أن تحصل على صاحبك » •

- ١٢ -

وعاد لانى الى فندقه وانتظر الى وقت مبكر من بعد الظهر وهو على أحر من الجمر • وأخيرا جاء الاتصال التليفونى • فجيرى بندلتون فى فندق بميونخ طلب اليه لانى أن ينزل به « كل شيء على أهدأ ما يرام • بدون خدش » فقال لانى « أخرج الى الشـارع وسأقابلك والتقطك » فرد عليـه الملازم السابق من كنساس « امنحنى عشر دقائق كى أحلق لحيتى وأبدل قميصى » •

وانه لشيء بهيج حقا أن تقع العين على شخص من الوطن يستطيع أن يثق به ولا يقول « هايل هتلر ! » والملازم السابق فوق الأربعين وشعره الاحمر بدأ يفقد لمعانه ، وقد زاد وزنه بعض الشيء ، بيد أنه فى نظر لانى لم يزل يمثل امريكا بسرعته وكفاءته وتمتعه بما يسـمونه فى امريكا النشاط والحيوية الدافقة والحماسة المرحة • ولما كان لانى عشير سيدات طول حياته فهو لم يزل شديد الاحتفال بالنمط الخشن فى الرجل الذى ينتشر الشعر فوق صدره • ثم انه وان كان يفضل الموت على الاعتراف بذلك كان يشعر بالوحدة والفزع فى بلاد النازى • ولما كان يقود السيارة فى زحام المرور بشارع لودفيج لم يستطيع أن ينظر الى مؤدبه السابق ولكنه قال « مرحى مرحى يا جيرى • ان مرآك يسر العين ! » فأجابه « وكذلك انت يا فتى ! » فقال لانى « انك لن تسر لصحبتى عندما تسمع ما جئت الى هذه المدينة بسببه » فساله جيرى « ما المسـألة ؟ ظننتك هنا لشراء الصور » فأجابه لانى « بل لشراء فريدى روبن واخراجه من معسـكر اعتقال داخاو » فهتف جيرى « يا يسوع المسيح ! » فقال لانى « المفروض ان يسلموه الى فى الساعة العاشرة مساء ، وعليك أن تساعدنى فى تهريبه الى خارج بلاد النازى اللعينة هذه ! » •

الفصل السابع والعشرون

فعلة بشعة

\- ١ -

كان جيري على علم بأن فريدى روبن سجين في المانيا ، بيد انه لم يكن يدرى اين ولا لماذا ولا كيف · والآن في السيارة ، في أمان من استراق السمع أخبره لانى القصة وبسط له خطته · وكانت فكرته أن ينزع صورته الخاصة من جواز سفره ويستبدل بها صورة فريدى روبى التى احضرها معه · ثم يلتقط فريدى في داخاو ، ثم يتجه بالسيارة الى جزء آخر من البلدة ليلتقى بجيرى ويدع جيرى ياخذ فريدى بالسيارة الى خارج المانيا تحت اسم لاننج بريسكون بد · وهذا هو المشروع الاصلى · واوضح لانى ذلك بقوله « في البداية خطرت لى فكرة تعديل جواز سفرك انت ليستخدمه فريدى ثم أقود أنا السيارة بها الى الخارج · ولكنى تحققت أن الخطر قليل جدا في القيام بدور القيادة لان جوازات السفر ستكون على ما يرام ومتى ابتعد المرء عن داخاو فكل شيء سيكون حسنا ، اما من بقى بدون جواز سفر فقد يتعرض لشيء من المتاعب · ولذا اعرض عليك القيام بقيادة السيارة · » فصاح ابن ولاية كنساس مذهولا « ولكن بحق الاله ! ماذا تتوقع أن تصنع في موضوع خروجك انت ! فقال لانى « سأتوجه الى القنصل الامريكى واقول له ان جواز سفرى سرق منى · وقد صادقت القنصل ومن المحتمل ان يعطينى بدل فاقد · فان لم يشأ ذلك فالأمر متروك لى كي أجد وسيلة للتسلل من احد ممرات الجبل « فقال جيرى « ولكنك فقدت صوابك يا لانى ! فأولا بمجرد اكتشاف فرار فريدى سيعلمون انه متجه الى الحدود النمسوية فيغلقون الممرات « فقال لانى » سوف لا يستغرق وصولك الى الحدود من داخاو سوى ساعة أو ساعتين واذا بك قد اجتزتها وانطلقت · لأنك ستقود سيارتى لا سيارة النقل «فقال جيرى »ولكنهم سيجدون عند نقطة الحدود تسجيل بيانات جواز سفر لانى وجواز سفرى « فقال لانى ثم ماذا ؟ سيستنتجون من هذا انك أنت الذى سرقت جواز سفرى · وهى جريمة لا تستوجب اعادة

صاحبها الى البلد الذى غادره «فقال جيرى» سيدركون انها عملية مدبرة! فانت صهر شقيق فريدى وقد حاولت العمل على اطلاق سراحه • فيكون من الواضح لديهم انك أعطيتنى اوراقك « فأجاب لانى » لن تكون لديهم ذرة واحدة من الدليـل الذى يثبت ذلك « فقال جيرى » سينتزعون هذا الدليل منك عنوة يا لانى • واوكد لك ان التعذيب سيكون شديدا لا يطاق ولن أستطيع مواجهة أمك أو أبيك أو زوجتك ان تركتك تضع قدمك فى فخ كهذا « وكان جيرى يتكلم باسم الاسرة باعتباره مؤدبه السابق• ولكن التلميذ السابق اصر قائلا » يجب ان اخرج فريدى من المانيا ! لقد لبثت سنة الى ان انعقد عزمى على ذلك « فقال جيرى » وهو كذلك يا فتى ولكن عد الى فكرتك الأولى وهى ان تسرق انت جواز ســـفرى وتخرج فريدى بالسيارة « فقال لانى » واتركك أنت فى المازق ؟ « فقال جيرى » ليس هذا مقاربا فى الوخام لمازقك ، لأنى لست من أقارب الســجين وغير معروف لهم • بل انا شخص استأجرته لاحضار لوحاتك واحتلت على بحيلة قذرة ثم تركتنى غريقا فى الوحل • وفى وسعى ان أقيم الدنيا واقعدها تنديدا بفعلتك واصر على قصتى « فقال لانى » وسيعذبونك لينتزعوا منك الحقيقة بدلا منى يا جيرى » •

وعلى هذا النحو مضى النقاش بينهما جيئة وذهابا كأنه مشــهد من مشاهد « افونس وجاستون » الا انه جاد اشد الجد • وفى هذه الاثناء كان وقت الحصول على تأشيرات الخروج والدخول يمر • وبدا ان المناقشة لا مخرج منها الى أن هبط الوحى فجأة على المؤدب السابق فقال « فنخرج كلانا مع فريدى ولنترك سيبريان ليواجه الموسيقى • سأسرق انا جواز سفره حقا وصدقا « فصاح لانى » ولكنها فعلة قذرة يا جيرى « فأجاب » ليست من السوء كما يبدو لك • فسيبريان فلاح فرنسى من الواضح ان عقله لا يقوى على تدبير شىء • وسيكون حانقا علينا فيقوم بمشهد تمثيلى ممتاز • سأسقيه حتى يمتلىء ببيرة ميونيخ الجيدة فتفوح رائحتهـــا منه عندما يتولى الشرطة أمره • ومتى وصلنا الى فرنسا استطعت ان نرسل تلغرافيا مبلغا من المال الى القنصل الفرنسى هنا وتطلب منه رعاية أمره • وعندما يصل سيبريان الى البيت بسيارة النقل نستطيع أن تمنحه بضعة الوف من الفرنكات ويعد المسالة أعظم مغامرة فى حياته » •

ولم يحب لانى هذه الخطة ولكن صديقة حسم الموقف بحجة لم يكن لانى قد فكر فيهـا قائلا « صدقنى أن فريدى روبن يبـدو أشبه باسم سيبريان سنتوز منه باسم لانتج بريسكوت بد ! ثم لما رأى لانى يضعف استحثه قائلا » هيا بنا فلننطلق ! »

اخذ جيرى سائق سيارة النقل ليحصلا على تأشيرات الخروج ثم للتأشير على جوازى سفرهما بدخول سويسرا ، فقد خطر له ان الافضل الا يضعوا انفسهم تحت يد موسوليني . وذهب لاني بمفرده لأداء هذا الغرض نفسه في حين دعا جيرى السائق سيبريان الى وجبة دسمة بما فى ذلك كمية وفيرة من بيرة ميونيخ الجيدة . ولم يكن ذلك الفرنسى قد شب على صفحات القداسة التى توسمتها امه حين اطلقت عليه اسمه ، فشرب كل ما وضع أمامه . وبعد ذلك رغب فى الخروج لتفقد الفتيات من بنات الثلاث عشرة سنة وما فوقها اللواتى كن يعرضن أنفسهن فى اعداد ضخمة في شوارع ميونيخ . فقال صاحبه له « أولئك الفتيات ينشلن الناس احيانا ، فمن الخير ان تعطينى أوراقك لاحتفظ لك بها » فقبل الآخر ذلك واعتبره احتياطا معقولا .

وقاد لاني صديقه بالسيارة الى داخاو لدراسة موقع الارض وأراه البقعة التى سيتم فيها تسليم السجين وتأكد من ان جيرى عرف اسماء الشوارع والمعالم الرئيسية . وكان فى نية ابن كنساس ان « يستكشف المنطقة » كما يقول بحيث يجد مكانا يستطيع منه مراقبة البقعة المنشودة ليتأكد من ان كل شيء يمضى وفق الخطة الموضوعة . وسيقوم هو جو بمثل ذلك . ولكن لاني لم يكن حرا فى اخبار جيرى بأمر هوجو واخبار هوجو بأمر جيرى . فاكتفى بأن نبه صديقه الى ان ضابطا نازيا سيقوم بالمراقبة فقال جيرى « وسأراقبه انا ايضا ! »

وكانت هناك عقبة واحدة جدية فيما يتعلق بالمؤدب السابق ، وهى انه لا يعرف الا كلمات قلائل من اللغة الألمانية ، « فسأل لاني » خبرنى كيف تقول بالالمانية ارفع يديك !؟ « فقال له لاني » فيما تفكر يا معتوه ؟ أممك مسدس ؟ فقال جيرى » من ؟ أنا ؟ منذا سمع طول حياته بأنى احمل مسدسا ؟ « وناهيك بهذا القول من رجل حضر جميع معارك الميزارجون فى خريف سنة ١٩١٨ ! فقال لاني « يجب ألا تحاول استخدام العنف اطلاقا يا جيرى وتذكر أن القتل جريمة توجب تسليم مقترفها الى الدولة التى فر منها فاجابه الآخر » أعلم هذا يقينا ! وشفع ذلك بنكتة لفظية عن جنود المشاة الامريكيين فى الحرب العالمية .

وكان لاني يعلم ان جيرى يملك مسدسا آليا من طراز بد والمرجح انه أحضره معه فى سيارة النقل ولكنه لم يفصح وانما أراد فقط أن يعرف

كيف يقولون بالألمانية « ارفع يديك » ! ودرسا الخريطة ، فسوف يقودان السيارة شمالا الى خارج داخاو ثم يدوران متجهين الى الجنوب ويتاخمان ضواحي مدينة ميونخ متسللين الى الحدود . وبعد أن وعيا الخريطة فى ذهنيهما جالا بشوارع داخاو متيقظين لمعالمها بحيث لا يرتكبان غلطة فى الظلام . وبعد الفراغ من ذلك عادا بالسيارة الى ميونيخ وتناولا عشاء متأخرا فى حانه هادئة ثم ذهب جيرى الى فندقه ، فهناك بضعة أشياء لا يجب أن يتركها وراءه ، خطاب أو خطابان يريد أن يعد مهما وقال باسما « لم أكن أعلم انى بصدد المشروع فى أعمال اجرامية » .

وفى الساعة المناسبة قابل صاحبه فى الشارع وركبا سيارته الى داخاو ونزل هناك وكان الظلام قد حل فى ذلك المساء الصائف البديع ، والناس فى هذه المنطقة العمالية جالسون امام بيوتهم . فقال لانى « عليك أن تتحرك باستمرار حتى لاتلفت الانظار . سنأراك فيما بعد أيها الكشاف العجوز ! وكان ذلك بلهجة اليقين ، الا انه لم يشعر بذلك اليقين فى دخيلة نفسه !

وعند العودة الى ميونيخ مر الفتى اللاهى بسيارته أمام البقعة التى تعود أن يلتقى فيها بهوجو أمام حانوت لبيع الطباق فى شارع مزدحم بالناس ، وكان الظلام قد خيم الا أن الشارع كان مضاء . ولم ير لانى صاحبه ، ولما كان يعلم أنه جاء قبل الموعد دار بالسيارة ببطء حول مربع البناء ، حتى اذا دار حول الناصية مرة أخرى رأى صديقه غير بعيد متجها صوب البقعة المتفق عليها . وكانت ثمة سيارة أجرة تتحرك فى نفس الاتجاه خلف هوجو بثلاثين أو اربعين قدما تسير ببطء مطفأة الانوار . وانتظر لانى ريثما تمر هذه السيارة ولكن السائق فيما يبدو كان يبحث عن رقم فى الشارع فتقدمها لانى ووقف عند المنحنى حيث رآه هوجو وشرع فى الانضمام اليه . وانحنى لانى ليفتح الباب من الجانب الأيمن للسيارة ، وفى اللحظة نفسها وقفت سيارة الاجرة بمحاذاة سيارة لانى ووثب منها ثلاثة رجال يرتدون القمصان والسراويل السوداء والخوذات الفولاذية التى تدل على الانتماء الى كتائب الامن النازية . ووقف أحدهم يحدق فى لانى فى حين اندفع الآخران فدارا من خلف سيارة لانى وواجها مدير الرياضة الشاب متلبسا بوضع يده على باب السيارة وسأله احدهما « أانت هوجوبير؟ » وكان الجواب « نعم أنا هو » والتفت لانى لينظر الى من وجه السؤال ولكن حركة الرجل التالية كانت أسرع من أن تتعقبها عين . فلا بد انه كان ممسكا فى يده بمسدس خلف ظهره فشهره واطلق

الرصاص مباشرة فى الوجه الذى أمامه وعلى بعد لا يزيد على قدم واحدة · وتناثرت فرق من عين هوجوبير الزرقاء ونافورة من دمائه الآرية انبثقت فاصاب جانبا منهـا · اما بقية هوجوبير فتهاوى وسقط على الطوار · وعندئذ حول الرجل مسدسه الى وجه السائق المذعور وأمره قائلا « ارفع يديك! » وكان فى هذا بالتأكيد قلب للموقف بالنسبة للانى · فرفع يديه الى أعلى · وسـأله رجل كتـائب الأمن « من انت ؟ » وهـذا أوان أسرع الاجابات بقدر الامكان ، ومن حظ لانى انه فـكر فى أفضل اجابة ممكنة قائلا أنا خبير امريكى فى الفن وصديق للفوهرر » فقال الرجل « اوه ! اذن أنت صديق للفوهرر ! » فقـال لانى « لقد زرته عدة مرات وقضيت الصباح معه فى البيت البنى منذ بضعة أشهر » فسأله الرجل « وكيف تعرفت بهوجوبير ؟ » فاجابه « قدمونى اليه فى بيت هاينريش يونج أحد كبار المسئولين فى شبيبة هتلر ببرلين · وهاينريش من اقـدم أصدقاء الفوهرر وقد زاره مرات كثيرة عندما كان فى حصن لانسبيرج· وهاينريش هو الذى قدمنى للفوهرر » وكان لانى يتدفق بهـذه العبـارات وكأنها قطعة محفوظات فى المدرسة والواقع أنها كانت اشبه بذلك فعلا لانه كان قد تخيل الاسئلة وحفظ دوره بأفضل تعبير المانى · ولما كان رجل كتائب الامن لم يطلب منه التوقف فقد استمر يقول بهذه السرعة نفسها «وكذلك عندما زرت زعيم الرايخ فى البيت البنى كان معنا كيرت مايسنر من قلعة شتوبندورف وهو مؤلف موسيقى وصاحب كثير من أناشيد الحزب التى تتغنون بها فى اجتماعاتكم · وهو يعرفنى منذ كنـا غلامين فى هلراو · ويمـكن ان يؤكد لك أننى صديق لحركة الاشتراكية الوطنية · وعندئذ انتهت الخطبة كما رسم خطتها لانى · ولـكنه وهو يقول الكلمات الاخيرة شعر بشك فظيع يكاد يخنقه ، فلعل هذه ثورة معادية للنازى، وقد يكون بهذا الكلام مبرما الحكم على نفسه بالهلاك ! ورأى فوهة المسدس تهبط الى أسفل فصارت موجهـة الى سرته بدلا من وجهه ، الا أن ذلك لم يكفه فحملق فى رجل كتائب الامن الذى كان له حاجبان سوداوان يلتقيان فوق أنفه فخيل الى لانى أن وجهه أقسى وجه وقع عليـه نظره · وقال الرجل مشيرا بذقنه الى أسفل صوب الجثة الملقاة على الطوار « وماذا كنت تصنع مع هذا الرجل ؟ » فأجاب « جئت الى ميونيخ لأشترى لوحة من البـارون فون زنزولين وقد رايت هوجوبير سـائرا فى الشارع فوقفت لأقول له يا لها من مصادفة فكان لانى فى هذه المرة يتكلم على البديهة ، وأمره رجل كتائب الأمن قائلا « انزل من السيارة » وجعل قلب لانى يدق بشدة من تحت حلقه ، وجعلت ركبتاه ترتجفان بعنف فلم يكن واثقا بأنهما تقويان

على حمله فقد خيل اليه أنه أمر بالنزول حتى لا تفسد دماؤه ومخه سيارة جيدة فقال « أؤكد لك أنك ستندم ان أطلقت على الرصاص فأنا صديق حميم لوزير الرايخ رئيس الوزارة البروسية الجنرال جورنج وكنت معه في رحلة صيد في الخريف الماضي · وفي وسعك أن تسأل الملازم الاول فورت فينجلر من حاشية سعادته · وفي وسعك أن تسأل عني وزير الرايخ جوبلز ، أو زوجته فراو ماجدة جوبلز ، فقد زرت بيتهما · وفي وسعك أن تطالع المقالات عني في اعداد صحف ميونيخ الصادرة في نوفمبر الماضي عندما أشرفت على معرض للصور هنا وأخذت لوحة منها الى الفوهرر، وكانت صورتي منشورة في جميع الصحف ·· » فقال رجل كتائب الامن « سوف لا أطلق الرصاص عليك » وكانت لهجته تدل على الازدراء الشديد لاى انسان يعترض على اطلاق الرصاص عليه · فسأله لاني « وماذا ستصنع اذن ؟ فأجابه :سآخذك الى سجن شتادلهايم الى أن نتحرى عن قصتك · اخرج من السيارة » ·

وشتادلهايم اسم يبعث الذعر ، فهو من السجون الفظيعة التي يتحدث بشأنها اللاجئون ، الا أنه أفضل من القتل بالرصاص على الطوار، فاستطاع لاني أن يسيطر على أعصابه واطاع الأمر · ومر الرجل الآخر بيديه فوق جسمه ليتأكد من أنه غير مسلح · ثم أمره القائد بتفتيش جثة هوجو فأخرج منها ملء قبعة من المقتنيات من بينها حزمة من أوراق النقد كان لاني يعلم أنها تصل الى نحو خمسة عشر الف مارك · وبدا واضحا أنهم ينوون ترك الجثة حيث هي ، وتساءل لاني في نفسه هل لديهم هيئة خاصة لجمع الجثث ، أم أنهم يتركونها لهمة الجيران ؟

ومهما يكن من شيء فلم يكن لديه متسع من الوقت للاسترسال في التفكير ، لأن القائد أمره بقوله « اركب في المقعد الخلفي » ثم دخل فجلس بجواره وهو لم يزل مصوبا مسدسه نحوه · وركب الرجل الذي كان واقفا من جهة لاني في مقعد القيادة ، ودار محرك السيارة وانطلقت في الشارع بسرعة ·

- ٤ -

وكان لاني قد شاهد تشتادلهايم من الخارج ، وهو كتلة من المباني في شارع عريض محفوف بالاشجار ، وهو طريق بحيرة تجيرنيزي الذي كان قد مر مع هوجوبير فيه بالسيارة · وبدت أسوار ذلك المكان الآن

ضخمة مخيفة في الظلام · وأمر لاني بالنزول من السيارة وصحبه اثنان من آسريه الى داخل البوابة ومن هناك مباشرة اجتازوا حجرة الاستقبال الى دهليز صخرى افضى الى حجرة صغيرة · وتوقع أن يسجل اسمه مع بصمات أصابعه ، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن ضروريا · وأمر بخلع سترته وبنطلونه وحذائه ثم بدأ تفتيشه · وقال « فى هذه الحافظة مبلغ كبير من المال » فاجاب القائد بصرامة « سنهتم بأمرها · وأخذوا ساعته ومفاتيحه وقلم الحبر وربطة العنق وكل شيء فيما عدا منديله · وفتشوا بطانات ثيابه وبحثوا بعناية ليتبينوا اى علامة قد تدعوهم لنزع كعبى حذاءيه واخيرا امروه بارتدائه ثيابه مرة أخرى · فقال لانى « ألديكم مانع فى أن تخبرونى عن تهمتى ؟ فكان رد القائد عليه « اخرس ! » ويبدو أنهم لم يصدقوا حكايته العجيبة عن صداقته الحميمة لاقطاب النازى الثلاثة · ولما كان لانى غير راغب فى تلقى ضربة على أم رأسه بكعب مسدس فقد أغلق فمه كما أمروه وأخذوه الى خارج الحجرة فاجتازوا به الممر الى باب فولازى عليه حارس · ويبدو أن رجل كتائب الامن هو المشرف على المكان ، فما كان عليه الا أن يؤدى التحية ويقول « هايل هتلر » ! ففتحت أمامه جميع الابواب · وقاد السجين فنزل به درجات سلم صخرى ضيق الى ممر ضعيف الاضاءة على جانبيه أبواب فولاذية · وقد كانت فى السجون القديمة اماكن كهذه يسودها الظلام والصمت تقترف فيها أعمال ليس لها اسم وقام سجان صحب الجنود الثلاثة بفتح أحد الأبواب ثم زج بلانى داخله دون كلمة ، وصفق الباب وراءه ، وانتهى الامر على حد التعبير الذى تعلمه فى أرض آبائه ·

وفى الظلام لم يتمكن من اكتشاف المكان الا بالتلمس فوجد الزنزانة ضيقة وبها سرير حديدى مثبت فى الجدار الصخرى · وعلى السرير زكيبتان من القش وبطانية · وفى الركن البعيد دلو كريه الرائحة بدون غطاء ، وهذا كل شيء والمكان كله تفوح منه رائحة عفنة خبيثة وليست به نوافذ وتتم التهوية عن طريق فتحتين فى الباب المتين احداهما عليا والأخرى سفلى ويمكن اغلاقهما بغطاءين متحركين من الخارج ولكن لعل هذا لا يحدث الا أن أساء لانى السلوك وهو لم يسئه ·

وسمح له بالجلوس على زكيبتى القش ليفكر فبذل أقصى جهده ليهدىء جيشان فؤاده ويستخدم ملكاته المنطقية · ماذا حدث ؟ بدا واضحا أن خطته فضحت · فهل القى القبض على المتآمرين أم أنهم تسلموا المال ثم أبلغوا الخطة الى رؤسائهم ؟ وان كان الامر كذلك فهل سيطلقون الرصاص على فريدى ؟ لا فائدة من القلق حول هذا الموضوع الآن ، فلن تكون للانى

فائدة بالنسبة لفريدى ما لم يخرج شخصيا من سجنه · ولذا ركز تفكيره في محنته الخاصة وفى الاستعداد للتحقيق الذى لابد ان يأتى عاجلا أو آجلا ·

- ٥ -

وبديهى ان دور هوجو فى الهرب من السجن قد افتضح ولكن هوجو لم يذكر قط اسم لانى كما قال وبطبيعة الحال قد يكون هذا صحيحا أولا يكون · وقد وجدوا حفنة من أوراق النقد ذات الألف مارك مع هوجو ، ووجدوا بضعة أخرى مع لانى ، وفجأة أدرك السجين بانهيار وشيك فى اعماقه اى فعلة غبية اقترفها فهذا هو الأثر الذى يتركه المجرم دائما ! فهو قد ذهب الى البنك وحصل على ثلاثين ورقة جديدة من ذات الألف مارك ، ولاشك فى انها ذات أرقام مسلسلة ، وقد اعطى بعضا منها لهوجو واحتفظ ببعضها الآخر فى حافظته الخاصة ! وهكذا يتمكنون من التيقن بانه حاول شراء تهريب سجين من داخاو · فماذا عسى أن تكون عقوبة هذه الجريمة ؟ وهذه العقوبة فى العهد البائد شىء ، وهى فى عهد النازى شىء آخر وكانما ردا على سؤاله ارتفعت أصوات مفزعة مكتومة ولكن لا سبيل للخطأ فيها ، وهى عبارة أولا عن دق الطبول ثم أصوات اطلاق الرصاص فى مكان ما من أعماق هذا الجب أو خارج الاسوار · ولم تكن طلقة واحدة ، ولا سلسلة من الطلقات بل سيلا منها وكمية شديدة الغزارة · انهم يعدمون شخصا ما ، أو ربما عدة أشخاص · واضطر لانى الذى كان قد وثب قائما على قدميه للجلوس مرة أخرى لأن ساقيه خانتاه·

من عسى أن يكون من يعدمونه ؟ أهو رجل كتائب الهجوم فى داخاو الذى كان هوجو على اتصال به ؟ أم هو الرجل الأعلى منه الذى طلب منه مزيدا من النقود ؟ لابد أن الخطة قد افتضحت فى وقت مبكر لأن الساعة لا يمكن أن تتعدى العاشرة بكثير ، ولم يتسع الوقت لمحاولة الهروب من السجن ثم احضار المذنبين من داخاو الى هذا السجن · وبطبيعة الحال ربما كان هذا الاعدام لا صلة له بداخاو ، فاطلاق الرصاص أمر كثير الحدوث فى سجون النازى باتفاق جميع اللاجئين · ولعلهم يعدمون الناس كل ليلة فى الساعة الثامنة والعشرين بتوقيت ألمانيا !

وبعد تفكير دقيق جدا قرر لانى أن النازى ثبتوه فى موضعه بالمسامير ، فليست أمامه فرصة للافلات · فهو قد أتى الى ألمانيا لكى يحصل على فريدى روبن وما كانت تجارة اللوحات الا للتمويه · وهو قد احضر سيارة نقل من فرنسا ، وسيوقنون بأنه كان ينوى اخذ فريدى الى الخارج فى سيارة النقل تلك ! وهناك جيرى ومعه ورقتان من ذات الألف مارك

أعطاه لانى اياهما ! وثمة أيضا جواز سفر سيريان سانتوز وقد استبدلت صورته بصورة فريدى روبن ! فهل سيدركون معنى ذلك ؟ أم أن جيرى ربما افلت ؟ أنه حرى الآن أن يقوم بالتجول مارا بالموضع المحدد فى انتظار السجين وظهور لانى • فهل يقوم النازى بالمراقبة ويقبضون على أى شخص يمر من هناك ؟ هنا سؤال هـــام ان استطاع جيرى الهروب فسيذهب يقينا الى القنصل الامريكى ويبلغه أن لانى مفقود ، وهل سيخبر القنصل بالحقيقة كاملة ؟ قد يخبره أو لا يخبره ، ولكن القنصل على كل حال حرى أن يقوم بالتحرى عن ابن آل بد أصحاب مصانع الأسلحة •

- ٦ -

مزيداً من دق الطبول ومزيد من اطلاق الرصاص ! يا الهى ! أتراهم يقضون الليل كله فى قتل الناس فى سجون ألمانيا ؟ يبدو ان الامر كذلك، لأن لانى قضى الليل بطوله يصغى لدفعات من الطلقات النارية طويلة أو قصيرة عاليه أو خافته • ولم يستطع أن يحدد هل يجرى هذا فى الداخل او الخارج • ألديهم حجرة خاصة للاعدام أم أنهم يطلقون عليك الرصاص فى اى مكان يتفق وجودك فيه ؟ وماذا يصنعون بكل هذا الدم ؟ وخيل للانى انه يشم رائحته ورائحة البارود ، ولكن لعله مخطىء لأن رائحة دلو القاذورات العتيق الصدىء يمكن أن تكون قوية الفواح فى زنزانة صغيرة ، وكان خبير الفن قد شاهد لوحات كثيرة للاعدام قديمة وحديثة ، فعرف مايتخيل • انهم احيانا يعصبون أعين الضحايا ، وأحيانا أخرى يجعلونهم يديرون ظهورهم ، وأحيانا ثالثة يضعون المسدس الآلى عند قاعدة الجمجمة فوق المخيخ • ويقال ان هذا أرحم ، ولاشك أنه أسرع • والنازى لا يهتمون بالرحمة ولكنهم قطعا يهتمون بالسرعة •

وبين الحين والحين كان يسمع صوت باب يصفق فيقول لانى « ها هم يأخذون شخصا الى حتفه » وبين الحين والحين كان يسمع وقع أقدام فيقول لنفسه « أقادمون هم أم رائحون ؟ ويتساءل عن الجثث ! الديهم نقالات ؟ أم تراهم يجرونها جرا ؟ وخيل اليه أنه يسمع صـــوت جـــر ، وارتفعت صرخات عدة مرات • ومر رجل ذات مـــرة ببـــابه وهو يجادل ويصيح محتجا • ما خطبهم ؟ انه نازى صالح كأى نازى فى المانيا ، وهم مخطئون هذا عار شائن ، وما الى ذلك • وقد زود هذا لانى بشىء جديد يفكر فيه فجلس برهة طويلة لا يتحرك فوق حشيته المصنوعة من القش وذهنه فى دوامة •

ولعل هذا كله لا علاقة له بفريدى وفراره من السجن ! لعلهم لم يكتشفوا شيئا على الاطلاق ! انها تلك الثورة الثانية التى كان هوجو يتنبأ بها بلا تحفظ ! أو هوجو لم يعدم بالرصاص لانه حاول رشوة حارس فى داخاو بل لأنه فى قائمة أولئك الذين يعملون بنشاط فى صف ارنست رهم وغيره من الساخطين من زعماء فرقة الهجوم ! وفى هذه الحالة قد يكون اطلاق الرصاص جزءا من اخماد تلك الحركة ٠ وشيء له دلالته ان آسرى لانى من رجال كتائب الامن وهم الحرس المختار الذى يضم من اصطفاهم هتلر شخصيا ، فهم يتولون القضاء على منافسيهم وتصفية من يطالبون بزيادة سلطات رئيس أركان كتائب الهجوم ٠

ثم خطر له بعد ذلك احتمال أشد ازعاجا ٠ وهو أن الاعدام قد يعنى نجاح المتمردين ، ومصرع هوجـو بير لا يعنى أن ذوى القمصان السود (كتائب الأمن) تمت لهم الغلبة فى كل مكان ، فلعل رجال كتائب الهجوم دافعوا عن أنفسهم بنجاح ! ولعل شتادلهايم قد تم الاستيلاء عليهـا على نحو ما تم الاستيلاء على الباستيل فى الثورة الفرنسية ، وان الاشخاص الذين يتم اعدامهم الآن هم الذين زجوا بلانى هنا ! وفى أية لحظة قد تفتح أبواب زنزانته ليرحبوا به فى تهليل أخوى !

تخيلات وهذيان ٠ ولكن الامر كله كان هذيانا ٠ فهو مستلق هناك فى الظـلام وليست لديه وسـيلة لاحصاء الساعات ولا يستطيع سـوى التفكير فى عالم مملوء بالقتلة المجانين ٠ ولم يكن واثقـا الا بشيء واحد ، وهو أن شخصا يقتل شخصا ، واستمر ذلك على فترات وليس هناك ما يدل على انتهـائه ٠ وتذكـر لانى الثورة الفرنسـية ، والارسـتقراطيين المنكودين الذين استلقوا فى زنزاناتهم منتظرين حلول دورهم كى يحشدوا فى عربات نقل ذات عجلتين تقلهم الى المقصلة ٠ ويقال أن ذلك كان يشيب شعر أولئك الناس بين عشية وضحاها ٠ وتساءل لانى هل يحدث هذا له الآن ٠ وفى كل مرة يسمع فيهـا وقع أقدام تمنى أن يكون شخصا قادما لاطلاق سراحه ٠ ولكنه يخشى بعد ذلك أن تتوقف تلك الخطوات فعلا عند بابه ، لان ذلك قد يعنى استدعاءه الى حجرة التنفيذ !

وحاول أن يسرى عن نفسـه ، فهو لم يقم بدور فى مؤامرة كتائب الهجوم ، وهم بالتأكيد لن يطلقوا عليه الرصاص لمجرد انه قابل صديقا فى الشارع ٠ ثم يقول لنفسـه « وما القول فى أوراق النقـد تلك ! انهم سيعطونها الآن شر المعانى » ٠ سيقولون « لماذا أعطيت النقود لهوجو بير؟» فبماذا يجيب ؟ لقد قال انه لايعرف ماذا كان هوجو يريد منه ٠ وسيعرفون

ان هذا كذب فيقولون «لقد كنت تساعد على أعداد ثورة ضد حزب العمال الالماني الاشتراكي الوطني » وهـذه بالتأكيد جريمـة عقـوبتها الاعدام بالرصاص ، حتى ولو كنت قادما من بلاد الحرية الجميلة لتقترفها !

وفكر لاني في أفضـل طريقة لمواجهة هذا الموقف البـالغ السوء . سيتكلم عنـدما يسألونه عن صداقته للـكبار ذوى السلطان ثم يتريث ليلتقط أى تمليح يدل على ان من يسـاله فطن الى موضوع أوراق النقـد او عرف شيئا عن موضوع فريدى روبن. ان كان هذان الامران قد افتضحا فسيضحك لاني ــ أو على الاقل يحـاول أن يضحك ــ ويقـول « نعم لقد كذبت بالطبع على رجال القمصان السود أولئك في الشارع . فقد ظننتهم مجانين سيطلقون على الرصاص . والحقيقة ان جوجوبير جاء الى وطلب منى نقودا وعرض أن يستخدم نفوذه لدى رجال كتائب الهجوم في داخاو لاطلاق سراح صديقى . ولم يكن هناك كلام عن رشوة ، بل قال انه سيودع المبلغ خزانة الحزب لاستخدامه في معونة الشتاء » وكان لاني واثقا من شيء واحد في هذا الموضوع ، وهو أن كل ما يقوله عن هوجو لا يمكن أن يترتب عليه ادنى أذى لمدير الرياضة الشاب .

- ٧ -

وقع أقدام في الدهليز واتسعت فجوة أسفل باب لاني ثم زج شيء الى الداخل فقال بسرعة « خبرنى من فضلك كم سامكث هنـا ؟ » ولما لم يتلق جوابا قال « أنا مواطن امريكي واطالب بحقى في الاتصال بقنصلى » فضاقت الفجوة مرة أخرى وابتعد وقع الاقدام .

وتحسس لاني بيديه فوجد اناء معدنيـا به ماء وفنجانا به سـائل دافيء لعله قهوة وجزلة خبز قديم . ولم يكن جائعا ولكنه شرب جانبا من الماء . والغالب انه كان طعـام الافطار وان الصباح قد حـل . واستلقى واصغى لمزيد من اطـلاق النيران يعلو وينقطع . وبعد فترة بدت له وقتا طويلا فتحت الفجوة وزج بمزيد من الطعام . وبدافع الفضول تحرى ذلك الطعام فوجده صحفة مما يبدو أنه بطاطس باردة مهروسة بنوع من الدهن. ولا بد أن هذا الدهن عفن لأن رائحته مقززة، وكاد لاني يتقيأ لمجرد تفكيره في أكله . وكاد يتقيأ عدة مرات عندما فكر فيمن عساهم قتلوا بالرصاص في هذا الجب الرهيب .

وجاءه بحساء الكرنب ومزيد من الخبز في وقت قدر أنه المساء ، وفى

هذه المرة تكلم الحارس فقال «قرب دلو القاذورات» ففعل لانى ذلك وتناول الرجلَ الدلو فأفرغه ثم رده اليــه من غير أن يغسله وكانت هــذه العلامة الدالة على الانسانية دافعا له الى حديث قصير عن متاعبــه ، فقال أنه لم يصنع شــيئا ولا فكرة لديه عن تهمته ، وانه ممــا يتنافى مع الانسانية أشد التنافي ان يزج بانسان في جحر مظلم ، وانه كان دائما محبا لألمانيا ونصيرا لــكفاحها ضد معاهدة فرسای المـــلاة · وانه في النهاية مواطن امريكي ومن حقه أن يخطر قنصله بالقــاء القبض عليه · وفي هــذه المرة حصل على جملة رد واحدة « الــكلام ممنوع يا سيدى » وبدا الصوت في أذنه عطوفا ، وتذكر لانى ما كان قــد ســمعه من أن كثيرا من الموظفــين الدائمين في هــذه السجون من رجال العهــد البائد وهم يحترمون النظام وينطوون على شعور انسانى، فانتهز الفرصة وغامربقوله بصوت منخفض « أنا رجل غنى » فان اتصلت تليفونيــا بالقنصل الامريكي نيــابة عنى جزيتك بسخاء بعد خروجي » فأجابه الصوت « الكلام ممنوع يا سيدى » ثم بصوت اخفض بكثير « تكلم بالهمس » فهمس قائلا « اسمى لانى بد » وجعل يكررها عدة مرات « لانى بد · لانى بد » حتى غدت أغنية صغيرة· وليتها كانت ذات أجنحة كى تطير الى القنصلية الامريكية ·!

- ٨ -

لبث لانى بدْ فى تلك الزنزانة الضــيقة ثلاثة أيام واربع ليــــال · واستطاع أن يقدر عدد الاقدام المكعبة فى الهواء بداخلها بيد أنه لم يعرف النسبة المئوية للاكسجين فى ذلك الهواء ، ولا الى كم يحتاجفى كل ساعة كى يبقى حيا ، فقد أهمــل تعليمه العلمى ، بيــد أنه وجه من الحكمة ان يحتاط فيضع زكيبتى القش على الارض ويستلقى فوقهمــا وفمه مفتوح قرب ثقب التنفس ·

ومر يوم السبت والاحد والاثنين ، فقد اســتطاع تمييزها بأوقات الوجبات وخلال ساعات يبلغ مجموعها اثنتين وثمانين لم تمر اثنتا عشرة ساعة بدون اطلاق للرصاص · فلم يتغلب قط على فزعه · يا الهى القوى! أتراهم يصنعون هذا طول الوقت ؟ وهل كان هذا رأيهم منذ بداية الثورة الاشتراكية الوطنية ، أى منذ عام وخمسة أشهر ؟ أتراهم يأتون بجميع المشتبه فى أمرهم سياسيا فى بافاريا الى هذا المكان بالذات ؟ أم ان هذه

مناســـبة خاصة أشبه بعشية عيد القـديس بارتلمي النسبة للنازى ؟ اقتلوهم جميعا ، فالرب سيتمكن بذلك من اصطفاء مسيحييه الحقيقيين !»

ولما لم يكن لدى لانى ما يصنعه سوى التفكير ، فقد خطرت له افكار متباينة شتى منهـا « انهم جميعا نازيون ، فان استاصل بعضهم البعض الآخر فسيوفر ذلك على العالم جانبا من المتاعب » ثم خطر له « لنفرض أنهم فتحوا باب الزنزانة على سبيل الخطأ ؟ فكرة مزعجة حقا! ماذا عساه يقول؟ كيف يستطيع افناعهم ؟ ومر وقت فقال « لقد نسوني · ان هؤلاء الناس لم يسجلوا اسمي ، ولعلهم انصرفوا من غير أن يقولوا كلمة واحدة · ثم جال بذهنه احتمال ادعى للاضطراب « لنفرض انهم قتلوا بالرصاص فى مكان ما ولا يوجد من يتذكرنى ! » وتذكر بصورة غامضة أنه طالع شيئا عن سجين نسوه فى الباستيل فلمـا سقط الباستيل لم يعرف أحد لماذا سجن · وكانت قد نبتت له لحية بيضـاء طويلة · وتحسس لانى بداية لحيته وتساءل اتراها شابت · ووجه عنـايته الى دراسة جادة لسجانيه ولسيكولوجيتهم المحتملة · فبدا له من العسير أن يصدق بأن رجالا هذا عملهم سنوات كثيرة يمكن أن يبقى فى تكوينهم أثر من الرحمة البشرية · ولكن قد لا يكون هنـاك ضرر م نالتأكد ولذا كان فى موعد كل وجبـه يستلقى على الارض قرب الثقب ويدلى بخطبة اعدها بعناية فى لهجة هادئة ودود، يشرح فيها من هو ومبلغ حبه للشعب الالمانى ولماذا جاء الى ميونيخ وبأى صدفة سيئة وقع تحت الشبهات · فكل ما يريد هو فرصة ليشرح ظروفه لشخص ما · وتصور انه بذلك العمل ان لم يفلح فى تحريك قلب أحد من الحراس فمن الجائز على الاقل أن يدفعهم ألى اللغط وربمـا انتشر اللغط وشاع ·

- ٩ -

ولم يكن يدرى كم من الوقت يستطيع الشخص أن يبقى دون طعام· فهو لم يبدأ فىمعاناة الجوع قبل اليوم الثانىفمضغ جانبا من الخبز الاسود مبلولا فى الماء · وهو يتساءل ماذا فيه · ولم يستطع حمل نفسه على أكل العصيدة الكريهة الرائحة أو الكرنب المسلوق الفاتر الذى يعلوه الدهن· وأما الشراب المر الذى زعموه قهوة فقد قيل له فيما مضى انهم يذيبون فيه ملح الصودا لـكى يقللوا الرغبة الجنسية لدى السـجناء · وهو لم يكن يشعر بأى رغبة الا فىالخروج من هذا الجحر المظلم· وجعل يهمس لحراسه

كانت معي ستة آلاف مارك عندما احضروني الى هنا ويسرني أن أدفع منها ثمن طعام لائق . وفي المرة الثانية التي قال فيها هذا الكلام سمع صوتا رقيقا خيل اليه انه صادر « من رجل متغضن الوجه أشيب الشارب ! كل شيء مقلوب رأسا على عقب يا سيدي ، وستكون أوفر أمنا ان التزمت الهدوء » وهو تلميح له قيمته فكر فيه لاني ثم قرر أن من الخير له اتباعه فثمة حرب أهلية دائرة . فهل نجحت الثورة الثانية أم أنهم يخدمونها الآن ؟ ومهما يكن من شيء فمن حسن طالع أمريكي محب للفن وقع في كمين بين خطى النار أن يجد فجوة يختبيء فيها . فلو كان هذا الحارس ممن يتكلمون العامية في انجلترا لقال له « ان كنت تعرف جحرا أفضل من هذا فاذهب اليه ! »

وهكذا استلقى لاني هادئا وشغل نفسه بموضوع علم النفس الذي كان قد اهمله كثيرا حتى هذه الفترة من حياته . فقد شغل من أمر الدنيا بأكثر من طاقته فراح يجلب وينفق من ملكاته حتى اهدرها . أما الآن فقد تقلص العالم الى مئات قليلة من الاقدام المكعبة ، ولا يملك الا الثياب التي على جسده والآراء المخزونة في رأسه . وبدأ يتذكر برسيفال دنجل ويقدر وجهه نظره . فبرسيفال ما كان ليبالي أن يكون هنا وكان ينتهز فرصة نادرة للتأمل . وقال لاني لنفسه « فيم عسى برسيفال يتأمل ؟ » يقينا انه لن يتأمل في طلقات الرصاص أو مصير الثورة المفترضة ! كلا بل سيقول ان الله موجود في هذه الزنزانة وان الله لا يتغير مثوله داخل الابواب ولا خارجها وانه هو بذاته بالأمس واليوم والى الأبد .

وبعد ذلك فكر لاني في فريدي روبن . وفريدي وجد في أماكن كهذه من قبل ، وضعت أمامه اطعمة مثل هذه ، لا ثلاثة أيام فقط بل أكثر من سنة . فماذا قال لنفسه طيلة ذلك الوقت ؟ ماذا وجد داخل نفسه ؟ ماذا صنع وماذا فكر ليقطع الوقت وليتيح لنفسه ان تحمل ما حدث له وتتوقع ما يمكن أن يحدث ؟ لقد بدا للاني أن الوقت حان ليتحرى ما لديه من مخزونات القوى المعنوية .

- ١٠ -

وفي صباح يوم الثلاثاء حشر الى زنزانته سجانان فتحا بابها وصاحا به « اخرج اخرج ! » فأطاع قدر استطاعته ، لانه كان ضعيفا لافتقاده الطعام والحركة ، فهو لم يجسر على استخدام كل هواء الزنزانة

وكان قلبه يدق بشــدة ، لأن جميع التمرينات النفسية فشلت فى ازالة خوفه من الاعدام بالرصاص أو ازالة تفكيره فى أن هذه قد تكون مسيرته الى الموت • وخارج الزنزانة أصيب بدوار فاستند الى الجدار • وساعده أحد السجانين على صعود السلم الحجرى • ورآهما يأخذانه صوب الباب الخارجى فظنهما عازمين على اطلاق سراحه ، ثم رأى اسفل السلم الخارجى عربة السجن ، ويسمونها فى أمريكا ماريا السوداء وفى المانيـا مينـا الخضراء • وصدمت اشـعة الشمس عينى لانى صدمة شديدة فاضطر الى اغلاقهما • وكان السجانان متعودين قطعا على هـذه الظاهرة فقاداه كأنه أعمى وساعداه كأنه مقعد الى أن وضعاه فى المركبة فتعثر بأقدام عدد آخر من الرجال •

واقفلت الابواب فسادت عتمة رحيمة واستطاع لانى أن يفتح عينيه اللتين الفتا الظروف التى تبصر فيها البومة فرأى سيدا واجما أقرب الى البدانة ربما كان من رجال الاعمال جالسا أمامه مباشرة عبر الممر الاوسط• والى جانب لانى رجل صغير القامة تبـدو عليه اللهفة يلبس نظارة لعـله صحفى خانه الحظ • ولـكن الرجل الجالس عبر الممر وضـع اصبعه على شفتيه وأومأ صوب الحارس الذى كان قد دخل المركبة « واتخذ مجلسه الى جوار بابها • فعرف على الفور أن «الكلام ممنوع» قاعدة سارية المفعول، بيد أن لبعض الناس قريحة وقادة لا يتخلون عنها عنـد دخول السجن • فقد وضع الرجل الصغير القامة يده فوق يد لانى حيث كانت مستقرة على المقعد فيما بينهما • ونقر على يده نقرة حادة باصبعه وفى الوقت نفسه التفت براسه نحو لانى مشيحا عن الحـارس وفتح فمـه وهمس بصوت خافت « آه » كأنه يشرع فى تعليمه الغناء ، أو يعرض حلقة للفحص وهو مصـاب بالتهاب فى حلقـه ولوزتيه • وبعـد ذلك نقر نقرتين سريعتين وهمس « بيه ! » وهو الحرف الثانى فى الابجدية الالمانية• ثم ثلاث نقرات « تسيه ! » وهو الحرف الثالث ، وهكذا دواليك الى أن هز الآخر رأسه ، وكان لانى قد سمع نقرا وهو فى الجب ، ولكنه لم يكن متأكدا اهو صوت أنابيب المياه أم هى شفرة خاصة لا يعرفها ؟

ان هـذه الشفرة ابسط الشفرات • وشرع الرجـل ينقر على يده ثمانى عشرة مرة ثم انتظر الى أن أحصى لانى النقرات وعرف انها حرف الراء فى اللغـة الالمانية ثم ببطء توالت النقرات الى أن تجمع منهـا اسم « رهم » وظن لانى أن الرجل الصغير يتهجى له اسمه شخصيا وتهيأ أن ينقر له اسم « بد » وهو مسرور لقصر اسـمه • بيد أن صـديقه الجديد

استمر فى الهجاء وشعر بيد لانى تنبض بالحياة تحت نقراته الهينة فادرك أن لانى فهم المغزى المطلوب ، ومع هذا استمر فى هجاء الكلمة على سبيل التأكد ، وهى فى الالمانية أطول كثيرا من معناها الانجليزى • فقد كانت تلك الكلمة « رهم اعدم بالرصاص ! » •

- ١١ -

ان هذه العبارة البسيطة لها مغزى هائل عند لانى ، فقد أتاحت له أن يشرع فى اختيار اتجاه واضح من بين شتى القصص التى نسجها لنفسه فى الايام الثلاثة الماضية والليالى الاربع• فاعدام ارنست رهم رئيس أركان حرب كتائب الهجوم بالرصاص معناه ان الثورة الثانية التى كثر الحديث عنها قد اخفقت •وخصوصا بعد أن استمر النقر على يد لانى وهو يتابع الهجاء حرفا حرفا ! « فى شتادلهايم » فكأنما أضاء نور ثاقب كالبرق فى ليلة حالكة فعرف لانى سبب كل هذه الطلقات النارية • ان القتلى هم رئيس اركان حرب كتائب الهجوم ومساعدوه الكثيرون الذين كانوا مجتمعين معه فى مؤتمرهم ! لا بد أنه قبض عليهم ونقلوه من فيسى ثم أطلق عليهم الرصاص فى مكان ما من السجن العتيق الرهيب ! واستمرت الاصبع السريعة فى النقر فتهجت حروف اسماء هاينز ، ثم الكلمة الرهيبة « اعدم » وكان لانى يعرف أن هذا الرجل رئيس الشرطة فى برسلاو، وهو الذى قاد العصابة التى أحرقت الرايشستاج ، ومعروف أنه من أبشع قتلة النازى ، وكان هوجو قد ذكر له أنه من أصحاب رهم ورفاقه فى الشذود وهو من بين ضيوف الفيلا فى فييسى • واعقب ذلك اسم شتراسر ! فوضع لانى يده فوق يد الرجل الصغير وتهجى اسم « اوتو » ولكن الآخر اعاد وضع يده فوق يد لانى وتهجى اسم « جريجور » ففهم لانى أن المقصود جريجور شتراسر الذى كان قد سمع تقريع الفوهرر له وكان قد سمعه مع ايرما يخطب فى الاجتماع الكبير بمدينة شتوتجارت• وكان اتو شتراسر مؤسس « الجبهة السوداء » البغيضة وهو منفى الآن وقد أعلن عن ثمن لرأسه • أما أخوه الاكبر جريجور فكان قد انسحب من السياسة وأصبح مديرا لمصانع كيماوية • ولذا كان لانى قد دهش عندما ذكر هوجو اسمه بين من يجتمعون فى رهم •

وتلذذ هذا المثقف الصغيربخرق القواعد والثرثرةبالشفرة مع زميل فى السجن • راح يخبره بمعنى الاحداث الرهيبة التى وقعت فى الايام

الثلاثة الماضية فالانباء تتسرب وتنتشر حتى في السجون ولم يسبق في في السجن . راح يخبره بمعنى الاحداث الرهيبة التي وقعت في الايام الازمنة الحديثة أن سمعوا أنباء كهذه ! ونقر الاصبع اسم شليخر الذي كان مستشارا يوما ما وهو الجنرال الاشتراكي صاحب الاسلوب المتميز الذي بذل كل جهده لابقاء هتلر بعيدا عن السلطة ، والذي هزم فون بابن ثم حاقت به الهزيمة بدوره . وفي المدة الاخيرة كان قد تعاون مع الساخطين متلهفا على الاستمتاع بمذاق السلطة العذب مرة أخرى «شليخر اعدم بالرصاص ! » وهو ضابط عظيم في جيش الرايخ ومن أقطاب اليونكر وعضو في الطبقة السائدة المقدسة ! ونظر لاني الى وجه الرجل البدين عبر الممر وفهم لماذا كانت عيناه محملقتين في فزع . كان في مقدوره أن يرى أصبع الرجل الصغير فوق يد لاني بحيث يحصى النقرات؟ أم انه فزع فحسب لانه يعيش في عالم كهذا ؟

وكان لاني قد سمع كفايته من الاسماء فشرع ينقر بشدة يسأله الى أين نحن ذاهبون ؟ وكان الرد « الى سجن شرطة ميونيخ » ولما سأله « لماذا ؟ » لم ينقر الرجل الصغير باصبعه بل هز كتفيه ومد يده ، وهي اشارة تعنى في جميع اللغات « من يدرى ؟ »

الفصل الثامن والعشرون

تعليمات دموية

- ١ -

وفى سجن مدينة ميونيخ عومل لانى مثل اى انسان آخر ، مما كان مبعث ارتياح عظيم لديه ، فجرى تسجيله حسب الاصول : اسمه وعمره وجنسيته ومحل اقامته وعمله • وقد حدده بانه «خبير في شئون الفن» فأثار حيرة الرجل الجالس الى المكتب كأنه لم يظفر من قبل بكثيرين على غراره • وكان لانى يبدو بما نبت من لحيته البنية في أربعة أيام أشبه بالقرصان ، أو لعله شعر بأنه كذلك • ويظهر انه كان محبوسا تحت « الحجز التحفظى » ، فثمة خطر كبير قد يتعرض له من شخص ما ولذا تعطف عليه الجستابو لحمايته من هذا الخطر • وتحت هذه الحيلة القانونية أقدم الفوهرر بعقدة الاجراءات الشرعية لديه على حبس مائة ألف رجل وامرأة بدون محاكمة أو تهمة • وطالب الامريكى بأن يسمح له باخطار قنصله ، فقيل له ان بوسعه التقدم بهذا الطلب الى «المفتش» . ولكن لم يقولوا له أين ولا كيف يقابل ذلك الشخص • وبدلا من ذلك اقتيد الى حيث أخذت بصمات أصابعه ثم أخذت صورته الشمسية •

\

والامور كلها نسبية ، فبعد الزنزانة المظلمة في « شتادلهايم » بدا سجن المدينة فى شارع اتشتراسى انيسا ودودا مرحا على طريقة أهل ألمانيا الجنوبية حقا • فهو أولا وضع فى زنزانة مع رجلين آخرين ، ولم يتحدث قط من قبل ان كانت الصحبة البشرية موضع كل هذا الترحيب لدى لانى بد وثانيا كانت للزنزانة نافذة ، ومع انها كانت مغطاة بطبقة كالكعكة من التراب الا انها كانت تفتح أحيانا ، فتتدفق الشمس عدة ساعات من بين القضبان • وفضلا عن هذا رصدت نقود لانى فى حساب خاص به فصار فى مقدوره أن يطلب الطعام • وفى مقابل ستين بفينج أى نحو خمسة عشرة سنتا يحصل على صحن من اللحم البارد والجبن وبأربعين

بفينيج يحلق له حلاق السجن لحيته • وصار يسمح له بالسير نصف ساعة ذهابا وايابا فى الدهليز كل صباح ريثما يتم تنظيف زنزانته • وعند الظهر يأخذونه لمدة ساعة الى فناء النزهة حيث يدور عدة مرات فى دائرة واسعة فى حين يطل عليه من نوافذ البناء ذى الطبقات الاربع النزلاء الآخرون • فياله من مكان بهيج حقا للحبس ! •

واحد رفيقيه فى الزنزانة رجل أعمال ضخم كان رفيقا له عندما حضر الى هنا فى المركبة المسماة « مينا الخضراء » • وقد تبين انه مدير مؤسسة صناعية آتهم بخرق القواعد الخاصة بأجور مستخدميه وكان السبب الحقيقى كما قال انه طرد نازيا غير كفء وغير أمين ، فجاءوا الآن واخرجوه من عمله ووضعوا ذلك النازى فى مكانه وسيبقى فى السجن الى ان يرضى بتوقيع أوراق معينة وضعوها أمامه • وكان الضحية الآخر كونت مجرى ، وكان نازيا على نحو ما ، ولكنه ليس من النوع المنشود ، وهو أيضا قد جلب على نفسه عداوات شخصية ، والعدو فى هذه المرة هى عشيقته • ودهش لانى عندما اكتشف ان نسبة مئوية كبيرة جدا من السجناء فى هذا المكان كانوا اتباعا مخلصين للفوهرر ، أو يخالون انفسهم كذلك • ويبدو ان دخولك السجن لا يكلفك أكثر من مشاجرة مع شخص أعظم منك نفوذا وعندئذ توجه اليك أى تهمة وتبقى فى السجن لان الاتهام أو مجرد الاشتباه فى بلاد النازى أسوأ بكثير من الحكم بالادانة •

واكتشف لانى أن قضاءه ثلاثة أيام وأربع ليال فى زنزانة مظلمة فى « شتاد لهايم » قد جعل منه شخصية مرموقه ، على غرار أدموند دانتس أو الكونت دى مونت كريستو ، فتهافت عليه رفيقاه فى الزنزانة وأمطروه بالأسئلة عما شاهده وسمعه فى تلك الأقبية الفظيعة تحت الأرض • ويبدو أنهما كانا يعرفان كل شىء عن أعمال القتل ، حتى أنهما أخبراه عن فناء هناك به جدار كان أطلاق الرصاص يتم أمامه ، وعن صنبور اطفاء الحريق الذى يستخدم لغسل الحائط من الدماء • فلم يستطع لانى ان يضيف الى هذا كله سوى قصة استلقائه على الأرض وتسمعه لما يحدث ، وكم مرة سمع دق الطبول وطلقات الرصاص ، وعن الرجل الذى جادل واحتج ، وعن احساسات لانى نفسه الفزعة • ووجد فى وصف هذه الاحساسات راحة فقد أنهار تكتمه الانجلوسكسونى فى هذا المكان المحدود الذى كانت الصحبة البشرية فيه كل ما يملكه المرء فيجب أن

يتقدم بنصيبه من الترفيه ان كان يتـوقع من آخرين أن يقدما له شيئا من ذلك

- ٢ -

كانت الصـحف ممنوعة في السـجن خلال هذه الأزمة ، ولكنك تستطيع الحصول على كافة الأشياء ان كنت تملك الثمن ، وقد استطاع المجرى أن يحصل على « صحيفة ميونيخ » الصادرة يوم الاثنين ٠ وسمح للانى بالقاء نظرة عليها وهو واقف لصق الحائط الذى به الباب كى يكون بعيدا عن مجال نظر اى سجان يمكن أن يطل من الفتحة المربعة فى الباب ٠ فان شرع السـجان يفتح قفل الباب سمعه لانى ودس الصحيفة تحت الحشية أوحشا بها بنطلونه ٠ وفى هذه الظروف الرومانسية طالع لانى العناوين المتأججة لحديث بالراديو أخبر فيه صديقه يوسف جوبلز الشعب الألمانى بقصة يوم السبت الفظيع الذى أصطبغ بالدم والفزع وكان يوبشن (تدليل يوسف) ينتقل فى بلاد الراين مع الفوهرر لتفقد معسـكرات العمل بكل دقة ثم أخذ يسرد التفصـيلات بروح الميلودراما الممزوجة بالخشوع الدينى الذى يقضى عليه واجبه بأن يبثه فى الشعب الالمانى ٠ فقال يوبشن الصغير الملتوى « انى لم أزل أرى صورة زعيمنا وهو واقف فى منتصف الليل من مساء الجمعة على شرفة فندق الراين فى جودسبيرج ، وفى الميدان المكشوف فرقة موسيقى مؤسسة رعاية العاملين بغرب ألمانيا تعزف أنغامها ٠ وتطلع الفوهرر بنظرة جادة متأملة الى السماء المظلمة التى تكشفت عنها عاصفة رعدية منعشة ورد برفع يده التحيات الحماسية التى وجهها اليه شعب الراين ٠٠٠ وفى هذه اللحظة حاز اعجابنا أكثر من أى وقت مضى ٠ فليست هناك اختلاجه واحدة فى محياه تنم على أيسر دليل على مايدور فى أعماقه ٠ ومع هذا كنا نحن الاشخاص القلائل الذين نقف معه فى جميع الساعات العصيبة نعلم مدى عمق أحزانه ومبلغ اصراره على سحق المتمردين الرجعيين بغير رحمة ، أولئك الذين يحاولون دفع الوطن الى الفوضى ، ويحنثون بيمين الولاء له تحت شعار القيام بثـورة ثانية » ٠

وتصل رسائل عاجلة من برلين وميونيخ تقنع الفوهرر أن من واجبه أن يعمل فورا ، فيلقى أوامره تليفونيا بالقضـــاء على المتمردين ، وهكذا « بعد نصف ساعة غـادرت طائرة ثقيلة ذات ثلاثة محـركات من طراز

يونكرز مطارا قرب بون واختفت فى ضباب الليل • ودقت الساعة دقتين، والفوهرر يجلس صامتا بالمقعد الامامى بقمرة الطائرة يحدق بنظرات ثابتة فى الظلمة العظيمة المترامية » • وما أن وصلوا الى ميونيخ فى الساعة الرابعة صباحا حتى وجدوا ان زعماء الخيانة قد ألقى القبض عليهم فعلا • « وفي جملتين مقتضبتين تفيضان استنكارا وازدراء ألقى هتلر عارهم كله فى وجوههم الجزعة المرتكبة ثم تقدم نحو أحدهم ونزع رتبته من كسوته الرسمية • وكان المصير القاسى الذى يستحقونه بجدارة فى انتظارهم بعد الظهر » •

وعلم أن مركز المؤامرة كان وسط الجبال فتم جمع فرقة كتائب الامن ذوى القمصان السود المخلصين ويقول الدكتور يوبشن « وبسرعة رهيبة اتجهوا الى فييسى » ثم وصف وصفا مثيرا ذلك الركب الليلى الجامح ، بحيث استطاعوا فى السادسة صباحا » دون أدنى مقاومة أن يدخلوا البيت ويفاجئوا المتآمرين الذين ما زالوا نائمين وايقظناهم على الفور وتولى الفوهرر بنفسه عملية القاء القبض بشجاعة لا نظير لها ••• وأعفى نفسى من وصف المنظر المقزز الذى رأيناه أمامنا • وقد عبر جندى بسيط من ذوى القمصان السود فى استنكار شديد عن افكارنا بقوله : أتمنى لو انهارت هذه الجدران الآن ليرى الشعب الالمانى كله هذه الفعلة « ومضى الخطيب يخبر الناس بما كان يجرى فى برلين : « ورفيقنا فى الحزب الجنرال جورنج لم يتردد لحظة ، وبيد ثابتة قضى على وكر للرجعية بمن كان فيه من الانصار الفاسدين الذين لا خلاق لهم ، واتخذ خطوات قاسية الا أنها ضرورية لانقاذ الوطن من كارثة لا حد لها » •

وتلت ذلك حملة تشهير فى نهرين من الصحيفة استخدم فيها وزير الرايخ للارشاد القومى والدعاية نعوتا كثيرة أثنى بها على نبل زعيمه وبطولته ، « فهو قد أظهر مرة أخرى فى هذا الموقف الحاسم أنه رجل حقا • » واستخدم نوعا مختلفا جدا من النعوت وصف بها « العصابة الصغيرة من المخربين المحترفين » بؤرة الصديد ، أهل الفساد والتعفن ، وأعراض المرض والانحلال الخلقى الذين يتبجحون باظهار أنفسهم فى الحياة العامة ولكنهم الآن قد احترقوا وانتهى أمرهم » وختم يوبشن بقوله « وبقى الرايخ وفوق الجميع الفوهرر » •

- ٣ -

كانت هذه هي القصة التي رويت للشعب الالماني • ولاحظ لانى ظاهرة عجيبة وهي أن القزم الصغير لم يذكر ولا مرة واحدة اسم ضحية من ضحايا حركة التطهـــير • بل ولم يذكر صراحة أن أحدا قد قتل • فخطبته كنموذج للخيال الشعبي يمكن ان توصف بالتدفق ، أما من حيث الحقيقة التاريخية فلا تحتل مكانا عاليـــا • واستطاع لانى أن يتأكد من أكذوبة واحدة ، فهو يعلم أن هوجوبير قتل بالرصاص بعد دقائق قليلة من تمام الساعة التاسعة من مساء الجمعة أى بثلاث ساعات على الأقل قبل أن يصدر الفوهرر أوامره على حسب رواية جوبلز • وكان السجن يموج بحكايات عن أشخاص آخرين قتلوا أو قبض عليهم قبل منتصف الليل • والواقع أن نفرا منهم جيء بهم الى هذا المكان بالذات • فبديهى اذن أن شخصا ما أصدر الأوامر القاتلة في حين كان الفوهرر لايزال قائما بتفقد معسكرات العمل • ومن المعروف تماما أن جورنج كان قد طار الى بلاد الراين مع سيدة ، ثم طار راجعا الى برلين • فهيرمان هو القاتل • وهو رجل العمل الذى اتخذ « خطوات قاسية ولكنها ضرورية » في حين كان آدى لايزال مترددا يجادل ويصيح في أتباعه ويهددهم بالانتحار ان لم يطيعوه ويرتمى على الارض ويعض البساط في هستيريا من الذهول أو من الغضب • واتضح في ذهن لانى هذا التصور للقصة الحقيقية لحمام الدم • فجورنج جلس بجوار أذن هتلر في الطائرة وراح يفزعه بحكاياته عما اكتشفه الجستابو ، وبعد ذلك أصدر من برلين الأوامر • وبعد أن بات من المستحيل الرجوع فيها أو نقضها اتصل تليفونيا بالفوهرر الى ميونيخ ليظهر « شجاعة لا نظير لها » وليبدو أمام الشعب الالماني الساذج « رجلا حقيقيا » •

ويقول البلاغ الرسمي أن القتلى لم يتجاوزوا خمسين شخصا في ذلك الارهاب الذى دام ثلاثة أيام وأربع ليال ، ولكن اللغط في سجن أتشتراسى كان يقول ان الضحايا في ميونيخ وحدها عدة مئات ، واتضح أن عددهم في المانيا كلها يقـــرب من الف ومائتين • وجعل السجناء يتناقشون باستضافة في هذه الأكاذيب الرسمية حتى صار السجن من كثرة الطنين كخلية النحل ، وحطم الفضول البشرى الحواجز بين السجانين والمسجونين ، فصار كل من الفريقين يهمس بالأنباء الى الفريق الآخر • ومتى بدأ خبر في التداول حملته الألسنة الناشطة الى كل مكان في تلك

المؤسسة . وكان المفروض أن يمشي المرء في الدهاليز بمفرده ولا يتكلم ، ولكنك كلما مررت بسجناء آخرين همست لهم بشيء . وان كان الخبر طريفا ففي وسعك أن تتقاسمه مع أحد الحراس . وفي فناء الرياضة كان المفروض أن يسير النزلاء صامتين ، ولكن من خلفك يتفوه بخبر فتنتقله الى من امامك . وعندما تكون في زنزانتك تسمع أصوات نقر على الخشب أو الحجارة أو المعدن يستمر طول النهار ومعظم الليل . والنقر السريع للخبراء والبطيء للقادمين الجدد . وفي الزنزانة التي تحت لاني مباشرة شخص يدعى الهر دكتور ابورماير، وهو مدير وزارى سابق لولاية بافاريا، ومعروف جيدا للهركلاوسن . ويشارك من فوقه في أنابيب المياه ، وكان لا يمل من النقر . وتعلم لاني الشفرة فعرف قصة الهر دكتور ويلي شمت الناقد الموسيقى لصحيفة آخر الأنباء ورئيس جمعية بيتهوفن ، وهو من ألطف الناس كما يقول الهر كلاوسن ، وكل ما فيه موسيقى جسدا وعقلا وروحا . وكان لاني قد طالع تعليقه على عزف سيمفونية البطولة لبيتهوفن وغير ذلك من المقالات التي دبجها قلمه وقد حضر رجال كتائب الامن من : ذوى القمصان السود للقبض عليه ، ولما عرف انهم يظنونه قائد الكتيبة ويلي شمت ، وهو شخص مختلف عنه تماما ، راقه هذا الموقف وطلب من زوجته وأطفاله الا ينزعجوا ، ومضى مع النازى ولكنه لم يعد . ولما اتصلت زوجته المرتاعة صياحها تلقت من رئاسة الشرطة شهادة وفاة بتوقيع عمدة بلدة داخاو يقول فيها ان غلطة يؤسف لها جدا قد وقعت وانهم سيتخذون كل مايلزم لعدم تكرر وقوعها .

حكاية وراء حكاية ، كلها غاية في الاثارة وغاية في الرعب ! كان ذلك شيئا خرافيا حقا جديرا بالعصر البيزنطي ! فالمستشار السابق فرانس فون بابن الذى لم يزل عضوا في مجلس الوزراء هوجم في مكتبه وكسرت بضعة من أضراسه ، وهو الآن محدد الاقامة في بيته وحياته مهددة ، والعجوز فون هندنبورج المريض على شفا الموت يحاول انقاذ « زميله العزيز » . أما ادجار يونج صديق بابن الذى كتب له خطبته المسيئة التي طالب فيها بحرية الصحافة فقد قتل رميا بالرصاص هنا في ميونيخ . وجريجور شتراسر خطف من بيته وضرب حتى الموت بيد رجال كتائب الامن في جرونفالد . والجنرال فون شليخر وزوجته خرق جسداهما بالرصاص على درجات سلم فلتهما . وكارل آرنست قائد كتائب الهجوم في برلين ضرب حتى فقد الوعي وأخذ الى المدينة . وقرر رئيس أركان حربه أن جورنج جن ولاشك فطار الى ميونيخ ليرفع الأمر الى هتلر ، فأعيد الى برلين وقتل رميا بالرصاص مع سبعة من معاونيه . وفي ليشترفلت

في فناء المدرسة الحربية القديمة عقدت محاكم تحت رئاسة جورنج معدل كل محاكمة سبع دقائق ، ثم يقف الضحايا أمام حائط ويطلق عليهم الرصاص وهم يصيحون « هايل هتلر ! » .

- ٤ -

وحوالى نصف السجانين فى هذا السجن من رجال العهد القديم والنصف الآخر من رجال كتائب الهجوم ، وبين الفريقين تحاسد شديد . والفريق الأخير لا يدرون متى تنقض عليهم الصاعقة ، ولذا احسوا لأول مرة احساس الزمالة نحو سجنائهم . فان حظى سجين بزائر وحصل منه على معلومات جديدة أراد كل واحد أن يقاسمه اياها ، ويختلق الحارس مبررا للقدوم الى الزنزانة ليسمع ما عنده . وهكذا فى الحقيقة غدا سجن شرطة ميونيخ القديم مكانا اجتماعيا مثيرا بصورة بهيجة ! وقرر لانى أنه ما كان ليفوته ذلك بأى ثمن . وتضاءلت مخاوفه الخاصة وقرر أنه بمجرد انتهاء العاصفة سيجد أحدا من ذوى السلطان وقتا لديه لسماع أقواله واكتشاف الخطأ الذى وقعوا فيه . وربما كان آسروه الثلاثة قد وضعوا نقود هوجو فى جيوبهم وفى هذه الحالة لن يكون هناك دليل ضد لانى نفسه ، فليس أمامه الآن سوى أن يقبع فى هذا الجحر الذى يفضل سابقه ويقضى وقته فى دراسة الطبيعة البشرية ، ولا سيما طبيعة النازى .

ونزلاء السجن جانب منهم مجرمون عاديون ، ما بين لصوص ومحطمى خزائن ومرتكبى جرائم جنسية ، أما الجانب الآخر فمشبوهون سياسيون او ممن وقفوا فى طريق مسئولين من ذوى النفوذ . ويا له من وضع غريب يجمع بين سجين قد يكون مبتز اموال وبين سجين آخر ضحية ابتزاز فى سجن واحد وباسم قانون واحد كما هو مفروض ! ويجمع بين رجل اقترف القتل وآخر جريمته أن رفض اقتراف القتل أو احتج على القتل ! وكان فى وسع لانى أن يجمع ملفا كاملا من هذه المتناقضات القانونية ولكنه لم يجسر على تدوين المذكرات بها ، وكان حريصا على الا يقول شيئا يمكن ان يسيء الى أحد ، فمن المرجح أن المكان غاص بالجواسيس ولئن بدا وزميلاه فى زنزانته سجينين حقيقيين ، الا أن كليهما او أحدهما كان من الجائز انه اختير للتجسس لمظهره ذاك . والكونت المجرى رفيق مرح يروى حكايات مسلية عن علاقاته الغرامية وله ولع بلعبة الهلما ، فتعلمها لانى ارضاء له . ورجل الأعمال الهر كلاوسن كان يروى حكايات يدلل بها على استحالة ادارة أى عمل بأمانة فى الظروف الراهنة . ثم يسأله : « الديكم

اشياء من هذا القبيل فى أمريكا ؟ » فيجيبه لانى : « ابى كثير الشكوى من رجال السياسة » . ويروى طرفا من حكايات روبى وانقا بأنها لن تلحق به ضررا فى ألمانيا . واعرب الهر كلاوسن عرضا عن اعتقاده بأن الحديث عن مؤامرة ضد هتلر كلام فارغ ، فكل ما فى الأمر احتجاجات ومناقشات. وكذلك الحديث عن صدمة الفوهرر لما اكتشفه فى الفيلا ببلدة فييس هراء ، لأن كل انسان فى المانيا كان يعلم أمر رهم وغلمانه ، وكان الفوهرر يضحك مما يسمع . وهذا المواطن الفاضل من أبناء ميونيخ يكره من كل قلبه من يسميهم بالبروسيين ويعتبرهم غزاة ومصدرا للفساد . وهذه بطبيعة الحال اقوال خطرة للغاية وقائلها اما أن يكون جريئا او مخبولا . فكان لانى يقول : « ليس لدى أساس ابنى عليه رأيى ، ونظرا لظروفى افضل ألا احاول تكوين رأى » . ويعود الى لعبة الهلما مع المجرى والى جمع النوادر ذات اللون المحلى التى قد يتسنى لاريك فيفيان بوميروى ان يستخدمها يوما ما فى مسرحية يؤلفها .

- ٥ -

كان لانى قد قضى ثلاثة أيام ضيفا على ولاية بافاريا ، وقضى الآن عشرة أيام ضيفا على مدينة ميونيخ . ثم فى نهاية يوم من الأيام أقبل حارس ودود وقال له : « تعال من فضلك يا هريد » ولا جدوى من القاء الأسئلة لأن الحراس لا يعرفون شيئا . وعليك حين تغادر زنزانة أن تقول وداعا لأنك لا تعلم هل تعود اليها أم لا . والبعض يذهبون الى حريتهم وآخرون يذهبون الى حيث يضربون حتى يفقدوا الرشد وغيرهم يذهبون الى داخاو أو الى غيره من المعسكرات . وسبق لانى فهبط سلما الى مكتب وجد به شابين من ذوى القمصان السود أريبين مهذبين ينتظرانه فسره أن يجدهما غير الذين قبضوا عليه . وأقبلا عليه ، وقبل أن يدرك ماحدث تناول أحدهما معصمه وأقفل عليه قيدا حديديا ، أما السوار الآخر من هذا القيد فكان يحيط بمعصم ذلك النازى الشاب . وادرك لانى أن لا جدوى من الاعتراض . وقاداه الى الفناء حيث رأى سيارته الخاصة وقد جلس الى عجلة القيادة رجل آخر من ذوى القمصان السود فى الكسوة الرسمية . وفتح الباب الخلفى وقيل له : « اركب من فضلك » فسأل : « هل لى أن أسأل الى أين تأخذانى ؟ » . فكان الجواب : « ليس الكلام مسموحا به » . فركب وانطلقت السيارة الى الشارع الواسع الذى تظلله الأشجار من

جانبيه الى مدينة ميونيخ فاجتازتها السيارة مخترقة وسطها الى وادى الايزار فى الشمال الشرقى منها ٠

والمنظر فى الليلة المظلمة غامض ومصابيح السيارة تضىء الطريق الممتد امامها ولكن من المستحيل تخيل ما على اليمين أو على اليسار ٠ وما لم تكن قائما بالقيادة فلن تعرف بالتأكيد هل السيارة تصعد التل أو تهبطه ٠ الا أن النجوم كانت فى مواضعها المحددة ، ولذا استطاع لانى أن يعرف انهم متجهون شمالا ٠ ولانه سبقت له القيادة فى هذا الطريق كان يعرف المعالم واللافتات ٠ فلما وصلوا الى رجنسوبرج والسيارة لم تزل ماضية بكل سرعتها ضمن أن وجهتهم برلين ، وقال لنفسه : « هناك سيجرى التحقيق معى » ٠ فامامه اذن ليلة أخرى يعمل فيها فكره ثم بعد ذلك يواجه السلطة الجبارة المعروفة باسم شرطة الدولة السرية ، وهى سلطة احلك من أى ليل وارهب من كل ما يمكن أن ينطوى عليه الليل ٠

وكان السجين قد حظى بقسط وفير من النوم فى السجن فاستغل وقته فى تخير ما يبرئه من الجريمة ويبعده عنها ٠ ولكنه كلما امعن فى المحاولة ازداد ارتباكه سوءا ٠ فلا بد انهم اكتشفوا قيامه بسحب ثلاثين الف مارك من بنك هلشتاين بميونيخ ، ولا بد انهم عرفوا انه دفع الجانب الاكبر منها الى هوجو ، ولا بد انهم عرفوا ان جهودا قد بذلت لاخراج فريدى من داخاو ، وذلك كله من شأنه أن يضفى الاثم على لانى ٠ فبدا له الاتجاه الوحيد المشبع بالامل أن يكون صريحا ساذجا فيضحك ويقول « لقد تقاضى الجنرال جورنج من يوهانس روبن ثروته كلها ليطلقه ، واستخدمنى وكيلا له فى هذه العملية ، فمن الطبيعى أن اظن هذه هى الطريقة ٠ لما عرض على هوجو القيام بالعملية مقابل ثمانية وعشرين الف مارك فقط ظننتها صفقة رابحة » ٠

وفى الفجر الباكر ، حينما لم يكن أحد فى الشوارع سوى موزعى اللبن وفصائل البنادق الآلية من رجال شرطة برلين دخلت سيارة لانى المدينة ومضت الى حى من احياء العمال خيل اليه انه الحى الموآبى ووقفت أمام بناء كبير من الطوب الاحمر ٠ ولم يكن يتسنى له ان يرى لافتات الشوارع ، ولم يجشم أحد نفسه أن يخبره بها ٠ فهل هذه ثكنات النازى الرهيبة فى شارع هديمان التى تحدث عنها اللاجئون وهم يرتجفون ؟ أم هو بيت كولومبس الشهير ؟ ام لعلها رئاسة الشرطة العسكرية وهى اشد الجميع ارهابا ؟

وقال القائد « انزل من فضلك » . والحق انهم كانوا مهذبين للغاية الا انهم لم ينطقوا بكلمة واحدة لاضرورة لها لا له شخصيا ولا فيما بينهم. فهم آلات . وان كانت بداخلهم روح فلا بد انهم خجلون منها أشد الخجل. انهم يحاولون الدخول فى جيش الرايخ ، وهذه هى الطريقة .

ودخلوا المبنى . ومرة أخرى لم يتوقفوا لتسجيل السجين بل ساروا به فى خطوات عسكرية على طول دهليز ثم هبطوا به سلما من الصخر الى قبو . وفى هذه المرة لم يكن لدى لانى شك ، ثمة رائحة دم ، وصرخات فى مكان ما عن بعد . ومرة أخرى جازف بالسؤال عن سبب اعتقاله ، وماذا سيصنعون به ؟ وفى هذه المرة تنازل القائد الشاب بالرد « أنت متحفظ عليك لمصلحتك الشخصية فهم يخبرونه اذن انه واحد من اولئك الاشخاص المائة الف بين المان واجانب المحبوسين لمصلحتهم الشخصية لحمايتهم من وصول الاذى اليهم . فالح لانى قائلا باحسن أسلوب اجتماعى « ولكنى لم أطلب التحفظ على لمصلحتى . وانا مستعد تمام الاستعداد للمجازفة بنفسى فى الخارج » . فان كان لدى أحد منهم حاسة فكاهة ، فليس هذا مكان اظهارها . فثمة صف من الابواب الفولاذية ، وفتح أحدها ، ولاول مرة منذ واجه الرجلان لانى فى سجن ميونيخ نزع القيد من معصمه وزج به الى زنزانة مظلمة وسمع الباب يصفق خلفه .

- ٦ -

وتكررت قصة شتادلهايم بعينها ، الا ان المسألة الآن كانت أكثر جدية ، لأن وجوده هناك كان مصادفة ، اما هنا فهو مقصود بعد انقضاء أسبوعين فى التحرى . فمن المستحيل الشك فى ان مأزقه من أخطر ما يمكن . واستولى عليه الخوف استيلاء تاما فحول عظامه الى عجائن . وجعل يلصق أذنه بالثغرة التى فى الباب فلا يخالجه الشك فى انه سمع صراخا وبكاء ، ويضع انفه على تلك الفجوة فيوقن بأنه شم تلك الرائحة التى تقترن فى ذهنه بدور ذبح الحيوانات . فهو فى احد تلك الاماكن الفظيعة التي قرأ عنها وسمع بها ، حيث يقوم النازى بطريقة منهجية بتحطيم ابدان الرجال وارواحهم ، نعم وابدان النساء وارواحهن ايضا . فقد راى فى الكتاب البنى صورة فوتوغرافية لمؤخرة عارية لامرأة بدينة عجوز كانت مستشارة فى لجنة المدينة فى الحزب الديموقراطى الاشتراكى

وقد ظهرت فيها من كتفيها الى ركبتيها مجموعة كبيرة من الخطوط التي تدل على أنها ضربت بطريقة علمية ٠

انهم لن يجشموا انفسهم سؤاله او يعطوه فرصة يروى فيها قصته ، بل سيفترضون سلفا انه سيكذب ، ولذا سيعاقبونه اولا حتى يكون اقرب الى قول الصدق فيما بعد ٠ ام لعلهم يريدون تخويفه فقط ؟ ولذا وضعوه حيث يستطيع ان يسمع الاصوات ويشم الروائح ويرى ما يلين عزيمته ٠ لقد حدث هذا التأثير فعلا ، فقرر انه لا جدوى من محاولة اخفاء شيء أو الادلاء بكذبة واحدة ٠ ورأى ماضيه بأكمله ككتاب مفتوح أمام المحقق الجنائي ، وانه لماض سيء جدا حقا من وجهة نظر النازى ، كل جزء منه يضاهي فى السوء ما جلب على فريدى روبن حوالى أربعة عشر شهرا من التعذيب ٠

وأيا كان ما اعدوه له فسيقع الآن ٠ فها هى خطوات فى الدهليز تتوقف أمام بابه ٠ وفتح الباب ورأى رجلين من ذوى القمصان السود ٠ رجلين جديدين ، فثمة مدد منهم لا حد له ، وكلهم من ذوى الوجوه الصارمة ، وكلهم يتكلمون لغة الدم والحديد ٠ قمصان سود وسراويل سود وأحذية سوداء لامعة ، ويتدلى من الحزام مسدس آلى وهراوة صلبة من المطاط ٠ أجل ان مددهم من هذه الاشياء أيضا لا حد له فيما يبدو ٠

واخذه الرجلان من ذراعيه وقاداه فى الدهليز ، ودلته سحنتهما وجوهما كله على ان ساعته دنت فلا جدوى من المقاومة ، بدنيا على الاقل ، لانهما سيجرانه ويزيدان له النكال ٠ وشعر بموجة غضب مفاجىء ، فكره هذه المخلوقات الأحط من البشر ، وكره اكثر من ذلك النظام الجهنمى الذى خلقهم ٠ فلا بد أن يسير قدما رغم ارتجاف ركبتيه ، ولا بد من شد قامته فلا يشمتهما برؤيته متخاذلا وغرس اظافره فى راحتى يديه وجز على اسنانه ومشى صوب ما ينتظره ايا كان خلف ذلك الباب القائم عند نهاية الدهليز ٠

- ٧ -

تلاشت الاصوات عندما اقترب لانى ، ولما فتح الباب لم يسمع الا تأوهات خافتة ورأى رجلين يقودان رجلا مضروبا الى فتحة باب فى الطرف الاقصى للحجرة ٠ وفى العتمة لم ير الا اشكالا باهتة ، ورأى شكلا منها

ملقى على الارض فى الحجرة الداخلية ويبدو انه كان بهـا اناس كثيرون من ضحايا التعذيب ، فالانين والصراخ يأتيان من هناك كأنما يتصاعدان من قسم من جحيم دانتي والاصوات كأنها منبعثة من باب متصل يصاحب جميع الاحداث الجهنمية التى شهدها لانى فى حجرة الرعب هذه • ومساحة الحجرة نحو خمسة عشر قدما مربعا وارضها من الخرسانة وجدرانها من الصخر ، وهى بلا نوافذ وبلا اضاءة فيما عدا ست من الشموع • وليس بها من الاثاث الا شيء واحد عبارة عن دكة من الخشب الثقيل طولها نحو ثمانية أقدام وعرضها قدمان موضوعة فى منتصف الحجرة وهذه الدكة الخشبية ملطخة من أولها الى آخرها بدماء تقطر منها ، وقد انتشر الدم على مساحة الارض كلها ، وفى الهواء رائحة نتنة لدم جاف تبعث على الغثيان • ثمة ايضا رائحة حريفة قوية من عرق البشر ذات طابع نشادرى • ووقف اربعة من النازى قرب الدكة عارين حتى الخاصرة • ومن الواضح انهم كانوا قد انهمكوا طويلا فى العمل الشاق السريع لان اجسادهم الناعمة كانت تلمع بالعرق والدهن رغم خفوت الضوء • ووقف بقربهم عدد آخر من النازى ورجل فى ثياب مدنية على عينيه نظارة •

كان لانى قد قرأ عن هذا كله • فكل معاد للنازية حفظه عن ظهر قلب فى السنة والنصف المنقضية وادرك الموقف كله بنظرة واحدة ، حتى تلك القضبان النحيلة المرنة من الفولاذ ذات المقابض التى صنعت بحيث تسـبب أكبر مقدار من الالم مع أقل عطب دائم • فان انت تسبب فى عطب كبير حرمت من لذة التسبب فى مزيد من الالم • ثم انك قد تفقد بذلك دليلا هاما • وكان لانى قد قرأ عن ذلك وسمع عنه وفكر فيه وتساءل كيف يتقبله • والآن قد حان الوقت ليعرف ذلك على التحقيق • والذى حدث أن موجة من الغضب الشديد اجتاحته ، الغضب على هؤلاء الشياطين المدربين علميا ، غضب يغرق فى تياره جميع المشاعر الأخرى • لقد كرههم حتى فقد كل تفكير فى نفسه ، ونسى كل خوف وكل الم متوقع • انهم يريدون تحطيم مقاومته • ليـكن ! سيريهم انه فى مثل قوتهم وسـيأبى عليهم لذة ان يروه يضعف أو أن يسمعوه يصرخ • وكان قد قرأ عن الهنود الامريكيين اعتزازهم بأنهـم لا يتأوهون مطلقـا تحت التعذيب • وما يستطيعه هندى أمريكى يستطيعه أى أمريكى • فهذا شيء فى المناخ وفى تربة الارض • ووالد لانى قد غرس فيه هذا الاعتزاز وهو صبى ، وقد ساعد على ذلك بب سميث وجيرى • وصمم لانى على ان فى اسـتطاعة

النازى أن يقتلوه ، ولكنهم لن يظفروا منه بكلمة واحدة ولا بصوت واحد· لا الآن ولا فيما بعد · اذهبوا الى الجحيم وامكثوا فيه ! ·

وكان الجو حارا فى هذا الجحر تحت الارض ، ولعل هذا هو السبب فى تجمع العرق على جبين لانى وجريانه الى داخل عينيه ، بيد انه لم يمسحه ، لان ذلك قد يفسر بانه علامة على الفزع أو الاضطراب ، وفضل الوقوف متصلبا كأنه جندى ، على نحو ما رأى النازى يصنعون · وادرك الآن ماذا يعنون بذلك · ليكن سيتعلم أسلوبهم الفنى وسيغدو متعصبا مثلهم · لا ينبغى أن تتحرك فيه عضلة ، ولا بد أن يبدو محياه صلبا وقد تحول الى كتلة من الصخر من فرط التحدى · ان ذلك ممكن · وما أكثر ما قال لنفسه طيلة حياته انه رخو ، ولم يكن راضيا عن نفسه من مائة وجه ، وها هنا سيصلح من نفسه ·

وتوقع ان يأمروه بخلع ثيابه ، وتأهب لذلك · واخذت عضلاته تؤلمه لفرط استجماعها استعدادا للبداية · ولكن لا · يبدو انهم كانوا يعرفون ذلك ، فعلمهم قد اكتشف رد الفعل لديه بالضبط ، وعندهم طريقة اخفى من هذه للتعذيب · سيبقونه فى الانتظار برهة الى أن تنقضى حالة الغضب الشديد ، والى ان يتسع الوقت لمخيلة كى تؤثر ف أعصابه · والى ان تتمكن طاقة الروح ــ او ايا كانت حقيقتها ــ من استنفاد ذاتها · وقاده الرجلان اللذان احضراه الى أحد جوانب الحجرة لصق الحائط وهناك أوقفوه وكل منهما على أحد جانبيه ، كأنما تمثالان ، وهو ثالثهما ·

- ٨ -

وفتح الباب مرة أخرى ودخل ثلاثى آخر : اثنان من ذوى القمصان السود يقودان مدنيا مسنا أقرب الى البدانة ، ريان الجسم ، ذا شارب اشيب ولحية مدببة شيباء مشذبة تشذيبا أنيقا ، تدل ملامحه على انه يهودى · وتدل ملابسه على انه رجل اعمال · وفجأة اجفل لانى على الرغم من كل ما عقد العزم عليه · فقد سبق له التحدث الى هذا الرجل ، والضحك منه لما يحمله من شبه مضحك من حيث زينة محياه الكثيرة الشعر مع مواطن فرنسى بارز صورته واسعة الانتشار ، وهو الامبراطور نابليون الثالث · وتبلجت أمام عينى لانى قاعة الاستقبال الباهرة فى قصر يوهانس روبن ببرلين · حيث قامت بيوتى وايرما بواجبات الضيافة

فى رشاقة عظيمة وقد وقف هذا السيد المسن الملتحى يتجاذب الحديث مرتديا ربطة عنق بيضاء وسترة سهرة ذات ذيول · وفى قميصه أزرار ماسية انقضى عهد استعمالها فى أمريكا ، وفى عروة سترته مربع صغير من شريط أحمر هو علامة وسام لم يستطع لانى تمييزه ، ولكنه كان واثقا على كل حال من أن هذا الرجل هو سليمان هالشتاين صاحب البنك · ولكنه يبدو الآن انسانا مختلفا ، ففى عينيه دموع وفى وجهه فزع · انه يبكى ويتضرع ويخر على ركبتيه فيضطرون الى جره جرا « أقول لكم انى لم أفعل ذلك ! لا اعرف شيئا عن هذا الموضوع ! يا الهى ·· ياالهى ! لو كنت أعرف لقلت لكم ! الرحمة ! ارحمونى ! » فيقولون له « اذن خبرنا من الذى أخرج كل هذا الذهب من المانيا ! » فيجيب « لقد قلت الف مرة انى لو كنت اعرف لأخبرتكم · ماذا استطيع ان اقول غير هذا ؟ ارحمونى ! أنا رجل عجوز لا حيلة له ! » ·

وكان القائد على وشك تحريك اصبعه ليعطى اشارة البدء عند ما احدث لانى ضجة فامر الضابط باخراجه ·

- ٩ -

ولما عاد لانى الى زنزانته قال فى نفسه « الآن قد سجلت على نفسى العذاب وسيخترعون لى أسلوبا خاصا » · واكتشف ان غضبه أو الهامه أو كائنا ما كان سرعان ما انقضى · وأدرك فى الظلام والسكينة انه أتى عملا غاية فى الحماقة لن يفيد أحدا وسينزل به ضررا بليغا ولكن لا حيلة الآن فيما حدث ، ولا جدوى من النواح والحسرات ، ولا من تحويل عظامه مرة أخرى الى عجائن بل لابد له من استرداد حالة الغضب والعزيمة ، وان يتعلم كيف يثبت عليهما مهما حدث · وهذا تدريب نفسانى عسير جدا · وخيل اليه فى بعض الاحيان انه نجح ثم يسمع بعين عقله صفير هذه القضبان الفولاذية الرهيبة ، فاذا به يلقى نفسه وقد استولت عليه رجفة شائنة ·

كان الانتظار أسوأ ما في الامر · وكان يحسب انه سيشعر براحة عندما يفتح باب زنزانته ، ولكنه عندما سمع وقع الاقدام القادمة القى نفسه فزعا مرة أخرى ، وكان عليه ان يبدأ جهاده مع نفسه من جديد · ينبغي ألا يدعهم يظنون انهم قادرون على تخويف امريكي · وقبض راحتيه بشدة واطبق أسنانه وركز بصره في الدهليز فرأى في الضوء الخافت الرجل ذا القميص الاسود الذى كان قد قضى ليلة بطولها مشدود المعصم بالقيد اليه ، ومن وراء ذلك الرجل أطل من فوق كتفه وجه الملازم الاول فورت فنجلر وقد ارتسم عليه الاهتمام العميق · وقال الضابط الشاب « هريد ! ماذا صنعو بك ؟ » فكان على لانى ان يغير من مسلكه بسرعة البرق · فهو قد كان مشغولا بكراهية جميع النازى الا انه لا يكره هذا المتسلق الاجتماعي الشاب الساذج المتعبد ، وهتف بارتياح اشبه بالضراعة :

« يا سيادة الملازم الاول ! » اخرج » وراح يتفحص صديقه كانما يريد أن يرى هل به آثار من الايذاء واستطرد «ماذا صنعوا بك؟» فأجاب السجين مستردا أسلوبه الانجلو سكسوني « لقد اقلقوا راحتي جدا » « فهتف الضابط هذا منتهى سوء الحظ ! ان صاحب السعادة سيستاء جدا » فقال السجين وكذلك كنت أنا » فسأله الضابط » لماذا لم تبلغ الأمر الينا ؟ » فأجاب » لقد فعلت كل ما في وسعي كي يعلم احد بأمرى ولكنى لم أفلح » فهتف الآخر ملتفتا الى الرجل ذى القميص الاسود » « هذا حادث شائن ! وسينال بعض الناس جزاء رادعا » فاجاب الرجل تحت الامر يا سيدى الملازم الاول ! » فكان لهذه الكلمة تأثير مماثل لقوله » مرنى اطلق الرصاص على نفسي تجدنى مستعدا لذلك · » وقال الضابط للانى » الحقيقة ياهر بد انى لا أدرى كيف اعتذر » فأجاب » ان حضورك اعتذار كاف يا سيادة الملازم الاول ، فانت كما نقول في أمريكا بهجة للعين الرمداء » فقال الضابط بجد » انى آسف حقا أن تكون عينك رمداء » ·

فكأنما افاق لانى فجأة من كابوس · واكتشف ان كل تلك الامور

الفظيعة لم يكن لها وجود • وتبع لاني صديقه صاعدا السلم الصخرى الضيق ، ثم اكتشف انه لا لزوم لاجراءات شكلية كى يطلق سراحه اكثر مما احتيج اليه فى تلك الشكليات عند القبض عليه • ولا شك ان كسوة الضابط العسكرية تحمل علامة منحة السلطة • فلما قال « انى متحمل مسئولية هذا السيد » قال والقميص الاســـود « تحت أمرك يا سيادة الملازم الاول » •

وخرجا الى السيارة الرسمية التى كانت فى الانتظار ، وكان المطر يتساقط ، الا أنه فى نظر لانى لم يكن يوم ابدع من هــذا اليوم جوا • واضطر لانى لاغلاق عينيه لحمايتهما من الضوء ، الا انه استطاع دخول السيارة بغير معاونة • ولما استلقى فى المقعد الوثير جعل يناضـــل كى يستقر رأيه ايهما حقيقى : هذه الوسائد أم ذاك الجب ! فما لا شك فيه ان الاثنين لا يمكن ان يوجدا فى مدينة واحدة وفى عالم واحد •

الفصل التاسع والعشرون

اعمق من الدموع

- ١ -

كان لانى يعيش فى « كلايدوسكوب » ، وهو أنبوبة تنظر فيها لترى شكلا معينا ثم تهزها هزا يسيرا فيتلاشى هذا الشكل ويحل محله شكل آخر يختلف عنه كل الاختلاف . انه مستعد لأى شىء لأى شى حرفيا ، ولكن عندما سمع صديقه يأمر السائق الى مقر صاحب السعادة ثاب الى نفسه فجأة وعاد كما كان طول حياته : عضوا فى المجتمع الراقى ، يحس بموجبات اللياقة احساسا غرزيا لا مفر منه ، فاحتج قائلا « انك طبعا تأخذنى الى صاحب السعادة وانا بهذه الحالة ! أنظر الى ملابسى ! والى لحيتى ! » ومر لانى بيده فوقها وتساءل مرة أخرى أتراها شابت . فساله الضابط « وأين ملابسك يا هربد ؟ » فاجابه « أخر علمى بها انها كانت فى فندق بميونيخ » فقال الضابط « مسالة غير معقولة ساطلبها تليفونيا هذا الصباح » فقال لانى « ونقودى ؟ لقد اخذوها منى فى شتالهايم ولكنك أن ذهبت بى الآن الى فندق أدلون فانا واثق بأنهم سيصرفون الشيك الذى أوقعه » .

وتغيرت الأوامر ، وأسهم الضابط الشاب بسرور فى محاولة جعل صديقه يبدو فى مظهر بفضل ما لخدمة الفندق العصرى من قدرة سحرية . ففى حين مضى الضيف ليستحم قام أحد الخدم المدربين بتنظيف ثيابه ثم كيها ، وأسرع أحد السعاة الى قرب محل لبيع مستلزمات الرجال فأحضر له قميصا وربطة عنق ومنديلا . وجاء الحلاق فحلق له لحيته ، ولم يكن فيها شىء من الشعر الأشيب . وبعد نصف ساعة بتوقيت ساعة الملازم الأول - فلم تكن مع لانى ساعته - ارتد صورة كاملة للشاب الأنيق على أتم اهبة للقاء العالم أجمع ولقاء زوجته أيضا .

وكان الأمر مضحكا حقا عندما اقلتهما السيارة الى المقر الرسمى لوزير الرايخ رئيس وزارة بروسيا . ثم صعدا الى جناحه الخاص ، لذلك

الشخص الجبار تجل لهما في كل أبهة الأزياء التي يتيحها له منصبه : فبنطلون ازرق وبه شريط عريض ، وسترته من لون ازرق اخف من البنطلون وبها حزام ابيض ووشاح يعترض الصدر هابطا من احدى الكتفين • وثمة حبال ونجوم كثيرة ذهبية وعلامات فوق الكتفين تدل على رتبته • وكان اليوم قائظ الحرارة في منتصف يولية ، وكل هذه الشارات الفخمة وعلامات المناصب الرفيعة لا يمكن أن يطيقها الرجل البدين • ولذا علق هذه الحلة الباهرة على مقعد بقربه وجلس الى مكتبه في بنطلون قصير معرضا للأنظار كمية هائلة من جلده الأبيض الناعم الذى حبته به الطبيعة • وحبات العرق تطل من بشرته •

- ٢ -

وكان في نية الجنرال أن يأخذ نسكبة لانى بعد مآخذ الأبراكوميك المسلية وسط الأعمال البالغة الخطورة فصار على لانى أن يبدى روحا رياضية ويحذو حذوه • وصاح صاحب السعادة وهو يقبض على يد لانى قبضة شديدة أشعرته أن بنية هذا الرجل ليست كلها شحما « ولكن يا عزيزى هربد ! ماهذا الذى جرى لك ؟ » وأصر على سماع جميع المتاعب التي حدثت للفتى اللاهي وساله « هل كنت خائفا ؟ » فقال لانى « انتظر الى أن يحل دورك يا صاحب السعادة وسترى ان كنت لا تشعر بالخوف •» ولم يكن الأمر مضحكا فأجاب الرجل العظيم « من سوء حظك انه قبض عليك في أشد ساعات المرور ازدحاما • وفى حزبنا عدد من الافراد الجامحين كان من الضرورى أن نلقنهم درسا • وأظنهم وعوا الآن هذا الدرس تماما » •

وكان لانى قد فكر بعض الشيء وهو في حوض الاستحمام بالفندق • وقرر الا يثق بعد هذا بأى نازى • فليس من المحتمل أن رئيس الدولة البروسية لم يكن لديه علم بما يجرى لشخص يزعم انه صديقه • ويكاد لا يصدق العقل أن شرطته السرية برجالها الأكفاء فشلت في ارسال تقرير بذلك عنه في الاسبوعين الاخيرين • والاقرب الى العقل الف مرة أن يكون ما حدث للزائر الامريكى مقصودا لسبب ما ، ومقصود أيضا هذا التغيير المفاجيء في المعاملة وانفجار المودة والألفة ان النجاة في آخر دقيقة لا تحدث الا في الميلودراما ، ولا تاتى مصادفة بل لابد من تدبيرها بعناية وشرع لانى يشك في هذا الحل المفاجيء ولم يبقه الوزير رئيس وزارة بروسيا طويلا في حالة شك وانتظار • فعلى مكتبه كومة هائلة من الأوراق وهو

بطبيعة الحال رجل بدين مشغول ، فقد قال « طبعا ياهربد سنحت لك الفرصة لدراسة مؤسساتنا الجنائية دراسة مباشرة ، وكذلك وسائلنا فى معاملة المستغلين ! وتستطيع ان تشهد لنا بان هذه الوسائل فعالة . » فاجاب لاني « لم تسنح لى الفرصة لمراقبة النتائج يا صاحب السعادة » فقال كورنج « سأتخذ ما يلزم نحو احاطتك بها علما ان أحببت . ألديك اى فكرة من يكون ذاك اليهودى ؟ » فقـــال لانى « اتفق اننى قابلته فى مجتمع برلين » فسأله جورنج « ومن هو ؟ » فقال لانى « اسمه سليمان هلشتاين » . فقال جورنج « آه ! انه شيلوكنا ذو الشهرة العـــالمية . ستسنح لك الفرصة حقا كى تروى قصة مثيرة لاهتمام العالم الخارجى » فخطر للانى أن هذا الكلام تلميح مقصود فقال « تذكر يا صاحب السعادة انت طلبت مني الا اقول للعالم الخارجي شيئا عن موضوع يوهانس روبن. وقد مرت اربعة عشر شهرا ، ولم أزل عند موقفي » فقال جورنج « فطنت الى هذا يا هربد واقدر حكمتك ، ولكن الظروف الآن مختلفة تماما . ولدينا تعبير فى اللغة الالمانية مؤداه ان كل شيء يتوقف على الظروف وترجم لانى التعبير الألمانى الى الانجليزية فقال جورنج « وفى هذه الحالة يا هربد هل يضايقك كثيرا اذا اقترحت عليك أن تروى قصة ما رايته هذا الصباح ؟ » فقال لاني « ان هذا يثير دهشتي بعض الشيء يا صاحب السعادة » فقال جورنج « انها فكرة بارعة خطرت لى . أما زلت مهتما بصاحبك اليهودى ذاك ؟ » فقال لانى « ان كنت تعنى ابن يوهانس روبن فانا لم ازل شديد الاهتمام به يا صاحب السعادة » فقال جورنج « وهو كذلك ! انى اقدمه اليك فى مقابل خدمة صغيرة قد تقوم بها لى . اذهب الى باريس وأبلغ اعضاء اسرة هلشتاين بما رايته يحدث لمثلهم فى برلين . لعلك تعرفهم ؟» فقال لانى «الحقيقة انى أعرفهم معرفة جيدة» فقال جورنج « ساشرح لك الأمر . ان هذا اليهودى القذر نجح فى اخراج ثروة طائلة من ألمانيا . ولم يحالفنا الحظ كما حالفنا بالنسبة لروبن . فنحن لا نعلم أين هذه الاموال الآن . واسرته منتشرة فى جميع أرجاء أوربا كما تعلم ، وليس لنا الحق فى أموالهم ولكن فى نيتنا الحصول على أموال سليمان . على كل مارك منها . لأنها نقود المانية حتى ولو اضطررنا الى سلخ جلده حيا » فسأله لانى « أتريد منى أبلغهم هذا ؟ » فاجاب جورنج « أنت تعرف مايحدث . فليس عليك الا ان تخبرهم بما رايت بعينيك . وأبرز الواقعة أقصى ابراز تستطيعه » فسأله لانى « وهل أذكر لهم أنك طلبت منى أن أخبرهم ؟ » فاجاب جورنج « ان ذكرت لهم هذا ربما يشكون فى اخلاصك وصدقك . فيحسن ألا تشير الى . اخبرهم ببساطة ما حدث لك ومـــا ســـمعت ورأيت » .

فساله لاني « وعندئذ يا صاحب السعادة ؟ » فاجابه جورنج « عندئذ ساطلق سراح يهوديك الأثير لديك ٠ » فساله لاني « وكيف أجعلك تعرف اني قمت بدوري ؟» فاجابه جورنج «عندى عملائي وسيبلغونني بكل شيء٠ والقصة ستنتشر في انحاء باريس في مدى بضع ساعات ٠ وقص هذا مصلحة، ، لأن أثرياءنا المستغلين استقر في أذهانهم اننا لا نجرؤ على التعرض لهم ، وخيل اليهم انهم يستطيعون آمنين أن يستنزفوا باخراج هذه الاموال الألمانية دم المانيا حتى الموت » ٠ فقال لاني « ادركت مرادك يا صاحب السعادة ٠ وكيف أعرف أين احصل على فريدى روبن ؟ » فقال جورنج « اترك عنوانك في باريس مع فورت فينجلر ٠ وفي مدى يوم أو يومين من حديثك مع آل هتلشتاين سيتصل بك تليفونيا ويرتب شحن صاحبك اليهودى العزيز الى الحدود الفرنسية ، فهل يتفق هذا مع رغباتك ؟ » فأجاب لاني « نعم يا صاحب السعادة فلست أرى ما يحول دون استجابتي لطلبك » فقال جورنج « اتفقنا ! لقد سرني أن اقابلك يا هربد ٠ واذا خطر لك بعد تقليب الرأى أنك راغب في عقد مزيد من الصفقات معى تعال وقابلنى في أى وقت » فقال لاني « شكرا جزيلا يا صاحب السعادة ساضع اقتراحك هذا في ذهنى وقد اغتنم هذه الفرصة يوما ما » فقال جورنج « انما الغنم للشجعان ! » ونهض القائد البدين من مقعده لتوديع ضيفه الرجل ، وحياه بربتة مزلزلة على ظهره وعاصفة من الضحك المرح جعلت الزائر في شك من امره ٠ اهذا الضحك له أو عليه ٠

- ٣ -

وخرج لاني من حضرة ذلك النهاب نصف العارى واقلته السيارة بكل تهذيب ومجاملة الى فندقه وفي صحبته الضابط الشاب ٠ وبديهى ان أوراق لاني كانت قد أحضرت معه من ميونيخ ، لأن فورت فينجلر وضع بين يديه جواز سفره وماركاته الستة الآلاف مع تأشيرته بالخروج ، ووعد بارسال ملابس لاني ومتعلقاته الاخرى الى جوان ولم يتقدم الامريكى بالمطالبة بالنقود التي وجدت في جثة هوجوبير ! ٠

وكانت سيارته قد سلمت الى الفندق واكد له الملازم الأول أنهم قاموا بخدمتها على احسن وجه وزودوها بما ملأ خزانها من الوقود ٠ وافترقا حميمين ولم يمكث لاني في برلين الا ما يكفى من الوقت لأداء حساب الفندق وارسال برقيات الى راحيل في جوان والى أبيه في نيوكاسل والى

أمه وزوجته في انجلترا • وكلها بنص واحد : « مسافر الى كريون باريس بامل النجاح اخطروا الأصدقاء كل شيء حسن » • ولم يجسر على ان يقول أكثر من هذا ، الا فى برقية ايرما فقد رجاها أن تقابله فى باريس • وكان يعلم انهم كانوا حتما فى خوف فظيع عليه ، ولكنه لن يفسر شيئا قبل خروجه من المانيا وحصوله على فريدى • فمن الجائز أن النهاب التوتونى من الطراز العتيق قد يحصل على معلومات اضافية فيغـــير رايه • وآل هلشتاين فى باريس قد يعترفون ويذعنون ، اوقد يكتشف الجستابو فى ميونخ قصة محاولته اقتحام السجن • أو لعلهم وصـــلوا الى ذلك فعلا ولكن الوزير رئيس الوزارة بروسيا احجم بلباقة عن الاشارة الى الموضوع لا سبيل الى سبر غور ذلك المتآمر المحنك الذى يقتل الناس اعتباطا ! ففى أثناء الاسبوعين الماضيين الحافلين بالجنون والقتل وجد وقتا كى يفطن لوجود فتى امريكى لاه بين براثنة ودبر طريقة للاستفادة منه • وجعل لانى يرتجف رعبا كلما تذكر تلك الدقائق التى قضاها فى حجرة التعذيب • ولم يقلل من فظاظة هذه التجربة انه عرف الآن ان حضوره كان اخراجا مسرحيـــا الغرض منه الاستعانة به على استرداد بضعة ملايين من الماركات ، او ربما بضعة عشرات من الملايين منهـــا ، أخرجتها من ألمانيا أسرة ذلك المصرفى اليهودى •

- ٤ -

لم يشعر لانى بميل شـــديد الى قيادة السيارة ولكنه لم يشأ ان يتركها للنازى ، فانطلق بها بسرعة وذهنه مكتظ بالاهوال ، فلم يخفف عنه الامل الشيء الكثير • فالجنرال النازى الذى خدعه عدة مرات قد يكرر الخديعة وقد صح عزم لانى الآن على ان رغبته الحقيقية هى ايقاظ اوربا وتنبيهها مغزى ذلك الاختلال الاخلاقى الذى تفجر فى وسط هذه القارة • فالشعب الالمانى المرح وقع فى يد عصـــابة أفظع ما عرفه التـــاريخ من العصابات لأن افرادها مسلحون بالعلم الحديث • وردد لانى مشاعر ذلك الرجل البسيط من ذوى القمصان السود الذى روى جوبلز انه تمنى لو ان جدران مخدع نوم رهم تهاوت كى يرى الشعب الالمانى ما يجرى فى داخله • فلانى يتمنى ان تتهاوى جدران سجون المانيا كى يرى العالم أجمع ما يجرى بداخلها •

واجتاز الحدود فدخل بلجيكا فى الساعات الاولى من الصباح واتجه الى فندق فنام نوما راودته فيه أتعس الاحلام ، ولما استيقظ وتناول شيئا

من الافطار شعر بتحسن واتجه الى التليفون · فثمة شخص لا يستطيع أن ينتظر أكثر من هذا سماع صوته وهذا الشخص هو جيرى بندلتون فى كان ان كان موجودا فى كان · وصح ما قدره لانى فكان صوت صديقه أشد الاصوات اثلاجا لصدره · وقال لانى « أنا فى بلجيكا وبخير · وأريد ان تجيب عن بضعة أسئلة بدون ذكر أسماء » · فقال جيرى بلهجته الغنائية « وهو كذلك » فسأله « هل رأيت صديقنا ذلك المساء ؟ » فأجاب « رأيتهم يحضرونه ولكن أحدا لم يأت لتسلمه » فسأله « فماذا حدث عندئذ ؟ » فأجابه « أعتقد انهم عادوا به فلم تكن لدى وسيلة للتأكد ، ولم أستطع ان أصنع شيئا · وقد حدثتني نفسي بالمحاولة ، ولكنى لم أدر كيف أخرج من هناك بدون سيارة » فقال لانى « لقد خشيت ان تكون قد حاولت · هذا افضل · لدى وعد وشيء من الأمل » فقال جيرى « لقد قلقت عليك حتى الموت وذهبت الى السلطات الامريكية وأبلغت عن غيابك· وعدت اليهم مرة بعد الاخرى · وأظن الرجل فعل كل ما فى وسعه ، ولكنهم كانوا يصرفونه فى مراوغة » فقال لانى « كان الامر خطيرا ولكنه الآن على ما يرام ماذا فعلت بعد ذلك ؟ » فأجاب « لم أستطع أن افكر فى شيء أصنعه لك فرحلت لأبلغ الاسرة · فطلبوا منى العودة الى البيت لأنتظر الأوامر · وهذا ما صنعته · مرحى يا فتى ! انى سعيد لسماع صوتك ! أواثق انت انك على ما يرام ؟ » فأجابه « ليس بى خدش واحد · وسأسافر الى باريس » فقال جيرى « تلقيت توا اشارة من زوجتك فهى فى طريقها لمقابلتك فى فندق كريون · لقد فزعت عليك حتى فقدت نصف عقلها · وقد خاضت الصحف فى الموضوع كثيرا كما تعلم » فقال لانى « شكرا لك أيها الصديق القديم على ما صنعت » فقال جيرى : « لم أصنع شيئا على الاطلاق · ولم أشعر قط فى حياتى بمثل هذا العجز » فقال لانى « من الجائز جدا انك أنقذتنى · وعلى كل حال هناك قصة طريفة فى طريقها اليك والى الملتقى! »

- ٥ -

وصل المسافر الى باريس قرب غروب الشمس ففاجأ ايرما فى الجناح الذى تشغله ، فجعلت تنظر اليه كأنه شبح ، وبدا عليها كأنما تخاف ان تلمسه ووقفت تحملق فيه كمن تتوقع أن تجده مشوها معطوبا فقال « أنا بخير يا حبيبتى » وأخذها بين ذراعيه ، فانفجرت باكية وهى تقول « أوه يا لانى · لقد عشت فى جحيم هذين الأسبوعين ! » فلما شرع يقبلها تباعدت عنه وحملقت فيه بأشد نظرة رآها قط على وجهها الهادىء عادة

وقالت « عدنى يا لانى • يجب ان تعدنى بانك لن تضعنى فى مثل هذا الموقف مرة أخرى ! » •

وهكذا كانت الحال بينهما ، فاستؤنف الجدل قبل ان يستانفا الحب • وسيكون الأمر على هذا النحو منذ الآن • فهو لم يشأ ان يعد بشيء ، ولم يرد ان يتكلم فى هذا الموضوع من هذه الناحية ، وهي لا تريد أن تتكلم الا فى هذا • لقد ظلت أسبوعين تتخيله ميتا ، أو ماهو شر من الميت ، وقد شوهه أولئك القراصنه • وكان لها كل الحق بطبيعة الحال فى ان تتخيل ذلك • فلم يستطع ان يقول لها ان ذلك كان منها بلاهة أو عدم تعقل • بل انه فى الواقع لم يستطع أن يرد عليها اطلاقا • وكانت تريد أن تسمع قصته ومع هذا لم ترد أن تسمعها أو تسمع أى شيء آخر الى أن يريح بالها بعهد يقطعه على نفسه انه لن يذهب الى المانيا مطلقا مطلقا مطلقا ! ولا تكون له صلة بذلك الشيء البغيض الشرير الذى يسمونه حرب الطبقات ، والذى يدفع الرجال والنساء الى الجنون والجريمة ويقلب الحياة المتحضرة الى كابوس •

وحاول جهده أن يهدئها ويسعدها ، ولكن بلا جدوى • فقد فكرت طويلا فى هذه المدة وقر قرارها • وكان عليه ان يقرر بسرعة • فهو اولا ينبغى الا يخبرها بكل ما حدث له فى بلاد هتلر ، فهذه قصة لمسامع الرجال فقط • اما سيدات آل هلشتاين فيخبرهن بالتعذيب • واما اتفاقه مع جورنج فلن يعرفه سوى روبى وريك • فالشائعات من هذا الطراز تلتوى وتتشوه كلما انتشرت • فيترتب على ذلك ان لانى ربما لصقت به سمعة تجعله عاجزا عن خدمة الحركة التى يحبها • لذلك قال لها الآن : « سيطرى على نفسك يا حبيبتى • أنا هنا ولم يصبنى ضرر من هذه المغامرة • وأما من أمر عاجل لا بد أن أقوم به ، فاعذرينى اذا تركتك لأستخدم التليفون • »

وتأذى شعورها ، وفى الوقت نفسه استيقظ فضولها • وسمعته يطلب أوليفى هلشتاين أى مدام بروساى ويخبرها انه وصل لتوه من المانيا وقد راى عمها سليمان ولديه أخبار خطيرة يبلغها اليها • ويعتقد ان امها وأباها أيضا ينبغى أن يسمعاها • فقبلت أوليفى ان تلغى موعدا للعشاء كى يذهب الى بيتها فى المساء •

ولم يرد ان ياخذ معه ايرما ، وقضى وقتا عصيبا فى ازالة استيائها• فما جدوى تعريضها لمحنة مشاهدة منظر مأساة عائلية ؟ فلا بد له أن يخبرهم بأن النازى يضربون بقسوة شقيق بير هلشتاين ليحصلوا على

النقود المهربة وبطبيعة الحال سيبقون وربما استولت عليهم حالة هستيرية، فاليهود يحبون المال حبا جما ، ويحبون أقاربهم ، وفيما بين هذين الحبين ستعانى أسرة هلشتاين صراعا وعذابا ٠

وبطبيعة الحال أرادت ايرما أن تعرف كيف تسنى له ان يعرف هذه الأمور أو يراها ؟ ومر به وقت عصيب وهو يراوغها لأنه لم يرد أن يقول لها « لقد حبسنى جورنج هنا عمدا كى يتسنى لى أن أذهب بعد ذلك وأخبر آل هلشتاين ٠ وهذا هو ثمن افراجه عن فريدى » والواقع انه لا جدوى من ذكر اسم فريدى اطلاقا ، فمن الواضح ان ايرما لا يعنيها أمره ، حتى انها لم توجه اليه سؤالا واحدا عنه ٠ فما تريد أن تعرفه هو : هل سيكون لها زوج من غير أن تتعرض للجنون خوفا ٠ وجعلت تنظر الى لانى الآن وكأنه غريب ، والواقع انه كان غريبا عنها بجانب من نفسه على الاقل جانب جديد مصر لا بد أن يمضى فى طريقة الذى يختاره من غير أن يتحدث عن ذلك الطريق كثيرا ٠ وقال « انى مدين لاوليفى هلشتاين بوجوب اخبارها بما اعلم ٠ وأظن أن الانسانية تقضى بمحاولة انقاذ ذلك السيد العجوز الموجود فى برلين ان استطعت ٠

هذه هى المسألة اذن ! انه مستمر فى انقاذ الناس ! الواحد منهم تلو الآخر ، وهم أناس لا تشعر نحوهم ايرما باهتمام خاص ٠ انه أشد اهتماما بانقاذ سليمان هلشتاين منه بانقاذ راحة بال زوجته ، وانقاذ حبهما الذى تعرض أيضا لعذاب حجرة التعذيب ! ٠

- ٦ -

كان المشهد الذى جرى فى بيت السيدة دى بروساى الانيق الباذخ أليما على نحو ما توقعه لانى تماما ، فثمة تلك الام الضخمة التى فحصته ذات مرة خلال منظارها المرصع بالماس لترى هل يصلح وسيلة لانجاب مزيد من سلالة آل هلشتاين ٠ وكان هناك بيير هلشتاين الوالد المائل الى البدانة كشقيقه فى برلين الا انه أصغر سنا وأكثر أناقة ، وشاربه مصبوغ ٠ وكانت هناك اوليفى فى أوج نضج جمالها وكانت قد وجدت لانى شخصية رومانسية وهى فتاة ، ولم يزل هذا الرأى يخامر عقلها الباطن ، وقد تزوجت من ارستقراطى فرنسى مسيحى لم ير من واجبه أن يكون حاضرا ، وبدلا منه حضر أخواها وهما شابان نشطان من رجال الاعمال يبدو عليهما الاهتمام العميق ٠

وأخبرهم لانى بما شاهد وعرف من غير ان يخفى عنهم شيئا ، وهم بدورهم لم يحرموه من شيء من بكائهم وتأوههم وعصر أكفهم بعضها ببعض. وقال لهم انه كان يتوقع أن يكون الضــحية التالية فوق آلة الجلد ، ولم ينقذه من ذلك الا حسن طالعه لأن صديقا له من الضـــباط سمع بمحنته فوصل فى الوقت المناسب كى ينتزعه من أيديهم . ولم تكن هذه القصة معقولة فى نظرهم .

ولم ينتظر لانى الى أن يسمع قرارهم بدفع الفدية للنازى ، واستنتج ان ذلك سيقتضى اتصالات تليفونيه بالعواصم الاخرى وهذا ليس من شأنه. وسألوه هل القصة التى أخبرهم بها سرية . فقال لهم انها ليست سرية اطلاقا ، وفى رأيه ان الجمهور يجب أن يعرف ما يحدث فى بلاد النازى ، وان كان يشك فى ان النشر يمكن أن يؤثر على موقف أعدائهم منهم .

- ٧ -

أما وقد فرغ من أداء واجبه فقد اتسع له الوقت يتودد الى زوجته ويعمل على رد راحة بالها اليها . ولما اكتشفت أنه يحاول الا يخبرهـــا بقصته ازداد فضولها . فاختلق صيغة مخففة من القصة تدور حول جهوده لشراء خروج فريدى من داخاو ، وكانت ايرمـــا تعلم ان هذه كانت خطته ابتداء . ثم قال لها انه وهوجو قبض عليهما فحبس فى سجن مدينة ميونيخ البهيج . وكان فى وسعه ان يمضى فى سرد التفاصـــيل عن ذلك المكان بحيث تبدو القصة متعة تماما ، وزعم لها ان مشكلته الوحيدة هناك انهم رفضوا الســماح له بالاتصـــال بالعـــالم الخارجى . وكان ذلك بسبب الاضطراب الذى ترتب على « حمام الدم » . وقالت ايرما ان الصحف فى لندن كانت حافلة بالكلام عن هذا الموضوع ، حتى انها اقتنعت فى قرارة نفسها بانها صارت أرملة . فقال لها « كنت تصلحين ارملة فاتنة » ولكنه لم يستطع حملها على الابتسام . وأرادت أن تعرف منـــه « وماذا تنتظر الآن ؟ » فاخبرها انه عقد اجتماعا مع فورت فينجلر وان لديه أملا حقيقيا فى اطلاق سراح فريدى فى الايام القليلة التـــالية . ولم يفكر فى طريقة تجعل قوله هذا معقولا ، وايرما نافذة الصبر تريد الرحيل معه الى انجلترا. ولكن لا . فلا بد له من البقاء فى هذا الفندق طول اليوم . انها المسألة القديمة ، مسألة انتظار نداء تليفونى لا يأتى مطلقا ! كانت تريد الابتعاد عن كل ما يذكرها بأيام الشقاء ولياليه تلك ، بما فى ذلك فريدى وراحيل

وسائر أفراد أسرة روبن • وربما بدت قاسية بعض الشيء ، ولكن لانى ادرك انها مدفوعة باحساسها الطبقي والمشاعر المرتبطة بسلالتها • فهي تريد أن تمنح وقتها واهتمامها لمن تعتبرهم مهمين فى نظرها ، فامها فى انجلترا ، وكذلك فرانسس • ولديها قصص جديدة عن فرانسس ، وهذا موضوع يمكن ان يتحدثا فيه فيسود بينهما السلام • بل لعله الموضوع الأوحد تقريبا •

ولما كان فى فندق كريون أكثر من خط تليفوني واحد فقط استطاع لانى ان يستمتع بطرف محادثات طويلة المدى من غير ان يعوق بذلك الحديث البالغ الاهمية الذى ينتظره من برلين ، فطلب والدته التى ذرفت كثيرا من الدموع لم يكن فى الامكان لسوء الخط نقلها عبر الاسلاك •واتصل بريك وأخبره بلغة متحفظة بما لديه من آمال • واتصل باميلى شترزورث ودعاها للقدوم وتناول الغداء مدركا ان ذلك يسر ايرما ، وجاءت اميلى مستثارة الفضول وتقبلت منه قصته الملفقة التى أخبر بها زوجته . وكانت مسألة سليمان هلشتاين قد انتشرت فى باريس كلها كما تنبأ جورنج وسمعت بها اميلى وأرادت أن تتحقق منها . فقال لها لانى انه كان تحت التحفظ فى برلين ، وهناك وصلت اليه أنباء ما وقع للشقيق الاكبر لنصف دستة من الاشقاء أصحاب البنوك فى أوربا .

وكتب لانى أيضا خطابا طويلا الى أبيه أنباه فيه بالقصة الحقيقية ، وخطابا اقصر منه الى هانس وبيس اللذين ذهبا الى امريكا الجنوبية مع والدهانس • وكان الابن يبيع الأنغام الجميلة والأب يبيع المصنوعات الحديدية بما فيها البنادق • ولم يكن الزوجان الاحمران يريدان الذهاب لولا أن الأبوين استخدما سلطتهما بالتضامن • فمجرد وجود أحمرين شهيرين فى اوربا يمكن أن يثير النازى وقد يحبط جهود لانى لمساعدة فريدى • ولم ترق هذه الحجة للزوجين الشابين ، الا انه لم يكن لديهما رد عليها •

- ٨ -

وفى الصباح الباكر جاء الاتصال التليفوني من برلين ! انه صوت الملازم الأول فورت فينجلر المرح يناديه « أنباء طيبة يا هر بد ! لقد كلفت ان أبلغك اننا مستعدون لتخليه سبيل صديقك • » وعانى الرجل الواقف عند طرف الخط التليفونى فى باريس وقتا عصيبا كى يحتفظ بثبات صوته

وهو يقول « أين سيكون ذلك يا سيادة الملازم الاول ؟ » فقال الضابط « هذا أمر تقرره انت » فقال لانى « أين هو الآن ؟ » فاجابه « فى ميونيخ » فسأله لانى « اتفضل مكانا قريبا من هناك ؟ » فأجابه « تعليماتى تقضى بأن تحدد انت المكان » .

وتذكر لانى القنطرة التى كان قد عبر عليها نهر الراين فى طريقه الى ميونيخ ، وهى المكان الذى دخلت منه الطفلة مارى انطونيت أرض فرنسا فيما مضى ، فقال « هل القنطرة القائمة بين كيل وستراسبورج مكان مناسب لكم ؟ » فأجابه الضابط « تمام المناسبة » فقال لانى : هناك أسرع منك . فحدد انت الوقت » فقال لانى « ليكن الساعة العاشرة من صباح الغد » فقال الضابط « اتفقنا . سوف لا أكون هناك شخصيا لذا أغتنم الفرصة الآن لأشكرك على مجاملاتك الكثيرة واتمنى لك كل سعادة » فقال لانى « زوجتى معى فى الحجرة وتود أن تبعث اليك والى زوجتك بتحياتها » فقال الضابط « بلغها تحياتى وشكرى . وأنا واثق بأن زوجتى تشاركنى هذه المشاعر وداعا » .

هكذا تكون صيغة التخاطب . فلماذا يعجز الناس عن أن يعيشوا على هذا المنوال حقيقة .. ؟

- ٩ -

وقال لانى لزوجته « الآن ياعزيزتى احسبنا نستطيع أن نذهب الى بيتنا وننعم بالراحة » وكانت دهشتها عظيمة وأرادت ان تعرف كيف بالله استطاع أن يصل الى هذا ؟ فقال لها « كانوا يحاولون العثور على مواضع بعض أصدقاء فريدى ورفاقه . وفى استنتاجى انهم ظفروا بهم الآن ، فلم يعد ذا نفع لديهم . وقد يكون أيضا ان جورنج يظن ان فى وسعه الاستفادة بى فى المستقبل » فسألته أمزمع انت أن تصنع له شيئا ؟ » فأجابها « لن أفعل له شيئا ما استطعت ذلك . ولكن هذا كله بينى وبينك وينبغى ألا تتفوهى بكلمة منه لأحد حتى ولا لآمك وأمى . » فسرها أن يكون لها المكان الأول فى ثقته ، ووعدته بذلك .

واتجه الى التليفون وطلب الاتصال بصديقه المخلص فى كان وقال له « يا جيرى اعتقد اننى ساحصل على فريدى ، وهاك مهمة أخرى لك . اتصل براحيل فى بيانفينى وأخبرها أن تستعد ثم هاتها بالسيارة الى ستراسبورج . لا تتأخر لأننى لا أعرف على الاطلاق فى أى حالة سيكون

فريدى • وهى الوحيدة التى يجب أن تكون موجودة لتتخذ القرارات بشأنه • وانت تعرف أى نوع من البشر نتعامل معهم • ولا استطيع أن اضمن شيئا فى اى أمر يتصل بهم ، بيد أنى أعتقد ان فريدى سيكون هناك فى الساعة العاشرة غدا ، والأمر يستحق من راحيل أن تستعد لهذه الفرصة • اركب سيارة بيوتى من بيانفينى ان أحببت وانصحك أن تأتى عن طريق وادى الرون وبيزانسون ومولهوز • قد السيارة طول الليل ان استطعت تحمل هذا العبء ودع راحيل تنام فى المقعد الخلفى • وسأكون فى فندق مدينة باريس باستراسبورج » •

وواجهت لانى مشكلة اخرى دقيقة • فهو لا يريد ان يأخذ ايرما فى هذه الرحلة ، وفى الوقت نفسه لا يريد أن يجرح مشاعرها • فقال لها « تعالى ان اردت ، ولكنى أقول لك ان التجربة قد تكون اليمة ، ولن يكون بوسعك أن تصنعى الشىء الكثير » فسألته « لماذا طلبت منى الحضور الى باريس يالانى ان لم تكن بحاجة الى عونى ؟ » فأجابها « لقد طلبت حضورك لانى أحبك ولانى أريد أن أراك ، ولأنى أعتقدت أنك تريدين أن ترينى • وانا ريد عونك فى كل شىء يعنيك أمره ولكنى لا اريد ان أجرك الى أمر لا تميلين اليه • انا لم أر فريدى ، وكل تصورى له من قبيل التخمين ، فقد يبدو الآن أشبه بشيخ مسن ، وقد يكون مريضا أو على شفا الموت وقد يكون مشوها بطريقة مفزعة ، وقد يكون فاقد العقل تماما • فمهمة زوجته أن تعنى به وتمرضه ليعود الى الحياة ، وهذه ليست مهمتك أنت • ولذا امنحك الفرصة لتجنبى نفسك تجربة اخرى مضنية » • فأجابته « سنكون جميعا غارقين فى هذه التجربة اذا استمرت هذه الأسرة تقيم فى بيانفينى » فقال « قد تضطر راحيل لنقله الى مستشفى • وعلى كل حال لن نعود الى هناك قبل الخريف • وهانس وبيس يربحان مالا كثيرا ، وكذلك يوهانس • لا شك عندى فى ذلك • وقد يحبون أن يستقلوا بسكن خاص بهم • وهذه كلها مسائل متعلقة بمستقبل الأيام ، ويتوقف جانب كبير منها على حالة فريدى • ولذا اقترح أن اتركك لدى اميلى الى أن أعود• وقد طلبت من جيرى احضار راحيل فى سيارة كى يستطيع أخذها الى أى مكان تشاء وبذلك نكون انا وانت حرين فى تحركاتنا • ويوجد فى باريس مصح به جراح عالج مرسيل عندما اقعد واصيب بالحروق • ولم يزل هذا المصح قائما ، وقد اتصلت به تليفونيا واخبرتهم أننى قد ارسل اليهم مريضا من قبلى » • فهتفت « أوه يالانى ! كم يكون سرورى لو اسطعنا ان نخصص بعض الوقت لأمورنا الخاصة ! » فقال « نعم يا حبيبتى • هذه فكرة عظيمة وستبدو انجلترا بديعة بعد أن انفض يدى من هذه المهمة •

وأنا متلهف على معرفة ماصنعه ريك فى الفصل الأخير من مسرحيته ؛ وربما استطعت أن أمده ببعض الملاحظات » •

ولم يدرك زلة لسـانه الا بعد أن راى التقطيب على وجه ايرما • يالمسكين لانى ! سيعانى وقتا عصيبا ريثما يتعلم كيف يفكر فى أمر نفسه !

- ١٠ -

تم ايداع ايرما فى قصر ليه فوريه ، وهو مكان تستحب الاقامة فيه فى منتصف يوليو • وفى خمس عشرة سنة استطاعت غابات الزان النبيلة أن تصلح شأن نفسها ، وأنسام الصيف لم تعد تحمل أدنى أثر لألوف الفرنسيين والألمان المدفونين هناك • ولما كانت اميلى أشبه بأم فى الرضاع لزوج ايرما ، وكان لها ضلع كبير فى عقد هذه الزيجة ، فقد توفرت لهما موضوعات حديث لاتنفد وحاولت السيدة المسـنة أن تقنع هذه الثرية بلباقة وكياسة أن كل رجل لابد أن تكون له نقائص تقابل مزاياه ، وانه قد توجد نقائص أسوأ فى الزوج من فرط الاهتمام بغيره من النـاس وسخاء اليد •

وفى هذه الأثناء كان لانى يتجه فى سيارته بسرعة كبيرة فوق طريق خلوى بديع يتجه شرقا صوب نهر الراين • وهذا الطريق الى حد ما هو بعينه الطريق الذى اجتازه الملك والملكة الهاربان فى عربتهما المقفلة الثقيلة وغير بعيد من هذا الطريق الى الجنوب تقع فارين حيث تم القبض عليهما وارجاعهما الى باريس حيث قطع رأساهما • ان البشر يعانون العذاب ، ومصائرهم تغدو أساطير لمن بعدهم ، ويكتب الشعراء القصائد عنهم ، ويؤلف الكتاب المسرحيون المسرحيات ، فيغدو ذكر هذه المآسى الغابرة مصدر لذة حاضرة • وهذا وجه الغرابة فى كيمياء النفس البشرية •

وتناول المسافر عشاءه على الطريق ، ووصل الى غايته بعد منتصف الليل • ولم تكن ثمة فائدة فى النظر الى قنطرة خالية ، ولم تكن حالته النفسية تسمح بمشاهدة الكاتدرائيات ، ولو كانت أقدمها • فتوجه الى الفراش ونام وفى الصباح أفطر بفاكهة ووصلته برقية من جيرى تقول أنهما فى بيزانسون وأنهما قادمان فورا • ولا جدوى من الذهاب الى المكان المتفق عليه قبل الموعد ، ولذا طالع لانى صحف الصباح الصادرة فى هذه المدينة التى تداولتهـا الأيدى مرارا كثيرة ولكنها فى الوقت الحـاضر

فرنسية . وقرأ فى الصحف أن أدولف هتلر دعا مجلس رايشستاجة الأليف للاجتماع فى دار أوبرا كرول والقى فيهم خطبة طالت ساعة ونصف أخبرهم فيها بمدى عذاب روحه لأنه اضطر لقتل كل هذا العدد الكبير من اقدم اصدقائه وأنصاره . ولما انتهى من الخطبة جلس خافض الراس حسيرا ، فى حين وقف جورنج يقول للعالم اجمع كيف أن هتلر هو الزعيم المقدس المعصوم من الخطأ ، واقر المجلس هذا القول باجماع الآراء .

وأثارت هذه القراءة أفكارا كثيرة فى ذهن لانى وهو يقود سيارته ثلاثة اميال او أربعة نحو قنطرة كيل . ثم اوقف سيارته ومشى على قدميه الى منتصفها . لقد حضر قبل الموعد ووقف عند السياج يحدق فى هذا النهر الكبير العتيق عاليه ومنخفضه . فلا خير فى أن يستثير نفسه فى صدد مهمته . لأنها ستنجح ان كانت مزمعة ان تنجح ، وأن لم تنجح فسيذهب الى أقرب تليفون ويتصل بالملازم الأول ويسأله عن السبب ، فلا جدوى فى تعذيب نفسه بالمخاوف حول ما سوف يراه . فمهما تكن حالة فريدى فهو لن يزال فريدى ، وسوف يصلحون من شأنه على خير وجه مستطاع . والى أن يحين الوقت فلينتظر الى أعماق هذا المجرى السريع وليتذكر أن عرائس الراين كن يسبحن هنا ويعابثن القزم البيريش . ولعلهن مازلن يسبحن سورن فى أذنيه نغم القرار المتواتر فى أوبرا ذهب الراين ، وكأنه دوى النفير . وفى مكان ما فوق هذه المرتفعات على طول هذا المجرى جلست لورلاى ومشطت شعرها الذهبى بمشط ذهبى وتغنت بأغنية رائعة العذوبة ، حتى ان النوتى فى الزورق الصغير استولى عليه افتتان جامح فلم يفطن للشعب الصخرية الكامنة تحت سطح الماء وهو يحملق نحو الاعالى ، فابتلعت الأمواج فى نهاية الأمر النوتى والزورق معا . وبغناء اللورلاى العجيب تم هذا كله ، وهى كارثة أخرى حولتها كيمياء النفس الى مصدر للسرور !

وبعد كل دقيقة أو دقيقتين كان لانى ينظر الى ساعته . فقد يحضرون قبل الموعد ولكن لا . فذلك خطأ مثل الوصول متأخرين ، لأن الدقة شعار الألمان ومصدر اعتزازهم . وعندما يتاهب عقرب الدقائق فى ساعة لانى أن يتجاوز قمة الميناء . ستقبل سيارة رسمية كبيرة نحو خط المنتصف فوق القنطرة حيث يمتد حاجز يدل على أن الجانب الشرقى منهـا المانى والجانب الغربى فرنسى . فان لم يحدث هذا بالضبط فسيكون معنى ذلك أن الساعة غير مضبوطة ، لا ان الخلل فى جانب الضبط والربط الالمانيين. وكان لانى قد سمع وهو غلام حكاية من مستر هكيبورى العجوز صانع الصابون عن مزارع طلب ساعة جديدة انتقاها من سجل للبيع بالبريد ،

وخرج الى حقله ومعه الساعة والتقويم وقال « ان لم تظهر الشمس فوق هذا التل فى مدى ثلاث دقائق ، فهى متأخرة عن موعدها ! » •

- ١١ -

ها هى السيارة قادمة ! سـيارة من طراز مرسيدس بنز يرفرف فوق مقدمتها علم صغير رسم عليه الصليب المعقوف ، يقودها سائق يرتدى الزى الرسمى لكتائب الأمن بما فى ذلك الخوذة الفولاذية • ووقفت السيارة عند الحاجز ، فى حين وقف لانى فوق آخر قدم من الأرض الفرنسية وقلبه فى فمه • ونزل من السيارة رجلان من ذوى القمصان السود وشرعا فى مساعدة الراكب بينهما على الهبوط منها •

فهرس

الموضــوع	الصفحة

الدار القومية للطباعة والنشر

فبراير ١٩٦٧


Exclusive
For
www.ibtesama.com